المنظمة العربية للترجمة

ألسندرو دورانتي

الأنثروبولوجيا الألسنيّة

ترجمة

فرانك درويش

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

الأنثروبولوجيا الألسنيّة

لجنة اللسانيات والمعاجم:

بسّام بركة (منسقاً)
إسماعيل عمايرة
حسن حمزة
سامي عطرجي
عبد القادر الفاسي الفهري
صالح الماجري

المنظمة العربية للترجمة

ألسندرو دورانتي

الأنثروبولوجيا الألسنيّة

ترجمة

فرانك درويش

مراجعة

قاسم البريسم

الفهرسة أثناء النشر - إعداد المنظمة العربية للترجمة
دورانتي، ألسندرو
الأنثروبولوجيا الألسنيّة/ ألسندرو دورانتي؛ ترجمة فرانك درويش؛ مراجعة قاسم البريسم.
639 ص. ـ (لسانيات ومعاجم)
ببليوغرافيا ص 569 ـ 629.
يشتمل على فهرس.
ISBN 978-614-434-022-6
1. الأنثروبولوجيا. 2. اللغات. أ. العنوان. ب. درويش، فرانك (مترجم). ج. البريسم، قاسم (مراجع). د. السلسلة.
306.44

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات تتبناها المنظمة العربية للترجمة»

Duranti, Alessandro
Linguistic Anthropology

المنظمة العربية للترجمة
بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 5996 ـ 113
الحمراء ـ بيروت 2090 1103 ـ لبنان
هاتف: 753031 ـ 753024 (9611) / فاكس: 753032 (9611)
e-mail: info@aot.org.lb - Web Site: http://www.aot.org.lb

توزيع: **مركز دراسات الوحدة العربية**
بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: 6001 ـ 113
الحمراء ـ بيروت 2407 2034 ـ لبنان
تلفون: 750084 ـ 750085 ـ 750086 (9611)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت / فاكس: 750088 (9611)
e-mail: info@caus.org.lb - Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى: بيروت، آب (أغسطس) 2013

إلى تلاميذي

المحتويات

مقدمة المترجم

حاولت أن أكون مخلصاً لفكر دورانتي ولغته.

هناك مصطلحاتٌ عديدة في هذا الكتاب، البعض منها معروف في العربية والآخر قد يبدو غريباً أو صعب المنال. حاولتُ قدر الإمكان أن أجد ترجمة عربية محضة لكلّ المفردات المستنبطَة في الألسنية، وقد اعتمدتُ دائماً على النص لتحديد المعنى، ممّا أدّى إلى ترجمة مصطلح واحد بطرقٍ مختلفة أحياناً.

سيجد القارئ أدناه بعض الكلمات الإنجليزية الأكثر استخداماً في الألسنية، مع ترجمتي لها، آملاً أن يساعد ذلك الطالب والباحث على فهم النص.

أودّ أن أضيف أنّ هذا الكتاب دقيق وشامل وواضح، بالرغم من بعض الفقرات الصعبة الّتي حاولتُ ترجمتها بتصرّف ولكن من غير أن أترك ولو كلمة واحدة دون أن أترجمها. أردتُ أن يحصل القارئ العربي على نفس المعلومات والأفكار والتجربة الّتي يحصل عليها القارئ الّذي يتقن اللغة الإنجليزية.

أرجو أن يحثّ هذا الكتاب القارئ على اكتشاف المزيد عن

الأنثروبولوجيا الألسنية كمجال علمي يتطوّر كلّ يوم بفضل أعمال الباحثين الناشطين.

فرانك درويش

مقدّمة

حصلت تحوّلات عدّة في نطاق الأنثروبولوجيا الألسنيّة في العقود الأخيرة. سأقدّم في هذا الكتاب بعضاً من ميّزاتها الأساسيّة. لم أسع إلى كتابة دراسة شاملة عن وضع الأنثروبولوجيا الألسنيّة الحالي، بل سعيت إلى انتقاء ما يهمّنا اليوم وتجنّبت ما أعتقد أنّه يكوّن الكليشيه المعتادة والقائلة بأنّ الأنثروبولوجيين الألسنيين تقنيّون يقومون بعمل وصفي وغير نظري ويعلمون الكثير عن التحليل الفونيمي (Phonemic) والألسنيّة التاريخيّة، واللغات "الغريبة" (Exotic)، وبإمكانهم تعليم هذه الموادّ لتلامذة الألسنيّة الذين ربّما قد تعبوا من دروسهم في كليّات الألسنيّة. هذا الكتاب ليس عملاً يودّ الإجابة عن كلّ ما يتساءل عنه الأنثروبولوجيون الألسنيّون وغيرهم من علماء الاجتماع دون أن يجرؤوا عليه، بل هو صُمّم كنظرة معيّنة إلى الأبحاث الحاليّة في نطاق اللغة والثقافة. هذه الرؤيا تخصّني أنا ولكنّها تتناغم أيضاً مع أعمال الكثير من الباحثين النشطاء في كليّات الأنثروبولوجيا، والألسنيّة، وعلم الاجتماع، والفولكلور، ودراسات الأداء، والفلسفة، والموسيقى الإثنية، والتواصل. من غير المهمّ أن يرى الباحثون الّذين أوردتهم واستخدمت نظريّاتهم في كتابي، في دراستهم عملاً يحتوي على أفكار تخصّ الأنثروبولوجيا الألسنيّة، بل

ما يهمّ هو اهتمامهم باللغة كموردٍ ثقافي وبالكلام كممارسة ثقافيّة، واعتمادهم على الإثنوغرافيا كعنصر جوهري في أبحاثهم، وتأثّرهم الفكري بموارد فلسفيّة يجدونها في علوم الاجتماع والعلوم الإنسانيّة. توحّدهم الأهميّة المعطاة للممارسات التواصليّة كجوهر ثقافة الحياة اليوميّة ونظرتهم إلى اللغة كأداة قويّة وليس كمرآة لوقائع اجتماعيّة أسّست في مكان آخر.

يمكن اعتبار التركيز على تاريخ ومنطق وأخلاقيّة الأبحاث في هذا الكتاب عملاً غير معتاد في حقل الألسنيّة، ولكنّه سائد بين الأنثروبولوجيين لكونهم يهتمّون منذ زمن طويل بشؤون التمثيل وبتأثير أعمالهم على المجتمعات الّتي يدرسونها.

توجّب علي، كما يتوجّب على كلّ من يكتب كتاباً تمهيديّاً، أن أختار، لكلّ فصلٍ وقسم وفقرة، بين طرقٍ عدّة لشرح المفاهيم، وقمت في الوقت نفسه بإيجاد صلات مع حقول علميّة أخرى، أو أمثلة رأيتها في دراسات عدّة أو وجدتها في أبحاثي الخاصّة. ووجدتُ صعوبة في تسوية النزاع الذي قام في عملي بين رغبتي في تبسيط الكتاب وسعيي في الوقت نفسه إلى أخذ الموارد التاريخيّة بعين الاعتبار، فلم أستطع أن أعطي مجالاً للكثير من الكتّاب المهمّين. فقلتُ مثلاً القليل عن ثلاثة مجالات دراسيّة تقليديّة في علم الأنثروبولوجية الألسنيّة، وهي التغاير اللغوي، والألسنيّة المتوازية، والبِدجينيّة واللغات الكريبوليّة. ولكن تهتمّ كتب أخرى من هذه السلسلة بهذه المواضيع، ككتاب هادسون في **الألسنيّة الاجتماعية** وكتاب باينون في **الألسنيّة التاريخيّة**. وقد قلتُ أيضاً القليل عن مصطلحات ألسنيّة تقليديّة كالتضمّنات (Implicatures) والافتراضات التحادثيّة ؛ فقد دُرست بشكلٍ كافٍ في كتاب ليفينسون عن **البراغماتيّة** أو في كتاب براون ويال عن **تحليل الخطاب**، في هذه السلسلة

نفسها. وأخيراً عليّ القول أيضاً إنني لم أتطرّق إلّا من بعيد إلى الأعمال المزدهرة الّتي تدرس التأهيل الاجتماعي للّغة، كما وأنّني لم أُعنى بدراسة الأعمال الحاليّة العديدة المختصّة بدراسة معرفة القراءة والكتابة والتربية. أرجو أن تتضمّن الكتب الّتي ستصدر في هذه السلسلة دراسات عن هذه المواضيع المهمّة، بشكلٍ يرضي القرّاء.

يكمّل أيضاً هذا الكتاب الكتب الأخرى الصادرة في هذه السلسلة لكونها تهتم بشكلٍ خاص بالثقافة وبمنهج دراستها. وقد كرّستُ فصلاً كاملاً للنظريات الثقافيّة الحاليّة. وكتبت أيضاً فصلين يعنيان بالمناهج المتّبعة: الأوّل بالإثنوغرافيا والثاني بطرق نقل الخطاب الشفهي. وتناولتُ أخيراً عدّة نماذج فكريّة - التحليل البنيوي، نظريّة فعل الكلام، تحليل المحادثة - من وجهة نظر مساهمتهم في النظريّة الأنثروبولوجيّة للّغة.

يستهدف هذا الكتاب التلاميذ الجامعيين في آخر سنوات البكالوريوس أو في ما بعدها في حلقات دراسيّة متقدّمة عن الأنثروبولوجيا الألسنيّة أو كما يقال غالباً عن "اللغة أو في الثقافة". يمكن للمعلّمين الذين يحبّون التحدّيات استعمال بعض الفصول في صفوف السنوات الجامعيّة الأولى لدراسة الثقافة والتواصل. فقد نجحتُ مثلاً في استعمال الفصول عن النظريّات المتعلّقة بالثقافات وبالإثنوغرافيا مع تلاميذ السنة الأولى. أعتقد أيضاً أنّه بإمكان الأساتذة أن يكملوا ما قد ينقص من فصول الكتاب بإضافة بعض المقالات أو الدراسات المكرَّسة في الأنثروبولوجيا الألسنيّة. وأحدّد أخيراً بأنّه يمكن استعمال كلّ فصلٍ بشكلٍ مستقلّ. فيمكن إذاً للتلاميذ والباحثين المهتمّين بمواضيع أو نماذج علميّة معيَّنة أن يختاروا من دون قلق الفصول الّتي يودّون قراءتها.

اكتشفتُ يوماً، عندما كنت طالباً في جامعة روما، مكتبةً صغيرة

في الطابق الثالث لكليّة الآداب والفلسفة. وكانت مليئةً بالكتب والمجلّات المختصّة باللغة، ولم أكن قد سمعتُ بمعظم أسمائها. تعرّفت في ما بعد على الّذين كانوا يأتون إلى تلك المكتبة - من أساتذة وطلاب وباحثين من إيطاليا ومن بلدان أخرى - وتطوّر فضولي حتّى أحببتُ أن أدرس تلك الكتب وأصبح ملمّاً بدراساتها اللغويّة. وبقيت هذه الفضوليّة عندي خلال كلّ تجاربي الشخصيّة كطالب دكتوراه أو كباحثٍ وأستاذٍ جامعي. وقد عمدت في الوقت نفسه إلى تطوير نظريّةٍ جديدة تدعو إلى تطوير مفهوم للّغة كصوتٍ وأداةٍ وأساسٍ لكلّ تجربة إنسانيّة. وأودّ أن أبيّن كلّ ذلك في هذا الكتاب.

تنويه

لقد عملت في السنوات الخمس والعشرين الماضية على دراسة عدّة حقولٍ ونماذج فكريّة بحثاً عن طرقٍ لدراسة اللغة تسمح بالحفاظ على غنى التبادل اللغوي كما نعرفه ونعيشه في حياتنا ولقاءاتنا اليوميّة. حاولتُ إذاً للمرّة الأولى أن أجمع كلّ هذه الطرق في هذا الكتاب. وقد وجّهني في عملي الكثير من الأساتذة والزملاء، فاقترحوا علي نماذج تواصل وتفكير وتبادلٍ ذات علاقةٍ وطيدةٍ باللغة كقوّةٍ متغايرة بنيويّة ومبنيّة بالتعاون وكنظام أدوات بين أدوات أخرى، وكمخزون علميّ بين علومٍ أخرى، وكمورد علاماتي بين موارد أخرى، وكأصواتٍ وعلاماتٍ خطّية بين أشياء أخرى نجدها في عالمنا. كنتُ محظوظاً جدّاً في بداية السبعينات في جامعة روما، إذ إنّي كنتُ محاطاً بمجموعةٍ من الشباب الباحثين عن طرقٍ جديدة للصلات الممكنة بين اللغة والفكر والثقافة. وكان من بينهم جيورجيو رايموندو كاردونا، وهو أوّل من عرّفني على الأنثروبولوجيا الألسنيّة وشجّعني على صياغة مقالتي الأولى عن مستويات الكلام الكوري. وتزامنت من ثمّ دراساتي الجامعيّة العليا في كلّية الألسنيّة في جامعة كاليفورنيا الجنوبيّة في الولايات المتّحدة مع ما أعتبره العهد الذهبي لهذه الكلّية وحتّى ربّما لكلّ الدراسات الألسنيّة في الولايات

المتّحدة، حيث يلتقي ويتحدث بسهولة الكثير من الأساتذة والطلاب من مجتمعات ودراسات مختلفة، وكانوا يعتقدون جميعاً عدم وجود نموذج واحد لا غير للإجابة عن كلّ الأسئلة أو كطريقة أحادية لقياس نجاح أعمال الباحث. كانت لي تجربتان في الأعمال الّتي قمتُ بها بعد الدكتوراه، أولاهما في الجامعة القوميّة الأستراليّة، في كلّية الأنثروبولوجيا التابعة لمعهد أبحاث دراسات بلاد المحيط الهادئ في سنتي 1980 و 1981، وفي مختبَر الفكر الإنساني المقارَن في جامعة كاليفورنيا في سان دييغو في سنتي 1983 و 1984 وقد أعطتني التجربتان انفتاحاً على عدّة مجالات فكريّة، منها اهتمامي باستعمال التكنولوجيا الجديدة في الأبحاث والتعليم، وعلم النفس لدى فيغوتسكي (Vygotsky)، وألسنيّة باختين (Bakhtin). كان لي عدّة وظائف في الثمانينات في جامعة روما، وفي الكليّة الجديدة المدعوّة (Studi Glottoantropologici) في جامعة كاليفورنيا في سان دييغو (كلّية التواصل)، وفي معهد بريتزر، حيث علّمتُ الألسنيّة، واستعمال الحاسوب الإلكتروني كأداة، ودراسة وإنتاج السينما. وقد سمحت لي هذه الوظائف بأن أتبادل الآراء مع الكثيرين، ممّا أبقى فكري ناشطاً وإيجابياً خلال السنوات الصعبة الّتي عشتها، حيث لم أكن متأكداً من إكمال حياتي المهنيّة في العالم الجامعي. أعطتني وظيفتي في الأنثروبولوجيا الألسنيّة، في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس في سنة 1988، مجالاً مثاليّاً للعمل، ممّا أدّى مؤخّراً إلى تأسيس مركزٍ لدروس علميّة متعدّدة حول اللغة والتفاعل والثقافة. يبدو من البديهي لي أن يحتوي هذا الكتاب على أصوات وأفكار الباحثين العديدين الّذين تبادلتُ الآراء معهم في هذه المؤسّسة وغيرها في العقود الماضية. أنا مدين بالأخصّ إلى شخصٍ من بينهم، ألا وهو زوجتي إلينور أوكس (Elinor Ochs)، وهي أكثر الأنثروبولوجيين الألسنيّين إبداعاً. وضحت لي إلينور تكراراً، سواء

أكان ذلك في عملنا الميداني في غرب ساموا أو في الأبحاث الّتي قُمتُ بها في جامعة أ. ن. و. (ANU) ومن ثمّ مؤخَّراً في سنواتي الماضية في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلس، كيف يمكن تحويل الحدس والصلات البسيطة الأولى إلى قصص يمكن أن نشرك فيها السامعين. آمل أن يكون هذا الكتاب إحدى تلك القصص.

لقد أعطاني البعض رأيهم في المسوّدات الأولى لهذا الكتاب. فصحّحت إليزابيت كيتينغ (Elizabeth Keating) المسودّة الأولى، موضحةً بشكلٍ فعّالٍ المحتوى والصيغة؛ وأعطتني رووان هنري (Rowanne Henry) وجينيفر شليغل (Jennifer Schlegel) وديانا ويلسون (Diana Wilson) تعليقات مفيدة عن عدّة فصول؛ وساعدتني جينيفر رينولدز (Jennifer Reynolds) وميليسا ليفكو (Melissa Lefko) على إيجاد إسنادات. وأودّ أن أشكر خصوصاً آصف آغا (Asif Agha) وليزا كبس (Lisa Capps) لاقتراحاتهم العديدة وتشجيعهم لي خلال عملي على المسودة الثانية. وأنا أخيراً مدينٌ بالكثير إلى أربعة زملاء راجعوا عملي لصالح دار كامبردج للطباعة، وهم جين هيل (Jane Hill) الّتي قرأت وأعطت رأيها عن مسودتين للكتاب وبول غاريت (Paul Garret) وسوزان روماين (Susanne Romaine) وبامبي شيفلين (Bambi Schieffelin). وأنا أرجو أن تكون تعليقاتهم وأسئلتهم قد جعلت هذا الكتاب مفيداً وسهل القراءة. وتعود إليَّ بالطبع أيّ عيوب يمكن إيجادها في هذا المؤلَّف.

جاءتني فكرةُ هذا الكتاب عندما كنتُ مع محرّرتي جوديث أيلينغ (Judith Ayling) في مقهى كونغو في سانتا مونيكا في ربيع سنة 1992 . لم تكن تعرف عندها كلّ ما سيكلّفها ذلك من العمل والرسائل الإلكترونيّة. أودّ أن أشكر جوديث من كلّ قلبي لتشجيعها لي ولقراراتها الحكيمة في مراحل عدّة من تشكيل هذا المؤلَّف.

ومن ساعدني بالأخصّ على تأليف هذا الكتاب، ربّما دون أن يبان ذلك، هو عائلتي. يعود الجوّ الدافئ والمحفّز على العمل، والّذي ألقاه في بيتي مع إلينور، إلى محبّة وكرم ابننا ماركو وإلى تعطّشه الخاصّ للمعرفة. وكان أيضاً دعم أهلي العاطفي والماديّ لعائلتنا خلال فصل الشتاء، الّذي يقضونه معنا في كاليفورنيا، ثميناً جدّاً بالنسبة لي. أمكنني، بين عيد الميلاد المجيد وعيد الفصح، أن أجلس لأكتب على الحاسوب الإلكتروني أو لأقرأ بعض المقالات، فقط لأنني كنتُ أعرف أنّ أمّي كانت تحضّر وجبة عشاء لذيذة وأنّ أبي كان يرمّم السطح كلّ مرّة بطريقة جيّدة ورخيصة.

أودّ إهداء هذا الكتاب للذين جعلوا منه عملاً ذا معنىً وأهميّة، أي إلى تلاميذي. يطلب الكثير من الطلّاب بشكلٍ غير مباشر، وخلال ساعات الدروس في السنوات الجامعيّة الأولى أو في الصفوف الجامعيّة العليا، أن أعلّمهم شيئاً عن اللغة خارج النطاق الجامعي للبحث وشريعته ومن داخل الحياة نفسها ومعانيها. أعترف بالطبع بعدم إمكاني القيام بذلك حاليّاً بشكل كامل أو كافٍ، ولكنّني أعتبر ثقتهم بي وبمقدرتي على القيام بذلك يوماً ما مكافأة على سعي لإيجاد التواصل بين الأجيال والثقافات بالرغم من وجود الحدود والعقبات. أعتبرُ هذا الكتاب اعترافاً بسيطاً وصادقاً حول أهميّة ثقتهم لي ودعوةً أوجّهها إليهم لكي نكمل حديثنا معاً.

الفصل الأول

نطاق الأنثروبولوجيا الألسنيّة

يستهلّ هذا الكتاب بفرضية مفادها أن الأنثروبولوجيا الألسنيّة فرع مستقلّ من المعرفة يستحق الدراسة لإنجازاته الماضية ولتطلّعه إلى المستقبل كما نجده في أعمال مجموعة صغيرة من الباحثين مفعمة بالنشاط في عدّة مجالات. أسست أعمالهم المتعلّقة بطبيعة اللغة كأداةٍ اجتماعية وبالكلام كممارسةٍ ثقافيّة ميداناً لأبحاثٍ أعطت معانيَ جديدة للتقاليد الحاضرة والماضية المعتمدة في العلوم الإنسانية والاجتماعية وتدعو الجميع إلى أن يفكّروا بشكل جديد في العلاقة بين اللغة والثقافة.

إن الأنثروبولوجيا اللغوية مجال حقول متداخلة من المعرفة يعني أنّها تستمد الكثير من مجالات أخرى مستقلّة وبالأخصّ من المجالين اللذَين يشكّلان اسمها، أي علم اللغة والأنثروبولوجيا. سأقدّم في هذا الفصل الأنثروبولوجيا الألسنيّة على انها فرع مستقلّ من المعرفة.

سأتكلّم لاحقاً بعمقٍ عن بعض ميّزات هذا الميراث الفكري أكثر من الأخرى مُبيّناً أيضاً كيف أنّ الأنثروبولوجيا اللغوّية تمكّنت، خلال العقود القليلة الماضية، من أن تُنشئ هويّةً لنفسها. الهدف الأوّل لهذا الكتاب هو أن يقدّم تفاصيل هذه الهويّة وأن يفسّر كيف بإمكانها أن

تحسّن مفهومنا للّغة ليس فقط كنوع من الفكر بل أيضاً وبالأخصّ كنشاطٍ ثقافي، أي كنوع من العمل الّذي هو في الوقت نفسه يعتمد على وجود معيَّن في العالم ويأتي بنفسه بهذا الوجود. فقط عندما نتطلّع إلى اللّغة بهذه الطريقة يمكن للأنثروبولوجيا اللغوّية أن تستمرّ في تأثيرها المُبدِع على حقول المعرفة الّتي تستمدّ منها وأن تسهم بشكلٍ فريد في مفهومنا لمعنى كيان الإنسان.

1.1. تعاريف

بما أنّ لمُصطلح **الأنثروبولوجيا الألسنيّة** أو لتسميته الأخرى، أي **الألسنيّة الأنثروبولوجيّة**[1] حاليّاً عدّة معانٍ، يتوجّب أن نوضّح دلالتها في هذا الكتاب. القيام بذلك في بداية الكتاب يضعني في موقف صعب، إذ إنّ كلّ الكتاب مخصص للتعريف بهذا الفرع من المعرفة، ولذلك لا يمكنني أن أفسّر بشكل كامل ميّزاته العديدة والفروع المشتقة منه في بعض ملاحظات تمهيدية. في الوقت نفسه، من المهمّ أن ندرك بأنّه يتوجّب أن نعطي فكرة، ولو بسيطة، عن

---

(1) استُعمل المصطلحان "الأنثروبولوجيا الألسنيّة" و"الألسنيّة الأنثروبولوجيّة" تقريباً من دون تمييز في الماضي، وأي محاولة لإيجاد فروق دلاليّة أو عمليّة قد تقود إلى خطر إعادة كتابة التاريخ. حاول هايمز (Hymes) أن يثبّت استعمال مصطلح الأنثروبولوجيا الألسنيّة في عدّة مقالات في بداية الستّينات (Hymes 1963, 1964c). ولكن حتّى هايمز، وبالرغم من كونه مؤرخاً شديد التفحّص، نجده يستعمل المصطلحين من حينٍ إلى آخر. في كتابه: *Language in Culture and Society* يستعمل عبارة "الأنثروبولوجيا الألسنيّة" عندما يعرّف بهذه المادّة في المقدّمة - (Hymes 1964 a: xxiii) انظر أيضاً أدناه الهامش رقم 6 - وعبارتي "الأنثروبولوجيا الألسنيّة" و"الألسنيّون الأنثروبولوجيون" عندما يتكلّم عن تأثير بواس (Boas): "بواس وأخصائيون آخرون في الأنثروبولوجيا الألسنيّة..." وفي المقطع التالي، (Boas et al. : 1916) "حدّد أسلوباً يميّز طريقة عمل بواس وجيل أو أكثر من الألسنيين الأنثروبولوجيين الأميركيين" (ص 23).

العمل الذي يقوم به فرع المعرفة الذي ندرسه في هذا المؤلَّف. سأبدأ إذا بتعريف بسيط لمادّة الأنثروبولوجيا اللغوّية ومن ثَمّ أتوسّع في بقيّة الفصل وأوضّح لماذا تبدو سهلة. يجب أن أقول هنا أنّ الكثير مما سيُذكر في هذا البحث قد سُمي أيضاً **بالألسنيّة الإثنية**، وقد كانت شعبيّة هذا المصطَلح محدودة في الولايات المتّحدة في أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات (Olmsted 1950; Garvin and Riesenberg, 1952)، ولكنّه كان شائعاً في الأبحاث الأوروبيّة[2]، ربّما لأنّ الأوروبيين قد فضّلوا حتّى عهد متأخِر "الأثنولوجيا" وتوابعها على "الأنثروبولوجيا"[3]. كما سيتضح في باقي هذا الفصل، إنّ اختياري "للأنثروبولوجيا اللغوّية" بدلاً من "الألسنيّة الأنثروبولوجيّة" أو "الألسنيّة الإثنية" يعود إلى محاولتي المتعمّدة تقوية وإعادة تحديد دراسة اللغة والثقافة كفرع أساسي من الأنثروبولوجيا. لقد أعطى هايمز (Hymes) رؤية واضحة لهذا الحقل الفكري (277 :1963) عندما عرّفه "دراسة الكلام واللغة في سياق الأنثروبولوجيا".

---

(2) يذكر كاردونا (Cardona) (1973، طبعة جديدة 1990 : 13-44) عدّة تعابير مشابهة للتعبير الإنجليزي الألسنيّة الإثنية (Ethnolinguistics) في لغات أوروبيّة أخرى، كالإثنولينغفيستيكا (Etnolingvistika) في الروسية، الإثنولينجويستيك (Ethnolinguistique) في الفرنسية، الإثنولينجويستيك (Ethnolinguistik) في الألمانية، الإثنولينجويستيكا (Etnolingüistika) في الإسبانية والإتنولينجويستيكا (Etnolinguistica) في البرتغالية. حتى كاردونا نفسه تبع هذه النزعة تاركاً اللينجويستيكا أنتروبولوجيكا (Linguistica Antropologica) ليستعمل مكانها الإتنولينجويستيكا (Etnolinguistica) في مقدّمته لهذا الحقل الفكري (Cardona 1976).

(3) استعمل مالينوفسكي (Malinowski) عبارة الإثنولينجويستيك (Ethno- Linguistic) في كتاباته الأولى: "هناك حاجة ماسة لنظرية إثنولينجويستيكية (Ethno- Linguistic)، لنظرية تقود الأبحاث الألسنيّة في ما يخصّ السكّان الوطنيين وما يتعلّق بالدراسات الإثنوغرافية" (1920 : 69).

يعتبر هذا الكتاب بكلّ بساطة الأنثروبولوجيا اللغويّة هي **دراسة اللغة كثروة ثقافيّة والكلام كممارسة ثقافيّة**. بما أنّها في صلبها تكوّن حقل معرفة متداخلاً، فهي تعتمد على تطور المناهج الموجودة في حقول أخرى، بالأخصّ الألسنيّة والأنثروبولوجيا، بهدف إعطاء مفهوم لأوجه اللغة العديدة كمجموعة من الممارسات الثقافيّة، أي كنظام تواصل يوجد تصوّرات بسيكولوجية متبادَلة بين الأشخاص وداخليّة في نفس الفرد للنظام الاجتماعي ومساعدة الناس على استعمال هذه التصوّرات للقيام بأعمال ثقافيّة تأسيسيّة. بما أنّهم متأثّرون بأعمال عدّة أنثروبولوجيين مهمين من بداية هذا القرن قد جعلوا من اللغة نظرية أساسية وأداة لا غنى عنها في الأنثروبولوجيا الثقافيّة، يعمل الأنثروبولوجيون اللغويون على إنتاج تقارير تعتمد على الإثنوغرافيا عن التركيبات اللغوية كما يستعملها الناس فعلاً في زمان ومكان فعليين. مما يعني أنّ الأنثروبولوجيين اللغويين يرون موضوع دراستهم، أي **المتكلّمين**، أساساً وقبل كلّ شيء **كعاملين اجتماعيين**، أي كأعضاء في جاليات محدّدة وذات تركيبة معقّدة مشوّقة، كلّ منها منظّمة من خلال عدّة مؤسسات وبواسطة شبكة من مجموعات من التوقّعات عن العالم والمعتقدات والقيم الأخلاقيّة، التي تتلاقى دون أن تتداخل ضرورة.

بعكس التعاريف الماضية لهذا الحقل وبعض المفاهيم العامّة البسيطة لهذا المصطلَح عند بعضٍ من غير الأخصّائيين، إنّ الأنثروبولوجيا الألسنيّة في هذا الكتاب ليست مرادفة لدراسة يقوم بها الأنثروبولوجيون كما يقومون بغيرها في هذا المجال. وليست أيضاً مساوية لمجموعة النصوص "المتنوّعة" (Exotic) التي يدرسها الأنثروبولوجيون ـ أي نصوص ينتجها أعضاء مجتمعات أميّة غير

متقدّمة تكنولوجياً[4]. إنّ إعطاء تقرير خطي عن لغة يتكلّمها شعب ليس لديه كتابة ـ في الغابة البرازيلية أو في صحراء كالهاري ـ لا يجعل مما ينجزه أنثروبولوجياً لغوياً. ما يميّز الأنثروبولوجيا الألسنيّة عن الدراسة أو المعاينة اللغويّة من جهة والتقرير الإثنوغرافي من جهة أخرى، يكمن في الأهداف والمناهج الخاصّة بهما.

ما يميّز الأنثروبولوجيون اللغويون عن باقي من يدرس اللغة لا يكمن فقط في اهتمامهم بكيفية استعمال اللغة ـ فباحثون، لَهجاتيّون وبالأخصّ ألسنيّون اجتماعيّون أخر يهتمّون بذلك أيضاً (Hudson, 1980)، ولكن بتركيزهم على اللغة كمجموعة من وسائل رمزيّة تدخل في مكوّنات المجتمع وفي تصوّرات الأفراد للعالم كما هو أو كما يمكن أن يكون. يسمح هذا التركيز للأنثروبولوجيين الألسنيّين أن يعملوا بشكل خلّاق على دراسة بعض القضايا والمواضيع التي هي في قلب الأبحاث الأنثروبولوجية كمسائل التمثيل، وتكوين السلطة وتشريع القوى، والأسس الثقافيّة للعنصرية، والنزاع العرقي والتأهيل الاجتماعي والإنشاء الثقافي للشخص أو للنفس والمسائل المختصّة بالعواطف والعلاقة بين الأداء الطقسي وأشكال التحكّم بالمجتمع، والمعرفة والإدراك المتعلّقَين بمجالاتٍ معيَّنة، والأداء الفنّي ومسائل استهلاك الفن، والعلاقات الثقافية، والتغيُّر الاجتماعي.

تعتبَر الأنثروبولوجيا الألسنيّة في أغلب الأحيان أحد الفروع الأربعة التي تشكّل الأنثروبولوجيا إلى جانب الأنثروبولوجيا الأثرية، الأنثروبولوجيا البيولوجية أو الطبيعيّة، والأنثروبولوجيا الثقافيّة

---

(4) إنّ موقفي هنا يختلف تماماً عن موقف هوير (Hoijer) (110 :1961) الذي يعرّف الأنثروبولوجيا الألسنيّة "...كمجال أبحاث يهتمّ بالأخصّ بالدراسات المتزامنة والتاريخيّة للشعوب التي لا تملك لغة خطيّة".

الاجتماعيّة[5]. ولكن كون الشخص أنثروبولوجياً وعمله في مجال اللغة يمثّلان شرطَين لا يكفلان بالضرورة تسمية الباحث بالأنثروبولوجي الألسني. يمكن فعلاً أن يكون الشخص أنثروبولوجياً وأن يعطي دراسة معينة للغة معيّنة من دون أن يساهم ذلك بشيء في ما يتعلّق بنظريّات ومناهج الأنثروبولوجيا الألسنيّة. يتوجّب اعتبار الأنثروبولوجيا الألسنيّة قسماً من مجال الأبحاث الكبرى التي تشكلها الأنثروبولوجيا ليس لكونها نوعاً من الألسنيّة كما تُعتمد في دوائر الأنثروبولوجيا الجامعيّة، ولكن لأنّها تعاين اللغة من خلال عدسة الشؤون الأنثروبولوجيّة. تتضمّن هذه الشؤون نقل واستمرار الثقافة، العلاقة بين الأنظمة الثقافيّة وأشكال التنظيم الاجتماعي المختلفة، برنامج ودور الحالات المادّية للوجود في فهم الناس للعالَم. لكنّ هذه الرؤية للأنثروبولوجيا الألسنيّة لا تعني أنّه يجب على الأسئلة التي تطرحها في أبحاثها أن تكون مشتقّة من فروع الأنثروبولوجيا الأخرى. فبالعكس، يمكن تبرير وجود الأنثروبولوجيا الألسنيّة كفرع مستقل فقط إذا كان بإمكانها الاحتفاظ بملامحها الخاصة، التي تمليها القضايا الأنثروبولوجيّة دون أن تكون مقيدة بالضرورة بهذه القضايا[6]. بالأخصّ، وكما سأشرح لاحقاً، لا تقود كلّ الرؤيات الخاصة بالثقافة داخل محور الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافيّة بشكل مماثل إلى الديناميكية والأفكار المعقّدة للّغة كما يعتمدها معظم الأنثروبولوجيين

---

(5) لتلبية حاجات هذه المناقشة دمجتُ مصطلحَين مختلفَين سائدَين: الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة - وهي تختصّ بالتكرار المتواصل للأنظمة الاجتماعية - والأنثروبولوجيا الثقافية وهي تدرس الأفكار الثقافية الخاصّة بالإدراك كما اقترحها بواس وتلاميذه.

(6) إنني هنا أعيد صياغة التعريف الّذي أعطاه هايمز (1964a: xxiii): "[الأنثروبولوجيا الألسنيّة] هي، نوعاً ما، عمل مميَّز يخصّ هؤلاء الذين، في أسئلتهم عن اللغة، يتنبّهون إلى الأنثروبولوجيا... قد يتضمّن مجالها مسائل لا تخصّ ما تهتمّ به الألسنيّة، وهي تتضمّن دائماً وبشكلٍ فريد من نوعه مسألة تكاملها مع بقية الأنثروبولوجيا".

الألسنيين حاليّاً. لا يزال معظم الأنثروبولوجيون يرون اللغة بالأخصّ كنظام تصنيف وتصوّر، وعندما تستعمَل الألسنيّة على أشكالها العدّة في الدراسات الإثنوغرافية، تستخدَم هذه الأشكال لتصنيف معانٍ وُضعت بشكل مستقلّ. يشدّد الأنثروبولوجيّون الألسنيّون على أن اللغة مجموعة من الممارسات التي تلعب دوراً أساسيّاً في إيصال الجوانب التصوّرية والمادّية لحياة الإنسان، وكذلك أيضاً في إيجاد طرق معيّنة لكيان الشخص في العالم. تعطي هذه الرؤية الديناميكية للّغة مكاناً فريداً للأنثروبولوجيا الألسنيّة بين علوم الإنسان والعلوم الاجتماعيّة.

2.1. دراسة الممارسات الألسنيّة

تبدأ الأنثروبولوجيا الألسنية كمجال أبحاث، من فرضيّة نظريّة أنّ الكلمات لها أهميّة ومن النتائج التجريبية التي أوضحت أنّ الإشارات اللغويّة، هي تصوّرات للعالم وطرق تواصل معه، لا يمكن أبداً أن تكون محايِدة؛ فهي تُستعمل دوماً لبناء التجاذبات والتمييزات الاجتماعية. يعود نجاح البِنيويّة الباهر في حقول الألسنيّة، والأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية الأخرى نوعاً ما إلى أن الكثير من التفسيرات هي عملية مقارَنة، مما يستلزم التمييز. يزيد الأنثروبولوجيون الألسنيون إلى هذه الملاحظة البديهية أنّ الاختلافات لا تكمن فقط في مجموعة القواعد الرمزية التي تمثّلها. لا تعود الاختلافات إلى استبدال صوت بآخر (/ pit/ بدلاً من / bit/) أو كلمة بأخرى **مروحتك الكبيرة**، بدلاً من **كلبك الكبير**. تكمن الاختلافات أيضاً في عملية الكلام الفعلية، في المزج بين الكلمات والعمل، وفي إبدال العمل بالكلمات. علّمنا البنيويون أن ننتبه إلى ما لم يقل، إلى الأسئلة والأجوبة غير المتوقّعة، إلى الصمت غير المرغوب به في أحيان كثيرة رغم أنّه ممكن ولذلك يتضمّن مغزىً

مهماً (Basso 1972; Bauman 1983). عندما نفكّر بما قيل ومقارنته مع ما لم يُقل، نؤسس خلفية محدّدة نستعملها لتقييم ما يقال (Tyler, 1978). ولكن إلى أي بُعد وأي عمقٍ علينا أن نذهب؟ ما هي مستويات التحليل الكافية؟ هذا السؤال لا يتعلّق فقط بعدد الأقوال والمتكلمين واللغات التي يتوجب دراستُها. بل يتعلق أيضاً بدور الإثنوغرافيا، بجدارتها وبحدودها. ويتعلق كذلك بمدى الظواهر التي نعتبرها ذات علاقة بكيان اللغة وبما تقوم به. ويمتدّ هذا المدى إلى ما لا نهاية، ولكن يحدّه بالفعل عمل الإنسان وفكره. إذ لا يمكننا أن نفكّر بالعالم وأثره في نفس اللحظة، وأن معظم ما يقوم به الأنثروبولوجيون الألسنيّون يعود إلى دراسة كيف يمكن للكلمات التي نستعملها في وضع ما أن تعطي للمشاركين أوّلاً وللباحثين فيما بعد وجهة نظر معيَّنة، طريقة خاصّة في التفكير بالعالَم وبطبيعة وجود الإنسان. وكما قال لنا فلاسفة الماضي، الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يفكّر بنفسه مُفكّراً. يرتبط هذا الوعي الإنساني كثيراً بالتصوُّر الرمزي، وكذلك بالقدرة اللغويّة أيضاً. ولكنّ اللغة أكثر من أداة للتفكير تسمح لنا بإيجاد معنى لأفكارنا وأعمالنا. استعمالنا للّغة يسمح لنا أيضاً أن ندخل في مجال تبادل قد صُمّم ووُضع لنا قبل أن نأتي إليه، عالم حيث يبدو أنّ لبعض الاختلافات أهميّة أكثر من غيرها، عالم حيث كلّ خيار لنا يعتمد على ما قد حصل من قبل ويساهم في ما سيحدث فيما بعد.

لنأخذ مثلاً مسألة التحيّات. في الكثير من المجتمعات، تأخذ التحيّات شكل أسئلة عن صحّة الشخص كعبارة "كيف حالك؟" بالإنجليزية. أمّا في مجتمعات أخرى، فتحتوي التحيّة على سؤال عن المكان الذي يودّ الشخص أن يذهب إليه، مثلاً قول الناس في بولنيزيا "أين تذهب؟" حسب ما يقول فيرث (Firth, 1972). يمكننا

أن نسأل الكثير من الأسئلة وأن نفترض عدّة أشياء عندما ندرس هذه الظواهر. هل تُعتَبر هذه الأسئلة صياغات مبتذَلة؟ وإن كان ذلك صحيحاً فلماذا تهمّ كيفية الجواب؟ هل يُظهر محتوى هذا التبادل اللغوي شيئاً عن من يقومون به، عن أجدادهم، أو عن الإنسانية بشكلٍ عام؟ لماذا يحيّي الناس بعضهم بعضاً؟ كيف يعرفون **متى ولمن** تتوجّب التحيّة؟ هل تُعلمنا التشابهات والاختلافات بين التحيّات في اللغات المختلفة، في الجاليات اللغويّة وأنواع اللقاءات في داخل الجالية الواحدة أيّ شيءٍ ذي أهميّة **عن المتكلّمين أو لمتكلّمين؟**

بالرغم من أنّ الأنثروبولوجيا الألسنيّة تعرَّف أيضاً بأساليبها الإثنوغرافية (انظر الفصل 4)، ليست هذه الأساليب فريدة من نوعها؛ إذ توجد فروع أخرى من المعرفة تعمل على البحث التجريبي في سلوك الإنسان وتستعمل أساليب مشابهة ولو لم تكن مماثلة. يعطي الأنثروبولوجيون الألسنيّون أيضاً الكثير من الأهمية لعمليات الكتابة، أي لطرق تدوين الكلام وغيره من الأعمال الرمزية ومن ثمّ لكيفيّة جعلها في متناوَل اليد لكي تكون بدءاً موضوع تحليلٍ ومن ثَمّ للجدليّة من خلال عدّة اصطلاحات اتُّفق عليها وتكنولوجيات جديدة (انظر الفصل 5). ولكن، هناك فروع علمية أخرى لها خبرة في هذه المجالات. وإن كان بإمكان الأساليب المتّبعة أن تساعد على إقامة شدّ ومدّ خلاّقَين بين النظريات والأفعال، فهي مع ذلك لا تستنفذ أو تكفي لتعريف ما يجعل كلّ فرع علمي فريداً من نوعه.

الفريد من نوعه في ما يخصّ الأنثروبولوجيا الألسنيّة يكمن في مكان آخر، وهو أنّها تهتمّ بالمتكلّمين كفاعلين اجتماعيين وباللغة كمورد ومنتج للتبادل الاجتماعي، بالجاليات اللغوية ككيانات هي في الوقت نفسه حقيقية وخيالية وتجد حدودها تتغيّر ويُتفاوض عليها

بشكلٍ دائم من خلال الكثير من عمليات الكلام. لقد أسّست الأنثروبولوجيا الألسنيّة جزئيّاً على أعمال الألسنيّين البُنيويين، ولكنّها تعطي وجهة نظر أخرى على موضوع دراستهم، أي اللغة، وتقوم في النهاية بصياغة موضوع دراسة جديد. يحتوي هنا الموضوع الجديد على "هبة اللغة" كما يتحدّث عنها النحويّون الشكليون الذين يشدّدون على الأسس البيولوجية للمقدرة اللغوية (Pinker 1994)، ولكنّ لها مجموعة اهتمامات أخرى أيضاً وبالتالي توقّعات أخرى لأبحاثها.

كما سنرى في الفصول الآتية، يعتبر النحويون اللغة كنظام قواعد شكلي يُستعمل لمزج عناصر الفونيمات منفصلة وفي الوقت نفسه خالية من المعاني لكي تأخذ معنى (مورفيم) (Morphemes)، وتُمزج بدورها لتكوّن وحدات على مستوى أعلى (كلمات، عبارات، جمل). الفصل الضمني الذي نجده في الألسنيّة البُنيوية بين اللغة كمنظوم نظري واللغة كمنظوم فعلي يحصر نظريتهم في مجال ظواهر معيَنة[7]. لقد أدّى هذا النوع من المثالية إلى تقدم ملموس في فهم الخصائص الشكلية للغة. ولكن هدفها الأعلى ما يكمن في فهم دور ومكان الأشكال والمحتويات اللغوية (بما فيها القواعد) في حياة الأشخاص والجماعات، بل في الخصائص العامّة لفكر الإنسان كما تُستمدّ من الخصائص الشكلية للأنظمة اللغوية المستنتَجة من دراسة البديهة. من وجهة النظر هذه لا يُعتبر المتكلّمون أكثر من ممثلين للإنسانية **المجرَّدة**. يعتبَر ما يمكن أو لا يمكن لمتكلم معيَن أن يفعله أو للهجة معيَّنة أن تفعله بالمقارنة مع الآخرين ذات أهميّة، فقط إذا

---

(7) أفكّر هنا بالتفرقة الّتي أعطاها سوسور (Saussure) (1959) ومن ثمّ قام تشومسكي (Chomsky) بتحديدها مستعملاً عبارتَي القدرة والأداء (Chomsky 1965) أولاً ولغة-الد (I- Language) ولغة-الخ (E-Language) (Chomsky 1986) أي لغة الداخل ولغة الخارج.

كشف شيء عن عقل الإنسان وعن قدرتنا اللغوية الفطرية. تدرس الكثير من الأبحاث الألسنيّة الحاليّة قدرتنا على الكلام بدلاً من أن تدرس الكلام نفسه. لهذا السبب تدرس معظم الألسنية الرسمية المعاصرة ومن هنا جاءت دراسة الإنسان البعيد والمجرد (Homo Sapiens) من قبل معظم النحويين الرسميين، بدل من أن تدرس الأولاد في أحد أحياء فيلادلفيا أو الخطباء "الأكان" في غانا. أمّا الأنثروبولوجيا الألسنيّة فإن من أهدافها ومواضيع دراستها، كما تصفها الروائية طوني موريسون (Toni Morrisson) (1994)، أن التأكيد اللغة هي قياس حياتنا. لهذا السبب يركّز الأنثروبولوجيون الألسنيّون عادةً على الأداء اللغوي وموقع الحديث. بدلاً من أن يركّزوا على ما يجعلنا متساوين في الإدراك والمعرفة، يعمل الأنثروبولوجيون الألسنيّون أيضاً على دراسة قدرة اللغة على إيجاد التمايزات أو السماح لها بالوجود ـ بين المجموعات، الأشخاص أو الهَويات.

اللغة هي الأداة الفكريّة الأقوى والأكثر مرونة بين تلك التي ابتكرها الإنسان. إحدى قدراتها العديدة تكمن في استطاعتها التفكير بالعالم وحتّى بنفسها. يمكن استعمال اللغة للكلام عن اللغة (انظر الفصل 3). بشكل عام، وكما يبيّن لنا ميخائيل سيلفرشتاين (Michael Silverstein) (1976b, 1981, 1993)، أمكانية إعطاء وصفٍ للثقافات وبالتالي مصير الأنثروبولوجيا الثقافية يعتمد على مدى إمكانية لغة معيّنة أن تسمح للمتكلّمين بها أن يتلفظوا بما تصنعه الكلمات في حياتهم اليوميّة. كما عرف منذ البداية بواس (Boas)، ومالينوفسكي (Malinowski) وبقيّة مؤسّسي الأنثروبولوجيا الحديثة، فاللغة هي الّتي تفسّر الأحداث الّتي يراقبها العالم الإثنوغرافي. في ما مضى، قبل أن يقترح الأنثروبولوجيون المفسّرون التفكير بالثقافة كنصّ مكتوب، كانوا يعودون إلى بيوتهم محمّلين بنصوص، أي دفاتر مليئة

بالوصف، بالقصص، بقائمات أسماءٍ وأشياء، ببعض الرسوم وببعض الترجمات السيّئة. المهم كانوا يستمعون إلى قصص وأن يجمعوا معلومات عن الناس، العلاقات بينهم، الأماكن والأحداث. لهذا السبب يتوجّب أيضاً أكثر على كلّ الإثنوغرافيين أن يصبحوا من أخصّائيي تحليل الخطاب.

ولكنّ الثقافة لا تكمن فقط في القصص الّتي يحكيها أعضاؤها، بل تتجلّى أيضاً في اللقاءات الّتي تجعل سرد تلك القصص ممكناً، في أنواع التنظيمات الّتي تسمح للناس بالمشارَكة أو لا، تؤهّلهم أو تتركهم غير مؤهَلين، تمكنّهم من أن يعطوا الأوامر أو أن ينفّذوها، من أن يسألوا الأسئلة أو يجيبوا عنها. كما سأبيّن في الفصول القادمة، أن يكون الباحث إثنوغرافياً ألسنياً (يجب أن تكون) لديه الآلية الّتي تسمح له أن يسمع ومن ثمّ أن يستمع بعناية إلى ما يقوله الناس عندما يجتمعون سويةً. عليه أيضاً أن يتعلّم كيفية فهم الناس الذين يتحدّثون مع بعضهم، ما الّذي يعتبرونه ذا أهميّة **بالنسبة إليهم**، ما الّذي ينتبهون إليه ولأي غرض. المسجّلات وكاميرات الفيديو تساعد على ذلك كثيراً بالطبع، ولكنّنا بحاجةٍ أيضاً إلى آليّات تحليل متطوّرة. ما أقوله عن **وحدات التحليل** في هذا الكتاب ينبع من الفكرة الّتي تقول إنّ التحليل يعني تقسيم جريان تجربة الحياة المتواصلة التي تميز نظرة الشخص للعالم كقطع حيث تسهُل دراستها بعد عزلها والتدقيق فيها، كما نأمل أن لا يكون مرتَجلاً وأن بالأمكان إعادته. تطبيق الطريقة الأنثروبولوجية للعمل في ما يخصّ قضيّة إقامة وحدات تحليليّة يقودنا إلى محاولة معرفة ما إذا كان التقسيم الذي نقوم به يوازي ما يعتقده الّذين تتمّ دراستهم. مع الأسف (أو ربّما لحظّنا، حسب وجهة النظر المتّبَعة)، لا يمكننا أن نسأل الناس إذا كان معقولاً لنا أن نقوم بما نقوم به من تحليلٍ لما يفعلونه مستعينين بلغة

المحلّلين. ليس بالحقيقة لمفاهيم مثل المورفيم، الجُمل، اللَعِب باللّغة، الأزواج المتجاوِرة أو إطارات المشاركين في الثقافة من معنىً خارج مثالٍ محدَّدٍ للدراسة. علينا إذا أن نجد مفاهيم تحليليّة تتناغم مع رؤى هؤلاء المشاركين دون أن نحوّل كلّ من يقدّم لنا معلومات إلى أنثروبولوجي يشاركنا في نظرتنا التحليليّة.

إنّ سعي الأنثروبولوجيين الألسنيّين إلى إيجاد أبعاد فكر الإنسان المطلوبة ومعايير تحديدها قد قادهم إلى الانتباه إلى تفاصيل اللقاءات وجهاً لوجه، وقد رأى بعض العلماء الاجتماعيين في ذلك دلالةً على الفصل بين التبادلات الّتي تُدرس والقِوى الاجتماعية العاملة خارج إطار هذه التبادلات. لهذا يقول بيار بورديو (Pierre Bourdieu) (1990; Bourdieu and Wacquant 1992) إنّ بعض التحاليل الّتي يقوم بها المحلّلون الألسنيّون والأنثروبولوجيون الألسنيّون هي نوعٌ من ما يسمّيه "مغالَطة المناسَبة" الّتي تأتي من اعتبار كلّ لقاء لقاءً يُصنع فور حاجتهم إليه. وبورديو يعتبر، عكس ذلك، أنّ عالم كلّ لقاء أيّاً كان تحدّده مسبَقاً علاقات عرقيّة، وجنسيّة، وطبقيّة أوسع (Bourdieu and Wacquant 1992: 144f).

ولكن كلّ الأنثروبولوجيين الألسنيّين يتّفقون على القول إنّه توجد هناك "علاقات أوسع" يمكن أن تكون مهمّة، بل وإنّ الكثير من العمل التجريبي في هذا الفرع من المعرفة مكرَّس لتأسيس طرق تسمح بالوصل بين الظواهر الصُغريّة الّتي يمكن تحليلها من خلال الأصوات المسجّلة والنصوص المكتوبة وخلفيّات العلاقات بين الناس، الّتي كثيراً ما تكون غير مرئية والّتي تأتيهم من قصصهم الشخصية ومن تاريخ مؤسّساتهم. الصعوبة الّتي نجدها أحياناً في إيجاد صلاتٍ كهذه ـ وعلينا طبعاً اليوم أن نعمل الكثير في هذا المجال ـ لا تدلّ دائماً على وجود ضعفٍ نظري أو سذاجة سياسية.

ما قد يبدو للأنثروبولوجيين الاجتماعيين الثقافيين كفجوة نظرية ليس سوى رفضٍ لاستعمال نظريّات وتصنيفات مشتقّة من عمل تجريبي. وكما القولُ الصحيح الذي يذكر مراراً وتكراراً بأن "كلّ تبادلٍ لغويّ يحتوي على **إمكانية** عملٍ ذي قوّة" (Bourdieu and Wacquant 1992: 145) يقود المحللون إلى تجاهُل تفاصيل كيفيّة إحداث هذا العمل فعليّاً. نرى مراراً وتكراراً أعمالاً تبدو وكأنّها تتبع نصوصاً تعتمد على الحكمة السياسية الحالية. هذه الحكمة اضافة إلى الانتباه لما نفعله كمحللين. بما أنّ أحد الأسئلة الإثنوغرافيّة الأساسيّة هو من المهتم بذلك؟

يجب أن نكون مستعدّين أن نقول إنّه في بعض الحالات هناك ما نعتبره مهمّاً بالنسبة إلينا، أنّنا **نحن** الحدَث، كما علّمنا الأنثروبولوجيون النقاد المعاصرون (Clifford and Marcus, 1986). ولكن لا يضُمّ ذلك ـ وما يرافقه من فكر عن النفس ـ كلّ ما تحتوي عليه أبحاثنا الفكريّة. علينا في أحيانٍ أخرى أن نحيد عن المحور الأساسي، أن نعلّق حكمنا، وبالتالي أن نتعلّم كيفيّة "تحييد أنفسنا"، لكي نتمكّن من سماع ما يقوله المتكلّمون بطريقة يُرجى أن تكون أقرب ـ ولو لم تكن مساوية ـ للطريقة الّتي سمعناهم بها. ما نعرفه عن الطبقة الاجتماعيّة للمشاركين، عن تاريخهم العائلي، أو عن جنسهم يعطينا جزءاً فقط ـ ولو كان من المحتمل أن يكون مهمّاً ـ من القصّة الّتي تصاغ. كما قالت سوزان غال (Susan Gal) (1989) نرى مؤَخّراً أنّ الدراسات التي تهتمّ بلغة النساء ترفض كلّ مثاليّة تسعى إلى تحديد ماهيّة "صوت المرأة" وفكرة الثقافة الخاصّة بالمرأة الّتي تشير إليها وتفترض وجود "ممارسات لغويّة ملتَبسة وأحياناً كثيرة متضاربة، تختلف بين إمرأة وأخرى بحسب المجموعات الإثنية الّتي تنتمي إليها، وتتراوح بين التكيّف أو المعارَضة، والتخريب، والرفض

أو إعادة بناء التعاريف الثقافيّة السائدة" (Gal 1989: 4). إذا أردنا التحدّث عن الجنس والكلام والقوّة، تقول غال (Gal)، علينا أوّلاً أن نكتشف ما يُعتَبَر قوّة وكلاماً قويّاً في كلّ الثقافات الّتي ندرسها أو فيما بينها. علينا أن نتقبّل إمكانيّة وجود معانٍ للقوّة تختلف بين ثقافة وأخرى. يعتبَر الأنثروبولوجيون الألسنيّون أنّ وجود معانٍ مختلفة للقوّة قد تمكّننا من إيجاد ممارسات لغويّة تختلف متأثّرة بالجنس، والطبقة الاجتماعيّة، والحدود الإثنية. ولكن لا يمكن تحديد هذه الاختلافات بشكلٍ نهائي فقط على أساس فرضيّة سيطرةٍ وهيمنةٍ لا علاقة لها باللغة.

يبدأ الأنثروبولوجيون الألسنيّون من فرضيّة وجود أبعاد للكلام لا يمكن إظهارها إلاّ عند دراسة ما **يفعله** الناس حقّاً باللغة في استعمالهم الكلمات، والصمت، وحركة الجسم بشكلٍ ينسجم مع سياق الكلام الذي تقال فيه هذه الإشارات أدّى برنامج البحث هذا إلى اكتشاف طرق عديدة للكلام كعمليّة اجتماعيّة وبالتالي إلى تقيّده بالعمل الاجتماعي. وقد سمح لنا ذلك أيضاً أن نرى كيف يمكن للكلام أن **ينتج** عملاً اجتماعياً وأن يؤثّر في طريقة وجودنا في العالم وفي الإنسانيّة في النهاية.

3.1. الأنثروبولوجيا الألسنيّة وفروع المعرفة الأخرى في علوم الإنسان والاجتماع

لقد توسّع حقل الأنثروبولوجيا الألسنيّة في السنين العشرين الماضية ليحتوي أو يستقطب حقولاً أخرى عديدة، كدراسات الفلكلور والأداء (Bauman 1975; 1977; 1986; Bauman and Briggs 1990; 1992; Briggs 1988; Hymes 1981) القراءة والكتابة والتعليم (Cook-Gumperz 1986; Heath 1983; Schieffelin and Gilmore

1986; Scollon and Scollon 1981; Scribner and Cole 1981) علم الاجتماع والإدراك (Cicourel 1973)، التفاعل الاجتماعي (Goffman 1961, 1963, 1972, 1974, 1981)، الإدراك الاجتماعي (Hutchins 1995; Lave 1988; Lave and Wenger 1991; Rogoff 1990; Rogoff and Lave 1984) واكتساب اللغة عند الطفل (Ochs and Schieffelin 1984; 1995; Schieffelin and Ochs 1986). تأثّر أيضاً بعض الأنثروبولوجيين الألسنيين بمجموعةٍ ناشطة من علماء النفس تهتمّ بالثقافات بالأخصّ ميخائيل كول (Michael Cole) وجيمس ويرتيتش (James Wertsch)، وقد استخدم هؤلاء في أبحاثهم في الولايات المتّحدة أعمال المدرسة النفسيّة الثقافيّة التاريخيّة السوفايتيّة الّتي يرأسها ليف فيغوتسكي (Lev Vygotsky) وأعوانه، وهم قد ساعدوا على إعادة إنعاش اهتمام علماء الإدراك والمجتمع بنظريّات علماء روسيّين آخَرين، بالأخصّ كتابات الناقد الأدبي ميخائيل باختين وأنصاره (Bakhtin 1968, 1973, 1981a; Clark and Holquist 1984; Cole and Griffin 1986; Vološinov 1973; Wertsch 1985a: 1985b: 1991). كما سنرى في فصولٍ تالية، إنّ لبعض المفاهيم الّتي وضعها هؤلاء العلماء، كالنشاط، والكلام المنقول، والصوت، واللغة في الاستعمال أو الهيتيروجلوسيا، دوراً كبيراً في النماذج العصريّة لاستخدام اللغة.

المنهج الإثني، كدراسة للمناهج الّتي يستعملها أعضاء المجتمع الناشطين لتفسير حياتهم اليوميّة (Garfinkel 1972)، أوردت أيضاً عدّة أفكار مهمّة ومُبدعة يستخدمها الباحثون الّذين يهتمّون بتطبيق المناهج الإثنوغرافية التقليديّة على دراسة الكلام اليومي. عندما يستخدم الأنثروبولوجيّون الألسنيّون طريقة العمل هذه، الّتي تتأثّر بفلسفة الظاهريّات، يستطيعون عندها أن يعرفوا أو أن يروا التأكيد على عدّة

بديهيّات متكررّة الحدوث تخُصّ بنية الثقافة والمجتمَع من خلال الملتقَيات التبادليّة. **أوّلاً** يجدون بسهولة علاقة بينهم وبين مبدأ المنهج الإثني القائل بأنّ التركيبة الاجتماعيّة ليست بمتغيّرٍ مستقلّ، يوجد خارج الممارسات الاجتماعيّة، إن كانت من الأصناف الاجتماعيّة كالـ"منزلة" والـ"دور" (Cicourel 1972) أو في افتراضات تخصّ الانتماء الجنسي للشخص (Garfinkel 1967) إنّ التركيبة الاجتماعيّة منتَج جديد من مُنتَجات التبادلات القائمة، ينتِج فيها أعضاء المجتمَع ثقافة باستعمال المناهج المحليّة (وهي عادةً ضمنية) للفهم ولإيصال ماهيّتهم وما يهمّهم. هذا يعني أنّ أعضاء المجتمَع يعملون على جعل كلّ أعمالهم (بما فيها الكلمات) مسؤولة أي عقلانيّة لأهدافهم العملية.

ثانياً، بما أنّ المعرفة ضمنيّة، لا يمكننا أن نقترب بكلّ بساطة من الناس وأن نسألهم عن ما يفكّرون به (يعطينا ذلك في معظم الأحيان المزيد من المعلومات للتحليل - وإذا تابعنا استعمال المقابلات فسنجد أنفسنا أمام رجوع إلى الوراء لا نهاية له). علينا إذا أن نراقب كيف يتفاعل الناس بعضهم مع بعض كلّ يوم وكيف يجدون حلولاً لمشاكلهم، كيف ينسجم شخص مثلاً مع آخَر، كيف يحصل على صديق ويحافظ عليه، كيف يسأل عن طريقه، يعطي أوامر، يملي وثيقة، يبحث عن عمل، يدفع غرامة مرور. عندما يقوم أعضاء المجتمع بهذه الأعمال اليوميّة، عليهم أوّلاً أن يضعوا انفسهم في موضع إدراك للآخرين. بما أنّ معظم المراقبة المتبادلة لما يحدث في أي تفاعل تحصل بواسطة الكلام ـ وبإشارات دلالية أخرى (Semiotic Resources) (الحركات الجسديّة وطرق الوقوف، أدوات ومستندات مختلفة)، أصبح استعمال اللغة مجال دراسة مهماً في ما يخصّ علماء الاجتماع الذين يتبعون المنهج الإثني. نرى محلّلي

الحديث فيما بينهم يُدخلون أفكاراً ومناهج كان لها تأثيرها على الكثير من الأنثروبولوجيين الألسنيّين المهتمّين بالتنظيم المتسلسل للكلام العادي (انظر الفصل 8).

لقد استفاد الأنثروبولوجيون الألسنيّون أيضاً من أعمال أخصّائيي علم الاجتماع العصريين الّذين يتنبّهون بالأخصّ إلى تركيبة المجتمَع والثقافة في الحياة اليوميّة. هذا ما يميّز عمل بيار بورديو (1977, 1990) (Pierre Bourdieu)، نظريّة الممارسة، النظريّة التركيبيّة لأنطوني غيدنز (Anthony Giddens) (1979, 1984)، ودراسة ميشال فوكو (Michel Foucault) التاريخيّة عن تكنولوجيات المعرفة كتكنولوجيات السلطة والقوة (مثلاً 1988, 1980a, 1979, 1973).

لبورديو (Bourdieu) تأثير كبير في مجال نقد الثقافة كنظام عقلاني يتألّف من معتقَدات أو من قواعد منظَّمة بشكلٍ تسلسلي مرتبي. وقد شدّد بورديو على أهميَّة التربية الاجتماعيّة وعلى أولوية الحياة التي نعيشها بالمقارنة مع الدراسة العقلانية والموضوعية للأصناف والمعايير الاجتماعية على اختلافها. وجهة النظر هذه، التي تسعى إلى دمج موضوع أولوية وجودنا في العالم ـ كما نجده عند هايدغر (Heidegger) ـ بمناهج علوم الاجتماع التقليديّة[8] التي تشكّل نموذجاً للهيمنة الرمزيّة المؤسَسة على ميول لاواعية تلقن خلال إسهام التفاعلات الروتينية وليس خلال التدرج المعرفي العقلاني باطنية أساسها الاشتراك في تبادلات روتينية وليست على تسلسل المعرفة لدى الذات العقلانية.

---

(8) كما يشير إليه دريفوس (Dreyfus) (1991: 205)، يتّفق هايدغر (Heidegger) وبورديو (Bourdieu) على القول بأنّ "الكثير من سلوك الإنسان يمكن أن يحصل بل ويحصل كمواجهة متواصلة من دون اللجوء إلى حالات فكريّة (أي إلى المعتقدات، الرغبات، المقاصد... إلخ)".

يعتبر غيدنز (Giddens) أنّ أعضاء المجتمع الناشطين والتركيبات الاجتماعية المختلفة يكوّنون سلسلة منظّمة تعيد نفسها في الزمان والمكان، وتشكّل مصدراً يسمح للمجتمع بتنظيم حياة أعضائه الاجتماعية، واستخدام هؤلاء الأعضاء لهذه المصادر يسمح لها بأن تبقى وتتكرر. فكرة كون المميزات التركيبية للأنظمة الاجتماعية وسيطاً ونتيجة للممارسات الّتي تنظّمها تكراريّاً ـ بما يسمّيه غيدنز بمبدأ "ثنائية التركيب" ـ يتوافق مع وجهة نظر الأنثروبولوجيين الألسنيّين الّذين يعتبرون أنّ الكلام ليس فقط وسيلة (لتمثيل واقعية اللغة المستقلة ولكنه مصدر فاعل في تناسل الواقع الاجتماعي في ظل وجود السلطة واللااستقلالية لتصوّر عالم خارجي غير لغوي ولكنّه أيضاً مصدر موجود في كلّ مكان يسمح بتناسل الواقع الاجتماعي وبالتالي علاقات القوى والتبعية الموجودة).

أعتبر ما كتبه غيدنز عن **الإقليميّة** (Regionalization) "كتقسيم للزمان والمكان حسب علاقتها بالممارسات الاجتماعيّة الروتينيّة" (Giddens 1984: 119) ذا صلةٍ وطيدة مع ما يكتبه الأنثروبولوجيّون الألسنيّون الّذين يحلّلون كيف يستعمل الأشخاص، في تبادلاتهم اليوميّة وفي تواصلهم بعضهم مع بعض، الكلام والموارد الماديّة، بما فيها البيئة العمرانيّة والأدوات الموجودة فيها (انظر الفقرة 6.9). وقد جمع غيدنز في عمله دراسات أقدم، مما كتبه مثلاً تون هيغرستراند (Teun Hägerstrand) وغيره، ووضح لنا كيف أنّ المكان الّذي يعيش فيه الأفراد، كالبيت مثلاً، يشكّل "**موقعاً**، أي مكاناً يعمل "كمحطّة" تحصل فيها مجموعة من التبادلات كلّ يوم. وتقسّم المنازل اليوم إلى طوابق وصالات وغرف. ولكن يمكن تقسيم الغرف إلى عدّة مناطق لكلٍّ منها زمان ومكان" (1984: 119).

يستعمل فوكو المكان كثيراً في أبحاثه، حيث يمثّل الفكر

الاجتماعي في دراساته عن المعرفة والسلطة. فهو يجد أنّ القرن التاسع عشر كان مولعاً بالتاريخ وفي الوقت نفسه فإن، القرن العشرين سيعُرف بالقرن المولع بالمكان (Foucault 1980b; Soja 1989). يطلب منّا فوكو، لكي نفهم أنّ المعرفة لا يمكن أن تكون محايدة وأنّها تبقى دائماً نوعاً من السلطة، أن نفكّر بها من خلال مفاهيم المكان "كالمنطقة والمجال والزرع والإزاحة وابدال الموضع" (1980b: 69). ما أن نقوم بذلك، حتى نواجه المضمون السياسي أو الحربي لتلك المفاهيم، وسندرك ربّما عندها أنّ وجود هذا المضمون ليس بصدفة. إذ لوجوده علاقة بالإطار الفكري الّذي يحدّد كيفيّة فهمنا واستعمالنا للّغة في مؤسسات معيّنة.

يستعمل فوكو كلمة "الخطاب" كمجالٍ أوسع من مجال النصّ أو من سلسةٍ من الأفعال الكلاميّة. يعتبر فوكو الخطاب نوعاً معيّناً من تنظيم المعرفة من خلال الكلام، وأيضاً من خلال موارد وممارسات وإشارات دلالية أخرى (كطريقة فهم ووضع مؤسسات تنظيم النظافة في القرن الثامن عشر في فرنسا) - ويفسّر ذلك لماذا يتكلّم فوكو عن الخطابات (في الجمع). إن توسيع معنى كلمة "الخطاب" لها تأثير مهمّ في كل شخص يهتمّ بالعلاقة بين اللغة والسياق، إذ يدفعه ذلك إلى الانتباه إلى أنّ استعمالات معيّنة للّغة والأفعال الكلاميّة (انظر الفصل 7) والسلسلات الدوريّة (انظر الفصل 8) ونطاق المشاركين (انظر الفصل 9)، تتعلّق كلّها بترتيبات للزمان والمكان، بما يعطي المتكلّمين مدخلاً، للواحد نحو الآخر، في نماذج محدودة للمكان وفي فترات زمنيّة محدودة. وتجعلنا أخيراً هذه الأهميّة المعطاة للخطابات كتكنولوجيّات للمعرفة أن ندرك أنّ للّغة دوراً فعالاً في أعمال المؤسسات (في المدارس والمستشفيات والسجون)، وذلك لأجل تنظيم وبالتالي السيطرة على الحياة الخاصّة لأفراد المجتمع،

بما في ذلك مفهومهم لأنفسهم، ولهويّتهم الإثنية، وللعلاقات بين الجنسين.

1.3.1. الأنثروبولوجيا الألسنيّة والألسنيّة الاجتماعيّة

تُعتبر الألسنيّة الاجتماعية الأقرب إلى الأنثروبولوجيا الألسنيّة من بين كلّ حقول المعرفة المتعلّقة بعلوم الاجتماع والإنسان الّتي تعنى بدراسة التواصل. فإذا نظرنا بالفعل إلى تاريخ المادتين نرى أنّه يصعب تمييزهما. بالرغم من أنّ الكثير من الألسنيين الاجتماعيين يفضّل الطرق المعتمدة على الأرقام والعمل بالأخصّ في المدن، بينما معظم الأنثروبولوجيين الألسنيّين يفضّل الطرق النوعيّة، أي غير المعتمدة على الأرقام، والعمل في المجتمعات الصغيرة، إن حصيلة أهداف عملهم تبدو متشابهة مع أعمال الآخرين في الخارج ـ خاصة وان الأنثروبولوجيين حولوا اهتماماتهم إلى السياقات الحضرية. تتعلّق بعض الاختلافات الّتي نراها بين هاتَين الطريقتين بتاريخهما. اعتُبرت الأنثروبولوجيا الألسنيّة واحدةً من مجالات الأنثروبولوجيا الأربعة عندما عرّف بواس وزملاؤه رسميّاً هذا الحقل العلمي في بداية القرن العشرين (انظر الفقرة 1.3). (اهتدى الألسنيّون الاجتماعيّون إلى علم اللهجات المدنيّة في أواخر الخمسينات وبداية الستّينات. وكبرت القرابة بين الحقلين بعض الشيء في الستّينات والسبعينات بفضل عدّة أعمال سعت إلى دمجهما، من بينها سعي ديل هايمز (Dell Hymes) إلى تعريف حقل متداخل يرتكز على دراسة **استعمال اللغة**. ونرى ذلك بشكل واضح في مقدّمة الكتاب الجامع لغامبرز (Gumperz) وهايمز (Hymes) حيث يعمل هايمز بشكلٍ جدّي لتشكيل حقل **إثنوغرافيا التواصل** من خلال إقامة صلات بين كلّ ما كان له وقتها صلة من قريب أو بعيد بالعلاقات القائمة بين اللغة والثقافة أو اللغة والمجتمَع. عندما نتمعّن بالباحثين والمقالات الّتي نجدها في مؤلّف

سنة 1964، نجد ممثّلةً الحقول الدراسية التالية: الألسنيّة الاجتماعيّة (بيرنشتاين (Bernstein))، والفلكلور (أروا وداندس Arewa & Dundes)، والألسنيّة الاجتماعية التفاعليّة (أيرفين - ترايب Ervin-Tripp)، والألسنيّة الاجتماعية المقارَنة (فرغوسون (Ferguson))، والأنثروبولوجيا الفكريّة والعلم الأثني (فريك (Frake))، والألسنيّة التاريخيّة (مالكيال (Malkiel))، والألسنيّة الاجتماعية الكميّة (لابوف (Labov))، وعلم الاجتماع التفاعلي الدقيق (غوفمان (Goffman)). نجد في المجموعة الّتي صدرت فيما بعد (Gumperz and Hymes 1972) بعض من هؤلاء الباحثين بالإضافة إلى أبحاث جديدة، أهمّها التواصل غير الكلامي أو الجسمي الّذي يمثّله بيردوايستل (Birdwhistell)، ومدرسة المنهجيّة الإثنية والّتي يمثّلها غارفينكل (Garfinkel) وساكس (Sacks) وشيغلوف (Schegloff).

ساعد غامبرز وهايمز على إيجاد صلات وتعاونات فكريّة ما زالت تُعتبر قسماً مهمّاً من الأنثروبولوجيا الألسنيّة كحقل تتداخل فيه حقول المعرفة، ولكنّهما لم يستطيعا خلق حقل موحّد يرى كلُّ الباحثين الّذين ذكرناهم أنفسهم فيه. ويتّضح ذلك أكثر عندما نتمعّن بما تركّز عليه النظريّات الحاليّة في حقول الألسنيّة الاجتماعية والأنثروبولوجيا.

تابع الألسنيّون الاجتماعيّون عملهم في مجال الخيار اللغوي وتغاير اللغة، وحاولوا في الوقت نفسه أن يتحدّثوا إلى النحويين الشكليين، الّذين يهتمّون مثلهم بدراسة كيفيّة تمثيل القدرات اللغويّة، مع أنّهم لم يتفقوا مع هؤلاء النحويين حول طرق تقييم هذه القدرات وتحديدها. ويتابع الألسنيّون الاجتماعيّون اهتمامهم بتعريف الجاليات الكلاميّة كمنطلَق لدراسة حدود التغاير اللغوي الفردي. بالنسبة لهذه المساعي الفكريّة لقد شكّلت دراسة ظواهر مثل اللغات البِدجينيّة

والكريبولية والتخطيط اللغوي، ، مجالات واسعة للاختبارات العلميّة[9]. وقد شارك الأنثروبولوجيون الألسنيون أكثر في مجالات دراسيّة أخرى، كالسجلّ اللغوي، واللغة والجنس، وفعل الكلام، والخطاب وقد شكّل ذلك فرصاً سمحت لكلّ من العلمَين أن يؤثر أحدهما بالآخر وأن يتأثّر به. هناك، بالإضافة إلى أهميّة مفهوم الثقافة (انظر الفصل 2)، الّذي هو وحده يميّز بشكل قاطع مناهج الأنثروبولوجيا الألسنيّة وأهدافها النظريّة عن الأبحاث الألسنيّة الاجتماعية، شؤون نظريّة قد تطوّرت مع الوقت كشؤون تتعلّق حصريّاً بأعمال الأنثروبولوجيين الألسنيّين. سأتناول ثلاثةً من هذه الشؤون في الفقرات التالية.

4.1. شؤون نظريّة في الأنثروبولوجيا الألسنيّة المعاصرة

تمّ تطوير ثلاثة مجالات نظريّة رئيسيّة للبحث في الأنثروبولوجيا في العقود القليلة الماضية. يُعنى كلّ مجالٍ منها بفهم واحدةٍ من الأفكار التحليليّة التالية : (1) الأداء، (2) والدلالة، (3) والاشتراك. سنرى بوضوحٍ فيما بعد أنّها مترابطة.

1.4.1. الأداء

يستمدّ مفهوم الأداء معناه من عدّة موارد، ولذلك يمكن تفسيره بعدّة طُرق. فيأتيه معنىً معيَّناً من عمل نعوم تشومسكي (Noam Chomsky) النظري، حيث يقوم بالتمييز بين **القدرة والأداء** في كتابه:

(9) انظر إلى أعمال هايمز (Hymes 1971) وجوردان (Jourdan 1991) ومولهويسلر (Mülhäusler) ورومايـن (Romaine) (1986، 1994 : الفصل 6 (وتوماسون وكوفمان (Thomason and Kaufman 1988). لدراسة تخصّ تركيبة اللغات الكريبولية والبدجينيّة، انظر (Holm 1988, 1989).

نواحي نظريّة النحو (1965). وقد ألهمه نوعاً ما سوسور (Saussure) هذا التمييز، إذ ميّز هو بين **اللغة والكلام** (Saussure)، قائلاً إنّ الأولى تكوّن النظام ككلّ، وإنّ الثاني يكوّن لغة الفرد المنتمي إلى ذلك النظام اللغوي. وفي هذا السياق، تمثّل القدرة الإمكانيّة اللغويّة أي المعرفة ـ والّتي هي بمعظمها باطنة ـ لدى الفرد المنتمي إلى قوميّة معيَّنة، والّتي تسمح له بأن يفسّر ويستعمل لغة معيّنة. أمّا الأداء فهو الاستعمال الفعليّ للغةٍ معيَّنة، ويرى تشومسكي أنّه مبنيّ ليس فقط على القدرة بل على مبادئ، كالانتباه والإدراك الحسّي والذاكرة، ليس من الضروري ذكر ما يخصّ القدرة كمعرفة تجريديّة لاستعمال اللغة لدى الأفراد المتكلّمين[10]. فالقدرة في هذه الحالة هي معرفة فرد مثالي للّغة[11]. أمّا الأداء فهو تطبيق لهذه المعرفة في الأعمال الكلاميّة.

تختلف فكرة الأداء هذه عن تلك الّتي يستعملها الفيلسوف ج. ل. أوستن (J. L. Austin) (1962) في ما يصنّفه **بأفعال الأداء**، **الّتي** توضّح نوع العمل الّذي يحاول كلام معيّن أن يؤديه (انظر الفصل 7). عندما يقول شخصٌ لآخر **آمرك أن تترك الغرفة** ويكون لهذا الشخص

(10) يُنعش تشومسكي من جديد في آخر ما كتبه التمييز بين القدرة والأداء، من خلال التمييز بين ما يسمّيه "لغة الداخل" (لغة الـ "د") "ولغة الخارج" (لغة الـ "خ") (Internal Language (I- Language) and External Language (E-Language)) (Chomsky 1986)، (انظر الفقرة 1.5.3).

(11) ينتقد ديل هايمز (Dell Hymes) (1972b) فكرة تشومسكي، مقدّماً بدلاً منها فكرة **قدرة التواصل**، الّتي يعرّفها بالقدرة الّتي يحتاج إليها المتكلّم لكي يستطيع العمل كفردٍ ينتمي إلى وحدةٍ اجتماعيّة. يحاول هايمز بذلك أن يجد حلاً لبعض المشاكل النابعة من فكرة تشومسكي هذه، ولكنّه يتبع في عمله افتراضات تشومسكي نفسها. وقد تمّ مؤخّراً انتقاد هذه الافتراضات، مثلاً في أعمال نظريّة الممارَسة ونظريّة الفكر الموزَّع (انظر الفصل 2).

سلطان على الآخر، ويكون بإمكان الآخر أن ينفّذ الأمر، لا يصف فعل أمر ما يعتقد المتكلّمُ أنّه صحيح بالنسبة إلى واقعٍ موجود ومستقلّ. بل هو يحاول التأثير في الواقع، فيجعله يتناسب مع ما يريده ويتوقّعه المتكلّم. يشكّل ذلك مثلاً عن الطريقة الّتي تقوم بها الكلمات **بعملٍ** ما. يبدو إذا أنّ كلّ كلام، بالنسبة لأوستن، يقوم بعملٍ ما، حتّى الكلام الّذي يبدو أوّلاً أنّه يصف حالةً بسيطة (السماء زرقاء). فهو يقوم بعملٍ يفضي إلى إعلامنا بشيء.

من الواضح أنّ الأنثروبولوجيّين الألسنيّين يهتمّون بما يودّ المتكلّمون **عمله** باللغة. يمكن إذا النظر إلى عملهم كنوعٍ من الأداء الّذي يسمّيه تشومسكي "استعمال النظام اللغوي" أو ذاك الّذي يسمّيه أوستن "عمل أشياء بالكلمات". ولكن أياً يكن المفهوم المعتمَد لأهميّة الأداء لدى الأنثروبولوجيين الألسنيّين، فهو يترك معنى ثالثاً له الأهميّة نفسها، وهو يأتينا من دراسات الفلكلور والشعر، والفنون بشكلٍ عام (Bauman 1992b; Bauman and Briggs 1992; Palmer and Jankowaik 1996). يُعتبر الأداء، بحسب هذا المعنى، حقلاً من عمل الإنسان حيث ننتبه بالأخصّ إلى طريقة قيامنا بالأعمال التواصلية. هنا الانتباه الخاصّ إلى شكل الرسالة الّتي نودّ إيصالها، هو ما يسمّيه رومان جاكوبسون "بالوظيفة الشعريّة" للكلام (Roman Jackobson, 1960). (انظر الفقرة 2.9). الأداء "شيءٌ خلّاق، ومنجز ومدرك" (Hymes 1981: 81). وهو بُعدٌ من حياة الإنسان يظهر بالأخصّ في الموسيقى والمسرح وغيرهما من الأعمال الفنيّة والقدرات الخلّاقة. فنجده مثلاً في النقاش الكلامي، وفي سرد القصص، والغناء، وغيرها من الأعمال الكلاميّة، حيث يقيَّم ما يقوله المتكلّمون حسب قوانين الجمال الفنّي، أي بالنظر إلى صياغته وإلقائه، أو حسب "تأثيره" في الجمهور (Briggs 1988). ولكن

يمكن أيضاً استعمال مفهوم الأداء لوصف ما نجده في معظم اللقاءات العاديّة، حيث يهتمّ أعضاء المجتمع بشكل خاص بقدرتهم الإلقائيّة. عندما نقبل بهذا المفهوم للأداء ونركّز عليه، نذهب أبعد من اعترافنا بوجود بعدٍ جماليٍّ دائم للكلام، يتجسّد في الانتباه إلى شكل ما يُقال. فعلينا أيضاً عندها أن نشدّد على كون الكلام نفسه يستلزم التعرّض إلى الأحكام وردّات الفعل، وتعاون السامعين، فهم يفسّرون ويقيّمون ويوافقون ويقاطعون ويضيفون أو يصغّرون ما يقال دورانتي وبرينيس (Duranti and Brenneis 1986). يوجد معنى آخر للآداء بالإضافة إلى بُعد المسؤوليّة، بُعد الخطر والتحدي (Bauman 1977). يمكن حتّى للمتكلّم الأكثر قدرة أن يقول شيئاً في غير محلّه، كما يمكن لأفضل الممثّلين أن يصمت عندما يكون عليه أن يتكلّم أو لمغني أوبرا أن لا ينجح في استخدام نبرة صوته. نجد هذا البعد الدراماتيكي للأداء الكلامي في عدّة مناهج فكريّة في علوم الاجتماع، بما فيها استخدام غوفمان للمصطلحات المسرحيّة **كالممثّل والمنصّة، والوجهة والخلفيّة، والإطار**، كما في نقد بورديو (Bourdieu) (1977) للنماذج الشيئية المطبّقة في الأنثروبولوجيا حيث تعمل على تحليل "منطق" أعمال الإنسان، وتنسى في الوقت نفسه أهميّة ما هو "غير معروف" - بكلّ ما فيه من توتّر وحيرة - في مراحل التبادل المختلفة (انظر الفقرة 5.1.2).

عندما يأخذ الأداء هذا المعنى يصبح بعداً لا غنى عنه في استعمال اللغة، لأنّه لا غنى عنه في تقييم اللغة، ومن المعروف أنّه لا يوجد استعمال من دون تقييم له. فنحن نقيّم أنفسنا دائماً كما يقيّمنا من يسمع كلامنا.

يتضمّن أخيراً مفهوم الأداء مفهوما الإبداع (Palmer and Jankowiak 1996) والارتجال (Sawyer 1996). ونجد ذلك في كلّ

أنواع العمل الكلامي والأحداث الكلاميّة، ما يتعلّق منه بالطقوس مما هو رسمي إلى ما هو عادي وغير معقّد. تكمن قدرة أداء الشاعر مثلاً في التقليد اليمني الشمالي الّذي درسه ستيفن كاتون (Steven Caton) ليس فقط في إلقاء الشعر، بل أيضاً في قدرته على "وضع الشعر في واقعه، مستعملاً لذلك تفاصيل صغيرة تموضعه" (Caton 1990: 106). يعني ذلك، أن على الشاعر أن يعرف كيف يوصل بين التقاليد والواقع الحالي. يحصل ذلك في ما يتعلّق بالأداء الشفوي. يعتبر مجتمع ساموا الشخص خطيباً عظيماً عندما يعرف ما عليه أن يذكر أو لا في خطابه، ويصل بين الاستعارات والأمثال المعروفة والمناسبة الّتي يتلو فيها الخطاب، بما في ذلك أسماء وألقاب الناس الموجودين.

الّذي يتكلّم لغةً بشكلٍ طلق يستطيع أن يدخل في أيّ حديثٍ بطريقة يعتبرها الآخرون مناسبة وغير معرقِلة. يمكننا مقارنة هذه القدرة على الكلام، الّتي لا نعيرها أيّة أهميّة في معظم الأحيان حتّى نجد من يقول إنه لا توجد عنده تلك القدرة، بما يفعله عازف الجاز الموهوب. فهو يدخل في موسيقى ألّفها شخص غيره، فيجمّلها، يغيّر موضوعها الأساسي، يشدّد على بعض عناصر اللحن أكثر من غيرها، يستخدم أداء غيره من الموسيقيين، ويحاول أن يوافق بين النغمات بطرق جديدة - ويفعل كلّ ذلك متابعاً في الوقت نفسه ما يعزفه الموسيقيّون الآخَرون في الفرقة (Berliner 1994).

2.4.1. الدلالة

عرف الفلاسفة من وقت طويل عدة انواع من الإشارات. فقد ميّز إيمانويل كَنْت (Immanuel Kant) في كتابه **الأنثروبولوجيا من وجهة نظر براغماتيّة** (*Anthropology From a Pragmatic Point of View*) (1974 [1798]) 1798، بين **الإشارات الاعتباطية الكيفيّة**

والإشارات الطبيعيّة. فاعتبَرَ مثلاً أنّ الأحرف الّتي تمثّل صوتاً لغويّاً هي أصوات اعتباطية. لا توجد صلةٌ ضروريّة بين شكل حرفٍ معيَّن ونوع الصوت أو الأصوات الّي يمثّلها، ونرى ذلك بوضوح في الأبجديّات المختلفة المعروفة حيث تمثّل عدّة أحرف الصوت نفسه أو في اختلاف الرموز بين تقليد وآخر للتخطيط (كالأحرف اللاتينيّة والأحرف السّيريلية). يمثّل كلّ حرفٍ صوتاً ما ويذكّر القارئ به، وذلك لوجود ميثاق أقامته جاليته وقبلت به. ومن جهة أخرى، يكوّن الدخان الّذي يحذّرنا من وجود حريق إشارةً لم يخترها ميثاقٌ معيَّن، بل فقط ما يحدث تكراراً في الطبيعة. فهناك علاقة تماس بين الإشارة (الدخان) والظاهرة الّتي يمثلها (الحريق). يتبع الشخص معتقدَه الّذي يقول "حيث يوجد دخان، يوجد حريق، فيستنتج عند رؤية الدخان وجود حريق في مقربته. لا "يمثّل" الدخان بالحريق بنفس الطريقة الّتي تُستعمل فيها كلمة **حريق** في قصّة تروي ما حدث في الماضي. فالدخان متعلّق في الزمان والمكان وبالفعل بحدث آخر، ويحصل على "معناه" من هذه العلاقة الفعليّة في الزمان والمكان[12]. تنبّه الفيلسوف الأميركي تشارلز بيرس (Charles Peirce) إلى هذه الظاهرة فسمّى الدخان دليلاً وفرّق بينه وبين الإشارات الاعتباطية المحضة (الرموز) والإشارات الّتي تسعى إلى إظهار جزءٍ من مدلولها (الأيقونات) (انظر الفقرة 8.6). المؤشّرات (Indices) أو **الدلالات** (Indexes)، كما يفضّل تسميتها معظم الباحثين المعاصرين هي إشارات ذات علاقة وجوديّة مع مدلولاتها (Burks 1949). ويمكن بكلّ سهولةٍ توسيع هذه الفئة اللغويّة وتطبيقها على تعابير لغويّة أخرى

(12) يسمّي الفيلسوف بول غرايس (Paul Grice) (1957/ 1971) هذا النوع من المعاني "غير طبيعي". ما يميّز المعنى غير الطبيعي بالنسبة لغرايس هو وجود نيّة ما (انظر الفقرة 2.3.7).

كأسماء الإشارة ـ هذا، ذاك، هؤلاء ـ والضمائر الشخصيّة **كأنا وأنت**، والتعابير المتعلّقة بالزمان **كالآن وفيما بعد والبارحة**، وتعابير معيّنة مثل في الأعلى وفي الأسفل وتحت وفوق. وقد سمّي ما يميّز هذه التعابير **الدلالة**، وقد تبيّن أنّها تمتد إلى معظم ما يشكّل التواصل اللغوي. فاللغة مليئة بتعابير تتعلّق بالواقع الاجتماعي والثقافي أو تشير إليهما.

> يمكن تعريف الدلالة في الصورة الطوبولوجيّة بما أسمّيه مفهوماً مشعّاً ذا تكافؤ قطبي للعلاقة الدلالية: الإشارات الّتي تكوّن أدوات نقل دلالاتية تقوم بدورها الدلالي ابتداءً من مكانٍ أوّلي يتأسّس من وعند حصولها في زمان ومكان حاليّين، وهي تشكّل "مركزَ ومؤخّرة السهم الإشاري. نجد في آخر طريق الشعاع أو على رأس السهم، ما يشكّل هدف الدلالة، مهما كانت الأبعاد والميّزات الإدراكيّة والفكريّة للأشياء المدلول عليها. المجال الّذي يحيط بأداة النقل الدلالية، من وجهة نظر الإشارات الدلالاتية البحتة، سواء أكان كبيراً أو صغيراً، فهو غير محدودٍ، ويمكن تعريفه بطرق متعدّدة وغير محدودة، ويبقى تأسيسه الدلالي قابلاً للإلغاء أينما كان (Silverstein 1992: 55).

وبالتالي فإنّ تعبيراً **كهذه الطاولة** يتضمّن سهماً خياليّاً[13] موجّه نحو شيءٍ معروف، وهو من المحتَمل شيء متوفّر لإدراك المتكلّم والسامع ولكنّ هذا التوفّر ليس بالضرورة توفّراً فوريّاً. فيمكن مثلاً

(13) أحياناً لا يكون "السهم" خياليّاً بحتاً، فكثيراً ما ترافق حركات جسديّةً اسمَ الإشارة.

استعمال كلمة أو عبارة للدلالة على تجربة ماضية أو في المستقبَل. هذا ما يحدث مثلاً عندما نغيّر نوع الرموز المستعمَلة. عندما يتفوّه المتكلمون بكلمةٍ في لغةٍ أخرى، ربما يشيرون إلى مكان وزمان آخَرين، كان أو سيكون المتكلمون والسامعون فيهما. يشكّل اختيار لغةٍ بدلاً من أخرى، في الجاليات الّتي تجيد لغتين، دلالة على إثنية الشخص أو خياراته السياسيّة المتعلّقة بالصلة بين اللغة والإثنية. هذا ما يحصل مثلاً في كيبيك في كندا (Heller 1982, 1995) يفسّر مثلاً، في هذا التبادل الهاتفي، استخدام المريض للّغة الفرنسيّة عند اتّصاله بالعيادة لأخذ موعدٍ، كدلالة على تفضيله الفرنسيّة على الإنجليزيّة :

1) السكرتير: مكتب أخذ المواعيد، هل أستطيع مساعدتك؟ (بالإنجليزيّة)

المريض: ألو نعم؟ (بالفرنسيّة)

السكرتير: هنا مكتب أخذ المواعيد، هل أستطيع مساعدتك؟ (بالفرنسيّة) (Heller 1982: 112)

Clerk: Central Booking, may I help you?
Patient: Oui, allô?
Clerk: Bureau de rendez - vous, est-ce que je peux vous aider?[14]

ولكن، وبسبب مضمونه السياسي، يمكن مقاومة الخيار بين اللغتين، كما يحصل في المثل التالي :

2) النادل: هل تفضّلان الفرنسيّة أم الإنجليزيّة؟ (باللغتَين)

شخصان يتقنان اللغتَين: لا فرق... (باللغتَين)

---

(14) يقول هيلير، في إحدى هوامشه، إنّ هذه العبارة، كما يحدث كثيراً في حالات استعمال اللغة للاتّصال، ليست سوى ترجمة حرفيّة للعبارة الإنجليزيّة هل أستطيع مساعدتك (May I Help You?) وليست عبارةً فرنسيّة موازيةً لها تُستعمل لنفس الغرض.

النادل: لا لا... هل تفضّلان الفرنسيّة أم الإنجليزيّة؟ (باللغتَين)

الشخصان: لا فرق... كما تريد. (باللغتَين)

النادل (يتنهّد): حسناً، حسناً، سأعود بعد قليل. (بالإنجليزيّة)

(Heller 1982: 116)

Waiter: Anglais ou français, English or French?

2 Bilinguals: Bien les deux...

"Well both..."

Waiter: No, mais, anglais ou français?

"No, but, English or French?"

2 Bilinguals: It doesn't matter, c'est comme vous voulez.

"Whatever you want."

Waiter: (sigh) OK, OK, I'll be back in a minute.

نرى من هذه الأمثلة أنّ الدلالة تتراوح بين أسئلةٍ بسيطة (هل تتكلّم الفرنسيّة؟) وخيارات سياسيّة (لأي فكر سياسي تنتمي؟). لهذا السبب يجب التمييز بين أنواعِ ودرجات الدلالة. اقترح سيلفرشتاين مثلاً (1976b) أنّ كلمة **هذا** تدلّ بكلّ بساطة على مدلولٍ معروف. أمّا الضمير **أنت** فهو لا يدل فقط على وجود المخاطب ولكن يشير إلى الطبقة الاجتماعية "للمخاطب/ المتلقي" التي يجب أن تحدد وتسجل. لا يعتبَر الشخص مخاطباً حتّى يقال له **أنت** (أمّا الطاولة فهي بقرب المتكلّم قبل أن يقول "هذه"). وتستخدم اللغات الّتي لضمائرها الشخصيّة "أنت" و"أنتم/ أنتنّ" اختلافاً ذا بعد اجتماعيّ (كالفرق بين الـT والـV في الكثير من اللغات الأوروبيّة، مثلاً tu/ vous بالفرنسيّة، tu/ Usted بالإسبانية، du/ Sie بالألمانيّة، وtu / Voi أو tu/ Lei بالإيطاليّة) ان الدلالة المتعدّدة الخصائص للضمائر الشخصيّة، تستخدم الضمائر كمحددات في حالاتٍ اجتماعيّة معيّنة حيث تتوجّب الإشارة إلى المساواة/ عدم المساواة، أو إلى التضامن/ السلطة (Brown and

(Gilman 1960. يسمّي سيلفرشتاين أدوات الدلالة هذه أدوات "خلاّقة أو ذات أداء كبير. تتضمّن الوسائل التي نعرف بها العالم من حولنا جزءاً من تركيبة العالم نفسه. ويستعمل المتكلّمون هذا الوجه المبدِع لأداء دلالتهم عند بنائهم لهويّتهم الإثنية والجنسيّة ,Gumperz 1982a) (1982b; Hall and Bucholtz 1995. عندما نقول إنّ لكلمات علاقة دلاليّة مع "شيءٍ" ما أو مع وجه من وجوه العالم الخارجي، يعني ذلك أنّنا نسلّم بأنّ الكلمات تحمل معها سلطةً تذهب أبعد من وصف أو تمييز الأشخاص والأشياء والخصائص والأحداث. وهذا يعني أن علينا أن ندرس كيفيّة تحوّل اللغة إلى أداة نستخدمها دائماً لوصف وتقييم واستمرار عالمنا الاجتماعي والثقافي. يرى غامبرز أن العمل التفاعلي يتحقق بواسطة **وسائل سياقية** واسعة وهي فئة فرعيّة من فئات الإشارات الدلالية، التي تسمح للناس بمعرفة ما يجري في كل (سياقّ) وكيف يمكن للتفاعل أن يكون (انظر الفقرة 2.2.8.6). بما أنّ وجود المفاتيح السياقية بين سكّان المجتمَع هو غير متكافئ فإن الدلالة تشكّل وجهاً مهمّاً من وجوه علاقات القوى وديناميكيتها، وتداخلها مع المؤسسات، حيث تجد الأقليّات نفسها أمام مجموعةٍ جديدةٍ من الدلالات:

> تنتشر الممارسات السياقية بحسب تركيبة شبكات العلاقات الّتي توجدها المؤسسات على اختلافها، ويخضع التعرّف والحصول عليها إلى تأثير القوى الاقتصاديّة والسياسية والأيديولوجيّة، الّتي تُستخدم دوماً لتحويل شرائح كبيرة من السكّان إلى أقليّات ويصبح هذا الاضطراب ذا أهميّةٍ أكبر عندما تمتصّ المدن السكّان المنعزلين في الدول القومية...

(Gumperz 1996: 402)

أصبح بإمكاننا الآن أن نرى العلاقة بين الدلالة والأداء. وتصبح هذه العلاقة أوضح أيضاً عندما ننظر إلى المفهوم الثالث، أي الاشتراك.

3.4.1. الاشتراك

كما قلتُ فيما قبل في هذا الفصل، يهتمّ الأنثروبولوجيون الألسنيّون، كغيرهم من علماء الاجتماع بالمتكلّمين كعاملين اجتماعيين. وهذا يعني أنّهم يعتبرون الكلام عملاً اجتماعيّاً يتضمن دائماً شيئاً أكثر من التعبير اللغوي. يصف ما يلي هذا الموقف الفكري بشكلٍ جيّد، حيث ينتقد هايمز مفهوم القدرة لدى تشومسكي:

> علينا... أن نفسّر كيف يمكن للطفل العادي أن يتعلّم الجمل ليس فقط بقواعدها ولكن أيضاً كجمل مناسبة. وتصبح عنده قدرة على معرفة متى يستطيع أو لا يستطيع الكلام، وما يجب أن يتكلّم عنه، ومع من، ومتى وأين، وبأي طريقة. أي أنّه يصبح بإمكان الطفل أن يستحصل على مجموعة من الأفعال الكلاميّة وأن يقيّم أفعال الآخرين. وتنتمي هذه القدرة إلى مواقف وقيم وحوافز اللغة وميّزاتها واستعمالاتها، وإلى القدرة والمواقف الّتي تخصّ التواصل بين اللغة وغيرها من القوانين المتعلّقة بالتبادل التواصلي.

(Hymes 1972b: 277-278)

إحدى الأفكار الرئيسية في هذا النصّ هي التسليم بأنّ كون الشخص متكلّماً يعني أنّه عضوٌ في جالية كلاميّة. وتعطيه هذه الجالية بدورها مدخلاً إلى مجموعةٍ من النشاطات والاستعمالات اللغوية.

كون الشخص قادراً على الكلام في لغةٍ ما يعني أنّه بإمكانه القيام بأشياء بواسطة هذه اللغة، وذلك كقسم من أعماله الاجتماعيّة الأوسع نطاقاً، والتّي تنظّمها ثقافة المجتمع ـ فعليه إذاً الاستعانة بهذه الثقافة لتفسيرها. وقد استُعملت في الماضي عبارات الحدث التواصلي والحدث الكلامي والعمل الكلامي لوصف هذه الفكرة. أمّا حاليّاً فنستعمل عبارة **الاشتراك** الّتي تصف الكلام كواحد من مجموعة كبيرة من النشاطات. يشدّد هذا المفهوم على الميزات الاجتماعيّة والجماعيّة الموزعة على كل عملٍ كلامي. يستطيع من يتكلّم لغةً ما أن يستعمل أصواتاً تسمح له بالتفاعل مع الآخرين، فيستحضر بذلك عالماً أوسع من كلّ ما نراه أو نلمسه في لحظة معيَّنة. يأتي جزءٌ من هذه الصلة الّتي يوفّرها هذا العالم الواسع، إن كان خياليّاً أم حقيقيّاً، من قدرة الكلمات على القيام بوظائفها - وهذا ما نسمّيه قدرتها على الأداء (انظر الفقرة 1.4.1 أعلاه) ـ ويأتي جزءٌ من هذه القدرة بدورها من قدرة الكلمات على الإشارة إلى ما يذهب أبعد منها، وذلك من خلال قدرتها على الدلالة (انظر الفقرة 2.4.1 أعلاه).

تعتمد المشاركة على معرفة الفرد كيفيّة الحصول على المعلومات وتوقّع الأعمال الّتي على الآخرين القيام بها لحلّ مشاكلهم. وتعتمد أيضاً على وجود بعدٍ جسدي، أي جسدٍ حي يتفاعل مع البيئة ليس فقط بشكلٍ جسدي (باللمس مثلاً) وإنما يحملُ معنىً ما. أن يكون الشخص إنساناً يعني أن يقوم دوماً بعمليّة تفسير صلته بالعالم الّذي من حوله (Umwelt) في الزمان والمكان. يتضمّن هذا العالم أشياء ماديّة ـ أدوات وأشياء مبتَكَرة ـ وأجساماً حيّة (C. Goodwin 1981, in press; Goodwin 1996; Hanks 1990; Heidegger 1962; Merleau-Ponty 1962).

تعني المشاركة أيضاً تقاسم الموارد الماديّة والفكريّة (بما فيها

اللغات)، ولكنّها لا تعني في الوقت نفسه المساواة في تقاسم معرفة هذه الموارد والسيطرة عليها. ما يجعل دراسة فكرة الاشتراك في ما يخصّ الممارسات الثقافيّة مهمّة هو وجود اختلافات في داخل كلّ جالية أو مجموعة من الناس (انظر الفصل 2). وأخيراً يمكن استبدال التعارضات الثنائيّة القديمة، كالمتكلّم والسامع أو المرسِل والمرسَل إليه، بمفهوم الاشتراك. كما سنرى فيما بعد في هذا الكتاب (بالأخص في الفصل 9)، يمكن لأيّ نصٍّ أن يمثّل عدّة مؤلّفين؛ يُبنى المعنى في كثير من الأحيان على مجاورة عدّة أصوات مختلفة، يأتي كلّ منها من استعمال لغاتٍ ولهجاتٍ وأساليب كلاميّة مختلفة.

5.1. خاتمة

لقد قدّمت في هذا الفصل مادّة الأنثروبولوجيا الألسنيّة من خلال تركيزي على أهمّ ما فيها من أفكار وتساؤلات. وقد شدّدتُ على أهميّة النظر إلى اللغة كمجموعةٍ من الممارسات الثقافيّة وعلى الحاجة إلى فهم الأنثروبولوجيا الألسنيّة كمشروعٍ فكريٍ يتضمّن عدّة حقولٍ للمعرفة ويستخدم عدّة طرقٍ للعمل يجدها في علوم الإنسان وعلوم الاجتماع، ويعمل بطريقته الخاصّة والفريدة في ما يخصّ طبيعة الكلام ودوره في تشكيل المجتمَع وتفسير الثقافة. الأنثروبولوجيا الألسنيّة هي أقرب إلى الألسنية الاجتماعية من بين العلوم الانسانية. كما سنرى في الفصول القادمة، ما يوحّد الأنثروبولوجيون الألسنيون هو اهتمامهم بالمتكلّمين كأعضاء جاليات كلاميّة وبالتوزيع الاجتماعي المختلف للأشكال والمجموعات اللغويّة وللأعمال الكلاميّة. بينما يتعامل الألسنيّون الاجتماعيون بشكلٍ خاص مع النحويين الشكليين والألسنيين التاريخيين، يبقى الأنثروبولوجيون الألسنيّون على اتّصال بعلوم الاجتماع بشكلٍ عام وبفروع الأنثروبولوجيا الأخرى بشكلٍ خاص. ويبقى هذا الاتّصال ممكناً

بفضل تطوّر مجالات أبحاثٍ تتركّز على مجموعةٍ من المفاهيم الرئيسية. وقد قدمت ثلاثة من هذه المفاهيم، وهي الأداء والدلالة والاشتراك. سأعود إلى هذه المفاهيم في ما بعد، ولكنّني سأدرس بالأخصّ مفهوم الاشتراك (انظر الفصل 9). وذلك لأنّني أجد بأنّه يشكّل صلةً قد تكون مفيدةً بين عدّة اتّجاهات بحثية مهمة داخل الأنثروبولوجيا الألسنيّة وخارجها. يؤدّي اقتراح عدّة وحدات تحليلية لدراسة اللغة إلى ظهور وحدات اشتراك كمحاولةٍ واعدةٍ لدراسة التركيبات اللغويّة من دون أن ننسى النسيج الاجتماعي الغني الّذي تُستعمل فيه هذه التركيبات.

الفصل الثاني

النظريات الثقافيّة

بما أنّ الأنثروبولوجيا الألسنيّة تعتبر اللغة عملاً ثقافياً، فإن نقاشنا يجب أن يضم مفهوم الثقافة. ويشكّل ذلك حاليّاً تحدّياً حقيقياً. إذ يواجه مفهوم الثقافة اليوم انتقادات من كلّ الجهات لم يشهدها في كلّ تاريخه. فهو في السنوات الأخيرة قد تعرض للنقد لكونه يشكّل فكرةً شاملةً تحوّل التعقيدات الاجتماعية التاريخية إلى سمات بسيطة تخفي التناقضات الأخلاقيّة والاجتماعية الموجودة في داخل الجاليات وفي ما بينها. يعتقد الكثير من علماء الاجتماع ـ ومنهم بعض الأنثروبولوجيين ـ أنّ لمفهوم الثقافة علاقة قويّة بالهيمنة الفكريّة والعسكرية والسياسية للاستعمار الغربي تجاه بقية بلدان العالم ولذلك لا نستطيع استعماله من دون أن نفترض فيه عدّة تفرعاتٍ ثنائيةٍ ساذجة ومضلِّلة، منها التمييز بين "نحن" و"هم"، و"متحضّر" و"بدائي"، و"عقلاني" و"غير عقلاني"، و"مثقّف" و"أمّي"، وغيره. "الثقافة" هي ما يملكه "الآخرون"، وما يجعلهم ويبقيهم مختلفين، وما يفرّقهم عنّا. استعمل الأوروبيون مفهوم الثقافة في القرن التاسع عشر لتفسير تقاليد الشعوب الّتي غزوها واستولوا عليها وأهّلوها (في أفريقيا، وشمال وجنوب أميركا، وأُستراليا، وجزر

المحيط الهادئ، وآسيا). ويُستَعمل مفهوم اللغة اليوم لتفسير الصعوبات الّتي تواجهها الأقليّات والجماعات المهمَّشة في الانضمام والاندماج بالمجتمَع العام. من المهمّ نقد استعمال مفهوم الثقافة بهذه الطريقة، فذلك يساعدنا مثلاً على معرفة الدور الّذي يلعبه الخطاب الأكاديميّ في إنتاج وتشريع التهميش؛ إذ يلعب الكثير من الأكاديميين هذا الدور من دون علمهم (انظر مثلاً Bhabha 1994; Fox 1991; Said 1978) يتوجّب في الوقت نفسه على الأجيال الجديدة من طلّاب العلوم المتعلّقة بالتصرّف الاجتماعي للإنسان أن يكون لها إلمامٌ بتاريخ مفاهيمنا الجذريّة، لكي يتمكّنوا من إيجاد وتطوير نظريّاتٍ وتركيبات فكريّة جديدة. تبقى الإشكالات الّتي نجدها في المفاهيم السابقة للثقافة صغيرة، بالنسبة إلى خطر تجنّب التعريف بالمفهوم الّذي يمكنه مساعدتنا على فهم التشابهات والاختلافات بين الناس في العالم، في ما يخصّ تأسيسهم لأنفسهم كأنواع مختلفة من التجمّعات.

لن أدقّق النظر في كلّ النظريّات الثقافيّة الّتي أعطاها الأنثروبولوجيون في القرن الماضي[1]، بل سأتكلّم فقط عن ست نظريات تلعب فيها اللغة دوراً مهمّاً. تثير هذه النظرياتُ الجدل، وتعتمد واحدةٌ - علم النفس الفيغوتسكي (Vygotskian psychology) وهذا النمودج حتماً لا ينتمي إلى الأنثروبولوجيا بشكلٍ عام. يعتمد خياري لها على الدور الّذي تلعبه في الوصول إلى هدف هذا الكتاب، أي الحديث عن اللغة من وجهة نظرِ أنثروبولوجية. سأحدّد لكلٍّ من النظريات الثقافية مفهوماً لغوياً كما نجده بشكلٍ واضحٍ أو ضمنيٍ فيها.

(1) يمكن مراجعة استعراض كيسينغ (Keesing 1974) وأورتنر (Ortner 1984) للنظريات الثقافية.

1.2. التمييز بين الثقافة والطبيعة

يعتبر الكثيرون الثقافة شيئاً نتعلّمه، يُنقَل إلينا، ينتقل من جيلٍ إلى آخر، بواسطة التفاعلات الّتي تحصل وجهاً لوجه، وبالطبع بواسطة التبادل اللغوي أيضاً. وتُستعمل هذه النظريّة لتفسير ما يحدث للطفل، إذ إنّه، وبالرغم من تركيبته الوراثيّة، يكبر ويتبع النمط الاجتماعي للّذين ربّوه. فالولد الّذي يُخرَج من المجتمع الّذي وُلد فيه ويوضع في مجتمعٍ أخر، يكبر ويصبح عضواً من ثقافة أهله بالتبنّي. وهو يحصل على ثقافة الّذين يعيش معهم (بما فيها اللغة)، وذلك بالأخصّ بواسطة التربية اللغوية.

> يعتبر علم الأنثروبولوجيا الثقافةَ تصرّفاً محدّداً يتعلّمه أفراد مجموعةٍ معيَّنة ويشتركون فيه. يتعلّم الفرد ثقافته من عائلته وأعضاء جاليته، ومن عدّة أشكالٍ ماديّة يحصل عليها، كالكتب وبرامج التلفزيون. لا توجد الثقافة لدى الإنسان عند الولادة، بل توجد لديه عند الولادة مقدرةُ الحصول عليها، بواسطة الملاحظة والتقليد والتجربة.

(Oswalt 1986; 25)

بالرغم من اعتراف كتب كالتي ذكرناها آنفاً تنص بوجوب وجود "مقدرة على الحصول على الثقافة"، تُفهَم الثقافة كشيءٍ نتعلّمه بالمقارنة مع تصرّفات الإنسان عامّةً كحصيلة طبيعية، أي كهبةٍ تمرَّر من جيل إلى آخر بحسب مبادئ علم الوراثة. إن الاختلاف بين التنشئة والطبيعة أدى إلى اختلاف العلماء إلا انهم التقوا عند نفس السؤال: ما الّذي يميّز الإنسان؟

يقع الجواب عن هذا السؤال عند ملتقى البيولوجيا والثقافة، أي الوراثة والتنشئة. واللغة أفضل مثالٍ على ذلك، إذ لا جدل بأنّ

للإنسان مقدرة على تعلّم اللغة. يمكن لكلّ أولاد العالم السامعين أن يستمعوا إلى أصوات اللغة التي يتكلّمها الّذين من حولهم وأن يبدأوا بعد فترةٍ قصيرةٍ (سنتين أو ثلاث سنوات) بتحليل ومن ثَمّ إصدار الرسائل الصوتيّة، بما فيها من أفكارٍ معقّدة. تتميّز بالحقيقة المقدرة على تعلّم لغةٍ ما عن المقدرة على سماع الأصوات، كما أثبته استعمال الصُمّ للغة الإشارات بشكلٍ تلقائي. عندما يجد الأولاد الصمّ أنفسهم في بيئةٍ يستعمل فيها الناس الحركات للتواصل في ما بينهم، يتعلّمون هذه الحركات بسهولةٍ، كما يتعلّم الأولاد السامعون أصوات اللغة (Monaghan 1996; Padden and Humphries 1988; Sacks 1989; Lane 1984) على كلٍّ، يبدو من الواضح الآن أنّه، في ما يخصّ اكتساب اللغة، تتفاعل الطبيعة والتنشئة بطرقٍ مختلفة لتعطي لغاتٍ إنسانيّة كلّ واحدةٍ منها تبقى فريدة من نوعها.

دخلت فكرة المقابلة بين الثقافة والطبيعة في الأنثروبولوجيا الأميركية من خلال أعمال علماء كفرانز بواس[2] (Franz Boaz) الّذي وُلِد في ألمانيا، وتأثّر بفلسفة إيمانويل كَنْت (Immanuel Kant) وبفلاسفة القرن التاسع عشر المثاليين. فقد أخذ بواس بالتأكيد من كَنْت فكرة أن عقلنا قوّة أساسية في ما يخصّ فهمنا للعالَم. وكان كَنْت قد أصدر كتاباً في سنة 1798، أساسه ما علّمه في الجامعة لمدّة ثلاثين سنة تحت عنوان **الأنثروبولوجيا من وجهة نظرٍ عمليّة** (*Anthropologie in Pragmatischer Hindsicht*)، وقد عرّف فيه الأنثروبولوجيا بأنها دراسة لما يفعله الإنسان بواسطة فكره الحرّ،

---

(2) "يمكننا تعريف الثقافة كمجموع ردّات الفعل والأعمال الجسديّة الّتي تخصّ تصرّف أفراد فئة اجتماعيّة ككلّ وكأفراد مستقلّين في علاقتهم مع البيئة الطبيعيّة والفئات الأخرى وأعضاء فئتهم نفسها وكلّ فردٍ مستقلّ آخر. وهي تتضمّن أيضاً ما تنتجه هذه الأعمال ودورها في حياة هذه الفئة الاجتماعية". (Boas 1911/ 1963: 149).

والّذي يميّزه عن القوانين الطبيعيّة الّتي تسود في جسمه. ويعود هذا التعريف للأنثروبولوجيا إلى كون الثقافة (Kultur) تشكّل، من وجهة نظر كَنْت، قدرة الإنسان على وضع أهداف مستقلّة أي غير طبيعيّة، لأنها ضرورية لوجود حريّة الإنسان (The Critique of Judgment, § 83). ويذهب هيغل (Hegel) أبعد من ذلك في نفس النظريّة إذ يقول في **فلسفة ظواهر العقل** (Phenomenology of The Mind) إنّ الإنسان يختلف عن الحيوان ليس فقط بمقدرته عل التحكّم بغريزته، بل وأيضاً بمقدرته على تخطي مزاجه لكي يتقبّل معايير عالمية أوسع ويشارك فيها. يعتبر هيغل الثقافة عملية تقضي "بالابتعاد" (Entfremdung) عن النفس "الطبيعية" أو البيولوجيّة أو "بالخروج" (EntäuBerung) منها. فهذه النفس "الطبيعيّة" لا تركّز إلاّ على نفسها. تعني الثقافة أيضاً مقدرة الشخص على تخطّي وجهة نظره المحدودة وأخذ وجهة نظر الآخرين بعين الاعتبار. فهذا يسمح له بأن يحصل على معرفةٍ لنفسه (Selbstbewusstsein) وللآخر. وتشكّل هذه المعرفة دائماً منهجاً فكريّاً نظريّاً. الكلمة التي يستعملها هيغل للثقافة هي **تثقيفي** (Bildung) وتعني تكوين أو تشكيل (شكل للمادّة أو للفكر). ويقول غادامر (Gadamer [1960] 1975) بأنّ هذا المفهوم يعود إلى الصوفيين الشرقيين، حيث يتعلّق ليس فقط بكون الإنسان حاملاً لصورة الله في نفسه بل وأيضاً بالأخلاقيّة العالميّة، أي السعي إلى التحكّم بالغرائز الإنسانيّة والارتفاع بفضل ذلك إلى القيم الإنسانيّة العليا. تهدف عمليّة إدماج الأفراد في المجتمع، والّتي يشكّل اكتساب اللغة عاملاً أساسيّاً فيها، إلى تشكيل عقل الطفل وتصرّفاته بشكلٍ يسمح بتوافق فكره وكلامه وعمله مع الجالية الّتي تتخطّى حدود عائلته (Mauss 1935).

وفقاً لهذا المنظور فإن اللغة جزء من الثقافة وبالتحديد فإن

اللغات تصنف العالم الطبيعي والثقافي بطريقة مفيدة وهي تشكّل أنظمة تصنيفٍ غنية تعطينا أفكاراً تسمح بمعرفة كيفيّة دراسة معتقدات وممارسات ثقافية معيّنة. أنظمة التصنيف هذه مستقلّة ـ مما يفسّر الاختلافات العديدة بين اللغات، في ما يخصّ المفردات وتعدّد المعاني. نعرف مثلاً أنّ بعض اللغات قد تضع كلّ أفراد مجموعةً معيّنة تحت علامةٍ واحدة (كالضمير we بالإنجليزية)، بينما تميز لغاتٌ أخرى بشكلٍ أكثر دقّة (فتترجِم عدّة لغات الضمير الإنجليزي we بطرقٍ مختلفة، آخذةً بعين الاعتبار وجود شخصين أو أكثر، وحضور أو غياب السامع) (انظر ص 493 ـ 496 من هذا الكتاب). تعتبر أنظمةٌ لغويّةٌ بعض خصوصيّات الأشياء والناس مهمّة بينما لا تهتمّ بها أنظمةٌ لغويّةٌ أخرى. قام الأنثروبولوجيون الألسنيّون في الماضي بتدوين هذه الاختلافات في تصنيفهم بين لغةٍ وأخرى (انظر (Cardona 1985) حيث توجد مراجعة للأبحاث في هذا المجال). نجد مثلاً في دراسة للونسبوري (Lounsbury 1962/ 1969) أنّ السينيكا (Seneca) (وهي لغة للإيروكواس نجدها في غرب ولاية نيويورك)، وبعكس اللغة الإنجليزية وكثير غيرها، تميّز بشكلٍ واضح بين أهل الزوج وأهل الزوجة، فتُستعمل كلمة **ها؟نيه** للكلام عن الأب والعم، وابن أخت أم الأب، وابن أخ أب الأب،... إلخ، وتُستعمل كلمة **أخنو؟سيه** للكلام عن الخال، وابن أخت أم الأم، وابن أخ أم الأم . . . إلخ. (Lounsbury [1962] 1969: 195). نرى من هذه الأمثلة كيف يمكن للعلامات اللغويّة أن تعطي الأنثروبولوجيين الألسنيين أفكاراً تساعدهم على معرفة أنواع الفروقات الاجتماعية الّتي تحدّدها مجموعة معيّنة. وهذا صحيح ليس فقط في ما تملكه اللغة بل وأيضاً في ما لا تملكه. فعدم وجود ترجمة في بعض اللغات مثلاً للكلمة الإنجليزية (Privacy)، قد يدلّ على عدم وجود هذا المفهوم فيها أو على وجوده بأشكال متعدّدة لا يمكن حصرها بكلمةٍ واحدة.

يمكننا أن ندرس بشكلٍ مماثل كيف تُستعمل الأفعال في عدّة لغاتٍ لتصنيف الأعمال والفاعلين. تستعمل اللغة الإنجليزية مثلاً نفس الفعل، مات (die) عندما تتكلّم عن الإنسان أو الحيوان (حتّى وأنّها تستخدمه أيضاً أحياناً عندما تتكلّم عن آلات وأشياء تبدو وكأنّها حيّة، كالبطّاريات والمحرّكات). أمّا اللغة السامورية فهي تميّز بين موت الإنسان (أوتي) وموت الحيوان (بي)، وتعتبر الآلات كالحيوانات، فتقول مثلاً (**أوا بي اي تاأفالي**)، أي "تعطّلت السيارة، أو السيارة معطّلة" (حرفياً: ماتت). فهل يعني ذلك أنّ رؤية الّذين يتكلّمون السامورية للعلاقة بين الإنسان والحيوان تختلف عن رؤية الّذين يتكلّمون الإنجليزية لنفس هذه العلاقة؟ تحظى هذه الأسئلة باهتمام العلماء الّذين يدرسون النسبوية اللغوية (انظر الفصل 3).

اهتمّ البنيويون الألسنيّون كثيراً بهذه الفروقات المعجمية، كما نرى في أعمال ترايرر (Trier) (1934) وهلمسليف (Hjelmslev) (1961 [1949])[3] في أوروبا وفي أعمال علماء **تحليل المكوّنات** (Componential Analysis) في الولايات المتحدة (Conklin 1962/ 1969; Goodenough 1956; Lounsbury 1956). يعتبر العلماء اللغة في هذه الدراسات نظاماً من الافكار المجرّدة" يسعى إلى تحديد أصنافٍ من الأشياء (باستعماله الأسماء خاصّةً)، وأصنافٍ من الأعمال (بواسطة الأفعال)، وأصنافٍ من الخواص (بواسطة الصفات)، وأصنافٍ من العلاقات (بواسطة حروف الجرّ)، وأصنافٍ من الأحداث (بواسطة العبارات الفعلية)، وأصنافٍ من الأفكار والتفكير

---

(3) انظر ما يقوله ليرر (Lehrer 1974) عن نظريّة حقول المعاني في التحليل المعجمي. ويتحدّث تايلر (Tyler 1978) بشكلٍ مفصّل عن مختلَف نماذج التحليل المعجمي في الألسنيّة.

(بواسطة الجمل الكاملة [Boas 1911: 21]).

2.2. الثقافة كمعرفة

إذا كانت الثقافة تكتسب، إذا يمكن أن نفكّر بها كنوعٍ من معرفتنا للعالم. هذا لا يعني فقط أنّ على أعضاء ثقافة ما أن يَلمّوا بمعلومات معيّنة أو أن يقدروا أن يميّزوا أشياء وأماكن وناساً. بل يعني أيضاً أنّهم يشاركون في نفس النمط الفكري، وطرق فهم العالم وإعطاء الاستدلالات والقيام بالتنبّؤات. لوارد غودونوف (Ward Goodenough) قوْلٌ مشهور يلخّص ما يمكننا تسميته **وجهة النظر الإدراكيّة** للثقافة، كتب وارد غودونوف:

> ... تتضمّن ثقافة أي مجتمع كلّ ما على الفرد أن يعرفه لكي يتمكّن من العمل بشكلٍ يرضي أعضاءه، وان يقبل أي واحد منهم أي دور في المجتمع. بما أنّ الثقافة تشكّل ما على الناس أن يتعلّموه خارج إرثهم البيولوجي، فيجب أن تكون مُنتَج العلم، وهي المعرفة بمعناها العام ولو أن هذا المعنى يظل نسبياً. ونلاحظ من خلال هذا التعريف أنّ الثقافة ليست ظاهرة ماديّة، فهي لا تتشكّل من أشياء وناس وتصرّفات ومشاعر. بل هي تنظّم كلّ ذلك. فما يوجد في فكر الناس هو بالأحرى أشكال الأشياء، ونماذج إدراكها، والتعلّق بها أو تفسيرها.

(Goodenough [1957] 1964: 36)

هناك تماثل لغوي في ما يقوله غودونوف هنا. إن معرفة الثقافة تشبه معرفةَ اللغة. وعلاوةً على ذلك فإن وصف ثقافةٍ ما هو كوصف لغةٍ ما. وبالتالي فإنّ هدف الوصف الإثنوغرافي هو كتابة "قواعد

ثقافيّة" (انظر (Keesing 1972: 302) والفقرة 2.3.6).

ترى وجهة النظر الإدراكيّة للثقافة بأنّ المعرفة ضرورية لكي يتمكّن الفرد من المشاركة في جاليةٍ ما تتضمّن في الوقت نفسه **المعرفة السلوكية والمعرفة الإجرائية.**

تدلّ معرفة الجُمل على المعتقدات الّتي يمكن تمثيلها بواسطة جملٍ، مثلاً: **القطط والكلاب حيوانات أليفة، التدخين مضرٌّ للصحّة، ولا يمكن للمولودين الجدد أن يزحفوا.** هذه أقوالٌ تدلّ على معرفة بتلك الامور، ويسعى الإثنوغرافيون كثيراً إلى دفع المتكلّمين إلى استعمالها. أمّا المعرفة الإجرائية فهي تدلّ على معرفة "كيف" تتمّ الأمور، ويجب عادةً استخلاصها من التمعّن في كيفية قيام الناس بأعمالهم اليومية وايجاد الحلول لمشاكلهم. إذا أردنا أن نقود سيّارة مثلاً، علينا أن نعرف ليس فقط ما تفعله كلّ قطعةٍ فيها، مثلاً إذا ضغطنا على دوّاسة معيّنة تسرع السيّارة أو تبطئ وهذه من المعرفة السلوكية؛ ولكن علينا أيضاً أن نعرف بالضبط متى وكيف نستخدم هذه المعرفة. علينا أن نعرف "الإجراءات"، أي سلسلة الأعمال الّتي يجب القيام بها لكي نستطيع الوصول إلى غايتنا، مثلاً الإسراع أو التوقّف. وعلينا أيضاً أن نعرف ما إذا كان الوضع الحالي يحتاج إلى القيام بعملٍ معيَّن.

اهتمّ الأنثروبولوجيون في الستّينات بأنظمة المصطلحات، مستعملين إياها لدراسة العالم الإدراكي لمجموعات معيّنة:

> بما أنّ الرموز الإدراكيّة هي في معظم الأحيان لغويّة وفعّالة، فمن المفروض إذا أن تعطينا دراسة الاستعمال الدلالي للردود ـ أو **المصطلحات** - اللغويّة المتَّبعة والمتوفّرة بسهولة بدايةً مثمرة لتخطيط النظام الإدراكي. ونعرف، بفضل وجود التصرّف الكلامي،

من أين نبدأ (Frake [1962] 1969: 30).

تُعتبر اللغة في هذه الحالة مجموعة من الجمل لما يعرفه (أو يعتقده) المتكلّم (كعضوٍ في المجتمع أو الجالية اللغويّة). ويجب حصر هذه الجمل، بالصيغة: مبتدأ + خبر، مثلاً **هذه النبتة** (مبتدأ) **شجيرة فراولة** (خبر)، **جون** (مبتدأ) **أخ والد ماري** (خبر) **والتّيل نوعٌ من الزهور** (خبر). يمكن عندها ربط هذه الجمل بمجموعات أكبر، بواسطة قواعد استنتاج كالتالية:

جون أخو والد ماري

أخو والد X هو عم X

جون هو عم ماري

يعتمد الأنثروبولوجيون الإدراكيون إذاً على معرفة الأصناف اللغوية والعلاقات فيما بينها لكي يبرهنوا أنّ قسماً من الثقافة يعني (على الأقلّ) المشاركة في المعرفة التعبيرية وقواعد الاستنتاج الضروريّة لفهم ما إذا كانت جملٌ معيّنة صحيحةٌ أم لا (حسب المسلّمات المتّبَعَة). ويمكننا إضافة المعرفة التعبيرية إلى المعرفة الإجرائية الّتي تساعد على القيام بأعمال معيَّنة، كالطبخ والحياكة والزراعة وصيد الأسماك، والخطابة، والإجابة على الهاتف، وطلب خدمة، وكتابة رسالة لطلب عمل.

لقد تخلّى العلماء مؤخَّراً، في أعمالهم المخصصة للثقافة والإدراك، عن سعيهم إلى إيجاد "قواعد" ثقافيّة تتبع نموذج القواعد اللغويّة، واستبدلوها بنماذج يعتبرونها أكثر استقلالاً عن الشكلية اللغوية والتحليل اللغوي (Boyer 1993a; Dougherty 1985). فأكّد علماء نفس وفلاسفة وأنثروبولوجيّون وجود فئاتٍ من النماذج النمطيّة المتوفّرة بسهولة في عقل الإنسان، والّتي تشكّل **أنواعاً طبيعية** يمكن

للناس استعمالها للوصول إلى استنتاجاتٍ عدّة تخصّها، من دون أن تكون لديهم "نظريّة" أو "نموذج" ما عن هذه المفاهيم. ولم تعطِ الطريقة الّتي اتّبعها علماء الدلالات والألفاظ الإثنية، كفريك وغودونوف، نتائج جيّدة، إذ لم يستطع الناس أن يعطوا جُملاً أو (ميّزاتٍ) تصف الظروف الضروريّة والكافية لما يشكّل "كلباً" أو "شاماناً"، بل يبدو بالأحرى أنّ لدى الناس فهماً بديهياً لما تشير إليه هذه المفاهيم. يستطيع الأطفال حتّى أن يستنتجوا أنّ ما تمّت الإشارة إليه كالكلب الذي يأكل الطعام وينام وينظر إلى الأشياء، في حين أن المطرقة لا تقوم بأي من هذه الأعمال. يُذكَر "النوع الحي" كثيراً كمثالٍ عن الأنواع الطبيعية (Atran 1987, 1990; Atran and Sperber 1991; Sperber 1985). الحقيقة أنّ الأطفال يكتسبون بسهولةٍ الأنواع الحيّة من دون أن يتعلّموا ذلك أو من خلال خبرة مباشرة بسيطة، وقد اعتُبِر ذلك دليلاً على وجود "توقّعات فطرية عن تنظيم العالم البيولوجي اليومي" (Atran 1993: 60). يعتبر أتران أنّ أحد هذه التوقّعات يستند إلى أنّ للأنواع الحيّة جوهراً، بينما تعرَّف الأدوات بوظائفها.

استعمل أنثروبولوجيون رمزيون يهتمّون بالطقوس والحياة الدينية هذه النظرية عن قدرة الإنسان الفطرية على التمييز بين الفئات، بشكلٍ أو بآخر (Boyer 1990; Boyer 1993b). استعمل بلوخ (Bloch) (1993) مثلاً فرضيّة أتران (Atran) حول فئة النوع الحي الطبيعية لإثبات نظرية معقّدة تفسّر كيف يمكن لزفيمانيري مدغشقر أن يكوّنوا مفهوماً يقضي بتحويل الناس إلى أشياء (كالمنازل الّتي كانوا يسكنون فيها)، عند وفاة الزوج والزوجة اللذين بنياه، يُعتبَر البيت نفسه الزوج والزوجة ويصبح "منزلاً مقدَّساً" (**ترانو مازينا**)، ومورد بركةٍ لأولادهما (Bloch 1993: 115). يقول بلوخ إنّه إذا أردنا فهم هذا التحوّل

الرمزي، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أنّ المادّة الّتي استُعملت لبناء المنزل كانت شجراً قبل أن تصبح "خشباً". "كان هذا الانتقال الفكري من الناس إلى الشجر ممكناً لأنّه معدّ في وحدة حقل الأنواع الحيّة" (Bloch 1993: 119). أمّا الانتقال بعد ذلك من النوع الحي (الشجر) إلى الشيء (المنزل)، فهو أصعب أو أقلّ طبيعيّة لعقل الإنسان، لذلك يناقش بلوخ الحاجة إلى رموز ماديّة كالألواح الخشبيّة الكبيرة المزيَّنة، الّتي، ومع الوقت، تأتي مكان مكوّنات البيت الضعيفة (الخيزران المُحاك والحصائر) الّتي استعملها الزوج والزوجة. يصبح الموقد وتصبح الأعمدة المركزية البديل الدائم للأجداد، ويتّجه الأولاد نحو هذه الأشياء عندما يريدون الحصول على البركة[4].

يعتبر هذا الجيل الجديد من الأنثروبولوجيين أنفسهم أقلّ اعتماداً على التحليل اللغوي من أسلافهم، ولكنّ التحوّل من التركيز على وصف الأنظمة الثقافيّة المستقلّة إلى دراسة الأساس الواحد العالمي للثقافات ليس إلاّ وجهاً آخر للتحوّل الّذي حصل في السنوات الثلاثين الماضية من النظريّات السلوكيّة إلى النظريّات اللغويّة. حاول تشومسكي (1965, 1968) أن يبرهن وجود مبادئ فطرية لاكتساب اللغة، لأنّ الأطفال لا يحصلون على معلومات كافية تسمح لهم وحدها أن يعمّموا ما يعرفوه وأن يكتسبوا بالتالي أساسيات اللغة في وقتٍ قصير (سنتين أو ثلاثة). ويسعى الأنثروبولوجيون الإدراكيّون العصريّون، بشكلٍ مماثل، إلى إثبات عدم وجود دلائل كافية في تجارب الناس اليوميّة على وجود أنواع معيَّنة من المفاهيم الثقافيّة فيها. فيبدو مثلاً أنّ للرمزيّة الدينيّة مبادئ ضمنيّة ـ مبادئ لا تظهر

---

(4) يعقّد الأمور هنا استعمال الزفيمانيريون (Zafimaniry) نفس الكلمة **(هازو)** للدلالة على الشجرة (ما هو حي) وعلى الخشب (وهو غير حي). ولكن انظر الحلّ الّذي يعطيه بلوخ (Bloch 1993: 116) للخروج من هذا المأزق.

وتقال بشكلٍ كامل ـ وأقوال مبهَمة. وبالتالي لا يمكن اكتسابها "إلا إذا كانت هناك مبادئ تسمح بالذهاب أبعد من المعلومات المتوفّرة" (Boyer 1993: 119). وتشكّل هذه المبادئ تطبيقاً للفرضيات المتعلّقة بالأنواع الطبيعية على مجالٍ غير طبيعي. ويعتبر بوير أنّ بناء هذه "الأنواع شبه الطبيعية" هو ما يسمح للكثير من الممارسات الدينية بالوجود". وهذا يعني بكلّ بساطة أنّنا نستعمل الكثير من الأصناف الثقافية (مثلاً ما يميّز الشامان أو الشاعر، أو أي شخصٍ ذي ميّزة خاصّة لا يمكن التعريف بها) "إمّا بشكلٍ مباشَر كأنواعٍ طبيعية، أو كمسندٍ يعتمد على وجود الأنواع الطبيعية" (Boyer 1993: 132).

1.2.2 الثقافة كمعرفةٍ موزَّعة في المجتمع

تعطينا الأعمال الحديثة للأنثروبولوجيين البسيكولوجيين الثقافيين (Lave and Wenger 1991; Resnick, Levine, Teasley 1991; Suchman 1987) عن كيفيّة تفكير الناس في حياتهم اليومية وجهة نظر مختلفة عن الثقافة كمعرفة. لا يعتبر هؤلاء الباحثون المعرفة شيئاً يوجد فقط في العقل. فتقول الأنثروبولوجيّة جان ليف (Jean Lave) (Lave 1988: 1) إنّنا إذا ما راقبنا كيف يجد الناس حلولاً لمشاكلهم في حياتهم اليومية، نكتشف أنّ التفكير "موزع _ممتد وليس مقسماً _ بين العقل والجسم والنشاط والظروف المنظمة ثقافياً (إضافة إلى فاعلين آخرين)". عندما نقول إن المعرفة الثقافية **موزعة اجتماعياً** فإننا نعني: (1) الفرد ليس دائماً نهاية عملية الاكتساب، وأنّنا (2) لا نحصل جميعاً على نفس المعلومات ولا نستعمل نفس الأساليب للوصول إلى أهدافنا. تعني النقطة الأولى أنّ المعرفة لا توجد دائماً في عقل الفرد وحده. فهي توجَد أيضاً في الأدوات الّتي يستعملها الفرد، والبيئة الّتي تسمح بحلّ بعض المسائل، وفي العمل الجماعي لعدّة عقولٍ وأجسادٍ لديها نفس الأهداف، وفي المؤسسات الّتي تنظّم

أدواراً وتبدلات الأفراد. هذا ما يعتقده الأنثروبولوجي الفكري إدوين هاتشينز (Edwin Hutchins) الّذي استنتج من دراسته للملاحة على متن سفينة بحريّة، أنّه على وحدة التحليل المثاليّة للكلام عن ما يسمح للفكر بالوجود أن تتضمّن الموارد الإنسانيّة والماديّة الّتي تسمح بإيجاد حلول للإشكالات.

> إن وحدة التحليل المثاليّة للكلام عن التغيّر الفكري تتضمّن بيئة التفكير الاجتماعية والماديّة. **يشكّل العلم إعادة ترتيبٍ ترمي إلى التأقلم مع نظام معقّد.** وتصعب مقاومة وجهة نظر الغرب الّتي تقلّص وحدة التحليل إلى الفرد المحاط بجِلده، أو حتّى إلى نظام الرموز "الفكري" الّذي يحتمي من العالم بعيداً تحت جلد الإنسان. ولكنّ النظام المعقّد الّذي يهمّنا، كما رأينا، يتضمّن شبكةً تتناسق فيها التواصلات داخل وخارج الّذين يقومون بمهَمّةٍ أو أخرى. (Hutchins 1995: 289).

إن مثل هذا الاختلاف في توزيع المعرفة بين المساهمين والأدوات لا يهم فقط حقول المعرفة السريّة أو التقنية أو المتخصّصة فقط (كالطب، والملاحة، والفنون والحِرف، والخطابة)؛ وإنما يشمل أيضاً النشاطات والممارسات اليوميّة. تستلزم هذه النظرة ان الشخص يحتاج أن يعرف ويستخدم ليس فقط مجموعة من التعابير لكي يصبح عضواً فعّالاً في مجموعةٍ ما. نرى كلّ يوم مدى ضعف الفكرة الّتي تقضي أنّ الإنسان يتعلّم القيام بشيءٍ ما بواسطة مجموعةٍ من التعليمات، عندما يحاول الشخص أن يتعلّم الطبخ بالنظر فقط إلى كتاب طبخ أو إلى من يسعى إلى استخدام برنامج على الحاسوب بدراسة الدليل. فكثيراً ما يجد الشخص نفسه في مأزق أو يحصل ما

هو غير متوقَّع. نكتشف عندها أهميّة التجربة الّتي نعيشها بفضل معايشتنا لأعمال شخصٍ خبيرٍ في مجالٍ ما، والحاجة إلى وجودنا **داخل العمل** الّذي يمارَس قبل أن نتمكّن من القيام به وحدنا، وإلى أيّ درجة يمكن للكلمات وحدها أن تعيد تشكيل وضعٍ ما يسمح بحدوث ذاك التحوّل الّذي يشكّل ما نسمّيه تعلُّم شيءٍ ما. يصعب للفرد وحده أن يُحدِث تغييراً فرديّاً. ليس من المصادفة أن يكون التدريب الحرَفي أكثر طرق نقل العلم انتشاراً. فهو منهج يقضي بوضع حدودٍ للاشتراك في العمل وإشعار الفرد في الوقت نفسه بالمشاركة فيه. يراقب المبتدِئ الخبراء في عملهم ويشاركهم بالعمل تدريجيّاً. يعني ذلك أنّه يملك في كلّ درجةٍ من التدريب صورةً عما يجب أن تكون عليه الخطوة التالية. يختلف هذا التدريب عن العلم في المدارس، حيث يعطى التلميذ مجموعةً من التعليمات عن كيفيّة القيام بعملٍ ما، من دون أن يراقب الخبراءَ لمدّةٍ معيّنة ومن دون أن يعرف ضرورة شيءٍ أو عملٍ ما.

تؤثّر فكرة انتشار المعرفة المتعددة على نظرتنا للانتماء إلى ثقافةٍ ما. يعتبر الغرب عادةً أنّ كل الّذين ينتمون إلى ثقافة معيّنة يملكون نفس المعرفة. يملك الناس الّذين ينتمون إلى أماكن مختلفة من البلاد، أو عائلات مختلفة من الجالية الواحدة، أو أحياناً حتّى أفراد من نفس العائلة، أفكاراً مختلفة تماماً عن المعتقدات الثقافية الأساسية (كماهيّة ووجود الله)، وخبراتٍ مختلفة في الممارسات الثقافية اليومية (كالطبخ والأكل)، واستراتيجياتٍ مختلفة في تحليل الأوضاع وحلّ الإشكالات. يبدو أنّ إدوارد سابير (Edward Sapir) كان على علم بهذه الخصوصيّة الثقافية، إذ يقول إنّ "كلّ فردٍ يمثّل فعليّاً ثقافة فرعيّة واحدة على الأقلّ، يمكن عزلها عن ثقافة المجموعة الّتي ينتمي إليها" (Sapir 1949a: 515).

لا يدرك الناس أحياناً كلّ التنوّع الموجود في جاليتهم - ويمكننا حتّى القول بأنّ الممارسات اللغوية تشجّع على تأسيس وامتداد رؤيةٍ متجانسةٍ للثقافة. تزوّدنا اللغات بفئاتٍ ورؤياتٍ عامّة نتقبّلها من دون جدل. فنتكلّم عن "الأميركيين" و"الإيطاليين" و"اليابانيين" وكأنّهم مجموعات ذوات وحدة متراصة. نستعمل تعابير مثل **نؤمن بالحريّة في بلادنا** أو **يفضّل الّذين يتكلّمون الإنجليزية الجمل القصيرة**، بالرغم من أنّ الكثير من الّذين ينتمون إلى مجتمعنا لا يشاركون الجميع إيمانهم بفكرة "الحرية" هذه، وأن فكرة "الجمل القصيرة" تتغيّر في سياق الكلام وتُنتهَك من قِبَل أفضل الكتّاب. إن اللغة، ليست نظاماً كنظام للتصنيف فقط، بل أيضاً كممارسة، أي كطريقة معيّنة تسمح بأخذ وإعطاء ما نريد من وإلى العالم، مع قرارات قد اتُّخذت من قبل بخصوص وجهات النظر والتصنيف. هذا لا يعني أنّه عندما يستعمل شخصان مختلفان العبارة نفسها فهما يملكان أيضاً نفس المعتقدات ويفهمان الوضع الحالي بنفس الطريقة، ولكن يؤدي استعمال العبارات اللغوية من دون تفكير وبشكلٍ متكرّر إلى إنتاج كليشيهات تخصّ التمييز بين الرجال والنساء، والجنس البشري، والطبقات الاجتماعية.

بالرغم من أن الجاليات تختلف بعضها عن بعض في تمثيلها للتنوّع فيما بينها، فإن التنوع يعد معياراً وليس استثناء. كانت دراسات أنطوني والاس (Anthony Wallace) الأنثروبولوجية عن الثقافة والشخصية الأولى التي قدمت وجهة نظر بديلة للثقافة **كتنظيم للتنوّع** (انظر Wallace 1961: 28). يعتبر والاس أنّ ما يميّز الناس المنتمين إلى نفس الثقافة ليس تماثُلهم ولكن "قدرتهم على تكهّن أعمال بعضهم البعض"، سواء أكان هذا التنبؤ موثراً أم لا. نعرف أنّ نجاح الجاليات وما يبقيها حيّةً وقادرةً على إدارة النزاعات فيما بينها لا يعود

إلى كون الجميع يفكّرون بنفس الطريقة (مما يبدو مستحيلاً) بل عندما تتعايش وجهات النظر والتصورات المختلفة. يبيّن التمييز والعنف العنصري والعرقي والجنسي وجود مشاكل لدى الناس في تقبلّهم نمط حياة الآخَرين على اختلافهم بما في ذلك طريقتهم في الكلام. ويبيّن عمل جون غامبرز (John Gumperz) ومعاونيه، في ما يخصّ اللغة في الجاليات المتعدّدة اللغات، كيف يمكن للغة أن تكوّن عائقاً للتكامل الاجتماعي (Gumperz 1982a, 1982b, Jupp, Roberts, and Cook- Gumperz 1982).

3.2. الثقافة كتواصل

إن القول بأنّ الثقافة تواصلٌ يعني أنها نظام رموز. هذا ما يقوله علم الدلالة عن الثقافة. ويعتبر بكلّ بساطة أنّ الثقافة تمثّل المجتمَع وتعطي معنىً للحياة من خلال القصص والأساطير والتفاصيل والنظريات والأمثال والأعمال الفنيّة فيها. تصبح عندها أعمال الناس الثقافية، أي الأساطير والطقوس وتصنيف العالم الطبيعي والاجتماعي، طرقاً يستخدمها البشر للسيطرة على الطبيعة، بفضل قدرتهم على إقامة علاقاتٍ رمزية بين الأفراد والمجموعات والفئات. يعني أيضاً اعتبارُ الثقافة تواصلاً أنّه يجب إيصال نظريات الناس عن العالم إلى الآخرين كي تتداول وتعيش معهم.

1.3.2. ليفي ـ ستراوس والمنهج الإشاري

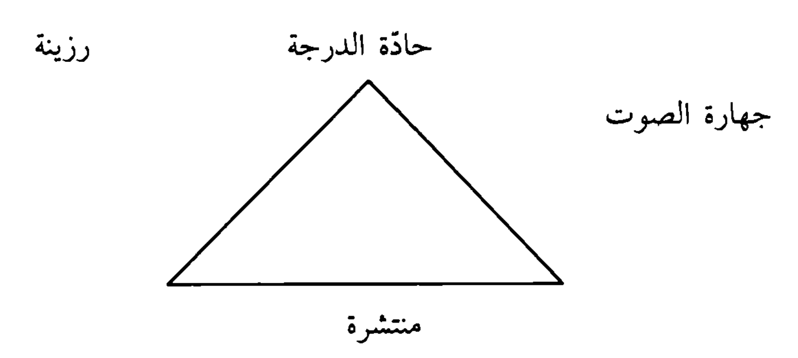
يمثّل عمل الأنثروبولوجي البنيوي ليفي ـ ستراوس (Lévi-Strauss) أول الأعمال الّتي اعتبرت الثقافة تواصلاً. فهو يعتبر **كلّ الثقافات أنظمة أشارية** تعبّر عن استعداد فكري ضمني لتصنيف العالم بحسب تضادات ازدواجية (Leach 1970; Lévi-Strauss 1963a, 1963b, 1978; Pace 1983) يفترض ليفي ـ ستراوس أوّلاً أنّ عقل الإنسان هو

نفسه في كلّ مكان وأنّ الثقافات تشكّل طرقاً مختلفة لتطبيق ميّزات الفكر المنطقيّة المجرَّدة، الموجودة لدى كلّ البشر التي تتكيف حسب ظروف الحياة المعينة. وتعتبر رؤيته، وهي إلى حدٍّ ما ردّة فعل وانتقاد لمفاهيم كانت موجودة من قبله عن "الفكر البدائي"، لا يوجد اختلافٌ إدراكي أساسي بين التفكير بالعالم بواسطة المفاهيم المجرَّدة كما نجدها في علم الجبر أو الأرقام المزدوجة والتفكير بالعالم بواسطة أسماء طوطم (Totem) (مثلاً: النسر يقابله الدب، والأرض تقابلها السماء، وأعلى النهر يقابله مصبّ النهر) وكلها مأخوذة من الطبيعة (البيئة من حولنا والنبات والحيوانات). يكمن الاختلاف بين طرق تفكير ما يسمّى المجتمعات "التقليدية" (الصيادون ـ الحصادون مثلاً) والمجتمعات الغربية ذات التكنولوجيا المتقدّمة في الموارد الّتي تستعملها لبناء نظرياتها. يبني "الفكر البدائي" الأساطير مستعملاً لذلك عدداً محدوداً من الأحرف والاستعارات والحبكات القصصية[5]. من جهةٍ أخرى، ينتج علم الغرب دائماً أدواتٍ ومفاهيم جديدة؛ فللاطباء والمهندسين مثلاً أدواتٍ صمّمت خصيصاً لعملهم دون غيرهم. ولكن يعمل العلم كما تعمل الأساطير، فيستعمل كلاهما الإشارات والمناظرة والمقارنة.

تبرز رؤية الثقافة كتواصل بشكلٍ واضح في استخدام ليفي ـ ستراوس لمفاهيم وجدها في النظريات اللغوية لتفسير الصلات بين الفئات الثقافية المختلفة. فاستعمل ليفي ـ ستراوس مثلاً نظرية اللغوي

(5) استعمل ليفي ـ ستراوس (Lévi-Strauss) الكلمة الفرنسية bricolage (العمل الماهر) للإشارة إلى استعمال كلّ ما يجده الشخص من حوله لبناء أو تركيب شيءٍ ما. الشخص العملي الماهر (bricoleur) يعمل بيديه ويستعمل وسائل غير معتادة بالنسبة إلى ما يستعمله الحرفي (Lévi-Strauss 1966: 17). وبالتالي يُعتبرُ من يعمل كشخصٍ عملي ماهر يعيد تركيب ما يجده في مكانٍ مختلف واحداً من "الناس البدائيين".

الـروسـي رومـان جـاكـوبـسـون (Roman Jakobson) عـن اكـتـسـاب الأصوات موسّعاً نطاقها، لكي يطبّقها على الثقافة والطبيعة. يقول جـاكـوبـسـون إنّ الأطـفـال يـبـدؤون بـإيـجـاد مـعـانـي لـلأصـوات الّـتـي يسمعونها عندما يشكلّون نظاماً للمقارنة يميّزون فيه بشكلٍ مزدوج بين حروف العلّة والحروف الساكنة من جهة، وبشكلٍ ثلاثي بين حـروف الـعـلّـة الأكـثـر وضـوحـاً (i, a, u) والـحـروف الـسـاكـنـة الأكـثـر وضـوحـاً (p, t, k) من جـهـةٍ أخـرى. ويـعـتـبـر جـاكـوبـسـون أنّـه يـمـكـن وصـف مثلّثات التمييز الأكثر وضوحاً بين حروف العلّة (انظر الرسم 1.2) بـواسـطـة الـثـنـائـيـتـين الـمـتـضـادتـين لـسـمـات الاصـوات الـفـيـزيـائـيـة بـين مـا يسمّيه الأصوات **المتضامة والمنتشرة** وأيضاً بين ما يسمّيه الأصوات **الرزينة والحادّة**[6].

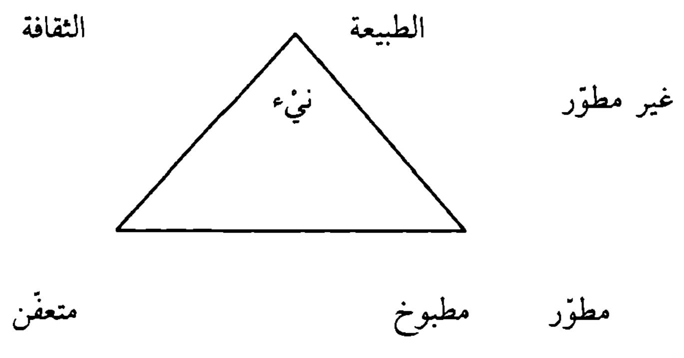


الرسم 1.2 مثلّث جاكوبسون الصوتي

وجد ليفي ـ ستراوس في هذا المثلّث **أسلوباً** يمكن استعماله

(6) التمييز بين ما هو "مُحكم" وما هو "مستفيض" مبني على شكل الإشارة الصوتية كما تظهر في الصورة الطّيفيّة، الّتي تُظهر كثافة الطاقة العالية أو المنخفضة في حقلٍ مركزيٍ من الطيف، يرافقها زيادة أو انخفاض في الطاقة. ويشير التمييز بين ما هو "عميق" وما هو "حادّ" إلى كثافة الطاقة في التردّد العالي أو التردّد المنخفض في الطيف. انظر: Jakobson, Fant and Halle (1963), Jakobson and Halle (1956), Hyman (1975: 35).

للحديث عن التحولات الثقافية في الطبيعة بالإضافة إلى النشاط العالمي في الطبخ. فطبّق مثلّث جاكوبسون لحروف العلّة الأكثر وضوحاً على الطبخ، فأوجَد **مثلّث طبخ** (Lévi-Strauss 1965) حيث استبدل الأصوات بمواصفات الطعام والمقابلة التناقضية بين الميّزات الصوتيّة الفيزيائية بالمقابلة بين الطبيعة والثقافة وبين ما هو مطوَّر وما هو غير مطوّر:



الرسم 2.2 مثلَّث ليفي - ستراوس للطبخ (Lévi-Strauss 1965)

استعمل التمييز بين ما هو "غير مطوَّر" وما هو "مطوَّر" لتمثيل التحوّل الّذي تقوم به الثقافة (الطبخ) والطبيعة (التعفّن) في ما يخصّ الطعام. وقد وضع فئة "النيء" بين الثقافة والطبيعة لأنّ تقاليد الطعام تقبل عادةً بوجود ما هو نيْء (عندما تقدَّم الفاكهة أو الخضار النيئة في صحنٍ مثلاً)، دون أن تكون الثقافة المطبخية قد طوَّرته أو حوَّلته إلى ما هو مطبوخ(7).

يجب عندها التساؤل عن مدى وجود نفس أنواع الاندماجات والاستبدالات في ثقافاتٍ مختلفة. قد يرى الأنثروبولوجي في هذه

---

(7) يعطينا ليفي ستراوس في نصّه تمييزاً أكثر دقّة، إذ يفصل ما هو مشوي عن ما هو مدخَّن أو مغلي، انظر أيضاً (Leach 1970: 28-31).

الترابطات **فئات عالمية في فكر الإنسان**، إذا وجدها في مجتمعات مستقلّة تاريخياً. يمكن، عند اتّباع هذا الأسلوب في التحليل، استخدام أفكارٍ موجودة في النظريات اللغوية لتحليل الثقافات، لأنّه يتمّ عندها فهم الثقافة كنظام يمرّر نفسه من خلال أفراد المجتمع الناشطين. وكان ليفي ـ ستراوس يعتقد أنّ الناس لا يعبّرون عن أنفسهم بواسطة الأساطير، بل العكس تماماً، أي أنّ الأساطير تعبّر عن نفسها من خلال الناس. ونرى ذلك بشكلٍ واضحٍ في ما يقوله عن ما كتبه.

> تتذكّرون ربّما ما كتبته بأنّ الأساطير تدخل فكر الإنسان من دون أن يعلم. لقد نوقش ذلك كثيراً وحتى انتقدت من قبل زملائي الذين يتكلمون الإنجليزية، لأنهم يعتبرون ذلك فارغاً من أي معنى، من وجهة نظر العلم التجريبي. أمّا بالنسبة إليّ فإنه يصف جيّداً تجربة حية، لأنّه يقول بالضبط كيف أفهم علاقتي الشخصيّة بعملي. أي أنّ عملي يعمل في فكري من دون أن أعلم. وأنا لم ولا أحسّ بوجود هويتي الخاصّة. أظهر لنفسي كمكانٍ تحدث فيه الأشياء، ولكن لا يوجد هناك ما نسمّيه "أنا". فنحن كلّنا تقاطعات طرق حيث تدور الأحداث. وتقاطعات الطرق هي دوماً غير فعّالة، تحدث فيها الوقائع. وفي مكان آخر تحدث وقائع أخرى هي أيضاً صحيحة. لا يوجد خيار، بل المصادفة فقط (Lévi-Strauss 1978: 3-4).

في هذا النموذج، يذوب الإنسان الواقعي، أي المخلوق التاريخي الّذي يشكّل موضع الإحساس والأفكار والمشاعر، ومصدر وأصل أعماله، ليصبح موضعاً متسامياً، غير ثقافي وغير تاريخي

(Mannheim 1991: 150-151). فوجب انتظار فكر غيرتز (Geertz) الّذي علّمنا أن ننظر إلى الناس في مواضعهم الاجتماعية والتاريخية كأفراد **يفسّرون حياتهم** (انظر الفقرة 2.3.2.)، وبورديو ونظرية الممارسة (انظر الفقرة 5.2.) التي علمتنا أنّ التفسير لا يقتصر على حلّ شِفرة (Moore 1994: 74).

2.3.2 كليفورد غيرتز والمنهج التفسيري

يعتبر كليفورد غيرتز أيضاً الثقافة تواصلاً، ولكنّه، وبعكس ليفي ـ ستراوس، لا يعد الاختلافات الثقافية كتنوعات لنفس قدرة الإنسان غير الواعية للفكر المجرد. فلا يسعى غيرتز إلى فهم التشابهات الضمنية بين الثقافات، بل يسعى إلى تأسيس منهج أبحاثٍ يدرس عمليّة التفسير غير المتناهية الّتي تميّز تجربة الإنسان - وهو يشارك في نظرته هذه الفلاسفة التفسيريين (Gadamer 1976). وهو يسعى إلى إيجاد طرق لفهم ثقافات الإنسان من دون الاعتماد على النظريات السببية الّتي تستخدم قوانين عامّة للسلوك:

> ان مفهوم الثقافة الذي اتبناه هو في جوهره إشاري. متفقاً مع ماكس فيبر أنّ الإنسان حيوانٌ معلّقٌ في شبكات معانٍ حاكها بنفسه، وأعتبر أنّ الثقافة تشكّل هذه الشبكات، وأنّ تحليلها بالتالي لا ينتمي إلى علم تجريبي يبحث عن قوانين بل هو تحليلٌ تفسيري يبحث عن معانيها (Geertz 1973: 5).

يعتبر غيرتز أنّه علينا الكشف عن "الشبكات" الّتي تشكّل الثقافة بواسطة الأبحاث والأفكار الإثنوغرافية، الّتي قد تؤدّي إلى عدّة وجهات نظر عن ما يبدو أنّه نفس الحدث. استعار غيرتز مفهوم **الوصف المكثف** من جيلبرت رايل (Gilbert Ryle) واستخدمه في

نظريته الثقافية: يرجع الإثنوغرافي دائماً إلى نفس المعطيات ويزيد "الطبقات" - وتعني الكثافة كما نقول **كومة كثيفة** - وتعني أيضاً الثخانة والتكتّل - كما في قولنا **شوربة كثيفة**. ويركّز غيرتز على الثقافة كمنتج للتفاعل الانساني "الثقافة... عامة...لا توجد في ذهن الفرد..." (المصدر نفسه). يخلق البشر الثقافة وعليهم في الوقت نفسه تفسيرها. يعني قوله أنّ الثقافة لا توجد في ذهن الفرد وإنما في الخارج ومن حولنا، ينتجها البشر ويُتاحِ لهم تفسيرها. تُعتَبر الظواهر الثقافية، من وجهة النظر هذه، أعمالاً تؤمّن التواصل. عندما نراقب الناس وهم في نقاشٍ مفتوح، أو في جنازةٍ، أو ذاهبون إلى مباراة كرة قدم، أو أمام مصارعة ديكة، نجدهم يقومون بتصرّفاتٍ منسَّقة لا تحتوي على رؤى للعالم ولكن تنتجها أيضاً، بما في ذلك مفاهيم محليّة **للشخص** (أو **للنفس**) - وهو مفهوم مركزي بالنسبة إلى غيرتز وللكثير من الأعمال الأنثروبولوجيّة. يشير الوقوف في الطابور للدخول إلى مسرح ليس فقط إلى وجود معلومات ومعرفة تخصّ كيفيّة الحصول على مقعدٍ للجلوس بين الجمهور - ممّا يشكّل موضوع دراسةٍ بامتياز بالنسبة للأنثروبولوجيين الإدراكيين - بل أيضاً إلى أن هذا الوقوف ينقل معه أفكاراً تخصّ النظام العام وحقوق الأفراد والتعاون المتبادَل. وينقل ويُنتج أيضاً مفهوماً معيّناً لماهيّة الشخص، وكذلك عندما يرفض شخص ما الوقوف في الطابور، فإنه يعد تصرفاً تواصلياً ورفضاً علنيّاً للمبادئ العامّة ونقداً للحقوق والفروض الّتي تقتضيها هذه المبادئ.

3.3.2 منهج الدلالة والبراغماتيّة التبصّريّة

تعتمد الرؤية الحديثة للثقافة كتواصل على دراسات الدلالة (انظر الفقرات 2.4.1. و2.9.6.). هذا ما نجده بالأخصّ في عمل ميخائيل

سيلفرشتاين (Michael Silverstein) الّذي يسعى إلى تطوير نظريّات بيرس (Peirce) وجاكوبسون (Jakobson). تعتبر هذه الرؤية الجديدة(8) أنّ قوّة التواصل الثقافيّة تعود ليس فقط إلى تمثيلها عدّة وجوهٍ للواقع، ولكن أيضاً إلى ربطها الأفراد والجماعات والوقائع والأشياء بأفرادٍ وجماعاتٍ ووقائع وأشياء أخرى أو، بشكلٍ عام، بسياقات أخرى. وتعتبر أيضاً أنّ المعنى (معنى الرسائل والأعمال والوقائع) لا تتحقق من خلال العلاقات المعتادة بين العلامات ومحتواها فقط - فكلمة **مكتب** مثلاً تعني واحداً من الأشياء المادية التي نجلس عليها للقيام بعملٍ ما - وانما خلال العلاقات الّتي تحرّكها العلامات بين أوجهٍ معيّنة للواقع الحالي وأوجهٍ لوقائع أخرى. لا يشكّل التواصل فقط استخداماً لرموزٍ "تمثّل" معتقدات ومشاعر وهوياتٍ ووقائع وإنما يشير إلى افتراض او استحضار معتقدات ومشاعر وهوياتٍ ووقائع السياق الحالي. هذا ما يُدعى أحياناً **بالمعنى** المعجمي للعلامات. لا تمثّل الكلمة، في هذا النوع من المعاني شيئاً ما أو مفهوماً، بل "تشير إلى أو ترتبط بـ" "شيءٍ ما في السياق (انظر الفقرة 2.4.1.). ما تشير إليه هو إمّا "مفترَض" أو مستلزَم (أي "مخلوق").

هذا يعني أن أشكال التواصل (العبارات اللغوية والعلامات المرسومة الإيماءات والأداء المباشر) هي وسائط لممارسات ثقافية إلى حد تفترض أو تؤسس ميّزاتٍ سياقية (مثلاً من هو الّذي يوجّه إليه الكلام أو علاقة القرابة الاجتماعية بين السامع وبين المتكلّم) هذه الميزات السياقية التي تصفها الرسالة أو معناها الإشاري ليست ضرورية، ولكنّها تبقى مفهومة. لا تشمل هذه المعاني فقط ما يسمّى

---

(8) انظر: Silverstein (1976b; 1981; 1985b; 1987; 1993), Hanks (1990; 1996), Lucy (1993). Mertz and Parmentier (1985), (1994), Wertsch (1985a).

بأسماء الإشارة كـــ هنا وهناك والآن وأمس وأنا وأنت... إلخ، والّتي يجب فهمها من خلال سياق الكلام في الزمان والمكان الذي يذكر فيه. وتحتوي أيضاً على سمات أيديولوجية مهمة في اللغة والثقافة، كتأسيس تأليف الكلام واستلامه (من خلال استخدام ضمائر معيّنة والكلام غير المباشَر) ومنزلة المشاركين في الكلام (من خلال صيغ معجمية وصرفية) (انظر الفقرة 2.8.6.). تزوّدنا اللغة، في هذا الإطار بالذات وبواسطة الاستخدام الدلالي لعناصرها، **ببراغماتيّة تبصّريّة** (Silverstein 1985a, 1985b, 1993).

4.3.2 الاستعارات كنظريّات شعبيّة عن العالَم

يمكننا اعتبار الكتابات الكثيرة عن الاستعارات اللغوية أخيراً كطريقة أخرى ينظر من خلالها إلى الثقافة كشيءٍ ننقله باستخدام الأشكال اللغوية أي بالتواصل، بالرغم من أنّ من يهتمّ خاصّة بدراسة الاستعارات اللغوية هم الأنثروبولوجيون الّذين لديهم رؤيةٌ إدراكية للثقافة (Keesing 1974) (انظر أيضاً الفقرة 2.2.3.).

من الرؤية الوظيفيّة للاستعارات كطرقٍ للتحكّم بالبيئة الاجتماعيّة والطبيعيّة (Sapir and Crocker 1977) حتى النظريّات الإدراكيّة الحديثة الّتي ترى في الاستعارات عمليّات تسمح لنا "بفهم وإنشاء حقل من الخبرة مستعملين **حقلاً آخر مختلف**"[9] (Johnson 1987: 15) نجد اللغة المجازية اجتذبت وتجتذب دائماً الأنثروبولوجيين واللغويين والفلاسفة الّذين يهتمّون بدراسة كيفيّة النظر إلى أشكال ومضمون كلامنا كدليلٍ لتجربتنا في العالم (انظر

(9) يتحدّث لاكوف وجونسون عن هذا المفهوم (Lakoff and Johnson 1980). انظر أيضاً (1987) Lakoff.

الفصل 3). هناك علاقةٌ وطيدة بين الدراسة الإدراكيّة للاستعارات كتصاميم ثقافيّة (أو كتعابير تعتمد على التصاميم اللغويّة) والفكرة الّتي تقول بأنّنا نفهم العالم بما في ذلك اللغة، بواسطة نماذج معيَّنة تشكّل رؤى مبسَّطة ومعمَّمة للنظريّات الشعبيّة عن ماهيّة التجارب (Rosch 1973, 1978). تتعارض نظرية النموذج مع كلّ "نظرية قائمة تدقيق" الّتي تسعى من جانبها إلى تحديد الانتماء إلى فئةٍ ما (أو إلى كلماتٍ أو أعمالٍ أو وقائع) مستخدمةً مجموعةً من الميّزات والصفات ـ فتحدّد مثلاً أعزب الذي يوصف عبر الميّزات التالية: (1) ذكر، و(2) بالغ، و(3) غير متزوج. أمّا علماء نظريّة النموذج فيفسّرون صعوبة تطبيق كلمة أعزب على بعض الرجال غير المتزوجين بافتراضهم وجود نظريّة شعبيّة للعالم حيث يتزوّج الناس في عمرٍ معيّن ومرّةً واحدة فقط (Fillmore 1977b). أمّا في عالمنا الواسع والأكثر تعقيداً، فهناك ناسٌ لا يستطيعون أن يتزوّجوا (كالكهنة) وأطفالٌ ومسنّون، ومن تزوّج وطلّق الكثير من المرّات والّذي لا يمكن بالتالي تسميته بالأعزب الحقيقي. ويقول سويتسر (Sweetser) (1987: 44)، بشكلٍ مماثِل، إنّ معنى كلمة **كذِب** "يعود بشكلٍ ضمني وأساسي إلى سماتٍ مبسَّطة ونموذجيّة عن بعض مجالات الخبرة البشريّة". تتضمّن هذه السمات المبسَّطة مبادئ أخلاقيّة كالّتي تقول بأنّه علينا **(1)** أن نساعد وأن لا نؤذي، و **(2)** أن نعتبر المعرفة مفيدة. الحياة بالطبع معقّدة ويمكن أن نجد حالاتٍ حيث هناك تعارضٌ بين المبدأين. فعندما (يكون الإخبار الصريح يؤذي الناس، يلجأ المتكلّم إلى السكوت أو حتّى إلى الكذب ليبقى كلامه مهذباً مثلاً)[10].

---

(10) للمزيد عن النظرية الشعبيّة كنموذجٍ ثقافي، انظر إلى مقالات هولاند وكواين (Holland and Quinn 1987) وداندراد وستراوس (D'Andrade and Strauss 1992).

4.2 الثقافة كنظام وساطة

> يدور الاستعمال المعتاد للّغة في نفس مستوى استعمال كلّ الأشياء من حولنا والّتي تنتمي إلى المجتمع الّذي وُلدنا ونعيش فيه. (Rossi-Landi 1970: 521)

الأدوات هي، وسائط وهي تأتي بين الشخص الّذي يستعملها وهدفه منها. ويعود معنى الأداة هذا إلى مفهوم "أداة العمل" الماركسي، كما نرى في النصّ التالي:

> أداة العمل هي شيءٌ أو مجموعة من الأشياء يضعها العامل بينه وبين الهدف من عمله، وهي تسمح بتوجيه عمله. وهو يستخدم الخاصيّات الميكانيكيّة والماديّة والكيميائيّة لبعض المواد لكي يصنع موادّ أخرى تخضع إليه وإلى أهدافه... تشكّل الأرض أداة عمل، ولكنّها تقتضي أيضاً، عندما نستخدمها في الزراعة مثلاً، مجموعة من الأدوات الأخرى وعملاً متطوّراً (Marx 1906: 199).

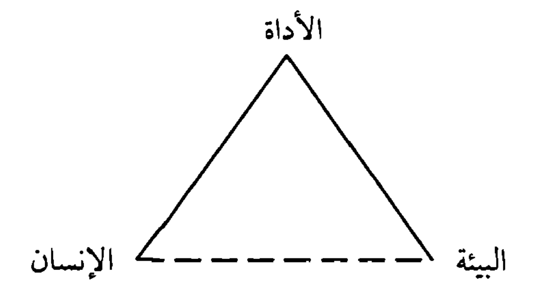
تعتبر هذه الرؤية أنّ "أدوات العمل" هي كل شيءٍ يستعمله الإنسان للسيطرة على بيئته ولإنتاج موارد. وهذه الأدوات تعني دائماً "بين". فنجدها بين الناس وما يأكلونه (كالشوكة مثلاً)، وبين الناس والطقس (كالمظلّة)، وبين الناس والمادّة (كالفأس)، وبين ناسٍ وناس (كالإشارات والكلام)، وبين الناس وأفكارهم الخاصّة (كالكلام الخاصّ والتصوّرات الذهنيّة).

يقدّم الرسم 3.2. مثالاً بسيطاً عن دور الأدوات الوسيط.

إنسان ______________ أداة ______________ بيئة

رسم 3.2. تقوم الأدوات بدور الوسيط بين الناس والبيئة

تقوم الأدوات والأشياء الّتي يصنعها الإنسان، في الرسم 3.2.، بدور الوسيط بين الناس وبيئتهم، أي أنّها الوسيط الّذي يسمح لهم بالتفاعل مع العالم المادي والاجتماعي. وتنظّم الثقافة استعمال الأدوات في أنشطةٍ معيّنة، كالصيد والطبخ والبناء والعراك وتذكّر الماضي والتحضير للمستقبَل. يسمح استخدام الأدوات، في كلّ حالة، بزيادة أو تغيير قدرة الناس على استثمار الطبيعة والسيطرة والاستيلاء عليها أو على (تفاعلهم مع الآخَرين. ولكنّ صلتنا بالعالم لا تحتاج دائماً إلى وسيط. فإذا كنّا في حديقةٍ عامّة ونزل المطر علينا وتبلّل وجهنا وشعرنا، تصبح عندئذٍ علاقتنا مع الطبيعة غير مباشرة ولا نستخدم وساطةً ما (فما زلنا نملك ثيابنا وأفكارنا). ولكن إذا فتحنا المظلّة لكي نحاول أن نتحكّم في تأثير الطبيعة في قسم من جسمنا، نغيّر عندها العواقب الممكنة لهذه الظاهرة الطبيعية بشكلٍ يلبّي حاجاتنا وامكانياتنا. الوسيط بيننا وبين الطبيعة في هذه الحالة هي أداة، المظلّة، وهي تمثّل هنا ثقافتنا. يعطينا الرسم 4.2. صورةً عن هذه الإمكانية المزدوجة لخبرة الإنسان المباشرة او عبر وسيط (انظر .(Vygotsky 1978: 54



الرسم 4.2 الأدوات كوسيط بديل بين البشر والبيئة

يتضمّن هذا النموذج إمكانية استعمال الأشياء الثقافية المادية، كالمظلّات، والأشياء غير المادية أو التصوّرية، كالرموز ـ استعملنا

سطراً متقطّعاً لتمثيل العلاقة بين البشر والبيئة لأنّ هناك بعض الشكّ بالنسبة للحقيقة التجريبية لهذه العلاقة دون وسيط (انظر أدناه). فيمكن أن يكون هناك وسيط بيننا وبين الطبيعة، بما في ذلك المطر، مثلاً نظرية معيّنة عن المطر ـ هل المطر مفيدٌ أم لا، أو هل هو حتّى دلالة على تواصل متكامل مع الله؟ ما يهمّنا في الرسم 4.2 هو كون العلاقة من خلال وسيط (السطور المباشرة) هي بديلٌ للعلاقة المباشرة مع البيئة (الخط المتقطّع). يمكننا أن ندفع شخصاً ما إلى الخروج من غرفتنا وأن نستعمل لذلك يدينا وذراعينا، ويمكننا أن نفعل ذلك أيضاً باستعمال الرموز، فنشير مثلاً إلى لوحةٍ على الحائط تقول "الزيارات ممنوعة" أو نطلب منه أن يغادر المكان. عندما نستعمل جسمنا لنصل إلى غرضنا، لا تشكّل ثقافتُنا بالضرورة (أو بشكلٍ كامل) الوسيط في علاقتنا بالدخيل. وهناك دائماً وسيطٌ عندما نستعمل الرموز.

تعتبر وجهة النظر هذه أنّ الثقافة تتضمّن الأشياء الماديّة، كالمظلّة، وأخرى تصوريّة كالمعتقدات والقواعد اللغويّة. تشكّل البنيات الماديّة والتصوريّة معاً أدوات تتوسّط بين البشر وعالمهم. يحاول الناس بالطبع أحياناً التحكّم ببيئتهم بشكلٍ مادي ومباشر، ولكنّهم يستطيعون في أحيانٍ أخرى التحكّم ببيئتهم بشكلٍ مماثلٍ أو أقوى بواسطة الأدوات الرمزيّة. وتتضمّن الثقافة بالتالي القدّوم والسهام والمطرقة والمنشار والكراسي والمباني والورق والأقلام والترانزستور وأقراص الكمبيوتر والدرّاجات والسيّارات، وكذلك النظريّات عن الله (الدين)، وعن الأرض والفضاء (علم الكونيات)، وجسم الإنسان (الطب)، والمشاعر الإنسانيّة، وأدوات كاللغات الطبيعية ـ التاريخية (كالعربية والإنجليزية والمدغشقرية)، واللغات المصطنعة (الكتابة الموسيقية، لغة الحاسوب الإلكتروني). تتضمّن المنتجات الثقافية

المحادثات، وإعلان الصداقة أو الحب، والرسائل المبعوثة إلى رئيس التحرير، والاتصال الهاتفي بالأهل، وكذلك المسرحيات، والإعلانات على الراديو، والأفلام والفيديوهات الموسيقية. وتتضمّن الثقافة "الأشياء" الصغيرة والأشياء المعقّدة، أي لغات بكاملها وتعابير معيّنة أو كلمات رمزية نستخدمها في حياتنا اليومية (مثلاً، **كيف حالك؟؛ مرحباً؛ لنلتقِ قريباً!؛ هل التقينا من قبل؟**... إلخ، - إذا أردنا أن نعرف ما تعني كلّ من هذه العبارات، علينا أن نعرف كيف نستعملها). وتشكّل كلّ هذه المنتجات طرقاً مختلفة لتمثيل العالم أو التعامل معه. فهي تفسير للعالَم، والتفسير يشكّل بنفسه أداةً للعمل في داخل العالم[11].

الوساطة مفهوم محايد حيث لا يجد الفاعل/ المستعمِل نفسه أهمّ من الأداة/ الشيء الوسيط، والعكس صحيح. ولكّنه نموذج يحتاج إلى أن نوسّع نطاق فهمه وننقحه في عدّة مجالات. فهو **أوّلاً**، لا يعلمنا الكثير عن التنظيم الداخلي لكلٍّ من عناصر المثلّث. خصوصاً بالنسبة للأنثروبولوجيين الالسنيين، فهو لا يقول شيئاً كافياً عن النظرية البنيوية لّلغة الّتي يتوجّب اتّباعها. **وثانياً**، لا يتحدّث عن المنهج الّذي علينا اعتماده في ما يخصّ نوعِ المواد الّتي علينا البحث عنها، وطريقة تحليلها. وهو يعتبر، أخيراً، أنّه يوجد بعدٌ تجريبي مباشر أو علاقةٌ طبيعيّة مع البيئة. وقد ناقش الأنثروبولوجيون الثقافيون منذ وقتٍ طويل أنّ هذه الفرضية غير دقيقة، إذ إنّه حتّى عندما نقف عارين تحت المطر أو نسبح في المحيط، تبقى ثقافتنا معنا. فنحن نقف (أو نسبح) بشكلٍ تحدّده ثقافتنا، ونفكّر ونتخيّل أنفسنا في ذلك

---

(11) يعطي بودريارد (Baudrillard 1975) وساهلينز (Sahlins 1976) نقداً لاستعارة الأداة ولتأثيرها في السياسة والاقتصاد.

المكان بواسطة فكرنا الواعي، والّذي قد صمّمته ممارساتنا الاجتماعية والثقافية الخاصّة، بما فيها الممارسات الّتي تحدّد علاقتنا مع الغابة والمحيط.

ما أن نبدأ التفكير بالثقافة كمجموعةٍ من الأنظمة الوسيطة المختلفة والمتداخلة والّتي تعتمد على مختلف أدوات التواصل والفكر، حتّى نشكّ جدّياً بوحدة مفهوم الثقافة. إذ يصبح من الصعب الكلام عن ثقافةٍ "موحَّدة"، مع أنّه يمكننا استخدام النعت "ثقافي" عندما نتكلّم عن الأنظمة الوساطية الّتي تستعملها هذه المجموعة أو تلك في ما يخصّ نشاطاتٍ معيَّنة. ولكن يفقد عندها مصطلَح الثقافة قوّته الّتي قد كانت سمحت له بالدلالة على سكّان مكانٍ أو على مجموعةٍ بكاملها. وتقوم النظرية الّتي سأتكلّم عنها بتفكيك مفهوم الثقافة، وبالتحديد فكرة الثقافة كنظام ممارسات.

النظرية الّتي تقول بأنّ الثقافة وسيطة بين الناس والعالم الّذي يسكنون فيه (بفكرهم وجسمهم) ليست سوى امتداد لمفهوم اللغة كنظام وساطة. تعتمد هذه النظريّة على التشابه بين الأدوات والإشارات (بما فيها الكلمات) وتقوم على تلك الاستعارة، خاصة على فكرة أن اللغة نتاج تاريخي أو أنها شيء علينا فهمه من خلال السياق الّذي أوجده (Rossi-Landi 1973: 79). إن الرؤية الوسيلية للّغة تتضمن أن نظرية اللغة هي نظام تصنيف، فهي تسلِّم بأنّ العبارات اللغوية تسمح لنا بالتصوّر والتفكير بالوقائع وتعطينا في الوقت نفسه وسائل لتبادل الأفكار مع الآخَرين. ولكنّها تعتبر أيضاً أنّ العبارات اللغوية لا تقتصر على تصوير الواقع الخارجي؛ بل تنتمي إلى هذا الواقع نفسه وإلى الأدوات العمليّة الموجودة في العالم. كون اللغة عملاً وساطيّاً يعني أنّها أداةٌ للقيام بأعمالٍ عدّة في العالم، فهي تغير الواقع وتحافظ على دوام التغيير فيه. تسمح لنا اللغة بإيجاد

أصحابٍ أو أعداء، بأنّ نزيد تفاقم نزاعاتنا أو أن نحلّها، وأن نتعلّم الكثير عن مجتمعنا وأن نتكيّف معه أو أن نغيّره. هناك تشابه بين النظريّة الّتي ترى اللغة كنظام وسيط والكلام كنشاط وسيط والنظريّة اللغويّة الّتي قدّمها علماء الحدَث الكلامي (انظر الفصل 7). تعتبر كلا النظريتين اللغة أداةً للحدث (باعتبار التمثيل والإعلام أنواعاً من الحدث) متوفّرة لنا، وهي، ككلّ أداةٍ، تمكننا وتقيدنا. يشبه هذا مفهوم اللغة عند سابير (Sapir)، كما نرى في ما يلي:

> إذا ما دفعتُ ببابٍ لأفتحه وأدخل منزلاً ما، عملي هذا يستمدّ معناه من مساعدته لي أن أدخل البيت بسهولة. ولكن إذا "طرقتُ على الباب"، وفكّرتُ بذلك بعض الشيء، أرى بأنّ طَرقي وحده لم يفتح الباب لي. فهو فقط إشارة تقول لأحدهم بأن يفتح الباب لي. الطرق على الباب هو البديل لعملٍ أكثر بدائيّةً يقضي بفتحه على مصراعيه بنفسي. ونرى هنا مهارات ما نسمّيه باللغة. تشكل اللغة الكثير من الأعمال الّتي نقوم بها بالمعنى غير التحليلي. فلا تهمّنا هذه الأعمال بحد ذاتها لأنها تنجز مباشرةً بل لأنّها إشاراتٌ وسيطة لأعمال أخرى أكثر أهميّةٍ منها (Sapir 1949a: 163-4).

ما هي هذه الأعمال "الأكثر أهميّة"؟ بالأرجح طريقة الكلام، وطرق الوجود في العالم الّتي تتيحها لنا طرق كلامنا عن وفي العالم. اللغة هي دليل إلى الحياة الاجتماعية، لأنها تمنعنا من التصرف بطريقة ما (كفتح الباب بقوّة)، أي انها تقترح وتجهزنا بطرق بديلة في علاقتنا، مع الأشياء والناس (انظر الفقرة 2.3).

5.2. الثقافة كنظام ممارسات

تدين فكرة الثقافة كنظام ممارسات بالكثير إلى الحركة الفكريّة المسمّاة ما بعد البنيويّة. في أواخر الستّينات وبداية السبعينات، بدأ عددٌ من العلماء الأوروبيين بنقد بعض من فرضيات النموذج البنيوي الأساسيّة، بما في ذلك وجود تطابقٍ بين المعاني والتعابير. انتقدت التعميمات على ثقافة بكاملها والأفكار المجرَّدة الّتي تعتمد على التناقضات الرمزية ـ كتلك الّتي استعملها ليفي ـ ستراوس (انظر الفقرة 3.1.2.) على انها جوهر او ما وراء العالم المادي - واهتمّوا أكثر بالبناء الحواري والآني للتفسير. حلّت العودة إلى التزامنية والتاريخيّة محل مظاهر الأنظمة الثقافية الثابتة. وحلّ التسليم العام بتغير طبيعة الثقافات مكان البحث عن مجتمعاتٍ بقيت فيها أشكال التنظيم والفكر "البدائيّة" دون تغيّر. ودفعت تلك الأفكار حديثاً البعض إلى الاهتمام بتعدّد الثقافات وبالجاليات العبْردوليّة.

ليس من الصدفة أن يكون الفكر ما بعد البنيوي قد بدأ في فرنسا، بالأخصّ في كتابات لاكان (Lacan) وفوكو (Foucault) ودريدا (Derrida) (Sarup 1989). فقد تأثّر المفكّرون الفرنسيّون بعد الحرب العالميّة الثانية بفلسفة مارتن هايدغر، وبقيت أفكار هايدغر داخل أفكارهم، بالرغم من التغييرات الّتي قاموا بها وبالرغم من نقدهم لفكر هايدغر.

قال هايدغر (Heidegger 1962, 1985, 1988, 1992) في نهاية العشرينات إنّ ما يعتبره الفلاسفة والعلماء بسهولةٍ "موضوعات" يمكن دراستها لا تشكّل الكيانات الأساسيّة لتجربتنا الحياتيّة. ولا يشكّل الشخص (Subject) المفكّر العقلاني الّذي حدّده فلاسفة الحداثة - ديكارت وكَنْت وهوسرل (Descartes, Kant & Husserl) المصدر الوحيد والمفضَّل لفهمنا للعالم. فهمنا المجرّد والتصوريّ و"النظري" للعالم ليس أساسيّاً، بل مشتق من مسلَّماتٍ وجوديّة أخرى

بما فيها كوننا في بيئةٍ تغمرنا، عندما نلتقي بأشياء تفيدنا عمليّاً، وظروف خبرة في سياق مواقف وأمزجة معينة، حيث يعيش الناس. هذه العلاقات مع العالم لا يمكن تمثيلها بسهولة عبر الأدوات التحليلية التي يستعملها علماء الاجتماع الذين هم خبراء في عزل العناصر خارج سياقاتها. عندما امتدّ فكر هايدغر ليشمل علم الاجتماع المعاصر، جلب فكرة أن التناقضات الازدواجيّة والمعرفة التعبيرية لم تعد شروط أو أسباب خبرتنا في العالم، بل تعميمات وتصوّرات تفترض وجود أبعادٍ أخرى أساسيّة لوجود الإنسان، بما فيها صفته التاريخيّة (Dilthey 1988 [1883]) وما يسمّيه هايدغر Befindlichkeit أي "التأثُّر" أو "القابلية" (Dreyfus 1991; Heidegger 1962).

فإن نظرية الممارسة التي هي خير مثال لنموذج ما بعد البنيوية قد بنيت على بعض مبادئ هايدغر[12] عن الجذور الوجوديّة لمعرفة الإنسان وفهمه للعالم الحي. يشدّد بورديو مثلاً على العلاقة المعقّدة بين المعرفة ونشاطنا في العالم والحالات الحاضرة والماضية (Bourdieu 1977, 1990). ويعتبر أنّ وجود الفاعلين الاجتماعيين ليس الا نتاج العوامل الماديّة الخارجية (إن كانت اقتصادية أو بيئية) وليس لكونهم فاعلين واعين حيث تكون تصوّراتهم الذهنيّة كافية بحد ذاتها:

> تشدّد نظريّة الممارسة باعتبارها ممارسة، عكس الماديّة الوضعيّة، على أن أهداف المعرفة بناءة وليست مسجَّلة بشكلٍ سلبي، وأنّ مبدأ هذا التركيب، عكس ما تقوله المثاليّة العقلانيّة، هو نظام بناء مكوَّنٌ من قابليات مركَّبة، الهابتوس، الذي يتشكّل في الممارسة وينحو دائماً نحو الوظائف العملية (Bourdieu 1990: 52).

---

(12) انظر بالأخصّ (Bourdieu 1988) و(Bourdieu and Wacquant (1992: 150-156 .

ابتكر بورديو الهابتوس كوحدة تحليل، وكنظام من قابلياتٍ له بعدٌ تاريخي يسمح للمبتدئين بأن يحصلوا على قدراتٍ باشتراكهم في أعمال يطوّرون من خلالها سلسلةً من التوقّعات عن العالم وكيفيّة العيش فيه[13].

> الهابتوس- أي التاريخ المجسَّد الذي يدخل الشخص كطبيعة ثانية فيه وينساه كتاريخ ـ هو الوجود الناشط الحالي لكلّ الماضي الّذي أنتجه. وهو بالتالي ما يعطي الممارسات استقلالها النسبي (في ما يتعلق بالتصاميم الخارجية للحاضر المباشر (Bourdieu 1990: 52).

يسعى بورديو بذلك إلى تخطّي الازدواجية بين الفاعل والمفعول في علوم الاجتماع، فيقول إنّه لا يمكن للفاعل أو الإنسان الناشط أن يعيش ويقوم بدوره إلاّ إذا ساهم في سلسلةٍ من الأعمال الّتي تفترضها وتعيد إنتاجها أعمالُه الفرديّة. ولا يمكن بالطبع التكهّن كاملاً بهذه الإعادة، وإلاّ وقعنا في حتميّةٍ جديدة، وهذا ما يرفضه بورديو، كما يرفضه علماء ما بعد البنيوية وما بعد الماركسية جميعاً. وهو يعتبر أنّ الثقافة لا تقتصر على ما هو خارج الفرد (كالطقوس والرموز الّتي نرثها من أجدادنا) ولا على ما هو داخل الفرد (في ذهنه مثلاً). بل نجدها بالأحرى في الأعمال الروتينية، الّتي تتضمّن الظروف الماديّة (والجسمانيّة) وتجربة الفاعلين الاجتماعيين في استعمالهم لأجسادهم عندما يتنقّلون في أماكن معروفة من قبلهم.

يشدّد علماء الاجتماع من أمثال بورديو على أهميّة اللغة ليس كنظام مستقلّ ـ كما يعتقده البنيويون (انظر الفقرة 1.6.) ـ بل كنظامٍ

---

(13) انظر إلى (Mauss [1935] 1979; 101) لمعلومات عن الاستعمال الأقدم لكلمة هابتوس (Habitus).

تحدّده العمليّات الاجتماعية ـ السياسية الناشطة، بما في ذلك المؤسّسات البيروقراطية كالمدارس (Bourdieu and Wacquant 1982, Bourdieu, Passeron, and de Saint Martin 1994) . لا يمكن، بالنسبة لبورديو، التكلّم عن اللغة من دون أن نأخذ (بعين الاعتبار) الظروف الاجتماعية الّتي تسمح بوجودها. فعمليّة تشكيل الدولة مثلاً هي الّتي تخلق الوضع المناسب لإقامة **سوقٍ لغوي** موحَّد حيث تحصل واحدةٌ من اللغات على منزلة **اللغة النموذجيّة**. وجود اللغة يرتبط دائماً بكونها **هابتوس** لغوياً، أي كنظام ميولٍ وتوقّعاتٍ معتادة ومتكرّرة. وتشكّل اللغة نفسها مجموعةً من الممارسات الّتي تتضمّن ليس فقط نظاماً من الكلمات والقواعد اللغويّة، ولكن أيضاً كفاحاً منسيّاً أو مخفيّاً يخصّ القوّة الرمزيّة لطريقةٍ معيّنة في التداول، ترافقها أنظمة تصنيفٍ معيّنة، أشكال كلام وإشارة، ومعاجم واستعارات معيّنة (في السياسة والطب والأخلاق) (Bourdieu 1982: 31). يُعتبر تشديد بورديو على المعنى الاجتماعي للأشكال المختلفة والتغيّرات النوعيّة (Bally 1952) موضوعاً تقليديّاً في الأبحاث الاجتماعية الألسنيّة، ولكنّ أفكاره تجبِر علماء التغيّر والبراغماتيين على النظر إلى ما هو أبعد من التبادلات اللغوية المحضة. غالباً ما ينسى اللغويون والفلاسفة الّذين يشدّدون على مقدرة الكلمات على القيام بأعمالٍ عدّة (انظر الفصل 7) أن ما يسمح لعباراتٍ ما بالقيام بعملٍ ما (طلب أو اقتراح أو اعتذار مثلاً) هو وجود نظامٍ من الميول، أي وجود **هابتوس**، تتقاسمه الجالية (Bourdieu 1982: 133).

وتضمن الأفعال الكلاميّة اليوميّة بدورها هذه الأنظمة اللغويّة، كما ترتّبها وتعطيها معانيها مؤسسات معيّنة كالمدارس والعائلة وأماكن العمل، الّتي لم تؤسَّس فقط لإقصاء الآخرين، ولكن أيضاً لمراقبة أعضائها والتأكّد من أنّ ما يقومون به والمعاني الّتي يعطونها له ستبقى ضمن نطاق مقبول.

لهذه الأفكار أهميّتها، إذ إنّها تربط بين الأعمال الفرديّة وإطارات مرجعيّة أكبر منها، بما في ذلك فكرة الجالية، وهي تكوّن مفهوماً نجده في قلب النقاشات الاجتماعية الألسنيّة والأنثروبولوجية الألسنيّة (انظر الفصل 3).

6.2 الثقافة كنظام مشاركة

تتعلّق فكرة الثقافة كنظام اشتراك بالثقافة كنظام ممارسات، وترتكز على افتراض أنّ كلّ الأعمال الّتي نقوم بها في العالم، بما في ذلك التبادل الكلامي، هي ذات صفة اجتماعيّة وجماعيّة واشتراكيّة. وتعطينا هذه الفكرة مفهوماً مفيداً للثقافة يساعدنا في النظر إلى كيفيّة استخدام اللغة فعليّاً، فالتكلّم بلغةٍ ما يعني المقدرة على الاشتراك في التفاعل مع عالم أكبر من الفرد المتكلّم وواسع مما يمكننا من أن نراه أو نلمسه في موضعٍ معيَّن. تحتوي الكلمات على إمكانيّات عديدة تسمح لنا بخلقِ صلاتٍ مع الناس والوقائع والأحداث والأعمال والمعتقدات والمشاعر. يعود ذلك إلى قدرة اللغة على وصف العالم وعلى إيجاد صلاتٍ بيننا وبين سكّانه وفتراته والأشياء والأماكن فيه؛ وهي تؤكّد بذلك أكثر فأكثر وجود بعدٍ اجتماعي ـ تاريخي للّغة. وهكذا تكون دلالية اللغة قسماً لا يتجزّأ من كلّ فعلٍ كلامي كفعل يقضي بالاشتراك في جالية كلاميّة. وقد ندخل في البداية في موضعٍ نعتمد فيه على وجود لغة واحدة للجميع، ونكتشف في ما بعدُ أنّ الأفعال الكلامية هي ما يشكّل ويتحدّى ويغيّر هذه اللغة عينها.

إذا كانت الأفعال التواصليّة هي ما يحفظ وحدة العالم، فإن وسائل التواصل هي ما يوجد الروابط في العالم، وبذلك يكون الكلام اختيار طريقة معيّنة للدخول في العالم وتعزيزاً معيّناً لصلاتنا

بالذين نلتقي بهم. عندها يمكننا القول بأنّ اللغة تسمح لنا بالانتماء إلى جالية لها أفكارها وممارساتها.

يحتاج كلّ نظام مشاركة إلى عنصر إدراكي، للتحكّم بكيفيّة الحصول على المعلومات والتكهن بالاعمال الّتي يتوجّب على الآخرين القيام بها لحلّ المسائل، وعنصر جسدي، يكوّن مقدرتنا على العمل في واقع مادي مليءٍ بالأشياء والأجسام الحيّة. تحتاج المشاركة أيضاً إلى تقاسم الموارد الموجودة (المعتقدات واللغات والبناء والناس) وتقييمها في ما يلبّي الحاجات الحاليّة. ولكنّها لا تفترض وجود مساواة في معرفة هذه الموارد والتحكّم بها. وبالحقيقة، إذا بدأنا أوّلاً بفكرة المشاركة، تسهل علينا دراسة التغيّرات، إذ يمكننا أن نبقي أمامنا الفرق المعنيّة وأن نسلّم في الوقت نفسه بكونها موجودة فعليّاً كقسم من مجموعةٍ متكاملة أوسع منها. سنعاود ذكر المشاركة في الفصل التاسع، حيث نتكلّم عن مساهمتها في إيجاد وحدة تحليل تسمح بدراسة الممارسات اللغويّة.

7.2 التوقّع والتفسير

ما يميّز نظريّة ثقافية أو لغويّة عن غيرها ـ كالّتي سندرسها بشكلٍ مفصّل في الفصول القادمة ـ يكمن في مدى إعطاء النظريّة وسائلَ تسمح بالإدلاء **بتوقّعاتٍ** معيّنة تخصّ أحداثاً وظواهر فرديّة تعاكس **تفسيرها** للأحداث والأداء والحوارات والأفعال الكلاميّة والأقوال وحتّى الأصوات الفرديّة[14]. لا ينحصر الصراع بين هاتَين

(14) لا أودّ التكلّم هنا عن المناهج المتّبَعة في كلٍّ منهما. وبالتالي فلن أتحدّث عن حسنات وسيّئات المناهج الّتي تعتمد على الاستنتاج وتلك الّتي تعتمد على ما هو حتْي. يمكن استخدام أيّ من المناهج من دون فرق في العمل الّذي يهتمّ بما هو عام وفي ذلك الّذي يهتمّ بما هو خاص.

الطريقتين على الأنثروبولوجيا فقط، بل يتخطّاها ليشمل الجدال حول معظم النظريات في علوم الاجتماع. وهذا النزاع ليس جديداً بالطبع. فمنذ بداية تأسيس علم الاجتماع وعلم الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر كان هناك نقاشٌ حول ما إذا كان يجب تطبيق مناهج علوم الطبيعة والعالم المادي على علوم الإنسان. فهل يمكننا التنبّؤ بتصرّفات الناس كما نفعله في تحرّكات الأجسام في علم الفيزياء؟ هل علينا أن نهتمّ بما هو فريدٌ من نوعه في مجموعةٍ من الناس أو بميّزات لغتهم وثقافتهم الّتي تجعلهم ينتمون إلى الجنس البشري عامّةً؟ هل يمكننا الكلامِ عن "قوانين" علميّة عندما نتحدّث عن أفعال الإنسان؟ أجاب كلٌّ من الأنثروبولوجيين الّذين تحدّثنا عنهم (Boas, Malinowski, Goodenough, Lévi-Strauss, Geertz) عن هذا السؤال كل على طريقته الخاصّة. ولي بالطبع أجوبتي المفضّلة والّتي ستتضح في سياق هذا الكتاب، عندما سأتكلّم عن مواضيع معيّنة. ولكن، وقبل أن أنهي هذا الفصل، أودّ أن أعطي بعض المبادئ الّتي يعتمدها، بشكلٍ واضحٍ أو ضمنيّاً، معظم علماء الاجتماع المعاصرون الّذين يفكّرون باللغة والثقافة ويكتبون عنهما:

1. يجب أن يكون لأعضاء المجتمع الناشطين، وبالتالي للمتكلّمين، ما يسمح لهم بخلق توقعات في حياتهم اليوميّة، وإلاّ سيجدون أنفسهم في حالةٍ من الفوضى والحيرة الدائمة، مما لا يسمح لهم بضمان عافيتهم. فللناس توقّعات عن اللغة أو اللهجة الّتي يتوجّب استعمالها في حالة ما، وأن هذا السؤال يلحقه جواب وأن يضحك الناس من نكاتهم إذا كانوا أنيسين.

2. أن ينتمي أعضاء المجتمع الناشطون إلى نظامٍ معقّد. يعني هذا أنه من الممكن دائماً أن يتصرّف الناس بشكلٍ غيرِ متوقع (إذا لم يكن غير ممكن التنبؤ به نهائيّاً) (فيمكن للشخص مثلاً أن لا يجيب

عن سؤالٍ ما أو أن لا يضحك لدى سماعه لنكتة مضحكة). ويمكن بالأخصّ أن يستحيل تفسيرُ بعض التصرّفات (إن كان الساعي إلى تفسيرها هو من يقوم بها أو من يحلّلها). على التلميذ أن لا يرى في ذلك حالاتٍ شاذّة بل ظواهر تؤكّد أنّه لا يمكن التنبّؤ بتصرّف الإنسان (أو تحديده بالكامل) قبل أوانه، وأنّ ذلك يشكّل ما يميّز حياة الإنسان الاجتماعيّة (وهذا ما يشدّد عليه غيرتز وبورديو وغيرهم). علينا أوّلاً أن نتقبّل وجود عدّة تفسيراتٍ ممكنة (تأتي من ناسٍ مختلفين، في أوقاتٍ مختلفة، وفي لغاتٍ وطرقٍ مختلفة)، وثانياً أن نعلّق (أو "نضع بين قوسين") التفسير الأكثر سهولة، فالقيام بذلك، كما يوضّحه لنا علماء الظاهريات، يشكّل خطوةً حاسمة في ما يتعلّق بفهمنا العقلاني للعالم. علينا، بما أنّنا ندرس تصرّفات الإنسان، أن نعرف بأنّ ما يبدو لنا "طبيعيّاً" في ما يخصّ تفسيرٍ ما، قد يكون ذا بعدٍ "ثقافي" محض، وبالتالي فإنّ التسليم بعدم معرفة شيءٍ ما أو التردّد يشكّلان عاملاً يساوي في أهميّته التفسير العقلاني الّذي يعطينا إيّاه مستشارنا أو عالِمُنا المفضَّل.

3. يمكننا استعمال الإحصائيات أو عدم استعمالها، ولكن علينا دوماً أن نقول للباحثين الآخرين إلى أي درجةٍ تحصل أو تتردّد ظاهرة ما، أو مدى تكرارها في المعطيات المتوفّرة لنا. يبقى مدى تكرار (قول أو سماع أو كتابة أو فعل) شيء ما مهم في حياة الناس.

4. يعود تصنيف ظاهرةٍ ما كحدثٍ ينتمي إلى فئةٍ أكبر جزئيّاً إلى إطارنا التفسيري. وينطبق ذلك على الأصوات والكلمات، التي لا تُلفظ أبداً بنفس الطريقة (انظر الفصل 6)، وعلى أنواع التبادلات الكلاميّة والأداء الشفوي. ويعني ذلك أنّه لدينا دائماً خياران: إمّا أن نبحث عن العام في الخاص أو عن الخاص في العام. والسؤال النظري هو دائماً أيضاً سؤالٌ تجريبي: فما الّذي يسمح لنا بتعميم

استنتاجنا؟ ومن أين أتينا بالفئات الّتي نستعملها؟ وأين قمنا بالبحث عن براهيننا؟

5. يحاول النشطاء الاجتماعيون أنفسهم أن يجعلوا أعمالهم وتفسيراتهم تتلاءم مع "نماذج" معيّنة. ويسعى هذا المنهج إلى فهم هذه النماذج، من خلال تحليل بعض أعمال المشاركين المعيّنة. سنرى في الفصول المقبلة كيف يمكن القيام بهذه التحاليل.

6. يمكننا بشكلٍ عام أن نستعين بالاستعارات للتفكير، ولكن يجب أن لا ندعها تمنعنا من التفكير السليم بمسألةٍ ما. التصوّر أداة جيّدة، ولكنّه صمّم، ككلّ أداةٍ أخرى، للقيام بعملٍ محدّد. علينا بشكلٍ عام، كباحثين، أن نعرف ميّزات وحدود منهجنا التحليلي. علينا أن نراقب أساليبنا. ولكن لا يعني ذلك أنّه علينا أن نجعل من تلك المراقبة موضوع عملنا المركزي.

7. وأخيراً علينا أن نتذكّر أنّ كلّ النظريّات قابلة للزوال.

8.2. خاتمة

مفهوم الثقافة معقّد جدّاً ويشكّل موضع خلافاتٍ كثيرة في حقل النظريّات الأنثروبولوجية. فقد قامت أجيالٌ جديدة من الباحثين بانتقاد وإعادة تقييم الكثير من الفرضيات الّتي كانت قد وجّهت الأبحاث الأنثروبولوجية في العقود الماضية. وتحاول النظريات الحالية أن تتجنّب إعطاء فكرةٍ معمّمة عن ماهيّة الثقافة وتفضّل الرؤيات الّتي تنظر إلى الممارسات وأشكال المشاركة في مواضع معيّنة. ولكن تلعب اللغة دوراً هامّاً في كلّ النظريات الثقافية الّتي أقدّمها هنا. فتشكّل اللغة عاملاً أساسيّاً في ما يخصّ الثقافة كانماط تصرّفٍ يتعلّمه الأفراد وممارسات تفسيريّة، فاللغة عامل شديد الأهمية لأنها تزود النظام المعقد في تصنيف الخبرة. وتعطي اللغة أيضاً علماءَ الإدراك

نافذةً مهمّة على فكر الإنسان (انظر الفقرة 2.2.). فما فتئ علماء النفس واللغة يقولون منذ عقود أنّ للتطوّر اللغوي صلة وطيدة بتطوّر الإدراك، وأنّه لا يمكن وجود حياة فكرية غنيّة من دون نظام تواصل معقّد. ولغات الإنسان هي أيضاً لغاتٌ تبصريّة (انظر الفقرة 3.9.)، أي أنظمة تواصل يمكن استعمالها للكلام عن أنظمة تواصل أخرى، بما فيها هذه الأنظمة نفسها (كما نراه في أي كتابٍ مدرسي). بالإضافة إلى ذلك، تعتمد اللغات على نظريات عن العالم أو تعبّر عنها، وتشكّل بالتالي موضوعاً مثاليّاً لأبحاث علماء الاجتماع.

ليس من الغريب أن يستعمل علماء الاجتماع كليفي - ستراوس مفاهيم طوّرها اللغويّون كأدواتٍ لدراسة الثقافة (انظر الفقرة 3.2.)، فالتواصل اللغوي يسمح بقيادة وتقييم الكثير من حالات حياتنا الاجتماعية والتوسّط فيها. وتؤمّن اللغة أيضاً علاقةً مفيدة بين أفكارنا الداخلية وتصرّفاتنا الخارجيّة. وما نقوم به عندما نقيّم أفكارنا داخليّاً هو أننا نقوم فقط بعمل جزئي خاص. عندها نعتمد على مجموعةٍ من المصادر الثقافيّة (بما في ذلك التصنيف والنظريّات واستراتيجيات حلّ المسائل) الّتي تنتمي على الأرجح ليس فقط إلينا بل إلى جاليتنا أيضاً. ويسمح كون اللغة شيئاً عاماً للإثنوغرافيا بالوجود (انظر الفصل 4). يستعمل الإثنوغرافي اللغة في الوقت نفسه كمصدر معرفة (ما يقوله الناس، وما يقوله الناس بما يفكرون، وما يقول الناس ماذا يفعلون؟ وما يفعلونه بواسطة ما يقولونه... إلخ) وكأداةٍ لتمثيل هذه المعرفة (انظر الفصلين 4 و5).

وتشكّل اللغة أيضاً الأداة النموذجيّة للتعامل مع العالم، ويُشكّل الكلام من ناحيته العمل الوسيط النموذجي. ويؤدّي التحكّم بالوسائل اللغويّة في معظم الأحيان إلى التحكّم بعلاقتنا مع العالم، تماماً كما يجبرنا تقبّل الأشكال اللغويّة وقواعد استعمالها أن نقبل ونكرّر وجوداً

معيّناً لنا في العالم (انظر الفقرة 5.2.). وتدفعنا أخيراً رؤية اللغة كمجموعة ممارسات إلى اعتبار التواصل اللغوي قسماً كغيره من شبكة مصادر الدلالات الّتي ترافقنا في كلّ حياتنا وتصلنا بتاريخ اجتماعي معيّن وبالمؤسسات الّتي تدعمه.

تلقي كلّ من النظريّات الّتي قدّمتها حتّى الآن ضوءاً على ناحيةٍ معيّنة من الأنظمة اللغويّة. وتساهم كلٌّ من هذه النظريّات في فهمنا للثقافة كظاهرةٍ معقّدة، وتوجّهنا نحو خصوصيّاتٍ مختلفة يمكننا دراستها. تفترض كلُّ نظريّة جدول أعمالٍ مختلفاً، ولكن إن أخذناها سويّةً نجدها تشكّل سعياً واسع النطاق لدراسة الثقافة ولتحليل اللغة كوسيلة تصوريّة واجتماعية وكثمرة وأداة الثقافة. سندرس بتفصيل أكبر في الفصول المقبلة بعض الأسس المنهجيّة والنظريّة لهذه الأبحاث.

الفصل الثالث

التعدديّة اللغويّة

لقد اهتمّ علماء اللغة دوماً بالتعدديّة اللغوية. ولكن تختلف الأهداف والمناهج عند النظر إلى التعدديّة، بحسب النظريّة المتّبَعة أو نوع أبحاث المختصّين. فقد كرّس علماء القواعد التوليدية من أمثال تشومسكي وتلاميذه كلّ حياتهم العلمية لتفسير الاختلافات الفونولوجية والمورفولوجية والنحوية بين كلّ اللغات بواسطة بعض المبادئ العامّة. فطوّروا نظريّة القواعد اللغويّة العالميّة، الّتي تتكوّن من مجموعة قوانين وشروط على قوانين تسمح لنا بوصف قواعد أي لغة ممكنة واعطاء فرضيات عن الاستراتيجيات التفسيرية البديهية التي تسمح للأطفال باكتساب أي لغة بشرية. وفي سعيهم الدائم إلى وصف وتفسير الاختلافات بين اللغات، مال اللغويون التقليديون إلى تجاهل الاختلافات الموجودة في داخل اللغة الواحدة. فقد اعتبروا في أبحاثهم أنّ كلّ جالية كلاميّة متجانسة لا تحتوي بالتالي على اختلافات. انتقدهم الألسنيون الاجتماعيون لهذا السبب واختاروا الاتّجاه المعاكس. وقد بدؤوا عملهم بالملاحظة التجريبية أنّه توجد تعدديّة في كلّ الجاليات الكلامية في ما يتعلّق بكيفيّة لفظ الكلمات، وكيفيّة تشكيل وتفسير ما يقال، وإنتاج وحدات خطابات معقدة

تتجاوز السياقات الاجتماعية. وابتكر الألسنيّون الاجتماعيون، على أساس هذه الملاحظات، مناهج لدراسة التغيّرات اللغوية، وعلاقتها بالعوامل السياقية (بما في ذلك الطبقات الاجتماعية والجنس والعمر والمكان والأسلوب)، بشكلٍ منظَّم. وقد اهتمّت أبحاثهم بأمورٍ لا يتطرّق إليها عادةً النحويّون الشكليون، كصعوبة إيجاد حدود في كلام الجاليات مثلاً أو نوع المعرفة الضرورية ليكون المرء عضواً في تلك الجالية. ويهتمّ الأنثروبولوجيون الألسنيّون بمسائل مشابهة، ولكنّهم واجهوا أيضاً السؤال المعقّد المتعلّق بالصلة بين اللغة والفكر، أو بما يسمّى "الفرضية النسبية اللغوية". وقد اعتبرت التعدّدية اللغوية مؤخّراً بعداً من أبعاد ما يسمّى "الأيديولوجيا اللغوية". سأعرّف في هذا الفصل التعدديّة اللغوية، بواسطة هذه النظريات المختلفة.

1.3. اللغة في الثقافة: التقليد البوسني

علينا، لكي نفهم كيف ظهرت مسألة التعدّديّة اللغويّة في أبحاث أميركا الشمالية، أن نعود إلى الوقت الذي تم فيه ابتكار الأنثروبولوجيا الألسنيّة كقسم من "منهج الحقول الأربعة" في الأنثروبولوجيا. منذ تأسيس الجمعية الإثنولوجية الأميركية سنة 1842 والجمعية الأنثروبولوجية الأميركية سنة 1902، والّتي أطلقها اعضاء من القسم ه من الجمعية الأميركية لتقدّم العلوم (AAAS)، تمّ تصوّر الأنثروبولوجيا وممارستها في الولايات المتّحدة كحقل معرفة **شمولي** يدرس سجلّات الإنسان الإحصائية (ونقول اليوم "البيولوجية") واللغوية (ما سمي في حينه "بالفيلولوجيا") والثقافية والأثرية. بعكس أوروبا، حيث كان للإثنولوجيين كليّاتهم الخاصّة والمستقلّة عن علماء الآثار والبَليونتوغرافيين والفيلولوجيين (وهم أوائل من نسمّيهم اليوم "بالألسنيين")، كان على طلّاب الأنثروبولوجيا في أميركا أن يلمّوا نوعاً ما بفروع المعرفة الأربعة، إضافة إلى إلمامهم الأعمق

باختصاصهم. والعالِم الّذي يمثّل أكثر من غيره في النظرية والتطبيق هذه الرؤية الشاملة هو فرانز بواس.

1.1.3. فرانز بواس واستعمال اللغات القومية

ما جذب فرانز بواس (Franz Boas) (1858 ـ 1942)، المولود في ألمانيا، وهو أحد مؤسسي الأنثروبولوجيا الأميركية، نحو دراسة اللغة، هو تجربته مع الإسكيمو والهنود الكواكيوتليين (Kwakiutl) في الضفّة الشمالية ـ الغربية[1]. وقد قيل إنّه لا يمكن فهم ثقافةٍ أخرى من دون أن يكون لنا مدخلٌ مباشر إلى لغتها. وليست هذه الحاجة الملحّة إلى دراسة اللغة عمليّة فقط، بل شدد على أن تكون، نظريّة، بسبب العلاقة الوطيدة بين الثقافة واللغة:

> لقد استخدمنا، في كلّ المواضيع الّتي تكلّمنا عنها حتّى الآن، معرفتنا للغات الهنود كعاملٍ أساسي لفهم عادات ومعتقدات الناس الّذين ندرسهم بشكلٍ كاملٍ. ولكن، وفي كلّ هذه الحالات، تخدمنا اللغة أوّلاً بشكلٍ عملي ـ كوسيلةٍ لفهمٍ أوضح لظواهر إثنولوجية لا علاقة لها بالمسائل اللغَوية... ولكن يبدو أنّ الدراسة النظريّة للغات الهنود لها نفس الأهميّة لمعرفتنا العمليّة لها؛ وأنّ الأبحاث اللغويّة البحتة هي جزءٌ لا يتجزّأ من الدراسة المتكاملة لتفكير شعوب العالم. إذا اعتبرنا أنّ الإثنولوجيا هي العلم الّذي يدرس الظواهر العقليّة لحياة شعوب العالم، عندها

(1) للمزيد عن تطوير بواس لحقل الأنثروبولوجيا عامّةً وفي أميركا خاصّةً، انظر (Langness 1987) (Hatch 1973: 37-73)؛ في ما يخصّ وجهة نظر بواس عن اللغة، انظر (Hymes 1964b)، (Lucy 1992a)، (Stocking 1974).

> تكون لغة الإنسان، كإحدى أهمّ ظواهر الحياة العقلية، التي تنتمي بشكلٍ طبيعي إلى حقل العمل الإثنولوجي. ([1911] n. d.: 52)

انتقل اهتمام بواس بالهنود منه إلى تلاميذه، وقد قام البعض منهم، كإدوارد سابير (Edward Sapir)، بأبحاثٍ طوّرت دراسة الألسنيّة في ما يخصّ الهنود الأميركيين ودراسة اللغة بشكلٍ عام (انظر أدناه). ومن المهمّ بالأخصّ أن نذكر أنّ رؤية بواس الّتي تقول بضرورة وجود اللغة لكي يستطيع الإنسان التفكير وبالتالي تكون لديه ثقافة، قد أصبحت واحدةً من الفرضيات الأساسية في علوم الأنثروبولوجيا الثقافية في أميركا في النصف الأوّل من القرن العشرين، كما نراه في هذا النصّ الّذي كتبه أحد تلامذته (A. L. Kroeber) ([1923] 1963: 102):

> بشكلٍ مختصَر، يمكننا القول بأنّ الثقافة لا تؤدّي دورها إلاّ بواسطة الأفكار المجرّدة، والأفكار المجرّدة بدورها لا توجد إلاّ بواسطة الكلام، أو بواسطة بديلٍ عنه كالكتابة والأرقام والكتابة المتخصّصة بالرياضيات والكيمياء وغيرها. وبالتالي فقد بدأت الثقافة بالوجود عند ولادة الكلام؛ وقد تطوّر كلّ منهما مع الآخر.

من وجهة نظر منهجية، تعني هذه الرؤية عن دور اللغة في الثقافة أنّه يمكن دراسة الأنظمة اللغوية كدليل يقودنا إلى داخل الأنظمة الثقافية. في ما يخصّ بواس، فقد أدّى ولعُه باللغات إلى نشر العديد من الكتب الإثنوغرافية المعتمدة بشكلٍ شبه كامل على "النصوص"، أي على النقل الكتابي لما يذكره المخبِرون (المتقنون لغتين عادةً) عن التقاليد الماضية، بما في ذلك المراسم والفنون... إلخ. وقد نقل ذلك

بواس نفسه أحياناً، ونقله مباشرةً المخبرون الّذين قد اختارهم أحياناً أخرى (Sanjek 1990c: 107; Stocking 1974). فقد نقل معاونه، جورج هانت، مثلاً، الكثير من الكتابات مستخدماً لذلك أسلوب بواس في النسخ (Boas 1966: 4-5; Sanjek 1990b: 199).

يمثّل النقل الكتابي للمراسم وغيرها من أوجه الثقافة التقليديّة قسماً لا يتجزّأ من "الأنثروبولوجيا الإنقاذية" الّتي مارسها بواس، وقد كان لذلك نتائج واضحة. لقد قلق بواس، وغيره من الأنثروبولوجيين في ذلك الوقت، بسبب الاختفاء السريع للغات وثقافات الهنود الأميركيين وأراد أن يحفظها بالكتابة طالما كان لا يزال هناك ناسٌ يتكلّمون هذه اللغات بطلاقة ويستطيعون وصف تقاليد ثقافتهم. من إيجابيات هذه الأعمال أنّها سمحت لنا باكتشاف أن معظم الأفكار التي وجدت في الكتب عن "اللغات البدائية" كانت، من وجهة نظر تجريبية، غير صحيحة، بما في ذلك القول بأنّ الأصوات في لغات الهنود الأميركيين، بعكس لغات أوروبا، لا تُلفظ بشكلٍ دقيق. فقد برهن بواس أنّ هذه الرؤية كانت تعتمد على ملاحظات المراقبين الأوروبيين الّذين لم يستطيعوا التعرّف على بعض الأصوات لكونها غائبة في اللغات الأوروبية (Boas 1911). من جهةٍ أقلّ إيجابية، نرى أنّ الأسلوب الّذي اتّبعه بواس، حيث يركّز عمله على القصص المتعلّقة بالماضي، قد أوجد نوعاً من **الحاضر الإثنوغرافي المشكوك** فيه من وجهة النظر التجريبية (Fabian 1983). فقد ركّز الإثنوغرافيون على ما يذكره المخبرون عن تقاليد الماضي وتجاهلوا قرناً أو أكثر من الاحتكاك الأوروبي مع تلك الثقافات، حتّى عندما كان لهذا الاحتكاك تأثير كبير على حياة الناس الّذين كانوا يدرسونهم. بالإضافة إلى ذلك، أتتهم معظم النصوص من "راوٍ أساسي" واحد، ولم يقارنوها بالتالي بنصوصٍ أخرى (انظر الفصل 5 عن عمليّة النقل).

على كلّ حال، وبالرغم من هذه الإشكالات، يبقى منهج بواس علماً رئيسياً في بناء ما سمي في ما بعد الأنثروبولوجيا الألسنيّة. وقد شدّد بواس على ضرورة نقل روايات الهنود عن مراسمهم وغيرها من إرثهم الثقافي حرفياً، وأن يسمح للقرّاء بالاطلاع على بعض المصادر الّتي أُسست عليها الإثنوغرافيا. من النصوص الّتي استخدمها الإثنوغرافيون في رواياتهم، وما زلنا نستعمل هذا المنهج اليوم عندما ننقل المحادثات الشفوية (انظر الفصلين 5 و8). فيستطيع القرّاء عندها أن يروا بأعينهم أساس الحديث. لا يمكن بالطبع عرض كلّ المعلومات على ورق، ولكن تعطينا هذه النصوص والمصادر أكثر بكثير من ما تعطينا إيّاه النصوص الوصفية الّتي لا تعرض مصادرها. فحلّت لذلك "مراقبة المشارك" (انظر الفصل 4)، بعد أن تمّ اتّباعها للمرّة الأولى ومن ثمّ قبولها المعمَّم، محلّ ما يسمّى "أنثروبولوجيا الكرسيّ"، كمنهج عام. وأصبح "وجودنا مع" التجربة المباشرة للممارسات الثقافية (Geertz 1988) ـ مصدر معظم الأوصاف التفصيلية وجمع المعلومات. ولكن، وفي الوقت نفسه، تمّ التخلّي شبه الكامل عن نشر نصوص روايات المخبرين. ونرى التناقض الّذي حصل عندها؛ فكان من المفروض أن تكون مراقبة المشارك أسلوباً تجريبياً أكثر في جمعه للمعلومات عن تقاليد الجاليات، ولكن ما أن بدأ الإثنوغرافيون بإعطاء وصفهم الخاص للحياة الاجتماعية للشعوب الّتي درسوها حتّى ضعف التصديق التجريبي للتجارب العملية بشكلٍ كبير: ولم تعد المصادر المكتوبة متوفّرة للقرّاء (Tedlock 1983).

وقع بواس بسحر تصنيف العالم وتجربة الإنسان الّذي تقوم به اللغات على اختلافها، عند نسخه للنصوص القومية وترجمتها. واستخدم هذه الملاحظة لتأييد **النسبوية الثقافية** ـ الّتي تقول بأنّه علينا فهم كلّ ثقافة من الداخل وليس بواسطة خريطة طريقٍ أوروبية تهيمن

عليها كسيّد متفوّق[2]. استخدم بواس معرفته للغات الهنود الأميركيين ليثبت بأنّ اللغات تصنّف العالم بشكلٍ عشوائي. فلكلّ لغةٍ طريقتها الخاصة في بناء مفرداتها لتقسيم العالم وتأسيس فئاتٍ من التجارب. ما يمكن تمثيله بعدّة كلمات في اللغة الإنجليزية (الماء والبحيرة والنهر والجدول والمطر... إلخ) نجده ممثّلاً بكلمة واحدة أو بمشتقّاتها في لغةٍ أخرى (Boas 1911/ n. d. 19). وأشار في هذا السياق إلى مثلٍ قد أصبح معروفاً اليوم، وهو يخصّ الكلمات المختلفة الّتي يستعملها الإسكيمو للتكلّم عن الثلج:

يبدو لي أنّه من المهمّ... أن أشدّد على أنّ مجموعات الأفكار الّتي تعبّر عنها مجموعات صوتية معيّنة [أي "الكلمات" أو "المورفيم"] تختلف بشكلٍ حسي بين لغةٍ وأخرى ولا تعتمد إطلاقاً على نفس مبادئ التصنيف. إذا أخذنا مجدّداً مثال اللغة الإنجليزيّة، نرى أنّه يتم التعبير عن فكرة **الماء** بعدّة أشكال: فتعبّر إحدى الكلمات عن الماء **كسائل**؛ وأخرى عن الماء كمساحةٍ واسعة (**البحيرة**)؛ وأخرى عن ماء يسيل كجسم كبير أو صغير (**نهر وجدول**)؛ وتعبّر كلماتٌ أخرىً عن الماء **كمطرٍ وندىً وموجٍ ورغوة**. ومن الممكن تماماً أن تعبّر لغة أخرى عن

(2) من المهمّ أن نفهم النسبوية الثقافية لدى بواس بالنظر إلى النماذج التطوريّة المعروفة في ذلك الوقت. ومن المهمّ أيضاً أن لا ننسى أنّ الثقافة كانت بالنسبة إليه مفهوماً ذهنياً وبسيكولوجياً. وبالتالي فنسبيّته كانت تتعلّق بالأخصّ بالأعمال الفكرية (فانتقد وجهة النظر الّتي قالت بوجود ناسٍ أحياء أذكى من غيرهم) وبالمعايير الأخلاقية (فكان يضحك من استعمال عبارة "وحشي" عند الكلام عن البشر، كقبائل الهنود الأميركيين الّذين درسهم، وهم بدوا له أحياناً حتّى أكثر "تحضراً" من الأوروبيين، في كرمهم مع الضيف مثلاً).

هذه الأفكار الموجودة في عدّة كلمات بالإنجليزية مستخدمةً بالأحرى مشتقّاتٍ من كلمة واحدة.

ويمكنني إعطاء مثالٍ آخر من نفس النوع في ما يخصّ الكلمات الّتي يستعملها الإسكيمو للكلام عن **الثلج**. فنجد لديهم كلمة **أبوت** للثلج على الأرض؛ وكلمة **قانا** للثلج الممطر؛ **وبيكسيربوك** للثلج المنجرف؛ **وقيموقسوغ** لكومة الثلج.

كما أوضحت لورا مارتين (Laura Martin) (1986)، لقد أصبحت "الكلمات الّتي يستعملها الإسكيمو للثلج" مرجعاً معتاداً للحديث الشعبي والعلمي عن العلاقة بين اللغة والثقافة والفكر، ونرى الكلمات تتكاثر، من خمسٍ إلى المئات منها[3]. من الطبيعي أن يكون للغةٍ ما كلماتٌ أكثر من غيرها للتعبير عن مجال تجربة معيّنة من الحياة، ولكن ما أراد بواس قوله هو أنّه يمكن أن يكون هناك دافعٌ ثقافي لتطوير مفرداتٍ مختلفة. وقد عدّل سابير وورف (Sapir and Whorf) هذه الرؤية البديهية فيما بعد قائلين بأنّه إذا حوّلت اللغة تجربة حياة إلى رموز، يعني ذلك أنّ استعمالها يهيّئ المتكلّمين فيها إلى رؤية العالم بحسب هذه التجربة الّتي ترمز إليها. علي إذا، قبل أن أفحص عن كثب ما تؤدّي إليه هذه الرؤية البديهية، أن أقدّم بعضاً من أفكار سابير وورف المتعلّقة بما نقوله هنا.

---

(3) تبرهن مارتين (Martin) أنّ كلّ كلمات "الإسكيمو" الّتي يذكرها بواس تشتقّ من جذرين فقط - وتلفت نظرنا إلى عدم وجود لغة "إسكيمو"، بل عدد من اللغات المترابطة تنتمي كلّها إلى اليوبيك أو الإنويت ـ إينوبياك انظر (Woodbury 1984). يعني ذلك بأنّه يوجد نفس التنوّع في "الإسكيمو" وفي اللغة الإنجليزيّة بين الثلج وفتاة الثلج (Martin 1986: 422f).

2.1.3. سابير والبحث عن المنطق الداخلي للّغة

أكمل إدوارد سابير ووسّع، وهو على الأرجح أكثر الباحثين شهرةً في تاريخ الأنثروبولوجيا الألسنيّة، عمل بواس في اللغات بتركيزه الأكبر على التركيبات اللغوية وبتشديده على أن لكل لغة نظاماً متكاملاً علينا فهمه من الداخل (Darnell 1990). ورأى أن اللغة شرط أوّليّ لتطوّر الثقافة، ورفض مثل بواس بشكلٍ قاطع كلّ محاولةٍ تسعى إلى تصنيف أية لغة "كبدائية" أو "محدودة" أكثر من غيرها[4].

> لم يجد أحدٌ قَط قبيلة من دون لغة، وكلّ قولٍ غير ذلك ليس إلاّ بالفلكلور... فاللغة في جوهرها وسيلة متكاملة للتعبير والتواصل في كلّ الشعوب. يمكننا القول بدون تردّد إنّ اللغة كانت أوّل ما طوره البشر بشكلٍ كامل وإنّ تطويرها هذا يشكّل شرطاً مسبقاً لتقدّم الثقافة بأسرها (Sapir 1933: 155).

نرى بشكلٍ واضح شغف سابير بالمنطق الداخلي لكلّ نظام لغوي في حماسه لاستخدام مفهوم **المورفيم**، وهو وحدةٌ مجرّدة تستعمل لتحليل اللغة كما سنرى في فصولٍ قادمة. وكان سابير على علم بالنتائج الممكنة الكامنة في فكرته القائلة بوجود منطق داخلي لكلّ لغة. يعود ما سُمّي لاحقاً "بفرضية سابير ـ وورف" أو "بفرضية نسبية اللغة" إلى وجهة نظره عن قدرة لغات البشر على إدخال الأشخاص في المجتمع وتوحيدهم. كان سابير في الوقت نفسه من مؤيّدي أهميّة **الشخصية الفردية** في المجتمَع. وكان يجد أنّ الثقافة

(4) لدراسةٍ حديثة تنتقد الأعمال الّتي تتكلّم عن اللغات "البدائية"، انظر (Wierzbicka 1994).

مكوَّنة من التبادل الرمزي بين الأفراد والمجتمع. وكان يقول إنّ الأنثروبولوجيين "يعتقدون بوجود عالم من الأفراد المستقلّين ولكن أيضاً بوحدة واستمرارية الثقافة" (Sapir 1993: 141). ويُعتبر تمييزه بين الثقافات "الحقيقية" والثقافات "المزيفة" (Sapir 1924) تحذيراً نظريّاً ضدّ خطر موجود مثلاً في المجتمعات الغربية الصناعية الّتي عاش فيها سابير والّتي لا تعترف بحاجات الأفراد الّذين يكوّنونها. ففي الثقافة الحقيقية انسجام بين حاجات المجتمع وحاجات الفرد - كما هو الحال في مجتمعات الهنود الّتي التقى بها سابير في عمله الميداني. أمّا الثقافة الزائفة فهي تجبر الفرد على القيام بأعمالٍ محبطة ومن دون أي معنىً روحي وكلّ ذلك بِاسْم الكفاءة العليا. وفي الثقافة الحقيقية، إن أعمال الفرد الأساسية يجب أن تلبي حاجاته للإبداع والشعور، وأن تكون دائماً أكثر من أداةٍ للوصول إلى هدفٍ ما (1924: 316). وقد اهتمّ سابير بالشِعر ودور اللغة الفني لكي يفهم من خلال ذلك كفاح الأفراد ضدّ ما سمّاه قيود (أو "استبداد") نظام الرموز (كاللغة مثلاً) الّذي عليهم استعماله للتعبير عن أنفسهم. كما أشارت إليه جين هيل (Jane Hill) (1988b)، فقد تغيّرت وجهة نظر سابير مع الوقت في ما يتعلّق بشدّة الأنظمة اللغوية. علينا أن لا نتسرع بالقول بأنّ لسابير موقفاً حتمياً من العلاقة بين اللغة والفكر (أي أنّ "اللغة تحدّد حتميّاً الفكر") أو رؤية ما قبل البنيوية للّغة كنظام مُغلَق (أي "أنّنا لا نستطيع تفسير تركيبة اللّغة بواسطة عوامل غير لّغوية"). من المشكوك فيه مثلاً أن يكون قد اعتقد فعلاً أنّ أي "لغة هي في جوهرها وسيلة متكاملة للتعبير والتواصل" (انظر أعلاه). بالإجمال نجد في كتابه **اللغة** قوله المعروف: "مع الأسف، أو من حظّنا، لا يوجد هناك أيّ لغةٍ ثابتة ومستبدّة. وكلّ قواعد اللغات غير مستقرّة" (Sapir 1921: 38). سنعود أحياناً في الفصول القادمة إلى عمل سابير لكي نفحص مساهماته أو نستخدم قسماً منها

لفهم مجالات معيّنة في حقل دراسات الأنثروبولوجيا الألسنيّة.

3.1.3. بنيامين لي وورف، الرؤيات الكونيّة والفئات المستترة

كان بنيامين لي وورف (Benjamin Lee Whorf) (1897-1941) مهندساً كيميائيّاً، وكان له مهنتان كوكيل شركة تأمينٍ ناجح وكلغوي. ويعود اهتمامه باللغة إلى قلق ظهر لديه في حياته الراشدة يخصّ النزاع الممكن بين الدين والعلم. ولكنّه كان يقرأ بشغفٍ حتّى في طفولته، حسب ما يقوله كاتب سيرته جون ب. كارول (John B. Carroll) (1956: 6)، كتباً عن ما قبل تاريخ أميركا الوسطى وعن علم آثار المايا. وقد درس وورف لاحقاً العبرية لكي يقرأ كتب العهد القديم وكان مولعاً بكتابِ ألّفه مسرحيٌ نحويٌ صوفيٌ فرنسي من بداية القرن التاسع عشر، أنطوان فابر دوليفيه (Antoine Fabre d'Olivet)، عنوانه *La langue hébraïque restituée* [استرداد اللغة العبرية]. كان فابر دوليفيه قد اقترح نظرية تفسيرية حيث يرتبط كلّ حرفٍ من اللغة العبرية بمعنىً معيَّن. ويمكن استخدام هذه المعاني كمفتاحٍ للمعنى الضمني لكتاب التكوين، حسب ما يقوله هذا المؤلِّف. وقد وسّع وورف فيما بعد هذا الأسلوب في العمل بشكلٍ مبدعٍ وعلميٍ أكبر، مطبّقاً إيّاه على قواعد اللغة. وحفّز ذلك وورف على قراءة الكتب عن اللغات والألسنية، وبدأ يدرس مسألة لغات الهنود الأميركيين. وبعد مرور عدّة سنوات بدأ يقدّم محاضراتٍ أمام المجمع العالمي للمختصّين بأميركا (International Congress of Americanists) وينشر مقالاتٍ في المجلّات العلميّة. وقد سمح له لقاؤه مع سابير في سنة 1928 وسمحت له دراساته في جامعة يال (Yale) أن يحصل على مصادر علمية جديدة، ممّا ساعده على تحسين فهمه للنظريات النحوية والتحليل.

يعتبَر التركيز على الصلة بين اللغة ورؤية الشخص للعالم أشهر مساهماته في علم الألسنيّة. فكان يعتقد بأنّ تركيبة كلّ لغة تحتوي نظريةً عن تركيبة الكون، وكان يسمّي ذلك أحياناً "ميتافيزيقيا". ونرى هذه التركيبة بوضوح حين ندرس لغاتٍ وثقافاتٍ تختلف عن لغتنا وثقافتنا:

أجد أنّه من الساذج القول إنّ الهوبي الّذي لا يعرف سوى لغة مجتمعه وأفكاره الثقافية له نفس الأفكار عن الزمان والمكان الّتي لدينا، والّتي نعتبرها بديهية وعالمية. فليس لديه فكرة عامّة عن **الوقت** كتيار يسيل فيه وفي اتّجاهٍ واحد كلّ ما يوجد في الكون من الماضي إلى الحاضر ونحو المستقبَل؛ أو حيث، ولنعكس الصورة، يدخل المراقب ذاك التيّار الزمني، فيترك الماضي ويدخل المستقبَل.

(Whorf 1956a: 57)

فتخفي إذا لغةُ وثقافةُ الهوبي ميتافيزيقيا؛ كما تفعله رؤيتنا الساذجة للزمان والمكان، أو كما تفعله النظرية النسبية؛ ولكنّها تختلف عن كلٍّ منهما.

(Whorf 1956a: 58)

يرى وورف بأنّ التحليل اللغوي يهدف إلى وصف هذه الرؤى الكونية. بما أنّه لا يمكننا الحصول عليها بسؤال المخبرين، لأنّهم ليسوا على يقينٍ في أغلب الأحيان بخياراتهم وعاداتهم، يجب علينا، لكي ندرسها، أن نراقب بشكلٍ منظّم الأنماط المتّبَعة في القواعد وبالأخص مقارنة اللغات الّتي تختلف جذرياً بعضها عن بعض، كالإنجليزية (أو غيرها من اللغات الأوروبية) والهوبية (أو غيرها من لغات هنود أميركا). يمكن للدراسة المنظّمة للأنماط اللغوية ـ ويستعمل وورف كلمة "**الترتيب**" ـ أن تُظهِر ليس فقط **الأصناف**

البيّنة (والّتي تسمّى أيضاً **فئات ظاهرة** (Phenotypes)) ولكن أيضاً **الأصناف المستترة** (والّتي تسمّى أيضاً **الفئات المستترة**). جمع الأسماء في الإنجليزية مثلاً هو صنف بيّن لأنّ له علامةً هي حرف السين (S) في آخره أو علامةٌ أخرى في أعضاء الجملة (كشكل الفِعل مثلاً أو استخدام أداة تعريف). فاسمٌ مثل (Fish) لا يأخذ علامةً في الجمع (ويبقى بالتالي Fish)، ولكن يمكننا أن نعرف بأنّه في الجمع بواسطة شكل الفِعل (Are بدلاً من Is) أو بوجود أو غياب أداة التعريف (The). أمّا الأفعال اللازمة في اللغة الإنجليزية فهي أصنافٌ مستترة لأنّه ليس لديها لاحقة أو علامة تميّزها عن غيرها من الأفعال. "لا يتبيّن تصنيف كلمةٍ ما حتّى يتوجّب استعمالها أو الدلالة عليها في هذه الأشكال المعيّنة من الجُمَل، فنكتشف عندها انتماء هذه الكلمة إلى صنفٍ يحتاج إلى معالجةٍ خاصّة يمكنها حتّى أن تكون سلبية"، (1956f: 89) أي أنّه لا يمكن تطبيق قواعد معينة عليها. ويمكن فقط لتطبيق أنواع معيّنة من القواعد أن يُظهِر لنا بأنّ بعض الأفعال الانجليزية، مثل **ذهب**، **تمدّد**، **جلس**، **قام**، **لمع**، **نام**، **وصل**، **ظهر**، **وتمتّع**، تتشابه في ما بينها وتختلف عن الأفعال الأخرى (كالأفعال المتعدية مثل **طبخ**، **دفع**، **رأى**، **أجلس**، **أخذ**، **وعرض**). فلا يمكننا مثلاً استخدام الأفعال اللازمة في المجهول، وأن نقول بالتالي **كان قد ذُهِبَ**، أو **كان قد وُصِل**.

تهمّ معرفة الأصناف المستترة لعدّة أسباب. فهي تعلمنا **أوّلاً** أنّ اللغات تميّز ليس فقط شكل الكلمات أو ما تفعله، بل أيضاً ما لا تفعله أو لا يمكنها القيام به ـ وقد طوّر نعوم تشومسكي ذلك في استخدامه للجمل غير المقبولة في الجدال اللغوي (انظر أدناه). يمكن النظر أيضاً إلى فكرة الأصناف المستترة أو الفئات المستترة كنذيرٍ لفكرة **التركيبة العميقة** (Chomsky 1965) ـ أي كمستوى لغوي

تصنيفي غير منظور أو مسموع بشكلٍ مباشر، ولكنّه ضروري لتفسير كيفيّة تصرّف اللغة (انظر الفصل 6). **ثانياً**، يعني الاعتقاد بوجود فئاتٍ مستترة أنّ اللغات الّتي قد تبدو "بسيطةً" سطحياً (كاللغات الّتي ليس لديها جنس أو عددٌ ظاهر)، هي بالفعل معقّدة في مستواها المجرّد أو المستتر (Whorf 1956b: 83). وقد ربط بذلك وورف بين أبحاثه وفكره الأخلاقي والسياسي. فقد تعهّد بأنّ يخفّض شعور الأوروبيين بتفوّقهم على غيرهم وبأن يشجّع "التفكير الأخوي" بين الشعوب (Carroll 1956: 27). يسمح لنا التحليل اللغوي الدقيق بتقدير تعقيدات الأنظمة اللغوية الّتي قد تبدو بسيطةً سطحيّاً. ويسمح لنا أخيراً التعريف المنظَّم بالأنماط الظاهرة والمستترة في لغةٍ ما أن نكوّن فرضيّاتٍ تجريبيةً قابلة للإثبات عن حدود معرفة المتكلّمين لاستعمالهم للّغة، وهذا ما درسه مؤخّراً سيلفرشتاين (Silverstein) (1981)، ولوسي (Lucy) (1992a)، وغيرهم (Lucy 1993) (انظر الفقرة 8.6).

لا تزال فكرة الصلة بين اللغة والرؤية الكونية، والّتي تشكّل نقطة مركزيّة في عمل وورف، قسماً مهمّاً من الأنثروبولوجيا الألسنيّة (Hill 1988a; Koerner 1992). ولكن تغيّرت أفكارنا عن اللغة والرؤية الكونية وعن الصلة بينهما (Gumperz and Levinson 1991, 1996; Hill and Mannheim 1992). يعني ذلك أنّ الظواهر الّتي ندرسها في "النسبية اللغوية" قد تغيّرت وتوسّعت، وأنّه لا يمكننا فيما بعد أن نتجاهل بعض الفرضيات الّتي أُسّست عليها أعمال سابير وورف. فتتعلّق فكرة الرؤية الكونية الّتي يستخدمها وورف (وكذلك سابير وبواس) بنظرةٍ لغويّة معيّنة تعود إلى زمنٍ أقدم من أعمال علماء الاجتماع الألسنيّين وغيرهم من الباحثين الّذين كانوا قد كرّسوا أنفسهم للدراسة التجريبية للتغيّرات في داخل كلّ جاليةٍ وكلّ فردٍ

منها. وعلينا، قبل أن نقدّم بعض هذه الأفكار الموجودة حاليّاً، أن نراجع بعض نتائج الرؤية التقليدية للنسبية اللغويّة.

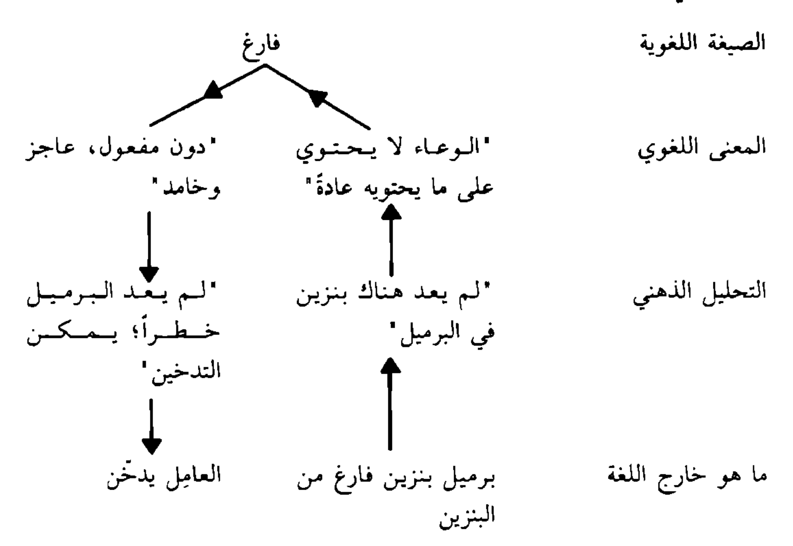
2.3. النسبيّة اللغويّة

نجد أحد التأكيدات الأقوى على الموقف القائل بأنّ طريقة تفكيرنا بالعالم تتأثّر باللغة الّتي نستعملها للكلام عنه، في مقالة سابير "منزلة الألسنيّة كعِلم"، من سنة 1929، حيث يقول إنّ اللغة المعيّنة الّتي يتكلّمها البشر تتحكّم بهم:

من الوهم التصوّر بأنّه يمكن للشخص أن يتأقلم مع الواقع دون استخدام اللغة، وأنّ اللغة ليست سوى وسيلة عرضية لحلّ مسائل معيّنة من التواصل والتفكير، وأنّ "العالم الحقيقي" في الحقيقة مبني بشكلٍ باطن على عادات الجماعة اللغوية. لا توجد لغاتٌ جدّ متشابهة حتّى يمكننا أن نعتبر بأنّها تمثّل نفس الواقع الاجتماعي. يختلف عالم كلّ مجتمعٍ عن عالم غيره، وليس هناك عالمٌ واحدٌ بتسمياتٍ مختلفة (Sapir [1929] 1949b: 162).

وقد عبّر وورف بعد عقدٍ من ذلك عن نفس الموقف، مسمّياً إيّاه "**مبدأ النسبية اللغويّة**"، وعنى في ذلك أنّ "قواعد لغة الّذين يستعملون قواعد لغويّة مختلفة جدّاً، توجّههم نحو أنواع مختلفة من مراقبة وتقييم أعمال مراقبةٍ متشابهة كثيراً، وهم بالتالي لا يتساوون كمراقبين ويستنتجون رؤية كونيّة مختلفة جدّاً" (Whorf 1956c: 221). وكما قلتُ من قبل، يعتبر وورف أنّ التركيبة النحويّة لكلّ لغة تحتوي على نظريّةٍ تخصّ تركيبة الكون أي على "ميتافيزيقيا". وقد أعطى، لدعم رؤيته، عدّة أمثالٍ عن كيفيّة تصنيف الزمان والمكان والمادّة في لغاتٍ مختلفة. وأشهر الأمثال الّتي أعطاها عن اللغة الإنجليزية هي كلمة (فارغ) (Empty) الّتي تدلّ على البرميل الّذي كان قد احتوى

فيما قبل على البنزين. وفي هذه الحالة، يقول وورف، وبالرغم من أنّ الوضع المادي، غير اللغوي، هو وضعٌ خطِر (فالبرميل "الفارغ" يحتوي على غازٍ متفجِّر)، يظنّ الناس بأنّ البرميل "غير مؤذٍ"، لأنّهم يربطون كلمة **فارغ** بما هو "دون مفعول" وبالتالي "عاجز وخامد" (1956d: 135). ويرينا الرسم 1.3. بشكلٍ واضح العلاقة بين هذه المعاني ومستويات التفسير المختلفة:



الرسم 1.3. رسم بياني لأحد أمثال وورف عن حالات حدوث حرائق

وقد أدّت هذه الأفكار إلى نقاشات حادّة في مجال الأنثروبولوجيا وعلم النفس، بما في ذلك عددٌ من الدراسات التجريبية الهادفة إلى إثبات أو دحض فرضية النسبية اللغوية (Hill and Mannheim 1992; Koerner 1992; Lucy 1992a). تبقى أفكار وورف جيّدة اليوم، ولو أنّ بعض الدراسات أثبتت أنّ بعض ما يقوله عن لغة الهوبي غير دقيقٍ تجريبياً أو حتّى غير صحيح. فقد أثبت مالوتكي

(Malotki) (1983) مثلاً أنّ لأفعال لغة الهوبي علامات تصريف (في الماضي والمضارع) (Whorf 1956d: 144)، وأنّ لغة الهوبي تستعمل استعارات مكانيّة للكلام عن الوقت.

بالرغم من الإشكالات التجريبية الّتي نجدها في تحاليل وورف اللغوية، سنتحدّث على الأرجح دائماً في الأنثروبولوجيا الألسنيّة عن مدى تأثير اللغة على الفكر، خاصّةً وأنّ جيلاً جديداً من العلماء يجدون أنفسهم مجذوبين نحو أساليب جديدة تسمح باختبار أفكار وورف عن "الفئات النحويّة، فهي تشكّل بما أنّها إجبارية ومعتادة وغير واضحة عادةً للمتكلّم الواعي، موقعاً مميَّزاً لنقل واستنساخ الفئات الثقافية والاجتماعية" (Hill and Mannheim 1992: 387). وهذه الفكرة مهمّة لعدّة أسباب، بما فيها كونها تهتمّ بمواضيع معرفيّة رئيسيّة في ما يخصّ دراسة الممارسات الثقافيّة.

1.2.3. اللغة كتشييء للعالم: من فون همبولت إلى كاسيرر

لم يكن سابير وورف أوّل من عبّر عن الرؤية القائلة بأنّه يمكن للّغة أن تؤثّر في الفكر. فقد كتب قبل قرنٍ منهم الديبلوماسي واللغوي الألماني فيلهلم فون همبولت (Wilhelm Von Humboldt) (1767-1835) أطروحةً عنوانها **التغاير اللغوي وتطوّر الفكر**، وقد نشرها بعد موته أخوه ألكسندر، وهي قدّمت أوّل دراسة للّغة كرؤيةٍ كونيّة (Weltanschauung باللغة الألمانيّة). يحتوي هذا الكتاب، ولو أنّه ليس متناغماً في كلّ ما يقوله، على بداية تعريف النسبيّة اللغوية، كما نراه في قوله ما يلي:

> ترسم كلُّ لغةٍ دائرةً حول الشعب الّذي تنتمي إليه، ولا يمكن الخروج من هذه الدائرة إلاّ بدخول دائرة شعبٍ آخر في الوقت نفسه. فيجب بالتالي على

تعلُّم لغة أجنبيّة أن يكون اكتساباً لوجهة نظرٍ جديدة تضاف إلى موقف الفرد السابق تجاه الكون. وهو بالحقيقة كذلك نوعاً ما، بما أنّ كلّ لغة تحتوي على كلّ مفاهيم وتصوّرات قسم معيّنٍ من البشر. ولكن ذلك غير كامل، فعلينا القوَل أيضاً بأنّ الفرد يحمل معه دائماً القليل أو الكثير من رؤيته للعالم ويُدخِلها معه في اللغة الأجنبيّة.

(von Humboldt [1836] 1971: 39-40)

تشكّل اللغة إذاً، بفضل قدرتها على الاستمرار، أداةً قويّةً تسمح لنا أن نفهم العالم ـ فهي تعطينا تصنيفاً فكريّاً ـ، ولكنّها في الوقت نفسه، وبسبب ذلك بالضبط، تقيّد إمكانيّاتنا، وتحدّد وسع وضيق رؤيتنا. ونجد في هذه المواضيع الوجوديّة عدّة اعتباراتٍ عن طبيعة اللغة والعلاقة بين اللغة والعالم.

فيشكّل أوّلاً مفهوم اللغة كتشييءٍ للطبيعة، وبالتالي كخطوةٍ إلى الأمام نحو تصميم عقلاني يحوّل المادة غير المنظَّمة والّتي تغيب عنها الأشكال والصور، أساس الافتراضات الفلسفية الّتي يسترشد بها اللغويّون أمثال فردينانِد دو سوسور (Ferdinand de Saussure) والفيلسوف إيرنست كاسيرر (Ernst Cassirer). ونجد جذور هذه الفرضيّات في رؤية كَنْت لعقل الإنسان كأداةٍ قويّة تسمح للناس بفهم الكون، الّذي يبقى دون ذلك غير منظّم وغير مفهوم. يمكننا أن نفهم تجربتنا بواسطة مبادئ أوّلية كالزمان والمكان ـ يمكننا أن نتعلّم أشياء عن العالم بواسطة رؤيتنا لما يحيط بنا، ولكن لا يمكننا القيام بذلك إلاّ بواسطة المفهوم الأوّلي للوقت والمكان. عندما ننظر عن كثب إلى وجهة نظر الكَنْتيين الجدد الّذين يمثّلهم عمل كاسيرر في اللغة، نجد ما قد قام به همبولت أيضاً، وهو استبدال فئات كَنْت الإدراكيّة (المعرفة المثالية

الّتي تسمح للإنسان بإعطاء معنىً لتجاربه) بفئاتٍ لغويّة.

> لا "تنسخ" اللغة الأشياء فقط، وهي تشبه بذلك الإدراك؛ بل تجسّدُ موقفاً روحيّاً يشكّل قسماً أساسيّاً في إدراكنا الحسي لما هو شيئي (Cassirer 1955: 158).

ولكن لاستبدال الفئات الإدراكيّة بفئاتٍ لغويّة ثمنٌ يُدفَع. فيمكن مبدئيّاً على الأقلّ تصوّر فئات فكر الإنسان كفئاتٍ نتقاسمها جميعاً، أمّا الفئات اللغويّة فهي من البداية فئاتٌ تخصّ البعض ولا تخصّ البعض الآخَر، كما نرى في الصعوبات الّتي نلقاها في ترجمة لغةٍ إلى لغةٍ أخرى وصعوبة إيجاد نفس الأنماط اللغويّة في كلّ اللغات. فلا نجد بسهولةٍ ما يشبه "الحالات" أو حروف الزيادة في الأسماء، كما نجدها في اللغة اللاتينيّة، في اللغات الّتي لا تغيّر في الظاهر شكل أسمائها، كالإنجليزيّة والصينيّة. وبشكلٍ مماثل، تُعتَبَر الأجناس الموجودة في اللغات الأوروبيّة (المذكّر والمؤنّث، والمحيَّر أحياناً) جدّ بدائيّة، إذا ما قورنت بلغات البانتو، الّتي لديها أكثر من اثني عشر جنساً (أو "أصناف أسماء") (انظر Welmers 1973: ch. 6). إذا قرأنا هذه المسائل كإثباتٍ لاختلاف تصنيف الواقع من لغةٍ إلى أخرى، علينا عندها أن نواجه مسألة حرّية التعبير. أي علينا أن نسأل أنفسنا: إذا كانت اللغة تعطي من يتكلّمها نموذجاً للتفكير بالعالم، هل يمكن للّذي يتكلّمها أن يتحرّر من هذا النموذج وأن ينظر إلى العالم بطريقةٍ جديدة ومستقلّة عن اللغة؟ يعتبر كاسيرر، كما كانت من قبله، أنّ البشر يحلّون هذه المسألة جزئيّاً بواسطة الفن، فهو يسمح للفرد أن يكسر قيود التقاليد، بما في ذلك اللغويّة منها. لا يمكن تعليم الفنّان، أي العبقري بالنسبة لكَنْت، فله طريقته الخاصّة في تصوّر العالم. تشكّل الأصالة المميَّزة ما يحرّر نوعاً ما من قيود المجتمَع كما نجدها في اللغة وغيرها من أساليب التصوّر التمثيليّة.

ولذلك تشكّل اللغة ـ الّتي يعتبرها كاسيرر أداةً لوصف الواقع[5] ـ مرشداً لنا في العالم، ولكنّها ليست المرشد الوحيد. بينما يمكن تمثيل حدس الفرد بواسطة الفن (Cassirer [1942] 1979: 186)، يتمّ تمثيل حدس الجماعة بواسطة الأساطير إجمالاً، وهي تنظر إلى الطبيعة **بشكلٍ أساريريّ**، أي كتجربةٍ متقلّبة، مثل وجه الإنسان، الّذي يتغيّر بين حالة وأخرى، "من الفرح إلى الحزن، ومن السعادة إلى التعاسة، ومن الاعتدال والكرم إلى الغضب والعنف" (Cassirer [1942] 1979: 174).

ويمثّل ذلك، بالنسبة لكاسيرر، أساليب مختلفة للتحرّر من "سجن اللغة". فلكلٍ من الفن والأسطورة طريقته وحياته المعيّنة، وهي مستقلّة عن الـ (Logos)، أي الفكر العقلاني الّذي يعمل بواسطة اللغة. ويستطيع الإنسان، بواسطة الفن والأسطورة، أن يمثّل ويلمس ويفهم ويعبّر عن ناحياتٍ من كيانه البسيكولوجي قد لا يمكن تشييئها في اللغة. بالرغم من تمييزه المطلق بين لغة الأساطير والفن ولغة المنطق واختصاره اللغة (الّتي يعاكسها الفن والأسطورة) على الفكر المنطقي والمستقلّ عن الواقع[6]، لا تزال أفكاره مفيدة، لأنّه يسعى، بعكس معظم اللغويين، إلى دراسة الأشكال والوظائف اللغويّة كقسمٍ من تصرّف الإنسان التعبيري.

2.2.3. اللغة كدليل على العالم: الاستعارات

تمثّل الدراسات الحديثة للاستعارات وجهاً جديداً من فرضيّة

(5) هذا ما يسمّيه اللغويّون وفلاسفة اللغة "بالدور الدلالتي" أو بخاصيّة التعابير اللغويّة (انظر الفقرة 1.6).

(6) انظر انتقاد تامبياه (Tambaiah) (34 -33 :1985 [1968]) لتمييز كاسيرر (Cassirer) بين الفكر الميثولوجي والفكر المنطقي. ولكن يقع تامبياه في نفس الفخ عندما يميّز بشكلٍ قاطع بين العمل اللغوي وغير اللغوي (53 :1985).

سابير ـ وورف، وهي تعطينا، حسب التحليل الحالي، مخطّطات تصوريّة نفهم العالم من خلالها. وقد اعتبر جورج لاكوف ومارك جونسون (1980) **(1)** أنّ لغتنا اليوميّة أغنى من ما نعتقده بالاستعارات، **(2)** وأنّ الاستعارات تسمح برؤية نوع من التجارب بواسطة نوع آخر، **(3)** وأنّ الاستعارات تفترض وجود بعض النظريّات (أو "النظَريّات الشعبيّة") عن العالم أو عن تجربتنا له. فهم مفهوم "النظريّة" في الانجليزية مثلاً بواسطة المفهوم الاستعاري القائل بأنّ **النظريات مبنيّة** (Lakoff and Johnson 1980: 52)، كما نرى في العبارات التالية الّتي نستعملها للكلام عن النظريّات : الأساس والدعم ومهزوز وواقف ووَقَعَ والانهيار والإطار (المرجع المذكور ص 46). ويقول مفهوم استعاري آخر بأنّ **الفهم هو الرؤية** (أو أنّ **الأفكار مصادر منيرة**)، كما نجده مثلاً في العبارات التالية : "**أرى** جيّداً ما تريد قوله. **يبدو** ذلك مختلفاً من **وجهة نظري**. لدي **صورة** كاملة عن الوضع. هذه فكرة **نيّرة**. هذه ملاحظة **لامعة**. الحجّة **واضحة**. هل يمكنك إلقاء **ضوءٍ** على ما قلته؟" (المصدر المذكور ص 48).

تسمح لنا هذه المفاهيم الاستعاريّة المعمَّمة أن نُقيم صلاتٍ بين حقول تجاربنا وأن نجد ترابطاً بين أحداثٍ قد لا تكون متشابهة أو متّصلة بعضها ببعض. يمكن لما يسمّيه لاكوف وجونسون "الاستعارات التركيبية" مثلاً أن "يوجد تشابهات" (1980: 147). فتؤسّس الاستعارة القائلة بأنّ **الأفكار طعام** تشابهات بين حقلين (الفكر والطعام) لا صلة بينهما في تجربة الفرد، وهي مبنيّة بدورها على استعارات بسيطة، ومنها أنّ **العقل وعاء**، وهي تمثّل نظريّة قويّة عن طبيعة عقل الإنسان. نتقبّل استعارةً ما كوصف يمثّل تجربتنا، بحسب ما يقوله لاكوف وجونسون، لأنّها تتناسب مع استعاراتٍ أخرى معمَّمة أكثر وتشكّل معها وحدةً متجانسة. ويجد بالأخص

الأنثروبولوجيون الثقافيّون هذه الصيغة مفيدة لأنّها تساعدهم في النظر إلى الثقافة كنظام معرفة (انظر الفقرتين 2.2. و4.3.2.).

3.2.3. مصطلحات الألوان والنسبيّة الألسنيّة

جاء أحد أقوى انتقادات النسبية الألسنيّة من الباحثين الّذين درسوا مصطلحات الألوان في مختلف اللغات. فقد توصّل برلين وكاي (Berlin and Kay) (1969) إلى نتائج جاءتهم من دراستهم التجريبية لمصطلحات الألوان في عشرين لغة ومن استشارتهم لنصوص أكبر عدداً 78 بحسب كاي ومكدانيال (Kay and McDaniel 1978: 610)، فأكّدوا عندها وجود قيود عالمية تخصّ (1) كيفية تحويل وترتيب الألوان الأساسية في اللغات المختلفة، و(2) كيفية تغيّر اللغات مع الوقت بإضافتها مصطلحات ألوان جديدة إلى معاجمها[7]. وقد اكتشفوا وجود إحدى عشرة فئة إدراكيّة حسيّة عالميّة مرتّبة بحسب التدرّج في الرسم 2.3 أدناه ـ حيث عبارة "a < b" تعني أنّ b تفترض a، أي أنّ "a موجود في كلّ لغةٍ يوجد فيها b وأيضاً في لغاتٍ لا يوجد فيها b" (Berlin and Kay 1969: 4).

[أبيض، أسود] < [أحمر] < [أخضر، أصفر] < [أزرق] < [بنّيّ] < [بنفسجي، وردي، برتقالي، رمادي]

الرسم 2.3 الدرجات المستنتَجة لمصطلحات الألوان الأساسيّة (Berlin and Kay 1969)

---

(7) يقدّم برلين وكاي عدداً من المعايير للتعريف بالألوان "الأساسيّة". وهذه المعايير هي التالية: (1) على المصطلح أن يكون واحديّ المعنى، أي أن لا يشتقّ معناه من معاني أقسامه، (2) على معناه أن لا يوجد في أي مصطلح لونٍ آخر، (3) لا يقتصر تطبيقه على فئةٍ صغيرة من الأشياء، و(4) عليه أن يكون "سهلاً" للمخبرين (Berlin and Kay 1969: 8).

يمكن تفسير نفس الفئات الأحدى عشرة ونفس الترتيب مستعملين الوقت ودرجات مقاييس تبدأ بالأسود والأبيض كحدود وتتطوّر نحو أنظمة مختلفة تتضمّن عدداً أكبر من الألوان الأساسيّة. وقد فسّر كاي وماكدانيال (McDaniel) هذه النتائج لاحقاً - مع بعض التعديلات - على أساس عمليّات الإدراك الفيزيولوجيّة - العصبيّة، وكرّرا من جديد اقتناعهما بأنّ مصطلحات الألوان الأساسيّة الّتي اكتُشفت حول العالم في لغاتٍ لا صلة بينها تثبت بشكلٍ تجريبي قوي عدم صحّة فرضيّة سابير - وورف، وإن طُبّقت بشكلٍ قوي أو ضعيف. وقد فسّر كاي وماكدانيال (1978: 610) قول وورف إنّ "العالم يقدَّم في دفقٍ متلوّن من الانطباعات على ذهننا أن يرتّبها مستعملاً بالأخصّ النظام اللغوي الموجود فيه"، قائلين بأنّه يعني أنّ "كلّ لغة تفرض تركيبتها الدلاليّة الخاصّة على "دفق الانطباعات المتلوّن". يبدو ذلك غير صحيح إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأبحاث الخاصّة بمصطلحات الألوان الأساسيّة.

قد أدّى هذا العمل إلى عددٍ كبير من الدراسات الّتي سعى بعضها إلى دعمه والبعض الآخَر إلى انتقاد تصميمه ونتائجه الأوليّة (Maffi 1991). فأكّد بعض من انتقد برلين وكاي (1979) أنّهما أخطأ في قراءتهما لوورف، (2) وأنّ التصنيف اللغوي له أهميّته في ما يخصّ أنواع معيّنة من الأعمال البسيكولوجيّة. فأكّد لوسي وشويدر (Lucy and Shweder 1979: 602) مثلاً أنّ اللغة تلعب دوراً في الذاكرة العرفيّة، وأنّ وورف لم يقل إنّ العالم **يُدرَك حسيّاً** في "دفقٍ متلوّن من الانطباعات" ولكن بكلّ بساطة. إنّ العالم **يقدِّم** نفسه على هذا النحو وإنّ على اللغة عندها أن ترتّب هذا الدفق. ويعني ذلك أنّ ما يقوله وولف يتعلّق بوجود (أو عدم وجود) حاجة يجب تلبيتها.

وقد اعتقد أنّ كلّ الأشياء "تتشابه وتختلف بشكلٍ مماثل، أي أنّ عدد الحقائق الّتي يمكن قولها عن شيئين معيّنين (أي عدد المساند المناسبة) تتساوى، وقد تكون لا متناهية" . (Lucy and Shweder 1979: 602) ولا يمكن الاستنتاج بأنّ اللغة رمز متغيّر مستقلّ وأنّ التصنيف رمز متغيّر مشروط. فتتضمّن اللغة تصنيفاً إدراكياً حسيّاً (ولو أنها تقرّر أحياناً عدم الاكتراث لذلك). وقد أشارت لوسي حديثاً (1992a: 178) إلى كون النسبية الألسنيّة ـ على الأقلّ كما يقدّمها وورف ـ لا تستثني إمكانيّة اكتشاف مسلّمات دلاليّة.

تضمّن عمل برلين وكاي، بالإضافة إلى ما يقولانه عن مصطلحات الألوان الأساسيّة، عدداً من الفرضيّات وجداول الأبحاث المهمّة. عند اكتشافهما لميول "طبيعية" في تمييز بعض الألوان، كانوا يضعفون بذلك فكرة سوسور القائلة بأنّ الإشارات اللغويّة كيفيّة (أي تقليديّة). بما أنّنا نجد في لغاتٍ غير مرتبطة ببعضها أنظمة تصنيفٍ مماثلة، يجب أن يكون هناك مبادئ لتكوين الرموز اللغوية مستقلّة عن اللغة (وهذه الفرضيّة هي أساس عمل برلين عن الرمزيّة الصوتيّة، انظر الفقرة 1.8.6.). بالإضافة إلى ذلك، لا يبدو أنّ معجم مصطلحات الألوان مرتّب في فئاتٍ منفصلة يمكن تمثيلها بشكلٍ ازدواجي، كما يفترضه النحويّون التوليديّون أمثال جيرولد كاتز (Jerrold Katz) (1964)، بل كدلالاتٍ متواصلة. وقد أكّد كاي وماكدانيال (1978) أنّ نظريتي النموذجية والمجموعات غير المحدَّدة هما الفضليان لدراسة هذه المعطيات. بينما **يوجد** عنصرٌ ما أو **لا يوجد** في المجموعة، في نظريّة المجموعات العاديّة (وفي تحليل ميّزات المعجم)، ينتمي العنصر إلى **درجةٍ ما**، في نظريتّي النموذجية والمجموعات غير المحدَّدة (Lakoff 1972; Kay and McDaniel 1978; Rosch 1973, 1975; Zadeh 1965, 1971) . وقد ساهمت هذه

الأفكار لاحقاً في تعاون كاي مع تشارلز فيلمور وماري أوكونور (Charles Fillmore and Mary O'Connor) لابتكار "نحوِ بنّاء"، حيث يتّصل الترتيب النحوي بالتفسير الدلالي والعمليّ (Fillmore 1996; Fillmore, Kay, and O'Connor 1988). ونجد أفكاراً مماثلة في مفهوم جورج لاكوف (1987) المسمّى "النماذج الإدراكيّة المثاليّة،" الّذي طوّره حول مفهوم الاستعارة (انظر أعلاه).

4.2.3. اللغة والعلوم

تقودنا مسألة النسبية الألسنيّة إلى صميم العمل الأنثروبولوجي، لأنّها تفتح الباب لتأسيس علم يدرس الناس كأفرادٍ ولا تقتصر دراستهم على تركيبتهم البيولوجيّة. إذا كانت (أو يمكن أن تكون) اللغة (في معناها الأوسع) بالفعل تقيّدنا، فكيف يمكننا استعمالها لوصف ما نفعله ونعتقده ونفكّر ونشعر به، أو ما يفعله ويعتقده ويفكّر ويشعر به غيرنا؟

إذا كانت اللغة نفسها تمثّل رؤية معيّنة للعالم، كنظّاراتٍ أعطيت لنا منذ الولادة من دون أن نعي ذلك، فكيف يمكننا أن نرى ما يراه آخَرون من وراء نظّاراتٍ مختلفة؟

يمكن الإجابة عن هذا السؤال بعدّة طرق. ولكن لا توجد أجوبة عنه مقنعة تماماً، ولكن تشكّل الأجوبة الّتي لدينا كلّها معاً أدواتٍ تسمح لنا بالقيام بأبحاثٍ أنثروبولوجيّة.

يمكننا أوّلاً أن نستلهم بنظريّة كاسيرر ونقبل تحدّيه لنحاول أن نصبح فنّانين. يعني ذلك أنّه علينا التصرّف كمخلوقاتٍ مُبدِعة لا تخشى انتهاك التوقّعات والبقاء في الوقت نفسه في شرائع التواصل المعروفة. لا شكّ بأنّ الكثير من الأفكار العلميّة والفنيّة تلد من إلهامٍ مفاجِئ، ظهور يصعب إيجاد تركيبته من جديد. وهناك فنّ اكتشافيّ

كما هناك فنّ تقديم الأفكار إلى عامّة الناس. في الوقت نفسه، نجد في العلوم، كما نجد في الفنّ، أنّه لا يمكن ابتكار أفكارٍ جديدةٍ إلاّ إذا لم تنحرف بشكلٍ زائد عن ما هو مقبول. يعيش الباحثون، كما يعيش الفنّانون، في **سوق** أفكارٍ، حيث تُنتَج الأعمال الثقافيّة ويتمّ تقييم قوانين النجاح بشكلٍ دائم (Bourdieu 1982, 1985; Rossi-Landi 1970, 1973).

يقضي الحلّ الثاني الّذي يقترحه كاسيرر بشكلٍ غير مباشر بدراسة المنتجات الثقافيّة، كالأساطير، الّتي تكشف عن حقائق للجالية قد لا يعيها أعضاؤها أو لا يودّون التسليم بوجودها (انظر Dolgin, Kemnitzer and Schneider 1977). يفترض ذلك أنّ الثقافة تتواصل مع الأفراد بطرقٍ عديدة فهي تذهب أبعد من الأقوال الوصفيّة الّتي ينتجها المتكلّمون المحليّون عندما يحاورهم الإثنوغرافيّون (انظر ما نقوله في الفقرة 3.1.2. عن الثقافة كتواصل). يعود ذلك أيضاً إلى توسيع فكرة فرويد (Freud) القائلة بأنّ الأحلام أذكى من الحالم، وأنّه بإمكاننا إقامة صلات جديدة والتعرّف على المسائل وحتّى إيجاد حلولٍ في الأحلام. قد لا تستطيع مجموعة من الناس أن تعبّر عن ما يهمّها أو أن تفسّر تصرّفاتها، ولكن يمكن لحكاياتها وأدائها وعباراتها اليوميّة أن تكشف عن حوافزها الباطنة.

يقضي الحلّ الثالث بدراسة الشروط الّتي تسمح للّغة، أو بالأخصّ للمتكلّمين بها، بتخطّي حدود رؤيتهم الكونيّة أو ميتافيزيقياهم الخاصّة. هذا ما يقترحه مثلاً عمل سيلفرشتاين في البراغماتيّة التبصّريّة (انظر الفقرتين 2.4.1. و8.6.). يقول سيلفرشتاين بما أنّنا نستعمل اللغة، لدراسة الظواهر الثقافيّة، علينا أن نفحص ونعرف إلى أيّ درجة يمكن للغة ولمتكلّميها أن يتعرّفوا إلى الميّزات الّتي تعطينا إشارات واضحة تسمح بإيجاد قوانين عامّة. تعطينا نظريّة

الدلالة الأدوات التحليليّة اللازمة للقيام بهذه الأبحاث. ويصبح "سجن اللغة"، من وجهة النظر هذه، فرضيّة يتوجّب تدقيقها ومقارنة ما يقوله المتكلّمون المحليّون عن استعمالهم للغتهم بالفرضيّات القائمة على الاستعمال الفعلي لها.

يقضي حلٌّ آخَر بإعادة التفكير بمفهوم اللغة نفسه ودمج ما نكتشفه عن الفئات النحويّة وما تؤدّي إليه مع فهمنا للتواصل اللغوي كممارسة تدعو إلى التعاون المتبادل ومقارنة عدّة أنظمة رمزيّة وأساليب تواصل ومشاركين (انظر الفصل 9). ويصبح بإمكاننا عندها تخطّي "الحدود" الّتي قد توجد في أحد مكوّنات الحدث التواصلي، بواسطة ميّزات مكوّناتٍ أخرى. اللغة هي أكثر من مجموعة من الفئات الصوتيّة والصرفيّة والنحويّة والمعجميّة، وكيفيّة استعمالها. توجد اللغة في مجالٍ من الممارسات الثقافيّة، الّتي تعتمد بدورها على مصادر علاماتيّة، بما في ذلك التصوّرات والتوقّعات الّتي يعطيها المشاركون بأجسادهم وتحرّكاتهم، وتعطيها البيئة الّتي يعملون فيها، والعلاقات الفعّالة التي تأتي من تكرار الأعمال الّتي يقومون بها سويّاً.

كيفما كان اختيارنا، علينا أن نسلّم بأنّ نوعاً من النسبية الألسنيّة يؤثّر مبدئيّاً على كلّ عملٍ علمي. يحتاج كلّ عملٍ نظري - كإعطاء فرضيات وعزل ظواهر وإعطاء مبادئ عامّة - إلى لغةٍ ويعتمد على رؤية ووجهة نظر. ولكن لا يجب اعتبار ذلك هدف العلوم، بل فقط العلوم المبسَّطة. فتعيش العلوم في مدّ وجزر بين قطبين أو قوّتين، نسمّيهما أحياناً الذاتية والموضوعية. تبدأ الذاتية من الافتراض القائل أنّ من يشكّل كلّ الظواهر إلى حدٍّ ما هو الشخص (أي الذات) الّذي "يكتشفها" أو يصفها بكلّ بساطة. وليست التاريخيّة إلاّ نوعاً معيّناً من هذه الفكرة: فيمكن تحديد كلّ الظواهر في التاريخ؛ ووجودها يعود إلى صلتها بظواهر أخرى تعطيها معناها الخاص، وقد ندرك

ذلك أو لا ندركه. تدخل اللغة بالطبع في هذه المواضع التاريخيّة على مستوياتٍ وبطرقٍ مختلفة. تتجاهل النظرية الموضوعية عمداً الأساس الاجتماعي ـ التاريخي للتفسير وتدّعي إمكانيّة إيجاد مجموعة معايير عامّة ومستقلّة عن أي واقع، تسمح بوصف كلّ ظاهرةٍ ممكنة. عندما نتكلّم عن "الجمل" أو"المفعول به وفيه" أو"حروف الجرّ" أو"الحروف اللاحقة" أو الأصوات الفردية، نتجاهل ـ بهدف التحليل ـ أساسها الاجتماعي ـ التاريخي القائم في أفعال الكلام والأعمال الكلاميّة الّتي يقوم بها أشخاص في زمانٍ ومكانٍ ما.

يعود اختلاف أساليب دراسة الظواهر الثقافيّة، بما فيها الكلام، إلى مدى عمل الباحثين مستخدمين مجموعة افتراضات بدلاً من أخرى. ويختلف الباحثون أيضاً في مدى دخولهم أو خروجهم من إحدى هاتَين الصيغتين. فيعيش الألسنيّون عادةً مثلاً في عالم مظاهر موضوعي، حيث تخسر الجمل والمعاني علاقتها بمواضع معيَّنة وتُفحص لافتراض وجود ميّزات عامّةٍ فيها. فيخرجون من ذلك العالم فقط لجمع المعطيات، للقيام بالمزيد من التحاليل مثلاً. من جهةٍ أخرى، يحاول الأنثروبولوجيون الألسنيّون إيجاد طرقٍ تسمح بإبقاء صلةٍ بين الأشكال الكلاميّة ومنتجيها. ولكن يعمل كلٌّ من الأفراد المنتمين إلى هاتين المجوعتين مستخدمين تركيبة نظرية. فمفهوم "الحدث اللغوي" الّذي يستعمله إثنوغرافيّو الكلام (انظر الفصل 9) ومفهوم "الفعل" الّذي يستعمله النحويّون، ومفهوم "الأزواج المتجاوِرة" الّذي يستعمله محلّلو الحديث، ما هي الا نظريّة (انظر الفصل 8). لا يوجد في العالم "الخارجي" أفعالٌ وأحداثٌ لغويّة وأزواجٌ متجاورة، بل جزئيّاتٌ مادّيّة تتحرّك بشكلٍ متكرّر ومتقلّبٍ في الوقت نفسه. ونفسّر هذه التجارب كرموز وبواسطة رموز، بما في ذلك العبارات اللغوية. فتكمن في ذلك تحديداً ماهيّة الإنسان. تسعى

الدراسة الأنثروبولوجيّة للّغة إلى توضيح العوامل الّتي تسمح بإنتاج هذه التصوّرات، بما في ذلك تشابهاتها واختلافاتها. ولكن لا يمكن القيام بذلك من دون إعادة اختبار مفهوم "اللغة" نفسه. فيبقى هذا المفهوم، بالرغم من استعمال علماء الاجتماع الروتيني له، دون تحليل. سأكمل هذا الحديث عن التنوّع اللغوي، عائداً بذلك إلى معنى "اللغة"، مقترحاً استبداله بعددٍ من المفاهيم المختلفة، بما في ذلك الأنواع اللغويّة، والذخيرة، والجالية الكلاميّة.

3.3. اللغة، اللغات، والتنوعات اللغويّة

من المهمّ أن نميّز بين "اللغة" كمفهوم عام و"**لغة ما**" معيّنة. تشير الأولى إلى قدرة الإنسان على التواصل مستعملاً نوعاً معيّناً من الرموز (كالأصوات والحركات) المرتّبة في نوعٍ معيّن من الوحدات (كالسلسلات)، وتشير الثانية إلى إنتاجٍ اجتماعي ـ تاريخي، يمكن التعريف به بواسطة علامةٍ "كالإنجليزية" و"توك بيسين" و"البولنديّة" و"السواحليّة"، و"الصينيّة"، و"لغة الإشارة الأميركيّة"، "ولغة الإشارة الإنجليزية". بالرغم من أنّ الألسنيّين الاجتماعيين (والأنثروبولوجيين الألسنيّين) يستخدمون مصطلح "اللغة" بشكلٍ روتيني في معناه الأوّل، أي العام، فقد برهنت لنا الكثير من الأبحاث في العقود الأربعة الماضية أنّه يصعب التعريف "بلغةٍ ما" كنظام لغوي تستعمله مجموعةٌ من الناس. فكلما سعينا إلى النظر عن كثب إلى **لغةٍ ما** ("كالإنجليزية" أو "السواحلية"... إلخ)، نكتشف الكثير من الاختلافات فيها بين المتكلّمين وبين الحالات المتعدّدة. يعني ذلك بأنّه لا يمكننا التأكّد بأنّه يمكن تطبيق ما نقوله في وصفنا لبعض المتكلّمين أو حتّى لمجموعةٍ من الناس بأكملها، على المجتمع بشكلٍ أوسع. هناك أماكن، كميلانيزيا مثلاً، يُعترف فيها بعدّة لغاتٍ في منطقة صغيرة ـ فيقال بأنّ لبابوا غنيا الجديدة أكثر

من 750 لغة ـ وحتّى في المدن الكبيرة حيث قد يعتبر المتكلّمون أنفسهم أنّهم ينتمون إلى "نفس اللغة"، قد تكون هناك عدّة أشكالٍ وقوانين تخصّ تفسيرهم. كما لجماعةٍ من المراهقين الذين يلتقون عند نفس التقاطع كلّ يوم بعد الظهر أسلوباً معيّناً بالكلام، يختلف عن أسلوب أهلهم أو حتّى أخوتهم الكبار، يملك أعضاء مهنةٍ ما أيضاً معجمهم الخاص وافتراضاتهم الخاصّة في ما يتعلّق بوصف المسائل وتحديد الحلول. يعني ذلك أنّه علينا في تحقيقنا أن نكون على علم بالتغيّرات وأن نكون مستعدّين لابتكار أساليب تسمح لنا بفهم العلاقة بين مجموعة الناس الّتي ندرسها و**الشبكات** الواسعة الّتي يعملون بداخلها (L. Milroy 1987; Milroy and Milroy 1992). كان للأنثروبولوجيين الألسنيّين في الماضي شكوكهم في ما يتعلّق ببعض الافتراضات النظريّة الموجودة بشكلٍ غير مباشر في الأساليب الكمّية الضروريّة لتقييم التغيّرات داخل الجماعات، ولكنّهم كانوا يدرسون فقط الجماعات الصغيرة أو معطيات قليلة محدودة. بما أنّ المزيد من الأنثروبولوجيين الألسنيّين يقومون اليوم بأعمالهم في المدن أيضاً، عليهم أن يعيدوا الإمعان بتقييمهم للألسنيّة الاجتماعية الكميّة وأن يواجهوا التحدّي الّذي تواجهه أساليبهم وافتراضاتهم النظريّة.

وقد علّمتنا الألسنيّة الاجتماعية أيضاً أنّه لا يمكننا دائماً أن نثق بما يقوله أعضاء مجموعةٍ عن الاختلافات اللغويّة والتجمّعات. ما يسمّيه الناس "بلغةٍ" بدلاً من تسميته "لهجة" قد يعود بكلّ بساطةٍ إلى وصمة عارٍ اجتماعيّة بسبب قرارٍ سياسي يؤدي إلى إنزال لهجةٍ محليّة منزلة اللغة. يفضّل الألسنيّون الاجتماعيون لهذا السبب استخدام مصطلح **التنوّع** (وأيضاً **التنوّع اللغوي** أو **نوعٌ من اللغة**)، كمجموعةٍ من الأشكال ومعايير استعمالها التواصليّة المقيّدة بمجموعةٍ أو جاليةٍ واحدة معيّنة أو حتّى بأنشطةٍ معيّنة أحياناً. وقد تنطبق تنوّعات الألسنيين

الاجتماعيين على ما يسمّيه باحثون آخَرون باللغات واللهجات والسجلّات والأساليب حتّى (Andersen 1990; Biber and Finegan 1994). تعود جدوى استخدام مصطلح التنوّع إلى كونه لا يحمل في طيّاته ما قد يصل بينه وبين كلماتٍ "كاللغة" و"اللهجة"، وأن يطبَّق على حالاتٍ مختلفة كثيراً، بما في ذلك "كلّ لغات الشخص أو الجالية الّتي تجيد التكلّم بعدّة لغات" (Hudson 1980: 24).

يعتمد مصطلح "التنوّع"، بالإضافة إلى فكرة التوزّع الاجتماعي، على مفهومي **الذخيرة اللغويّة والجالية الكلاميّة**، وكلاهما أساسيّان لتوضيح "اللغة" كموضوع دراستنا.

4.3. الذخيرة اللغويّة

كان غامبرز أول من استخدم مفهوم الذخيرة اللغويّة (1964: 137) للإشارة إلى "كلّ الأشكال اللغويّة الّتي تُستعمل بانتظام في التواصلات الاجتماعية المفيدة". ويفترض ذلك أنّ استعمال اللغة يعني القيام الدائم بأعمالٍ تسمح باتّخاذ قرارات ما، ولو لم يكن ذلك بشكلٍ معلوم (انظر أيضاً Ervin-Tripp 1972). تشكل الذخيرة بالتالي مفهوماً يمكن تطبيقه على المجموعات كما على الأفراد (Platt and Platt 1975). يبقى ما إذا كان يمكن لذخيرة الفرد أن تكون هي نفسها ذخيرة جاليته سؤالاً تجريبيّاً إلى حدٍّ ما، ويمكن التأكّد من ذلك بالتحقيق المفصَّل لكلام الأفراد ومقارنته بكلام جاليته. ولكنّه يعتمد أيضاً على اختيارنا لما يشكّل عناصر الذخيرة (أو وحدات التحليل) وحدود الجالية الّتي نجد فيها تلك الذخيرة. إذا ما ركّزنا على التنوّع الصوتي وعلى جالية صغيرةٍ مثلاً، قد يكون من الأسهل عندها أن نجد أفراداً يستعملون نفس ذخيرة جاليتهم. أمّا إذا شملنا وحداتٍ أوسع (كالخيارات المعجميّة وأنواع

الكلام) ووسّعنا حدود الجالية، فمن غير المحتمَل عندها أن يكون للأفراد نفس ذخيرة جاليتهم.

تثير فكرة الذخيرة بالتالي عدّة مسائل. **أوّلها** مسألة التنوّع. هل تساعدنا دراسة الذخيرة على معرفة مدى انتشار التنوّع في جاليةٍ كلاميّة؟ هل تلقي ضوءاً على حجم هذا التنوّع؟ **ثانيها** مسألة المعنى. هل يمكننا، عندما نتأكّد من وجود سلسلة من الخيارات (الصوتيّة والنحويّة والمعجميّة... إلخ) الممكنة، أن نعرف أيضاً ما إذا كان خيار متعلّق بأحد الأشكال المختلفة سيؤثّر على المتكلّمين كأفراد؟ **ثالثها** يخصّ التنظيم الاجتماعي والثقافي لذخيرةٍ ما. ما هي المعايير الّتي يستعملها المتكلّمون عند القيام بخياراتهم من ذخيرةٍ ما؟ هل يمكننا أن نصل بين هذه الخيارات وعوامل فرديّة وظرفية ومؤسساتية؟ ما هي أهميّة نوع التنظيم الاجتماعي الّذي يتمّ تقييم الذخيرة فيه؟ يتمّ القيام بمعظم الأعمال الّتي تخصّ التنوّع اللغوي في جالياتٍ حيث يمكن تحديد الاختلافات الاجتماعية في إطار الطبقات الاجتماعية. هل تتعامل أنظمةٌ اجتماعيّة أخرى (كالجاليات الصغيرة المتساوية، والأنظمة الّتي تعتمد الطائفة الاجتماعية أو الإقطاعيّة مع الذخيرة بشكلٍ مختلف؟ ويخصّ السؤال الرابع التغيّر وحريّة الفرد. فإلى أي حدّ يملك الأفراد المتكلّمون الخيار في اعتماد شيءٍ بدل شيءٍ آخر (مثلاً عدم لفظ الراء في آخر الكلمات كما يحصل في نيويورك، أو استخدام لغةٍ ذات عباراتٍ تعظيميّة في الجاليات الّتي تعتمدها كسجلٍّ "خاص" أو "مستقلّ")؟ و إلى أي حدٍّ يعكس تصرّفُ الفرد توقّعات جماعته؟ هل باستطاعة بعض الأفراد (كزعماء الجالية والفنانّين المشهورين) أن يؤثّروا على الخيارات اللغوية في جاليتهم؟

نرى من هذه الأسئلة أنّ فكرة الذخيرة تجبر الباحثين بأن يفكّروا بعددٍ من المسائل الأساسية بالنسبة لدور اللغة في الحياة الاجتماعية.

بالرغم من اختلاف الذخيرة عن ما يسمّى عادة "بالقواعد"، فهي تعطي افتراضات مشابهة عن المعايير والتوقّعات. تعود إحدى حسناتها إلى عدم اعتمادها على مسلّماتٍ "كالكلام اللائق". فيملك كلُّ المتكلّمين الذخيرة، مهما كانت مدرستهم أو الوقت الّذي أمضوه في المدرسة. ومن الواضح، في الوقت نفسه، أنّ تجربة حياة الفرد، بما في ذلك سنواته الدراسيّة تشكّل عنصراً مهمّاً في ذخيرته. أمّا بالنسبة إلى الباحثين، فالتركيز على الذخيرة يعني اختيار سلسلةٍ من الميّزات اللغويّة، ومجموعةٍ من الحالات، وجاليةٍ لغويّة.

5.3. الجاليات اللّغويّة، اللغة في الاستعمال، ومذاهب اللغة

> تقول حكمة قصّة برج بابل إنّ انهياره كان من سوء حظّ البشر، وإنّ صرف الانتباه أو ثقل اللغات المتعدّدة قد أدّى إلى وقوع البرج، وإنّه لو كانت هناك لغةٌ واحدة فقط لمكنت البرج من الارتفاع والوصول إلى السماء... ربّما كان الوصول إلى الجنّة متسرّعاً وغير ناضج، إذ لم يأخذ أحد الوقت اللازم لفهم اللغات والرؤيات والقصص الأخرى. طوني موريسون (Toni Morrison 1994: 19).

كما سيتّضح في حديثنا عن الأساليب الإثنوغرافيّة في الفصل 4، لا يركّز الأنثروبولوجيّون الألسنيّون عادةً عملهم على نوع من اللغة فقط، بل على نوع (أو أنواع) من اللغة كما تتكلّم بها جاليةٌ معيّنة. أي أنّهم ينطلقون من افتراض أنّ كلّ فكرةٍ عن نوع اللغة تقتضي ضمناً وجود جالية كلاميّة، تشكّل مرجعيّةً لأفرادها، الّذين يستعملون نوعاً لغويّاً، وللباحث الّذي يودّ تدوين هذا الاستعمال وتشكيل وثائق.

1.5.3. كلام الجالية: من المثاليّة إلى اللغة في الاستعمال

يشارك الأنثروبولوجيّون الألسنيّون الألسنيّين الاجتماعيين في سعيهم إلى تعريف الجالية الكلاميّة على أنها مجموعة حقيقيّة من الناس لها قواسم مشتركة تخصّ استعمال اللغة. ويقودهم ذلك إلى أسلوب يختلف عن ما يقترح معظم النحويين الشكليين، الّذين يفترضون من ناحيتهم أنّ الجالية الّتي يدرسونها متجانسة (Chomsky 1965: 3). يشكّل التجانس مثالاً معتاداً (ولكن ليس عامّاً أبداً) في العلوم : إذ يبدأ كلّ استقصاء بافتراض وجود ترتيبٍ واتساق. ويتمّ تجاهل التنوّع واعتباره "شاذاً عن القاعدة" أو "ثانوياً". ويضع تشومسكي نفسه في هذا التقليد عندما يعتبر أنّه لا بدّ أن يكون لعقل الإنسان ميّزة تسمح "للشخص بتعلّم لغة في تجربة حياةٍ صرفة ومتناسقة" (Chomsky 1986: 17). ولا يتمّ عندها تقديم ودراسة حالاتٍ أكثر تعقيداً إلاّ بعد تثبيت القوانين والمبادئ الّتي تحكم الجالية المثاليّة. يدرس تشومسكي التجربة النوعيّة المثاليّة باستجواب المتكلّمين المَحلّيين في ما يقولونه (وعادةً ما يعتبره الألسنيّ كذلك أيضاً) عن مدى تقبّل شكلٍ لغوي أو جملةٍ ما، أي ما إذا كان "سماعها مقبولاً" (ويختلف ذلك عن قبول أستاذ المدرسة لها). تمثّل الجمل الإنجليزية أدناه مثلاً عن طريقة العمل هذه. تتمّ هنا مراقبة ثلاثة أفعالٍ تأخذ تتمّة - وُضِعت بين قوسين - وتبدأ "بما"، بتصوّر عدّة جملٍ تظهر فيها. الأمثال الّتي تبدأ بـ (*) غير مقبولة (Chomsky 1986: 88):

(1) سألت [ما الوقت الآن]

(2) تساءلت [ما كان الوقت]

(3) (لا) يهمّني [ما الوقت الآن]

(1)' سُئل ما كان الوقت

(2)' * تسوئل ما كان الوقت

(3)' * مهما كان الوقت

(1) I asked [what time it is]
(2) I wondered [what time it is]
(3) I (don't) care [what time it is]
(1)' It was asked what time it is
(2)' *It was wondered what time it is
(3)' *It was cared what time it is

تشكّل قرارات القبول أساس الاستنتاجات العامّة الّتي يعطيها اللغوي بالنسبة لقواعد اللّغة المعيّنة. فيُستعمل مثلاً أن الجملة الّتي تحتوي على فعل **سأل** تتقبّل وحدها المجهول الّذي يعبَّر عنه بفعل **كان** (Be) (It Was Asked) لإثبات أنّ العلاقة بين الفعل وتتمّته تختلف بين فعل **سأل** وفعلي **تساءل** واهتمّ. بينما فعل **سأل** متعدٍّ، اهتمّ وتساءل ليسا كذلك، وبالتالي لا يمكن لتتمّتهم الّتي تبدأ بـ **ما**... أن تصبح فاعل الأفعال المجهولة **تُسوئل وهُمَّ**[8]. تستخدم هذه التعميمات، بعد دمجها بفرضيّة التركيبات "التحتيّة" أو "العميقة" الّتي قد تُستعمل لوصف هذه الظواهر[9]، لوضع مبادئ يتوجّب تطبيقها على كلّ اللغات (في ما يسمّيه تشومسكي "بالقواعد العامّة").

(8) في الحقيقة إن الجملتين (1)' و(3)' ليستا مجهولتين بالمعنى الكامل، وإلاّ كانت الجملة-الفاعل [What Time it is] قبل الفعل الرئيسي، كما في الجملة التالية:

"ما كان الوقت" هو ما سُئِل ([What Time it is] Was Asked)

ولكنّ قد يبدو ذلك غريب الشكل لمن يتكلّم الإنجليزية، وبالتالي تمّ "وضع" الفاعل في النهاية واستبداله بالضمير "الفارغ" it.

(9) انظر الفصل 6 من هذا الكتاب.

قد برهن تطوّر الألسنيّة الشكليّة في الستّينات أنّ استعمال الحدس لمعرفة النمط الّذي تنتمي إليه مجموعة كلماتٍ ما يشكّل أسلوباً ممتازاً لتشكيل قواعد وقوانين عامّة عن الانتظام النحوي بشكلٍ سريع. ولكن يقع العمل بهذا الأسلوب بمشاكل إذا ما طبّقناه كمصدر معلوماتٍ أساسي عن ما تعني معرفة لغةٍ ما أو حتّى قسم بسيط منها. وقد حدّد لابوف (1972b: ch. 8) بعض هذه المسائل، منها العدد المحدود من المعطيات عند العمل بحسب حدس الباحث أو حدس بعض المخبرين، وصعوبة إيجاد بديهيّاتٍ عن التنوّع وما يعنيه بالنسبة للمتكلّمين، والحدود النظريّة الموجودة عندما نعتبر أنّه يمكن حلّ الاختلاف بين البديهيّات الحدسيّة التي يعزوها إلى "لغاتٍ محليّة" مختلفة. وقد أشار هايمز (1972b)، في رؤيته الأنثروبولوجيّة، إلى صعوبة التعريف بما هو مقبول، إذ إنّ معرفة اللغة لا تتوقّف على معرفة ما هو مقبول في قواعدها فقط، بل تتطلّب أيضاً معرفة ما هو مقبول اجتماعيّاً وثقافيّاً. ومن الصعب أو المستحيل حتّى الحصول على هذه المعلومات بتخيّل الأمثال والظروف. يرد النحويّون الشكليّون على هذه الاعتراضات قائلين بأنّ هناك سوء فهم واضحاً في هذا الجدال. فاللغة الّتي يتحدّثون عنها تختلف عن اللغة الّتي يتحدّث عنها الألسنيّون الاجتماعيّون والأنثروبولوجيّون. إذ ما يدرسه النحويّون الشكليّون ليست عمليةً أو إنتاجاً اجتماعيّاً - سياسيّاً بل هو تجريد، يصنعه اللغوي لكي يتمكّن من إعطاء فرضيّاتٍ عن عقل الإنسان. يستعمل تشومسكي مصطلح "لغة الداخل" (أو "لغة د") للكلام عن ذلك، مميّزاً بينه وبين "لغة الخارج" (أو "لغة خ") الّتي يستعين بها الّذين يهتمّون بدراسة استعمالات اللغة.

من المهمّ أن نشدّد على أنّ مشكلة هذا الأسلوب، من وجهة نظر اجتماعية وأنثروبولوجية، لا تعود إلى مثاليّته بحدّ ذاتها، بل إلى

بعض افتراضاته ونتائجه. سأذكر هنا مشكلتين فقط. أوّلها يعود إلى "الصفائية" اللغوية الّتي تحملها كلّ نظريّة لغويّة مبنيّة بشكلٍ حصري على المثالية. ويقول تشومسكي (17 :1986) بكلّ وضوح إنّ الجالية اللغويّة حيث يستعمل الناس لغتين مختلطتين، كالفرنسيّة والروسيّة مثلاً، ليست صافية بالكفاية لكي تشكّل موضوع دراسةٍ للنظرية الالسنية. ولكن يعني ذلك أن علينا استثناء معظم أو ربّما كلّ الجاليات الموجودة فعليّاً في العالم. إذ يحتوي كلّ كلام الجاليات الّتي قد تمّت دراستها على **قدرٍ** من التنوّع اللغوي والاجتماعي والثقافي. ويعتقد الألسنيّون الاجتماعيّون والأنثروبولوجيّون الألسنيّون أنّ هناك دائماً قدراً من "الخلط"، لأن ذلك يعود إلى نوعين مختلفين كثيراً (كاللغتين الفرنسيّة والإنجليزية) أو إلى تنوّع "اللهجات" أو "سجلّ الكلام" (انظر أدناه المناقشة الخاصّة باللغة في الاستعمال). يعني العمل على إيجاد مثاليّة، ومن دون أن ندخل في سلبيّة استعمال مصطلح "الصافية"، عندما نودّ تطبيقه، أنّه علينا، على الأقلّ في الوقت الحاضر، أن لا ندرس أي جالية نجد فيها قدراً من "الاختلاط" أو "الشوائب". يُقدَّم هذا الأسلوب على أنّه الأكثر عقلانيّةً، ولكن ما يُتركُ عندها لدراساتٍ "لاحقة" قد لا يلقى أي دراسةٍ **أبداً**، إذا ما واصلنا استعمال كلّ الموارد البشريّة لاختبار نماذج الجاليات "الصافية" وإعادة النظر فيها، بدلاً من دراسة ومعرفة ما إذا كان بإمكاننا أن نطبّقها على الحالات الواقعيّة، حيث المعيار الحقيقي هو الخليط "الشائب". وهذا ما حدث بالفعل في النظرية الألسنيّة كما طوّرها تشومسكي وطلّابه. فقد قيل القليل جدّاً، خلال أربعين سنة من الأبحاث الّتي قامت بها مجموعة من العلماء المبدعين ذوي الإنتاج الوافر، عن كيفيّة إيجاد صلاتٍ بين المعرفة المجرّدة لأعضاء الجاليات "الصافية" المثاليين والأداء اللغوي الواقعي الّذي يقوم به الناس في الجاليات الموجودة حقيقيّاً.

أجد أنّ ما تقوله طوني موريسون (في اقتباسي لها أعلاه)، في سياق هذه المناقشة، يذكّرنا بقوّة بأصول أسطورة اللغة "الصافية". لم لا نستخدم مواقفنا النظريّة وحكمتنا العلميّة لكي نتخلّى عن اعتقادنا بأنّه من الأفضل والأسهل أن نتكلّم جميعاً نفس اللغة، بنفس اللهجة، وبنفس الأسلوب؟ لم لا نتبنّى بالأحرى الفكرة القائلة بأنّ التنوّع قسمٌ لا يتجزّأ من ثقافة الإنسان وطبيعته؟ لم لا نتقبّل وجود قوىً متفاوتة في كلّ مجموعة من الناس وحتّى عند الشخص الواحد؟ فيقودنا ذلك عندها إلى منهجٍ مختلف لدراسة الإنسانيّة، بما في ذلك اللغة. فنبدأ عندها من اعتبار التغاير معياراً ونبحث عن طرقٍ تسمح بإيجاد وثائق تساعدنا على فهم اللغة كجزءٍ من حياة الإنسان ووجوده.

هذا ما يقترحه عمل الكثير من النظريين الحاليين، بما فيهم الّذين يستوحون أفكارهم من ميخائيل باختين، الفيلسوف الروسي الألسنيّ والناقد الأدبي، وهو القائل بأنّ التجانس اللغوي الّذي يفترضه معظم اللغويّين والفلاسفة وفقهاء اللغة ليس إلاّ بناءً أيديولوجياً، يتعلّق بتطوّر الدول الأوروبية وعملها على تأسيس هويّة وطنيّة بواسطة لغةٍ وطنيّة يشار إليها بِاسم واحد: كالألمانيّة والفرنسيّة والروسيّة والإيطالية. ولا علاقة بين فكرة اللغة الموحَّدة واستعمال اللغة الفعلي. فنجد في الحياة اليومية (كما في عمل كبار الفنّانين الدقيق، كبعض الروائيين الّذين يدرسهم باختين)، ما يقوله شخصٌ مليئاً **بأصواتٍ** مختلفة أو بشخصيّات تبنيها اللغة، ما يسمّيه باختين بالرازنوريسيي (Raznorecie)، وهو ما نترجمه بالعربيّة باللغة في الاستعمال (بالإنجليزية Heteroglossia):

تبقى اللغة، في كلّ لحظةٍ من نموّها، مقسّمة إلى طبقاتٍ منها اللهجات في معناها المحدّد... وأيضاً ـ

> ويشكّل ذلك ما يهمّنا الآن ـ لغاتِ أيديولوجية ـ اجتماعية : لغات مجموعاتِ اجتماعية، ولغات "مهنيّة" و"عامّة"، ولغات أجيالٍ، وغيرها. وليست اللغة الأدبية، من وجهة النظر هذه، إلاّ واحدة من بين هذه اللغات في استعمالها ـ وهي بدورها تنقسم إلى طبقات لغوية مختلفة... (Bakhtin 1981b: 271-272).

تتّحد العوامل الاجتماعيّة والثقافيّة والإدراكيّة والبيولوجيّة الكثيرة المسؤولة عن اللغة في الاستعمال، أو ما يسمّيه الألسنيّون الاجتماعيّون بالتغيّر اللغوي، لتخلق شدّ أوتارٍ بين ما يسمّيه باختين بقوى اللغة **الجاذبة والطاردة**.

تشمل القوى الجاذبة القوى السياسية والمؤسّساتيّة الّتي تسعى إلى فرض نوع أو نظام شفري واحد يختلف عن غيره، كالكتشوا في البيرو في القرن السادس عشر (Mannheim 1991)، والإنجليزية في اسكتلندا في القرن الثاني عشر والقرن السادس عشر، واللغة المحليّة التوسكانيّة في إيطاليا في القرن الرابع عشر (De Mauro 1976: 23-24)، والإسبانيّة في الجاليات الهنديّة في المكسيك وأماكن أخرى من أميركا الوسطى والجنوبيّة، وغيرها. تُعتبر هذه القوى قوىً جاذبة لأنّها تسعى إلى إجبار المتكلّمين على اعتماد هويّةٍ لغويّةٍ موحّدة[10]. أمّا القوى الطاردة، فهي تدفع المتكلّمين خارج المركز الواحد ونحو التنوّع. ويمثّل هذه القوى عادةً الناس الّذين نجدهم (جغرافيّاً وعدديّاً واقتصاديّاً وفي الاستعارات) في محيط النظام الاجتماعي.

---

(10) لا يجب أبداً تفسير ذلك بالقول بأنّه ليس للمتكلّمين دورٌ في تحديد مستقبلِ نوع لغويٍّ ما. انظر كوليك (Kulick 1992) الّذي يتحدّث عن دور المعتقدات المحليّة في اعتماد التوك بيسين في غينيا الجديدة.

وقد استخدم الأنثروبولوجيّون الألسنيّون هذه المعايير البديلة كاستراتيجيّات لبناء هويّة اجتماعية وإثنية. يستطيع المتكلّمون، بفضل مقاومتهم للّغة أو النوع اللغوي الرئيسي المعمّم والرسمي، أن يحتفظوا بهويّات مختلفة وأحياناً كثيرة متوازية[11].

2.5.3. الجاليات المتعدّدة اللغات

في جالية تيوا أريزونا الّتي يدرسها بول كروسكريتي (Paul Kroskrity) (1993) لم تنجح ثلاثة قرون من الاحتكاك بجيرانهم الهوبي الأكثر عدداً وحتّى الزواج بين الجاليتين في إزالة لغتهم الأمّ، التيوا، ولو أنّنا نجد مؤشراتٍ إلى اختفائها التدريجي عند شباب الجالية. بالرغم من أنّ أعضاء تيوا أريزونا يعتبرون أنفسهم هوبي أحياناً (خاصّةً بالنسبة للعالم الخارجي)، "فهم يحتفظون بهويّةٍ خاصّة لهم فريدة من نوعها وغير متوفّرة للهوبي" (Kroskrity 1993: 7). تشكّل اللغة الّتي جلبها تيوا أريزونا معهم من الريو غراندي بويبلوس منذ حوالي 300 سنة أهمّ أداة نقلٍ رمزيّة لهذه الهويّة. بالرغم من أنّ معظم كلام جالية تيوا أريزونا يحتوي إلى درجةٍ ما ثلاثة لغاتٍ على الأقلّ (التيوا والهوبي والإنجليزية)، تحتفظ لغة تيوا أريزونا الأمّ بمنزلةٍ خاصّة بالنسبة للتيوا، كما نراه في مساعيهم المختلفة لحمايتها. مما يجعلها، وبشكلٍ متناقض، كرمز الهويّة الإثنية، هذه الهويّة غير حصينة، لأنه لا يمكن لناسٍ من خارج الجالية أن يتعلّموها أو ينقلوها.

تعطينا دراسة كاترين وولارد (1989) (Kathryn Woolard) عن

---

(11) يسعى مصطلح **المعيار المخفي** في الألسنيّة الاجتماعية إلى تفسير تفضيل بعض المتكلّمين للميّزات اللغويّة خارج المعايير المعتمَدة (Trudgill 1974, 1978).

استعمال وهيبة اللغة الكتالانية حالةً مثيرة للانتباه، حيث نرى كيف يمكن للغة أقليّةٍ أن تعيش وتبقى كرمزٍ للهويّة الإثنية ومقياسٍ للهيبة الشخصيّة. بقيت اللغة الكتالانية حيّة كلغة أساسيّة لدى قسم كبيرٍ من سكّان البلاد، محافظةً أيضاً على منزلةٍ خاصّة في كتالونياً، بالرغم من قرونٍ عديدة من هيمنة الدولة المركزيّة وفرض لغة الدولة الإسبانيّة، أي القشتالية، كلغة التعليم المدرسي.

لماذا لم تتمكّن الهيمنة القشتالية السياسية من أن تعطي هيبةً لغويّة لمتكلّميها؟ يعود ذلك، بحسب وولارد، إلى وجود انعكاس لصلات القوى بين لغة الأكثرية ولغة الأقليّة في كتالونيا. فليست "لغة الأقليّة"، أي الكتالانية "اللغة "الأقلّ هيبةً"، بل لغة البورجوازية المهيمنة اقتصاديّاً. أمّا القشتالية، فهي لغة العمّال النازحين من الأندلس وغيرها من الأماكن الأقلّ ثراءً في البلاد. يعني ذلك أنّ من يمثّل القوى الطاردة في كتالونيا هم مواطنون أكثر غَنى من النازحين الّذين يتكلّمون القشتالية كلغتهم الأم.

> ما يعطي لغةً ما قوَّتَها هو المتكلمون بها وليس المكان الّذي توجد فيه. ولا يتمّ تأسيس السلطة وغرسها في الذهن بشكلٍ كامل في المدارس وغيرها من المؤسسات الرسميّة، ولكن في العلاقات الشخصيّة، واللقاءات وجهاً لوجه، والتمييز غير العادل في مكان العمل والحي (Woolard 1989: 121).

يتحدّث جين وكينيث هيل (Jane and Kenneth Hill 1986)، في دراسةٍ أخرى، ذات اتّجاهٍ تاريخي ـ اجتماعي، لجاليةٍ تتكلّم بلغتين، عن ما حدث للغة المكسيكانو ـ وتسمّى أيضاً الآزتك أو الناواتل - وهي تنحدر من لغة الآزتك والتلاكسكالا والكثير غيرها من شعوب المكسيك وأميركا الوسطى، فيكشفان لنا كيف استعار

سكّان جاليات بركان مالينش في المكسيك، منذ مئات السنين، الكثير من اللغة الإسبانية، إذ أخذوا من قواعدها ومفرداتها، كاللاحقات (مثلاً ـ Mente للظرف أو ـ Es لجمع الأسماء)، وحروف الربط (مثلاً Que، الّذي يحصل أيضاً على دورٍ إثباتي)، وعباراتٍ كاملة لها فعلٌ رئيسي (مثلاً Yo Creo Que "أنا أعتقد أنّ" وParece Que "يبدو أنّه"). تختلط اللغتان الإسبانية والمكسيكية بشكلٍ قوي، حتّى إنّ هيلّ وهيلّ يتحدّثان عن "لغةٍ اندماجيّة" بدلاً من الكلام عن "خلط اللغات". فقد أعاد متكلّمو المكسيكيّة تحليل أشكال اللغة الإسبانيّة وتكيّفوا معها بطريقةٍ مبدعة في نحو وصرف اللغة المكسيكية. وقد نجح متكلّمو المكسيكيّة، حتّى عهدٍ قريب، بالتحكّم، بشكلٍ أيديولوجي، بتوغّل اللغة الإسبانيّة، بحصر استعمالها الأكبر "على السجلّ الكلامي الرفيع، وإبقاء مسافةٍ بين الفرد والغرباء، وفي حقلِ ما هو مزيَّف، بالمقارنة مع اللغة المكسيكيّة الّتي تُستعمَلُ يوميّاً في المنزل والعلاقات الودّية والحقيقيّة" (Hill and Hill 1986: 402). ولكن يتمّ حاليّاً الهجوم على استراتيجية الإندماج. فتحلّ اللغة الإسبانيّة أكثر فأكثر حاليّاً محلّ اللغة المكسيكيّة، الّتي بدأت بالزوال في الكثير من المدن لتصبح لغةً سرّية ـ أو "لغةً ضدّ اللغة" كما يقول هاليداي (Halliday) (1976). تُستعمَل المكسيكيّة في عمليّاتٍ تواصليّة محدودة اليوم (في "كلمات السر" مثلاً أو في التحدي الفاحش ضد الغرباء)، وقد تغيّرت أيضاً مواقف المتكلّمين منها بشكلٍ جذري. فيتمّ حاليّاً تخفيض أهميّة المكسيكية كما نجدها اليوم ـ في اندماجاتها ـ ونجد عودةً إلى الصفائية في غياب دعم المؤسسات لإعادة إنعاش المكسيكية القديمة، يعني ذلك نبذ اللغة المكسيكية ككلّ، فقد أصبحت اليوم "لغةً مضطهَدة" (Albó, 1979). تعود هذه النزعة في استعمال اللغة والمواقف منها إلى نزعةٍ أكبر تسعى إلى التخلّص من الهويّة الهندية

أو "المحليّة" وإبقاء الهوية "المكسيكية". ونرى ذلك في لباس الناس، وفي المنازل الّتي يبنونها، وما إلى ذلك، وفي المنتجات الّتي يستهلكونها. ولكنّ الكفاح لم ينتهِ بعد. فهناك راشدون يتعلّمون المكسيكية لكي يشاركوا في شبكات التبادل المحليّة، الّتي تظهر في الطقوس والأعمال الدينيّة. ويبقى للإسبانيّة، بالإضافة إلى ذلك، دورٌ "إبعادي" بالنسبة لمعظم المتكلّمين. بالرغم من تقسيم معظم مدن المالينش بين متكلّمي المكسيكيّة ومتكلّمي الإسبانيّة، قد بدأ البعض بتقبّل إمكانيّة إيجاد هويّةٍ مشترَكة تقبل بنوعَي المتكلّمين. ويسمح ذلك لأعضاء العائلة الواحدة أن لا ينقسموا ويختلفوا لأسباب لغويّة. كما يعطي للسكّان الأصليين سلطةً تسمح لهم بالقيام بخياراتٍ معيّنة، منها لغويّة، فلا يعودون فيما بعد ضحيّةً غير فعّالة للقوى الجاذبة والأيديولوجيّات المهيمِنة. يلخّص هيلّ وهيلّ، في نهاية كتابهما، موقفهما من هذه المسائل المعقّدة :

نشجّع، كألسنيين وأنثروبولوجيين، التنوّع. ونتأمّل بإعجابٍ القوّة الّتي يستخدمها البشر لبناء أكوانٍ رمزيّة، كلّ منها مفصّل ومعقّد ومرتّب بشكلٍ حسّاس، فلا يمكن لعلومنا أن تفهمها كلّها، ولكنّها تستطيع استيعاب التغيّرات، فتستطيع حتّى طريقة الكلام المكسيكية، الّتي تتعرّض لهجوم عنيفٍ منذ أكثر من 500 سنة، أن تتأقلم وتتغيّر لتتصدّى بكلّ بساطةٍ لهذا الهجوم بواسطة كفاحها اللغوي اليومي كما يمثّله كلام الناس البسطاء. وتشكّل هذه الأكوان اللغوية الثروة الأساسية لفكر الإنسان، وعندما يزول واحدٌ منها ـ كما سيحصل للمكسيكيّة إذا لم نقم بأيّ عملٍ إنقاذي ـ نخسرها جميعاً (Hill and Hill 1986: 446).

ويتابعان فيقترحان عدداً من الخطوات الممكنة للتصدّي إلى حديث الصفائيّة، والتسليم بطبيعة كلام الجاليات المتغايرة والمتعدّدة، والدفاع عن الإرث الثقافي الّذي تحتوي عليه اللغات الأصليّة. يختم هيل وهيل، مستبقين بذلك القول الّذي اقتبسته عن طوني موريسون في بداية هذا الفصل، بالتعبير عن احترامهم للتنوّع اللغوي وعن مسؤوليّة "الناس في العالم" تجاه احتواء الإمبريالية اللغوية والسماح للّغات التاريخيّة ـ الطبيعيّة بالبقاء كثروةٍ تخصّ كلّ البشر[12].

3.5.3. تعاريف كلام الجاليات

تصبح فكرة كلام الجالية (أو ما يسمّيه غامبرز بالجالية اللغويّة، انظر أدناه)، في سياق عملٍ كهذا، فكرةً مهمّة جدّاً للدراسة الأنثروبولوجيّة للظواهر اللغويّة. سأتناول في هذه الفقرة بعض المسائل الخاصّة بتعريفها وأقترح تعريفاً عمليّاً أعود إليه في الفصل الأخير[13].

ليس من الجديد الكلام عن الطبيعة المتغايرة لكلّ كلام جاليةٍ أو جالية لغويّة، كما نراه في هذا القول المقتبَس عن الألسني البنيوي الأميركي ليونارد بلومفيلد (Leonard Bloomfield) "يصبح من الصعوبة او الاستحالة الحكم بالضبط ما إذا كان الناس ينتمون إلى نفس كلام الجالية وليس هذا مصادفة بل جاء من طبيعة كلام الجالية نفسها... لا يوجد شخصان أو ربّما بالأحرى شخصٌ واحد

(12) انظر هيل وأخرين (Hale et al. 1992)، وليدفوغد (Ladefoged 1992) ودوريان (Dorian 1993) لرؤياتٍ مختلفة عن دور اللغويين في المساعدة على الحفاظ على اللغات الأصليّة.

(13) انظر هادسون (Hudson 1980: 25-30) لمراجعة النقاش حتّى نهاية السبعينات. وسأذكر نقاشاتٍ حديثة في سياق هذه الفقرة.

في أوقاتٍ مختلفة ـ يتكلّمان بشكلٍ مماثلٍ تماماً" (45 :1935).

بينما أقنع هذا التغاير النحويين الشكليين بتجاهله وإقامة تجانسٍ تجانسٍ مثالي، كما قرّر الألسنيّون الاجتماعيّون من جهتهم بأن يواجهوا هذا التغاير ويجعلونه موضوع أبحاثهم.

تمّ التعريف بكلام الجالية، في دراسات لابوف (1966: 1972a, 1972c) المهمّة عن التغاير اللغوي في مدينة نيويورك، وقد عرف أولاً كلام الجالية من خلال "إشراك مجموعة من المعايير" (Labov 1972c: 120). تخصّ هذه المعايير استعمال اللغة وتفسير التصرّف اللغوي.

> يمكننا أن نبرهن بواسطة العديد من الشواهد أنّ مدينة نيويورك تشكّل جاليةً كلاميّة واحدة، وليس مجموعة من المتكلّمين القاطنين جنباً إلى جنب، ومستعيرين أحياناً عناصر من لهجاتهم المختلفة. يختلف مواطنو نيويورك الأصليّون في استعمالهم اللغة فيما يخصّ قيمة المتغيّرات [اللغويّة ـ الاجتماعيّة] المطلَقَة، ولكنّ التغيير هو التعارض في الاساليب لنفس الصيغة غالباً. وتُظهر التقييمات الموضوعية للنيويوركيين الأصليين اتساقاً استثنائيّاً، في تعارضها الحاد مع نسبة واسعة من أجوبة المتكلّمين الّذين كبروا في مناطق اخرى.

(Labov 1966: 7)

يعتبر لابوف أنّه يمكن تعريف المشاركة في نفس كلام الجالية على أساس الأنماط المشتَرَكة في تغاير أو تقييم التصرّف اللغوي. يمكننا القول بأنّ متكلّمين ذوي أنماط استعمالٍ مختلفة ينتمون إلى نفس الجالية اللغويّة، إذا كانوا يفهمون ويقيّمون الأشكال اللغويّة

المختلفة بنفس الطريقة[14]. أمّا إذا تغاير تقييمهم، فلا يمكننا عندها القول بأنّهم ينتمون إلى نفس كلام الجالية. وقد التفت بعض ناقدي هذا المنهج (Dorian 1982; Romaine 1982) إلى أنّ هذا التقييم قد يستثني المتكلّمين الّذين يعتبرون أنفسهم أعضاءً في نفس الجالية، بالرغم من اختلاف معاييرهم اللغويّة أو تقييمهم لأشكال الكلام. تتحدّث دوريان (Dorian) (1981) مثلاً، في دراستها لسليلة الصيّادين المتكلّمين بالغَيْلِيّة في شرق سذرلاند، عن ما تسمّيه "بشبه المتكلّمين"، أي "أفراد لم ينجحوا في تعلّم لغة شرق سذرلاند الغَيليّة بطلاقةٍ كاملة مع مقارنتهم بأقرانهم وفقاً لمعايير المتكلّمين بطلاقة في الجالية" (Dorian 1982: 26). يعتبر شبه المتكلّمين هؤلاء أنفسهم قسماً من كلام الجالية الغَيليّة الاسكتلندية، بالرغم من كون كلامهم يختلف كثيراً عن كلام الّذين يجيدون لغتين بطلاقة ومن كونهم يخطئون مراراً في ما يتعلّق بقواعد اللغة. وتدعم قدرتُهم على فهم الغيليّة والتبادل فيها نظرتهم هذه إلى أنفسهم:

> لم يكن أعضاء هذه الشبكات من غير الطلقاء، وبعكس اللغوي الضيف، وقحين عن غير قصد. فكانوا يعرفون متى يكون الوقت المناسب للكلام أم لا؛ والأسئلة المهمّة والأسئلة الّتي تقاطع الكلام؛ وما إذا كانت الدعوة إلى الطعام مجرّد مجاملة يستوجب رفضها أم دعوة جادّة يستوجب قبولها؛ وطول الكلام

---

(14) "... يبدو من المعقول أن نعرّف بالجالية اللغويّة كمجموعة متكلّمين يشتركون في مجموعةٍ من المواقف تجاه اللغة. ونجد في مدينة نيويورك أنّ الّذين كبروا خارج المدينة في أوّل سنوات تربيتهم لا يتفاعلون بشكلٍ شخصي متناسق كما يتفاعل السكّان الأصليّون، في ما يتعلّق مثلاً بحرف العلّة لكلمة Lost (ضائع) بلفظه الخاص بمدينة نيويورك" (Labov 1972a : 248, footnote 40).

المناسب للتعبير عن تعاطفهم مع مريضٍ أو مع قلّة حظّ شخص؛ وغيره.

(Dorian 1982: 29)

تفضّل دوريان، في تفسيرها لهذه الحالات، استعمال تعاريف لكلام الجالية لا تدلّ على معايير أو تقييمات. وتفضّل دوريان مثلاً تعريف كوردر (Corder) (1973: 53): "يتألف كلام الجالية من ناسٍ **يعتبرون أنفسهم** يتكلّمون نفس اللغة؛ ولسنا بحاجةٍ لصفاتٍ أخرى للتعريف بها". وتشبه فكرة كلام الجالية هذه فكرةَ **الجالية المتخيّلة** الّتي ابتكرها أندرسون (1983).

ويقضي حلٌّ آخر بإلغاء مقياس المعايير والتوقّعات والنظر إلى ما يفعله المتكلّمون في حياتهم اليوميّة، ومع من يتواصلون. تجنب تعريف غامبرز الأوّل "للجالية اللغويّة" المعايير والتوقّعات، مركّزاً على الاحتكاك الاجتماعي[15]:

[الجالية اللغويّة] هي مجموعةٌ اجتماعيّة قد تتكلّم لغةً واحدة أو أكثر، وهي متماسكة بفضل تكرّر أنماط التواصل الاجتماعي، ومستقلّة عن ما يحيط بها بسبب ضعف صلاتها به وتبادلاتها معه. قد تتألّف الجاليات اللغويّة من مجموعاتٍ صغيرة متماسكة بفضل احتكاك أعضائها وجهاً لوجه، أو قد تضمّ مناطق شاسعة، بحسب مستوى التجريد الّذي نريده (1968a: 463 [1962: 29]).

(15) لكنّ تعريف غامبرز (Gumperz) اللاحق يحتوي على فكرة "مجموعةٍ مشتَرَكة من الإشارات الشفويّة". (1968b: 381) واستخدم ميلروي (Milroy 1980) وحدة "الشبكة" في سعيه إلى تطبيق فكرة "الاحتكاك" في إطارٍ متغاير.

من الأفضل تطبيق هذا التعريف على الحالات حيث يتكلّم الّذين يعيشون جنباً إلى جنب لغاتٍ مختلفة. نجد الكثير من الحالات في ما كُتِب عن تعدّد اللغات، حيث لدى الأفراد، في داخل نفس القرية أو العائلة، وعلى اختلاف أعمارهم وجنسهم ومنزلتهم الاجتماعيّة، قدراتٌ مختلفة للغات مختلفة. وتعتبر الحالة الّتي درسها سورينسن (Sorensen) (1967) وجاكسون (Jackson) (1974) من أكثر الحالات تعقيداً، وهي تشمل مقاطعة الفوبيز في جنوب شرق كولومبيا، حيث تعيش أكثر من عشرين مجموعة أباعدية أبوية النسب، ولكلٍّ منها لغة لا تفهمها باقي المجموعات. بما أنّ اللغة تشكّل المعيار الأساسي للإبعاديّة (على الرجل أن يتزوّج من امرأةٍ تتكلّم لغة مختلفة عن لغته)، هناك تعدّد لغاتٍ دائم في كلّ قريةٍ وبيتٍ وعائلة. إذا ما أخذنا بعين الاعتبار العوامل الديموغرافية، وأنماط الزواج، وسكَن الوالد، نجد عندها أربع لغاتٍ من جهة الأب تمثّلها النساء المتروجات والساكنات في نفس البيت (Jackson 1974: 56). قد يستعمل الناس في بعض الحالات، وبالرغم من وجود لغة مشتركة هي التوكانو، لغةً لا يفهمها الجميع[16]. ويسمح ذلك بإيجاد سهولة في التناوب اللغوي وفي التأقلم مع التغاير، الّذي قد يحيّر من وُلد وعاش في جالية ذات لغةٍ واحدة، ولكنّه قد يبدو أيضاً مألوفاً لمن يتقن عدّة لغات. وليس التغاير اللغوي بنادر، كما يعتقده المتكلّمون بلغةٍ واحدة وبعض العلماء النظريين. وقد نجد

(16) قد يقود التأدّب أحياناً إلى اختيار لغة معيّنة (مثلاً على أساس اللغة الأساسيّة للّذي نتكلّم معه)، ولكن قد ينتقل الفرد من شفريّة إلى أخرى، كما يقول جاكسون، للمتعة الّتي تأتي من استعمال لغةٍ مختلفة: "لقد التقيت بنساءٍ قلن، "لنتكلّم التوكانو"، فتكلّمت بهذه اللغة لبعض الوقت، ولو لم تكن التوكانو لغتهنّ الأساسيّة وكانت كلّهنّ يتقنّ [لغتين أخريَين] بالإضافة إلى التوكانو" (Jackson 1974: 59).

التغاير والتناوب اللغوي حتّى في الجاليات المتقنة لغةً واحدة ؛ وهذا ما تبرهنه عدّة عقودٍ من الأبحاث الألسنيّة - الاجتماعيّة التجريبيّة. ما قد يقود جالية إلى التناوب بين لغةٍ وأخرى (مثلاً بين الإنجليزية والإسبانيّة أو اللغة المحليّة والبَدجينيّة)، قد يقود جالية أخرى إلى التناوب بين أسلوبٍ أو سجلٍ كلامي وآخَر (مثلاً بين سجلٍ متسلّط وآخر متساوٍ، أو غير وذّي وحميم، أو طَقسي وعادي). وبعبارةٍ أخرى، نجد في الجاليات المتقنة لغةً واحدة، عدّة مجموعاتٍ وعدّة أفرادٍ منها يستعملون أو يغيّرون بين ما يسمّيه هايمز (1974) **طرق الكلام** (Ways of Speaking)، وهو مصطَلَح أوحى به وورف في مصطلحه: **أساليب الكلام** (Fahsions of Speaking). يتطرّق عدد كبير من الأبحاث الأنثروبولوجيّة الألسنيّة إلى هذه الطرق الكلاميّة المختلفة، وتوزّعها، ووظيفتها، والأيديولوجيات المرتبطة باستخدامها، بما في تنامي الابحاث الغنية اليوم عن الاختلاف بين الجنسَيْن في استعمال اللغة (Hall and Bucholtz 1995; Philips, Steele and Tanz 1987; Tannen 1993a).

اقترحوا بأن نعتبر المجتمع **ثمرة الأعمال التواصلية الّتي تقوم بها مجموعةٌ ما**. ويعتبر هذا التعريفُ فكرة كلام الجالية وجهة نظرٍ تحليليّة وليست موضوع بحثٍ قد حدِّد نهائيّاً وعلى نحوٍ حاسم. وهي تعترف بطبيعة اللغة الأساسيّة كعملٍ إنساني يعتمد على "الجالية" ويبنيها. وفقاً لهذا التعريف، يعني الانخراط في البحوث الأنثروبولوجيّة الألسنيّة، أولاً وقبل كل شيء، أن ننظر إلى مجموعة من التعاملات اليومية لمجموعةٍ من الناس مع بعضهم البعض من وجهة نظر التواصل فيما بينهم والوسائل التواصلية التي يستخدمونها. استوحيتُ هذا التعريف من تعريف روسي - لاندي (1973)، ولكنّني تجنّبتُ افتراض وجود "لغةٍ" محدَّدة مسبقاً:

> يشكّل مجموع الرسائل، الّتي نتبادلها بعضنا مع بعض عندما نتكلّم لغةً ما، كلام جاليةً، أي المجتمع بأسره كما يُفهَم من وجهة نظر الكلام.

(Rossi-Landi 1973: 83)

يستحقّ جانب آخر من جوانب نظرية روسي ـ لاندي (Rossi-Landi) أن ننظر فيه، وهو حَدسه القائل بأنّ الأشكال اللغوية ومحتوياتها المستخدَمة من قبل أفراد المجتمع، لها قيمة مثل السِلع في السوق. تعني دراسة المجتمع لروسي ـ لاندي دراسة توزيع الرموز اللغوية كمنتجات العمل البشري التي تلبّي احتياجات معينة، وفي الوقت نفسه تفرض أو تقترح احتياجاتٍ جديدة. للكلمات، كسلع استهلاكيّة، سلطةٌ على الّذين يتكلّمون بها؛ وهي تفترض رؤية معيّنةً للعالَم، مثلما تفترض السلع رغبات معينة في المستخدمين المحتَمَلين. من خلال وجهة نظر الجالية الكلاميّة كسوق، ومستعملاً المصطلحات الماركسيّة القائلة بوجود **اغترابٍ لغوي**، يعيد روسي ـ لاندي صياغة أهمّ مسائل الأنثروبولوجيين الألسنيّين، وهي العلاقة بين المتكلّمين الفرديين والنظام اللغوي الّذي يستعملونه، والّتي نجدها في صميم إرث سابير وورف. إلى أيّ حدٍّ يتحكّم الأفراد بالوسائل اللغويّة الّتي يستخدمونها في تواصلهم مع الآخرين؟ وإلى أيّ حدٍّ يستطيع المتكلّمون أن يفرضوا معانيهم وتفسيراتهم الخاصّة على الرسائل الّتي ينتجونها؟ كيف نقيّم أصل الكلام (أو النص المكتوب)؟ وكم هي مقدرة اللغة على التعبير؟ وإلى أي حدٍّ يشارك فيها الأفراد؟ وماذا يعلّمنا التواصل اللغوي عن التوتر بين استقلال الفرد والاختلاطية الاجتماعيّة؟ نجد هذه الأسئلة في صميم مسألة العلاقة، بين الشفرة اللغويّة والأيديولوجيا، الّتي تحدّد النقاش الحالي عن النسبيّة اللغويّة كما تظهر من جديد في الأعمال الخاصّة باللغة والهوية.

6.3. خاتمة

قد تناولت في هذا الفصل عدّة مسائل نظريّة تخصّ فكرة "اللغة" و"التنوّع اللغوي". وقد قلت بأنّ فكرة التنوّع اللغوي تربط بين النسبيّة اللغويّة الّتي تكلّمتُ عنها سابقاً ومسائل الاحتكاك اللغوي والاختلاط اللغوي الحاليّة. تُلزم دراسة اللغة من وجهة نظر التمايز الّتي تفترضها مسبقاً أو تأتي بها الخيارات والاختيارات اللغويّة لعلماء الأنثروبولوجيا الألسنيّة باستخدام مفهومٍ للّغة مبنيّ على افتراض أن الاختلاف هو القاعدة وليس الاستثناء. وينضمّ بذلك الأنثروبولوجيّون الألسنيّون إلى برنامج الألسنيين الاجتماعيين القائل بألسنيّة تهتمّ بالمجتمَع. في الوقت نفسه، تقود جذور الأنثروبولوجيين الألسنيّين التاريخيّة هؤلاء إلى دراسة الأيديولوجيا اللغويّة، بما في ذلك المسائل المعقّدة (Silverstein 1979; Woolard and Schieffelin 1994). تعني دراسة اللغة في الثقافات أكثر من الطرق الّتي تعكس فيها اللغة الفئات الثقافيّة أو الّتي توجّه بها التصانيف اللغويّة رؤية الّذي يستعملونها للكون. إذ تعني دراسة اللغة بشكلٍ أنثروبولوجي أن نسلّم بالتفاعل المعقّد بين اللغة كوسيلة للإنسان واللغة كمنتوجٍ ومنهجٍ صنعه التاريخ. وتجب دراسة هذا التفاعل بواسطة أدواتٍ نظريّة، منها المفاهيم الّتي تكلّمنا عنها في هذا الفصل. وهو بحاجةٍ أيضاً إلى أساليب متطوّرة تسمح بالحصول على وثائق عن كيفيّة دخول التواصل اللغوي في الحياة الاجتماعية الّتي يحفظها. وقد كرّستُ الفصلين القادمين لهذا الهدف.

الفصل الرابع

المناهج الإثنوغرافية

سأقدّم في هذا الفصل والفصل القادم دراسة نقديّة لتقنيّات جمع البيانات الأكثر شيوعاً والعمليّات التحليليّة المستعملة حاليّاً من قِبل الأنثروبولوجيين الألسنيّين المختصّين[1]. سيركز هذا الفصل، باستثناء بعض الأسئلة العمليّة، على منطق عادات وإجراءات الأبحاث بدلاً من الحلول التقنيّة اللازمة لمشاكل الأبحاث الشائعة. سأتحدّث بشكلٍ مختصَر، في بعض الحالات، عن ما أعتبره أكثر إبداعاً وأهميّةً في ما يخصّ تكوين الوثائق عن دور التواصل في إنشاء الثقافة. وسأتحدّث بشكلٍ محدّد عن ممارسة النسخ في الفصل 5.

يستعمل الأنثروبولوجيون الألسنيّون أساليب الإثنوغرافيا التقليديّة، كمراقبة المشتركين والعمل مع المتكلّمين الأصليين للحصول على تفسير محلّي للمواد التواصليّة التي بحوزتهم. ويستخدمون أيضاً تقنيّات لاستخراج المعلومات تشبه تلك الّتي

---

(1) في حقل الألسنيّة الاجتماعية المترابط، يُشكّل كتاب ستابز (Stubbs 1983) مقدّمة إلى تحليل الحديث تتناول بشكلٍ جيّد الأساليب المستعمَلة لجمع البيانات عن الحديث. انظر أيضاً (Milroy 1987).

يستعملها الألسنيّون الرمزيّون المهتمّون بالأنماط النحويّة. وقد تمّت إضافة أشكال وثائقيّة جديدة خاصّة بالممارسات الكلاميّة، تمّ تطويرها في حقولٍ علميّة كالألسنيّة الاجتماعيّة وتحليل الخطاب والحوار وفقاً لهذه المناهج. وقد وسّع استخدام التقنيّات الجديدة في التسجيل الإلكتروني للأصوات والتحرّكات في نطاق الظواهر الّتي يمكن دراستها، وقد مكنّنا ذلك من تطوير تحاليلنا، وضاعَف في الوقت نفسه عددَ المسائل التقنيّة والسياسية والأخلاقيّة الّتي على كلّ عملٍ ميداني أن يواجهها. ويجب علينا، إذ ندخل هذا العهد التقنيّ الجديد، أن نطوّر ميداناً للحوار حيث تتمّ دراسة فوائد وأضرار الأدوات الجديدة في إطار حديثٍ عام عن المناهج الخاصّة بدراسة التصرّف التواصلي الإنساني.

1.4. الإثنوغرافيا

إذا كان هدف الأنثروبولوجيا دراسة الأشكال اللغويّة كعناصر تشكّل الحياة الاجتماعيّة، فان على الباحثين أن يجدوا ما يسمح بالوصل بين الأشكال اللغويّة وفقا لممارسات ثقافيّة معيّنَة. تقدم الإثنوغرافيا لهذا السبب مجموعة قيّمة من التقنيّات للوصول إلى هذا الهدف. ويشكّل لذلك التكامل بين الإثنوغرافيا وغيرها من أساليب وثائقيّة للأنماط اللغويّة أحد أهمّ ميّزات الأنثروبولوجيين الألسنيّين، بالمقارنة مع غيرهم من الباحثين في حقل اللغة والتواصل. سأتحدّث بشكلٍ مختصَر في الفقرة 1 عن ما يشكّل التحقيق الإثنوغرافي، وسأقترح طرقاً لشمل هذه الميّزات في دراسة اللغة[2].

(2) لا أعطي في ما يلي مقدّمة شاملة للمناهج الإثنوغرافيّة، بل مقدّمة مختصَرة لما أعتبره أساسيّاً في ما يخصّ ممارسة الإثنوغرافيا وابتكار توصيف إثنوغرافي. لوصفٍ أكثر أطّلاعاً عن المناهج الإثنوغرافيّة الحاليّة في الأنثروبولوجيا الثقافيّة والحقول المتعلّقة بها،

1.1.4. ما هي الإثنوغرافيا؟

يمكننا القول، بشكلٍ أوّلي تقريبي، إنّ الإثنوغرافيا هي الوصف
لمكتوب للتنظيم الاجتماعي، والممارسات الاجتماعيّة، والمصادر
لرمزيّة والماديّة، والممارسات التفسيريّة الّتي تميّز مجموعة معيّنة من
لناس. ويتمّ إنتاج هذا الوصف عادةً بواسطة المشاركة المطوَّلة
ِالمباشرة في حياة جاليةٍ ما، وله ميزتان قد تبدوان متناقضتين: (1)
ن يبتعد العالِم عن ردّات فعله الثقافية والمباشرة الخاصّة، ليتمكّن
ن أن يكون موضوعيّاً" نوعاً ما، و(2) أن يميل إلى التعاطف أو
مج نفسه مع أعضاء المجموعة لكي يكوّن وجهة نظرٍ من الداخل-
ي ما يسمّيه الأنثروبولوجيّون "الرؤية الأَميّة (Emic)" (انظر الفقرة
.(2.3.(

علينا أن نتكلّم بعض الشيء هنا عن استعمال عبارة
"الموضوعية" [أو "المحسوسيّة"]، الّتي قد تمّ انتقادها في ما كُتِب
ؤخّراً عن التجربة الإثنوغرافيّة (Kondo 1986; Rosaldo 1989)
بشكلٍ عام في النقاش الحالي عن علوم الاجتماع (Manicas 1987).
عود مشكلة عبارة "الموضوعيّة" في الإثنوغرافيا إلى ربطها بأحد
شكال الكتابات الوضعية الّتي سعت إلى التخلّص من المواقف
لشخصيّة، بما في ذلك المشاعر، والاعتبارات السياسية والأخلاقية
النظرية. ولكنّ هذا الاستثناء، بشكله "الخالص"، غير ممكن،
هدفه مشكوكٌ فيه، بما أنّه يظهر القليل جدّاً من تجربة الإثنوغرافي
(De Martino 1961). فكيف يمكن لنا أن نقول ما يفعله الناس إذا
م نندمج بقدرٍ ما مع وجهة نظرهم؟ إذ نقول عندها ما يشبه الجمل

ظر (Jackson 1987)، (Spradley 1980)، (Agar 1980)، والعمل النقدي انظر (Clifford and Marcus 1986), (Geertz 1988), (Rosaldo 1989), (Sanjek 1990a).

التالية : "يتقرفص الناس، ويأخذون الطعام بأيديهم ويقرّبونه من أفواههم ـ وهذا ما يسمّونه بالأكل". نرى من هذا المثال بأنّ عملاً كهذا ليس "موضوعيّاً" ومنصِفاً، بل قد يُعتَبر تقييماً سلبيّاً للممارسات المحليّة. ومن غير المعقول أن نقوم بوصف تفصيلي يندمج كليّاً مع وجهة النظر المحليّة، من دون أن يعكس بشكلٍ ما إدراك الباحثين الشخصي للوقائع، بما في ذلك معرفتهم لخصوصيات (أو توقّعات) هذه الوقائع، وبالتالي لدورها في التقييم النسبي. ولكن من المهمّ أن نتحكّم بتقييماتنا الشخصيّة أو أن نعلّقها مؤقّتاً. يشارك الأنثروبولوجيون وفلاسفة علم الظواهر كهوسرل وعلماء الاجتماع التفسيريين كويبر، فكرة عدم اختصار التفكير إلى ما هو بديهي يعد أحد أهمّ أوصاف أيّ من العلوم. ولكنّ المشكلة تكمن في كون ذلك غير كافٍ. لا يمكن لعلمٍ من علوم الإنسان إلاّ وأن يعتمد على مقدرة الباحث على التعاطف والاندماج مع الناس الّذين يدرسهم. ويعني ذلك وجود عنصرٍ لعوبٍ في الإثنوغرافيا يقتضي تحويل المألوف إلى الغريب والغريب إلى المألوف (Spiro 1990) (انظر أيضاً الفقرة 1.2. عن مفهوم هيغل للثقافة).

بما أنّ هناك عدّة درجات تقرّبنا أو تبعدنا عن الحقائق الإثنوغرافية، فان الوصف التفصيلي المتكافئ، بالنسبة للإثنوغرافيين، يقع في الوسط تقريباً. اعتنق غيرتز (1983) التباين البسيكولوجي بين "البعيد عن التجربة" و"القريب من التجربة" لتوضيح هذه الفكرة:

> يستخدم شخصٌ ـ مريض أو فردٌ أو، في ما يخصّنا، مخبر ـ مفهوم قريب من التجربة لكي يعرّف بنفسه، بشكلٍ سهلٍ وطبيعي، بما يراه، ويحسّ به، ويفكّر به، ويتخيّله... إلخ، هو أو رفاقه، وبما يستطيع فهمه بسهولة عندما يطبّقه غيره. ويستخدم

الأخصّائيّون من نوعٍ أو آخر - محلّل أو مختبِر أو إثنوغرافي أو حتّى كاهن أو أيديولوجي - مفهوماً بعيداً عن التجربة للتقدّم نحو هدفهم العلمي أو الفلسفي أو العملي. يشكّل "الحبّ" مفهوماً قريباً من التجربة، و"تركيز الطاقة العقلية" مفهوماً بعيداً عن التجربة. تعتبَر مفاهيم "التراكم الاجتماعي" وحتّى "الدين" (وبالتأكيد "النظام الديني") ربّما بالنسبة لمعظم الناس في العالَم بعيدة عن التجربة؛ وتعتبَر مفاهيم "الطبقة المنغلقة" و"السكينة" قريبة من التجربة، على الأقلّ بالنسبة للهندوس والبوذيين... وعلينا أن نتساءل... عن الدور الّذي يلعبه كلا المفهومَيْن في التحليل الأنثروبولوجي. أو، إذا أردنا أن نكون أكثر وضوحاً، حول كيفيّة استعمالهما بشكلٍ يسمح بإيجاد تفسيرٍ لحياة الناس دون أن يقيدا أفكارهم، أي دون أن يعتمد على السحر كما قد تكتبه ساحرة ما، ودون أن يستثني بشكلٍ منهجي تناغمات هذه الحياة، فيكون عملاً إثنوغرافيّاً عن السحر يكتبه أخصّائي بعلم الرياضيّات.

(Geertz 1983: 57)

إن "التوازن" بين أن يكون الإنسان دون إحساس وتحوّله إلى ساحرة هو ببساطة إدراك بأنّ الكتابة الإثنوغرافيّة تعتمد على فهم عدّة وجهات نظر قد تتناقض أحياناً أو تتكامل. لا تشكّل الإثنوغرافيا الناجحة بالتالي منهجاً للكتابة حيث يعتمد المراقِب وجهة نظرٍ **واحدة** - إن كانت "بعيدة" أو "قريبة" - بل أسلوباً يعتمد على إنشاء الباحث حواراً بين عدّة وجهات نظر وبين أصواتٍ مختلفة، بما في ذلك تلك الّتي تعود إلى الناس الّذين يدرسهم، والإثنوغرافي نفسه،

وخياراته المنهجيّة والنظريّة. تعتمّد أفضل الأعمال الإثنولوجية المعروفة هذا الأسلوب. فهي تتألّف من عدّة وجهات نظر، بما في ذلك وجهة نظر المراقِب والمراقَب. وهي تجمع بين إعجاب الإثنوغرافي بما قد يراه أو يلاحظه للمرّة الأولى وسعيه الصادق لمعرفة كيف أصبحت الممارسات الّتي يراها "عاديّةً" للّذين يقومون بها - أو، بالعكس، كيف يبدو ما يعتبره الإثنوغرافي شيئاً عاديّاً غريباً بالنسبة للناس الّذين يدرسهم.

ولكن ينقص معظم الأعمال الإثنوغرافيّة وجود حديثٍ ووثائق تتعلّق بالممارسات الحواريّة الّتي تسمح للوصف التفصيلي بالوجود. فكما يوضّح دنيس تيدلوك (Dennis Tedlock 1983)، نرى، وبالرغم من كون معظم ما نتعلّمه في هذا المجال عائداً إلى الحوار الحي بيننا وبين "المحليين"، وبين الأفراد المحليين بعضهم البعض، لا نرى إلاّ القليل من هذا الحوار في التقارير الإثنوغرافيّة. يربط نقد تيدلوك لما يسمّيه **الأنثروبولوجيا القياسيّة** واقتراحه استخدام **أنثروبولوجيا حواريّة** بين مساهمات مناهج الأنثروبولوجيا الألسنيّة ودراسة الثقافات. لا تسعى الأنثروبولوجيا الحواريّة إلى استبدال الحديث المحلي بما يرويه المراقِب (إن كان ذلك في صيغة المتكلّم أو في صيغة الغائب)، كما تفعله الأنثروبولوجيا القياسيّة، بل تشجّع الكلام المحلّي مانحةً القارئ بذلك مدخلاً مباشراً نحو تصوّرات أعضاء المجتمع لأعمالهم الخاصّة وكيفيّة تعاملهم مع الباحثين الميدانيين واستجابتهم لتطلّباتهم[3].

---

(3) "يتكلّم المخبرون، في الأعمال الإثنوغرافيّة التقليديّة، مستعملين كلماتٍ تنتمي إلى لغةٍ غريبة؛ أمّا في الاعترافات والأفكار، حيث لا يمكن نفي الاحتكاك الفعلي بين الأفراد وبين الثقافات، فيُسمح للمخبرين أحياناً بإعطاء عبارات كاملة، ولكن من المحتمل لها أن تحتوي على كلماتٍ من اللغة الّتي يحتكّون بها. وفي كلّ الأحوال، يسود المونولوج حتّى في الاعترافات" (Tedlock 1983: 326).

ويشكّل **النسخ** (انظر الفصل 5) وترسيخه في الوصف الإثنوغرافي عنصراً أساسيّاً في هذه العمليّة، حيث يحدّد المحقّقون بوضوح المصادر الّتي تساعدهم على فهم ظاهرةٍ ثقافيّةٍ معيّنة.

قد تتعدّد معايير تحديد جاليةٍ كمناسبة لدراسةٍ إثنوغرافيّة، وتتضمّن اعتباراتٍ سياسيّة وجغرافيّة وعرقيّة ونظريّة ومنهجيّة. وتختلف أيضاً الميّزات المطلوبة للتفكير بعددٍ من الأفراد كما يشكّل "جاليةً"، وتشمل مكان السكن والانتماء إلى نفس المؤسّسة السياسيّة أو الدينيّة أو التربويّة. فنجد لذلك أعمالاً إثنوغرافيّة عن ناسٍ يسكنون ويعملون في نفس المدينة أو القرية أو الجزيرة أو المبنى أو المصنع، وغيرها عن الّذين يقضون وقتاً معيَّناً معاً، كأعضاء صفٍّ مدرسيّ، أو المشاركين بمجابهةٍ سيّاسية، أو بحركةٍ دينيّة، أو بتبادلٍ طقَسي.

1.1.1.4. دراسة الناس في الجاليات

يجب تقديم برهانٍ يثبتُ بأنّ الناس الّذين تتمّ دراستهم يشكّلون "جاليةً"، وذلك بواسطة مراقبة منظَّمة. يعني ذلك أنّ الإثنوغرافيين يتوقّعون إيجاد بعض القواسم المشتركة بين أعضاء المجموعة، أي بعض العادات المشتركة أو الّتي يفهمها جميع الأعضاء، وبعض النشاطات الاجتماعيّة وأساليب التبادل وتفسير الأعمال الاجتماعيّة. تشكّل اللغة بالطبع أحد أهمّ علامات العضويّة في الجالية، ويشكّل التغاير والتنوّع، كالانتقال من لغةٍ أو لكنةٍ أو سجلّ لغوي إلى آخر (انظر الفصلين 1 و9) دلالة على انقساماتٍ داخليّة محتمَلة في نفس الجالية. وبشكلٍ عام لا يجب اعتبار التركيز على مجموعةٍ واحدة دليلاً على كون هذه المجموعة متجانسة. فكلّما درسنا مجتمعاتٍ مختلفة وبالأخصّ المجتمعات التعدّدية المعقّدة الّتي تتبع المجتمعات الصناعيّة، كما نراه في الولايات المتّحدة، ندرك أكثر أنّ الجالية

المتجانسة، حيث يتكلّم الجميع نفس اللغة (أو اللكنة) ويعرف الجميع كلّ شيء لمتابعة الحياة اليومية، ليست إلاّ مثالاً وهميّاً عن المجتمعات الصغيرة أو تصوّراً جماعيّاً كالّذي نجده في صميم القوميّة (Anderson 1991). ولكن، وبالرغم من هذا الاعتراف ما فتئ الإثنوغرافيّون يبحثون دوماً عن **أنماطٍ**، أي عن ترتيباتٍ متكرّرة في تصرّفات الناس، وتوصيفهم، وعمليّات تفسيرهم، واستخدامهم للمصادر الطبيعيّة، وإنتاجهم واستخدامهم الأدوات والمنتجات الصناعيّة. تحدّد خيارات الإثنوغرافي النظريّة كثيراً ما إذا كان سيهتمّ بالتشابهات أكثر من الاختلافات بين أعضاء الجالية الواحدة. وتشكّل لذلك فكرة الثقافة الّتي سيعتمدها عنصراً مهمّاً في إنتاج عمله الإثنوغرافي. إذا افترض الإثنوغرافي، كما يقترح والاس (1961)، أنّ الثقافة هي ترتيب معيّن للتعدّديّة، فسيبحث عندها عن الطرق الّتي يتّبعها أعضاء الجالية لتنسيق أعمالهم وأهدافهم، **بالرغم من اختلافاتهم** (انظر الفقرة 2.1.2.). يعني ذلك بأنّ التقرير الإثنوغرافي سيسعى إلى وصف ما يسمح لمجموعةٍ من الناس أن تبقى متوحّدة بفضل تشابهاتها وما يسمح بذلك بالرغم من اختلافاتها أو بعبارة اخرى. فإذا اعتمد الإثنوغرافي وجهة نظرٍ تعتبر الثقافة ما يشارك به جميع الأعضاء بشكلٍ مماثل نوعاً ما، فسيركّز عمله على التشابهات وسيميل إلى تجاهل الاختلافات، معتبراً إيّاها مجرّد تقلّبات في نمطٍ ضمني واحد.

يعتبر الإثنوغرافيّون أنّ المعلومات الّتي يحتاجون إليها متوفّرة بشكلٍ ما بفضل وجود أنواع من تكنولوجيات جمع البيانات. ولا يختلف الإثنوغرافيّون في ذلك عن غيرهم من علماء الإنسان، كعلماء النفس مثلاً، الّذين يعتبرون أنّه من الممكن الوصول إلى الصراعات البسيكولوجيّة المخفيّة بمراقبة التصرّفات الخارجيّة، كالروايات

الشفهيّة والرسوم وردّات الفعل الجسديّة. وما يميّز الإثنوغرافيين عن غيرهم ممن يدرس تصرّفات الإنسان هو سعيهم إلى التقرّب بقدر الامكان إلى تجربة الناس الثقافيّة بشكلٍ أخلاقي (يمكن استشارة تعليمات الجمعيّة الأنثروبولوجيّة الأميركيّة). بدلاً من أن يستحصل الإثنوغرافيّون معرفتهم للواقع الّذي يودّون دراسته من التقارير الشفهيّة والمكتوبة، حيث يسكنون لوقت طويل مع الناس الّذين يودّون فهم طريقة حياتهم، فيشاهدونهم في عملهم، وأكلهم، ولعبهم، وكلامهم، وضحكهم، وبكائهم، وغضبهم، وتعاستهم، وفرحهم، واكتفائهم، وإحباطهم. فلا يقومون **بمراقبتهم** لجاليةٍ ما من مكانٍ بعيدٍ وآمن، بل من داخل أعمال الجالية، أي **باشتراكهم** قدر الإمكان في كلّ أحداث الجالية. ويشار إلى هذه المجموعة المندمجة، في صعوباتها، لطرق الوجود مع الآخرين ومراقبتهم **بمراقبة المشترِك**، وهي تشكّل حجر بناء في مساهمة الأنثروبولوجيا في فهمنا لثقافات الإنسان (Malinowski 1935, vol. 2: 3-4).

فالإثنوغرافيا إذاً، وقبل كونها إنتاجاً، أي نصّاً مكتوباً، هي تجربة أو عمليّة متواصلة (Agar 1980: 1). فهي تجربة الاشتراك في الحياة الاجتماعية لمجموعةٍ ما كطريقة تسمح بفهم كيفيّة تشكيلها كوحدة جامعة، وما يجعلها في الوقت نفسه فريدة من نوعها وقابلة لتوقّعاتنا.

نجد بشكلٍ واضح، في النوادر الّتي يخبرنا بها الإثنوغرافيّون عن عملهم الميداني، أنهم يعتبرون تجربتهم غنيّة بالمعاني، وهي تذهب أبعد من إنهاء مشاريع أبحاثهم كما تصوّروها في البداية بنجاح. يؤثّر العمل الميداني بشكلٍ مهمّ على تفكير الباحث وعلى حياته الخاصّة. أمّا بالنسبة إلى المبتدِئ، فيُعتبر كلّ هذا الكلام عن التحوّل والفهم مبهماً وغير واضح. من الصعب على الّذي لم يقم

بعمل إثنوغرافي من قبل أن يتصوّر بشكلٍ واضح كيف يمكن القيام به. ولا تساعده كثيراً أجوبة كالتالية: "يهتمّ الإثنوغرافي بكلّ شيئ"، أو "يمكن للإثنوغرافي أن يدرس أي شيء، وهذا يعتمد على اهتمامه او اهتمامها" يمكن الاستعانة بالقائمة الطويلة، وإن لم تكن كاملة، التقريبيّة في القائمة 1.4.

القائمة 1.4 مواضيع الدراسات الإثنوغرافيّة

يهتمّ الإثنوغرافيّون بما يلي:

- ما يقوم به الناس في حياتهم اليوميّة (مثلاً، الأعمال الّتي يقومون بها، كيف ينظّمون أنفسهم، من ينظّم، ولأجل من يقام التنظيم).
- ما يصنعونه وما يستعملونه (الأشياء المصنوعة يدويّاً).
- من يتحكّم بحصول الناس على السلع (ما تنتجه الأرض) والمصنوعات التكنولوجيّة.
- ما يعرفه الناس وما يفكّرون أو يشعرون به.
- كيف يتواصلون بعضهم مع بعض.
- كيف يتّخذون قراراتهم (مثلاً في تحديد ما هو عادل أو غير عادل، ما هو مسموح، وما هو غريب أو غير معتاد أو صحيح).
- كيف يصنّفون الأشياء والحيوانات والناس والظواهر الطبيعيّة والثقافيّة.
- كيف ينظّمون تقسيم العمل (بحسب الجنس، والعمر، والطبقة الاجتماعية، والرتبة... إلخ).
- كيف ينظّمون حياة العائلة والمنزل... إلخ.

نجد وراء هذه المواضيع مسألة عامّة تخصّ **إنشاء المجتمَع والثقافة**. فيجمع الإثنوغرافيّون معلومات تساعدهم على الإجابة عن سؤالَين أساسيَين: (1) كيف يتمّ إنشاء (خلق وإدارة وإعادة إنتاج) النظام الاجتماعي، أي ما الّذي يسمح لهذه المجموعة المعيّنة من الناس بأن تكون وحدة عاملة؟ و(2) كيف يجد الأفراد معاني لطريقة عيشهم، أي كيف يفسّرون (لأنفسهم قبل كلّ شيء) لماذا يعيشون بطريقةٍ ما يختلفون بها عن غيرهم (وحتّى أحياناً عن جيرانهم)؟

يُتوقَّع من الإثنوغرافيين، عند جمعهم لمعلوماتٍ قد تساعدهم في الإجابة عن هذه الأسئلة، أن يحترموا المعايير التحليليّة والمنهجيّة والأخلاقية، كما تمّ تحديدها في السنوات المنصرمة من خلال التجارب الفردية المتعدّدة. إليكم بعضاً من هذه القواعد المتّبَعة، كما يراها الأنثروبولوجي البريطاني ريموند فيرث، أحد أشهر خلفاء مالينوفسكي:

> قد طوّرت الأنثروبولوجيا في السنوات الأخيرة تقنيّة حسّاسة للعمل الميداني. فقد تمّ تحديد قواعد تسمح بالحصول على معلومات دقيقة جدّاً. وشُجّع الباحث الميداني على الاحتكاك بشكلٍ قوي بالناس الّذين يدرسهم، فيعيش مثلاً بينهم. وعليه أن يستخدم العاميّة لكي يتجنّب القيام بتفسيراته الشخصيّة، ولكي يتمكّن أيضاً من تقوية أسئلته المعتادة بإضافة موادٍ يحصل عليها من خلال استماعه إلى حديث الناس العادي بعضهم مع بعض. عليه ألاّ يعتمد على مخبرٍ واحد، بل أن يفحص كلّ شيء بشكلٍ كامل. عليه أنْ لا يعتبر آراء الأفراد موضوعيّة بالنسبة إلى الواقع الاجتماعي، بل ما يعكس مواقفهم واهتماماتهم. وقبل كلّ شيء، عليه أن لا يعطي معلومات عامّة عن المؤسّسات المحليّة معتمداً فقط على بيانات المخبرين الشفويّة، بل أن يقارنها دائماً بما يراقبه بنفسه في تصرّفات الناس الفعليّة (Firth 1965: 3).

كما نرى في هذا النصّ البليغ والمختصَر، ينهمك الإثنوغرافيّون بدقّة المعلومات الّتي يجمعونها. عليهم أن يطوّروا ما يسمح لهم بالتأكّد من دقّة ما يقال لهم وما يؤكّد لقرّائهم دقّة ما يقومون بوصفه.

ويعني ذلك أنّ على الإثنوغرافيين الأخذ بعين الاعتبار حوار حول موضوعات دراساتهم ومن سيقرأ أعمالهم في المستقبل. يشير الإقرار بأهميّة هذين المحاورين، بتناقضاتهما وتبعاتهما المختلفة، إلى وجوب الاهتمام، في ما يخصّ محاورَي الدراسات الإثنوغرافية، بمسائل تتعلّق "بالنفوذ والمقاومة والقيود المؤسساتية والإبداع" (Clifford 1986: 2) خلال العمل الميداني وفيما بعد. لا يمكن تجاهل هذه الأسئلة والمسؤوليّات. ولكن من الممكن أن يتضمّن البحث وتمثيله العلني التوتّر الّذي يخلقه تدخّل الإثنوغرافي في عالم الآخرين الّذين (بتعريفهم) لديهم أفكار ومعايير تختلف عن أفكار ومعايير الإثنوغرافي. ويعني ذلك أنّ الإثنوغرافيين، وبالإضافة إلى مسألة القدرة على دخول المجتمعات (بما فيها من أناس ومصادر ومعلومات)، قد أصبحوا اليوم أكثر اهتماماً بالدور الّذي يلعبونه في الجاليات الّتي يدرسونها. وقد أصبح الإثنوغرافيّون أكثر اهتماماً بكيفيّة تصوّر الناس لهم، وبما يُتوقّع منهم القيام به، وأن أبحاثهم الشخصيّة وتصوّرهم لها ثمرة قوىً وتبعيّاتٍ متكاملة حيناً ومتناقضة أحياناً.

2.1.4. الإثنوغرافيّون كوسطاء ثقافيين

قد بدأ الإثنوغرافيّون بالاعتراف بعملهم **كوسطاء ثقافيين** بين تقليدَين: يعود الأوّل إلى مادّتهم واتّجاهاتهم النظريّة الشخصيّة والآخَر إلى الناس الّذين يدرسونهم ويعيشون معهم والّذين لهم فهمهم الخاص لكيفيّة تصرّف الباحثين الميدانيين ولما عليهم عمله. ونرى بوضوح أكثر في الأعمال الإثنوغرافية الحديثة تأثير أعضاء الجاليات على جدول أعمال الإثنوغرافيين. وإليكم هنا مثالاً عن ذلك نجده في الفصل الأوّل من كتاب فريد مايرز عن البينتوبي، وهم أحد شعوب صحراء أوستراليا الغربيّة الأصليين:

كما قالت مرّةً مارغريت ميد، أن للأنثروبولوجيا مخبرين وليست موضوعات دراسة. فنحن نتعلّم من الناس. فكان دوماً شرط عيشي مع جاليات البينتوبي هو أن أساهم فيها "كنسيب" . إن قبولهم لي كصديق لم يكن على اساس بحثي مطلقاً والذين لم يكن لديهم اهتمام فيه (وذلك بالرغم من سعيي المطوَّل إلى تفسير عملي). وهم يتوقّعون منّي بالأحرى التزاماً بالتعامل معهم كأصدقاء. وقد حدّد ذلك كيفيّة قيامي بكلّ أبحاثي معهم. منذ بداية سياسة "التصميم الخاص" الّتي قررتها الحكومة الأوسترالية، شدّد البينتوبي على واجب كلّ من يسكن مع جاليتهم أن "يساعد السكّان الأصليين".

في تعليمهم الثقافة البينتوبية وقسماً من حياتهم في الوقت نفسه وهذا شملني أيضاً، وفي الوقت نفسه. وقد شدّد البيتوبيون الّذين أعرفهم على تعلّمي لثقافتهم بمشاركتي فيها، وليس خلال جلسات استعلام في "غرفة بيضاء" كما كنت محبطاً كما حلمت بها. ليس من المهذّب ولا من المفيد أن أسأل الكثير من الأسئلة. عندما ساعدني بعضهم، تضمّن عملي إمضاء يوم في مراقبتهم كمشارك، منتظراً الوقت المناسب لأسئلتي. تعلّمت تدريجيّاً بفضل ذلك تحديد بعض تركيباتهم الرمزيّة كمجالات عمل، ليس فقط كمواضيع دراسة بل كما يسمح لهم بأن يفهموني. وتتوافق تجربتي في ثقافة البينتوبي بالتالي مع ما يقوله فتغنشتاين بوجوب أن لا نسأل ما يعني الشيء بل ننظر إلى استعماله (Myers 1986: 15).

تشير ملاحظات مايرز إلى أن الإثنوغرافي شخص ينظر ويستمع قبل كلّ شيء. فمعظم التبادلات والمعاملات المختلفة والمتعدّدة الّتي نجدها ميدانيّاً من حولنا لا تعود (لحسن الحظ) إلى مجرّد وجودنا. لكي نتمكّن من وصف هذه التفاعلات، علينا أوّلاً أن نتعلّم تمييزها في انتمائها إلى نفس "النوع". ويشكّل التكرار اليومي لذلك عاملاً

أساسياً يمكّننا من استبانة أنماطٍ معيّنة. فنكتسب، كمراقبين - مشتركين، توقّعات ونتعلّم أن نقوم بتنبّؤات عن ما سينتجه عملٌ ما (بما في ذلك الكلمات) وعن مكانه وأصله. علينا، في سياق تعلّمنا القيام بهذه التنبّؤات أن نحدّد وضعنا في الزمان والمكان. علينا أن نختار **أين ومتى** نجلس (أو نقف). إذ تؤدّي هذه الخيارات إلى نتائج معيّنة. نعرف ذلك، ويعرفه أيضاً، كما يذكّرنا مايرز، أعضاء المجموعة الّتي ندرسها. فللناس الّذين ندرسهم أفكار محدّدة تخصّ المكان الّذي على الغريب أو الزائر أو الضيف (بالإضافة إلى ميّزات شخصيّة أو بدونها التي قد نستحصلها من حياتنا بينهم) أن يكون فيه أو ما عليه أن يفعله. ولديهم أيضاً أفكار محدّدة عن شخصيّات المجتمع الّتي يجب على الباحثين الميدانيين أن يلتقوا بها. ولا يشكّل العمل الميداني لهذا السبب إلاّ سلسلةً من المفاوضات والتسويات بين توقّعاتنا ومعاييرنا وتوقّعات ومعايير الّذين يستضيفوننا. ونجد أحد الأمثلة الرمزية لهذا التفاوض في مقدّمة إلينور أوكس لدراستها الإثنوغرافيّة لتعلّم اللغة والاندماج الاجتماعي في ساموا الغربيّة:

عندما بدأت بتسجيل الأطفال الساموا ومربيهم في صيف سنة 1978 حتّى واجهت مشكلة منهجيّة أساسيّة. فبدلاً من أن يقوم الأطفال بأعمالهم وتفاعلاتهم المنزليّة اليوميّة، رأيتهم يجلسون كما يجب بالقرب من حصيرتي، منتظرين أن أقول لهم ما عليهم القيام به أو أن يقول لهم ذلك أخ أو أخت أكبر أو أب أو أم أو نسيب. بالإضافة إلى ذلك وأسوأ منه بالنسبة للباحث، بدلاً من أن يستخدم الأطفال والمربّون السجل اللغوي العادي المستعمَل في معظم التبادلات الكلاميّة في القرية (ما يسمّيه الساموا "بالكلام السيّئ")، بدأوا يستخدمون فقط

السجّل الّذي يسميه الساموا "الكلام الجيّد" ، أي الّذي يستعملونه لِلكتابة ويتكلّمونه في المدرسة والكنيسة وفي المعاملات التجاريّة والكلام مع الأجانب. وما فتئتُ أكرّر لأعضاء العائلة : "أرجوكم، تابعوا عمل ما تفعلونه عادةً، ولا تأبهوا بي! " اعتقدتُ عندها أنّ ذلك يكفي، كعبارةٍ ساحرة، لخلق واقعٍ يتكلّم به الأطفال والمربّون بشكلٍ "عفوي" ، كما يحدث في الدراسات التطورية للغة الأطفال في المجتمعات الأخرى. فكيف يمكنني دون ذلك أن أحصل على معطياتٍ يمكن "مقارنتها"؟ أدّى فشل عبارتي السحريّة واحتمال فقدان احترام عالم الأبحاث التنمويّة لي إلى تحليلي الموسّع والكامل لأساس هذه المشكلة (Ochs 1988: 1) .

قضى الحلّ الّذي وجدته أوكس لمشكلتها بتغيير تركيزها الفكري وإعادة صياغة اهتمامها باللغة بشكلٍ أوسع يشمل التنظيم الاجتماعي لمنازل الساموا وغير ذلك من الاعتبارات. لقد أجبرها تصرّف الأطفال والمربّين الّذين كانت تراقبهم أن تعيد النظر ليس فقط في تأثير وجودها على العائلة، بل أيضاً في حدود إطار تحليلاتها. إذا كان تصرّف الناس الكلامي، كما اكتشفت، يتغيّر من مكانٍ إلى آخر داخل المنزل ويرتبط بموقع جلوس الباحث، يجب عندها إعادة النظر بمفهوم "اللغة" كموضوع التحقيق، لكي يشمل عندها التفاعل بين الأصوات واتّجاه الأشخاص في كلّ مكان، أي بين أفعال الكلام وأفعال الأجساد (انظر الفصلَين 3 و6).

توضّح تجارب مايرز (Myers) وأوكس (Ochs) أنّ العمل الإثنوغرافي يشمل دوماً طرق التعلّم من الناس الّذين تتمّ دراستهم (Spradley 1980: 1) . يُعتبَر هذا التعلّم منهم عادةً في كثيرٍ من

الأحيان قسماً من استراتيجية الإثنوغرافي "لفهم وجهة نظر الشخص المحلي، وصلته بالحياة، الّتي تسمح له بتحقيق **رؤيته لعالمه**"، حسب تعريف مالينوفسكي المألوف لهدف الإثنوغرافيا (25 :1922). ولكن وجهة النظر هذه ليست صحيحة بالكامل. يتمّ تصوير الإثنوغرافي، بحسب تقليد مالينوفسكي، كمبتدِئٍ يتعامل معه المحليّون كطفلٍ كبير لا يزال يحتاج إلى مساعدتهم وإلى تذكيرهم الدائم له بالمناسب أو غير المناسب عمله في حالةٍ ما. ويساند الأنثروبولوجيون بشكلٍ روتيني ذلك عندما يضعون أنفسهم في حالاتٍ يجدون أنفسهم فيها غير قادرين على التصرّف بشكلٍ مناسب. وهم يفعلون ذلك في أحيانٍ كثيرة على حين غرة، وفي أحيانٍ أخرى كقسم من استراتيجيتهم، لكي يروا كيف يستجيب الناس لأخطائهم، إذ يشكّل تصحيح الأخطاء فرصةً لسماع تعاريف واضحة للمعايير الاجتماعية وآداب المعاشَرة.

إذا ذهبنا أبعد من تصوّر الإثنوغرافي كطفلٍ شقي أو كشخص بالغ تنقصه الثقافة، نجد حقائق أخرى تتكامل حيناً وتتناقض أحياناً. لا تقتصر أبداً علاقة الإثنوغرافيين مع الناس الّذين يدرسونهم على مجرّد علاقة المبتدئ مع خبراء يتفوّقون عليه. يشكّل التواضع الّذي نجده في بعض مواقفهم قسماً من تموضعهم المهني، ومن المنتظَر منه، وإن كان متعمّداً أم لا، أن يؤدّي إلى نتائج ملموسة على المدى البعيد. يشبه اهتمام الإثنوغرافي بحياة ومشاكل الناس أحياناً كثيرة اهتمام المحامي بشكاوى موكّليه واهتمام المعالج النفسي بصراع مريضه الداخلي. فهو اهتمامٌ متعاطف وغير متحيّز. يهتمّ الإثنوغرافي في معظم الأحيان، عند استماعه إلى قصص الناس، وبالأخصّ الروايات الدراماتيكيّة، ليس فقط بمن يسرد القصّة وما أثّر به شخصيّاً، بل أيضاً بسير الأحداث وتركيبتها كما يهتم أيضاً ليس فقط

بشخصيّات القصّة وما ترمز إليه، بل بكيفيّة إيجاد حلولٍ للخلافات بالمنطق الضمني لهذه الخلافات. يبقي الإثنوغرافيّون أمام أعينهم، وفي حديثهم مع الأشخاص المعنيين، أهداف أبحاثهم، وهذا يجعلهم يتجاوزون الحاضر ليذهبوا نحو عالم الكتابة الأكاديميّة ومساعي الأبحاث. لا يعني ذلك عدم وجود تطور او امكانية اهتمام بحالة الناس وبالصداقة خلال تجربة العمل الميداني أو فيما بعدها؛ يعني هذا أنّه لا يمكن لنا كإثنوغرافيين أن نتظاهر بأنّنا لسنا أنفسنا، أي بأنّنا "منهم ومعهم". علينا أن نكون صادقين مع الآخرين ومع أنفسنا عندما نفكّر بمشاركتنا الخاصّة جدّاً في حياة الناس وظروفهم. وكما يقترح نارايان (Narayan) (1993: 672)، "علينا أن نركّز انتباهنا على نوعيّة علاقتنا مع الناس الّذين نودّ تمثيلهم في نصوصنا : فهل نعتبرهم مجرّد مادّةٍ نستعملها لنعطي توصيفات شخصيّة عن الآخرين بشكلٍ عام، أم أنّنا نقبل بهم كأشخاصٍ مستقلّين لهم كلامهم الخاص، ووجهات نظرهم وتساؤلاتهم - أي كأشخاصٍ لنا صلة متبادلة بهم ويمكن لهم حتّى أن ينتقدوا مسعانا المهني؟ " .

من الخطأ اعتبار الإثنوغرافي ولداً مبتدئاً لأنّ الإثنوغرافيين هم أخصّائيّون راشدون يأتون عادةً من دولٍ ومؤسساتٍ عظمى تتفوّق اقتصاديّاً وعسكريّاً على الناس الّذين يدرسونهم. يتصرّف هؤلاء العلماء كأشخاصٍ أغنياء وأقوياء لا يهتمّون سوى القليل ولفترةٍ قصيرة بالجالية الّتي يدرسونها ويسكنون فيها. بالإضافة إلى اهتماماتهم أو دوافعهم أو وعيهم لحالاتٍ ما، يبقى الإثنوغرافيّون تحت تأثير العوامل السياسية والعالمية الّتي تؤثر في العلاقات الّتي يقيمونها في عملهم الميداني. قد بدأ الأنثروبولوجيون منذ وقت قليل بالتحقيق عن هذه العلاقات وعن تأثيرها الممكن والفعلي، بالأخصّ منذ بدأ جيلٌ جديدٌ من الإثنوغرافيين بدراسة جالياتهم الخاصّة أو جالية أهلهم،

انـظـر (Abu-Lughod 1991; Appadurai 1991; Kondo 1990; Mani 1990; Narayan 1993; Said 1989). وعلينا في الوقت نفسه ألاّ نبالغ بتقدير قوّة سلطة الباحثين على من يدرسونهم أو المخبرين. فكما يشير إليه هارفي (Harvey) (1992: 75)، "لا يمكن وصف العلاقة بين الباحث والّذين يدرسهم بشكلٍ مرتبي خالص، حيث يفرض الباحث جدول أعماله على الآخَرين." ومن التباهي الزائد والعنصريّة أن نفكّر بالناس الّذين ندرسهم كضحايا بريئة لمخطّطاتنا الأكاديمية والعلمية. فلهم أفكارهم ومخطّطاتهم وأهدافهم الخاصّة. علينا أن نتكيّف مع حياتهم كما عليهم أن يتكيّفوا مع حياتنا.

تشدّد الرؤية الّتي تعتبر الإثنوغرافيين وسطاء ثقافيين على كون تفسيراتهم وأعمالهم، وإن كانوا يعملون أو يشعرون أو يفكّرون من "قريبٍ" أو من "بعيد"، مترسّخة بداخل عمليّاتٍ أكبر وأحاديث أكثر تعقيداً. على جزءٍ من العمل الإثنوغرافي الذي يشمل فهم هذه المحادثات، مهما كان قدر اهتمام عمل الباحث وكتاباته بهذه العمليّات التفسيريّة. كما أن من السذاجة اعتبار الإثنوغرافيا سعياً حقيقيّاً وغير أناني نحو المعرفة، من الخطأ أيضاً اعتبارها عملاً متسلطاً مباشراً ومفروضاً بالضرورة على الآخرين، حيث يعمل الإثنوغرافيّون والناس الّذين يدرسونهم كدمى على مسرح عالم الإنسان الذي يتحكم به بشكلٍ كاملٍ ناسٌ أقوى منهم وعملاء سرّيون. الإثنوغرافيا عملٌ تفسيريٌ وعليها بالتالي أن تنظر أيضاً إلى نفسها لتزيد من غنى أوصافها التفسيريّة، بما في ذلك الحالات الّتي تجعل التوصيف ممكناً. يساهم الأنثروبولوجيّون في التعريف المستمرّ بالإثنوغرافيا، وبأهدافها وشروطها ونتائجها، بتشديديهم على ضرورة السماح للناس، قدر المستطاع، بالكلام والتعبير شفويّاً وبواسطة أجسادهم، لكي يسردوا نفس القصص الّتي يسردونها في حياتهم

اليوميّة. علينا فهم عمليّة النقل والنسخ الّتي نتكلّم عنها في الفصل القادم في سياق هذه المساعي.

3.1.4. إلى أي مدىً يتوجّب على العالم الإثنوغرافيّ أن يكون شاملاً في عمله؟ التكامل والتعاون في الأبحاث الإثنوغرافيّة

عندما بدأ مالينوفسكي بترويج الإثنوغرافيا بمعناها الحديث، أي باعتمادها على المراقب ـ المشارك، كان يفكّر بالإثنوغرافيا كتقريرٍ كاملٍ عن شعبٍ ما. كان على الإثنوغرافي أن يتعلّم في خلال سنةٍ أو سنتين اللغة الّتي تستعملها الجالية الّتي يدرسها وأن يصف (في الوقت نفسه) كلّ ميّزات حياتها الاجتماعيّة وثقافتها الماديّة والرمزيّة الّتي باستطاعته تدوينها.

> الإثنوغرافي الّذي يدرس الديانة أو التكنولوجيا أو التنظيم الاجتماعي فقط يعزل مجال تحقيقه، ممّا يشلّ عمله كثيراً.
>
> (Malinowski 1922: 11)

أنتج شجب الوصف الجزئي وتشجيع الإثنوغرافيا الشاملة تقارير بارزة، ولكنّه أنتج أيضاً تبسيطاً زائداً أضحى معروفاً اليوم. فقد تجاهل أو لم ينظر مليّاً إلى نواحيَ ثقافيّة معيّنة، معتبراً أحياناً أنّها سهلة الفهم أو بحاجةٍ إلى تحقيقٍ خاصٍ بها. كانت اللغة أحد هذه النواحي الثقافيّة المتبقّية. لم يكن من الممكن للإثنوغرفيين أن يقوموا بعملهم من دونها، ولكنّهم لم يعيروها سوى القليل من انتباههم المنهجي، واستعملوها كأداةٍ للعمل على مواضيع نظريّة أهمّ منها، كالتنظيم الاجتماعي، ونظام القرابة، وفي بعض الأحيان تفسير الخرافات والأساطير. تكرّس مثلاً الطبعة السادسة لكتاب المعهد الملكي الأنثروبولوجي لبريطانيا العظمى وإيرلندا (1951)، بعنوان **ملاحظات واستفسارات عن الأنثروبولوجيا**، فصلاً "للّغة"؛ وهو

ينصح من يريد أن يصبح إثنوغرافيّاً أن يحصل قبل كلّ شيء على توصيفاتٍ لغويّة أو أن يدرس الألسنيّة. يتطلع القارئ في 11 صفحة على الإيماء، ولغة الإشارة واللغة المحكيّة، بما في ذلك فقرات عن الفونولوجيا والقواعد اللغويّة وعلم دلالات الألفاظ. يلي ذلك فصلٌ عن الثقافة الماديّة، يحتلّ 118 صفحة!

يتقبّل الأنثروبولوجيون الحاليون عدم إمكانية شخصٍ واحد أن يدرس ثقافة مجموعة **بكلّ نواحيها**، كما أراده مالينوفسكي (1922)، وعلى كلّ أنثروبولوجي إذا أن يركّز على نواحي معيّنة، بحسب اختصاصه واهتماماته النظرية. فنجد اليوم أعمال إثنوغرافيّة عن مجموعاتٍ محدَّدة (كالحائكين والخيّاطين والمدمنين والأطبّاء)، وعن نشاطاتٍ معيّنة (كالتبادل في قاعة الدروس، والعزف الموسيقي، والسيطرة الروحية، والطقوس الانتقالية)، وحوادث (كالمحاكمات والتجمّعات السياسية، والأعراس وتبادل الهدايا)، والعمليّات الاجتماعية (كالتنشئة الاجتماعية والتثاقف ودخول المستشفيات وتحويل بعض الممارسات إلى مؤسسات). وينطبق ذلك أيضاً على التوصيف الإثنوغرافي للّغات. يستخدم الأنثروبولوجيون الألسنيّون الأساليب الإثنوغرافيّة للتركيز على ما يجعل التواصل اللغوي جزءاً لا يتجزّأ من ثقافة المجموعات الّتي يدرسونها. عند اشتراكه في حياة الجالية عامّةً، يدوّن الأنثروبولوجي وثائق عن التواصلات القائمة في تبادلاتٍ مختلفة (منها المحادثات اليوميّة، والوقائع السياسية والاحتفالات، والمسرحيات، والأغاني والمراثي) وبين مجموعاتٍ معيّنة من الناس (كالنساء والرجال والأطفال والرؤساء والناس العاديين والكهان والخطباء والأطبّاء... إلخ). يمكن للأنثروبولوجيين الألسنيّين، بواسطة اختياراتهم وتصنيفهم للأعمال الاجتماعية على أساس استعمال اللغة، إنتاج تقارير عن تركيبة واستعمال اللغة أكثر

دقّة من الّتي يعطيها الأنثروبولوجيون الثقافيون الّذين لا يملكون معرفة قوية في أساليب وأنواع الألسنيّة.

يجب مقابلة خطر الفهم المحدود للحياة الاجتماعية في جالية ما ـ وهو خطرٌ نراه من خلال عدسة القوانين والأفعال الكلامية ـ بالاعتماد على التعاون المباشر وغير المباشر مع باقي الباحثين الّذين يدرسون ربّما نفس المجموعة، مركّزين على شؤون مختلفة. وقد سمح هذا التعاون بالقيام بأحسن الدراسات في العقود القليلة الماضية. فقد استفادت دراستي بامبي ب. شيفلين (Bambi B. Schieffelin) (1990) وستيفن فيلد (Steven Feld) (1982) الواحدة من الأخرى، وقد قام الأوّل بدراسةٍ إثنوغرافيّةٍ للتعلّم الاجتماعي للّغة في شعب كالولي في جبل بوسافي في بابوا غينيا الجديدة، وقام الثاني بدراسة التداخل بين الأصوات والمشاعر والعلاقات الاجتماعية في نفس هذا الشعب. وقد اعتمدا كلاهما أيضاً على أعمال إدوارد شيفلين (1976) عن التنظيم الاجتماعي للمشاعر (بالأخصّ الغضب والجاذبية) في الجالية الواحدة. لم تكن دراسة جينفياف كلام ـ غريول (1965) المشهورة لأيديولوجيا الدوغان (في مالي) اللغوية ممكنة لولا وجود عدد لا يحصى من الدراسات الإثنوغرفية عندها، منها المطبوعات السبعين تقريباً لوالدها، الإثنوغرافي الفرنسي مارسيل غريول. فقد زوّدها عمل والدها بأساس قوي سمح لها بتقديم سلسلة معقّدة من الفرضيّات عن كيفية عمل اللغة في الوقت نفسه كمجازٍ وعنصرٍ رابطٍ في كوزمولوجيا وفلسفة الدوغان في حياتهم اليومية.

أوضحت لنا هذه المشاريع أنّ تصوّرنا للباحث الميداني الوحيد مسافراً من بلادٍ إلى أخرى لم يزرها أنثروبولوجي من قبل، ليكتب فيما بعد وحده مقالاتٍ ورسالاتٍ علمية، ليس سوى مفارقة تاريخية، وربّما خليطاً لا غير من المثاليات الإنسانية وفلسفة الذات المنهجية.

لا يجب تفسير نقد المشاريع المنعزلة أو مدح التعاون كواجب يأمر بكتابة المقالات بالمشاركة وبفتح كلّ دفاتر وملفّات الباحث لكي يراها الجميع؛ فلا تزال هناك قضايا علينا النظر إليها، بما في ذلك احترام خصوصية الأشخاص وحماية الّذين سمحوا لنا بمشاهدة حياتهم اليومية. ولكنّ وعينا التدريجي للطبيعة الحوارية لأي بحثٍ في المعرفة قد بدأ، ويرافقه أيضاً الإحساس مجدّداً بأهميّة العلاقة بين المعرفة والسلطة، وبين توفّر المعرفة والمسؤولية. من المحتمل جدّاً أن تتأثّر توصيفاتنا بالجيل الجديد من الطلاّب الداخلين في المجال الأكاديمي الغربي والآتين من خلفيّاتٍ إثنية وعرقيّة وقومية متعدّدة؛ لقد تغيّر حديثنا عن الآخر ولن يعود أبداً كما كان. لا يقرأ أحفاد الناس "البدائيين"، الّذين وصفهم مؤسسو الأنثروبولوجيا (بواس، ومالينوفسكي، ورادكليف ـ براون) ومؤسِساتها (بينيديكت، وميد، إ. س. بارسونز)، كتبنا فحسب، بل نراهم يجلسون في صفوفنا، يقيّمون توصيفاتنا ويتمرّنون، كما نأمل، لكي يتمكّنوا من سؤال أسئلة جديدة وإعطاء إجاباتٍ جديدة. من المحتمل جدّاً أن يتغيّر معنى التأليف والتعاون في الأعمال الإثنوغرافيّة القادمة. وقد ساعدتنا مساهمات النساء الأنثروبولوجيات كثيراً على اكتشاف هذه المسائل، فقد أجبرن الأنثروبولوجيين وغيرهم من علماء الاجتماع أن يهتمّوا بالطبيعة الجنسية لما يسمّى بالتقارير الموضوعية وبتموضع كلّ توصيفٍ إثنوغرافي (Haraway 1991 ; Harding 1986; Spivak 1985).

2.4. نوعان من الألسنيّة الميدانيّة

ليس الأنثروبولوجيون الألسنيّون الوحيدون الّذين يسافروا بعيداً لكي يسكنوا في جالية مع المتكلّمين بهدف وصف لغتهم. فاللغويّون يقومون بذلك منذ وقتٍ طويل، وتشكّل الحلقات الدراسية عن الأساليب الميدانية جزءاً مهمّاً من دراسة اللغويين،

على الأقلّ في الولايات المتّحدة. ولكن هناك بعض الاختلافات المهمّة بين طريقة عمل الأنثروبولوجيين الألسنيّين وغيرهم من اللغويين في الأبحاث الميدانية. وتشكّل الممارسة الإثنوغرافية الّتي تحدّثت عنها للتو إحدى هذه الاختلافات. يسافر اللغويّون الّذين يهتمّون بشكلٍ حصري أو خاص بقواعد اللغة إلى أماكن بعيدة ويسكنون في جاليةٍ كلامية، لكي يتمتّعوا باحتكاكٍ مباشر غير محدود مع متكلّمين من أعمارٍ وجنسٍ ومنزلة اجتماعية مختلفة، مما يعطيهم قاعدة بياناتٍ جديرة بالثقة ومتنوّعة، أكثر من تلك الّتي يحصلون عليها بملاقاة متكلّمين أصليين في مكتب أبحاثٍ في كليّةٍ أكاديمية غربية. قد يشترك الألسنيّون الميدانيون أحياناً في حياة الجالية الّتي يدرسونها، ولكن لا يعني ذلك لمعظمهم بأنّهم يعتبرون وجودهم الميداني فرصةً لمراقبة وتدوين استعمال الناس للّغة في تداولاتهم الكلامية. تشكّل التجربة الميدانية بالأحرى فرصةً لتمرين بعض المتكلّمين المحليين لكي يصبحوا استشاريين لغويين يتعلّمون كيفيّة استخدام بديهيتهم لتقرير ما يمكن اعتباره مقبولاً في قواعد اللغة. يقول الألسني "هل يمكن القول..؟"؛ ثمّ يدوّن ردّ المتكلّم على هذا التعبير ويسأله، "وماذا إذا قلنا...؟"، مضيفاً إلى ذلك عدّة أسئلة أيهما أفضل؟ ما مشكلةُ هذه العبارة؟ كيف تقولها أنت؟ وما إلى ذلك. يجب استعمال هذه الأسئلة لاكتشاف تناسق النظام اللغوي والوصول إلى أشكال لغويّة قد لا تُستعمل كثيراً في الحياة العاديّة. ولكن يتجنّب الاستعمال الحصري لهذا الأسلوب الدخول في ما يجعل من اللغة مؤسسة اجتماعية وممارسة ثقافية.

يقوم الأنثروبولوجيون الألسنيّون، من ناحيتهم، بتسجيلاتٍ صوتيّة ومرئيّة متعدّدة للّقاءات العادية اليومية. يضاف إلى هذه الوثائق معلومات المراقبين ـ المشتركين وعددٌ من التقنيّات الميدانية لدراسة السلوك

الكلامي، منها الملاحظات الإثنوغرافية، والرسوم، والخرائط، والمقابلات، والصور. تُستعمَل هذه التقنيّات بهدف اكتشاف الممارسات الكلامية المحليّة والتصوّرات المحليّة لهذه الممارسات والمكان الّذي تحتلّه في تنظيم الجالية الاجتماعي (انظر القائمة 2.4.).

القائمة 2.4. يهتمّ الأنثروبولوجيون الألسنيّون بما يلي

- التنظيم الجذري للعلاقة بين الأصوات والمعاني كما يكشفها استعمال اللغة في عددٍ من الممارسات الاجتماعية، ومدى انعكاس استخدام اللغة الفعلي أو استخداماتها الخاصة، في القراءة والكتابة مثلاً، في توصيفات قواعد اللغة الماضية (فقط في حال وجود هذه التوصيفات)
- التصوّرات المحليّة بخصوص ما يشكّل "اللغة"، بما في ذلك وصف كلام الأطفال المولودين حديثاً والغرباء
- تنظيم استعمالات اللغة بحسب المكان (هل هناك مثلاً مكان مركزي للأداء العلني، كما نجده في **الماراي** في مجتمعات بولنيزيا القديمة، أو "منزل الاجتماعات" عند الكونا؟ هل تُستعمل اللغة بشكلٍ يختلف بين غرفةٍ وأخرى في المنزل؟)
- ميزات ما يُعتبر لغةً طقسية أو احتفالية، وأهميتها الثقافية، بالمقارنة مع اللغة العادية
- التوزيع الاجتماعي للأساليب والأنواع والأحداث الكلامية (ماذا تفعل المجموعات الاجتماعية المختلفة مثلاً لكي تميّز نفسها عن الآخرين بواسطة سجلّ لغوي أو أداءٍ شفهي معيّن؟)
- ما حدود العلاقة بين النظريات اللغوية المحلية واستعمال اللغة، والكوزمولوجيا المحلية
- الدور الذي تلعبه التربية الاجتماعية في تشكيل مفهوم الشخص والعقل والعلاقات الاجتماعية
- تفسير الشِفرات المختلفة (كالكلام والإيماء والملابس) في إنشاء الرسائل وتفسيرها.

نجد وراء هذه الأسئلة الطرق المختلفة الّتي تأخذها اللغة، كنظام تصنيفٍ مجرّد (للعالم الطبيعي والثقافي) وكصيغة تفاعلٍ اجتماعي، تزود المواد الّتي تستخدمها مجموعة من الناس لكي تعرّف بنفسها كجالية.

3.4. نوعا المشارك ـ المراقبة

هناك عدّة أنواع من المراقبة المشترِكة، وهي تتراوح بين **الاشتراك السلبي**، حيث يسعى الإثنوغرافي إلى عدم التدخل بشؤون الّذين يدرسهم، (Gold 1969; Spradley 1980: 58-62; **والاشتراك** Williamson et al. 1982: ch. 8). يعني الاشتراك الكامل، في العمل الميداني، حيث يتفاعل الباحثون بشكلٍ مركّز مع غيرهم من المشتركين، وقد يشتركون ويقومون حتّى بالنشاط الّذي يدرسونه، إنّ على الباحث أن يكون مؤهّلاً للتفاعل مع الآخرين بلغتهم المحلية وأن يقوم حتّى بالنشاطات الشفوية الّتي يدرسها. ليس من الضروري ان يكون خياراً طوعياً من قبل الباحث. فعندما كنت جالساً في ساموا مثلاً من جهة المنزل الّتي يجلس فيها الخطباء، كنت أتوقع أن أقوم بنشاطٍ لغوي إن وجب ذلك. كان الخبراء المحليّون يعملون كأساتذة ومرشدين ومعاونين متعاطفين مع الغير. وتوقّع الناس مني أن أتكلّم بشكلٍ جيّد علناً ليس لأني أهتمّ باللغة وفن الكلام، بل لأنّني قد حصلتُ على هويّة اجتماعية "كرئيسٍ" وناطق باسم من رأستهم (Duranti 1994a: 23). كنت أفضل المرشحين كناطق باسم "عائلتي الموسّعة"، لكوني الذكر الراشد الوحيد في فريق أبحاثنا[4]. كلّما تكلّم أحدهم إلى جماعتنا بكلام رسمي، كان ينظر الآخرون باتّجاهي، بانتظار أن أتكلّم عنهم. كان من الأصعب بكثير لي في هذه الحالات أن أتابع ما يحدث من حولي، وأتحكّم بالمسجّلة الصوتية، وأكتب ملاحظاتي. سمحت هذه التجارب لي من جهة

---

(4) لا يعني ذلك أنّ النساء في ساموا لا يدلين بخطباتٍ احتفالية أو لا يقمن بمفاوضاتٍ معقّدة؛ فقد التقيت بنساءٍ خطيبات موهوبات واستمعت إليهن. ولكن يفضّل الرجال عادةً، بالأخصّ حاملي الألقاب (الماتاي)، كناطقين باسم الآخرين في معظم الحالات. ولكن لا يتطبّق ذلك على الأعمال الّتي تنظّمها وتديرها النساء.

أخرى أن أشاهد عن كثب الإحساس الكامن في أداء الناس، الذي لا نجده أبداً عن طريق المراقبة والمقابلات البحتة.

يعطي الاشتراك الكامل، في ظل ظروف مناسبة أخلاقياً، للباحثين فرصةً رائعة للحصول على تجربةٍ مباشرة للعمليات الّتي يسعون إلى تدوينها. يعطي الأداء للباحثين، ولو أنّه لا يساوي بالطبع دخول فكر وجسم المتكلّم المحلّي، نظرةً تتقصّى ماهيّة الاشتراك في وضعِ ما وفرضياتٍ وأسئلةً جديدة. تمكّن فيلد، في سرده لتجربته مع الكالوليين، أن يصف الظاهرة الّتي حدثت في دخوله العمل الّذي كان يدرسه :

> بالرغم من وجود الكثير من الأشياء الّتي كان باستطاعتي فهمها في مثاليات الكالوليين المتعلّقة بالتعابير المقبول بها، بفضل مراقبتي المعتادة كمشترك، أعتقد بأنّني قد بدأتُ أن أشعر بأهمّ المسائل، . . . كتأليف ذروة الأغاني، فقط يوم ألّفتُ أغنيةً عن مغادرة [ي شيفلين] وبامبي [شيفلين] لبوزافي أبكت غيجيو، أحد أقدم وأقرب أصدقائهما. وقد بكيتُ أيضاً، وقد شعرتُ، في هذه التجربة القويّة الخاطفة الشاهدة على الحدث، بأوّل احساسٍ يعطيه العيش في هذا الواقع، حيث تحتلّ مشاعر مماثلة مكاناً أساسيّاً في صميم الإنسان.

(Feld 1982: 236-237)

يؤدّي الاهتمام بالأداء الشخصي، من ناحيةٍ أخرى، إلى الانتباه إلى دور الشخص وتصوّر الآخَرين له، مّما قد يستحوذ على الكثير من الوقت ويصرف الانتباه عن تدوين ما يحدث. لهذا السبب، يجب على الإثنوغرافيين أن لا يسمحوا لأنفسهم بأن يشتركوا في الجالية الّتي يدرسونها، يتعلموا كيف يكونوا متفرجين مسموح لهم في التدخل أو

مستقلّين (انظر أيضاً الفقرة 2.3.9.). يعني ذلك أحياناً أن عليهم أن يجدوا **نقطةً عمياء في** ما يحدث، أي مكاناً يجلسون أو يقفون فيه دون أن يتدخّلوا بما يجري. فجلست أوكس مثلاً، لدى دراستها للغة أطفال ساموا، في مكانٍ يُعتبَر "مؤخّرة" المنزل، حيث لا تعامَل كضيف شرف ذي أهميّةٍ خاصّة (انظر الفقرة 5.9.). تشكّل النقطة العمياء، بالنسبة لكلّ من يدرس ترتيب الخدمة في المراسم الاحتفالية، المكان الّذي لا يحصل فيه الفرد على الخدمة. وتشكّل النقطة العمياء، بالنسبة للّذي يسجّل المحادثات، مكاناً لا يجبر المشتركين على أخذه بعين الاعتبار. وقد تكون النقطة العمياء، بالنسبة للإثنوغرافي الّذي يدرس قاعة الدروس، مقعداً يجلس فيه ولا يراه التلامذة بشكلٍ دائم؛ وعليه أن يبتعد عن اللوح الّذي يكتب الأستاذ عليه وعن المكان الّذي يقف فيه التلامذة ليسمّعوا درسهم. من الصعب عادة إيجاد المكان المناسب ضمن الأماكن غير الرسمية والخاصّة مقارنة في الأماكن العامّة. قد تكون مراقبة الإثنوغرفي كمشترك في داخل منزلٍ تسكنه عائلة كبيرة من أصعب التحديات الّتي قد يجدها أمامه. تعطينا لايشتر (Leichter) وصفاً لافتاً للنظر لتساؤلات المراقب المتضاربة ومدى دراسته لممارسات عائلة للقراءة والكتابة:

> ما أن يدخل المراقب منزلاً لكي يدرس كيف تتعامل العائلة مع الكتابة والقراءة، حتّى يواجه مباشرةً مسائل تتعلّق باختياره المكان الّذي عليه أن يقف أو يجلس فيه، والأماكن الّتي سيراقبها في المنزل، ومراقبة أعضاء العائلة والتكلم معهم. حتّى فيما يتعلّق بفترات مشاهدة التلفاز، عليه أن يختار من بين عدّة احتمالات مراقبة. فإذا ما جلس مثلاً بجانب أعضاء العائلة الّذين يشاهدون التلفاز، لا يمكنه مراقبة تحرّكات أعينهم. لأن

هناك دائماً عدّة عمليّاتٍ جارية في نفس المنزل، يتساءل المراقِب دائماً عن ما يجب أن يركّز نظره عليه. وتكمن صعوبة ذلك في إدراك أن مراقبة عملٍ ما يؤدّي إلى إهمال عملٍ آخَر (Leichter 1984: 43).

على الباحثين أن يجدوا، بالإضافة إلى المكان المناسب، التصرّف المناسب لمكانٍ معيّن. وعليهم أحياناً أن لا يتحرّكوا، كي لا ينتبه أحدٌ إلى وجودهم؛ وأحياناً أخرى أن يشغلوا أنفسهم باستمرار. فقد يحاول المراقب مثلاً أن يدوّن ملاحظاته وأن يشغّل أداةً ما (المسجّلة أو الكاميرا) تحتاج إلى تركيزٍ كامل في الوقت نفسه.

لا يعني السعي إلى إيجاد نقطة عمياء وعدم التدخّل أن يتظاهر الشخص بأنّه غير موجود، بل يكون قدر الإمكان مشتركاً لكنه يبقى على الهامش. من غير المقبول أدبيّاً بالطبع ومن غير العملي أن يختبأ الباحث تماماً، ولكن، في الوقت نفسه، لا يكفي أبداً أن نجمع البيانات معتمدين فقط على تفاعل المشتركين مع وجودنا بينهم. ورغم أن هذه المعلومات مهمّة (Duranti 1990; Haviland 1986, 1991; Howe and Sherzer 1986)، إلا أنها يجب أن لا تشكّل القسم الأعظم من أبحاثنا.

من الأفضل أحياناً أيضاً أن نتقبّل معاملتنا كضيوف أو كما يسترعي الانتباه (بالأخصّ في أيّامنا الأولى في جاليةٍ ما أو في أوّل زياراتٍ لمكانٍ معيّن). لا توجد، لهذا السبب، قوانين حتميّة عن كيفيّة التصرّف عند مراقبتنا واشتراكنا مع الآخرين. إن وعينا الاجتماعي يساعدنا في كلّ مرّة في إجابتنا على توقّعات مستضيفينا. الأخطاء في هذا المجال كثيرة، ومن غير الممكن تفاديها في معظم الأحيان، ولكنّها ليست خطرة على الحياة، ولو أنّه قد حصل في السابق أن مُنع بعض الباحثين من إكمال أبحاثهم بسبب قلّة احترامهم

للناس. علينا أن نعتمد مبدأً فوق كلّ المبادئ، يقضي باعتبار مشاعر مستضيفينا أهمّ من كلّ "البيانات" الّتي نودّ تحصيلها ومن تدوين ما قد نجده كنادرة مهمّة بالنسبة لأهداف أبحاثنا.

يمكننا القول بشكلٍ عام أنّ تنوّع أشكال اشتراكنا ضروري للحصول على توصيفٍ جيّد لأي حدثٍ أو وضع اجتماعي. يعني ذلك أنّه على الإثنوغرافيين أن يتفاعلوا كثيراً حيناً وقليلاً أحياناً مع ما يحصل من حولهم.

4.4. مقابلات

تشكّل المقابلات، بمعناها العام، نوعاً شائعاً من التفاعل مع الغير خلال العمل الميداني. يسأل الإثنوغرافيّون الكثير من الأسئلة دون توقّف، معظمها يتعلّق بمواضيع ومسائل يحاولون فهمها. يعني ذلك أنّ أسئلة الإثنوغرافيين ليست في أي حال ساذجة أو عديمة الفائدة، كما قد تبدو أحياناً، فيمكن لكلّ جوابٍ، حتّى ما قد يبدو غير كافٍ لسرّيته أو خالياً من المعلومات المفيدة، أن يعطي معلوماتٍ مهمّة للباحث، إن لم يكن في حينه فقد يكون في وقتٍ لاحق. ولكنّ الباحث يجلس أحياناً (عادةً مع دفترٍ في يده أو المسجّلة الصوتيّة) ويسأل سلسلة من الأسئلة المركّبة نوعاً ما، وقد يكون قد حضّر قسماً منها، إلى عضوٍ من الجالية معروفٍ لكونه خبير في مجالٍ معيّن. قد يعتبر الأنثروبولوجيّون المقابلة فرصةً للحصول على معلوماتٍ تخصّ خلفيّة الجالية الثقافية، وهي أساسية لفهم التبادلات الكلامية الّتي يدرسونها. وقد تشكّل المقابلة بالنسبة لبعض الباحثين الّذين يتبعون المناهج الاجتماعية الألسنية (Labov 1972a, 1972b) فرصةً للحصول على مجموعة معلوماتٍ تسمح بدراسة الأشكال النحويّة، والتغيّرات في أسلوب الكلام، ومواقف الناس من اللغة

(Hill and Hill 1986). لا يبحث اللغوي في هذه الحالات عن "خبراء" بل فقط عن "متكلّمين"، وينشغل في معرفة ما إذا كان الكلام الّذي يستعمله الشخص في المقابلة يمثّل فعلاً استعماله العام للّغة. يعود هذا الانشغال إلى وجود مسألةٍ أوسع تخصّ معرفة ما إذا كانت المقابلة تناسب بشكلٍ عام سعي الباحث إلى فهم المعرفة والممارسات التواصليّة المحليّة. فيعتبر وليام لابوف (29 :1984) مثلاً،

> **إنَّ المقابلات وجهاً لوجه تشكّل الطريقة الوحيدة للحصول على الكميّة اللازمة والجيّدة من الكلام المسجَّل للتحليل الكمي** (التشديد من النص الأصلي).

لا يتّفق معظم الأنثروبولوجيون الألسنيّون مع هذا المبدأ العام، ويعتقدون أنّ المقابلات، وإن كانت مفيدة أحياناً، لا تعطينا معلوماتٍ وافرة تسمح بالقيام بتحليلٍ لغوي مطّلع إلاّ نادراً. لا يمكن استبدال مراقبة وتسجيل التفاعلات الفعلية بين المتكلّمين المحليين في حياتهم اليومية، إن كانت خاصة أو عادية وعامة وقائمة بحسب مؤسّسات مجتمعهم. تسمح لنا التكنولوجيا الصوتية والمرئية الموجودة حالياً بالحصول على تسجيلاتٍ دقيقة، حتّى عندما لا يجلس المتكلّمون أمام الباحث في مكان هادئ ليتكلّموا مباشرةً أمام الميكروفون. عندما يعتبر الباحث المقابلة ضرورية أو محتومة، عليه أن يتجنّب بعض المكائد الممكنة لكي يتمكّن من معرفة ما يمكنه توقّعه والتحكّم بواقع المقابلة.

1.4.4. البيئة الثقافيّة للمقابلات

تختلف ردود الافعال على أسئلة الباحث، ويعود ذلك إلى عددٍ من العوامل، منها مدى انتماء صيغة المقابلة إلى الممارسات المحليّة الخاصّة بتحصيل المعلومات (انظر أدناه) أو نوع المواضيع الّتي

تناقَش. قد تتعلّق الأسئلة بمجال معرفةٍ تُعتبر قيّمة في ثقافة المجتمع، كالخطاب مثلاً أو أنواع معيّنة (أحياناً سرّية) من المعرفة (كالطب والسحر والسلالة)، أو بمجالٍ قد لا يُعتبر مهمّاً للخبراء، كالأعمال الّتي تخصّ الأطفال (كاللعب بالكلام، وأغاني الأطفال، وثقافتهم، وأخطائهم اللغوية).

يمنع على الغرباء في بعض الجاليات الحصول على معلوماتٍ تخصّ مواضيع وأحداث معيَّنة. نجد هذه الحالة لدى سكّان أوستراليا الأصليين في ما يخصّ طقوس الأحلام، ولدى بعض الهنود الأميركيين في ما يخصّ مراسيمهم الدينيّة. على الباحثين الميدانيين، عندما يُسمح لهم بمشاهدة أو الاشتراك في ما يُعتبر مراسم مقدّسة غير مفتوحة للجميع (فقط للراشدين مثلاً أو للرجال الّذين تمّ تلقينهم الطقوس)، أن لا ينتهكوا الثقة الّتي منحت لهم. عليهم أن يزنوا كلّ تقريرٍ عن هذه الأحداث وأن يتكلّموا مع أعضاء الجالية عنه.

على الباحثين الميدانيين أن يدركوا أنّ لكلّ جالية طريقتها الخاصة في فهم ما يشكّل "مقابلة". وهذا يحصل مراراً، لا يوجد هذا الفعل الكلامي في ذخيرة ثقافة جاليةٍ ما، على الباحث أن يأخذ بعين الاعتبار المفاهيم المحليّة المتعلّقة بإعطاء المعلومات أو التعلّم من الغير لكي يفهم تعاطي أعضاء المجتمع مع سعيه للحصول على مقابلة. تقول إلينور أوكس كينان في تقريرها (1974؛ 1976) عن مدغشقر مثلاً أنّ الناس هناك يعتبرون المعلومات **سلعةً نادرة** ويتردّدون بإعطاء الغرباء والمحليين ما قد يُعتبر "خبراً". وهم، كالكثير من المجتمعات الأخرى، يحفظون السلالات بغيرةٍ، وعلى الباحث الميداني الّذي تهمّه هذه السلالات أن ينتظر أحياناً أشهراً أو سنين قبل أن يجد شخصاً يتكلّم معه عنها. ومن غير اللائق، في ساموا، أن نسأل عن شخصٍ ما. عندما نسأل مثلاً "لماذا فعل

ذلك؟"، نجد الشخص يجاوبنا إمّا بشكلٍ عام دون أن يتحمّل مسؤولية كلامه (**تا إيلو** "كيف لي [أنا الإنسان البسيط] أن أعلم؟")، أو، في حال وجود تصرّفٍ شاذ - "(كان) سكراناً" (**أونا**) - بشكلٍ يفترض عدم معرفته لكميّة الكحول الّتي شربها ذلك الشخص. تبدو الاسئلة غير مرغوب فيها ولا تضيف تفاصيل كثيرة. لا يحبّ الساموين أن يفسّروا أو يخمّنوا أفكار الناس الباطنة، وقد يُعتبر أي سعيٍ، من قبل الباحث، يرمي إلى دفعهم إلى ذلك غير لائقٍ أو حتّى خطِر. فقد تؤدّي إعادة تركيب أحداثٍ من الماضي لإيجاد صلتها بأزمةٍ حالية إلى فتح جروحٍ قديمة مما قد يؤثّر سلبياً على مشاعر الناس. نرى ذلك بوضوحٍ في المناسبات الرسمية، لدى انعقاد مجلس القرية (**فونو**) مثلاً، حيث يشجّع المشتركون فيه إلى النظر إلى المستقبل بدلاً من أن يتحدّثوا عن صراعات الماضي الّتي حُلت (Duranti 1994a: 97).

علينا ألاّ ننسى أيضاً أن الحصول على معلوماتٍ ما من الناس قد يُشعرهم بأنّ شيئاً ثميناً سيؤُخذ منهم. قد لا يكون من الكافي إعطاء أجر مخبرٍ لشخصٍ ما للتعويض عن الخسارة الّتي قد يشعر بها عندما يتحوّل ما قد قاله في لحظة مودة أو تلميح لصديق للباحث الميداني إلى بيانٍ قد يقرأه آلاف الأشخاص حول العالم.

على الباحثين أيضاً أن يدرسوا **بيئة الأسئلة** المحليّة. يعني ذلك أنّه على الباحثين الميدانيين أن يعرفوا ما يسمح لهم من أسئلة، ولمن، وأين، وكيف. نتوقّع ونسمح بالأسئلة، في المجتمعات الغربية، في بداية عملية التعليم (بالأخصّ في المدرسة)، ولكن تعتبرُ الأسئلة غير لائقة بمبتدِئٍ في أماكن كثيرة من العالَم. يتطلب من المبتدئين في الكثير من المجتمعات أن يراقبوا ويقلّدوا ما يفعله الخبراء، وأن لا يزعجوهم بأسئلتهم (Lave 1990; Rogoff 1988). عندما حاول تشارلز

بريغز مثلاً أن يتعلّم النقش مع جالية مكسيكية أصلية في المكسيك الجديدة الشمالية بواسطة المقابلات، واجه العديد من "المشاكل الإجرائية" (43 :1986). إذ لم يجبه الناس بشكلٍ مباشر، أو أعطوه معلوماتٍ محدودة ومتضاربة لقد دوّن بريغز، لحسن حظّه، نتائج مساعيه، وتمكّن، بعد دراسة أسئلته وأجوبة الّذين استشارهم، أن يفهم بشكلٍ جديدٍ كيفية مقابلة الناس، ممّا قد يساعد غيره من الباحثين الّذين يجدون أنفسهم في نفس الوضع.

> يجد القارئ هنا معلوماتٍ عن أخطاء أبحاثي في التواصل مع المكسيكيين... فقد اعتبرت بكلّ بساطة أنّ معرفتي للإسبانيّة، وتقبّل الزوجين وجاليتهما لمشروع أبحاثي، وتطوّر صداقتي لهما، سيؤكّد حصولي على مقابلات. واعتقدتُ أيضاً أنّ المقابلات ستزوّدني بأفضل القدرات الاجتماعية الثقافية والاجتماعية اللغوية... لم يترك جهلي لتقاليد الجالية الشفهية ولكلّ المهارات العملية الخيار للمشايخ، فتحكّموا من جديد بالتفاعلات بيننا وكسروا إطار المقابلات (Briggs 1986: 64).

اكتشف بريغز أنّه إذا أراد أن يتعلّم النقش والتقاليد، عليه أن يأخذ دور المبتدِئ. فكان مستضيفوه يفضّلون إعطاءه قطعة خشبٍ ومطواة ليساعدوه فيما بعد على النقش. وتمكّن بريغز عندها فقط أن يحصل على معلوماتٍ دقيقة عن النقش وعن معانيه الاجتماعية ـ الثقافية.

> وجدتُ نفسي عندها في موقعٍ سمح لي بالحصول على المزيد من المعلوماتِ مكرّراً ما يقولونه قبل أن أسألهم : "كان والدك يحب المزاح كثيراً، أليس كذلك؟" ما إن عرفت كيف أتعلّم بشكلٍ

مناسب وحصلت على مهارةٍ كافية، حتّى قبل اللوبيز بتزويدي بمعلوماتٍ عن فن النقش. وقد سمح لي، لحسن الحظ، بأن اسجّل أقوالهم على مسجّلتي الصوتية. وقد زوّدني ذلك، بالإضافة إلى الخلفية الصوتية لتسجيلاتي الأولية، ببياناتٍ عن كيفيّة تعليم اللوبيز لي (Briggs 1986: 65).

نرى من قراءة هذا النص أنّه علينا أن نحلّل نصوص مقابلاتنا بشكلٍ معقّد ودقيق لكي نجد متى يفشل التواصل والآليات الّتي يستعملها المقابِل والمقابَل للتعبير عن فهم كلٍّ منهما للحدث.

2.4.4. أنواع المقابلات المختلفة

بالرغم من اعتماد الأنثروبولوجيين عادة على المقابلات الشفهية بدلاً من استعمال أسئلة استطلاعية مكتوبة، حيث يحضرون مقابلاتهم الشفهية مع أحد أعضاء الجالية للمساعدة في كتابة وتسجيل المقابلات وتنظيمها وإدارتها. من المهمّ في هذا السياق أن يفهموا ما يعني استعمال وإنتاج الوثائق المكتوبة بالنسبة للجالية المحليّة. قد يقود تاريخ الجالية إلى عدم ثقة أعضائها بالتفاعلات والوثائق الّتي قد تحمل تداعياتٍ اجتماعية ـ اقتصادية أو قانونية (إملاء القسائم مثلاً). وينطبق ذلك أيضاً على تدوين الملاحظات أو التسجيلات الصوتية والمرئية لكلام الناس (انظر أدناه).

تختلف الاعتبارات عند القيام بمقابلاتٍ متباعدة والقيام بمقابلاتٍ متعدّدة يُتوقّع أن تعطي بياناتٍ مماثلة. وقد طوّر الألسنيّون الاجتماعيون المدنيّون عدّة مناهج لجمع العشرات أو حتّى المئات من المقابلات المنظَّمة حيث يشكّل **نموذج الاستطلاع المتّحد** واحداً منها. لقد صمّم لكي يستعمله باحثون ميدانيون مختلفون، ويمكنه

التكيّف مع حالاتٍ مختلفة، بما في ذلك اختلاف طبقة الفرد الاجتماعية أو انتمائه العرقي. استخدم شوي (Shuy) وولفرام (Wolfram) ورايلي (Riley) (1968) هذه النماذج الاستطلاعية في دراستهم للغة ديترويت العاميّة، والّتي هدفت إلى توجيه سياسة المدينة التربوية بواسطة القيام بمسحٍ للثقافات الهامشية للّغة الإنجليزية في المدينة. درس الباحثون الميدانيون 700 متكلّمٍ تقريباً، لأربعة أعمارٍ مختلفة ولعدد من الخلفيات الاجتماعية والعرقية. بالرغم من التزام الباحثين بفكرة كون "المقابلات غير رسمية، وأهميّة ذلك في الحصول على بياناتٍ عن كلام العاميّة" (ص 40)، تطلب الحصول على صوتٍ واضحٍ بهدف تحليله إنتاج ما يعتبره معظم الأنثروبولوجيين الألسنيّين واقعاً ذا طابعٍ رسمي:

> كان إطار المقابلات بسيطاً وموحّداً. كان الباحث الميداني يعلّق الميكروفون حول عنق المُخبِر، ويبدأ بالتسجيل على شريط الكاسيت الّذي قد وضعه في المسجّلة، ومن ثمّ يسأل المخبر أن يعطيه اسمه وأن يعدّ من واحدٍ إلى عشرة. سمح لنا ذلك بالحصول على قائمة، بشكلٍ رسمي نوعاً ما، وبالتعرّف بسهولةٍ على الأشخاص في حال تمّ وضع شريط الكاسيت خطأً مع غيره. عندها، الباحث الميداني يسأل أسئلته من الفقرات 1 إلى 4 (Shuy, Wolfram, and Riley 1968: 41).

كان على الباحث الميداني، بحسب التعليمات عن الفقرات 1 إلى 4، أن يسأل أسئلةً كالتالية: "ما هي الألعاب الّتي تلعبونها هنا؟"، "ما هو برنامجك التليفزيوني المفضّل؟"، "هل لديك حيوانٌ أليف؟ أخبرني عنه".

بالرغم من كون هذه التقنيّات فعّالة للحصول على كميّةٍ كبيرة

من البيانات الّتي سمحت بمقارنة الأشكال اللغوية بعضها مع بعض وتحليل الإحصائيات، اقتصرت أهدافها على استخلاص أنواعٍ مختلفة من الكلام بدلاً من توضيح العلاقة بين كلّ نوعٍ وواقع استعماله. بالإضافة إلى ذلك، لأن معظم الأسئلة قد وُضعت مُسبقاً للباحثين فقد سمح على أجوبةٍ متشابهة بين مقابلةٍ وأخرى، ولكن منع ذلك التوسّع ببعض المواضيع الّتي تهمّ المخبرين والّتي قد تساعد الباحث على إيجاد أسئلةٍ جديدة. انظر أيضاً (Wolfson 1976).

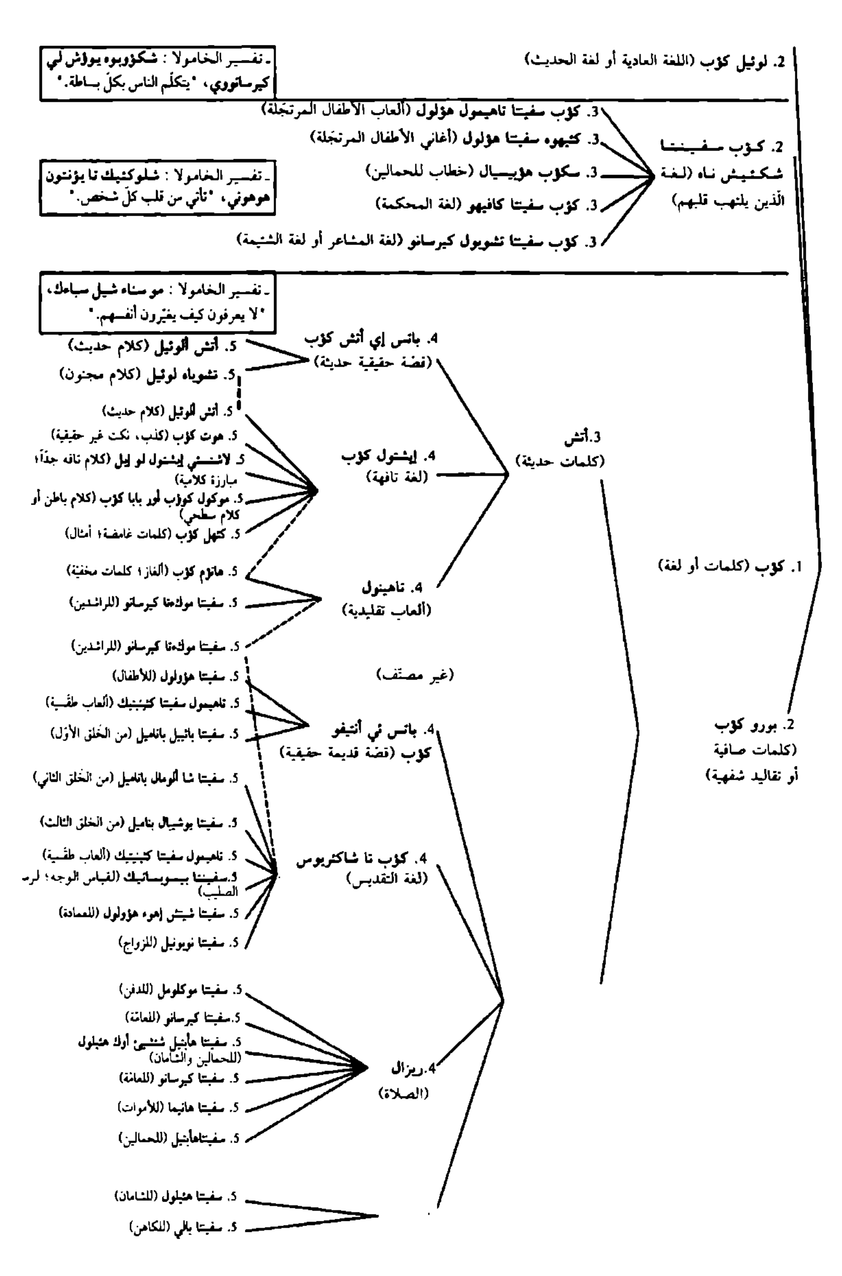
تختلف مقابلات الأنثروبولوجيين الألسنيّين عادةً عن المقابلات الّتي تعتمد على استطلاعات متّحدة لكونها أقلّ تنظيماً، ولكنّها قد تركّز مثلها على موضوعٍ معيّن، بما في ذلك الأشكال اللغويّة. الفرق الأساسي بين أساليبِ الألسنيّة الاجتماعية وأساليب الألسنيّة الأنثروبولوجية يكمن في عدم استعمال معظم الأنثروبولوجيين الألسنيّين المقابلات كتقنية أساسية لجمع العيّنات الكلامية بل كفرصة للحصول على تفسير المحليين للكلام الّذي قد تمّ الحصول عليه في سياق وقائع أخرى، والذي معظمه عفوي. قد يسأل الأنثروبولوجيون الألسنيّون المتكلّمين المحليين أحياناً أن ينتجوا أشكالاً لغوية معيّنة وأن يقوموا حتّى بأداء طويل قد يؤدّي إلى سرد قصص، وأساطير، وصيغ سحرية، وخطاباتٍ، وعباراتٍ مهذبة، وعددٍ من الأشكال النحويّة، ولكنّهم يستعملون هذه المعلومات عادةً لأفكارٍ إضافية أو لتوضيح المعلومات الّتي يحصلون عليها خارج المقابلات.

يركّز التفاعل المبني على الأسئلة والأجوبة بين الباحث الميداني والمتكلّم المحلّي على كتابة ما يسجّل صوتيّاً (انظر الفقرة 7.5.). ويقضي نوع آخر من المقابلات بالتركيز على جمع وتصنيف أنواع الكلام. تعود فائدة هذه التصنيفات إلى كونها تسمح للباحثين بفهم الظواهر اللغوية المتعدّدة ـ أو **الذخيرة** (Gumperz 1972) ـ الممكنة أو

المتوفّرة في الجالية (انظر الفقرة 4.3.). تساعد معرفة هذه الظواهر الباحثين على تحديد مدى تمثيل نوعٍ كلامي ما للجالية، وعلاقته بأنواع أخرى، وكيف يراه الّذين يستعملونه وجمهورهم. تشكّل تصنيفات غاري غوسين (Gary Gossen) (1974) الّتي جمعها في دراسته لتقاليد خامولا الشفهية (انظر القائمة 1.4.) أحد أكبر تصنيفات أنواع الكلام في تاريخ هذه الأبحاث وأكثرها تعقيداً.

يعطي غوسين وصفاً غنيّاً بالمعلومات عن الأساليب الّتي استخدمها لجمع وتشكيل تصنيفاته؛ وتعلمنا قراءة ذلك ليس فقط بكيفية جمعه للبيانات، ولكن أيضاً بالفكر الّذي أدّى إلى الخيارات الّتي اتّبعها لانتقاء مخبريه ومتابعة مواضيع معيّنة وجدها في أجوبتهم:

> تمّ استخراج تصنيفٍ كامل للنوع الأدبي الشعبي للخامولا... على عدّة مراحل خلال فترة سنة، بواسطة 6 رجال من عمر 18 إلى 60. وهم الّذين زوّدوني بمعظم النصوص الشعبية في ملحق هذا الكتاب. ينتمي 5 من المخبرين إلى قرىً مجاورة، ويسكن السادس قريباً من مركز الاحتفالات. قد اخترتهم من مكان محدود لكي أتمكّن من التأكّد من بياناتهم الخطّية الخاصّة بالمكان. استخدمت إطار الأسئلة الرسميّة والمحادثات غير الرسميّة لاستخراج التصنيفات. ويتكامل هذان الأسلوبان، لأن المقابلات ذات وجهٍ رسمي (وفيها أسأل مثلاً: "ما عدد أنواع.... بحسب ما تعتقد؟") أوردت تصنيفاً وأسماء أنواعٍ أدبيّة أمكنني استعمالها بشكلٍ غير رسمي للتعريف بأنواع نصوصٍ قد تمّ تسجيلها ونسخها، والكلام عنها. وقد سألت السؤال النموذجي التالي مراراً: "هل هذا...؟"



الرسم 1.4. تصنيف التصرّف الشفهي لشعب خامولا (Gossen 1974)

وقد أفادني التصنيف، لأنّه زوّدني بأسماء واضحة للأنواع المحليّة تسمح بترتيب النصوص، وساعدني على الحصول الأكيد على دراسة كاملة لأنواع التصرّفات الكلامية الّتي يعترف بها الخامولا... وقد اعتمد تصميم العمل الميداني كثيراً على المعلومات الأوّلية الموجودة في التصنيف. (Gossen 1974: 53)

يذكر غوسين أيضاً ما "قد تمّ التوافق عليه عموماً" في التصنيف وما "اختلف بين مخبرٍ وآخَر" (54 :1974). تهمّ معرفة ذلك ليس فقط لأنها تساعد الباحثين الآخرين على تقييم المعلومات الموجودة في جدول القائمة، بل لأنّها تساعد القارئ منهجيّاً على عدم التشديد الزائد على الواقع البسيكولوجي والظاهري للتصنيف. يعني ذلك أنّ تصنيفاً كالّذي نراه في الرسم 1.4. ليس سوى **واحد** من عدّة أساليب ممكنة لتنظيم المعلومات الآتية من عدّة متكلّمين محَليين. علينا أن نتذكّر أيضاً أنّ تصنيفاً كهذا لا يفيدنا كثيراً إذا لم يُلحق بوثائق عن الأداء في الأنواع الكلامية المختلفة. وجدتُ في عملي على خطاب الساموِيين مثلاً أنّ الخطباء يختلفون بعضهم عن بعض في بعض ما يقولونه عن أجزاء من كلام الطقوس التقليديّة. ولكن يمكن تفسير بعض هذه الاختلافات لأن الخطابات تتأثّر بتغيّر وحدود الواقع الحي. فشلت إعادة تكوين هذه الأنواع في واقعٍ مختلف (فقط لكي يسجّلها الباحث على مسجّلته مثلاً) في إنتاجِ التغيّرات الضروريّة للتناسق مع جمهورٍ مثقّف، لحوح، ومتفاعل (Duranti 1994a). اكتشف تيدلوك، بشكلٍ مماثل، أنّ الرواية الّتي تُسرد بغاية تسجيلها قد تكون أقلّ صراحةً من الّتي تُسرد لأعضاء العائلة وأمام الباحث الميداني دون مسجّلته.

تعلّمنا هذه الوقائع أنّه على الباحثين أن يتصدّوا لإمكانيّة **تغيير الأداء** في كلّ أنواع الكلام، مستخدمين لذلك **الاختلافات في أنواع المشاركة**، بما في ذلك التغيير بين المشاركة السلبية حيناً والكاملة أحياناً، وبين وجود وغياب المسجّلة الإلكترونية. تشكّل الأسئلة أحد أعمال الباحثين العاديّة، كما يذكّرنا بذلك مايرز (انظر أعلاه)، ولكنّ أفضل استراتيجية يمكننا اتّباعها لتحصيل المعرفة تقضي بكلّ بساطة باستماعنا إلى ما يجري من حولنا. يعني ذلك بالطبع أنّه على الباحث الميداني أن يكون قادراً على فهم ما يقوله الناس[5].

5.4. تمييز واستعمال اللغة أو اللغات المحليّة

من المهمّ، عندما نعزل لغةً ما لاستعمالها في دراسةٍ إثنوغرافيّة، أن لا نخلق "فراغاً" في ما يسميه غامبرز "**مصفوفة التواصل**"، أي مجموعة من أدوار التواصل داخل مجتمع ما (Gumperz 1968: 464). يعني ذلك أنّه لا يجب أن نستثني اللغة الإنجليزية من دراستنا لجاليةٍ في مدينةٍ هنديّة، كما لا يمكننا منهجيّاً أن نستثني اللغة الإسبانيّة من دراستنا لانجليزيّة الهسبانيين في كاليفورنيا الجنوبية أو تكساس. تبقى صلة مجموعة قوانين معيّنة بلحظة حصول حدثٍ ما مسألة تجريبيّة بالطبع، ويتوجّب تحديدها بواسطة التحقيق. ولكن يبقى أسلوب جمع البيانات خياراً نظريّاً. من المهمّ، لهذا السبب، أن لا يقتصر عملنا على مقابلات حول أنواع وأساليب الكلام مع المتكلّمين المحليّين، بل علينا أيضاً أن نفهم بشكلٍ مباشر الأحداث المختلفة الّتي يشترك فيها أعضاء الجالية (انظر الفقرة 2.9).

---

(5) انظر (Mead 1939) و(Lowie 1940)، للنقاش المتعلّق باستعمال اللغات المحليّة كأدواتٍ إثنوغرافيّة. انظر (Owusu) والفقرة 5.4 عن استخدام المترجمين في العمل الميداني والمشاكل الآتية من قلّة معرفة لغات الناس الّذين يودّون دراستهم.

إن من الواضح على الباحثين الميدانيين أن يفعلوا كلّ ما بوسعهم لكي يتعرّفوا على اللغة أو اللغات الّتي يستعملها الناس الّذين يدرسونهم. فسيساعدهم ذلك على القيام بمقابلاتهم دون اللجوء إلى مترجِم، وبالأخصّ على فهم ما يحصل أمامهم. فكما يقول ويذرسبون بشكلٍ بليغ:

> تعود قيمة تعلّم لغة شعبٍ آخر لا إلى كونها تساعد الباحث على التحاور مع المخبرين دون اللجوء إلى مترجِمين، ولا إلى قدرة الباحث عندها على تزويد نصوصه الإثنوغرافية بكلماتٍ محليّة، بل إلى أنه يستطيع فهم ما يقوله المحليّون عندما يتكلّمون مع بعضهم.

(Witherspoon 1977: 7)

مهما تبدو مساعي الإثنوغرافيين لتكلّم اللغة المحليّة صعبة، فهي ترمز على اي حال إلى التزامهم بعملهم، وتشير إلى احترامهم وتقديرهم للناس الّذين يدرسونهم. قد يقاوم الناس استخدام الباحثين الميدانيين للغتهم، إذا ما كان لديهم، لأسباب اجتماعية ـ تاريخية، احترام غير جيّد للغتهم أو للكنتهم. يصبح استخدام اللغة أو اللكنة المعيّنة عندها، وفي ظروفٍ مماثلة، تعبيراً سياسياً قد يكون له تأثير على المدى الطويل على العلاقات الشخصيّة والعامّة بين الناس.

مع الأسف، كان للباحثين الّذين قاموا بأوّل الدراسات الأنثروبولوجيّة معرفةً محدودة جدّاً للّغات المحليّة. فقال ماكسويل أوفوسو (32 :1978)، معلّقاً على العمل الّذي تمّ القيام به عن القارّة الإفريقية من وجهة نظر الباحث ومن وجهة نظر "الساكن المحلّي":

> . . . يمكننا أن نتساءل عن عدد الأميركيين من أصل أوروبي الّذين يعرفون لغتنا أكثر من معرفتهم

للترجمات الحرفيّة الموجودة في القواميس، والّتي حتماً لا تعطي إلاّ صورة مشوّهة عن الكلمات والمصطلحات الأصليّة وتخلط بين المعاني والتعابير المحليّة؟ فإنّي لم ألتق أيّ واحدٍ، وتحديداً من بين "الخبراء" والإثنوغرافيين المبجّلين. وما يزعجني أكثر أيضاً في مواقفهم عامة أنهم يواصلون إنتاج دراساتٍ "موثوقة" ومقالات عن الثقافة الأفريقيّة دون أن يحذروا تأثير نقص لغتهم المُخزي في نوعيّة البيانات. ولا يهمّ الناشرون عادةً التأكّد من صحّة كتابة الكلمات المحليّة.

علينا، إذا ما كنّا واقعيين، أن نسلّم بصعوبة الكلام باللغة المحليّة قبل وصول الباحث إلى الجالية الّتي يودّ دراستها. يعني ذلك أنّ الإثنوغرافي (الّذي يعمل خارج جاليته)، وفي معظم الأحيان، يعرف شيئاً قليلاً عن اللغة **الشيء** (قد يكون لدى الأنثروبولوجي الألسنيّ على الأقلّ معلوماتٍ عن الميّزات النوعيّة والهيكليّة للغة - أو لغات - المنطقة) ولكنّه لا يتقنها بشكلٍ طلق (وقد لا يتكلم حتّى القليل منها). وفي الحالات العاديّة يجب علينا أن نعتمد في البداية، وفي حال وجودهم، على المتكلّمين المجيدين لغتين، والذين يستطيعون أن يتكلّموا لغتنا أو لغةً أخرى قد نتقنها. أعتمد جين وكينيث هيل (Jane and Kenneth Hill) مثلاً، في دراستهما للتوافق اللغوي (وقد استبدلوه بتعبير "خلط اللغات" لكون الأخير سلبيّاً)[6]

(6) تُناسب كلمة "التوفيق" [في الكلام عن المكسيكيين الأصليين] أكثر من كلمة "الخلط"، لأنّ للمالينش وجهة نظر سلبية للخلط اللغوي، ولأنّ كون كلمة "التوفيق" تقنيّة نوعاً ما يوحي بعمل وإبداع متكلّمي المكسيكيةً في المالينش (Hill and Hill 1986: 1).

عند المكسيكيين الأصليين في المكسيك الوسطى، على شاب بعمر الـ 16 يتقن الكتابة والقراءة ويتكلّم المكسيكيةّ، في كلّ بيانات مقابلاتهم المعتمدة على نماذج استطلاعيّة (انظر أيضاً الفقرة 2.4.4.). واهتمّ نفس الشاب بأوّل نسخٍ للمقابلات. يتحدّث هيل وهيل (1986: 67-89) بشكلٍ مطوَّل عن سِياق المقابلات وعن الدور الّذي لعبه المقابِل، متكلّمين عن إيجابيات وسلبيات هذه المنهجية.

إذا كانت البِدجينيّة شائعة في المنطقة كما هو الحال مثلاً في إفريقيا الشرقيّة أو في بابوا غينيا الجديدة وفي أماكن أخرى في ميلانيزيا، يمكن للباحثين أن يبدؤوا عملهم باستعمال البِدجينيّة، لينتقلوا تدريجيّاً نحو استعمال اللغة المحليّة. تشير تجربة عددٍ من الباحثين الّذين تكلّمتُ معهم عبر السنين إلى أن هذه الاستراتيجية في الأبحاث فعّالة في الأسابيع والأشهر الأولى، ولكن يجب أن تكمّل فقط غيرها من الأعمال التفسيرية الميدانيّة. على الباحث أن ينتقل بسرعةٍ إلى التفاعل بقدر الإمكان مع المتكلّمين الأحاديي اللغة (في حال تمثيلهم معظم الشعب) أو في اللغة الأكثر شعبيّةً، وهي عادةً اللغة الّتي يُتوقّع من الأطفال أن يتكلّموا بها وقد تتعقّد الأمور في حال وجود أكثر من لغةٍ محليّة أصليّة أو في حال تعلّم الأطفال لغةً تختلف عن تلك الّتي تعلّمها أهلهم في طفولتهم (انظر Kulick 1992) علينا أيضاً أن نحذر من الاعتماد الزائد على التكلّمين المجيدين لغتَين. هناك عادةً، باستثناء الجاليات حيث يتقن الجميع تقريباً لغتين، أسباب مهمّة تدفع أفراداً معيَّنين لمعرفة لغةٍ ثانية؛ فهم في معظم الأحيان أشخاص قد عاشوا وعملوا خارج جاليتهم لمدّةٍ ما، أو لديهم أقارب في مناطق أخرى من البلاد. يعني ذلك أنّه باستطاعتهم أن يأخذوا وجهة نظر الباحث، أن يتفهمّوا احتياجاته، ولكنّهم قد لا يمثّلون بالتالي نموذجاً عن الجالية. يشكّل ذلك أحد التناقضات الّتي

على الباحثين أن يواجهوها: من يفهمنا أفضل من غيره ومن نفهمه بسهولةٍ هو من يشبهنا (Duranti 1996). من الصعب، خلال العمل الميداني، أن نستفيد من المعلومات الدقيقة الّتي قد يعطينا إيّاها شخصٌ كهذا دون أن نهمل التواصل مع غيره من أعضاء الجالية.

سنرى في الفقرة التالية كيف يحاول الأنثروبولوجيّون أن يتخطّوا بعض هذه الصعوبات باعتمادهم على التسجيلات المباشرة للتبادلات العفويّة ليس فقط بينهم وبين الناس الّذين يدرسونهم، بل أيضاً، وبالأخصّ، بين هؤلاء الناس أنفسهم. يسمح التسجيل الإلكتروني والاستماع إليه للباحث بأن يستعين ببعض أعضاء الجالية المحليّة لنسخ التبادلات اللغويّة بسرعتها العاديّة وترجمتها، ويساعد الباحثَ أيضاً كثيراً على تمرين أذنه على فهم طرق الكلام المحليّة بشكلٍ دقيق.

6.4. تمييز واستعمال اللغة أو التفاعل بالكتابة

> لا يصبح العمل المهمّ موضوع دراسةٍ علميّة إلاّ بالقيام بنوعٍ من التشييء يشبه ترسيخ الحديث بكتابته.
> (Ricoeur 1981: 203)

لا يوجد هناك عملٌ إثنوغرافي من دون كتابة، ولو أنّ الكتابة لا تشكّل كلّ ما يفعله الإثنوغرافي (Geertz 1973). وذلك صحيح قبل أن يصل الباحثون الميدانيّون إلى مكان أبحاثهم (إذ عليهم أوّلاً أن يقنعوا المستشارين والزملاء والوكالات المموّلة والمسؤولين المحليّين بجدوى القيام بأبحاثهم)، وحتّى إنهائهم وتسليمهم للنسخة الأخيرة المكتوبة لنتائج أعمالهم. يهمّنا هنا أن ننظر إلى المراحل الموجودة بين هاتين اللحظتين.

يتميّز الأنثروبولوجيّون الألسنيّون باعتمادهم على المسجّلات،

بالأخصّ المسجّلات الصوتيّة وكاميرات الفيديو (الّتي يمكنها أيضاً أن تقرأ الكاسيتات الصوتيّة) ـ وهي تكنولوجياتٌ تسمح بسهولةٍ بتسجيل وتحليل التبادلات العفويّة. يزيد أسلوب البحث الحديث ـ دون أن يسعى إلى استبدالها بالكامل ـ إلى كتابة الملاحظات، آلات تسجيلِ معظمها إلكتروني. سنقدّم إلى القارئ في هذه الفقرة بعض هذه الآلات وكيف يتمّ تحويل المعلومات فيها لغاياتٍ تحليليّة.

يؤدّي مفهوم " التفاعل بالكتابة" إلى مشاكل عدّة منذ البداية. فنحن نعلم، ومهما كانت مقدرتنا الكتابية، أنّه إذا كنّا نريد أن نحصل على وثائق دقيقة عن تبادلاتٍ ما، لا تكفي الكتابة، وذلك لكونها لا تسمح بوصفٍ غني لتجربتنا **في** حدثٍ ما أو **كشهودٍ** لهذا الحدث. من الواضح مثلاً أنّ التسجيل المرئي أو الفيلم مع صوتٍ وصورة يحتوي على معلوماتٍ أكثر من الوثائق المكتوبة. ولكن لا يمكننا (1) الحصول على تسجيلاتٍ مرئية وصوتيّة لكلّ شيء لعدّة أسبابٍ تشمل اعتباراتٍ أدبيّة وماليّة وعمليّة وحتّى نظريّة، و(2) حتّى لو كان بإمكاننا الحصول على تسجيلاتٍ مرئية وصوتيّة شبه كاملة، لا تستطيع هذه التسجيلات أن تحلّ محل "وجودنا الميداني"، و(3) قد تكشف الوثائق المكتوبة في بعض الحالات، كما سنرى فيما بعد، أشياء لا تكشفها التسجيلات المرئيّة[7].

علينا، لكي نتعامل جيّداً مع إشكاليّات استخدام الكتابة لوصف التبادلات عامّةً والتبادلات الشفويّة خاصّةً، أن نسلّم أوّلاً **بأنّ كلّ عملٍ وثائقي يبقى غير كاملٍ ويتبع وجهة نظرٍ وخياراتٍ معيّنة**، يعني

(7) أعرف جيّداً بأنّ التفرقة الثنائيّة بين ما هو "مكتوب" وما هو "مرئي" قد تضيّع البعض، بما أنّ الكتابة تبقى مهما كان عملاً مرئيّاً. ما يميّز هاتَين التقنيتَين هنا هو درجة التحكّم في ما يدوَّن أو يسجَّل، وبالأخصّ اختلاف الرمزيّة الأيقونيّة لكلٍ منهما.

ذلك أنّه لن يمكننا أبداً الحصول على آلة تسجيلٍ "كاملة" تسمح بإعادة حدثٍ مسجَّل. فهكذا آلة ليست سوى تلك الّتي تسمح بالسفر عبر الزمان وبإعادتنا (مع جميع المعنيين) إلى زمان الحدث. بما أنّه يجب ترك كلّ شيء بالضبط كما كان، يتوجّب علينا عندها أن نكون في ذلك المكان دون ذاكرةٍ لكوننا فيه، تشكّل هذه الاستراتيجيّة في البحث حلقةً لامتناهية، تعيدنا دائماً إلى نفس التبادل دون أن نجد تحليلاً له.

ولكن عندما نسلّم بجزئيّة عملنا، نلاحظ أيضاً أنّها قسمٌ لا يتجزّأ من هدفنا، أي من التحليل. يعني ذلك أنّ طبيعة كلّ التوصيفات الانتقائية تعطيها ميّزاتها التحليليّة. إذ يشكّل التحليل **عمليّةً انتقائية تسعى إلى تمثيل ظاهرةٍ ما بهدف إلقاء الضوء على بعضٍ من ميّزاتها.** أي تحليلٍ يسعى إلى إعطاء نسخة مثالية عن ما يدرسه ليس بالحقيقة تحليلاً، بل يعيد إلينا ما يدرسه كما هو .**على التحليل أن يؤدّيَ إلى تحوّلٍ ما**، بهدفٍ ما. ويمكن تطبيق ذلك على استعمالنا لميزان حرارةٍ لقياس حرارة جسمنا، كما يمكن تطبيقه على كتابتنا على ورقة كلمةً نسمعها للمرّة الأولى. نستعمل في كلا الحالتين أداةً (ميزان حرارة، أو قلم وورقة) كوسيطٍ في تفاعلنا مع شيءٍ أو ظاهرةٍ ما (جسمنا، أو تبادلات الناس أمامنا). في كلا الحالتين، نفعل ذلك لأنّنا نتوقّع رؤية ميّزات معيّنة ـ دون غيرها ـ في الظاهرة المعنيّة. ولا نبدأ بإضافة معلوماتٍ إلى المعلومات التي نبحث عنها في العمل الوثائقيّ. ما يجعل ميزان الحرارة أداةً جيّدة هو كونه يتجاهل كلّ شيءٍ سوى الحرارة. وما يجعل الملاحظات المكتوبة أداةً جيّدة هو تركيزها على كلمةٍ واحدة وسؤال شخص عنها لاحقاً أو البحث عن معناها في قاموس. لا يقتصر ما حدث في وقتٍ معيّن على الكلمة بالطبع، ولكن لها أهميّتها؛ فقد تعطينا اتّجاهات جديدة؛ وقد

تساعدنا على تعلّم كلماتٍ أخرى، ومعانيَ أخرى، وتبادلاتٍ أخرى.

تعود أفضلّية هذه الرؤية إلى أنها لا تدفعنا إلى البحث عن أداة التسجيل المثاليّة أو الوصف المثالي. وعلينا ألاّ نضيّع وقتنا وقوّتنا في الشكوى من عجز الآلات لدينا. علينا بالأحرى أن نفهم ميّزات هذه الأدوات. عندما نعرف حدود وميّزات كلّ أداةٍ، نستطيع عندها أن نستعمل التكنولوجيا بشكلٍ يسمح بإنتاج توصيفاتٍ أغنى وتحليلاتٍ أوسع للظواهر الاجتماعية الثقافية المعقّدة. نعرف الآن أنّه عندما نستعمل كما يجب المسجّلات الصوتيّة وكاميرات الفيديو والحاسوب، **تستطيع** هذه الآلات أن تساعدنا، للحصول مثلاً على تحليلاتٍ أكثر دقّةً للتبادلات بين الناس. فتناسب المسجّلة الصوتيّة مثلاً أكثر من ذاكرتنا لحفظ المحادثات بكاملها، مهما اعتقدنا بأنّنا قادرون على الاستماع والتذكّر. قد تساعدنا صورةٌ على رؤية تفاصيل مشهدٍ ما قد فاتنا عندما نظرنا إليه بعينٍ مجرّدة. وقد تساعدنا أيضاً على إنعاش ذاكرتنا بخصوص الأشخاص الموجودين ومكان وجودهم. يمكننا أن نقول نفس الشيء عن الأفلام والتسجيلات المرئيّة، الّتي لها ـ كما للمسجّلات الصوتيّة ـ بعد زمنيّ يسمح لها بحفظ المعلومات عند التحرّك. من أعظم ميّزات هذه الأدوات هو أنّها تسمح لنا بأن ننظر مراراً إلى كيفيّة استعمال أعضاء الجالية لما يرونه ويسمعونه، في بنائهم لتبادلاتهم المعبِّرة. فيحتوي تسجيل الفيديو في الحقيقة على معلوماتٍ كثيرة تتجاوز قدراتنا التحليليّة. وبالرغم من أنّ تسجيل الفيديو، ولو كان محدوداً، يشكّل حاليّاً أفضل وثائقنا المسجَّلة إذا ما حاولنا الاهتمام بالتجانس بين الكلام وحركات الجسم، وبالتواصل المرئي بشكلٍ خاص، لا نزال نحاول أن نتعلّم كيف يمكننا استخدام هذه الأداة بشكلٍ فعّال. بشكلٍ عام، لا يسمح لنا اختراع أدواتٍ جديدة نستعملها للحفظ وإعادة الاستماع

والتلاعب وإعادة إصدار المعلومات عن تبادلات الناس، بإيجاد حلول جديدة لمسائل قديمة فقط، بل يمكّننا أيضاً من إيجاد أسئلة تحليليّة جديدة (انظر الملحق عن النصائح العمليّة المتعلّقة بتسجيل تبادلات الناس).

1.6.4. كتابة الملاحظات خلال التسجيل

لا يجب تفسير الكلام عن الأدوات الجديدة وبالأخصّ آلات التسجيل كنهاية كتابة الملاحظات الإثنوغرافية التقليديّة. يمكن للملاحظات الإثنوغرافيّة أن تزوّد توصيفاتٍ لا يمكن الحصول عليها على شريط كاسيت صوتي أو حتّى على شريط فيديو. هناك **أوّلاً** بُعدٌ تجريبي وشخصي، يتعلّق "بوجود الشخص في المكان" الّذي يدرسه، ولا يمكن أن نرى أو نسمع ذلك تماماً على شريط، ولو أنّه قد يكشف عن جوانب تتعلّق بكيفيّة تمثيل وفهم وإنجاز وجوده هناك. **ثانياً**، يمكن استخدام الملاحظات الخطيّة لتدوين معلوماتٍ عن المشاركين في تبادل ما، بما في ذلك خلفيّتهم الثقافيّة، ومهنتهم أو مركزهم الاجتماعي، وعمرهم، ومعرفتهم السابقة بعضهم للبعض، وعلاقتهم معنا. يعطي ذلك، وغيره من المعلومات الّتي نحصل عليها بكلّ بساطة عندما نتكلّم مع الناس، عمقاً لمعرفتنا للأحداث والناس لا يمكن رؤيتها على شريط فيديو مسجَّل. لا نعرف أبداً الأسئلة الّتي سنسألها لاحقاً. لهذا السبب، من المهمّ أن نجمع كلّ المعلومات الممكنة عن ما قد يبدو مهمّاً. عدم معرفتنا لكلّ شيء لا تعني أنّه علينا أن لا نعرف شيئاً. ما يهمّنا يثير فضولنا دائماً، ونطوّر بذلك إحساسنا بما نودّ أن نعرف عن الناس والأحداث. من المهمّ في الوقت نفسه أن نتبع حَدَسَنا والاتّجاهات الّتي يعطينا إيّاها الآخَرون .**ثالثاً**، نريد بالطبع أن نكون أكثر من مجرّد "مصوّر فيديو" للتبادلات الّتي نشارك فيها. من المهمّ أن يأخذ الباحث الّذي يدرس

تواصل الناس بعضهم مع بعض أدوار مختلفة (من مشارك سلبي إلى مشارك فعّال مثلاً) وأن يكون هناك درجات مختلفة لوجوده المرئي في المشهد. يسمح لنا الدفتر بأن نكتب ملاحظاتٍ خاطفة، أو كلمة واحدة أحياناً، أو أن نرسم المشهد محدّدين مكان جلوس الناس أو من يتحرّك وفي أيّ اتّجاه. ويسمح لنا كذلك بتدوين ما يحدث خارج عدسة الكاميرا (الناس الّذين يتحرّكون وراء الكاميرا أو يذهبون إلى مكانٍ آخَر). قد تخطر لنا فكرة أو نرى صلةً لم نراها من قبل، فنشعر بضرورة كتابتها فوراً (فقد تعلّمنا جميعاً أن نتعامل بهذا الشكل مع الأفكار الجديدة!)، وأن لا ننتظر وقت وجودنا وحدنا للقيام بذلك. وعند عودتنا إلى المنزل في نهاية اليوم، تساعدنا كثيراً هذه الرسوم المبسَّطة والجمل القصيرة على تركيب قصّتنا. وكثيراً ما تبدأ ذاكرتنا بتصنيف الأشياء (بشكلٍ تحليلي) بعد ساعاتٍ قليلة، فتساعدها الملاحظات المكتوبة على تصحيح أخطائها. من الضروري إذاً أن ينظر الباحثون إلى ملاحظاتهم بأسرع وقتٍ ممكن بعد عمل التسجيل وأن يستعينوا بها لكتابة ملاحظاتهم الميدانيّة. فقد اكتشفتُ بأنّ الملاحظات الميدانيّة تحتوي على معلوماتٍ أساسيّة تساعدني على تأطير ما أسجّله على الشريط[8].

7.4. التسجيل الإلكتروني

إذا ما نظرنا إلى المستقبل، نجد من المرجَّح أنّ
ما سيجعل علم اللغة والتواصل، المرئي والصوتي،

---

(8) من المفيد أن نكتب تاريخ التسجيل وأسماء المشتركين على الشريط. بالنسبة للتسجيلات الصوتيّة، يستطيع الباحث أن يتكلّم بالميكروفون ليعطي معلوماتٍ عن الواقع الّذي يدرسه قبل أن يبدأ بالتسجيل، وبالنسبة لتسجيلات الفيديو يمكن للباحث أن يُبرز التاريخ والساعة إمّا طوال التسجيل أو قبل وبعد كلّ "مقطعٍ" أو توقّف.

ممكناً هو، ليس تحسين أسلوب الكتابة، بل تطوّر أساليب التسجيل والتحليل والتحكّم بالأحداث المرئيّة والصوتيّة إلكترونيّاً.

(Armstrong, Stokoe and Wilcox 1994: 354)

إيجابيّات استعمال الآلات المسجِّلة، كالمسجّلات الصوتيّة وكاميرات الفيديو في عمل الباحث الميداني كثيرة، إذا ما قارنّاها بأساليب المراقبة بالاشتراك التقليديّة الّتي تعتمد على مقدرة الباحث على الاستماع والنظر وبالأخصّ التذكّر إن استعان أم لا بكتابة الملاحظات. من الممكن أن نوقف الحديث أو الصورة، أن نعود إلى الوراء للنظر من جديد، ويسمح ذلك لنا بأن نركّز على تفاصيل صغيرة، منها أصوات وحركات جسديّة بسيطة. كشفت الأبحاث الحديثة عن التسجيلات المرئيّة والصوتيّة أنّ المشاركين يتنبّهون لأصغر تفاصيل التبادلات، منها نوعيّة صوتٍ ما أو اتّجاه نظرةٍ خاطفة. بما أنّ ذلك يحصل عادةً بشكلٍ غير واعٍ، لا يمكننا الاعتماد على المخبرين لدراسته. ولكن عندما يكتشف الباحث "ظاهرةً" ما ويختار دراستها، يمكن لأعضاء الجالية ـ ولغيرهم من "الخبراء"، منهم زملاء الباحث ـ أن يحكموا عليه كما يناسبهم[9]، مؤيدين حيناً أو منتقدين أحياناً فرضيّة الباحث. يمكن بفضل هذه التجربة أن يضيف الآخرون ردّات فعلهم وتقييمهم إلى ما يقوله الباحث. كلّما زاد عدد الّذين يدخلون في العمليّة التفسيريّة وينتقدون نظريّة الباحث، كلّما تحسّنت نوعيّة النظريّة.

---

(9) بالرغم من أنّ إطار كلّ ظاهرةٍ يوجّه المستمعين والناظرين لكي يستمعوا ويروا الأشياء بطريقةٍ معيّنة، هناك دائماً في حكمهم حريّةً لا نجدها عندما يتكلّم الباحث عن ما راقبه بكلّ بساطة.

1.7.4. هل يؤثّر وجود الكاميرا في التبادلات؟

كلّما تكلّمتُ عن التبادل بمساعدة الفيديو، يسألني واحد من الجمهور: "ألم يؤثّر وجود الكاميرا على التبادل؟" تؤدّي صور الفيديو إلى هذه الأسئلة أكثر من الوصف الشفهي مثلاً لما يحصل ميدانيّاً أو من القصص المنقولة عن المخبرين والمسجّلة صوتيّاً. يمكن القول بأنّ وجود المسجّلة الصوتيّة ودفتر الباحث يؤثّر أيضاً في ما يحدث. وإذا ما اعتمدنا هذا التفكير الخاص "بتأثيرنا" في الأحداث، قد نقرّر عندها **أن لا نكون موجودين** نهائيّاً. يمكن تأمين ذلك بطريقتَين: **(1) بعدم** دراسة الناس، أو **(2)** بعدم السماح للمشتركين بمعرفة أنّنا نسجّل تبادلاتهم. الخيار الأوّل مدمّرٌ لنفسه، وآمل بان لا يقبل به أيّ شخصٍ يقرأ هذا الكتاب. فهو يعني أنّه لا يجب أن نحسّن فهمنا لما يعني وجود الإنسان والثقافة (بما في ذلك اللغة)، لأنّنا بكلّ بساطة لا نستطيع أن نجد الوضع المثالي لمراقباتنا الطبيعية الموضوعية. أمّا الخيار الثاني، فهو **أوّلاً** غير أخلاقي، **وثانياً** غير ممكنٍ في الكثير من الحالات خارج المختبرات الّتي تستعمل مرايا ذات اتّجاهَين. يحاول بعض الباحثين أن يتجنّبوا بعض هذه المشاكل بإعطائهم الكاميرا إلى أحد أعضاء الجالية. يسمح ذلك بالحصول على وجهة نظرٍ تختلف عن وجهة نظر الإثنوغرافي[10] ـ فقد يختار العضو تسجيلاته على أساس تصنيفٍ مختلف ـ ولكنّه لا يسمح بحلّ المشاكل الأخلاقيّة، إذ قد يشعر الأعضاء بأنّه يحقّ لهم أن يتطفّلوا على حياة عائلتهم وجيرانهم أكثر من من الخارجين عن الجالية، ممّا قد يؤدّي إلى مأزقٍ أخلاقيٍّ أكبر.

---

(10) كان ذلك موضوع اهتمام سول وورث (Sol Worth)، عندما أعطى النافاهو كاميرات لكي يصوّروا أفلامهم بأنفسهم (Worth and Adair 1972).

في الحقيقة، يشكّل تأثير الكاميرا مثالاً كغيره عن ما يُسمّى عادةً **تناقض المراقب ـ المشارك**: لكي نجمع المعلومات، علينا أن نراقب التبادلات، ولكن لكي نراقب التبادلات (بطريقةٍ أخلاقيّة مقبولة)، علينا أن نوجد في المشهد؛ ولذلك، فكلّما راقبنا شيئاً نؤثّر فيه لأنّ الآخرين ينظرون إلينا ويتصرّفون آخذين وجودنا بعين الاعتبار. إذا ما فكّرنا للحظةٍ بهذه العقدة المنطقيّة، نكتشف بأنّها لا تخصّ الأبحاث فقط. فهي قسمٌ من كياننا الاجتماعي ومن عضويّتنا في المجتمع وإنتاجنا واستهلاكنا للتفسيرات الثقافيّة. كلّ فاعلٍ اجتماعي، كلّ مشاركٍ في أيّ حالةٍ وفي أيّ دور، ينتمي إلى الحالة وبالتالي يؤثّر فيها (انظر الفقرة 2.1.4.). هل من حلٍّ لهذا التناقض؟ فالحياة نفسها سعيٌ إلى حلّ تناقض المراقب ـ المشارك. ليس ما يُسمَّى بالمراقبة المحايدة، حيث يعزل المراقب تماماً عن ما يراقبه، إلاّ بالخيال، خيال يُبنى ثقافيّاً. لا يعني ذلك أنّه علينا تجاهل هذا التناقض، ولكن علينا أن نتعامل معه مدركين تماماً أنّه لا بدّ منه. يعني التعامل معه في علوم الاجتماع أن **نفهم كيف يلعب وجود فاعلين اجتماعيين معيَّنين (الإثنوغرافيين مثلاً) أو أدواتٍ (كالكاميرا والمسجّلة الصوتيّة والدفاتر ونماذج الاستطلاع) دوراً في النشاط الّذي ندرسه، والتغيّرات المختلفة الّتي ينتجها استخدام كلّ أداةٍ وتكنولوجيا.** من الواضح مثلاً أنّ وجودنا كمراقبين قد يكون أكثر أو أقلّ تطفّلاً بين حالةٍ وأخرى. هناك اختلافٌ واضح بين الدخول مع كاميرانا إلى غرفةٍ حيث يوجد شخصان يتحدّثان، والدخول معها إلى حدثٍ عام يوجد فيه عشرات الناس. في الوقت نفسه، هناك علاقةٌ قويّة بين طريقة تعريفنا بأنفسنا وبما نفعل وبما يهمّ مستضيفونا، وتأثير وجودنا ووجود الكاميرا على الّذين نراقبهم. يطرح استعمال تسجيلات الفيديو (والأفلام) بعض نفس الأسئلة الّتي تطرحها تقنيّاتٌ وثائقيّة أخرى كالمقابلات مثلاً (انظر الفقرة 1.4.4. أعلاه). علينا أن نبتكر أساليب لتقييم التغيّرات في

ما يحصل من حولنا عندما نُدخل ونستعمل الكاميرا أو أيّ نوعٍ من أدوات التسجيل. في الوقت نفسه، علينا ألاّ ننسى أنّ الناس، باستثناء **التصرّفات تجاه الكاميرا** ربّما (كالتعرّف على الكاميرا أو توجيه التحيّات لها، بالنظر إليها والابتسام مثلاً)، لا **يبتكرون** التصرّفات الاجتماعيّة عادةً، بما فيها اللغة، فجأةً ومن دون تفكير. تنتمي أعمالهم بالأحرى إلى مجموعةٍ متوفّرة لهم بشكلٍ مستقلٍّ عن وجود الكاميرا المسجِّلة. يمكننا حتّى القول إنّ وجود الكاميرا قد يُستعمَل كعذرٍ للقيام بأنواع معيّنة من الأفعال الاجتماعيّة الّتي قد يقوم بها الناس في كلّ الأحوال، كالإشارة إلى الكاميرا بالإصبع لكي يتصرّف الفرد بشكلٍ مهذّب أو كريم. أعتقد أنّ الناس منهمكون بحياتهم في معظم الأحيان وليس لديهم الوقت لتغييرها بسبب وجود آلةٍ صغيرة جديدة أو شخصٍ جديد. وقد بيّن لنا الكثير من الباحثين أنّ المشاركين في التبادلات، وبالرغم من وجود عدسةٍ موجّهة نحوهم، يتابعون تجادلهم، أو تجتاحهم عواطفهم، أو يكشفون عن نواحٍ من حياتهم الخاصّة، أو يقيّمون مطوّلاً حياة الآخرين الخاصّة (ومنها حياة الباحث الميداني!).

يعني فهم تأثير الكاميرا على وضعٍ ما فهم نوع المعلومات الّتي تمثّلها. يحتوي الشريط على نسخةٍ غير كاملة لما حدث عند التسجيل. ولكنّه يستطيع أن يحفظ التبادلات الاجتماعيّة بشكلٍ فريد. وتستطيع الكاميرات، كما قلته أعلاه (الفقرة 6.4.)، أن تحفظ نسخةً عن تبادلٍ ما، محافظة في الوقت نفسه على ميّزات الوقت الّذي حصل فيه وعلى الحركات الجسديّة[11]. يمكن لمختلفِ الناس أن

(11) هناك الكثير من ميّزات الواقع الّتي لا يمكن حتّى للكاميرا أن تحفظها، كالرائحة مثلاً، وقد قلّلت من تقديرها دراساتُ تصرّفات البشر، بالرغم من تأثيرها الواضح على تنشيط الذاكرة مثلاً.

ينظروا إلى هذا التسجيل، ويمكن تحليله بطريقةٍ تختلف عن ما تسمح به رواية من يراقب نفس الحدَث. علينا، كما هي الحال في ما يخصّ غيرها من آلات التسجيل، أن لا نرفض كليّاً استعمال الكاميرا قائلين بأنّها قد تؤثّر في الناس، وأن لا نعتمد عليها كأفضل تكنولوجيا لإنتاج ذروةِ التقارير الموضوعيّة، بل أن نعمل على فهم ما يمكن للكاميرا أن توفّر لنا للوصول إلى أهدافنا النظريّة والمنهجيّة.

8.4. أهداف العمل الميداني وأخلاقيّته

ماذا أتينا لنفعل هنا؟ آملين ماذا؟ بأيّ هدف؟

(Lévi-Strauss, *Tristes Tropiques*)

نجد في **النشرة الإخباريّة الأنثروبولوجيّة** الّتي تنشرها الجمعيّة الأنثروبولوجيّة الأميركيّة الكثير من المعضلات الأخلاقيّة. يركّز الكثير ممّا يُكتَب في علوم الأنثروبولوجيا وخارجها على المسائل الأخلاقيّة والسياسيّة الكامنة في دراسة الناس. تناول الأنثروبولوجيّان الألسنيّان، بينيلوبي هارفي (Penelope Harvey) (1992) ونيكو بيسنييه (Niko Besnier) (1994)، مؤخّراً مشاكل أخلاقيّة تتعلّق باستعمال الشريط المسجِّل. تحدّثت هارفي بصراحةٍ وبطريقةٍ مثيرة للاهتمام عن موضوع حسّاس، فقد جازفت وأخذت موقفاً غير شعبي بدفاعها عن استعمال شريط التسجيل السرّي وإن سلّمت بتأثيره الأخلاقي. فقالت إنّها ما كانت لتفهم بعض أهمّ أوجه العلاقة بين اللغة والسلطة في جالية بيرو الأنديز الّتي درستها لو لم تسجّل صوتيّاً كلام السكارى. واعتبرت أنّ المشكلة الأخلاقيّة لدينا في ما يخصّ معرفة مخبرينا لأهدافنا تعود إلى طبيعة التمثيل والتأليف في علم الأنثروبولوجيا. لا نستطيع "أن نُطلع الآخرين كليّاً على نوعيّة البيانات الّتي يتم جمعها، لأنّ المذكّرات والانطباعات والملاحظات المجموعة لا تصبح "بياناتٍ" مسجّلة إلاّ عند مرحلة الكتابة" (Harvey 1992: 82).

كتب بسنييه (Besnier 1994) عن النتائج غير المتوقّعة عندما نسمح لأعضاء الجالية بالاستماع إلى التبادلات المسجَّلة في غيابهم، عندما نسأل أحدهم مثلاً بمساعدتنا على نقل التسجيل على ورقة. ويقول مثل هارفي إنّ أخلاقيّات العمل الميداني أكثر تعقيداً من المبدأ الّذي يقضي بإعلام المشاركين بأنّنا نسجّل ما يفعلونه أو بعدم السماح لأحدهم بالاستماع إلى ما قاله غيره من أعضاء الجالية في غيابه. يوسّع بيسنييه نطاق بعض ما قالته هارفي ومن ثمّ يحوّل الحديث عن المشكلة الأخلاقيّة الّتي واجهها إلى فرصةٍ لانتقاد الاعتبارات المتعلّقة بالمراقبة ـ المشارِكة الخالية من استعمال المسجّلات المرئيّة والصوتيّة:

> أودّ أن أذهب بفكرة هارفي أبعد منها، لأقترح أنّ المناهج الأنثروبولوجيّة الّتي ترتكز تحليلاتها الإثنوغرافيّة على **إعادة خلق الانطباعات** الّتي وجدت خلال حادثة سَكَرٍ أو لحظة ثرثرة تستخدم النفوذ العلمي بشكلٍ مفرطٍ ومؤذٍ أكثر من المناهج الّتي ترتكز على تحليل الوثائق الخاصّة بما قيل، دون أن ننسى بالطبع النفوذ الإثنوغرافي الّذي تتضمّنه عمليّة النقل الخطي (انظر Tedlock 1983).

(Besnier 1994: 27)

قد جعل النقد العلمي ما بعد البنيويّة والحداثة لدور الباحث عند زيارته للخارج والادّعاء بنفوذه هذه المناقشات أكثر عدداً في السنوات القليلة الماضية، ولكنّ الأنثروبولوجيّين ما فتئوا يفكّرون بهذه المسائل منذ وقتٍ طويل، كما نراه في الاقتباس أعلاه عن سيرة ليفي ـ ستراوس الذاتيّة بعنوان **المدار الحزين**. تعبّر أسئلتُه، "ماذا أتينا لنفعل هنا؟ آملين ماذا؟ بأيّ هدف؟" بشكلٍ مختصَر ومفيد عن أحد

أهمّ مسائل العمل الإثنوغرافي. ما وراء سعي الإثنوغرافي لمعرفة الآخَر؟ هل من حوافز مخفيّة، غير مكتوبة، حيناً داخل وأحياناً خارج الحوافز الّتي يدركها الباحث لعمله الميداني؟ ما الّذي نبحث عنه؟ ماذا نريد أن نجد؟ من بعثنا؟

من الواضح أنّ الأسفار الّتي يُقام بها لاكتشاف أشياء جديدة باسم العلم هي في معظم الأحيان أسفارٌ احتلاليّة (Reill and Miller 1996). لهذا السبب يمكن اعتبار عهد البساطة الأنثروبولوجيّة من الماضي. علينا تحديد ما يأتي مكانه من خلال سعينا النظري والتجريبي لحلّ النزاعات الّتي ترافق كلّ بحثٍ عن كياناتٍ وأنواع جديدة من الأفعال والكلام. هناك الكثير من الحلول، ولا يشكّل أيٌّ منها الحلّ النهائي. اقترح الأنثروبولوجي الإيطالي إيرنيستو دو مارتينو (Ernesto De Martino)، الّذي درس منذ خمسين سنة ما اعتبره الثقافات المهمّشة في إيطاليا الجنوبيّة، أن نبدأ البحث الأنثروبولوجي "بالتزامنا بالوصل بين سفرنا وتسليمنا بتعلّق شغفنا بمشكلةٍ جدّية في مجتمعنا" (1961: 20). يهدف الباحث إلى تفسير كيف تحوّل هذا الشغف إلى تقريرٍ إثنوغرافي، مدركاً التعقيدات الّتي لمّحت إليها. ولكن لا يمكننا الفرار من مسؤوليتنا كباحثين تجاه الناس الّذين ندرسهم. لا يعني ذلك بأنّه علينا أن نكتب دائماً فقط ما نعتقد بأنّه سيعجبهم، بل أن نكون على علمٍ دائم في كلّ ما نقرّر قوله علناً ونشره بتأثير أبحاثنا الممكن عليهم (تعطي الجمعيّة الأنثروبولوجية الأميركية بعض التوجيهات بالنسبة لأخلاقيّة العمل الميداني، ولكنّها لا تشير إلى كلّ المسائل والوقائع الّتي نجدها في العمل الميداني). علينا أن نطوّر مفهومنا النظري لموقعنا ومواقفنا عند استخدامنا للأساليب الإثنوغرافيّة. يساعدنا مفهوم الإثنوغرافيين كوسطاء ثقافيين كما تحدّثنا عنه أعلاه على فهم الواقع المعقّد للعمل الأنثروبولوجي

الميداني. لا يمكن اعتبار تجاهل المشاكل أو البقاء في المنزل حلولاً قابلة للتطبيق.

9.4. خاتمة

أظهرتُ في هذا الفصل كيف تقتبس الأنثروبولوجيا الألسنيّة من عدّة حقول أبحاثٍ أخرى تتعلّق بالتبادلات والتواصل بين الناس، لتعطينا مزيجاً فريداً من تقنيّات التسجيل وأساليب التحليل، لكي نستطيع فهم ثقافة الإنسان. سأستكشف في الفصل القادم كيف تتحوّل المعلومات المسجَّلة بالطرق الّتي رأيناها في هذا الفصل إلى نصوصٍ وأنواع مختلفة من التمثيل المرئي، لمساعدتنا على تحسين تحليلنا للّغة كممارسةٍ ثقافيّة.

يشكّل التكامل بين مناهج المشارك ـ المراقب التقليدي وتقنيّات التسجيل الجديدة، الّتي تعطينا مدخلاً مختلفاً نحو تجربة الإثنوغرافي، قسماً مهمّاً من الدراسة الأنثروبولوجيّة الألسنيّة الّتي تكلّمنا عنها في هذا الفصل. سأشير في الفصل القادم إلى عددٍ من العلوم والمناهج (في الألسنيّة وعلوم الاجتماع بالتحديد) الّتي تستعمل أدوات تسجيلٍ مماثلة وتُنتج وثائق (نصوص وكتابات) قد تبدو مماثلة نوعاً ما. من المهمّ أن نكون منفتحين في علاقتنا مع هذه العلوم ومطّلعين عليها، لأنّها تساعدنا على فهم كيف تخل اللغة في التفاعلات الاجتماعيّة. بالإضافة إلى ذلك، ليس هناك من حقوق نشرٍ للمناهج المتّبَعَة في علوم الاجتماع. فلدينا حريّة استعمال الأساليب الّتي تساعدنا في تحقيق أهدافنا. يمكن لاختبار تقنيّاتٍ جديدة (كالفيديو والحاسوب الإلكتروني) أن يزيد من معرفتنا وأن يكشف عن ظواهر لم نكن نعرفها أو لم نحلّلها من قبل. في الوقت نفسه، للتقنيّات الجديدة مشاكل أخلاقيّة وسياسيّة جديدة. على علمٍ يهتمّ

بمسألة التمثيل أن يتطوّر ويبقي عيناً يقظة على إيجابيّات وسلبيّات المناهج الوثائقيّة الجديدة، وأن يطوّر في الوقت نفسه فهمه النقدي لإيجابيّات وسلبيّات المناهج السابقة.

الفصل الخامس

النقل: من الكتابة إلى الصور الرقميّة

اهتمّ بواس ومالينوفسكي كلاهما بمعايير البحث الميداني والأساليب التجريبية، واعتقدا أنّ إعطاء المصادر اللغوية لتوصيفاتهم الإثنوغرافية، أي تقارير المخبرين الشفويّة، يشكّل قسماً أساسيّاً من عملهم كأنثروبولوجيين. بما أنّه لم يكن لديهم آلة تستطيع تسجيل ما قاله المخبرون والاستماع إليه تكراراً في ما بعد، كانوا يقومون بنقل أجوبة المخبرين، المتعلّقة بالمعرفة التقليدية وأوجه التنظيم الاجتماعي المختلفة في الجالية، بكتابتها بشكلٍ منهجيٍّ دقيق. لم يكن باستطاعة الإثنوغرافيين الأوائل أن ينقلوا الأحاديث الفعليّة بين المتكلّمين الأصليين أو أيّ نوعٍ من الأداء الشفهي بسرعته العاديّة. اضطروا إذا، للحصول على معلوماتٍ عن استعمال اللغة، أن يعتمدوا على تقنيّتين. قضت الأولى بمحاولتهم تدوين كلمةٍ أو عبارةٍ خلال استماعهم لتبادل كلامي، كاتبين أو متصوّرين ملاحظة عنها، وانتظارهم فرصةً تسمح لهم بسؤال المخبر عنها:

> عندما سمعت عبارة نادرة وجيّدة [عن النبات أو البستنة]، كنتُ أعطي ملاحظةً قصيرة عنها، في عقلي أو بكتابتها، ثم أطلب من مخبري تكرارها، ليس

بالضرورة كما سمعتها أوّلاً، ولكن بشكلٍ يسمح
بتكرار المعلومة الّتي تحتوي عليها وميزتها اللغويّة.
(Malinowski 1935, vol. 2: 5)

تقوم التقنيّة الثانية باستنباط الروايات المتعلّقة بموضوعٍ ما ومن ثمّ نقلها. تعتمد هذه الطريقة على قدرة (وصبر) المتكلّمين المحليين على الكلام بشكلٍ واضح وبتمهّل، وعلى رغبتهم بالتأقلم مع معرفة الإثنوغرافي المحدودة للّغة المحليّة. وشكّل الكلام العادي، إن كان رسميّاً أم غير رسمي. إنها مشكلة حقيقية، كما قاله بواس نفسه في رسالةٍ إلى روث بينيديكت (Ruth Benedict) في سنة 1930 (وكان عمر بواس 72 عاماً):

يقلقني الآن أسلوب الخطابة، لأنّني لا أعرف بعد
كيف أدوّنه .فأنا على اية حال أواجه مشاكل في الأحاديث
اليوميّة العاديّة. أفهم الروايات جيّداً، إذا تكلّموا بوضوح،
ولكنّ الكثير منهم يتبع العادة الهنديّة بابتلاع آخر الكلمات
ـ هامسين ـ مّما يجعل كلامهم صعب الفهم.
(مُقتبَس عن Mead 1959: 43)

إن أختراع المسجّلات الصوتيّة ومن ثمّ المرئية حديثاً أحدث تغيرات في الأشياء كثيراً في العقود القليلة الأخيرة[1] بابتكار أساليب

---

(1) كانت الأفلام بالطبع موجودة قبل تطوير تقنيّة الفيديو الّتي أعطت الكاميرات النقّالة والصغيرة. ولكن، وباستثناء البعض (Connor, Asch, and Asch 1986)، بقي العمل الفلمي مستقلاً وقلّما استعمله الإثنوغرافيّون في تحليلهم. يعود ذلك جزئيّاً إلى ثمن الأفلام المرتفع والخبرة العالية الّتي تستلزمها، بالإضافة إلى عدم وجود الكهرباء عادةً في الميدان لإعادة شحن البطارية، والرطوبة... إلخ. بالإضافة إلى ذلك تعطي الأبحاث العلميّة في الغرب قيمةً أكبر للكتابة منها للصوَر. باستثناء بعض البرامج الدراسية، يشجّع الطلاّب المتقدمين والأساتذة الجامعيين الجدد على نشر مقالاتٍ مطبوعة بدل من أن يكرّسوا وقتهم لإنتاج أفلامٍ أو إيجاد طرقٍ لدمج التقنيّتين.

جديدة في الأبحاث. وقد استعمل الأنثروبولوجيون الألسنيّون هذه التقنيّات بسرعة. فاعتمد معظم الأنثروبولوجيين اللغويين التسجيل الإلكتروني للكلام الطبيعي كممارسة عادية في أساليب أبحاثهم. وقد أستعملت هذه التقنيات الجديدة بمعايير عالية من الدقّة مما أدى إلى الاهتمام بتفاصيل التفاعلات الّتي قد تمّ تجاهلها في الماضي[2]. وقد سعى الأنثروبولوجيون الألسنيّون بحماسٍ إلى إنتاج نُسَخ عن أحاديث محليّة طويلة تسجَّل خلال التفاعلات العفويّة، بدءاً بالاحتفالات وانتهاءً بالمحادثات العادية.

أقدّمُ في هذا الفصل وحدات تحليلٍ للّغة الشفهية والمنطق الّذي يتضمّنه استعمالها. وقد كرّستُ عدّة فقراتٍ لدراسة "الكلمة" كوحدة تحليل، نظراً لأهميّتها في كلٍّ من الألسنيّة والأنثروبولوجيا. وشرعتُ من ثمّ بدراسة وحدات الحديث والصيغ والتقاليد الّتي تمّ استعمالها لنقلها. وتحدّثتُ عن أدوات النقل، غير الكتابة، منها الرسوم والصور الرقميّة. وتحدّثتُ أخيراً عن الترجمة والصيغ المختلفة المستعمَلة لتمثيلها.

1.5. الكتابة

تعود أهميّة الأنظمة الكتابية في تطوّر التحليل اللغوي إلى سببَين على الأقلّ : فقد كانت أساسيّةً في فهمنا لتغيّر الأصوات اللغويّة مع

---

(2) هناك تقاليد مرسّخة في دراساتٍ مختلفة، كالأخلاقيّات الإنسانية والبسيكولوجيا الاجتماعية، تقضي بالقيام بدراساتٍ تجريبية أكثر دقّة للتواصلات المرئية (Argyle 1969, Argyle and Cook 1976; Eibl-Eibesfeldt 1968, 1970, 1974; Ekman 1982; Kendon 1977, 1980, 1990).

كان بيتسون وميد (Bateson and Mead 1942)، في حقل الأنثروبولوجيا الاجتماعية - الثقافية، بين أوّل من شجّع الباحثين الميدانيين على استعمال التصوير والأفلام، ولكن، حتّى اليوم، لا يحلّل معظم الإثنوغرافيين التسجيلات بالصوت والصورة بشكلٍ مفصّل.

الوقت (الألسنيّة التاريخيّة) وفي تقسيم الأصوات المفهومة إلى وحدات تحليلٍ كالجُمل، ومن ثمّ تقسيم الجمل إلى الكلمات وما يشكّلها المورفيم (المقطع) والفونيم (Morphemes and Phonemes) (انظر أدناه والفصل 6). أعطت النصوص المكتوبة للّغويين مدخلاً نحو المراحل اللغويّة الأولى (اللغة المصريّة القديمة، والحثّية، والسنسكريتية، والتركيّة القديمة، ولغة المايا القديمة). عندما قارن اللغويّون هذه الوثائق القديمة باللغات كما وجِدَت - ما يسمّى "باللغات الشقيقة" للّغات القديمة والميتة - في القرنَين 18 و19، تمكّنوا من ابتكار فرضياتٍ تفسّر تغيّر اللغات في الزمان والمكان (Bynon 1977; Lehmann 1973; Keiler 1972). تمّ استعمال النظريات المبنيّة على هذه السجلّات لإعادة بناء المراحل الأولى (ما يسمّيه اللغويّون "باللغات البدائيّة") للّغات المتكلّم بها حاليّاً والّتي لا تملك كتابةً محليّة أصليّة.

ولكن تحتوي الأنظمة الكتابية على عددٍ من الفرضيات عن تركيبة اللغة. تشكّل دراسة مارك أرونوف (Mark Aronoff) (1985)، الّتي يحلّل فيها الخطّ الّذي ابتكره الماسوريت لكتابة العبريّة بين 600 و800 بعد الميلاد، إحدى أفضل الدراسات الّتي تسعى إلى إثبات ذلك. يرينا أرونوف أنّ التقاليد المُعتمَدة لاستعمال الشدّة ترتكز على التحليل النحوي للنصّ بشكلٍ يشبه، في بعضِ النواحي، الأشكال الّتي استعملها النحويّون البنيويّون والتوليديّون.

كانت الكتابة - وبالأخصّ الكتابة الأبجديّة - أساسيّةً لفكرة وممارسة النقل الخطي الّذي ابتكره بواس في البداية لكي "ينقذ" بشكلٍ سريع اللغات والثقافات الأميركية الأصلية الّتي انقرضت تدريجيّاً (انظر الفقرة 1.3.). بما أنّ كتابة ما نسمعه تجبرنا على اتّخاذ قراراتٍ مهمّة تخصّ التركيبات اللغويّة وترتيب نظامٍ لغوي معيّن، لم

يقم بواس ومستشاروه الهنود الأميركيون بتسجيل الماضي فقط، بل قدّموا أيضاً تحليلاً للّغة الّتي نقلوها.

تشكّل الكتابة نظاماً تصنيفيّاً فعّالاً، لأنّها تأخذ بعض الميّزات بعين الاعتبار وتتجاهل أخرى. نستعمل مثلاً، في اللغة الإنجليزية، الحرف "س (S)" للدلالة على الجمع، بالرغم من أنّنا نقوم عند ذلك بمزج صوتَين مختلفَين: فالسين في كلمة Cats لا تُلفظ كالسين في كلمة Dogs (انظر الفقرة 3.6.). "يعرف" متكلّمو اللغة الإنجليزية الأصليّون هذا الاختلاف، ولو أنّهم قد لا يُدركون ذلك، ولكنّ المتكلّمين المثقّفين غير الأصليين يرتبكون أحياناً كثيرة بسبب استعمال نفس الحرف لصوتَين مختلفَين.

تشكّل كتابة لغةٍ لم تُكتب أبداً من قبل أوّل وصفٍ لهذه اللغة. تسمح لنا الكتابة برؤية ما نسمع، أي بتحويل ظاهرة سمعيّة إلى ظاهرة نظريّة، وبالتالي بأن نقوم بتلاعباتٍ مختلفة بالرموز اللغويّة، وبإيجاد أفكار مجرَّدة مختلفة وصِلاتٍ جديدة. ولكنّ الكتابة، كغيرها من أدوات التحليل، لا تلقي الضوء على ميّزات معيّنة فحسب (Goodwin 1994)، بل تخفي ميّزات أخرى أيضاً (Irvine and Gale in press). **أوّلاً**، يتبع التمثيل بالكتابة مهما كان نوعه إن كان أبجديّاً أو مقطعيّاً مثلاً تفسيراً أيديولوجياً حيث نعتقد أننا نعرف ما يعني شيء ما بإقامتنا صلاتٍ بين الكلمات المفردة والمعاني المفردة. نجد هذه النظريّة التفسيريّة في المنطِق الافتراضي المطبَّق على اللغات الطبيعية في الماضي وفي امتداده الحالي. تحتوي هذه النظريّة، كما سنرى في الفصول القادمة، على بعض المشاكل، خاصّةً عندما نتناول الكلام المستعمَل في التفاعلات الحقيقيّة دون أيّ تحكّمٍ بها.

ثانياً، بما أنّ كلّ كتابةٍ تحتوي على جزءٍ من نظريّة الأصوات والوحدات الّتي تسعى إلى تمثيلها، عندما نكتب أصوات لغةٍ لم تُنقل خطيّاً من قبل، نأتي إليها بتاريخ طرق التفكير عن ماهيّة الأصوات اللغويّة واستعمالها. للكتابة صلةٌ أيضاً بتقاليد نحويّة معيّنة. فقد استعمل المبشّرون الأول في إفريقيا وآسيا وشمال وجنوب أميركا وأوقيانوسيا التمييزات الموجودة في كتب قواعد اللاتينية كمبادئ توجّههم في توصيفهم النحوي. يعني ذلك أنّهم قد فرضوا التمييزات الشكلية في حالات الأسماء مثلاً (فاعل، منصوب، مجرور، نداء) على لغاتٍ لا يتغيّر فيها شكل الاسم من جملةٍ إلى أخرى .(Anderson 1985a: 197-198; Cardona 1976: 37-42)

تعني كتابة لغةٍ ما أيضاً أنّنا قد اخترنا لغةً عاميّة معيّنة أو سجلاً لغوياً معيّناً بين عدّة لغاتٍ موجودة في الوقت نفسه وجعلنا منها **اللغة الرسمية**. لهذا تأثير مهم، ليس فقط على مصير اللغات العاميّة المحليّة غير الّتي تمّ اختيارها كلغةٍ رسميّة، ولكن أيضاً على نوع المثاليّة الّتي يتبنّاها طلاّب اللغات (Finegan 1980; Morgan 1994). بقيت مسائل التمثيل الإملائي في الغرب، حتّى ولادة الألسنيّة الاجتماعيّة في الستّينات من هذا القرن، محدودة، اهتمّ بها القصصيّون الّذين أرادوا إحياء اللغات العاميّة غير الرسميّة في قصصهم (أو إعطاء نبذةٍ عنها)، واستعملوها عادةً في الحوارات. باستثناء أخصّائيي الصوتيّات وعلماء صوت الكلام، لم يتردّد النحويّون (علماء بناء الجملة وعلماء دلالات الألفاظ) في الغرب، على ما يبدو، لدى دراستهم للغتهم الخاصّة بإعطاء الأمثال الّتي اختاروها لدعم نظرياتهم. وحتّى الآن، إذا ما فتحنا كتاباً عن الألسنيّة أو مجلّةً عن الألسنية الشكليّة، نجد بأن النحويين الّذين يدرسون الإنجليزية يعتبرون أنه لا توجد علاقة شكلية بين الرموز

المكتوبة في الجمل على الورقة والأصوات الّتي تمثّلها. يعني ذلك بأنّ الكتابة الرسميّة تتعلّق ضمنياً بمثاليّة الكلام الأساسيّة بالنسبة للنظريّات النحويّة الشكليّة المعاصِرة. لا يُعتبر تبنّي نظام تمثيلي استراتيجيةً نظرية فحسب (لأنّنا نحتاج مثلاً إلى نظام تمثيلي معيّن لتفسير تعلّمنا للّغة ومشاركتنا في نفس المعاني)، بَل أيضاً ذريعة أيديولوجيّة تعزّز في النهاية اعتباراتِ هيمنة على ما **يتوجّب** على المتكلّم أن يقوله. يعني ذلك أنّ الكتابة، وبالرغم من أنّها تعطينا فرص تحليلٍ كثيرة، تقلّص مجال الظواهر الّتي من المحتمل أن ندرسها، ونصبغها باعتباراتِ أيديولوجيّة معيّنة. من المهمّ إذا أن نقيّم بشكلٍ ناقد استعمال الرموز المكتوبة في تحليل اللغة، لكي نستعين باللّغة كأداة تحليل ونوسّع نطاقها التحليلي كما تمّ استعماله في الماضي.

أخيراً، تشير التجارب الحاليّة إلى كون معرفة نظام كتابة (بالأخصّ ممارسة الكتابة) قد تكون أساسيّةً في تطوير المقدرة على تقطيع الكلام إلى أصواتٍ منفصلة (فونيم) أو إلى وحداتٍ أكبر (مورفيم) (انظر الفصل 6). لا يمكننا مثلاً أن نفترض أنّ كلّ من يتكلّم الإنجليزية يمكنه أن يفصل الأصوات الّتي يعتبرها اللغويّون وحدات تشكّل الكلمات، كفعل **طارَ** (Fly) أو **عضّ** (Bite). لم يستطع معظم البالغين الّذين لا يعرفون الكتابة والقراءة، في سلسلةٍ ممّا يسمّى تجربة **حذف الفونيم**، عندما يُطلَب من المشاركين في التجربة حذف صوتٍ أو كلمةٍ ما، أن يقوموا بهذا الحذف. يكتب شولز وويليس، في مراجعتهم لما كتب عن ذلك وفي عملهم الخاصّ بهذه المقدرة:

> لا يستطيع المتكلّمون بالإنجليزية أن يتحكّموا في الفونيم إلاّ إذا كانوا يستطيعون القراءة. يسمح

> اكتساب التمثيل الأبجدي للّغة للشخص بنقل طريقة التمثيل هذه (أي سلسلة الوحدات شبه المعجميّة المنفصلة) إلى الكلام. باختصار، نعرف الفونيم لأنّنا نعرف الأحرف. (Scholes and Willis 1991: 220)

تشكّل الفرضيّة القائلة بتأثير الكتابة على مقدرة المتكلّمين على القيام بتحليلاتٍ لغويّة لكلامهم أو لكلام غيرهم من الناس قسماً من السعي إلى الوصل بين بداية تعلّم اللغة والتغيّرات المعرفيّة والاجتماعيّة لدى أفراد الجاليات الكلاميّة. يشكّل ذلك موضوع جدالٍ كبير، لأنّ دور معرفة القراءة والكتابة في التحليل اللغوي لم يقيّم بجديّة وقد تمّ تجاهله حتّى من قبل النحويين وفلاسفة اللغة، الّذين يفترضون أنّ نوع التحليل الّذي يقومون به كافٍ في تحديد مثاليّة المقدرة الإدراكيّة الّتي يستطيع أيّ متكلّم لأيّ لغةٍ (وليس فقط علماء اللغة) أن يصل إليها[3]. بالرغم من أنّ الكثير من اللغويين الشكليين يسلّمون اليوم بأنّ ما يدرسونه هو القدرة النحويّة لمجموعةٍ مثاليّة من المتكلّمين (أي المعرفة الضمنيّة للّغة لدى البروفيسور الجامعي العادي)، فهم لا يسلّمون بسهولةٍ بأنّ ثقافتهم، بما في ذلك ثقافة الكتابة والقراءة وأهميّتهما في حياتهم اليوميّة، قد تؤثّر فعلاً في نوع التحليل الّذي يقترحونه.

2.5. الكلمة كوحدةٍ تحليليّة

ساعدت الكتابة الأبجديّة بالأخصّ على تحديد الكلمة كوِحدةٍ تحليليّة أساسيّة في الألسنيّة. بالرغم من بحث الأعمال الألسنيّة عن

(3) انظر الفقرة 1.3.6، عن استعمال سابير (Sapir) التحليلي لبديهة متكلّمي اللغات غير المكتوبة.

معايير مستقلّة عن الكتابة لتأسيس حدودٍ للكلمات في مختلف اللغات في العالم، بدون شكّ أن أوّل ما يدفع إلى اعتبار الكلمة الوحدة الأساسيّة للتحليل يأتي من الكتابة الأبجديّة. بعض المعايير الّتي تُستعمَل حاليّاً لفصل الكلمات بشكلٍ متناسق هي التالية: التوقّف، الشدّة، وبعض العمليّات الصرفية والتقييدات الّتي يبدو أنّه يمكن تطبيقها على الكلمات وليس على وحداتٍ أكبر (Anderson 1985b).

هناك الكثير من الاختلاف في طول وشكل الكلمات، بالأخصّ عندما نستعمل التوقّف كمعيارٍ لتحديد حدود الكلمات. بينما يبدو في بعض اللغات أنّه يمكن للشخص أن يتوقّف بعد كلّ مقطع لفظي (هذا ما يحدث في الفيتناميّة)، يُسمح بالتوقّف في لغاتٍ أخرى، أكثرها لغات أميركيّة أصليّة، فقط بعد الجُمل الكاملة. وتشكّل إمكانيّة تغيير موقع الكلمات معياراً آخر للتمييز بينها. يمكن أحياناً كثيرة تغيير مكان الكلمات في الجملة (ولو أنّ اللغات وأنواع الكلمات في نفس اللغة تختلف كثيراً في ما يتعلّق بذلك)، ولكن من الصعب تغيير موقع أقسام الكلمة (مورفيم). فيمكننا في الجمل اللاتينيّة أدناه أن نغيّر موقع الوحدات كـ lupus وvulpem وarguebat وأن ننتج بذلك جملاً ذات معنى (فاللاتينيّة متساهلة جدّاً بالنسبة لموضع الكلمات)، لا ينطبق ذلك على أقسام الكلمات المعبّرة.

(1) lup-us vulpem arguebat

تهم - ماضي ثعلب ـ مفعول به ذئب ـ فاعل أ

"اتّهم الذئب الثعلبَ"

(1)’	vulpem	lupus	arguebat
(1)’’	arguebat	lupus	vulpem
(1)’’’	lupus	arguebat	vulpem
(1)’’’’	vulpem	arguebat	lupus
(1)’’’’’	arguebat	vulpem	lupus

لا يمكننا بالتالي أن نغيّر موضع نهاية (-us) lupus، أو (-em) vulpem لكي نحصل على *uslup أو *emvulp. ولا يمكننا أيضاً أن نغيّر موقع قسم الفعل (ebat ـ) الّذي يحدّد الزمان.

ليست الكتابات التقليديّة ثابتة في أسلوب التعريف بالكلمات، وعلى المحلّلين أن يبتكروا فهمهم الخاص لمنزلة مورفيم معيّن أو مجموعات مورفيمات، بالأخصّ في ما يتعلّق بأصنافٍ كالضمائر وصيغة الفعل أو علاماته، الّتي تُعامل أحياناً ككلماتٍ منفصلة وأحياناً أخرى كوحداتٍ معلّقة وبالتالي كأقسامٍ من كلماتٍ أكبر منها. هذا ما نجده مثلاً في ما يسمّى "الضمائر النحَويّة" (Clitical Pronouns). فهي عادةً مورفيمات غير مشدَّدة، غير توكيديّة، وقصيرة، تشير إلى المشاركين في الوضع الحالي (إن كان لغويّاً أو غير لغوي). لهذه الأسباب، يبدو أنّها لا تشكّل كلماتٍ مستقلّة. ولكنّ تقاليد الكتابة تختلف. ففي لغات البانتو المكتوبة مثلاً، تُعتبر الضمائر النحويّة قسماً من الفِعل. عندما يتمّ استبدال الأسماء الكاملة في (2)، في هايا (تانزانيا)، بضمائر مكررة، كما نرى في (3)، يعتبر أخصّائيّو البانتو أنّها تنتمي إلى "تركيبة الفِعل"، وهي سلسلة من المورفيمات الّتي تشمل اتّفاق الفِعل والفاعِل، صيغة الفِعل، علامته، حروف المزيد السببيّة والواسطية (المفعول فيه)، وغيرها من العلامات النحويّة والدلالية[4]:

(2) كات‘ آ ـ كا ـ سييغ ـ يس‘ أوموآآن‘ آمادجوت‘ إيكيتامبآلا

(4) وفي هذه الأمثلة تدل الفاصلة العليا "الأبوستروف" (Apostrophe) (في آخر الكلمة الإنجليزية) على أن حرف العلة (Vowel Letter) الأخير قد حذف، مثال على ذلك الـ "o" في آخر كلمة Kato، حينما تبدأ الكلمة التالية بحرف علة، أما التشديد (Stresss) فيشير إلى نبرة عالية في حين أن المَدّة اللاتينية المعقوفة (Circumflex) فتدلل على نبرة مرتفعة ومنخفضة، بيما يدل غياب التشديد على نبرة منخفضة (انظر Duranti and Byarushengo 1977: 63).

كايتو 3 مفرِد ـ ماضي ـ لطّخ ـ مفعول فيه طِفل زَيت مِحرَمة

"لطّخ كايتو طفلاً بالزَيت بواسطة محرمة"

(3)

كات' آ ـ كا ـ كي ـ غا ـ مو ـ سيبغ ـ إيسا

كايتو 3مفرد ـ ماضي ـ ضمير[أ] ـ ضمير[ب] ـ ضمير[ج] ـ لطَّخَ ـ مفعول فيه

"لطّخه كايتو بها" (أ=محرمة؛ ب=زَيت؛ ج=طفل)

لا فرق هنا بين علامة اتّفاق الفعل والفاعل (ـ آ) الّتي يجب أن تظهر دائماً في الفعل ـ لاحظ بأنّها ظاهرة، مع أنّ الفاعل اسمٌ كامل (كايتو) ـ والضمائر المشيرة إلى أعضاء الجملة الأخرى (المفعول به، الهدف، المفعول فيه)، والموجودة في غياب الأسماء.

أمّا كتابة اللغات الرومانسيّة، فهي تتعامل مع الضمائر النحويّة ككلماتٍ مستقلّة في الجمل ذات الأفعال المصرَّفة، وكلاحقات مضافة في الجمل ذات الأفعال بصيغة المصدر. نرى ذلك في الأمثلة **(4)** و**(5)** أدناه، حيث نجد الضمير هو **لو** منفصلاً في الحالة الأولى ومتّصلاً بفعل **تشياماري** (اتّصلَ) في الحالة الثانية:

(4) أ؛ إي دوف'إي ماريو؟

عَلِمتَ: 2 مفرد أين ماريو؟

"هل تعرِف أين هو ماريو؟"

ب؛ نو، ما **لو** فيدو دوماني.

كلاّ ولكن هو أرى: 1 مفرد غداً

"كلاّ، ولكنّني سأراه غداً."

(5) أ؛ دوف بوسّو تروفاري ماريو؟

"أين أستطيع أن أجد ماريو؟"

ب؛ بووي تشيامارلو ا كازا فيرسو لي تري.

استطاع ـ 2مفرد اتّصل ـ به في منزله حوالي الثالثة

"يمكنك أن تتّصل **به** في منزله حوالي الساعة الثالثة".

هل يجب اعتبار **لو** كلمة؟ يعود ذلك إلى عدّة اعتبارات. إذ يساهم الضمير **لو** عادةً، كغيره من الضمائر النحويّة (**مي**، **تي**، **لا**، **لي** ...إلخ) في نغمة الفعل الّذي يرافقه، ولا يحمل تشديداً أساسيّاً (**لو ـ فيدو وتشيامار ـ لو**). بالإضافة إلى ذلك، يمكن للضمائر النحويّة أن تشترك في عمليّات الاستيعاب الّتي تشير إلى الميل نحو الاندماج بوحداتٍ أكبر. فكما نرى في (5) أعلاه، عندما يرافق الضميرُ **لو** صيغة المصدر (**تشيامارو ـ لو**)، يخسر الفعل عادةً حرف العلّة في آخره، مثلاً **ماريو لو إيميتا** (حرفيّاً "ماريو هو يقلّد") **ماريو ل'يميتا**. نرى من هذه الظواهر أنّه يمكن للضمائر النحويّة أن تدخل في تركيب كلماتٍ أخرى، وقد يكون من المفيد أن نفكّر بها كقسم من كلماتٍ أكبر. في الوقت نفسه، إذا ما أخذنا التوقّف كمعيار، تتعقّد الأشياء. قد يتوقّف المتكلّمون بالإيطاليّة بعد كلّ كلمةٍ في جملةٍ مثل lo vedo domani (قد يعود ذلك إلى عادة الكتابة). بالإضافة إلى ذلك، في حال وجود التباس، **يمكن** التشديد على الضمير النحوي (la vedi? No, Ló vedo "هل تراها؟ كلّا، أنا **أراه**").

يعكس عادةً قرارُ إعطاء عبارةٍ منزلة "الكلمة" جديّة عمل الباحث في تحليله للغةٍ ما وإظهار الصلات بين أقسامها المختلفة. تتّخذ القرارات المتعلّقة بالكلمات أهميّةً، عندما يعيد اللغويّون النظر بالكتابة أو يؤسّسونها (Romaine 1994; Schieffelin and Doucet

(1994. في حالاتٍ كهذه، قد يساعد التحليل الملائم المتكلّمين الأصليين، وبالأخصّ الأطفال، على تعلّم الكتابة. بالإضافة إلى ذلك، يسمح فهم ما يشكّل الكلمات الفرديّة بالدخول في نقاشٍ عن طبيعة التصنيف اللغوي، خاصّةً في ما يخصّ الأنثروبولوجيين الّذين يهتمّون بتطوّر هذا التصنيف في الزمان والمكان.

1.2.5. الكلمة كوحدة تحليلٍ في الأبحاث الأنثروبولوجيّة

للكلمة كوحدة تحليلٍ أهميّتها في الأبحاث الأنثروبولوجيّة. تأتي أفكارٌ كثيرة في النظريّات الأنثروبولوجيّة، مثل البوتلاتش [حقلٌ كبير عند الهنود الحمر]، الطوطم، المانا (قِوى الطبيعة المجسَّدة)، والتابو [المحرَّم]، والكثير غيرها من كلماتٍ أُخذت من لغاتٍ معيّنة ورُفعت إلى منزلة رموزٍ عالميّة أو شبه عالميّة لأنواع أعمالٍ إنسانيّة، واتّصال بعالم ما وراء الطبيعة، وميّزات الجماعات والأفراد. يعتمد أحد أهمّ فروع الأنثروبولوجيا التقليديّة، بالتحديد دراسة أنظمة النَسَب، على مقدرة الناس على استعمال الكلمات الفرديّة لتمييز العلاقات الاجتماعيّة بين الناس. ولكنّ القائمات النَسَبيّة ليست سوى واحدة من الأشياء المعروفة الّتي اهتمّ بها الأنثروبولوجيّون في تصنيفاتهم. فقد شكّلت دائماً قائمات النبات والحيوانات والأدوات والأماكن جزءاً مهمّاً من دفتر الباحثين الميدانيين، وهي تعكس وجهة نظر الغرب القائلة بأنّ أوّل خطوةٍ تسمح بمعرفة شيء ما هي معرفة كتابة اسمه، وبالتالي يُعتبَر التمييز بين الكلمات أساسيّاً. نرى ذلك بشكلٍ واضح في **الدراسات التطوّريّة** لتقنيّة الألوان (Berlin and Kay 1969) وفي مجموعات المصطلحات الإثنية النباتيّة (Berlin 1992). وقد رأى علماء التطوّر في هذه الأحوال اشتقاق أسماء الألوان والحيوانات والنبات من نفس الكلمة كدلالةٍ على كيفيّة توسيع الجماعات لمعجم لغتهم مع الوقت.

يفاجَأ القارئ مباشرةً، لدى اضطلاعه على معاجم الإثنية البيولوجيّة لأيّة لغة، باتّساق تركيبة العبارات الّتي تشير لغوياً إلى معرفة الإنسان للفجوات الأساسيّة الموجودة في عالمه البيولوجي. تشكّل هذه العبارات في معظم الأحيان "كلمة واحدة" وفريدة، وهي أحادية الدلالة ومستقلّة لغوياً. منها مثلاً في البيولوجيا القوميّة الإنجليزية كلمة سنديان، وصنوبر، وقيقب. تشير هذه الكلمات الأوليّة على ما يبدو إلى مفاهيم عالم النبات، ويمكن اعتبارها "أسماء جنس" (Berlin 1975: 66).

يؤكّد برلين أنّ الكلمات البسيطة الّتي تدلّ على الأصناف العامّة تشكّل أوّل أعضاء المعاجم الإثنية النباتيّة في كلّ اللغات. تتضمّن المرحلة التالية الأسماء الّتي يتمّ تشكيلها بالمقارنة (باستعمال عباراتٍ تعني "مِثْلَ" أو "يتعلّق بـ..")، وتأتي من ثَمّ عمليّاتٌ أخرى، كالإضافات المعدِّلة (مثل النعت "صحيح" أو "أصلي")، بميّزاتٍ تدخل في السياق المعجمي وتخسر صلتها باسم الجنس الأصلي. تشكّل الكلمة، في هذا النوع من التصنيف التطوّري، نقطة البداية وهدف التصنيف اللغوي.

2.2.5. الكلمة في الألسنيّة التاريخيّة

تشكّل **الألسنيّة التاريخيّة**، أي دراسة تغيّرات اللغات مع الوقت، ومنها تفرّع لغةٍ ما إلى لغاتٍ مختلفة، مجال دراسةٍ أخرى تعتمد كثيراً على الكلمة كوحدة تحليل. وقد تمّ في البداية اعتماد **أسلوب المقارنة**، وهي تقنيّة تقضي بتفحّص التشابهات والاختلافات بين اللغات بشكلٍ منهجي واقتراح قواعد تفسّر هذه التشابهات والاختلافات، للتنسيق بين لوائح من الكلمات. بالرغم من تردّد الكثير من اللغويين في تركيز عملهم على الكلمات، نجح اسلوب المقارنة كثيراً في عملهم البنيوي التاريخي:

يتردّد اللغويّون دائماً في الاعتماد على الكلمات. إذ يعتبرون أنّ للكلمات أهميّة قليلة في اللغة. فقد تكون غير ثابتة وتتفاوت في استعمالها بين متكلّم وآخر وبين حالةٍ وأخرى. من الأهمّ التركيز على الأصوات والقواعد [= الصَرف والنحو]. ولكنّ لمعاني الكلمات بعض الميّزات الأساسيّة الّتي لا نجدها في نواحٍ أخرى عند مقارنة اللغات. 1) من السهل أن نجدَ ونقول الكلمات. 2) من السهولة أن نحصل على مجموعةٍ كبيرة من الكلمات المزدوجة (أو تفسيراتٍ تسمح بإنتاجها) الّتي تتفرّق الكلمتان فيها بسهولة. [. . .] 3) يمكن اختيار القوائم التفسيرية بطريقةٍ تسمح بتوجيه عملنا نحو نتائج معيّنة. فنجد مثلاً تشابهاتٍ كثيرة بين الكلمات العائدة إلى عالميّة اللغات في ما يخصّ معاني محدَّدة (كالكلمات الّتي يستعملها الأطفال للإشارة إلى أهلهم)، ولا نجد إلاّ القليل من ذلك في مجالاتٍ أخرى. إذا ما أزلنا هذه التفسيرات، فسيتضاءل تمييز التشابهات وقد يختفي تماماً، وقد لا نلاحظه عندها في مقارناتنا. (Gleason 1972: 4-5).

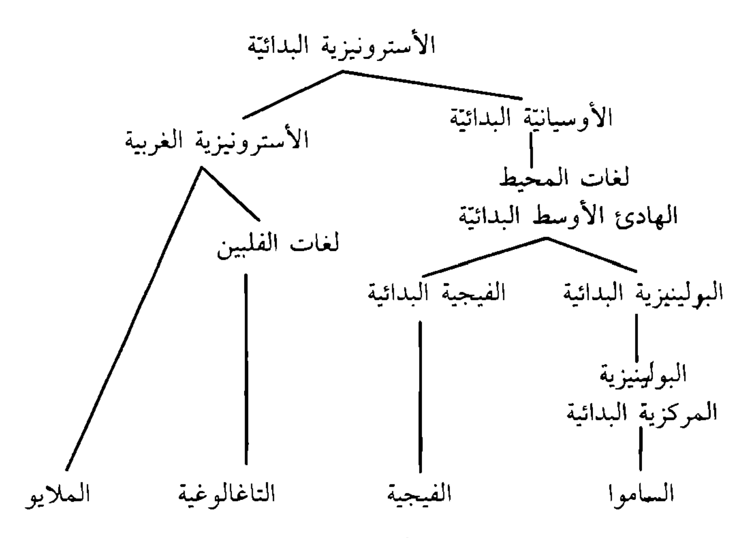
عندما ننظر إلى محاضرة وليام جونز (William Jones)، في سنة 1784، عن العلاقة بين السنسكريتيّة (وهي لغة هنديّة قديمة) واللغات الأوروبية، ونصل إلى عمل الألسنيّين التاريخيين الأوروبيين في القرن التاسع عشر (Bopp, Rask, Schlegel)، نجد بأنه تمّ استعمال قوائم الكلمات في كلّ اللغات بشكلٍ متكرّر، ليس فقط للتمييز بين المجموعات اللغويّة (ما يسمّى "بالعائلات")، بل أيضاً لإعادة تركيب بداية بعض المجموعات أو

العروق البشريّة[5]. تمّ استخدام أسلوب المقارنة مثلاً لافتراض وجود أصلٍ آسيوي للشعب البولينيزي طالما لم يتمّ الحصول على دلائل من علم الآثار (Kirch 1984: 42). تعطي القائمة 1.5. مثالاً عن العلاقة بين اللغات الأسترونيزية، حيث تشتقّ كلمات من أصلٍ واحد، في أربع لغاتٍ عصريّة (التاغالوغية والملايو والفيجية والساموا) من نفس الكلمة الّتي يعاد تشكيلها من لغةٍ افتراضية تسمّى "الأسترونيزية البدائيّة". تصوّر لنا القائمة 1.5. العلاقة بين بعض المجموعات الأساسيّة في الأسترونيزية البدائيّة.

القائمة 1.5. بعض مصطلحات الأسترونيزية البدائيّة والأشكال الّتي تتعلّق بها في اللغات العصرية (Pawley 1974:486).

	أسترونيزية بدائيّة	تاغالوغية	ملايو	فيجية	ساموا
اثنان	*دووا	دالاوا	دوا	روا	لوا
أربعة	*ي(م)بات	أبات	إمبات	فآ	فآ
خمسة	*ليما	ليما	ليما	ليما	ليما
ستّة	*إينيم	أنيم	إينام	أونو	أونو
عصفور	*مانوك	مانوك	مانو	مانومانو	مانو
عَين	*ماتا	ماتا	ماتا	ماتا	ماتا
طريق	*زالان	دعن	دجالان	سالا	ألا
باندانس	*باندان	باندان	باندان	فادرا	فالا
جوز الهند	*نيور	نيوغ	نيور	نيو	نيو

(5) انظر (Irvine 1995)، حيث ينتقد الباحث الأيديولوجيا الّتي يتضمّنها استعمال مصطَلَح "العائلة" في التصنيف النَسَبي، خاصّةً في ما يتعلّق بدراسة اللغات الأفريقيّة في القرن التاسع عشر.



الرسم 1.5. شجرة (أو ما يسمى أيضاً "بشجرة العائلة") تمثّل العلاقات الافتراضية بين أربع لغاتٍ آسيوية أسترالية (Pawely 1974).

يشكّل استعمال قوائم كلماتٍ من لغاتٍ مختلفة أسلوباً فعّالاً لإيجاد العلاقات بينها. ولكنّ "الأشجار العائلية" الّتي نحصل عليها عندها لا تمثّل بالضرورة الحقيقة التاريخيّة (Bynon 1977: 67-75). وهي تتجاهل أيضاً التغيّرات الموجودة في كلام الجالية الواحدة (Weinreich, Labov, and Herzog 1968) واحتمال وجود علاقاتٍ وتوسّعاتٍ للأشكال اللغويّة في التداخلات بين اللغات (Nichols and Peterson 1996; Trubetzkoy 1939; Weinrech 1953). مع الأسف، قد يقود افتراض وجود اتساق وانتظام، كما يتطلّب هذا النوع من الدراسة، إلى ترويج الاعتقاد بأنّ الكلمة مستقلّة عن الواقع. سنرى فيما بعد أنّ الكلمة، أي كلمة، تحصل على معناها في سياق وحداتٍ أكبر منها، كالجُمَل (الفصل 6)، والأفعال الكلاميّة والتلاعبات اللغويّة (الفصل 7)، والسلسلات الدوريّة (الفصل 8)، والأحداث الكلاميّة وإطار المشارَكة (الفصل 9). وأخيراً، قد يعبّر ما نسمّيه بالكلمة في الحقيقة عن عدّة أنواعٍ من "الإشارات". تعتمد الدراسة التاريخيّة عادةً

على نوعٍ محدَّد من الإشارات، وهي "الرموز" (انظر الفصل 8.6.).

3.5. أبعد من الكلمات

بالرغم من التقدّم الملموس في فهمنا للتركيبات اللغويّة ولتغيّرات اللغة المبنيّة على الكلمة كوحدة تحليل، يسلّم اللغويّون وعلماء المنطق بأنّ الكلمة لا تحصل على معناها إلاّ في سياق الجملة (أو الخبر). تضمّنت "الثورة الإدراكيّة" في الستّينات تحوّلاً لا مرجع عنه من دراسة الأصوات والكلمات إلى دراسة الجمَل الكاملة. تمّ استبدال علم الأصوات وعلم التشكّل، خاصّةً بفضل عمل نعوم تشومسكي وتلاميذه، بعلم بناء الجُملة كأهمّ مجالات الأبحاث. في الوقت نفسه، بدأ الباحثون، في مجالات أبحاثٍ مختلفة تخصّ سَير العمليّة اللغويّة واستعمال اللغة، باستكشاف وحداتٍ أكبر من الكلمات. اكتشف عددٌ كبير من طلّاب اللغات، في السبعينات، أنّه يجب دراسة بعض الظواهر اللغويّة في سياق وحدات الحديث، بدلاً من دراستها في جملٍ معزولة فقط. اكتشفت مجموعة لغويين رمزيين عملت بالأخصّ في كاليفورنيا أعمالاً قديمة، عن التركيبة المعلوماتية للجمل، قام بها لغويّو مدرسة براغ وم. أ. ك هاليداي، وبدؤوا بتطبيق مصطلحات عن الحديث، "كالنقاط" "والموضوع"، على دراسة بناء الجملة (Givón 1979; Li 1974, 1976, 1978). وتمّ الاهتمام من جديدٍ أيضاً بدراسة حقائق عالميّة عن اللغات بمقارنة اللغات بدلاً من الاعتماد على مبادئ مجرَّدة (Greenberg 1963; Greenberg et al. 1978; Hawkins 1979; Keenan and Comrie 1977; Edward Keenan 1972, 1976)[6]. وقد أوحى

(6) لمجموعة مقالاتٍ أكثر جدة عن دراسات رموز اللغة، انظر (Shibatani and Bynon 1995).

ذلك إلى بعض اللغويين بالنظر إلى نصوص مختلفة لتحديد ترتيب مواضع الكلمات الأساسي في لغةٍ معيّنة وعلاقته بظواهر تركيب اللغة والحديث الأخرى. وفي الوقت نفسه تقريباً، بدأت مجموعة من علماء الاجتماع الّتي ستُعرف باسم "محلّلي المحادثة" لاحقاً، بالاهتمام بتسلسل تبادلات المحادثة كموضع يسمح بدراسة النظام الاجتماعي دون الوقوع في ما اعتبروه فخّ علَم الاجتماعي التقليدي المقياس، أي دون القبول المُسبَق بمفاهيم كالدور الاجتماعي، والطبقة الاجتماعيّة، والوضع الاجتماعي (انظر الفصل 8)، أظهر محلّلو المحادثة والحوار أنّه، وبعكس ما كان النحويّون الشكليّون يقولونه في دراستهم للجمل المنفصلة، من الممكن القيام بدراسةٍ منظّمة للغة التفاعل في المحادثة.

كان اكتساب اللغة، في حقل الألسنيّة البسيكولوجيّة، يعتمد على الحديث والتبادلات التفاعليّة بين الأطفال والراشدين، ولكن كان هذا الأسلوب الدراسي يُعتَبَر مفروضاً على الباحثين من قِبَل الظروف الموجودة (إذ كان من الصعب أو حتّى من المستحيل القيام بتجربة على كلّ طفلٍ ممكن)، ولم يكن بالتالي خياراً واعياً وجيّداً اتّخذوه سويّاً. ولكن، وفي السبعينات، تأثّر علماء لغة الأطفال أيضاً بتحليل المحادثة وبدؤوا بالإمعان بأنواع جديدة من الوحدات، منها بعض أنواع التفاعلات الروتينيّة الرامية إلى توجيه الانتباه نحو المتكلّم (مثلاً **أتعرف شيئاً؟، انظر!** You know what?, Look في الإنجليزية، أو mira! في الإسبانيّة)، ومتابعة موضوع ما، وبناء موضوع متماسك (Ervin-Tripp 1973, Ervin-Tripp and Mitchell-Kernan 1977; Garvey 1984; McTear 1985; Ochs and Schieffelin 1983). ترعرع وتقدّم تحليل المحادثة في هذا الجو العلمي الجديد وتمّ تأسيسه كحقل أبحاثٍ معتَرَف به، فأدّى إلى تنظيم عدّة حلقاتٍ

دراسيّة، ومجموعات مقالات، ومجلّات علميّة. كان الأنثروبولوجيّون الألسنيّون، بفضل اهتمامهم بالنصوص والروايات والأفعال المحليّة، قد قاموا بالكثير من تحليل المحادثة، ولكنّهم قاموا بذلك دون وجود أيّ نظريّة عنه. فأعطى ذلك لبعضهم فرصةً للدخول مجدَّداً في الأبحاث اللغويّة العامّة، من دون أن يخسروا اعتمادهم على اللغة كجزءٍ من الثقافة.

سأتحدّث، في فصولٍ قادمة، عن بعض هذه المساهمات في فهمنا للّغة كممارسة ثقافيّة. وسأركّز في ما يلي على مسألة جمع وتمثيل الامتدادات اللغويّة.

4.5. المعايير الّتي تحدّد ما هو مقبول

بما أنّ الأنثروبولوجيين الألسنيّين يهتمّون بالتبادلات الشفهيّة العفويّة، علينا أن نتساءل عن كيفيّة جمع عيّناتٍ من التبادلات الطويلة. فسيسعى مثلاً اللغوي الّذي يهتمّ بجمع الأشكال النحويّة باستخراج **حديثٍ أحادي** - أي رواية يسردها متكلّم أصلي للّغوي أمام مسجّلة صوتيّة - أو **تبادلاتٍ تفاعليّة تصوريّة**. قد تفيد هذه التصوّرات في بعض أنواع التحليل اللغوي، ولكن لا يمكن استعمالها كدليلٍ أكيد على وجود استراتيجيّاتٍ تفاعليّة حقيقيّة أو استعمال نمطي لّلغة. نعرف الآن، بفضل تجربتنا الكافية للتفاعلات الشفهيّة العفويّة، أنّنا لا نستطيع أن نثق بمقدرة المتكلّمين على **تصوّر** ما قد يقولونه في حالةٍ معيّنة، ولا يمكننا أن نتوقّع منهم أن يتذكّروا بالضبط ما قالوه في الماضي. فقد برهن علماء الاجتماع تكراراً أنّ الذاكرة انتقائيّة ويؤثر المستقبل كما يؤثر الماضي في تشكيلها. وقد لا يلاحظ أكثر المراقبين مهارةً أو يسيئ فهم ما قد يكون أهمّ ميّزات تبادلٍ ما. وعندما نسأل متكلّماً أصليّاً أن يتخيّل تبادلاً ما، نحصل

على الأرجح على **تبادلٍ مثالي**، قد يكون دقيقاً في بعض النواحي وغير جديرٍ بالثقة في نواح أخرى.

أظهر هيل وهيل (1978)، في تحليلهم لمستويات الاحترام في الناهيوتل، أنّ الإخبار عن المحادثات لا يعطي صورة جيّدة عن كيفية إظهار المتكلّم احترامه للآخر. ففي إحدى المقابلات الّتي جمعاها، تناوب كاهنٌ، في روايته لما قاله لرئيس جاليته، بين استعمال المستوى 1 ("حميم") و2 ("متباعد") و3 ("مبجل") في أشكال صياغة كلامه (الضمائر، وأسماء العَلَم، والألقاب) واتّفاق أجزاء الجملة:

> قد يحصل ذلك عندما يصبح أحد أعضاء الرعيّة العادي شخصاً مهمّاً؛ ولكنّنا لم نجد هذا النوع من التقلّب العشوائي في المحادثات الفعليّة، حيث نرى استعمالاً ثابتاً للّغة، وتغيّراً يمكن تفسيره بسهولة بالنظر إلى كلّ حالة.

(Hill and Hill 1978: 132)

هناك أيضاً ميّزاتٍ معيّنة في كلّ تفاعل لا يمكن إظهارها من جديد عند استخراجنا للمحادثة أو في تقريرٍ عن التبادل الّذي اشترك فيه المتكلّم. نذكر من هذه الميّزات **التوقّف والتداخل**، اللذين لا نجدهما في التفاعلات المثاليّة[7]. أظهر محلّلو المحادثة بشكلٍ مقنع أنّ التوقّفات والتداخلات مظاهر تفاعليّة مهمّة (Sacks, Schegloff, and Jefferson 1974). يستعمل المشتركون بمكان حدوثها وبطولها كمعلوماتٍ تساعدهم على تفسير ما يحدث، وتقرير ما إذا كانوا سيتكلّمون أكثر وما ستكون عندها طبيعة كلامهم (انظر الفصل 8).

---

(7) لا يمكن مثلاً للتداخلات أن تحصل عندما يتحدّث المتكلّم وحده.

من المهمّ أيضاً الانتباه إلى عودة الكلام إلى البدء، وقطع الكلام، وأي تصحيح آخر قد يقوم به المتكلّمون لكلامهم الخاص. قد يكشف أي نصٍّ منقول يوجد فيه ما يسمّى **بالبداية الخاطئة** وغيرها من "الأخطاء" عن تنظيم متكرّر لهذه الظواهر يساعد المشاركين على فهم أعمال بعضهم البعض الماضية وتوقّعاتهم المستقبليّة (Goodwin 1981). فقد أظهر شيغلوف (1979b) مثلاً أنّ الناس يصحّحون أنفسهم بشكلٍ متكرّر (وهو يستخدم مصطلَح **التصحيح الشخصي** للدلالة على هذه الظاهرة) عندما يُدخل موضوعاً جديداً في الحديث. يقع العنصر **المصحَّح** (أو **المصلَّح**) عادةً في الكلمة الأساسيّة في **الموضوع الجديد**. إليكم مثالين[(8)]:

1. ب: يا للأسف! ((صامت جدّاً))

أ: ه ه ه!

(0.5)

ب: (م..عرف) ه ه هل ترى **أنتَ** ف ـ (0.3) صديقنا فيفيان بعد؟

أ: كلّا! نادراً، وعندها: ، تعرف، أقول مرحباً بسرعة و ه ه تعرف، نتلاقى فقط في الرواق. [لا يزال يخرج]

ب: [هل تخرج] مع بو: ني؟

2. ب: ه ه ولكن هذا جيّد، ه ه

أ: هذا جيّ[د] ((صامت جدّاً))

(8) الأجزاء المتعلّقة بالموضوع الجديد هي التالية (مبسَّطة):

(6)[1] ب: هل رأيتَ ف- (0.3) صديقنا فيفيان في ما بعد؟

(7)[1] ب: هل كان لديك ص- عندك صفّ مع بيلي هذا الفصل؟

ب: [هل كان لديك صف ـ عندك **أنتَ** صف مع بيلي هذا
الف: صل؟

أ: أجل. هو في صفي الشاذ.

ب: م م أجل [كيف]

أ: [بسيكولوجيا الشذوذ

يُظهر تسجيل المحادثات الحقيقية ونقل ما يقال خلالها بشكلٍ دقيق انتظاماً يستحقّ الدراسة. كيف ينظِّم التصحيح؟ ولماذا يتكرّر في بعض أنواع الحديث ومكانها؟ وهل نجده مكرراً في ثقافاتٍ مختلفة؟ ويمكن سؤال نفس الأسئلة عن ظواهر تفاعليّة أخرى، كالتداخلات والصمت (انظر الفصل 8). لا يمكن تقييم أهميتها النظرية في فهم التفاعلات البشريّة في الوقائع الاجتماعية المختلفة دون وجود وثائق جيّدة عن حصولها.

ابتكر محلّلو المحادثة في عملهم واستعمالهم التسجيلات الصوتيّة والمرئيّة للتفاعلات خلال المحادثات باللغة الإنجليزية العاديّة خلال العقود الثلاثة الماضية **معايير** جديدة **لما هو مقبول**، ليس لتحديد شكل النصوص المنسوخة ـ ويمكن نقد بعض تقاليدهم (انظر أدناه) ـ بل لتحديد الدلائل الّتي يحتاج إليها الباحثون لإثبات ما يقولونه عن أنماط معيّنة لاستعمال اللغة. لا يمكن، كما يبدو الآن، قبول دراساتٍ تعتمد على الذكريات والمراقبة العرضِية للأنماط الكلاميّة فقط. بل يجب تطبيق المعايير الجديدة على الدراسات القديمة أيضاً. على العلماء الّذين يقتبسون من دراساتٍ سابقة أن ينتبهوا إلى أساليب البحث المتَّبَعة فيها للتأكّد من كون ما قيل في الماضي يمكن الوثوق به حاليّاً. مع الأسف، لا يقوم كلّ من يكتب عن التبادلات في الحديث بمراجعة أساليب البحث الّتي اتّبعها

الباحثون الّذين يقتبسون عنهم. إذا ما أمعنّا النظر في دراسات التواصل وجهاً لوجه الّتي نعتبرها اليوم من أهمّ ما قام العلماء به في الماضي والّتي نشِرت في السبعينات، نكتشف بأنّ الأنثروبولوجيين الألسنيّين كغيرهم من الباحثين في حقلي الأنثروبولوجيا والألسنيّة، ولمّدةٍ طويلة، لم يشعروا بضرورة إعطاء معلوماتٍ عن كيفيّة جمعهم للبيانات في منشوراتهم (أو ربّما اعتبر المحرّرون والناشرون هذه المعلومات غير مهمّة ولا تستحقّ أن تُطبَع وتُنشر). حتّى في الحالات التي تكلّم المؤلّفون بشكلٍ صريح عن أساليبهم، لم يمعن القرّاء والزملاء النظر بذلك. فبالرغم من قول جوديث إيرفين، في بداية دراستها المهمّة للتحيّات المستعمَلة لدى الوولوف، أنّها لم تتمكّن من تسجيل التحيّات على شريط[9]، اعتقد معظم الزملاء الّذين تكلّمتُ معهم عن هذا المقال أنّه كان بحوزتها شريطٌ مسجًّل عن التحيّات. فقد **افترضوا** فقط أنّها قد قامت بهذا التسجيل.

أنا لا أقول بأنّه علينا أن ننبُذ عدّة عقودٍ من المراقبة والتصوّر الخاص بالمقابلات وجهاً لوجه، لأنّها لم تمتلك أدوات تسجيل مغناطيسيّة أو إلكترونية، ولكن من الضروري أن يتعلّم جيل الباحثين الجدد أن يقرأ الأعمال الماضية في ضوء المعايير العصريّة الّتي تحدّد ما هو مقبول علميّاً. يجب الانتباه كثيراً إلى الفقرات الّتي يصف فيها الباحثون الميدانيّون الظروف المحيطة بدراستهم. إذا لم تتوفّر هذه المعلومات، يجب عندها الاتّصال بالمؤلّف. وإذا لم يكن من الممكن القيام بذلك، يجب عندها أن ينتبه الباحث قبل أن يعمّم ما

---

(9) "كان من الصعب إقناع المخبرين بأن يمثّلوا أمامي حالاتٍ تُستعمل فيها التحيّات، وكان من الصعب جدّاً تسجيل التحيّات على شريط (ولذلك فإنّ التحيّة النموذجية الموجودة على الصفحة 286 ـ 285 من هذا الكتاب، أتت من تجربتي الخاصّة وليس من نصٍّ مسجَّل)" (Irvine 1974: 168).

قيل في الروايات الّتي لا ترافقها مناظَرة عن الأساليب المتَّبَعة في جمع المعلومات الموجودة في المقال.

5.5. صيغة وتقاليد النسخ

سأستعمل في ما يلي تعبير **النسخ** [أو **النقل الخطّي**] لوصف عمليّة كتابة الحدث الاجتماعي حتى نهايته، وإن لم يكن أبداً نهائيّاً. سأتبع تحديد بول ريكور (1971) وأكتب عن عمليّةٍ تقضي بترسيخ بعض ميّزات الأفعال مباشرةً، في الزمان والمكان (ما قاله شخصٌ ما مثلاً)، في وثيقةٍ ستبقى بعد مضي هذا الحدث العابر.

> يتميّز كلّ حديثٍ يحصل، في الكلام الحي، بأنه عابر. يظهر ويختفي. لذلك من الصعب تثبيته. لذا نريد تثبيت الذي يختفي (Ricoeur [1971] 1981: 198).

بالرغم من أنّه قد تمّ استعمال النقل الكتابي كثيراً لتثبيت الأصوات في رموزٍ تخطيطيّة، ليس هناك ما يجبرنا مسبقاً على تفضيل الكلام عن غيره من أشكال التواصل في ما نكتبه. فكما سأُظهر لاحقاً، كلّما عرفنا طرقاً جديدة لتمثيل أوجه أخرى من التصرّف التواصلي، كلّما أدركنا أهميّة ابتكار طرق جديدة لدمج تحليل الكلام مع غيره من الشيفرة وطرق التواصل.

كلّ كتابةٍ هي بالفعل **تجريدٌ يقضي بتقليص ظاهرةٍ معقّدة إلى بعضٍ** من ميّزاتها الأساسيّة وتحويلها لكي يتمّ تحليلها من جديد[10]. ينطبق ذلك على الأبجديّات كما ينطبق على الصور الفوتوغرافية، وصور الأشعة السينية، وأي نوعٍ من القياس. لا تختلف الأداة في

(10) نتكلّم عن "تحليلها من جديد" لأنّ كتابتها نفسها تشكّل نوعاً من التحليل.

كلّ حالة فحسب بل أيضاً العلاقة بين شكل التمثيل (الكتابة، الصور السوداء والبيضاء، أرقام المقياس) والظاهرة الّتي يتمّ تمثيلها بواسطة تكنولوجيا الكتابة. فعندما نكتب على ورقة جملةً قالها أحدهم للتو، نخلق سجلاً لعمله الكلامي الحي (لهدفٍ أو لجمهور ما) كرمزٍ كتابي حصرياً، يمكن تفحّصه لاحقاً ومقارنته بغيره من الرموز اللغويّة المشابهة الموجودة في نفس الشيفرة أو في شيفرةٍ أخرى. عندما نقوم بذلك، نقوم في الحقيقة بعمليّتَين تحليليتَين تعتمد على مستوياتٍ مختلفة من التجرّد.

أ) **الانتقاء.** نركّز فقط على مجموعةٍ صغيرة من أفعال المتكلّم. ونهمل بالتالي أوجه أخرى من ما كان يفعله، بواسطة جسده مثلاً (عيونه، فمه، يدَيه... إلخ). ونتجاهل أيضاً الأعمال السابقة، أو المتزامنة، أو التالية الّتي قام بها مع غيره من الّذين شاركوا في المشهد، بما في ذلك أي كلامٍ آخَر قد يتعلّق بالجزء الّذي قرّرنا دراسته.

ب) **التبسيط.** نبسّط أداء المتكلّم بتجاهلنا لبعض أوجه كلامه وتقديم تجريد لها يعتمد على نظرياتٍ معيّنة (ما يسمّيه البعض "بالتحيّز"). فعندما ننظر إلى قولٍ ممثّلٍ على صورةٍ طيفيّة، نلاحظ أنّ الأصوات ليست منفصلة بشكلٍ يماثل كتابتنا لها. ففي المحادثات العاديّة لا يوجد مجالٌ (أو توقّفٌ) بين معظم الكلمات الّتي تشكّل قولاً ما. ويعتمد لذلك اللغويّون على النغم لتحديد وحدات الحديث - فقد ابتكر تشايف مثلاً مصطلح **الوحدة النغمية**. بالإضافة إلى ذلك، قد تتّسع ميّزات ما نعتبره صوتاً واحداً لكي تشكل عدّة أصوات، ويصعب عندها تحديد بداية صوتٍ ما ونهاية آخَر.

تتعلّق المسألة هنا، كما يحصل دائماً في ما يتعلّق بالتمثيل، بأهميّة المعلومات الّتي نقرّر كتابتها على ورقة أو على قرص

إلكتروني لهدفٍ معيَّن. يذكّرنا أوكس (1979) بأنّ خياراتنا عند تحضيرنا للنسخ تتأثّر دائماً باعتباراتٍ نظرية وعمليّة ـ كمقروئية ما ندوّنه (انظر نقلي لمثال شيغلوف في الحاشية 8 أعلاه). بالإضافة إلى أهداف البحث ـ أن كلّ كتابٍ يجب أن يمثل بشكلٍ دقيق أهداف بحث المؤلف - هناك ما نسمّيه بالاعتبارات الجمالية. يجب أن لا يتضمّن الكتاب الكثير من المعلومات، وإلاّ أصبحت قراءته مزعجة وفشل في وصوله إلى أحد أهدافه، أن يكون سهل المنال (Ochs 1979: 44-45). يشجع الكتاب القرّاء على قراءته. ومن المهمّ أن ننظر إلى شكله والتقليد الّذي يتّبعه. إذ يتجنّب القرّاء الكتب الّتي تتّبع تقاليد لا يعرفها معظم الناس أو الّتي لا تبدو سهلة المنال أو جذّابة. وتبقى هذه الاحتمالات موجودة عند كلّ خيارٍ بين الكتابة التقليدية والرموز الصوتيّة. يسمح استعمال الكتابة التقليدية بإيصال الأفكار إلى جمهورٍ أكبر. ولكنّ المشكلة تكمن في كونها تأتي ويرافقها مجموعة من الافتراضات الّتي تحدّد ماهيّة اللغة وتصعّب تمثيل كلامها الفعلي. فإذا نظرنا إلى النصّ (8) أدناه، نجد أنّه من الصعب تصوّر صوت المتكلّم، ولكن يمكن قراءة النصّ بسهولة لعدم وجود الكثير من التقاليد الّتي يتوجّب على القارىء معرفتها، بالأخصّ بين التوقّفات (بين قوسين أو نقطتين) أو الأصوات الطويلة (الرمز " ـ "):

(8) حسناً. بدا الفيلم متأثّراً كثيراً [.25] بالصوت. ولو أنّه لم تكن هناك أصوات [.6] لم يكن هناك من محادثة. [3.5] [1.5] و ـ [1.3] أوّل [.75] ما لاحظته... كان... صوت الرجل يقطف... الإجاص.

(Chafe 1980: 304)

ولكن، هناك مشكلة كبيرة في استعمال الكتابة، فهي لا تخدم

إلاّ الّذين يتكلّمون اللغة الرسمية، وهي الّتي تمّ ابتكار نظام الكتابة لتمثيلها. يُعتبر الّذين يتكلّمون أنواعاً أخرى، بشكلٍ غير مباشر، منحرفين، بقدر عدد العلامات المختلفة الّتي تُستعمل لتمثيل كلامهم. فنرى استعمال "'" في النص التالي لمقابلة مع مراهق أسود للإشارة إلى غياب صوتٍ نتوقّعه في اللغة الإنجليزية الرسمية.

(9) Larry: You know, like some people say if you're goo an' shit, your spirit goin' t'heaven... 'n'if you bad, your spirit goin' to hell. Well, bullshit! Your spirit goin' to hell anyway, good or bad.

Interviewer: Why?

Larry: Why? I'll tell you why. 'Cause, you see, doesn' nobody really know that it's a God, y'know, 'cause I mean I have seen black gods, white gods, all color gods, and don't nobody know it's really God. An' when they be sayin' if you good you goin' t'heaven, that's bullshit, 'cause you ain't goin' to no heaven, 'cause it ain't no heaven for you to go to.

لاري: كما تعلم، يقول البعض أنّه إذا كنتَ إنساناً حسناً وما إلى ذلك... ستذهب روحك إلى الجنّة... وإذا كنت شريراً تذهب إلى جهنّم. هذا كلّ هذا كذب. فستذهب إلى جهنّم إن كنت جيّداً أو شرّيراً.

المُقابِل: لماذا؟

لاري: تسألني لماذا؟ سأقول لك لماذا. لأنّه لا أحد يعرف أنّه اللّه، فقد رأيتُ آلهة سوداء، آلهة وردية، آلهة بيضاء، وآلهة من كلّ الألوان، ولا أحد يعرف ما إذا كان فعلاً الله. وعندما يقولون لك بأنّه

إذا كنتَ حسناً تذهب إلى الجنّة، فهم يكذبون، لأنّك
لن تذهب إلى الجنّة، لأنّه لا توجد جنّة لكي تذهب
إليها.

(Labov 1972c: 194)

تقود انعكاسات استعمال تغييراتٍ في الكتابة الرسمية الألسنيّين الاجتماعيين الّذين يدرسون اللغات العاميّة، من أمثال وليام لابوف، أن يشدّدوا دوماً على أنّ ما ينقلوه خطيّاً يشكّل **لغةً أخرى** وليس لغةً ناقصة. يكتب لابوف، بعد النص أعلاه (1972c: 194): "لاري متكلّم نموذجي للغة السود الإنجليزية، وهي تختلف عن اللغة الإنجليزية الرسميّة". من الواضح أنّ مسألة تسمية لغةً أو لهجة أخرى هي مثيرة للجدَل. وقد يشكّل ذلك مشكلة فعليّة في بعض الحالات، في أميركا الأصليّة مثلاً، حيث قد يصرّ الناس على استعمال تسميات معيّنة غير موجودة في الكتب (جين هيل، عن التواصل الشخصي).

هناك مشكلة أخرى تتعلّق بالكتابة الرسميّة، وهي أنّها لا تبيّن بعض الظاهرات غير اللغوية، **كالتلاعب بالصوت**[11]، ولا يمكنها بالتالي تعميم أي ملاحظاتٍ عنها (Ochs 1979: 45).

تتميّز الأبجديّات الّتي ابتكرها علماء الأصوات بقدرتها على تطوير الكتابة التقليدية وتفضيل اللفظ الحقيقي بالرغم من ذلك. وهم لا يأتون محمّلين بتصوّرات مسبَقة عن اللفظ الرسمي أو غير المؤشّر. ابتكرت الجمعيّة الصوتيّة العالميّة أبجديّةً كهذه، تحتوي على رموزٍ تشير إلى كلّ الأصوات اللغويّة الممكنة كما نجدها في اللغات

---

(11) "يعتمد استعمال الكتابة الرسمية على افتراض أنّ ما يقال يشكّل معلومات، ويعني ذلك اعتبار أنّ اللغة تُستعمَل للتعبير عن أفكار. أمّا التلاعب الصوتي، فيسمح بوضع شكل الكلام، بدلاً من محتواه، في الطليعة، ويستعمل اللغة بشكلٍ لعوب ومشدّد... بدلاً من اعتبارها نقلاً لمعلومات" (Ochs 1979: 45).

الطبيعية (Pullum and Ladusaw 1986). يمكن لكلّ من يعرف هذه الرموز أن يقرأها دون أن يعرف أيّ شيء عن اللغة الّتي يرمزون إليها[12]. سمحت تكنولوجيا الحاسوب الإلكتروني، الّتي تعطينا عدّة طقوم حروفٍ على شاشةٍ واحدة، بالاستطلاع بسهولةٍ أكثر عن هذه الأبجديّات، ولكنّ استعمالها لا يزال يقتصر على عددٍ قليلٍ من الناس، قد درسوا طويلاً علم الأصوات والألسنيّة. كما نرى في المثال (10)، لا تكفي معرفة الأبجديّة اللاتينية أو قواعد الإملاء الإنجليزية (ولو أنّها تساعدنا) لمعرفة ما تمثّله الرموز (Ladefoged 1975: 161).

(10) æplslɛmənsəntʃɛriz

عندما يُقال لنا بأنّ (10) تمثّل ما نكتبه باللغة الإنجليزية **تفّاح، ليمون، وكرز** (Apples, Lemons, Cherries)، تتّضح الأشياء أكثر. إذا أردنا تسهيل ذلك بفصل الرموز إلى "كلمات"، نجد أنفسنا أمام مشكلة معروفة في النسخ، وهي ضرورة أن نتّخذ قراراتٍ قد تبدو في البداية اعتباطيّة. في هذه الحالة مثلاً، من الصعب أن نقرّر، معتمدين على معلومات غير نظرية، أين يجب أن نقطع سلسلة əntʃɛriz "والكرز (and Cherries)"، بما أنّ الصوت ت (t) ينتمي نوعاً ما إلى "و (and)" و"كرز (cherries)" - يمكننا إمّا أن نقول أنّ "د (d)" كلمة "and" قد تحوّلت إلى "ت (t)" لكي تندمج مع الصوت التالي (تش tʃ) أو أنّها قد اختفت بكلّ بساطة. على نظريّتنا الصوتيّة أن تعطينا الجواب النهائي، أي العمليّات الصوتيّة الّتي نعتبرها شائعة في اللغة عامّةً وفي لغةٍ معيّنة خاصّة.

---

(12) لا يعني ذلك أنّه يمكن للقارئ بواسطة الرموز وحدها أن يتكلّم بلكنة المتكلّم الأصلي أو المتكلّم الّذي يتمّ تمثيل كلامه. فالمعلومات الّتي يمكن وضعها في رموزٍ أبجديّة ما زالت محدودة.

(10)' æpls lɛmənz ən tʃɛriz
apples lemons and cherries
(تفّاح) (ليمون) (و) (كرز)

لتجنّب بعض هذه المشاكل، يعتمد معظم الّذين يدرسون التفاعلات العفوية في النهاية على قواعد الكتابة التقليدية، مطبقين إيّاها على حاجاتهم النظرية. ولكن يمكن القيام بذلك بطرقٍ مختلفة، منها المحافظ ومنها التجريبي. ففي تحليل المحادثة مثلاً، يتمّ تكييف قواعد الكتابة الإنجليزية لإظهار بعض الميّزات الأسلوبيّة واللهجيّة في كلام المشاركين:

(11) Ken: Hey yuh took my chair by the way an' I don't think that was very nice.
Al: *I* didn' take yer chair, it's *my* chair.

(كين: على فكرة، لقد أخذتَ كرسيي، وقد أزعجني ذلك.

آل: **أنا** لم أخذ كرسيكَ، فهو كرس**يي**.

(Sachs, Schegloff, and Jefferson 1978: 28)

تمّ حلّ المشكلة الّتي وجدناها في (10) مع كلمة and (و) في (11)، كما في (9) بكتابة an' (و)، وهو تقليد من المحتمل أن يعرفه كلّ متكلّمي (وقرّاء) اللغة الإنجليزية. ولكن، في بعض الحالات، يصعب على الّذين لا يستعملون هذا الأسلوب في العمل أن يفسّروا تكييف قواعد الكتابة الإنجليزية. وبالتالي تمثّل yuh وyer، وهما كلمتان يستعملهما محلّلو المحادثة كثيراً، لفظاً عاميّاً ل "you (أنتَ)" و"your (ـ كَ)"، وهما ليستا واضحتين بالنسبة لمعظم قرّاء الإنجليزية. تكبر الصعوبة مع كلماتٍ مثل does وwas (يفعل ويكون)، الّتي ينقلها محلّلو المحادثة غالباً مستعملين كلماتٍ مثل dz وwz. على القرّاء عندها أن يعرفوا بأنّ للأحرف "d" و"z" قيمة

مقطع لفظي [dz]، وإلاّ تمّ اعتبارها سويّاً كصوتٍ لثوي احتكاكي مجهور (مثلاً أوّل صوتٍ في الكلمة الإيطالية zebra (حمار وحشي) [dzebra] أو في الصوت الأخير للكلمة الإنجليزية lads (الشباب الأصدقاء) [Lædz]). قد يتمكّن متكلّم الإنجليزية الأصلي أن يفهم معنى خيارات المحلّل، ولكن عدم وجود معايير عالميّة يجعل هذا النقل صعب الفهم للقرّاء الّذين لا تشكّل الإنجليزية لغتهم الأم. في نسخ النص (12) أدناه، يتمّ تكييف الكتابة الإنجليزية مع النقل الصوتي بشكلٍ كبير، فتتمّ الإشارة إلى أصوات من السهل معرفة لفظها دون ذلكَ، كاستعمال "iz" بدلاً من "is" أو "he'z" بدلاً عن "he's". بما أنّ المتكلّمين الأصليين يلفظون ال"s" في "is" عادةً ك"ز z" - انظر الفصل 6 - يصعب فهم لماذا تمّ تغيير كتابتها العاديّة. السؤال هنا هو: (فيما إذا يمكن تحديد السمة الصوتية والتنبؤ بها من مجموع قواعد الإملاء العامّة (انظر;Edwards and Lampert 1993 Macaulay 1991a; 1991b: 24).

(12) F: 'hh how iz our fri::end
N: Oh : he'z much better I'm, 'fraid -
|hh h h h
F: |Well uh that's *mar*verlous

ف: 'هه كيف حال صدي: :قنا

ن: أوه: أفضل، مع ال'سف -

|هه هـ هـ هـ

ف: |حسناً، هذا رائع.

(Pomerantz 1984: 46)

بالرغم من كون هذه الكتابة أسهل للقراءة من كتابة ال IPA (الجمعيّة الصوتيّة العالميّة)، فهي تحتاج إلى معرفة معاييرها الضمنية

المعتَمَدة[13]. فيتبيّن أنّها تساعد الذاكرة بشكلٍ ممتاز، بالنسبة للّذين استمعوا عدّة مرّات إلى التبادل التفاعلي الّذي تمّ نقله بالكتابة ويمكنهم بالتالي أن يقلّدوه، ولكنّها تدهش وتحيّر الآخَرين كلّهم.

يشكّل الجمهور الّذي تمّ إصدار النسخة من أجله مسألةً مهمّة هنا وفي أنظمة نسخ أخرى (Haugen 1980; Macaulay 1991b: 24). بما أنّ كلّ نقل خطّي يختلف عن غيره بحسب من يعتبره جمهورَه الأساسي، علينا أن نقوم بخياراتٍ واعية ومتناغمة. لا يعني ذلك أنّنا لا نستطيع أن نغيّر رأينا بعد اختيارنا لنظام معيَّن .المهم هو أن نتبع معياراً يتناغم مع أولويّاتنا ويفهمه قرّاؤنا. فإذاً كنّا قلقين عن مقدرة المتكلّمين الأصليين أو غيرهم مِن مَن يتقن اللغة (وبالأخصّ علماء الاجتماع الآخرين، الّذين لا يملكون معرفةً لغويّة) على قراءة نصوصنا، يمكننا أن نكيّف الكتابة العاديّة لتلبية حاجاتنا. في الوقت نفسه، علينا أن نكون واعين بأنّ اختيارنا للكتابة الرسميّة قد يصعّب الأمور على القرّاء أو يقودهم إلى سوء فهم. هذا ما يحصل عادةً مع لغاتٍ لا يعرفها إلاّ القليل من القرّاء. فعندما قرّرت مثلاً اتّباع قواعد إملاء كتابة الساموا في نسخي وبالتالي استعمال الحرف "غ (g)" للإشارة إلى الصوت الحلقي الأنفي، والّذي يُكتَبُ عادةً "نغ (ng)" في معظم أنظمة الكتابة، كان ذلك لعلمي أنّ معظم زملائي وطلاّبي لم يتذكّروا أنّ الكلمة الّتي تُكتَب lâuga ("الخطاب الطَقَسي") تُلفظ [la:u] - فالكلّ يلفظها [lauga]. لا يبدو تفسيري في كتاباتي في الحاشية لمعايير الكتابة الساموا كافياً، حتّى للقرّاء الّذين يملكون معرفة لغويّة متطوّرة. وعليّ ألاّ ألوم القرّاء، بل أن أعيد النظر ربّما بالطُرق الّتي أستعملها

(13) للائحةٍ عن المعايير الّتي يعتمدها محلّلو المحادثة، انظر (Atkinson and Heritage (1984: ix-xvi), M. H. Goodwin (1990: 25-26). لا تقدّم هذه اللوائح إشارة إلى كيفيّة قراءة المعايير الصوتيّة المعتمَدة.

للتواصل معهم. أتكلّم عن ذلك لأشدّد على أنّ **عمليّة النسخ تتضمّن دائماً عمليّة تربية اجتماعية لقرّائنا تدفعهم إلى اعتماد طرق ومعايير معيّنة للنسخ.** علينا أن نقرّر أن ما يهمنا نعبّر عنه في كتابتنا وأن نبتكر استراتيجياتٍ فعّالة للنجاح بذلك. لهذا السبب، النُسخ الذي يصمم للاستعمال الشخصي يختلف عن ذلك الذي نود استعماله في مؤتمر أو مقال منشور. قد يكون علينا، عندما ننشر مقالاً، أن نضخّم معلوماتٍ معيّنة ونبسّط غيرها. نرى بسهولةٍ إلى أيّ حدٍّ يشكل النسخ أعمالاً عابرة، عندما ننظر إلى الحالات حيث ينتقل الباحثون عبر الوقت لدراسة عدّة نواحي أو مستوياتٍ مختلفة في تواصل محادثةٍ ما. فنحصل عندها ليس فقط على عدّة تعديلاتٍ مختلفة لنفس النسخة في منشوراتٍ مختلفة، بل حتّى عدّة كتاباتٍ معدّلَة لنفس النسخة في نفس المقال. نرى ذلك مثلاً في حديث غودوين وغودوين (1992a) عن التقييم، حيث يظهرون الطبقات المختلفة للتفاعل المعقّد خلال تبادلٍ قصير، بإدخال تعديلاتٍ مختلفة على نفس النسخة. أقدّم هنا التعديلات الأربعة الأولى فقط (من أصل ثمانية في المقال):

(13) النسخة المعدّلة 1، (Goodwin and Goodwin 1992a: 161)

Dianne: Jeff made en asparagus pie

(ديان: صنع **جيف** فطيرة بالاسبراجس)

it wz s::so: goo:d.

(كانت طيّبة جدّاً)

(13)' (النسخة المعدّلة 2، نفس المرجَع، ص 163)

Dianne: Jeff made an asparagus pie

(ديان: صنع **جيف** فطيرة بالاسبراجس)

it wz s::so [: goo:d
→Clacia: [I love it.

(كانت طيّبة جدّاً)

(كلاسيا: أحبّها)

(13)" (النسخة المعدّلة 3، نفس المرجَع، ص 166)

Dianne: Jeff made an asparagus pie
it wz s::so [: goo:d
→Clacia: [I love it
└─┘ └─┘
*((nod nod))

(كانت طيّبة جدّاً)

(كلاسيا: أحبّها)

((يهزّ برأسه مرّتَين))

(13)"' (النسخة المعدّلة 4، نفس المرجَع، ص 168)

((يُخفض صدره)) ((يهزّ رأسه ويقطب الجاجبَين))

((lowers upper trunk)) ((nod with eyebrow flash))

Diane: it wz s::so : goo: d.
→Clacia: [I love it
└─┘ └─┘
((nod nod))

(كانت طيّبة جدّاً)

(كلاسيا: أحبّها)

((يهزّ برأسه مرّتَين))

قد لا تكون هذه التقنيّة عمليّة في ما يتعلّق بنسخ تمثّل عدّة دقائق أو ساعاتٍ من المحادثات التفاعلية[14]، ولكنّها تَعطينا تمثيلاً

(14) ليس في المطبوعات التقليدية على كلّ حال. يصبح ذلك أسهل مع استعمال تكنولوجيا الحاسوب الإلكتروني.

قويّاً للعمليّات التحليليّة الّتي قام بها الباحثون عند تفحّصهم عدّة جوانب من المعلومات الّتي حصلوا عليها من التسجيلات (شريط فيديو في هذا المثَل).

يمكن إدخال الحركات الجسديّة، في نسخ التفاعلات الطويلة، باستعمال الأقواس الّتي ابتكرها محلّلو المحادثة لتمثيل الكلام المتداخل بشكلٍ أوسع. قد استعمل أوكس وجاكوبي وغونزالس هذه التقنيّة في النسخ التالية:

(14) التلميذ: [اسمح لي بأن أقول لك (0.2) أنّه هناك شيء (.)

[((يمشي نحو اللوح؛ يعدّل نظّاراته))

mo:re I can say: mtsk is [that that (0.20 those gu-

أستطيع أن أقول أكثر . . . (0.2) أنّه أنّه

[((points to j))

[((يشير على ي))

that dynamics starts (0.5) not at the moment you

لا بدأ هذا العمل (0.5) عندما أنتَ

[reach this point (0.5) [but [at the moment

[تصل إلى هذه النقطة (0.5) [ولكن [حاليّاً

[((*points to b, looks at PI*)) [((*looks at board*))

[((يشير إلى ب، بنظر إلى ب ي [((ينظر إلى اللوح

[((*points at a*))

[((يشير إلى

(Ochs, Jacoby, and Gonzales 1994: 153)

لتقديم النسخ المرئي، كما يشير إليه أوكس، تأثيرُ مهمّ وتداعياتٌ على الأسلوب الّذي يتّبعه القرّاء لاستيعاب المعلومات وتقييم أهميّة العناصر المختلفة.

أصبح التفضيل المعتاد للكلام على التصرّفات غير الكلاميّة ـ كما يعكسه المصطلَح نفسه كتعريفٍ سلبي (ما هو غير تلفظي **ليس** كلاميّاً) ـ حالةً أكثر اعتماداً باستعمال تكنولوجيا الفيديو المعمّم والنوعيّة الجيّدة للصوت والصورة. يتعلّم الباحثون أن يشملوا في أعمالهم التمثيلية معلوماتٍ يمكن للمتفاعلين الحصول عليها، بينما كانوا يدوّنون هذه المعلومات بشكلٍ غير دقيق في ملاحظاتهم الميدانيّة في الماضي.

6.5. التمثيل المرئي غير المكتوب

بالرغم من أنّ المقابلات وجهاً لوجه تسود غالباً في التفاعلات، قد يتجاهل النقل المكتوب الّذي لا يُظهِر إلاّ ما يقوله الناس جوانبَ مهمّة من ما يحدث بين المشاركين في المحادثة. ولكنّ النسخ الذي تكلّمت عنه حتّى الآن قد أبتكر لتمثيل الكلام وليس غيره من أشكال التواصل أو الأفعال الاجتماعية. يعرف كلّ من حاول تمثيل ما يفعله الناس خلال تفاعلهم وجهاً لوجه لمدّةٍ ما على ورقة أنّ الكتابة التقليديّة ليست سوى أداةً تفتقر للكثير في تمثيلها التواصل المرئي وكلّ ما يحيط بالمشاركين في الحديث. لا تعبّر الكتابة إلاّ نادراً عن كلّ ما تحتويه الأعمال البشرية. بالإضافة إلى ذلك، عندما تحوّل التوصيفات الكلاميّة ما هو غير كلامي إلى ما هو كلامي، توطّد هيمنة الكلام على غيره من أشكال التعبير لدى الإنسان، ولا تعطينا فرصةً لكي نقيّم كيف تساهم عناصر أخرى، غير كلاميّة، على طريقتها الفريدة في تشكيل الأفعال الّتي ندرسها. يبقى صحيحاً في حالاتٍ كثيرة القول أنّ الصورة أفضل من ألف كلمة. فتكشف ردّات فعل الطلّاب أمام الشرائح والتسجيلات الخاصّة بالمناظر الطبيعيّة أو الوقائع الاجتماعيّة الحد الذي ضلّلتهم الكلمات المكتوبة. فهناك مثلاً اختلافٌ كبير بين وصف داخل وخارج منزلٍ ما والنظر إلى صورته.

وفي بعض الحالات، تمنع أفكارٌ مسبَقة عن شكل حدثٍ ما القرّاء من استيعاب ما قد كتبه المؤلّف. فقبل أن يرى بعضٌ من تلاميذي شريط فيديو عن **فونو** ساموا، اعتقدوا أنّ الرؤساء يقفون في مثل هذه الاجتماعات. وقد تعجّبوا لذلك عند رؤيتهم الجميع جالسين حول المنزل.

استعمل علماء الاجتماع أساليب متعدّدة في السنين الماضية للتحسين المرئي ولتمثيل المطبوع في لحظات تفاعلية عابرة. يعتمد كلّ أسلوبٍ على تقليدٍ مختلف ويكشف عن اهتماماتٍ نظريّة مختلفة. سأركّز هنا على تقليدَين: تمثيل الإيماء الجسدي وتمثيل قدرة المشاركين على التواصل المرئي بعضهم مع بعض ومع محيطهم.

1.6.5. تمثيل الإيماء

Action quasi sermo corporis
(Cicero, De oratore 3.222)(15)

اندهش الأنثروبولوجيون وعلماء الأخلاق وغيرهم من علماء الاجتماع في قضية النسبية العلمية والثقافية للإيماءات والتعابير، (Bremmer and Roodenburg 1992; Eibl-Eibesfeldt 1970; Polhemus 1978)، على الأقلّ منذ اهتمام داروين بالإيماء البشري كمصدرٍ علمي يساعد على فهم تطوّر الإنسان. وقد جذبت هذه المسألة الأنثروبولوجيين لأسباب متعدّدة، بما فيها حاجتهم إلى إعطاء وصفٍ دقيقٍ للعمليّات التواصليّة.

يعلم الأنثروبولوجيّون الاجتماعيّون ـ الثقافيّون والألسنيّون منذ وقتٍ طويلٍ بضرورة أضافة وصفٍ أكثر دقّةً وتفصيلاً يعتمد على

---

(15) "الأداء هو، نوعاً ما، لغة الجسد" (Graf 1992: 53).

وثائق أكثر جدارة بالثقة إلى الروايات الإثنوغرافية التقليدية الّتي تعتمد على المراقبة المرئية المباشرة. فقد أسف غريغوري باتيسون (Gregory Bateson) مثلاً، في "خاتمة 1936" كتابه **نافين** ـ وهو عملٌ إثنوغرافي عن شعب الياتمول في غينيا الجديدة الذي يُعتبَر اليوم من أهمّ الأعمال في هذا الحقل ـ لأنّه اضطرّ إلى استعمال وصفٍ غير واضحٍ وناقصٍ للممارسات التعبيريّة أو "النغمات" كما يقول، عند أعضاءِ المجتمع الفعّالين: "علينا، طالما لم نبتكر تقنيّاتٍ تسمح بتسجيل وتحليل وضع الجسد البشري، وإيمائه، وطبقات الصوت، والضحك... إلخ، أن نكتفي بمسودات صحفيّة "لنغم" التصرّفات" (Bateson 1958: 276).

بفضل أعمال الأنثروبولوجيين المرئيين، والمخرجين السينمائيين الإثنوغرافيين، وعلماء الأخلاق، والأنثروبولوجيين الألسنيّين المهتمّين بما هو مرئي، أصبح التسجيل والتحليل للإيماء مؤخّراً أكثر شيوعاً في الدراسات الأنثروبولوجية.

يعترف الجميع الآن بأنّه يجب فهم ما يقوله الناس لبعضهم البعض في تفاعلاتهم وجهاً لوجه بالنظر إلى ما يفعلونه بجسدهم وإلى مكان وجدهم. انظر (Birdwhistell 1970; Farnell 1995; Goodwin 1984; Goodwin and Goodwin 1992a, 1992b; Hall 1959, 1966: Kendon 1973, 1977, 1990, 1993; Kendon, Harris and Key 1975; Leach 1972; Schegloff 1984; Streeck 1988, 1993, 1994; Streeck and Hartge 1992). يعني ذلك أنّ أحد أكبر تحديّات تمثيل الإيماء لا يعود فقط إلى تمثيل وضع جسدي معيَّن أو حركة جسديّة باستعمال عددٍ من الرسوم، بل إلى كيفيّة إبقاء صلةٍ مرئية على الورقة مع الكلام الحاصل في الوقت نفسه. تركّز بعض الأعمال الحديثة الّتي يقوم بها الأنثروبولوجيّون الألسنيّون، مستخدمين الوثائق السمعية

ـ المرئية، على التداخل المتكرّر بين التواصلات الكلاميّة والمرئيّة في التفاعلات اليوميّة.

استخدم غودوين (Goodwin) (1979, 1981)، محاولاً بذلك توسيع تحليل المحادثة ليشمل عوالم غير التواصل الشفهي وحده، مجموعة من المعايير تمّ ابتكارها خصوصاً لتضمين معلوماتٍ عن أنماط التفرّس النظري في سلاسل الكلام المتبادَل. يحاول غودوين (1979, 1981: 131-133)، في ما يلي مثلاً، أن يمسك العلاقة بين اعادة تشكيل الكلام عندما تتحرك عين المتكلم في الحديث من مشارك إلى آخر.

(15) (Goodwin 1979, 1981)

جون: . . . . دون . . . . دون

]]

لقد توقّفتُ، تو ق ف تُ عن تد خين الس جائر : :،

]

دون: . . . . X ______

دون: = أجل

جون: . . . . بيث . . . . أنّ (Ann)

]]

ل ـ اه: منذ أسبوع واحد **واحد** الي: وم، حقيقةً،

بيث :

أنّ: . . . . بيث ، . . . . . . جون

يتمّ الرمز إلى نظر المتكلّم، في هذا المنهج، فوق ما يقوله وإلى من يصله الكلام تحته. ترمز النقاط إلى انتقال نظر الفرد من

شخصٍ إلى آخر. وترمز الخطوط إلى نظر شخصٍ إلى شخصٍ آخَر. وترمز الفواصل إلى تراجع النظَر. استطاع غودوين، باستعماله لهذه الرموز، أن يُظهِر كيف تتأثّر أقوال جون (**لقد توقّفتُ عن تدخين السجائر منذ أسبوع الآن حقيقةً**) (أ)، إذا نظر السامع إلى المتكلّم (يغيّر جون ما يقولُه في توجّهه نحو مستمِع أو آخَر، ويضيف في النهاية الظّرف **حقيقةً**، ممّا يعطي وقتاً كافياً لكَي تتمكّن من النظر إليه بدورها)، و(ب) بمدى وكيفيّة معرفة السامع للحدث الّذي يتحدّث المتكلِّم عنه (بيث هي زوجةُ جون، وتعرف مسبقاً أنّ جون يحاول وقف التدخين، ونفهم لذلك سعيه لتحويل الحدث إلى عيدٍ بقوله **منذ أسبوع**).

يستعمل هافيلاند، نقاطاً أساسيّة في دراسته المقارنة للتركيبة الرمزيّة للمكان والحركات في حاليتَين كلاميّتَين مختلفتَين، مزيجاً من النسخ الخطّي، والوصف الكلامي للإيماء، ورسوم لتفسير كيف يتبع متكلّمو الغووغو ـ ييميثيرّ، عند سردهم لقصّة، تجعل هذه القدرة والممارسة نظاماً يوجههم بشكل "مطلق" وليس "نسبي" (Haviland 1996: 285).

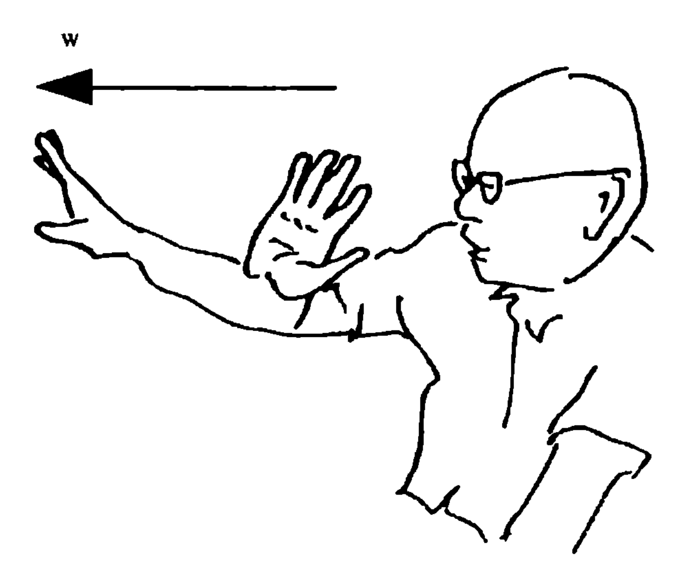
. . . . ! . . . .

ماثي ماضي ـ ماناثي

مطر+ مُطلق الماضي ـ أصبح ـ ماضياً

"كان المطر قد مرّ من هنا."

اليد اليمنى : الكفّ مفتوح، سُحبَ نحو ي (E) ثمّ دَفَع و(w) إلى الأمام، انزلها بعض الشيء.



الرسم 2.5. نص وصورة حادثة سرد القصّة (1)

(Haviland 1996: 310)

نقل من الكتابة نحو الصور الرقميّة

...... !..............

ويوالين نغووكبعرّ غوثييرّا نهعثي

شاطئ ـ مكان ظلّ + مُطْلَق اثنين + مُطْلَق رأى ـ ماضي

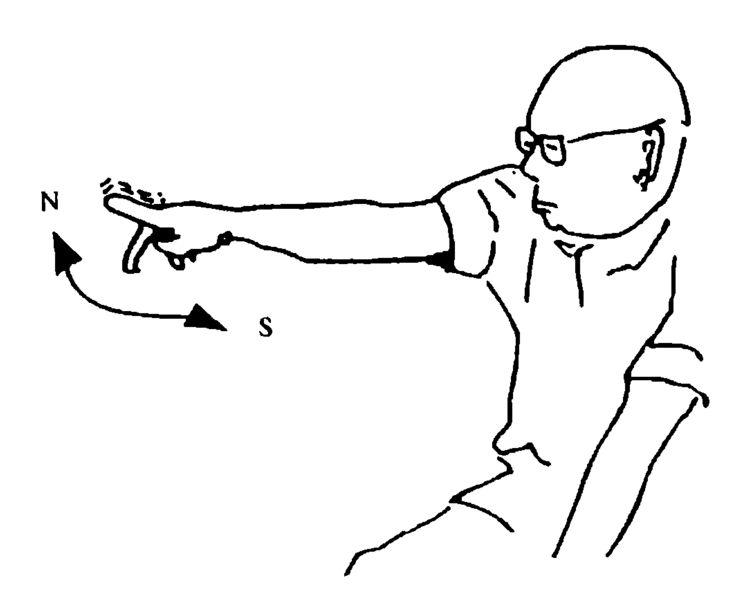
غادعريغا

جاء + أحمر ـ ماضي ـ فاعل

"ورأى ظلَّيْن آتيَين من الشاطئ" .

اليد اليمنى : تشير بذراعٍ ممتدّة و (W)،

تحريك س (S) إنزالها نحو الحضن.

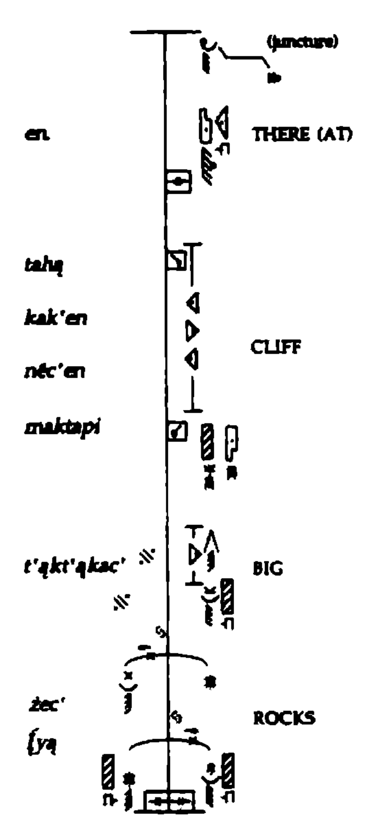


الرسم 3.5. نص وصورة سرد القصّة (2) (Haviland 1996: 311)

يهتمّ الأنثروبولوجيّون الألسنيّون بالأخصّ، في هذه الحالات وغيرها، بالطريقة الفريدة الّتي تساهم الإيماءات الّتي ترافق أو تحلّ محلّ الكلام في سياق تفاعل الحديث وتعتمد على معرفة إسهام المشتركين. وصفت بريندا فارنيل (Brenda Farnell)، في دراستها للغة إشارات هنود السهول وغيرها الحركات الّتي تلازم روايات ناكوتا (أو أسّينيبوين) مثلاً، استعمال الشفتَين بدلاً عن إصبع الدلالة ـ كما نجده عموماً في الكثير من جاليات الأميركيين الأصليين (انظر Sherzer 1973) ـ كإيماءٍ يزوّد المشاركين في التبادل بنوعٍ من الألفة والتاريخ المشترَك:

> تعود أهميّة أداء هذا الإيماء إلى كونه صغيراً وغير بيّن، ويُستعمَل في معظم الأحيان للحفاظ على سريّة حميمة بين المتكلّم والسامع، وقد يخسر هذه السريّة إذا ما وجّه اصبعه أو تكلّم بدلاً من ذلك. (Farnell 1995: 158).

يستعمل فارنيل، لكي يعبّر عن العلاقة المعقّدة، وهي مع ذلك منظَّمة، بين الكلام والإيماء والمكان، طريقة كتابة لابان (أو الكتابة اللابانيّة)، وهي تشكّل نظاماً من الرموز ابتكرها رودولف لابان (Rudolph Laban) (1956) واصفاً حركات الرقص. تسمح هذه الكتابة لفارنيل بالوصل بين الكلمات (في العمود الشمالي) والأفعال في العمود اليميني.



"يوجد صخورٌ كبيرة تشكّل منحدراً، هناك."

الرسم 4.5. نقل لغة إشارات هنود السهول باستعمال كتابة لابان (Farnell 1995: 94)

ابتكر بيردوايستل (1970)، أحد أوّل عْلماء الحركات الجسديّة، الّذين يدرسون كيف يستعمل الناس أجسادهم للتواصل، نظاماً آخر لنسخ حركة الجسد ونواحي اللغة العروضيّة غير اللغويّة. لهذه المعايير الكتابية قيمة عالية بالنسبة للمحلّلين، لأنّها تسمح لهم برؤية أنماطٍ معيّنة في بياناتهم، ولكن يبقى فهمها صعباً للقارئ الّذي لا يملك الخبرة والمعرفة اللازمة.

يشتكي الّذين يدرسون الإيماء كثيراً من عدم إعطاء الإيماء انتباهاً كافياً، وذلك بعكس الكلام، في دراسة التواصل البشري، ويؤدّي ذلك إلى عدم تغيير التقاليد القاضية باعتبار الأفعال التواصلية وحداتٍ نحويّة. يعود ذلك جزئيّاً فقط إلى محدودية التكنولوجيا أو موقع الكلام المركزي في المجتمعات البشريّة. وهو أيضاً نتيجة أيديولوجيا الوقائع التواصليّة الّتي تعتبر الكتابة (وبالتالي النصوص المكتوبة) أعلى أشكال التواصل البشري والتمثيل الأيقوني أقل تطوراً منها (Farnell 1995: ch 2). في الحقيقة، تلائم الكتابة (بالأخصّ الكتابة الأبجديّة) تحليل تركيبة السلسلات الصوتيّة الّتي يمكن تجزيئها (انظر الفقرة 1.5.) أكثر من ما تلائم أنواع التواصل الأخرى، وبالأخصّ الإيماء.

2.6.5. تمثيل ترتيب المكان ورؤية المشاركين

تسهّل تكنولوجيا الفيديو والحاسوب الإلكتروني أكثر فأكثر اليوم تحليل وتسجيل التبادلات الكلاميّة والإيماء. من الممكن الآن مثلاً تمثيل ترتيب مكان التفاعل وفهم المشاركين بعضهم لبعض بنقل صورة فيديو على ورقة (أو شاشة الحاسوب الإلكتروني). يتمّ ذلك بترقيم صورة مأخوذة من شريط فيديو. تظهر الصورتان في (الرقمين 6.5. و7.5. مثلاً اللذين يوضحان أشكالا مختلفة من المشاركة لنفس

الحدث الروائي. الرجل (M) في شمال 6.5 .**مراقب هام**
أخذتُ هذا التعبير عن ليف (Lave) وفينغر (Wenger) (1
يستمع إلى القصّة الّتي تسردها المرأة خلف الطاولة (R)، و
يشارك في الرواية. أمّا في 7.5.، فنرى الراوية R (في
الصورة، يبتسم) تتحدّث مباشرةً إلى المرأة المتعاطفة معها في
اليمين، D، وهي تعتبرها المستقبِلة الأولى لنظرها ووضع -
(فهي تقف وتوجّه انتباهها إليها من بين المشتركين الآخرين).



الرسم 5.5. الرجل الواقف إلى اليمين (M) يستمع إلى قصّة R كمشاركٍ ه



الرسم 6.5. تضحك أول مستقبلة للقصة على نكتةٍ فيها.

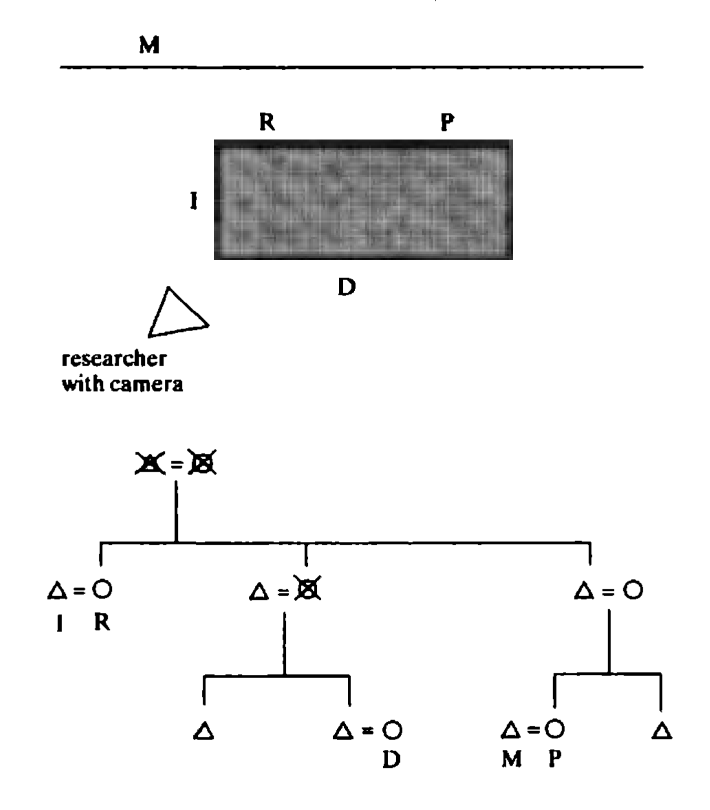
3.6.5. دمج النص والرسوم والصوَر

بالرغم من قدرة الصور كالّتي نراها أعلاه على التعبير عن شعور اللحظات العابرة بطرقٍ تستحيل على الكتابة أو التسجيل الصوتي، فهي تفتقر مع ذلك إلى المعلومات المتوفّرة للمشاركين والّتي قد يحتاج إليها المحلّلون في عملهم. فكاميرات الفيديو مثلاً لا تسجّل أسماء الناس أو العلاقات الاجتماعيّة إلاّ إذا تكلّم عنها المشاركون في الحَدَث. وهي لا تعطي صورةً شاملة، بـ 360 درجة، للواقع وموقع كلّ شخصٍ بالنسبة للآخَرين. وبالتالي، وبالإضافة إلى الصورتَين أعلاه، قد يكون من المفيد أحياناً أن يُعطى القارئ رسماً بيانيّاً يحتوي على معلومات لا توجد في الصورة. نرى في الرسم 7.5 مثالاً عن استعمال برنامج كمبيوتر تخطيطي لتمثيل ترتيب مقاعد المشاركين حول الطاولة وعلاقاتهم العائلية (لتقنيّة مماثلة، انظر Goodwin and Goodwin 1992b).

عندما ننسّق بين معلومات الرسم 7.5. والصوَر والرؤية الخطيّة عن ما تم قوله - وهو رواية عن أوّ لقاء بين R وحماتها حدث منذ حوالى ثلاثين سنة - نتمكّن عندها من فهم تركيبة الحدَث. فنجد I مثلاً يضيف إلى رواية R تعليقاتٍ وتوضيحاتٍ يوجّهها لـP الجالس أمامه. وهو يعطي توقّعاته أيضاً لما ستقوله R. عندما نضيف مثلاً إلى الرواية معرفتنا لأن I وR متزوجان، نفهم أكثر مساهمة I في الحَدَث. وهو الوحيد الّذي يعرف بشكلٍ مستقلٍ الأحداث والأشخاص الّذين تتكلّم عنهم R في روايتها. وهو حتّى أحياناً إحدى شخصيّات رواية R. هذه السمات ترسخ مساهمته **كروائي مساعد** مثالي، ولكن ليس **كمستمع أساسي** - فهو يعرف القصّة مسبقاً (انظر الفصل 9)[16]. قد نرى أيضاً اختلافات بين D وP من جهة، وبين D

(16) لا يعني ذلك أنّ الناس لا يسردون لبعضهم رواياتٍ يعرفونها مسبقاً، فهم يفعلون ذلك أحياناً، ولكنّهم عند ذلك يضعون إطاراً جديداً لروايتهم.

وM من جهةٍ ثانية، فيساعدنا ذلك على فهم اختيار R لـ D كمستمع أساسي لها. D هذه المرأة الوحيدة المرتبطة بـ R في المشهد. يعني ذلك أوّلاً أنّه من غير المحتمل أن تعرف رواية R. بالإضافة إلى ذلك، فإن واقعها يشبه واقع R في قصّتها الشخصيّة. D هي صبيّةٌ تزوّجت أحد أعضاء عائلة R. قد يكون من الأسهل لها أن تفهم وضع R أو ردّات فعلها أمام حماتها.



الرسم 7.5. ترتيب المكان والعلاقات النسَبيّة بين المشاركين في المشهد في الرسمَين 5.5. و6.5. أعلاه.

من المهمّ عند القيام بهذا النوع من التحليل أن نتذكّر أنّه لا يمكن التحديد مسبقاً ما إذا كانت بعض الحقائق الخاصّة بالمشاركين

تتعلّق بما علينا أن نقوله عن ما يقولونه. لا نستطيع أن نقول مرّةً واحدة وإلى الأبد أنّ النَسَب أو الجنس مهمٌّ في التفاعلات الاجتماعية (انظر الفقرة 2.3.8.). ففي بعض الأحيان ليس هناك من علاقة بين النسَب (أو غيره من الصفات الاجتماعية كالجنس والطبقة الاجتماعيّة والعرق والمهنة) والحدث الحاصل. علينا أن نأخذ بعين الاعتبار كلّ مرّة أهميّة الصفات المختلفة أو ما يعرفه المشاركون بعضهم عن بعض. في الوقت نفسه، من الواضح أنّ معرفة خلفيّات المشاركين هذه تفتح للمحلّل الكثير من السؤالات، الّتي تسمح له بإعطاء رواياتٍ أكثر تعقيداً (أو "سماكةً"، كما يقول غيرتز) (انظر الفقرة 2.3.2). فيؤدّي ذلك إلى فرضيّاتٍ جديدة لم تكن ممكنة من قبل. ويميّز ذلك الأنثروبولوجيا عن غيرها من تحاليل المحادثة : فهي تلتزم بإيجاد طرقٍ ملائمة لدمج المعلومات في النسخ المكتوبة مع المعرفة الّتي يشترك بها أو يحصل عليها المشاركون في الحدث.

بالطبع، عندما يتمّ الكشف عن معلوماتٍ إثنوغرافيّة جديدة عن واقعٍ ما، نودّ عندها أن نحصل على المزيد منها. علينا إذا أن نواجه حقيقة كون الكشف عن معرفة ثقافية عن المشاركين قد يتحوّل إلى عمليّة لا نهاية لها. وقد لمّح غيرتز إلى حصول ذلك في العمل الإثنوغرافي، عندما سرد قصّة "السلاحف" الّتي أصبحت اليوم معروفة:

هناك قصّةٌ هنديّة ـ أو على الأقلّ قد سمعتُ بأنّها قصّة هنديّة ـ عن رجلٍ إنجليزي قيل له بأنّ العالم يجلس على منصّة تجلس على ظهر فيل وأن الأخير يجلس على ظهر سلحفاة، فسألَ (قد كان ربّما إثنوغرافيّاً، فهم يتصرّفون دائماً بهذا الشكل) على ماذا تجلس السلحفاة؟ على سلحفاةٍ أخرى. وهذه السلحفاة

الأخرى؟ "آه يا صاحبي، بعد ذلك لا تجد إلاّ سلاحف في الأسفل". هذه هي طبيعة الأشياء. . . . التحليل الثقافي هو في جوهره غير كامل.

(Greetz 1973: 28-29)

لهذا السبب، يعتبر البعض التحليل الثقافي مثبطاً للعزيمة. فما هذا العِلم الّذي ندرسه إذا لا نستطيع الوصول إلى الأساس؟ ولكن هذا هو بالضبط ما يميّز حياة الانسان، أي وجود عددٍ لا متناهٍ من الطبقات والمعاني في كلّ ما نقوم به. وبما أنّ علمنا يقضي بالنظر إلى هذه الطبقات فهو ينتمي إلى ما ندرسه ـ أي أنّه جوهريّاً انعكاسي (Luhmann 1981) ـ ولا نهاية لمعرفتنا ولا لموضوع دراستنا. المسألة هنا لا تخصّ كيفيّة تجنّب دخول الطبقات غير المتناهية، بل كيفيّة إيجاد ترتيبٍ لها، قد يشبه أحياناً النظام الّذي يقترحه المشاركون أنفسهم، وقد يختلف عنه أحياناً أخرى، وقد يجدونه غريباً أو مقرفاً. ومرّةً أخرى، تختلف أساليب دراسة التفاعلات الاجتماعية بين حقلٍ دراسي وآخر لأنّ كلّ حقلٍ يتبع منهجه التفسيري الخاص. فلا يقيّد الأنثروبولوجيّون الألسنيّون تحليلهم بأشكال محدّدة (كما يفعل غالباً النحويّون ومحلّلو المحادثة) أو بمحتوياتٍ معيّنة (كما يفعل علماء النفس غالباً)، بل يفكّرون بطرقٍ تسمح بدمج المعلومات الّتي يحصلون عليها **من مختلف العمليّات التفسيريّة**، بما في ذلك المراقبة ـ المشارِكة التقليديّة والملاحظات الميدانيّة، والرسوم، والصور الرقميّة، والنسخ المكتوبة والترجمات فيها، والقوائم النَسَبيّة.

7.5. الترجمة

اسمحوا لي أن أبدأ بجملةٍ قد تبدو متناقضة ولكنّها واضحة وصحيحة تماماً، ألا وهي أنّه لا

يمكن أبداً ترجمة كلمات لغةٍ إلى لغةٍ أخرى.
.(Malinowski 1935, vol. 2: 11)

يعمل معظم الأنثروبولوجيّون الألسنيّون على لغاتٍ تختلف عن لغتهم الأصليّة، وعليهم أن يقدّموا ما سجّلوه على شريطٍ إلى جمهور لا يعرف غالباً اللغةَ الّتي يتكلّمها المشاركون في المحادثة. يعني ذلك أنّ **الترجمة** تشكّل بالنسبة للأنثروبولوجيين الألسنيّين جزءاً مهمّاً من تحضير كتاباتهم. يعني ذلك أكثر من التنقّل من لغةٍ إلى أخرى. فهو يقود إلى سلسلة من التفسيرات والقرارات الّتي لا تلاحَظ إلاّ نادراً في العمل النهائي، الّذي قد يبدو نصّاً كغيره من النصوص. تفترض الترجمة في الحقيقة، وكما قال مالينوفسكي نظريّاً منذ وقتٍ بعيد (1923)، قدرة الشخص على الوصل بين الكلمات وسياق الحال الّذي قيلت فيه. وهي، بالنسبة للأنثروبولوجيّين عملٌ له صلة قويّة بالإثنوغرافيا. وهي تحتاج لا إلى فهم سياق الحال المباشر فقط بل أيضاً الافتراضات العامّة لدى الناس، في رؤيتهم للعالَم، بما في ذلك كيفيّة وصلهم بين استعمال اللغة والعمل الاجتماعي. إذا ما اعتبرنا أنّ الترجمة تقضي بالوصل بين كلمات أو عبارات لغةٍ ما ولغةٍ أخرى، فقد تفوت علينا أهمّ مساهمات الدراسة الأنثروبولوجيّة للّغة، وهي الفكرة القائلة بأنّ الأنثروبولوجيّين يعتبرون عمل الترجمة متعلّقاً بالإثنوغرافيا، بسياق الكلمات في العمل والأنظمة الاجتماعية ـ السياسية والثقافية الّتي يشارك فيها المتكلّمون.

تبدأ الترجمة في الميدان، عندما يسعى الأنثروبولوجي الألسنيّ إلى إنتاج **نسخة معلّقة** (Schieffelin 1979, 1990). لا تحتوي النسخة المعلّقة فقط على ملاحظاتٍ عن الواقع الذي كتِبت خلاله التسجيلات (انظر الفصل 4)، بل أيضاً على أشكال عديدة من التفسير الّذي تمت خلالها عمليّة النسخ. اكتشف شيفلين بسرعة، خلال تحضيره نسخ

عن 83 ساعة من الكلام العفوي بين أطفال كالولي وأمّهاتهم، وأخواتهم، والقرويّين، أنّ تعليقات الأمّهات على الشريط، بما في ذلك ضحكهنّ على ما اعتبرنه مضحكاً، تشكّل مصدر معلوماتٍ مهمّ عن رؤيتهنّ لواقع معين. تمّ دمج هذه التعليقات، مع التفسيرات الّتي أعطاها المساعد الّذي لم يكن موجوداً عند التسجيل، في نسخةٍ احتوَت على أكثر بكثيرٍ من الكلمات المتبادلة بين المشاركين. يشكل النسخ من هذا النوع أساس الترجمات الآتية. تتوفّر اليوم عدّة تقنيّاتٍ لمتابعة هذه التعليقات المتواصلة. يمكن تسجيل التفاعل مع المشارك/ المُخبِر/ الباحث المساعِد على شريط، ويمكن كتابة الملاحظات على جانب صفحات النسخ، ويمكن أيضاً (عند استعمال الحاسوب الإلكتروني) إضافة حاشياتٍ إلى النص.

هناك عدّة صيغٍ لتقديم النسخ مع الترجمات. تُستَعمَلُ كلّ الصيغ الّتي سأقدّمها حاليّاً في أعمال الأنثروبولوجيين الألسنيّين، ولكلّ منها نتائجه وتأثيره الخاصّ. أتكلّم عن كلٍّ منها على حدة لكي أسمح للقرّاء باختيار المنهج الّذي يناسبهم. لا وجود لأي نسخٍ **مثالي**، ولكنّ بعض النسخ **أفضل** من غيرها لتلبية حاجةٍ معيَّنة!

الصيغة 1: ترجمة فقط

تقضي أوّل صيغةٍ باستعمال الترجمة وحدها. يحصل ذلك عادةً عندما يريد الباحث أن يركّز على محتوى ما قد قيل، أو عندما يشعر بأنّ النص الأصلي قد يكون غير مهمّ. إليك مثالاً من نسخ لجزءٍ من تحيّة كونا طقسيّة بين "رئيسٍ" يرتّل (رر) و"رئيسٍ" يجاوب (رج) في داخل "منزل التجمّع":

(16) رر نعم تبدو كما أنت دائماً.

رج: أجل.

رر: في الحقيقة.
ما زلتَ تبدو.
بصحّةٍ جيّدة.
رج: أجل
رر: في الحقيقة الأرواح الشرّيرة.
في الحقيقة لا أريد.
أقول.
رج: أجل.
رر: أرواح شرّيرة قويّة، كما ترى.
فلا أريدها أن تدخل.
رج: أجل.
رر: أنا ما زلتُ الآن بصحّةٍ جيدة، قُلْ.
في الحقيقة ما زلتُ كذلك.
رج: أجل. (Sherzer 1983: 75)

نرى من هذا المثال أنّه حتّى عندما لا يوجد إلاّ ترجمة، من المهمّ رؤية نصّ مرتّبٍ بشكلٍ ما لكي يعبّر عن افتراضاتٍ مهمّة عن كيفيّة تفسير المعطيات. في الحالة هذه، تفترض الصيغة المستعمَلة مفهوم **بيت شعرٍ** و**قصيدة**. فأبيات الشعر، كما يقول شيرزر في فصلٍ آخَر، "تحتوي على رموزٍ نحويّة تظهر في مجموعة معقّدة تتألّف من بدايات الأبيات ونهايتها، وكلمات وتعابير" وتوازياتٍ نحويّة ورمزيّة وأنماط صوتيّة (Sherzer 1983: 41). ما يحدّد كيان القصائد ـ في روايات كونا والهنود الحمر عامّةً - "ليس عدد الأجزاء، بل ملاحظة وجود تكرارٍ في إطارٍ معيّن، وعلاقة الوحدات المفترضَة بعضها مع

بعض في داخل مجموعة متكاملة" (Hymes 1981: 318). بمعنىً آخر، تفترض النصوص كما في النص 16 أعلاه وجود نظريّة معقّدة عن الشعر المحلّي، وعلى الباحث أن يجد طرقاً تسمح بإظهارها، إن كان ذلك في نفس النصّ أو في غيره. في بعض الحالات، يقوم الأنثروبولوجيّون الألسنيّون بتجارب في الطباعة لكي يُظهروا في ترجماتهم بعض الميّزات العروضيّة الموجودة في الأداء الشفهي. فاستعمل تيدلوك (1983) مثلاً حروفاً كبيرة للإشارة إلى ما قيل بصوتٍ عالٍ (ونجد ذلك الاستعمال في تقاليد كتابيّة أخرى)، وخطوطاً واصلة أو أحرف علّة متكرّرة للإشارة إلى طول الصوت، وعلواً مختلفاً للإشارة إلى تركيباتٍ نغميّة، وحيث تشير "الحروف المنسكبة" إلى انخفاض النغّم الصوتي:

(17) ذهبت الفتاة إلى الداخل ووضعت المزيد من الخشب، وكانت النار قويّة، ومن ثمّ اقتربَت

مناديّة

هوووووووووووووووووووهاااااااااااااا

ا

ا

ا

ا

ي قالت.

سمعتها الفتاة حينها بشكلٍ واضح. (Tedlock 1983: 84)

لا شكّ في أنّ وجود الترجمة فقط يسهّل القراءة، عدم وجود النصّ بلغته الأم يعني عدم إعطاء فرصة للباحثين الآخرين أن يتثبتوا أو ينتقدوا الترجمة الّتي قرّر المؤلّف اعتمادها. لهذا السبب يذهب

معظم الأنثروبولوجيين الألسنيّين ضد رغبات محرّري المجلاّت العلميّة والمطابع، فيشدّدون على ضرورة تقديم النصّ الأصلي وترجمته معاً. يمكن القيام بذلك بعدّة طرق.

الصيغة 2. النصّ الأصلي وترجمته الحرة

ابتُكرت هذه الصيغة للحفاظ على وحدة النصّ في كلّ لغة. نجد النصّين مثلاً في (18) أحدهما أقرب إلى الآخر، للحفاظ على توازٍ أفقي.

(18) (جدل خلال اجتماع الإدارة)

المجادل

1. lo que se NECESITA ما نحتاج إليه...

2. Yo soy de ese opinión هذا هو رأيي.

3. A mí no me importa لا يهمّني

4. quien es usted من تكون

5. De comision como عضو في المجلس أو أيّ

6. quiera que SEA تريد أن تكون

(Briggs 1986 : 78)

يساعد استعمال السطور القارئ على مقارنة النصّ الأصلي بترجمته. وتُستعمَل أيضاً الفراغات في أبيات الشِعر الطويلة، كما يقترح جويل كويبرز في نسخه لكلام فيفيوا الطَقسي :

(19)	oruta koki	اجمع القرود	1
	ta kalunga	في الحقل	2

	كي نستطيع أن	ka ta mandi'i teppe
3	نجلس على الحصيرة	
4	اجمع الخنازير	wandora-na wawi
5	في المرج	ta maredda
6	كي تحصل على الجنيه	kai terrena pa-mama

(Kuipers 1990: xvi)

في تنوع هذه الصيغة، "تنتمي كلّ من السطور 1 إلى 3 و4 إلى 6 إلى بيتٍ شعر واحد." (المرجع المذكور).

ما زالت هذه الصيَغ تفترض فكرة "البيت الشعري" (انظر أعلاه) وتناسب بالأخصّ الكلام الشعري والطَقَسي، ولكنّها لا تلائم الكلام العادي. تتعقّد الأشياء أيضاً عندما تحتوي اللغة الأصليّة على كلماتٍ مكوَّنة من عدّة مقاطع صوتيّة وأشكال معقّدة. يُجبَر المترجمون عندها أن يقطّعوا الكلمات بشكلٍ تعسّفي، ولا يمكنهم إبقاء التوازي بين شمال ويمين الصفحة:

أمّا أنا، فأنا حزينٌ فقط لأنّ طلباً ـ طلباً كهذا، من شخصٍ يطلب ما هو ملكه، ويقول، "إذاً انظر، لقد أخذوا حماري". "كيف أخذوه منك؟" هكذا وهكذا، ويحزن الشخص في قرارة نفسه لأنّهم أخذوه [... إلخ]

(20) S76: Neh, solamente nimo- yōlcocoa para cē, par
cē demanda, para cē crrecla- marōz cē cosa
īhuâxca, quihtōz, 'Pos xiquitta ōnēchcuilihqueh
in noāx- noh.' 'Pos ¿quçn ōmitzcuilihqueh?' Pos
ih- quīn huān ihquīn, [etc.]

(Hill and Hill 1986: 86)

يريد المؤلّفان هنا أن يكشفا للقراء النص

الأصليّ، دون أن يعرفوا ترجمة كلّ كلمة. للوصول إلى هذا الهدف، عليهم أن يستعملوا صيغةً أخرى.

الصيغة 3. النصّ الأصلي وترجمته الحرة الموازية لكل مورفيم[17] تحت النصّ الأصلي.

يستعمل هيل وهيل هذه الصيغة عندما يتكلّمان عن عمليّات نحويّة معيَّنة. من المهمّ أن نرى، في المثل التالي مثلاً، أنّ كلمة Tlaxcal "تورتيّا" قد أصبحت جزءاً من الفِعل، أي أنّها تبعت عمليّة **دمج الاسم** (Mithun 1986; Sadock 1980):

(21)

أنا أحضّر تورتيّا	ni-tlaxcal-	chīhua
تورتيّا أنا أحضِّر	(Hill and Hill 1986: 251)	I TORTIIIA

في هذه الحالة، نجد النصّ الأصلي على شمال الصفحة، ونجد على سطرٍ مختلف، ترجمة حرفيّة لكلّ مورفيم على حدَة، ونجد أخيراً الترجمة الحرّة على يمين الصفحة. من المهمّ التمييز بينهما، ليس فقط لأنّ الترجمة الحرفيّة قد تستعمل كلماتٍ تختلف عن الترجمة الحرّة، بل أيضاً لأنّ ترتيب الكلمات في اللغة الأصليّة قد يكون مختلفاً عن لغة الترجمة، ممّا قد يصعّب تحليل الترجمة. عندما يكون طول النصّ أكثر من سطرٍ واحد، تصبح صيغة التوازي غير عمليّة، ويجب استعمال صيغةٍ أخرى.

الصيغة 4. تفسير بين السطور لكلّ مورفيم للنص الأصلي، وترجمة حرّة له.

(17) للمزيد عن المورفيم، انظر الفقرة 6.4.

تستعمل هذه الصيغة 3 سطورٍ، الواحد فوق الآخَر، كما نرى في هذا المثال من الساموا:

(22) 523الأمّ ? ’ua uma na ’ē āi :

تأكل أنت مفعول به انتهيت بسسس

"هل انتهيت من الأكل؟"

524الابن يهزّ برأسه

525 الأمّ .alu ese līāa ma igā :

هناك من إذاً بعيداً اذهب

"اذهب من هنا إذاً"

526 الابن o’ : lea e sau e avaku

le mea lea.

هذا شيء فن أخذ ـ اشارة مفعول به جئتُ هذا

"أتيتُ إلى هنا لآخذ هذا الشيء."

(Duranti 1994: 156 بتصرف)

يمكن تفريق كلمات السطر الأوّل (من النصّ الأصلي) بطريقةٍ تسمح بالوصل بين كلّ كلمة وتفسيرها. تناسب هذه الصيغة عندما يودّ المؤلّف أن يتابع القرّاء عمليّة الترجمة بشكلٍ دقيق. فتتّبع كلّ المجلّات العلميّة الألسنيّة هذه الصيغة. مشكلتها الوحيدة تكمن في حشدها الكثير من المعلومات على صفحةٍ واحدة، وهي تستدعي بالتالي أن يعتاد القارئ عليها.

نرى أيضاً في المثالين أعلاه أنّ التفسير لكلّ كلمةٍ وحدها يتطلّب بعض التفسير باستعمال قواعد اللغة؛ يجبر ذلك اللغوي أن يعطي معنىً نحوياً لكلّ مورفيم في النصّ. يفترض استعمال كلماتٍ من القواعد كـ "ماضي" و"مفعول به" و"ال" التعريف و"الإشارة".

وجود نظريّة تخصّ قواعد لغة الساموا قد لا تكون ما يركّز عليه ولو أنّها تحتاج إلى إمعانٍ فيها قبل إعطاء تفسير لكلّ كلمة.

على كلّ من يدرس ويتمرّس بالأنثروبولوجيا الألسنيّة أن يعرف هذه الصيَغ، ليس فقط لأنّه على الطلّاب أن يعتادوا استعمال الصيغ المختلفة، ولكن أيضاً لأنّهم، في عملهم، عليهم أن يعرفوا أنّهم بحاجةٍ إلى صيغةٍ تتبع المعايير المعتمَدة وتلبّي حاجة أبحاثهم الشخصيّة. قد يتوجّب، في بعض الأحيان، استعمال **عددٍ من صيغ النسخ** في مقالةٍ واحدة أو كتابٍ واحد، بحسب ما يريد المؤلّف توضيحه. قد لا يحتاج الباحث في بعض الحالات، عندما يريد أن يحدّد مورفيماً أو كلمةً على سطر، أنّ يفسّر كلّ كلمةٍ وحدها، ويمكن عندها أن يرسم خطّاً تحت الوحدة اللغويّة الّتي يودّ دراستها أو أن يركز عليها. نجد مثالاً عن هذه الطريقة في العمل في (23)، وهو نسخة عن محادثة تزوتزيل، حيث يراقب المؤلّف، جون هافيلاند، استعمال الحرف a'a:

(23) p : xlok' ono nan àa yu'van

بالطبع سيكون هناك عددٌ كافٍ (Haviland 1989: 45)

استعمال التشديد هنا يشير إلى الوحدة اللغويّة الّتي يودّ المؤلّف أن نركز عليها.

قد يجد الباحثون أنفسهم أمام مسألةٍ تحتاج معايير جديدة. ابتكر دون كوليك (Don Kulick) (1992)، في دراسته لاجتماعية اللغة في قريةٍ تُستعمل فيها عدّة لغاتٍ، في بابوا غينيا الجديدة، معايير جديدة تسمح بتحديد اللّغة الّتي يتكلّمها الأشخاص في كلّ مرّة. استخدم حروفاً مائلة للكلمات بلغة التوك بيسين، وكلمات مائلة وتسطير للكلمات باللغة العاميّة المحليّة، التاياب، والكتابة العاديّة في ترجمته.

يساعد رسم سطورٍ تحت الترجمة على متابعة اللغة المتكلَّم بها كلّ مرّةٍ بالنظر إلى الترجمة.

سيا [علامة تعجّب] .هذان الطفلان الفقيران لا أعرف ما قد أقول عنهما. جوعانان جوعانان. [يوجّه نظره نحو ماس] مم. ماسيتو. خذ الملعقة واذهب وأعطها لأبيك. [يعطي ماس الملعقة] الملعقة.
(Kulick 1992: 203)

Sia. Na ruru sɛnɛ ia kirwmbri wakarɛ. ɛnd- ɛ karɛ,
] *mm. Masito*.يوجّه نظره نحو ماس ɛndɛkarɛ [turns to Masd
يعطي ماس *Kisim spun i go givim papa* [hands Mas a spoon
Spun].الملعقة

8.5. المتكلمون من غير الناطقين باللغة الأم كباحثين

يتساءل البعض أحياناً خارج نطاق الأنثروبولوجيا، بالأخصّ اللغويّون الشكليّون الّذين يدرسون لغتهم الخاصّة ومحلّلو المحادثة الّذين يدرسون مجتمعهم الخاص، عن إمكانيّة دراسة لغةٍ غير لغة الباحث الأم، وبالتالي عن أمكانيّة تعميم نتائج هذه الدراسة. يمكن اعتبار هذه التساؤلات منطقيّة، ولكنّها تبدأ غالباً من افتراضاتٍ خاطئة.

يعود رفض الأبحاث الّتي لا يقوم بها (متكلّمون ناطقون بلغتهم الأم عن لغتهم الأم إلى عدّة أسبابٍ تتعلّق بخيارات الباحثين المنهجيّة. فيبدو للّغويّين الّذين يدرسون بديهة المتكلّمين (الناطقين باللغة الأم أن يشكوا بعمل المتكلّم الناطق بلغة غير لغة الأم عند إعطائه فرضيّات عن معاني الكلام. يمكن إعطاء إجابتَيْن عن هذا الاعتراض: (1) لا يعتمد معظم عمل الأنثروبولوجيين الألسنيّين على

البديهة وتأمّل النفس، بل على الارتباطات (ظهور أشكال معيّنة مكررة مثلاً في سياقٍ معيّن)؛ (2) يعتمد الأنثروبولوجيّون الألسنيّون كثيراً على بديهة المتكلّمين الناطقين بلغة الأم عند تحضيرهم لنسخهم، (وهذا هو مفهوم التعليق على النسخ (انظر أعلاه). أخيراً علينا أن نفترض أن الباحث الناطق بلغة الأم أفضل من يقوم بالدراسة. فيفترض أن يكون للمتكلّم الناطق بلغة الأم مدخلاً مميزاً نحو التأسيس النظري، والفرضيّات، والوصف الدقيق. قد يكون ذلك صحيحاً أحياناً، ولكنّه يتناقض مع إحدى عقائد الأنثروبولوجيا، وهي أنّه يجب دراسة الثقافة بالنظر إليها من الداخل والخارج. من الصعب طبعاً (بل من المستحيل أحياناً) أن يرى من ليس هو عضواً ما يحصل في داخل ثقافةٍ ما، ولكنّه من الصعب أيضاً على أعضاء ثقافةٍ ما أن يروها من الخارج. تعود مشكلة رؤية الكثيرين من علماء الاجتماع القائلة بأنّنا نحتاج إلى الإثنوغرافيا فقط أو **بالأخصّ** عندما نعمل في ثقافةٍ مختلفة عن ثقافتنا لأن بالعمل في ثقافتنا الخاصّة ومجتمعنا الخاصّ يبقى الكثير مما يجب معرفته غير ظاهر (انظر الفصل 8).

9.5 خلاصة

إليكم أهمّ ما رأيناه في هذا الفصل:

(1) النسخ عمليّة انتقائيّة، تهدف إلى إلقاء الضوء على أوجهٍ معيّنة من التفاعل لأغراضٍ تتعلّق بمسعى البحث.

(2) ليس هناك من نسخةٍ **مثاليّة** تستطيع أن تحوي تجربة الحالة الأصليّة بكاملها، ولكنّ بعض النسخ أفضل من غيرها، وهي تلك الّتي تعكس المعلومات بشكلٍ (أكثر) تناسقاً مع أهدافنا الوصفيّة والنظريّة.

(3) ليس هناك من نسخة **نهائيّة**، بل نسخ **مختلفة** فقط **ومعدّلة** لهدفٍ معيّن أو لجمهورٍ معيّن.

(4) النسخ **منتجاتٌ تحليليّة** يجب تحديثها ومقارنتها مع مصادرها (يجب اللجوء والعودة دائماً إلى التسجيلات الصوتيّة والمرئيّة والتأكّد من مناسبة النسخ الخطي للشريط الذي يناسب معاييرنا الحاليّة وأهدافنا النظريّة).

(5) علينا قدر الإمكان أن نكون **واضحين** في خياراتنا الخاصّة بتقديم المعلومات على الورق (أو على الشاشة).

(6) هناك العديد من صيغ النسخ، ويجب تقييمها بالنسبة للأهداف المنشودة.

(7) علينا أن **نعي** بشكلٍ نقدي التأثير النظري والسياسي والأخلاقي لعمليّة النسخ وما ينتج منها في النهاية.

(8) علينا أن نقارن بين نتائج الأدوات الحديثة الّتي تسمح بدمج المعلومات المرئيّة والصوتيّة في النسخ ونتائج الأدوات الماضية، لكي نقيّم ميّزات كلٍّ منها.

(9) تتغيّر طريقة النسخ مع الوقت لأنّ أهدافنا تتغيّر ويتغيّر فهمنا (نأمل ان يكون فهمنا عميقاً، ويضم معاني كثيرة).

علينا إلاّ ننسى أن نسخ محادثةٍ يختلف عن المحادثة نفسها؛ كما يختلف التسجيل الصوتي أو المرئي لتفاعلٍ عن التفاعل نفسه. ولكنّ قد يسمح نسخ الأبعاد التفاعليّة الصوتيّة والإيمائيّة في الزمان والمكان بفتح نوافذ جديدة على فهمنا لاستعمال الناس للكلام وغيره من الأدوات في تفاعلاتهم اليوميّة.

الفصل السادس

المعاني في الأشكال اللغويّة

اللغويّون، كغيرهم من علماء الاجتماع، مبدعون في إيجاد عباراتٍ جديدة تسمح بوصفٍ أكبر مما يجعل أعمالهم موضع ثقةٍ ولكنّها في الوقت نفسه مستحيلة المنال بالنسبة لمن لا يعمل في حقل الألسنيّة. سأقدّم في هذا الفصل بعض وحدات التحليل الّتي يستعملها النحويّون في دراستهم الشكليّة لتركيبة اللغات الطبيعيّة (الفونيم والمورفيم). سأقدّم أوّلاً بعض مبادئ الألسنيّة البنيويّة الأساسيّة، وسأتحدّث من ثَمّ عن كيف يتمّ تحديد أدوار المشاركين بواسطة الأشكال الاسميّة والفعليّة. سأوضح هنا كيف أن المعالجة المختلفة التي يشار اليها عبر صيغ مختلفة في اللغات مرتبطة بسمات سياقية وميّزات الواقع، كالحياة فيه والأشخاص ودرجة مشاركتهم. سنرى أنّ التركيبات والخيارات النحويّة تتعلّق بعددٍ من العوامل، منها نوع الفعل ودرجة إظهار المعلومات. سأتحدّث عندها عن فكرة الوعي ما فوق اللغوي وأظهر أنّه يمكن الوصول إلى بعض نواحي المعاني، الّتي لا يمكن الحصول عليها بدراسة بديهة المتكلّمين، بمراقبة استعمال اللغة العفوي، وبالأخصّ المحادثات. سأعطي مثلاً عن العلاقة بين اللغة

والجنس، بواسطة مفهوم الدلالة، وهي تميّز نوعاً معيَّناً من الإشارات.

1.6. الأسلوب الشكلي في التحليل اللغوي

تعتمد معظم التحليلات اللغويّة الّتي أعتبرُها "أشكالاً لغويّة" على **أسلوب شكلي** في البحث (Carnap 1942)، وهو يقضي بدراسة العبارات اللغويّة دون الاكتراث الزائد لما يتناسق معها خارج اللغة. يركّز اللغوي على الأشكال اللغويّة، ولا يسعى إلى الوصل بينها وبين الحوادث والأشياء في العالم الّذي تصفه (ما يسمّيه الفلاسفة "بالمرموز إليه"). يهتمُّ علماء الصوتيّات وعلماء التشكيل والنحويون عادةً بالعلاقة بين عناصر النظام اللغوي (الأصوات وأجزاء الكلمات والعبارات والجُمَل) أكثر من اهتمامهم بالعلاقة بين هذه العناصر و"العالم الخارجي" الّذي يسعى هذا النظام إلى تمثيله. يتمّ إخراج الإشارات اللغويّة، في الأسلوب الشكلي، من سياقها الطبيعي - كأجزاء من عمل التواصل وبالتالي كأفعالٍ اجتماعيّة - وتتمّ دراستها كجزءٍ من نظامٍ شكلي مجرَّد. يعتمد هذا الأسلوب على عدّة افتراضات.

يقول أحدها بأنّ الأشكال اللغويّة مشترَكة لمجموعةٍ معيّنة من المتكلّمين. ولكن لا يتمّ الأخذ بعين الاعتبار العمليّات الثقافيّة والسياسيّة الّتي تسمح بوجود هذه المشاركة (Bourdieu 1982: 26). يتصرّف الألسنيّون البنيويّون والتوليديّون، في تحليلهم، وكأنّ العلاقة بين الشكل والمحتوى لا تتغيّر في الزمان والمكان وبالنسبة للمتكلّمين - هذا جزءٌ من **منهج التزامُن** في الوصف اللغوي - وكأنّه لا علاقة للنتائج والتأثيرات الاجتماعيّة والثقافيّة والبسيكولوجيّة للخِيارات اللغويّة بهذا الوصف التفسيري. نجد ذلك حديثاً لدى

الكثير من الألسنيّين الشكليين، وبمقدّمتهم تشومسكي وتلاميذه، في وجهة النظر القائلة باستقلاليّة النحو.

عندما يدخل النحويّون في التحليل البنيويّ، ينظرون إلى الكلمات والجمل وأعضائها كعناصر رمزيّة يمكن التعامل معها بسهولة (أي يمكن تغييرها ودمجها بطرقٍ مختلفة مع عناصر أخرى في نفس النظام) لتأسيس القواعد الّتي تحدّد فهم واستعمال المتكلّمين لها. تفترض هذه التقنيّات مسبقاً رؤية اللغة قبل كلّ شيء كأداةٍ لتحديد ووصف العالَم (من وجهة نظرٍ مختلفة، انظر الفصل 7). يعني ذلك أنّ النحويّين يركّزون، وبالرغم من اهتمامهم بالمعاني، على ما يسمّيه علماء دلالات الألفاظ بالمعاني **المرجعيّة** أو الإشارية (Lyons 1969, 1977)، لأن ميزة التعابير اللغوية التعريف بأشياء معيّنة في العالَم (كاستعمال عبارة **القيثارة الحمراء** عند قولنا **يريد جون القيثارة الحمراء**) أو بفئةٍ من الأشياء والميّزات والوقائع (كاستعمال كلمة **القيثارة** في الجملة **قد اشترى جون الآن قيثارة**)[1]. لا يتحدّث النحويّون عادةً عن نواحٍ أخرى من المعاني، كالّتي تسمّى بالاجتماعيّة والعاطفيّة والشعوريّة والدلاليّة، وهي كلّها موضع اهتمام الأنثروبولوجيين الألسنيّين والألسنيّين الاجتماعيين (انظر Romaine 1984; Silverstein 1979, 1985b). ويفترضون كذلك أنّ المعاني الدلاليّة، وباستثناء العبارات الدلاليّة **كأنا وأنتَ وهنا والآن**... (انظر الفقرة 2.4.1. و2.8.6.)، هي مشترَكة، أي أنّها لا تتغيّر من متكلّم إلى آخر أو مع الوقت أو من مكانٍ إلى آخَر. وأخيراً، يعتمد الأسلوب الشكلي على

---

(1) يُعرَفُ التمييز بين المرجع والدلالة بالمرجع (Bedeutung) في الألمانيّة والمعنى (Sinn) في الألمانيّة أيضاً، أو بالامتداد والقوّة (Extension/ Intension) (انظر أيضاً Allwood, Anderson, and Dahl 1977; Chierchia and McConnell-Ginet 1990; Frege [1892] 1952).

الفرضيّة القائلة (وقد ابتكرها عالم المنطق فريجه) إنّ معنى جملةٍ ما يعود إلى معنى عناصرها (Dummett 1973: 4).

يسمح تضمين معانٍ أخرى، كما سنرى لاحقاً في هذا الفصل، بدراسة الوحدات النحويّة للأنثروبولوجيين ومحلّلي المحادثة وكشفهم عن مجموعةٍ جديدة من الظواهر اللغويّة.

2.6. المعنى كعلاقة بين الإشارات

تشكّل الفكرة القائلة إنّ أساس المعاني يعود إلى العلاقة بين الإشارات ـ أي الكلمات والحركات الجسديّة المعتادة، والإشارات في الشارع، والضوء الأحمر... إلخ التي تعد إحدى أهمّ مساهمات التحليل اللغوي في القرن الماضي في الأنظمة المختلفة. اعتقد فرديناند دو سوسور، الذي يعتبره الكثيرون مؤسّس الألسنيّة الحديثة وهو من ساهم في تأسيس التيّار **البنيوي** الأوروبي، أن بعض الأشياء (العلامات على الورق والأمواج الصوتيّة في الهواء) تتطلب معنى والتي تصبح إشاراتٍ، بطريقتين: **(1)** بتعلّقها في الزمان والمكان بعناصر أخرى (مشابهة)، و**(2)** بفهمها كنظير لغيرها من العناصر (المشابهة)، الّتي كان من الممكن أن تأخذ مكانها ولم تفعل ذلك. سمّى سوسور النوع الأوّل علاقة **عبارات** والنوع الثاني علاقة **نموذجيّة** (يتكلّم علماء النفس أحياناً عن نفس العلاقات كعلاقاتٍ **عموديّة وأفقيّة**). يعرّف سوسور علاقات العبارات على أنها علاقات تجاور (أو in presentia). تحصل الكلمات على معناها في الجُمل بوجودها **بالقرب** من كلماتٍ أخرى. نرى ذلك بوضوح عندما ننظر إلى كلماتٍ يمكنها أن تأخذ معاني مختلفة تماماً. فتشير كلمة line مثلاً في (1) إلى 4 مفاهيم مختلفة وتدلّ على أشياء مختلفة في العالَم. ونحصل على معنى line في كلّ مرّة بالنظر إلى الكلمات الأخرى في الجملة.

(1) I can't draw a straight *line* without a ruler
(2) People must form a *line* if they want to served
(3) I can't remember a single *line of that poem*
(4) What is the *line* of argument you're following?

(1) لا أستطيع أن أرسم خطاً (*line*) من دون مسطرة

(2) على الناس أن يقفوا في **خطٌ** (*line*) واحد إذا كانوا يريدون أن نخدمهم

(3) لا أتذكّر أيّ **سطرٍ**/ بيتٍ (*line*) من هذه القصيدة

(4) ما هو **نوع حجّتك** (*line*) في هذا النقاش؟

يحدّد الفعل الواقع قبل line معنى هذه الكلمة في (1) و (2) ـ **أرسم** في (1) **ويقفون** في (2). يحدّد باقي الجملة الاسميّة في (3) و(4) معنى line ـ **من هذه القصيدة وفي هذا النقاش**. تعبّر فكرة علاقات العبارات في هذه الحالة عن فكرةٍ تكلّم عنها الكثير من الفلاسفة وعلماء المنطق (فريجه، فتغنشتاين) وتقول بأنّ الكلمات لا معنى لها إلاّ في سياق الجملة[2].

العلاقات النموذجيّة علاقات **متناقضة** (استعمل سوسور المصطلَح اللاتيني in absentia). يتمّ تعريفها باستعمال "ليس"، أي باستعمال مجموعة الإشارات البديلة في نفس النظام.

نرى في الجملة التالية مثلاً أنّه يجب فهم كلمة **ضخم** بمقابلتها

---

(2) يقول فيتغنشتاين (Wittgenstein) مثلاً، في *Tractatus Logico-Philosophicus*:
"فقط الجمل الكاملة لها معنى؛ لا يأخذ الاسم معناه إلاّ في سياق الجملة" (1961: 14).
نستعمل كلمة الجملة الكاملة (Proposition) في الإنجليزية هنا، كما في أماكن أخرى من الكتابات المنطقيّة الفلسفيّة في ذلك الوقت، لترجمة الكلمة الألمانيّة Satz (انظر Willard 1972).

الناقضة مع كلماتٍ أخرى يمكن استعمالها بدلاً منها.

(5) بول رجلٌ ضخم.

إذا أردتُ أن أجد بول بين مجموعة من الناس، يمكنني أن أستثني من هو **قصير** أو **طويل ونحيل**. تعتبر البنيويّة أنّ معنى ما نستعمله يعطينا إيّاه، جزئيّاً، ما لا نستعمله. يجب مقارنة الـ**كبير** ليس فقط بنظيره، أي ما هو **صغير**، ولكن أيضاً بكلماتٍ يقترب معناها منه وإن هي تختلف عنه، ككلمة **عظيم**. يقول البنيويّون إنّه إذا أردنا أن نعرف معنى كلمة **كبير**، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أنّ النظام اللغوي (مثلاً معجم اللغة الإنجليزية) يحتوي أيضاً على كلمة عظيم. عندما نستعمل كلمة **كبير**، نفعل أكثر من مجرّد استعمالها، فنحن في الوقت نفسه لا نستعمل كلمة **عظيم**. ونعرف أنّ **الرجل الكبير يختلف** عن **الرجل العظيم**. من هنا (تأتي) أهميّة ما **لا** يقال (Tyler 1978).

عندما أدخل ليفي - ستراوس الأسلوب البنيوي في الأنثروبولوجيا الثقافية، اعتبر أنّه يمكن تطبيق فكرة المعنى القائم على المناظرة والتغاير في نفس الصنف على أيّ نظام تصنيفٍ وبالأخصّ على الأنظمة الّتي تتميّز بوجود ثنائيّات مضادّة: كالذكر والأنثى، والدم الواحد أو العكس، والأرستوقراطيين والناس العاديين، والآلهة والبشر، والمواطنين والعبيد، وحيوانات البحر والبرّ، والمخلوقات الحيّة وغير الحيّة، والطعام المطبوخ والطعام النيء (انظر الفصل 2). في كلّ هذه الحالات يعطي النظير معنى نظيره. ما يعطي الأرستوقراطيون مكانتهم هو وجود من **ليس** أرستوقراطياً (الناس العاديين). لا يكفي القول، في الرواية البنيويّة، بأنّ السيادة تأتي من فوق (بواسطة القوّة أو القانون مثلاً)، بل يسندها أيضاً ما هو تحتها، أي هؤلاء الّذين لديهم منزلة أدنى. الذين يتجاهلون عمداً الاعتبارات

الاجتماعيّة ـ التاريخيّة الّتي أدّت إلى الوضع الحالي، ويشدّد على عنصر الاختيار الذاتي في كلّ أنظمة التصنيف.

بشكلٍ عام، تساعد الرؤية البنيويّة للمعاني كلّ من يهتمّ بكيفيّة تفسير الناس لمحيطهم، بما في ذلك أعمال الآخرين. يمكننا، إذا ما استبدلنا "الكلمات" "بالأعمال"، أن نطبّق الرؤية البنيويّة للمعاني في اللغة على المعاني في أي التقاءٍ بشري. يمكننا مثلاً تحليل تقديم الهدايا، الّتي قد يصاحبها الكلام أو لا، كفعلٍ يجب تفسيره في وجوده في عبارة (أي في تسلسل) وكنموذج (يناظر أعمالاً أخرى ممكنة). يتمّ تفسير العرض بتقديم الطعام مباشرةً في أثناء إحضار الطعام إلى المائدة بشكلٍ يختلف عن (عرض تقديمه بعد) خدمة الآخرين. بالإضافة إلى ذلك، قد يعتمد معنى عرض الطعام على أنواع الطعام المختلفة الموجودة. إذا ما قدّم أحدهم لنا طعاماً معلّباً بينما الطاولة مليئة بالطعام الساخن، فإننا نجد هذا العرض غير كريم وقد نستاء منه. ولكن تعتمد ردّة الفعل هذه على افتراض أنّنا نعرفَ ما يقيمه المشاركون وما هي قواعد التصرّف المحليّة في ما يتعلّق بخدمة الناس الجالسين حول طاولة الطعام. في هذه الحالة، إذا أردنا أن نعرف فعلاً كيف نفسّر **متى يتم تقديم العرض وماذا يعرض علينا،** علينا أن نميز الناس الذين يقدمون العرض وما قيمة ذلك لهم. فقد يُعتبَر الطعام المعلَّب مثلاً أكثر قيمةً من الطعام الطازج (هذه هي الحالة عادةً في ساموا الغربية). لكي نتصوّر أفضل قول للبنيوية إنّه يجب على أيّ عمل تفسيري أن يأخذ بعين الاعتبار ما يعتَبَر مهمّاً في نظام خياراتٍ معيّن، علينا أن ننظر إلى كيفيّة استعمال الأصوات الفرديّة لنقل المعنى. كما سنرى، تمّ توسيع مجال المبادئ الّتي ابتُكرت في دراسات الأنظمة الصوتيّة لاستعمالها في دراسة تصرّفات الإنسان (انظر الفقرة 2.3.6.).

تمّ استعمال مفهوم المعنى كعلاقةٍ بين إشارات (بوجود وغير وجود الشيء) لدراسة أنواع عديدة من الأنظمة التواصليّة، بالأخصّ في حقل الدراسات السيميائية (Barthes 1968; Eco 1976). رأى جاكوبسون (Jakobson) (1968, 1956) مثلاً في علاقات العبارات والعلاقات النموذجيّة أساساً لفهم مجموعة كبيرة من الظواهر، منها فقدان القدرة على الكلام، والفنّ الكلامي، والقصص الطويلة الواقعيّة، وفنّ الرسم، والأفلام. وقيل إنّ الفنّانين، في ما يخصّ الأشعار الغنائيّة الروسيّة مثلاً، يفضّلون استخدام العلاقات النموذجيّة ويستعملون لذلك عادةً التركيبات الاستعارية، أمّا المؤلّفون الواقعيّون كتولستوي، فيستخدمون علاقات العبارات في استعمالهم لأشكال الكناية كالمجاز المرسل (جزء من كلّ): "يركّز تولستوي انتباهه الفنّي، في مشهد انتحار أنّا كارينينا، على حقيبتها اليدويّة؛ ويستعمل، في **الحرب والسلم**، المجاز المرسل "شعر على الشفة العليا" أو "الكتفان العاريان" للتعبير عن شخصيّة امرأتَين" (Jakobson 1956: 78). في عالم الرسم فضّلت التكعيبيّة المجاز المرسل وفضّلت السريالية الاستعارات. في الأفلام، التصوير المقرّب مجاز مرسل لأنّه يسمح باستعمال تفصيلٍ ما للتعبير عن الكلّ، أمّا تصوير مشهدين معاً فهو استعارة، لأنّه يضع أفعال شخصيّتَين واحدة بجانب الأخرى ويجبر المشاهد أن يفكّر بشخصيّةٍ بواسطة أعمال شخصيّةٍ أخرى[3].

3.6. بعض ميّزات الأصوات اللغويّة الأساسيّة

تعود مقدرة الإنسان على إنتاج وفهم الأصوات اللغويّة إلى مجموعةٍ من العوامل الجسديّة والعصبيّة والإدراكيّة والموضعيّة.

---

(3) للقراءة عن دور العلاقات القائمة بواسطة الاستعارة والمجاز المرسل في قواعد اللغة، انظر ((Heine, Claudi and Hünnemeyer (1991)).

جسدياً، يمكن للناس الكلام لأنّ لديهم حنجرة لها شكلٌ وقياسٌ معيّنان وممراً فوق الحنجرة له شكلٌ وطولٌ معيّنان، وهو يعمل كمرشح للهواء الآتي من الرئتَين. بما أنّ حنجرة الإنسان لا توازي حنجرة القرود وغيرها من الحيوانات بالنسبة للتنفّس، يعتقد الباحثون أنّها تطوّرت لتلبّي احتياجاتٍ أخرى، كالكلام.

يختلف أيضاً الممرّ الهوائي كثيراً بين الأنسان الناضج والمولود الجديد أو الشمبانزي (Lieberman 1975: 108-109). بعد الولادة ببضعة شهور، تبدأ بنية المولود بالتطوّر بشكلٍ يسمح بإنتاج كلّ الأصوات الّتي يمكن للناشئ أنتاجها. عند عمر السنتَين نجد عند المولود ممرّاً هوائيّاً يسمح بإنتاج الكلام، كالذي نجده عند الإنسان الناضج، على الإنسان أن يستطيع التحكّم بأعضائه الصوتيّة وتحريكها بسرعةٍ قويّة نوعاً ما لكي يتمكّن من إصدار أصواتٍ لغويّة.

كلام الإنسان هو نتيجة مصدر، أو مصادر طاقة صوتيّة يقوم الممرّ الصوتي فوق الحنجرة بتصفيتها. بالنسبة للأصوات المجهورة، كأحرف العلّة في اللغة الإنجليزية، مصدر الطاقة هو سلسلة من دفقات الهواء الّذي يمرّ في الحنجرة عندما تنفتح الحبال (الطِيّات) الصوتيّة وتنغلق بسرعة. تحدّد سرعة فتح وغلق الحبال الصوتيّة التردّد الصوتي الأساسي. توجد الطاقة الصوتيّة عند التردّد الأساسي وفي التوافقيّات الصوتيّة العالية (Lieberman 1975: 10).

يستطيع الإنسان الاستماع وتحليل اللغويّة الصادرة بسرعة بين 20 و30 وحدة في الثانية، في حين لا تستطيع قدرة الأذن على التعرّف على أصواتٍ تتجاوز ما بين 7 و9 وحداتٍ في الثانية (Lieberman 1970) وتسمَع الأصوات المرسَلة بسرعة 20 وحدة في الثانية أو أكثر "كنغمةٍ" مشوَّشة (Lieberman 1975: 7). "تنزلق" الأصوات اللغويّة فتتداخل، فتؤثر في الأصوات من حولها وتتأثّر بها.

هذا ما يسمّيه علماء الأصوات أزدواج النطق. قد يختلف ما نعتبره نفس الصوت الصامت بحسب ما يليه من حروف العلّة. فالصوت / k/ في كلمة (Car) سيّارة يُنطق أعمق في الحلق منه في كلمة key (مفتاح). تتطلب الحروف الساكنة الثلاثة في كلمة spoon، أي /s/ و/p/ و/n/ على تدوير الشفتَين الّذي يميّز /u/ ، حرف العلّة الوحيد في هذه الكلمة (Daniloff and Hammarberg 1973). يستخدم المستمعون وسائل فيزيائية وسياقية مختلفة، قد تكون مرتبطة بالواقعة أو بالصوت، لتحليل ما يسمعونه وتقسيمه إلى وحداتٍ مستقلّة ليست منفصلة بشكلٍ واضح، لا في ما يخصّ القيمة الفيزيائية للصوت ولا في ما يخصّ طريقة لفظه.

يستعمل ليبرمان (Lieberman)، كغيره من علماء الأصوات، ميّزات الأصوات اللغويّة هذه للقول بأنّ السامعين يقومون بعملٍ ممتاز (معظمه غير واعٍ أو تلقائي) لحل رموز الأصوات اللّغويّة (Lieberman 1975). يتطلّب ذلك من المستمعين أن يتصوّروا مثاليّاً أو أن ينظموا ما يسمعوا بكلّ تغيّراته. يبدو بالفعل أنّ التغاير يسود في كلّ إنتاج صوتي، ليس فقط لأنّ كلّ متكلّم يلفظ نفس الكلمة بشكلٍ مختلفٍ في كلّ مرّة، بل أيضاً لوجودَ تغاير في طرق تشكل المجموعات الصوتيّة بين شخصٍ وآخَر. برهن علماء الأصوات في تجاربهم أنّه يمكن لمختلف المتكلمين استعمال أصوات لديها ميّزات فيزيائية مختلفة للتعبير عن "نفس" المعنى. قد يميل متكلّم ما لإنتاج الصوت [ɛ] في حين يميل متكلم آخر إلى انتاج الصوت [I] (Lieberman and Blumstein 1988: 177). لا يعني ذلك فقط أنّ كلّ من المتكلّمين قد يستعمل جزءاً مختلفاً من ممرّ الصوت لكي ينتج ما يُعتبر نفس الصوت، بل أيضاً أنّ السامعين يتكيّفون بشكلٍ روتيني مع هذه التغايرات، ما دامت بعض العوامل والتمييزات باقية نفسها خلال

الكلام[4]. يفترض اللغويّون أنّه يجب على المتكلّمين أن يعتمدوا على وحداتٍ نظريّة، أي مجرَّدة، يمكن تكييفها بسهولةٍ مع ميّزات الأصوات المعيّنة الّتي تصدر عن متكلّم ما. يسمّي اللغويّون هذه الوحدات الفونيمات، أي فئات صوتيّة كَـ /t/ و/i/ و/p/ و/e/، يمكن دمجها في سلسلة أكبر للحصول على وحداتٍ لها معنى معيّناً كـ/tìp/ و/pìt/ و/ti/ (وهي تُكتب Tip وPit وTeeth، أي طَرَف وحُفرة وأسنان)[5].

1.3.6. الفونيم

تمّ اعتماد فكرة الفونيم في اللغة للتعبير عن كون التغيّرات في الصوت لا تقود دائماً إلى تغيرات في المعاني. ففي اللغة الإنجليزية مثلاً، قولنا /p/ أو /b/ يقود إلى تغيّرٍ في الكلمات التالية من (Hyman 1975: 61)

/b/	/p/
سطل	دبّوس
bin	pin

(4) لا يسعى المتكلّمون إلا إنتاج "نفس" الصوت لأحرف العلّة دون أيّ اختلاف. بل هم ينتجون تردّدات مماثلة تتناسب مع طول ممرّ الصوت عندهم (Lieberman and Blumstein 1988: 178-179).

(5) من غير الواضح حاليّاً ما إذا كان اعتبار الكلمات سلاسل من الفونيمات يعكس بالفعل كيفيّة تمييز المتكلّمين الأصوات اللغويّة. أشار فاولر (Fowler) (1985) إلى أنّه إذا ما فكّرنا معتمدين على أجزاء لدى كلٍّ منها موقعه (المثالي)، يعود عندها معظم الكلام إلى الوصول إليها. استخدم أرمسترونغ ستوكو وويلكوكس (Armstrong, Stokoe and Wilcox) (1994) ذلك ليقترحوا أنّ النطق بأصواتٍ لا يختلف كثيراً عن حركات لغة الإشارات. قد لا تعود مقدرتنا على التفكير بواسطة هذه الوحدات إلى ميّزة عالميّة في التعامل مع اللغة، بل إلى طريقة معقّدة لتحليل اللغة تعتمد على معرفتنا لترتيباتٍ نظريّة كالكتابة الأبجديّة (انظر الفقرة 1.5).

سريع مسعور

rapid rabid

مزّق ضلع

rip rib

يقول علماء الأصوات إنّه بالرغم من أنّ /p/ و/b/ لهما نفس **مكان النطق** في الفم ـ لكونهما حرفَين شفهيَيْن (تعمل الشفتان معاً لوقف الهواء وإنتاج الصوت) ـ وبعض نواحٍ مماثلة في **طريقة النطق** ـ إذ ينتج كلاهما بوقف الهواء أوّلاً (فتسمّيانِ لذلك **توقّفات**) ـ فهما مع ذلك لا يعمل الوتران الصوتيان معهما بنفس الطريقة. فيتذبذب الوتران الصوتيان مع /b/ (ويسمّى لذلك صوتاً مجهوراً) ولكنهما لا يتذبذبان مع /p/ (ونحصل لذلك على صوتٍ مهموس)[6]. يعتبر علماء الأصوات استعمال الوترين الصوتيين -**العامل المميّز** - الذي يجعل من /p/ و/b/ فونيمَين مختلفَين، يُظهر أو يحصل /p/ و/b/ على ميزاتٍ أخرى في سياقاتٍ معيّنة لا تُعتبر مهمّة لتحديدهما كفونيمَين منفصلَين. ففي الإنجليزية مثلاً /p/ تنطق بملء النفس[7] في بداية الكلمة (وليس في آخرها)، فتُلفظ لذلك كلمة pin ك

(6) لكلّ من لا يعرف الفرق بين الأصوات الجهوريّة والصامتة، تكمن أفضل طريقةٍ تسمح بملاحظتها في نطق الصوتَين /s/z/، وهما يختلفان لنفس السبب - أي لكون واحدٍ جهورياً والآخَر لا - ولكن يتمّ انتاجهما بواسطة مرور الهواء دون توقّف، ممّا يسهّل سماع الفرق بينهما: ضع يديك على أذنيك وقل كلمتَي Eyes وIce مشدّداً على آخر الكلمة مطوّلاً؛ ستحسّ عندها باهتزاز حبال الصوت مع s كلمة Eyes لأنّه حرف مهموس جهوري، /z/ ، ولا تحسّ باهتزاز مع ce في كلمة Ice لأنه حرف مهموس صامت (أو غير جهوري)، /s/.

(7) يعني ذلك أنّ الهواء يخرج بشكلٍ أقوى من الفم عند لفظ /p في كلمة Pin/ منه بعد لفظ /b في كلمة Bin. يحلّل علماء الأصوات التنشّق كفترة طويلة من انعدام الصوت بعد التوقّف وقبل حرف العلّة التالي (Ladefoged 1975: 43 and 124).

[p^hin]، أمّا كلمة rip فتُلفظ [rip] (وليس [riph]). ولكن، بما أنّ نطق p بملء النفس لا يغير معنى (تُعتبَر [rip^h] مجرّد لفظٍ غير معتاد قد لا نلاحظه حتّى)، يتعامل علماء الأصوات مع [p] و [p^h] كأعضاء في نفس الفئة، وهو الفونيم /p/. هذا التصنيف مفيد، ولكن فقط في نظام معيّن، وهو النظام الصوتي الإنجليزي. فهناك لغاتٌ أخرى يختلفُ فيها المعنى عند النطق بملء النفس ووقف الحرف الشفهي. ففي اللغة الكوريّة مثلاً، ليست pul وp^hul ظاهرتَين مختلفتَين لنفس الكلمة، بل كلمتَين مختلفتين لكلّ منهما معناها، "نار" و"حشيش". في هذه الحالة يعتبر علماء الأصوات الـp النفسية والـp غير النفسية فونيمَين مختلفَين : /p^h/ و /p/ انظر (Finegan and Besnier 1990: 66-68).

يُستعمل الفونيم كوحدة تحليليّة لتحديد التغيّرات المهمّة وغير المهمّة - أو الخصوصيّات المميِّزة وغير المميِّزة. عندما نحلّل تحرّكات الأعضاء الصوتيّة لدى إصدار الأصوات أو كيف يتمّ إصدار أصوات معيّنة بواسطة حركة معيّنة (كما نفعل عندما ندرس صورة طيفيّة، (انظر Ladefoged 1975)، نجد عدداً لا يحصى من التغيّرات في ما قد يعتبره المتكلّمون صوتاً واحداً. ولكن، من وجهة نظر المعنى الدلالي لهذه الأصوات، يمكن تجاهلها الكثير من التغيّرات في علوّ الصوت، والدرجة الصوتيّة (في اللغات غير النغميّة كالإنجليزية مثلاً)، والنفَس الصوتي، والتفخيم المطوَّل على أصواتٍ معيّنة. يمكن تجاهل بعض الاختلافات، كالاختلاف بين الوقفيات المهموسة النفسية وغير النفسية في اللغة الإنجليزية (مثلاً [p] و [p^h])، لأنّه من السهل التنبؤ بها مسبقاً، لانها تعتمد على الأصوات المجاورة لها ولا تغير المعنى الدلالي للكلمة التي توجد فيها هذه الأصوات.

يجذب مفهوم الفونيم كثيراً كلّ من يهتمّ بكيفيّة تعامل عقل الإنسان مع سريان الوقائع والظواهر الّتي يشارك فيها. في بداية هذا القَرن خاصّةً، حاول الألسنيّون الأنثروبولوجيّون والأنثروبولوجيّون الثقافيّون أن يثبتوا المبدأ العام القائل بوجود أنماطٍ وأشكالٍ مجرّدة قد يكون من الصعب رؤيتها وسماعها، ولو أنّها بسيكولوجيّاً حقيقيّة. اعتبر سابير أنّ عمله الميداني حول اللغات غير المكتوبة يوجب إيجاد فئاتٍ مجرَّدة تسمح باحتواء قضايا واقعيّة نجد فيها أصوات المتكلّمين الأصليّين. اعتقد أنّ المتكلّمين الأصليين بهذه اللغات يجدون صعوبة في نسخ الفروقات الدقيقة بين الأصوات الّتي لا يعتبرونها حاملةً لمعنىً ما. عندما طلب منهم أن يقسّموا الكلمات، كانوا يعطون في معظم الحالات أشكالاً تشبه التمثيل المجرّد أو اشتقاق الكلمات أكثر من ما كانوا قد قالوه منذ برهةٍ في سياق كلمةٍ أو جملةٍ كاملة. اعتمد سابير على ذلك لكي يؤكّد **حقيقة الفونيم البسيكولوجيّة**. ويمكن إعطاء مثالٍ للمساعدة على فهم فكرته. أراد سابير أن يعلّم مخبره البايوتي، طوني تيللوهاش (Tony Tillohash)، أن يكتب لغته صوتيّاً، فاختار في لحظةٍ ما عبارة $pa{:}\beta a^h$ "عند الماء"، وهي مكوّنة من صوت وقفي شفوي مهموس ([p])، و a منبورة طويلة [a:]، وصوت شفوي مجهور احتكاكي ([β])، و a قصيرة غير منبورة، ونطق بملء النفس في آخر الكلمة ($[^h]$).

طلبتُ من طوني أن يقسّم الكلمة إلى مقاطع لفظيّة وأن يكتشف بالاستماع الدقيق الأصوات الّتي تشكّل كلّ مقطع صوتي وترتيبها، وأن يكتب من ثمّ الرمز المناسب لكلّ وحدة صوتيّة. فتعجّبت لرؤيته يكتب المقاطع اللفظيّة التالية : pa توقّف pa^h. أقول بأنّي "فوجئتُ"، لأنّني اكتشفت تناقض طوني، فهو

ما كان "يسمع" بواسطة الأصوات الفِعليّة (كان الصوت الشفوي المجهور β يختلف كثيراً عن الصوت الوقفي)، بل بواسطة تركيبه الاشتقاقي : pa "ماء" + حرف الجرّ * ـ pa "عند". حوّل التوقّف القصير بعد جذر الكلمة انتباه طوني من شكل اللاحقة الصحيح صوتيّاً إلى شكلٍ نظري حقيقي ولكن غير موجود في الشكل (Sapir 1949d: 48-49).

هذا "الشكل النظري" هو، بالنسبة لسابير، الفونيم /p/ ، ويأخذ لدى لفظه أربعة أشكالٍ، بحسب موقعه في الكلمة أو الجملة، فتشكّل [β] الشكل الذي يأخذه بعد حرف علّة مجهور طويل، ونحصل على $pa:\beta a^h$. ما يشبه التناوب بين [p] و[β] في البايوتية الجنوبية وفي العمليّات الصوتيّة الّتي نجدها في لغاتٍ أخرى. فيتحوّل الصوت [b] في الإسبانيّة مثلاً إلى الصوت [β] عندما يقع بين حرفي علّة. في المثال التالي يتحوّل أوّل صوتٍ في كلمة banca "مقعد طويل"عند وجود التعريف (المؤنّث) la أمامه، وهو ينتهي بحرف علّة (Hyman 1975: 62):

(6) "مقعد طويل" *banca* [baŋka]

(7) "المقعد الطويل" *la banca* [la βaŋka]

ما يحدث في (7) هو شكلٌ معروف من **الاندماج**: يحصل أوّل صوتٍ في banca على بعض ميّزات الأصوات من حوله، أي **يندمج** مع الأصوات المجاورة. بدلاً من أن يغلق المتكلّمون الإسبانيّون أعضاءهم الصوتيّة (شفتَيهم في هذه الحالة) تماماً لكي ينطقوا بصوت وقفي مجهور، [b]، يتابعون النفس كما نفعل عادةً مع أحرف العلّة (ال[a] في la وال a في banca) حتّى في لفظهم للصوت الصامت

بين حرفيّ العلّة. وبالتالي لا نحصل على توقّف (حيث يتمّ وقف مرور الهواء لبعض اللحظات)، بل على صوت احتكاكي ([β])، أي على صوتٍ يصدر بواسطة خروج الهواء من الفم من خلال ممرٍّ ضيّق (بين الشفتَين في هذه الحالة). يُحدث ذلك احتكاكاً. يُقال عندها إنّ الصوتَين [b] و[β] يشكّلان **توزيعاً تكاملياً**. يعني ذلك أنّهما لا يظهران أبداً في نفس المكان، أي أنّ [b] لا تظهر أبداً بين حرفَي علّة و[β] لا تظهر أبداً عندما يسبقها حرف علّة. في تحليل هذين الصوتَين كفونيمَين في اللغة الإسبانيّة، يُعتبَر [b] و[β] الفونين أو تنوعين لنفس الفونيم (هناك أسبابٌ نظريّة تدفع إلى اختيار /b/ بدلاً من /β/ للرمز إلى الوحدة العامّة المجرَّدة). يختلف مثال اللغة الإسبانيّة عن مثال اللغة البايوتية، فما يُعتبر في الإسبانيّة وحدةً مجرَّدة، الفونيم /b/ ، يظهر بالفِعل في بعض السياقات الصوتيّة (مثلاً عندما لا يسبق الصوتَ حرفُ علّة)، ولكن، في اللغة البايوتية، الصوت /p/ للمورفيم /pa^h ـ / لا يظهر أبداً، لأنّه ينتمي إلى لاحقة ويقع بالتالي دائماً بعد صوتٍ آخر يؤثّر بنطقه. لهذا السبب يمكن القول بأنّ pa^h ـ هي "شكلٌ نظري". فهي شيء مجرّد وليس شيئاً يلفظه الناس. للدلالة على ذلك، كتب سابير pa^h ـ *، مستعملاً *، كما نرى عادةً في الألسنيّة التاريخيّة الّتي تستعملها للإشارة إلى الأشكال الّتي يعاد تركيبها والّتي لا نجد مثالاً لها (فيُستعمَلُ الشكل pəte:r* مثلاً كشكلٍ هندي أوروبي بدائي أعيد تركيبه ويرمز إلى ما هو الآن الكلمة الإنجليزية father (أب)، لأنّنا لا نستطيع أن نعرف ما كان الهنود الأوروبيّون البدائيّون يقولون في الحقيقة). عندما رأى سابير أنّه من الممكن لمتكلم أصليٍّ في البايوت الجنوبي أن يلفظ الشكل pa^h ـ عند تقسيم كلمة $pa{:}\beta a^h$ ‘ اعتقد بالوجود البسيكولوجي الفعلي للأشكال الّتي يفترض اللغويّون وجودَها على أساس العوامل التوزيعيّة. لاحقاً استخدم الألسنيّون التوليديّون نفس الفكرة ليقولوا

بوجود تركيباتٍ مجرَّدة أو "عميقة" تمثّل أنواعاً معيّنة من العلاقات بين عناصر الجملة المختلفة (تشومسكي Chomaky 1957, 1965).

2.3.6. المنهج الداخلي والخارجي في الأنثروبولوجيا

عندما ينتج الفرق الصوتي بين كلمتين فرقاً في المعنى، يعتبر اللغويّون ذلك فرقاً في **الفونيم** بين الكلمتَين. وعندما لا يُنتج الفرق الصوتي بين كلمتَين فرقاً في المعنى، نعتبر ذلك فرقاً **لفظيّاً**. كما رأينا أعلاه، دور النطق بملء النفس في اللغة الإنجليزية هو دورٌ لفظي، بينما هو فونيم في الكوريّة. يؤثّر النطق بملء النفس في الكوريّة على المعنى المرجعي ومعنى الدلالة للكلمة، ولا يحصل ذلك في اللغة الإنجليزية. ابتكر كينيث بايك (Kenneth Pike) (1954-56, 1966, 1971)، مستعملاً هذا الاختلاف، مصطلحي **الداخلي** (emic) **والخارجي** (etic) للكلام عن التصرّف الّذي له معنى أو ليس له معنىً بالنسبة للناس الّذين يقومون به.

> قد يبدو مناسباً - ولو كان كيفيّاً - أن نصف التصرّف من وجهتي نظر مختلفتَين، تؤدّيان إلى نتائج متداخلة. تدرس وجهة النظر الخارجيّة التصرّف من خارج نظام معيّن، وكمقارَبة أوليّة أساسيّة لنظام غير معروف. وتُستنتَج وجهة النظر الداخليّة من دراسة التصرّف من داخل النظام (Pike 1971: 37).

أصبح هذا الفارق مهمّاً في الأنثروبولوجيا في الستّينات، حيث تمّ تشجيع الباحثين الميدانيين على التمييز بين الأسلوب الداخلي والأسلوب الخارجي في توصيفاتهم. يعطي المنظور الداخلي الأفضليّة إلى وجهة نظر أعضاء الجالية الّتي تتمّ دراستها، ويسعى بالتالي إلى وصف كيفية إعطاء الأعضاء معنىً لعملٍ معيَّن أو للفرق بين عملَين. أمّا المنظور الخارجي، فهو مستقلّ عن كلّ ثقافة ويُعنى فقط بتصنيف

التصرّفات على أساس مجموعة من الميّزات يحدّدها المراقب ـ الباحث. تتكوّن **الشبكات الخارجيّة** من ميّزات ظاهرةٍ ما يمكن استعمالها للمقارنة. لا تتطبّق كلّ الميّزات على كلّ الوقائع والجاليات. يشكّل نموذج هايم لمكوّنات فعل الكلام ـ الواقع والمشاركين والأهداف وسلسلات الأعمال... إلخ (انظر الفقرة 2.9.) ـ شبكةً خارجيّة.

كما يقول كيسينغ (Keesing) (1972)، هناك عدّة أشكالٍ من التمييز الداخلي/ الخارجي. فيُعتبرُ ما هو داخلي أحياناً "فكرياً" أو "مثالياً" وبالتالي غير متوفّر مباشرةً، بينما يُعتبر ما هو خارجي عندها تصرّفياً ويمكن بالتالي رؤيته في الأعمال. أحياناً أخرى، يُعتبر الداخلي وجهة نظر أعضاء المجموعة، الخارجي وجهة نظر المراقِب. إذا كان المراقِب أنثروبولوجياً درس أو قرأ عن جالياتٍ أخرى، من الأرجح أن يحتوي منظوره على قائمة من الميّزات المرجَّحَة ـ تُقدّمُ أحياناً كأساسيّاتٍ معمّمة على ثقافات الإنسان.

تميل مناهج أنثروبولوجية مختلفة نحو الواحد أو الآخَر من المنظورَيْن. في المدرسة "الإثنوغرافيّة الجديدة"، وهي تتبنّى فكرة **القواعد الثقافيّة** لغود إيناف وفريك (انظر الفقرة 2.2.)، يهدف الإثنوغرافي إلى وصف الثقافة بشكلٍ داخلي. يقول فريك (Frake) (1964) مثلاً، في عمله عن نشاطات سوبانوم الثقافيّة، إنّه لا يمكننا أن نعتمد على قائمة معايير يمكن تطبيقها على كلّ الثقافات (أي قائمة خارجيّة) إذا أردنا أن نكتشف ما تعتبره مجموعةٌ ما "تصرّفاً دينيّاً". علينا بالأحرى أن نكتشف كيف يفسّر ويتصوّر أعضاء المجموعة تصرّفاتٍ معيّنة. وينتقد الماديّون الثقافيّون من أمثال مارفين هاريس (Marvin Harris) ذلك، محوّلين الفرق بين الداخلي والخارجي إلى الفرق بين فئات المشارك وفئات المراقِب.

> إذا تمّ وصف التصرّفات في واقعٍ ما بواسطة الفئات والعلاقات الآتية من معاييرِ المراقِب الإستراتيجية الخاصّة بالمماثَلَة والاختلاف والأهميّة، فهي عند ذلك داخليّة؛ أمّا إذا تمّ وصفها بواسطة معايير المخبِر، فهي داخليّة (Harris 1976: 340).

تكمن إحدى مشاكل التفريق بين الداخلي والخارجي في اعتماده على تماثلَين غير ثابتَين، الأوّل بين اللغة والثقافة والآخر بين الأهداف والأساليب الأنثروبولوجيّة والأهداف والأساليب اللغويّة، بالأخصّ تلك الّتي ابتكرها النحويّون الشكليّون.

اللغة جزءٌ من الثقافة، ولكنّها ليست بالطبع كلّ الثقافة. يمكن بالطبع الكلام عن ما تحسّ به امرأة تجاه أولادها وعن تصوّرها لعلاقتها مع زوجها، ولكنّ لهذا الإحساس ولهذا التصوّر أكثر من مجرّد استراتيجيّاتٍ كلاميّة تمثّل وتفاوضهما. يتضمّن "الاحترام" الضمني في تعامل رجلٍ مع أشخاصٍ معيَّنين في الجالية عدداً من الأعمال، والمواقف، والاعتقادات، لا تشكّل اللغة إلاّ واحداً من أجزائها. تشكّل منتجات عمل الإنسان، بما في ذلك الأدوات المهمّة للتعريف بما يعتبره الشخص "منزله" أو "عمله" أو "معبده" قسماً أساسيّاً من السياق الثقافي الّذي يعيش الناس من خلاله ويتمّ إعطاء معنىً للحياة. ولكنّ حياة هذه الأدوات تتكامل غالباً مع العبارات اللغويّة وليست مطابِقة لها. عندما نبدأ بالتفكير بالعلاقة بين اللغة والثقافة، نجد أنّ ما نقوله يعتمد على أفكارنا ونظريّاتنا الخاصّة بماهيّة اللغة والثقافة (انظر الفصلَين 2 و3). بالرغم من ذلك، لا يتطابق هذان المجالان، وعلى كلّ مقارنة تقريبيّة بينهما أن تأخذ هذا النقص في التطابق بعين الاعتبار.

يميل النحويّون إلى افتراض وجود عددٍ كبيرٍ من نفس

المبادئ والقواعد في كلّ اللغات. إن قبلنا أم لا بفكرة تشومسكي القائلة بوجود قواعد عالميّة وفطريّة، يقوم معظم اللغويّون اليوم، بالأخصّ في الولايات المتّحدة بدراسة الميّزات العالميّة للغات الإنسان. لا يتكلّم الأنثروبولوجيّون عن الثقافة العالميّة، وهم منقسمون حول حجم وطبيعة "ميّزات الإنسان" الأساسيّة لكلّ الثقافات (ولكن، انظر ما نقوله عن وجهات النظر الإدراكيّة للثقافة في الفقرة 2.2).

يحقّق الألسنيّون الشكليّون ببديهة المتكلّمين في ما يتعلّق بما هو مقبول (مثلاً، "هل يمكن قول هذه الجملة؟ هل تعني نفس ما تعنيه أخرى؟")، وليس بنظريّات المتكلمين الخاصّة بتصرّف اللغة بشكلٍ ما. أمّا الأنثروبولوجيين، فهم لا يمضون الكثير من الوقت سائلين الناس عن رأيهم بأشياء ووقائع وعلاقات فحسب، بل يعتبرون أيضاً تصوّرات الأعضاء كنظريّات محليّة يجب تفسيرها. يختلف اللغويّون في تقديرهم لأهميّة التصرّف اللغوي في التوصيف اللغوي والنظريات اللغوية. ينظر الألسنيّون الشكليّون عادةً فقط إلى مجموعة ثانوية من الظواهر الّتي يمكن تسميها باللغة أي تلك الّتي يمكن دراستها بافتراض اللغة من ميّزات عقل الإنسان. بالنسبة لهذه الظواهر، تُعتَبَر دراسة بديهة المتكلّمين كافية أو حتّى مثاليّة. لا يضع الأنثروبولوجيّون عادةً حدوداً حول فكرة الثقافة ولا يتوقّفون عند أسئلتهم للمخبرين. فهم يراقبون أيضاً ويصفون عدداً مهمّاً من التصرّفات العلنيّة، بالأخصّ الطقوس. يعني ذلك أنّ الأنثروبولوجيين يعملون في حقلٍ من أعمال الإنسان يسمّيه اللغويّون "الأداء" (انظر الفقرة 1.4.1).

يجعل ذلك، بالإضافة إلى اعتباراتٍ أخرى، من الصعب تحديد مدى إمكانيّة تطبيق الفرق بين الداخل والخارج، كما تمّ تقريره

باستخدام تماثلٍ بين الأصوات اللغويّة وتصرّفات الإنسان، على كلّ الوقائع والثقافات.

4.6. علاقات التماس: من الفونيم إلى المورفيم

كما قلتُ من قبل، تدخل الإشارات عادةً، بما في ذلك الأصوات اللغويّة، في علاقات تماس مع إشاراتٍ أخرى. عندما يتمّ دمج الفونيمات معاً في سلسلة تكون **مورفيمات**، وهي أصغر سلسلة من الأصوات الحاملة للمعاني. مثلاً لا تحمل الأصوات /p/ و/i/ و/n/ معنىً وحدها، بل فقط عند دمجها في السلسلة /pin/ ، حيث نحصل على الكلمة الإنجليزية pin. يشكّل الصوتان /i/ و/η/ لاحقة /iη/ (وتُكتَب ing ـ) للأفعال، كـ liv-ing وjo-king. يمثّل الصوت /s/ الجَمع عند إضافته إلى Book وSeat وLip.

على النحوي الّذي يودّ عزل مورفيم أنّ يتأكّد من أنّ صوتاً أو سلسلة أصواتٍ ما تمثّل معنىً معيناً. يتجاهل المورفولوجيّون عادةً المشاكل الّتي يجدونها عند محاولتهم وصف معنىً كهذا بشكلٍ دقيق، ويكتفون بمعرفة المتكلّمين الأصليين لشكلٍ معيَّن "يعني نفس الشيء تقريباً" في عدّة كلماتٍ مختلفة ـ مثلاً ـ Un في كلمتَي Unorthodox وUnusual، أو Ism ـ في كلمتَي Marxism وCubism. يمكن للمتكلّمين الأصليين أحياناً أن ينقدوا السجلاّت التاريخيّة وأن يشيروا إلى تشابهاتٍ بين أجزاء كلماتٍ لا علاقة بينها، مثلاً Ust ـ في كلمات Must وRust وCrust وFust وDust ـ وتعني "تشكّل سطحي" (Bolinger 1950: 120). بشكلٍ مماثل، تمثّل كلمة Ambush (كمين) بالنسبة للمتكلّمين وجود شخصٍ يختبئ في دغل (Bushes) (المصدر نفسه، ص 128). تختلف النظريّات اللغويّة بالنسبة لمدى أخذها بديهيّاتٍ كهذه بعين الاعتبار في تحليلها المورفولوجي.

يستعمل المورفولوجيّون نفس الحجج الّتي تُستعمَل للكلام عن تباين النطق (انظر الفقرة 1.3.6) في كلامهم عن الألومُرف، أي عن أشكال مختلفة لما يمكن اعتباره نفس الشكل الأساسي. نجد ذلك مثلاً في الجمع في اللغة الإنجليزية، وله ثلاثة أصواتٍ، كما نرى في الأمثلة التالية:

(8) كُتُب books /buks/

كلاب dogs /dogz/

نظّارات glasses /glasəz/

تُعتبَر اللاحقات الثلاث /s/ و/z/ و/əz/ تحقيقاً لنفس المورفيم، ويشير إليه المورفولوجيّون عادةً ب Z ـ ، لتمييزه عن الفونيم /z/ (Spencer 1991: 6).

تساعد فكرة المورفيم بشكلٍ أساسي في دراسة الكلام، لأنّها تسمح للمحلّل أن يتذكر الدور الّذي تلعبه أجزاء الكلمات والجمل المختلفة في إيصال معانٍ محدَّدة. لا يمكن وصف لغةٍ دون فهم فصل الأصوات المختلفة التي يستخدمها المتكلّمون الأصليّون، ولا يمكن فهم اللغة بشكلٍ عميق دون تحليلٍ دقيق لكيفيّة تشكيل الملكات ودمج العناصر اللغويّة لكي تشكّل وحداتٍ أكبر تحمل معاني معيّنة.

اهتمّ الأنثروبولوجيون الألسنيّون دائماً بدراسة الظواهر المورفولوجيّة، لأنّهم وجدوا أنّ اللغات الطبيعيّة غنيّة في طُرُق استعمال مختلف أشكال الكلمات للإشارة إلى تغيّراتٍ في الواقع وفي إطار التفسير.

نجد مثلاً في العديد من اللغات أنّه يُشار إلى الميّزات

الاجتماعيّة للواقعة أو للعلاقة بين المشاركين بواسطة مورفيمات معيّنة تحمل احترام المتكلِّم لها، والمناسَبَة وحتّى المتفرّج غير المتدخّل. (Agha 1994; Levinson 1983). يعتبر هذا المورفيم غالباً من فئة **عبارات التعظيم**، وقد تكون كلماتٍ منفصلة أو **لاحقات** على أنواعها (أي في بداية، ووسط أو آخر الكلمة). ففي اللغة الكوريّة مثلاً نجد عدّة لاحقات للفعل، بحسب العلاقة بين المتكلّم ومن يحدّثه كما يحكم عليها الواقع المعيّن (Lewin 1971; Martin 1964). كما نرى في الجدول 1، توجد أحياناً أشكالٌ مختلفة في كلّ مجموعة، بحسب ما يقال أو الفعل الكلامي (انظر الفصل 7) :

الجدول 1.6 لاحقات الأفعال في إشارتها إلى العلاقة الاجتماعيّة بين المتكلّم ومن يحادثه (مقتبَس عن (Lewin 1971: 201)

	إعلاني	استفهامي	أمر	تمنّي
غير رسمي	-ŏ	-ŏ	-ŏ	-ŏ
	-chi	-chi	-chi	-chi
عادي	-(n	-(n	-ra	-cha
لطيف	-ne	-na	-ke	-se
محايد	-o	-o	-o	-psida
	-chiyo	-chiyo	-chiyo	-psida
	-koyo	-koyo	-koyo	-psida
باحترام	-(s	-(s	-(s	-(s

هناك أيضاً لاحقة تعظيم توضع في الفعل للتعبير عن الإذعان لمن يتحدّث المتكلّم إليه :

(9) sunmun-ŭl ilgŭ - si - mnida

جريدة ـ مفعول به قرأ ـ تعظيم ـ احترام : إعلان

"(هو) يقرأ الجريدة" (Lewin 1971: 198)

يتمّ استعمال أفعالٍ معيّنة بشكلٍ مماثل، في لغة بوهنبيا (في مايكرونيزيا)، إمّا وحدها أو مع لاحقات مكونة من عدّة أنواع، لتشكيل ما يسمّيه كيتينغ (Keating) (1997 - 1996) بأشكال **الإذلال والإجلال**، أي عبارات لغويّة تحمل معلوماتٍ عن منزلة المشار إليه وعن موقف المتكلِّم من الواقعة أو من (بعض) المشاركين فيها. نجد مثالاً عن ذلك في (10) أدناه، حيث تشير ابنةُ رئيس قبيلة أوّلاً إلى ما قامت به باستعمال الشكل الإذلالي patoh، ومن ثمّ تستعمل الشكل الإجلالي ket للإشارة إلى تحرّك والدها. بما أنّ لهذه المورفيمات معاني كثيرة، سنفسّرها بين السطور مستعملين علامة فعل المكان (ونختصرها "مكان"):

(10) الابنة : ah I pahn pato ia wasa?

ولكن س مكان (إذلال) أين مكان

"ولكن أين سأجلس؟"

الرئيسة : ie.

هنا بقربي

((بعد بضع ثوانٍ))

الابنة إلى الرئيس : ket men ah...

هناك و... مكان (تعظيم)

"اجلس[8] هناك و..."

يمكن استعمال المورفيمَين نفسهما، patoh وket، لتشكيل أفعال أخرى مع لاحقاتٍ أخرى تحدّد الاتّجاه، كما نرى في المثال التالي، من نفس المحادثة :

(11) (توجّه ابنة الرئيس كلامها إلى أحد الشباب من بين الموجودين)

الابنة : علبة ثلج en patoh - sang mwo eri

علبة ثلج إلى مكان [إذلال] ـ من هناك هكذا إذاً

"خذ علبة الثلج من هناك هكذا إذاً"

Mwohnsapw ket-la mwo...

Mwohnsapw فعل مكان [تعظيم] هناك...

"مووهنسابو (=الرئيس) (يمكن أن) يذهب هناك..."

كما نرى في الجدول 2.6 مقتبَس عن (Keating 1994)، زيادة اللاحقات تعطي نتائج كثيرة ومفيدة في لغة البوهنبي[9] :

(8) عندما تكون ket وحدها، تكون فعلاً خبريّاً، ولكنّها تحصل هنا على معنى فعل حركة دون إضافة لاحقة (انظر أدناه الجدول 2.6). يمكن تفسير ذلك بطريقتَين على الأقلّ: إمّا أن تكون ket مختَصَر ket-la (انظر [11] أدناه) أو أن تحصل على معنى الحركة من حرف الاتّجاه Men الواقع بعدها (إليصابات كيتينغ، التواصل الشخصي).

(9) وجدت كيتينغ (Keating) أمثالاً عن كلّ هذه الأشكال، باستثناء Ket-Sang و Ket-Di-Wei.

الجدول 2.6. أفعال إذلال وتعظيم في لغة البوهنبي

شكل إذلالي	شكل تعظيمي	الترجمة العربيّة
patoh-do	ket-do	تعال
patoh-la	ket-la	اذهب
patoh-di	ket-di	انزل، تمدّد
patoh-sang	ket-sang	تحرّك من
patoh-wei	ket-wei	يذهب هناك بالقرب منك
patoh-di-wei	ket-di-wei	ينزل نحوك
pat-pat	ket-ket	باقٍ

نرى مدى غزارة إنتاج هذه المورفولوجيا في الاقتباس التالي، حيث يتمّ استعمال patoh ثلاث مرّات مختلفة بدمجها مع 3 لاحقاتٍ مختلفة:

(12) (يجلس الرئيس وعدّة أشخاصٍ وجهاء وغير وجهاء أمام حفلٍ طقسي)

الرئيس : ahpw ma ke mihmi me
ولكن إذا أنتَ بقيتَ هنا بقربي
"لمَ لا تبقى هنا؟"

ناليك : ahpw ma e patoh-long me
لكن إذا هي فعل مكان[إذلال] ـ داخل هنا بقربي
"لما لا تأتي هي إلى الداخل"

سو. : ah kowe patoh-sang men
وأنتَ فعل مكان[إذلال] ـ من هناك بالقرب منك

"وتتحرّك أنت من هناك"

لامباين: soh i pahn patoh-di-wei men

لا س ـ فعل مكان [إذلال] أنا أسفل باتّجاهك

هناك بالقرب منك

"لا سأذهب إلى هناك"

بما أنّ للكلام دوراً أساسياً في الإشارة غير المباشرة إلى العلاقات الاجتماعية، وفي إنشائها وتوطيدها، من الواضح لكلّ من يهتمّ بالرُتب الاجتماعيّة وبالعمليّات الّتي يقوم بها الناس في الواقع للتأثر بها أنّه توجد طرق حاذقة وقويّة تلعب فيها مورفولوجيا اللغة دوراً أساسيّاً.

5.6. من المورفولوجيا إلى إطار الأحداث

يتمّ التمييز بشكلٍ غير رسمي في الألسنيّة بين تغيّر شكل الأسماء وتغيّر شكل الأفعال، فشكل الأسماء يتغيّر بحسب المعنى الّذي يعبّرون عنه. فيتكلّم النحويّون عن **مورفولوجيا الأسماء ومورفولوجيا الأفعال**. في كلا الحالتَين، يشكّل تحويل المعلومات عن الأدوار المعطاة إلى مختلف المشاركين في الحدث إلى رموز جزءاً مهمّاً من المورفولوجيا.

تسمح اللغات عادةً للمتكلّمين بالرمز إلى الفروق بين **من فعل ماذا لمن**. لنأخذ مثلاً مسنداً واسمَين يمثّلان مشاركَين مختلفَين في الحدث؛ يمكن عندها للغةٍ أن تميّز بين الاثنين بواسطة لاحقاتٍ مختلفة مضافة إلى الأسماء أو بواسطة لاحقاتٍ مختلفة مضافة إلى الفعل (انظر الفقرة 2.5.6.). تلعب مورفولوجيا الأسماء دوراً، عندما تستعمل اللغة لاحقة للاسم الّذي يصف المشارك الّذي يفعل شيئاً لشخصٍ أو لشيء (الفاعل) ولاحقة مختلفة للاسم الّذي يصف المشاركَ الّذي يُفعَل شيء له (المفعول به). تنتمي اللاتينيّة إلى هذا

النوع من اللغات. في (13) أدناه، نعرف من اللاحقة في آخر الاسمَين lupus "ذئب" وvulpem "ثعلب"، أيّاً منهما فاعل فعل arguebat "اتهم". استُعملت مورفولوجيا الفاعل للدلالة على الفاعل lupus ومورفولوجيا المفعول به للدلالة على من فُعِل به، vulpem "ثعلب".

(13)	lup-us	vulp-em	argue-bat
	ذئب - فاعل	ثعلب - مفعول به	اتّهم - ماضي

"الذئبُ الثعلبَ"

لكي نحصل على معنىً(مناقض) يناقض (13)، ليس علينا إلاّ أن نغيّر التابعة في آخر الاسمَين، دون تغيير موضع الكلمات (لاحظ أنّ لاحقات الفاعل والمفعول به لـ lupus وvulpes مختلفة لأنّهما ينتميان إلى فئتَي اسمين مختلفتَين) :

(14)	lup-um	vulp-es	argue-bat
	ذئب - مفعول به	ثعلب - فاعل	اتّهم - ماضي

"اتّهم الثعلبُ الذئبَ"

باستعمال صيغة النصب وصيغة الرفع lupum والفاعل vulpes، يودّ المتكلّمون أن يقولوا أنّ الثعلب هو الّذي يتّهم الذئب. في لغةٍ كاللغة اللاتينيّة تُستعمل نفس المورفولوجيا الاسمية لفاعل جملة فعلٍ متعدٍّ كـ (13) و(14) أعلاه ولأسم الفاعل وحده، كما نرى في (15) و(16) و(17) و(18) أدناه، وهذه أفعالٍ "لازمة" :

(15)	Ad	rivum	lup-us	ven-erat
	إلى	نهر	ذئب - فاعل	جاء - ماضي

"كان الذئب قد جاء إلى النهر"

(16)	Ad	rivum	vulp-es	ven-erat
	إلى	نهر	ثعلب - فاعل	جاء - ماضي

"كان الثعلب قد جاء إلى النهر"

(17) lupus malus est

ذئب ردىء يكون

"الذئب رديء"

(18) Vulpes astuta est

ثعلب ذكي يكون

"الثعلب ذكي"

في هذا النوع من اللغة، تُستعمل نفس الصيغة الإعرابية، الفاعل، لفاعل جمل الأفعال المتعدية وللمشارك الّذي يتمّ وصف عمله وميّزاته في جمل الأفعال اللازمة. بينما تُستعمل صيغة المفعول به للذي وقع عليه الفعل في جمل الأفعال المتعدية. وتسمّى هاتين الحالَتين في اللاتينيّة **الرفع والنصب، ويسمّى الاسم المرفوع "الفاعل". تُعتبَر الإنجليزية أيضاً لغة رفع ونصب، بالرغم** من عدم وجود مورفولوجيا اسميّة واسعة تعبّر عن ذلك. فنتعامل بشكلٍ مماثل، في الإنجليزية، مع فاعل جمل الأفعال المتعدية وفاعل جمل الأفعال اللازمة، كما نرى في (15) ـ (18) أعلاه، أو يتصرّف الاثنان بنفس الطريقة. فهما يحدّدان مثلاً شكل الفعل (زيادة س "s" في المضارع) وشكل الضمير الشخصي (مثلاً He بدلاً من Him، وShe بدلاً من Her). ونتكلّم عندها عن فاعل الجملة في الإنجليزية، مهما كان دوره في الجملة كمشارك.

لا تتصرّف اللغات كلّها مثل اللاتينيّة والإنجليزية. فتمزج بعض اللغات فاعل جمل الأفعال اللازمة مع المفعول به في جمل الأفعال المتعدية، وتعطي فاعل الفعل المتعدي شكلاً معيّناً ـ فتشدّد بالتالي على كونه من يقوم بالفعل. قرّر اللغويّون الّذين يدرسون تلك اللغات وجوب ابتكار مصطلحاتٍ جديدة للإشارة إلى هذا النوع المعيّن من الفاعل، فسمّوا فاعل جمل الأفعال المتعدية **أرجاتي** (Ergative)

(ويُقال عندها إنّه في الصيغة الأرجاتية) والفاعل والمفعول به في جمل الأفعال اللازمة **مُطلَق** (Absolutive) (فيعتبر كلاهما في صيغة المُطلَق). وتمّت تسمية هذه اللغات **باللغات الأرجاتية ـ المطلقة** (وتُختصَر عادةً **باللغات الأرجاتية**). تنتمي معظم لغات سكّان أستراليا الأصليين إلى هذه اللغات. مثال عن ذلك في (19) ـ (22) أدناه، من لغة الديربال (Dyirbal)، في كوينزلاند الشمالية في أستراليا، الّتي درسها ر. م. و. ديكسون (R. M. W. Dixon) (1972: 59). علامة الصيغة الأرجاتية، في لغة الديربال، هي لاحقة تتغيّر مع شكل الكلمة الّتي تظهر في آخرها. تتقدّم الأسماءَ في كلّ مثال علامةٌ خاصّة تشير إلى القُرب ووضوح الرؤية؛ ولا تُعتبر الجمل كاملة دون وجود هذه العلامات أو الإشارات (انظر الفصلَيْن 4 و9) :

(19) bayi ya ± a bani (جملة فعل لازم)

هناك رجل يأتي

"الرجل آتٍ"

(20) balan ugumbil bani (جملة فعل لازم)

هناك امرأة تأتي

"المرأة آتية"

(21) balan ugumbil baòul ya ± a- balgan (جملة فعل متعدٍّ)

هناك امرأة هناك رجل ـ أرجاتي ضرب

"يضرب الرجل الإمرأة"

(22) bayi ya ± a baòun ugumbi- ± u balgan (جملة فعل متعدٍّ)

هذا رجل هذه امرأة ـ أرجاتي تضرب

"تضرب المرأة الرجل"

بما أنّ اللغات كلغة الديربال تعتمد تصنيفاً مختلفاً لأدوار المشاركين الّتي تعبّر عنها الجملة، يعتقد بعض اللغويّين أنّه من غير المناسب استعمال فكرة الفاعل كفئة عامّة، أي كفئة يمكن اعتمادها في توصيف كلّ اللغات. ويعتقدون أنّه من الأفضل الكلام عن أدوار أساسية للمعاني تبدأ منها كلّ اللغات وتمثّلها بطرقٍ مختلفة. تمّ اقتراح مجموعة عالميّة من هذه الأدوار أو **الصيغ** في منتصف الستّينات وبداية السبعينات من قِبَل عددٍ من اللغويين، بما في ذلك عالم دلالات الألفاظ تشارلز فيلمور (Charles Fillmore)، الّذي قدّم نظريّة نحويّة سمّاها **نحو الصيغة**، واحتوت على 6 أدوارٍ مجرَّدة أو "صيغ عميقة":

تشمل الصيغ مجموعة من المفاهيم العامّة الّتي تُعتَبر فطرية وتشير إلى أنواعٍ من الأحكام الّتي يمكن للناس القيام بها، في ما يخصّ الحوادثَ من حولهم، كتحديد من قام بالعمل، ومن حصل الحدث له، وما قد تغيّر (Fillmore 1968: 24).

اقترح فيلمور صيغة الفاعل والأداة والمجرور (وقد استبدلها لاحقاً بصيغة المجرِّب) والمفعول به - ويسمّيها تشومسكي "الموضوع". تسعى هذه النظرية إلى تفصيل الطرق الّتي تستعملها مختلف اللغات للرمز إلى أدوار المشاركين في جملةٍ ما في قائمة عامّة لهذه الأدوار، وتسمّى "صيَغ"[10] تسمّى هذه الصيغ باطنة أو "عميقة"، لأنّها مهمّة على المستوى المجرّد للتمثيل وقد لا تكون رموزاً على المستوى "السطحي"، أي مستوى الأشكال اللغوية الّتي

---

(10) انظر أيضاً ((Gruber (1965), Chafe (1970), Jackendoff (1972)). انظر ما يقوله ج. غريمشو (J. Grimshaw) (1990) ورادفورد (Radford) (1988: 373) عن الصيغ الّتي يستعملها النحويون التوليديون. لعملٍ أكثر تفصيلاً عن أدوار المعاني وقائمة صيغٍ أطول، انظر أندريوز (Andrews 1985) لطريقة أخرى في التعامل مع الصيغ، تسمّى "العلاقات الموضوعية"، انظر (Jackendoff 1987, 1990).

يستعملها ويفسّرها المتكلّمون والسامعون للّغة فعليّاً.

1.5.6. الصيغ العميقة وتدرّج الميّزات

ما جعل من دراسة فيلمور عملاً مهمّاً كان تكيّفها السهل مع لغاتٍ تختلف مورفولوجياتها وميّزاتها النحوية. فتحتوي اللغات الّتي يمكنها استعمال صيغة "الفاعل" على قواعد تسمح "بابتكار الفاعل" وباختيار الصيغة الّتي تعبّر عنه. تشكّل مجموعة هذه القواعد ما يسمّيه فيلمور **تدرّج الصيغ**: فاعل > أداة > مفعول به. يعني ذلك، أنّه في حال وجود شخص يقوم بالفعل في الجملة، يصبح هذا الشخص مباشرةً الفاعل؛ وإذا لم يوجد بل وُجدت أداة، تصبح الأداة الفاعل؛ أمّا إذا كان يجب التعبير عن صيغة المفعول به، فيصبح هذا المفعول به الفاعل السطحي للجملة (Fillmore 1968 : 33) انظر أيضاً (Fillmore 1977a : 61). الذي يصف ذلك قواعد اللغة الإنجليزية جيّداً، لأنّها توجب وجود فاعل في كلّ جملة[11]. فللفعل كـ open في الإنجليزية، إذا كان هناك من يقوم بالفعل، يصبح الفاعل السطحي (مثلاً فتحت المرأة الباب the woman opened the door). إذا وجد الشيء والأداة، تصبح الأداة الفاعل (فتح المفتاحُ الباب the key opened the door). إذا لم يوجد الّذي يقوم بالفعل والأداة، يصبح المفعول به[12] الفاعل (انفتح الباب the door opened).

(11) أي أنّ الجمل الإنجليزية المتناهية تحتاج دائماً إلى فاعل، إن وُجد أو لا شيءٌ يشير إليه في الواقع. فعلينا مثلاً أن نقول إنّها تمطر It Rains و(هو) من المهمّ أن ننتخب It is Important to Vote. ليس من الواضح، في كلا الحالتَين ما ترمز إليه It، وفي لغاتٍ عديدة (اليابانية والإسبانية) لا تحتوي هذه الجمل على فاعل ظاهر.

(12) أدّى الخلط بين "المفعول به" كصيغة معنى و"المفعول به" كصيغة إعراب تتباين مع "الفاعل" إلى اعتماد علماء دلالات آخرين مصطلحات أخرى "كالمفعول له" (Patient) و"الموضوع" (Theme).

أشار فيلمور إلى الاختلاف بين اللغات في ما يخصّ الصيغ التحتيّة الّتي تسمح بالتعبير عنها بصيغة الفاعل السطحية. اعتمد فيلمور (1977a) على عمل سوسومو كونو (Susumo Kuno) (1973) للإشارة إلى لغاتٍ كاليابانيّة، حيث لا يمكن الحصول على جملٍ ك(23) و(24)، تستخدَم فيها الأداة المادية كفاعل :

(23) خمسون دولاراً تسمح لك بشراء سيّارة مستعمَلة Fifty dollars will buy you a second-hand car.

(24) الرائحة أمرضتني The smell sickened me.

قال فيلمور إنّه يمكن الربط بين هذه القيود والطرُق الّتي يسمح لقواعد اللغة أن تتّبعها لتصوّر بعض **المشاهد**. تعطي بعض اللغات أهميّةً لما ليس إنساناً (الأدوات مثلاً) في المشهد ويمكن تحميلها ميّزات نربطها عادةً بمن يفعل الفعل. ففي الإنجليزية مثلاً، في جملة مثل (23) أعلاه، نعطي الخمسين دولاراً قوّةَ المبادَرة وتغيير العالم. وذلك غير ممكن في لغاتٍ أخرى، ولا يمكن استعمال أسماء غير أسماء الإنسان كفاعل فعل اشترى Buy. في نفس السياق، يقول ديلانسي (DeLancey) (1981) إنّنا إذا أردنا أن نفهم كيف تنظّم اللغات المورفولوجيا والنحو، علينا أن نستعمل مصطلحَي **وجهة النظر** و**دفق الانتباه**[13]. يحتوي هذا المجال في البحث على الكثير من الإمكانيات لكلّ من يهتمّ بكيفيّة تمثيل النحو لرؤيات عالمية معيّنة (انظر الفصل 3).

يبدو أنّ أي نظريّة نحويّة تبدأ بمصطلحات المعاني، كقواعد

---

(13) "يحدّد دفق الانتباه التسلسل الخطي للعبارات الاسمية. تقدّم العبارات الاسمية في الجملة بحسب التسلسل الّذي يختاره المتكلّم" (DeLancey 1981: 632). يتعلّق هذا المصطلح بمصطلح الأيقونية الّذي ابتكره هايمان (Haiman) (1980)، ولكنّه يختلف عنه (انظر الفقرة 1.8.6).

الصيغ لفيلمور، هي أكثر استعداداً للتعامل مع اللغات الأرجية كالديربال، لأنّه ليس من الواضح في هذه اللغات أيّ عبارة اسمية ـ الصيغة الأرجية أو الصيغة المطلقة ـ يجب اعتبارها الفاعل[14]. بما أنّ العبارة الاسمية الّتي تقوم بالفعل، كما نرى في لغة الديربال أعلاه، تأخذ لاحقة (مثلاً الصيغة الأرجية)، بينما لا تأخذ العبارة الاسمية لاحقة عادةً (أي اللاحقة "صفر" أو "مورفولوجيا صفر")، قال بعض النحويين إنّ اللغات الأرجية تتعامل مع جمل الأفعال المتعدية كجمل بصيغة **المجهول** في اللغات الّتي تستعمل الفاعل والمفعول به (Hale 1970). يعني ذلك أنّه تتمّ ترجمة جملة مثل (21) أعلاه في الإنجليزية كالتالي: "ضُرِبَت المرأة من قِبل الرجل the woman was hit by the man" (تشكّل by ترجمة الصيغة الأرجية). ولكن اعتبر الكثيرون هذه الرؤية مرتكزة على وجهة نظر أوروبية للنحو، تقضي بجعل اللغات الأرجية ـ المطلقة تتوافق مع نموذج الفاعل والمفعول به "بترجمتها" بواسطة تركيباتٍ نحويّة (المجهول) يمكن أن يفهمها متكلّمو اللغات المعتمدة على الفاعل والمفعول به في قواعدها (Dixon 1972: 136-137; Silverstein 1976a: 114-115). قدّم فيلمور حلاً جيّداً لهذه

(14) أدّى هذا الخلاف إلى نقاش حاد في السبعينات، كما نرى في الأعمال الّتي جمعها لي (Li) (1976) وبلانك (Plank) (1979) ومقالاتٍ طويلة كمقالات كومري (1978) (Comrie) وديكسون (Dixon) (1979) استعمال النحويين التوليديين الحالي لمصطلَح "الأرجي" يختلف عن معناه العادي وغير متوقَّع (انظر Dixon 1994) يعتبر النحويّون التوليديون التركيبات الأرجية تركيبات حيث ما يلعب دور المفعول به في جمل الأفعال المتعدية يلعب فيها دور الفاعل. ففي (1) مثلاً، تُعتبر ب التركيبة الأرجية لأنّ الكرة هي الفاعل (عن Radford 1988: 374):

(أ.) دحرج جون الكرة على الهضبة

(ب.) تدحرجت الكرة على الهضبة

لدراسة عن الأرجية متأثّرة بعمل عالم المنطق ريتشارد مونتاغ، انظر (Dowty 1982: 110-14).

المشكلة. فقال باعتقاده إنّ اللغات الأرجية لا تحتوي على فكرة التفعيل (Subjectivization)، أي أنّها تعبّر بشكلٍ مباشر عن صيغ المعاني (أو الأدوار) بدلاً من أن تقرّر في كلّ مرّة على أيّ من التعابير الاسمية يكون الفاعِل (Fillmore 1968: 53-54).

بدا أيضاً أنّ قواعد اللغة المعتمدة على الصيغ كانت أكثر فعالية في تفاعلها مع مقدرة اللغات على اتّباع نظام معيّن (أرجي ـ مطلَق) في بعض من قواعدها في أجزاء أخرى من نظّام آخر (فاعل ـ مفعول به). في الحالات المعروفة في اللغات الأرجية مثلاً، لا تتبع كلّ الظواهر المورفولوجية والنحوية نفس النمط الأرجي (أي التعامل مع الّذي يقوم بالعمل بشكلٍ يختلف عن فاعل جمل الأفعال اللازمة). فلا تملك الضمائر عادةً في اللغات الأرجية مثلاً مورفولوجيا أرجية وتتصرّف أكثر كضمائر لغات الفاعل والمفعول به، كالإنجليزية، حيث يتمّ التمييز بين أشكال الفاعل (أنا، هو، هي، نحن، هم) وغير الفاعل (المفعول به) (ـ ي، ـ هُ، ـ ها، ـ نا، ـ هم). ابتكر النحويّون لهذا السبب مصطلح **الأرجية الانشقاقية** لوصف هذه الحالة (Dixon 1994: ch. 4). تشكّل لغة الديربال مثالاً جيّداً عن هذا النظام الانشقاقي. نجد في الجمل المحتوية على تعابير اسمية كاملة مورفولوجيا أرجية ـ مطلقة، كما نرى أدناه عن (Dixon 1972: 60)، حيث يحتفظ الضميران أنا و "أنت" بنفس الشكل كفاعلَي جملتَي الفعل اللازم والفعل المتعدّي في الوقت نفسه، ولكنّه يتغيّر عندما يصبحان مفعولَين في جمل الفعل المتعدّي :

(25) ŋada baniŋu

أنا (فاعل) آتٍ "أنا آتٍ"

(26) ŋinda baniŋu

أنت (فاعل) آتٍ "أنتَ آتٍ"

(27) balgan ηinuna ηada

أنا (فاعل) ـ كَ (مفعول به) أضرب

"أنا أضربك"

(28) balgan ηayguna ηinda

أنت (فاعل) ـ ي (مفعول به) تضرب

"أنت تضربني"

لتفسير هذه التغيّرات في الإشارة إلى الصيغ في نفس اللغة واكتشاف الأنماط الموجودة في كلّ اللغات، اقترح سيلفرشتاين (1976a) **تدرّجاً في الميّزات** مستقلاً عن اللغة وبالتالي يمكن اعتباره عالمياً. ويمكن لهذا التدرّج أن يساعد على تفسير لماذا نجد في اللغات الّتي لديها أنظمة أرجية مشتقّة أنواعاً من التعابير الاسمية الّتي تحصل على مورفولوجيا أرجية أكثر من غيرها. بما أنّ في الكثير من لغات أوستراليا يوجد الاشتقاق في الأنظمة الضميرية، حيث يتبع بعض الأسماء مورفولوجيا الفاعل والمفعول به وغيرها مورفولوجيا الأرجي - المطلق، ابتكر سيلفرشتاين نظام تصنيفٍ يشمل العدد الأقصى من ميزات المعاني في الأنظمة الضميرية في اللغات الأوسترالية. نجد بعض هذه الميزات في تعارض بين "نحن" **الشاملة والحصرية**، وبين ضمائر **المثنّى والجمع**. يعطينا نظام الغووغو ييميضيرّ (Guugu Yimidhirr) الّذي يصفه هافيلاند (Haviland) (1979) أمثالاً عن هذه التمييزات، ولو أنّه تمّ تبسيطه حالياً بالنسبة لما كان من قبل (Haviland 1979: 65)[15]. نجد الأشكال هنا في صيغتَي الفاعل والمفعول تُستعمل الأولى لفاعل جمل الفعل اللازم وللقائم بالفعل في جمل الفعل المتعدّي، وتُستعمل الثانية لمفعول جمل الفعل المتعدّي :

---

(15) نقدّم هذا التفريق بين الشامل والحصري للمثنّى فقط ("نحن" الإثنين: شامل أو حصري) وليس لنحن في الجمع. لنظامٍ حيث يحصل ذلك، انظر الفقرة 2.3.9.

فاعل (الفاعل، القائم بالفعل)	مفعول به	ترجمة
ngayu	nganhi	"أنا"
nyundu	nhina(an(in))	"أنت"
nyulu	nhinhaan(in)	"هو، هي"
ngali	ngaliin/ngalinin	"أنت وأنا ـ مثنى شامل"
ngaliinh	ngalinhun	"هو/هي وأنا ـ مثنّى حصري"
yubaal	yubalin/yubalinh	"أنتما"
bula	bulaan(in)/bulangan	"هما"
nganhdhaan	nganhdhanun	"نحن"
yurra	yurraan/yurrangan	"أنتم جميعاً"
dhana	dhanaan/dhanangan	"هم جميعاً"

يعبّر نظام سيلفرشتاين التصنيفي، وقد استوحاه من عمل بنفينيست (Benveniste) (1966) وجاكوبسون (Jakobson) (1932, 1936)، بشكلٍ جيّد عن التمييز بين الشامل والحصري وبين المثنّى والجمع، بواسطة أربعة أشكالٍ من الرموز: [+/ ـ أنا] و[+/ ـ أنت]، و[+/ ـ جمع]، و[+/ ـ منحصر]. ونجد أدناه نظرة عامّة عن هذا النظام[16] (Silverstein 1976a: 117):

---

(16) يمثّل كلّ عمود مجموعة من الفئات. ولكنّ الميزات ليست كلّها مستقلّة ولا تندمج بحرية. وقد حذفتُ عموداً بين ب وت، لأنّه بالرغم من كونه ممكناً وحده، يبقى غير ممكن فعليّاً بسبب العلاقات بين الميزات (يشير إليهما سيلفرشتاين ب *). ويمثّل هذا العمود عبارة اسمية إيجابية مع أنا وأنت وسلبية مع الجمع. هذا غير ممكن لأنّ أي ضمير يشير إلى المتكلّم ومن يتكلّم معه يبقى في الجمع. تقع الميزة الإيجابية "المنحصرة" بين قوسَين (+) عندما تكون عاطلة، أي عندما يكون الشكل في المفرد، أي [-جمع].

	أ	ب	ج	د	ه	و	ز	ح	ط	ي	ك
أ. [+/ ـ أنا]	+	+	+	+	+	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
ب. [+/ ـ أنت]	+	+	ـ	ـ	ـ	+	+	+	ـ	ـ	ـ
ج. [+/ ـ جمع]	+	+	+	+	ـ	+	+	ـ	+	+	ـ
د. [+/ ـ منحصر]	+	ـ	ـ	ـ	(+)	+	ـ	(+)	+	ـ	(+)

أ. نحن الاثنَين شامل

ب. نحن

ج. نحن الاثنين حصري

د. نحن حصري

ه. أنا

و. أنتما

ز. أنتم

ح. أنت

ط. هما

ي. هما

ك. هو

في هذا النظام يحدّد ضمير المتكلّم المفرد ("أنا") باستعمال [+ أنا، ـ أنت، ـ جمع] ويحدَّد الضمير أنت (du بالألمانية وtu بالإسبانية) باستعمال [ـ أنا، +أنت، ـ جمع]، أمّا هم (they بالإنجليزية) فيحدَّد باستعمال [ـ أنا، ـ أنت، +جمع]. يدلّ المصطلح [+/ ـ منحصر] على ما إذا كان الأشخاص المشار إليهم أم لا بواسطة الضمير هم وحدات فردية أم قابلون للإحصاء. ويستعمل للتفريق بين المثنّى ([+منحصر]) والجمع ([ـ منحصر]).

ويستعمَل المصطلح [+/ ـ جمع] للتفريق بين الجمع والمفرد. فضمير المتكلّم المثنّى مثلاً هو [+أنا، +أنت، +جمع، +منحصر]،

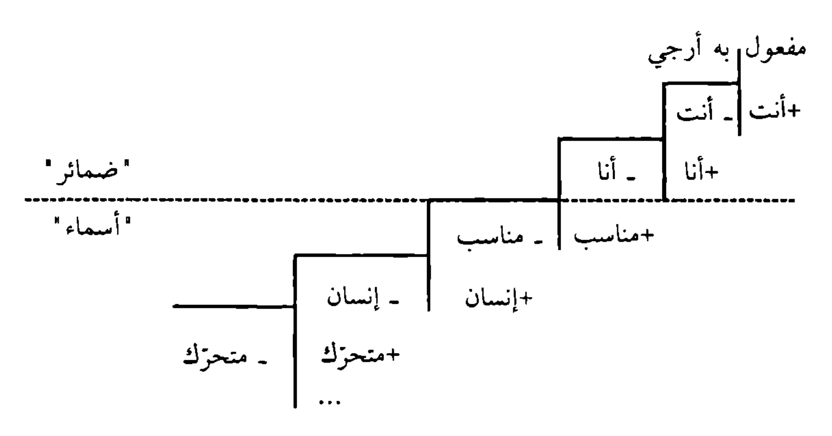
أي أنّه يشمل المتكلّم والمتكلَّم إليه، وهو جمع، ويحصر عدد المشاركين إلى رقمٍ معيَّن (اثنين)[17].

وجد سيلفرشتاين، في مراقبته للغاتٍ مختلفة، أنّه بالرغم من وجود بعض الاختلافات بين اللغات في ما يخصّ نوع العناصر المستعملة (كان أحياناً [+أنت] أكبر من استعمال [+أنا])، تتكرّر أيضاً بعض الأنماط. فوجدت الضمائر الّتي تملك المّزات [+أنا] و[+أنت] رتبةً أعلى من غيرها، وكان من الأرجح إذاً أن تدخل في نظام الفاعل والمفعول به. أمّا الضمائر الّتي لم توجد فيها هاتَين الميزتَين فكات رتبتها أدنى، وكان من الأرجح أن تتبع النظام الأرجي ـ المطلق، كالأسماء عامّةً. تمكّن سيلفرشتاين، بإضافة بعض الميزات الأخرى لضمائر صيغة الغائب مثل [+/ ـ إنسان] و[+/ ـ مناسب]، من أن يشمل ظواهر أخرى من العبارات الاسمية. وقد افترض أنّه يمكن تنظيم هذه الميزات بحسب رتبها وبشكلٍ يسمح، في ما يخصّ اللغة الّتي تستعمل مورفولوجيا أرجية في نقطةٍ ما من تدرّج رتبها، بافتراض أنّه ستستعمل المورفولوجيا الأرجية في كلّ التعابير الاسمية الواقعة بعد هذه النقطة. من ناحية أخرى، إذا ما استعملت لغةٌ ما مورفولوجيا المفعول به في نقطةٍ ما، يمكن افتراض أنّها ستستعملها أيضاً في كلّ ما يعلوها. نجد هذا التدرّج الرتبي في الرسم 1.6 . أدناه، حيث تشير الخطوط العمودية إلى التقسيم الممكن بينما تشير إلى صيغة المفعول به والصيغة الأرجية في نفس اللغة. ما يُتوقّع هو أنّه عندما يتمّ التفريق في نظام الصيغ بين مجموعتَين متّصلتَين من

---

(17) كان كونكلين (Conklin) (1962) قد ابتكر نظاماً مماثلاً باستعمال ميّزات ثلاثة (المتكلّم والسامع والعضويّة الجزئية) لتفسير الضمائر الشخصية في لغة الهانونوو. ولكنّ نظامه لا يتناسب مع اللغات الأوسترالية كالغوغو ييميضير، لوجود 10 ضمائر مختلفة فيها، انظر بين (Bean 1978) في ما يخصّ تكييف نظام كونكلين مع ضمائر لغة الكانّادا.

الفئات (بين [+أنا] و[ـ أنا])، ستتصرّف عندها كلّ المجموعات عن شمال الخط العمدي بشكلٍ يختلف عن تصرّف المجموعات عن يمينه[18].



الرسم 1.6. بعض احتمالات انشقاق الأنظمة الأرجية (Silverstein 1976a: 122)

الفكرة وراء هذا التدرّج هي أنّ بعض أنواع المشاركين في المحادثة، المتكلّم، والسامع وغيرهما من الناس، قد يكونون أكثر من غيرهم من يقوم بالفعل، وأنّ هذه المجموعة من المشاركين تكمّل مجموعة المشاركين الّذين من الأرجح أن يكونوا مفعولاً به. تميل اللغات الأرجية إذا إلى استعمال مورفولوجيا معيّنة (أرجية) للدلالة على المشاركين في المحادثة الّذين من الأرجح أن **لا يكونوا** من يقوم بالفعل، أي المشار إليهم في يسار رسم 1.6. (مثلاً الأسماء بصيغة الغائب، والمرجع الغير متحرّك). بالمقابل، تميل لغات الفاعل ـ المفعول به إلى تحديد الأسماء كمفعول به عند إشارتها إلى مشاركين من المحتمل أن لا يكونوا مفعولاً، كضمير المتكلّم

(18) قدّم ديكسون (Dixon 1979: 85) نفس التدرّج بشكلٍ مبسّط، على خطٍّ أفقي.

و"أنت". يعني ذلك أنّه إذا كان للغةٍ مورفولوجيا أرجية، فمن الأرجح أن تستعملها للأسماء أكثر من الضمائر، وأن تستعملها أكثر أيضاً لصيغة الغائب منه لصيغة المتكلّم أو "أنت". تستعمل نظرية سيلفرشتاين عدداً من الأبعاد النحوية والدلالية والعمليّة، منها العبارات الاسمية (وقد يمثّل المرجعَ اسمٌ كامل أو ضمير) والشخص (أو نوع المشارك في الحدث الكلامي)، ودرجة الحركة Croft) (112-113 : 1990. تمّ تأكيد صحّة هذه الأبعاد في عددٍ من الدراسات عن لغاتٍ أخرى وأصنافٍ من اللغات (Dixon 1994)، والّتي بيّنت أيضاً أهميّة النظر إلى المورفولوجيا بشكلٍ أكثر شمولاً، يأخذ بعين الاعتبار الخيارات الّتي تعطيها اللغة للمتكلّمين بها، سامحةً لهم بأخذ وجهة نظر معيّنة وتقديمها في المحادثة (انظر أدناه). تمّ تحليل تدرّج سيلفرشتاين ونتائجه من جديد في العقدَين الماضيَيْن، من وجهات نظر نظريات مختلفة، فاقترح عدّة مؤلّفين تفسيراتٍ أخرى (انظر مثلاً (Jelinek 1993). ولكنّ فكرته الأساسية لا تزال فرضية عملية مركزية في الأنثروبولوجيا الألسنيّة : كلّما نكتشف نظاماً نحويّاً "مختلطاً" أو يتبع معايير يبدو أنّها متضاربة، علينا أن ننظر إلى العوامل الدلالية والعملية المؤثّرة. يبدو دائماً أنّ ما يتكلّم عنه المشاركون يلعب دوراً أساسيّاً في تنظيم قواعد اللغة.

2.5.6. وضع إطارٍ للوقائع بواسطة المورفولوجيا الشفوية

تمّت دراسة المورفولوجيا الشفوية أيضاً من قبل الكثير من النحويين، خاصّةً في ما يتعلّق بالشخص والعدد وصيغ الفعل والسببية. يعرف علماء رموز اللغة أنّ بعض اللغات تغيّر أفعالها للتعبير عن الطرق المختلفة للقيام بعملٍ ما أو توزيعه على وقتٍ ما، بينما قد تفضّل لغات أخرى إبقاء نفس الفعل وإضافة مورفيمات إليه للتعبير عن معانٍ مختلفة (انظر أعلاه الأمثلة من لغة بوهنبيين) أو

الاعتماد على السياق اللغوي أو غير اللغوي للتفريق. فتفرّق الأفعال الإنجليزية الّتي تشير إلى الموت مثلاً بين المعنى السببي وغير السببي : قتل (kill سببي)[19] ومات (die غير سببي). من ناحية أخرى، تتطابق معظم الأفعال الإنجليزية الّتي تشير إلى الإضرار بشيءٍ ما ـ مثلاً كسر، شقّ، طقّ، انفجر، فجّر، حطّم، بعثر، مزّق إرباً، مـزّق، قـطـع (Break, Crack, Snap, Burst, Bust, Smash, Shatter, Shred, Rip, Tear)، في كلا الحالتَين ـ السببية وغير السببية (انفجر البالون، فجّرتُ البالون ـ The balloon burst/I burst the balloon) (Talmy 1985: 84). يمكن الحصول على نفس التفريق في بعض اللغات بإضافة مورفيم للتعبير عن السببية أو مورفيم يشير إلى استعمالٍ غير سببي. نجد الخيار الأوّل كثيراً في لغة الساموا. يشتقّ الفعل السببي غالباً من فعل غير سببي بإضافة fa'a ـ ، كما نرى في (29) و(30) أدناه : pa'û "سقط" تصبح fa'a-pa'û "أسقط" (أو "جعله يسقط")[20].

(29)	'ua	pa'û	le	tama
	ماضي	سقط	ال	ولد

"وقع الولد"

---

(19) الأفعال السببية تصف الوقائع الّتي نجد فيها فاعلاً يأتي بتغييرٍ في شيءٍ ما. بعض هذه الأفعال هي قتل، فتح، كسر، أسقط، اشترى (Kill, Open, Break, Drop, Buy). تعتبر القواعد النحويّة التوليدية أنّ الأفعال السببية تحتوي على مسندٍ سبب (Cause) مجرّد (تستعمل الحروف الكبيرة للإشارة إلى طبيعة المسند المجرّدة وغير الحاملة لمعنىً). فيُعتبر قتَل مثلاً فعلاً ذا تركيبة منطقية حاملة لمعنىً من نوع السبب (x يصبح (غير (حي (y)))). يسعى هذا النوع من التحليل إلى التعبير عن استنتاج y غير حي من x قتل y. لدراسةٍ عن ذلك وعن غيره من الأفعال السببية المدروسة شكليّاً، انظر (Chierchia and McConnell-Ginet (1990: 350-370).

(20) لا تحمل اللاحقة fa'a دائماً معنىً سببياً في لغة الساموا. فيمكن استعمالها أيضاً لتركيب نعوتٍ ظروف فعلية، مثلاً fa'aS?moa "طريقة الساموا".

(30) 'ua fa'apa'û <u>e</u> <u>le</u> <u>tama</u> le ipu

ماضي سببي ـ أسقط أرجي ال ولد ال صحن

"أسقط الولد الصحن"

يحصل العكس في اللغة الإسبانيّة بإضافة مورفيم "انعكاسي"، se، إلى الفعل السببي لتحويله إلى فعلٍ غير سببي، كما نرى أدناه (Talmy 1985: 85):

(31) AbriŸ la puerta

فتح ال باب

"فتح الباب"

(32) La puerta se abrió

ال باب انعكاس انفتح

"انفتح الباب"

تُعرف لغات سكّان أميركا الأصليين باحتوائها على مورفولوجيا فعلية غنية تسمح بتمييزات دقيقة في المعاني، ويمكن تقصّي كلّ منها بالنظر إلى لاحقة مستقلّة. سمح ذلك، بالإضافة إلى طرق دمج المورفيمات في كلمة واحدة، في الماضي بتسمية هذه اللغات، في سياق دراسات الرموز، لغات **تعدّدية التركيب** (Baker 1996). نجد مثالاً جيّداً عن ذالك في الأتووجاوي، وهي لغة هوكان من شمال كاليفورنيا تحتوي على الكثير من المورفيمات الّتي تعطي معلوماتٍ عن **مسار** شيءٍ ما لدى اقترابه من **أرضٍ** ما (انظر الجدول 3.6).

يوضح الجدول 3.6. التميز الدقيق بين المعاني من خلال مورفولوجيا الفعل في لغة الأتووجاوي عن (Talmy 1985: 108-109)

"سائل" هناك	-iæt
"هناك نار"	-cis
"هناك مجموعة متراكمة" (دغل، حشد، ضلع)	-isp -u∫ +
"نحو الأسفل في وعاء جاذب" (سلّة، يد مطوية كالكوب، جيب حوض)	-wam
"في تسييج خارجي" (حظيرة، حقل، بركة ماء)	-wamm
"(عمودياً) في مجال دائري مغلق" (منزل، فرن، فجوة، معدة أيّل)	-ipsn^{u} +
"نحو الأسفل في مجال دائري (كبير) مغلق تحت الأرض" (قبو، حفرة كفخٍّ للأيّل)	-tip -u∫ +
"فوق الحافة في مجال دائري مغلق" (حفرة غوفر، فم)	-ikn +
"في ممرّ لسدّه" (اختناق، إغلاق، وضع حائط)	-ikc
"في زاوية، في زاوية الأرض والحائط)	-iks^{u} +
"نحو وجه/عين (أو على رأس) أحدهم"	-mik∫
"نحو الأرض أو ثقب الأرض"	-miæ
"نحو شيءٍ على الأرض (أو ثقبه)" (على (جذع شجرة)	-cis^{u} +
"بشكلٍ أفقي، ثقب شيءٍ على الأرض (أو عليه)"	-iks

تتفاعل غالباً المورفولوجيا الاسمية مع المورفولوجيا الفعلية في اللغة. فالأرجية (انظر أعلاه) مثلاً لا يتمّ الإشارة إليها دائماً في المورفولوجيا الاسمية فقط. في بعض اللغات، تحمل أشكال الفعل، عادةً بواسطة لاحقات ضميرية أو توافقية، وهذا يعطينا معلوماتٍ عن أيّ من العناصر التي تشكل القائم بالفعل وأي منها يشكل المفعول به

(المطلق). في الدجاكالتيك، وهي من لغات المايا في غواتيمالا، يتم التمييز بين صيغتَي الأرجية والمطلق بواسطة لاحقاتٍ داخل الفعل. تشير اللاحقة الأولى إلى العبارة الاسمية المطلقة والثانية إلى العبارة الاسمية الأرجية. في (33) و(35) لا توجد عبارات اسمية مستقلّة، وبالتالي يجب استنتاج معنى الجملة من مورفولوجيا الفعل وحده، وهي تعطي معلوماتٍ عن الصيغة (أرجية أو مطلقة) والعدد (المتكلّم أو أنت) في المسند (ضرب) :

(33) ch-o

نحن ـ أنت ـ ضربت

"أنت ضربتنا" (Craig 1979: 31)

(34) ch-ach-cu-maka

أنت ـ نحن ـ ضربنا

"نحن ضربناك"

في لغة الإسكيمو في آلاسكا الوسطى (Woodbury 1985)، يحمل الفعل والاسم كلاهُما مورفولوجيا أرجية ـ مطلقة، كما نرى في الأمثلة التالية (في لغات الإسكيمو، كما في مجموعاتٍ لغوية أخرى، إشارة الأرجية هي نفسها إشارة صيغة "الملكية")[21]:

(35) Nukaq-ø ner-'uq-ø

نوكاق ـ مطلقأكل ـ ماضي ـ صيغة الغائب مفرد

"أكل نكاق"

---

(21) لتجنّب الخلط بين المعاني، استعضتُ عن REL (الجملة النسبية) الّتي يستعملها وودبيري (Woodbury) بـ Erg (الأرجية)، مع أنّ كلمة =Relative= "نسبية" قد تعبّر بشكلٍ أفضل عن لغة الإسكيمو. تشير (:) إلى معنىً إضافي لنفس المورفيم.

(36) Nuka-m akutaq-ø ner-a-a

نكاق ـ أرجية Erg مزيج ـ مطلق ـ مفرد

أكل ـ ماضي ـ صيغة الغائب مفرد

"أكل نكاق مزيج التّوت"

(Woodbury 1985: 67)

نستنتج أيضاً من هذه الأمثال، كما يقول هوبر (Hopper) وتومبسون (Thompson) (انظر أدناه)، أنّ التعدّي ليس من ميّزات الأفعال الفردية، بل الجمل. فيحصل نفس الفعل، ـ ner "أكل" على مورفولوجيا مختلفة إذا ما وجد مفعول به في الجملة.

نرى أيضاً العلاقة الوطيدة بين المورفولوجيا الاسمية والمورفولوجيا الفعلية في السلسلة الفعلية الّتي تشبه التدرّج الرتبي للميّزات التي تكلّم عنها سيلفرشتاين وغيره في ما يخص المورفولوجيا الاسمية. في مراجعته لظواهر التناسق في عددٍ من اللغات، اكتشفَ مورافتشيك (Moravcsik) (1974) أنّ بعض أنواعِ المراجع تحتاج إلى تناسق الفعل أكثر من غيرها. إذا ما تناسق فعلٌ في لغةٍ ما مع نوعٍ واحد، يكون هذا الأخير الفاعل (هذا ما يحصل في اللاتينية، انظر أعلاه). إذا ما تناسق الفعل مع نوعين من العناصر، فيكونان الفعل والمفعول به المعرّف (هذا ما نجده غالباً في لغات البانتو، حيث يمكن تحديد المفعول به أكثر باعتباره يشير إلى إنسان). إذا ما تناسق الفعل مع ثلاثة أنواع من العناصر، فتكون الفاعل، المفعول به المعرَّف، والمفعول به غير المعرَّف.

3.5.6. التدرّج الرتبي الموضوعي

اقترح غيفون (Givón) (1979) أن تعاد صياغة هذه الميول باستعمال ما سمّاه **بالتدرّج الموضوعي**، الّذي يُستعمل لتخمين أنواع

المراجع الّتي قد تقود أكثر من غيرها إلى قواعد لغوية كتناسق الفعل. يشتقّ مصطلح "الموضوعي" من كلمة "موضوع"، وتمّ استعماله لأنّه بدا أنّ العناصر في أعلى التدرّج هي أيضاً الأكثر تناولاً "كمواضيع".

نرى في الرسم 2.6. التدرّج في المواضيع كمجموعة من علاقات رتبت حسب تفاعلها التدرجي بعضها مع البعض:

أ. إنسان > غير إنسان

ب. معرّف > غير معرّف

ج. مشارك فعلي > مشارك غير فعلي

د. صيغة المتكلِّم > أنت > صيغة الغائب

الرسم 2.6. المواضيع بالتدرّج (Givón 1976: 152)

بالرغم من وجود مشاكل غير محلولة، تخصّ المعايير الّتي تسمح بتحديد موضوع الجملة، تبقى ميّزات التدرّج الموضوعي عمليّة في تحديد عددٍ من العمليّات المورفولوجية والنحوية في عددٍ من اللغات، وبالتالي لا تزال تؤثر في الكثير من النحويين والباحثين الميدانيين الّذين يهتمّون بإعطاء دراسة تركّز على المحادثة والنفعية لفهم تصرّف اللغات، أي لماذا مثلاً تستعمل لغةٌ ما مورفولوجيا معينة في فئاتٍ ما وليس في غيرها وفي سياق نحوي معين فقط.

يمكن التمييز بين اللغات الأرجية ـ المطلقة ولغات الفاعل ـ مفعول به بالقول إنّ بعض اللغات تفضّل وضع المشاركين في فئاتٍ تحدّد دور معناهم في الحدث الموصوف (اللغات الأرجية ـ المطلقة)، بينما تفضّل لغاتٌ أخرى الفئات الّتي تركّز على إعطاء الأحداث من وجهة نظر المشارك الأعلى في التدرّج الموضوعي

(لغات الفاعل والمفعول به). يكون الفاعل عادةً موضوعاً، أي يقدّم مشاركين تمّ تقديمهم من قبل في المحادثة ويقال المزيد عنهم الآن ـ يعطي ما يسمّيه تشيف (Chafe) (1976) "بالمعلومات المعطية". تتعامل اللغات الّتي تعتبر الفاعل أهمّ الفئات مع الناس بشكلٍ مماثل، إن كانوا من يقوم بالفعل، مثلاً **فتحتِ المرأةُ الباب**، أو بالعمل، مثلاً **ركضت المرأة**، أو من يعيشون التجربة، مثلاً **المرأة (تكون) مسرورة**. من جهةٍ أخرى تشير اللغات الّتي تفضّل التمييز في المعاني على المواضيع عادةً إلى الناس بشكلٍ مختلف يعتمد على الدور الّذي يلعبونه في الحدث. فتميل اللغات الأرجية مثلاً إلى الفصل بين المشاركين البشريين الّذين يقومون بالفعل والّذين لا يقومون به، وتضع هؤلاء مع المفعول به في جمل الأفعال المتعدية؛ وبالتالي تحدِّد المرأة في **ركضت المرأة مثل الباب في فتحت المرأة الباب**. وقد تميّز لغاتٌ أخرى بطرقٍ أخرى[22].

4.5.6. أنواع الجمل والتركيبة المفضّلة للنقاش

درس جون دو بوا (John Du Bois) (1987) كيفية تقديم اللغات الأرجية واللغات الاسمية للمعلومات في الروايات، واستنتج أنّ

---

(22) لا تقتصر طرق تحديد دور المشاركين في اللغة على الطريقتَين اللتين نقدمهما هنا بأي شكل. فهناك مثلاً ما يسمّى "باللغات الفعّالة" (أو "لغات انشقاق الفاعل") الّتي تميّز بين الفاعل الناشط والفاعل غير الناشط (Dixon 1994: ch. 4; Mithun 1991). يتحدّث دوري (Durie) (1987, 1988) عن الأسيهينيز، وهي من اللغات الأسيوية الأسترالية في محافظة أسيه في أندونيسيا، وتملك علاقتَين نحويتَين، يسميهما، مستعيناً بفكرة فاولي (Fowley) وفان فالين (Van Valin) (1984)، العامل والخاضع ـ مستبدلاً "المفعول به" بهذا المصطلح. يمكن للأفعال اللازمة أن تأخذ عاملاً أو خاضعاً، بحسب معناها. لدراسةٍ عن لغات "انشقاق في جمل الأفعال اللازمة"، انظر: ,Delancey (1981), Garrett (1990) .Merlan (1985), Van Valin (1990)

طريقة ترتيب الحديث قد تؤدّي إلى كلٍّ من النظامَيْن، بحسب العوامل الّتي تفضّلها اللغة. أشار دو بوا إلى وجود ميلٍ في الروايات نحو الإشارة إلى مشاركٍ واحد (أو، بحسب النحو، إلى "فاعلٍ" واحد للفعل) باسمه الكامل (هذا ما يسمّيه "التقيّد بفاعل ومعنىً واحد"). ولا يكون هذا المشارك عادةً من يقوم بالفعل (ما يسمّيه عندها "الفاعل غير المقيّد بالمعنى"). ويكون بالأحرى إمّا فاعل جملة فعلٍ لازم أو المفعول به في جملة فعلٍ متعدٍّ. أما من يقوم بالعمل، فهو عادةً مشاركٌ قد تمّ تقديمه من قبل في أدوار أخرى، ويشار إليه بالتالي في غيابه من الجملة، أي بواسطة ضميرٍ أو غياب مورفيم. ويشار إلى هذا النمط في المحادثة بـ"تركيبة الفاعل المفضّل"[23]. اقترح دو بوا أن ننظر إلى الحديث لكي نرى عدداً من الحوافز المتضاربة في اختيار نظامٍ لغوي بدلاً من آخر. يقود التمييز في الحديث بين الفاعل والمفعول به من جهة ومن يقوم بالفعل من جهةٍ أخرى إلى ابتكار نظامٍ أرجي ـ مطلق. ولكن هناك صلاتٌ أخرى بين من يقوم بالفعل والفاعل، منها عوامل تضعهم في أعلى التدرّج الرتبي (انظر الرسم 2.6. أعلاه). يكون من يقوم بالفعل والفاعل عادةً إنساناً، موضوعاً ومعرّفاً. أمّا المفعول به فلا يكون عادةً إنساناً، وموضوعاً ومعرّفاً.

5.5.6. التعدّي في قواعد اللغة وفي الخطاب

سمحت دراسات قواعد اللغة المرتكزة على الخطاب، كتلك الّتي ذكرناها للتو، بإدراك أنّ ما قد يحلّله علماء النحو كتركيباتٍ

(23) توصّلتُ ألينور أوكس (Elinor Ochs) بشكلٍ مستقلّ إلى نفس النتائج، في دراستنا لحديث الساموا. انظر (Duranti 1981), (Duranti and Ochs 1990), (Ochs 1988). انظر الفقرة 6.6 أدناه.

لغوية مستقلّة، يحلّله محلّلو الحديث من جديد كإنتاج عوامل اجتماعية وبسيكولوجية وروائية.

دمج هوبر وتومبسون (1980) دراسة الرموز بتحليل اللغة (معتمدين بالأخصّ على الحديث المكتوب)، وقدّموا دراسة معقّدة للدفاع عن فكرة **تعدّي الفعل** كبعدٍ عالمي في قواعد اللغة. فبيّنوا أنّنا إذا ما فكّرنا بالتعدّي كميّزة للجمل الّتي تحتوي على معانٍ وعوامل عمليّة معيّنة مشترَكة، نستطيع عندها أن نفسّر استعمال اللغات لنفس الأدوات المورفولوجية والنحوية لبناء تركيباتٍ قد تبدو مختلفة تماماً، وعدم استعمالها لنفس الأدوات المورفولوجية والنحوية لبناء تركيباتٍ تبدو متشابهة. بدأوا من مفهومٍ غير نظري للتعدّي "كميّزة عامّة لجملة كاملة، تسمح "بحمل" أو "نَقل" نشاطٍ ما من الفاعل إلى من "يقام عليه"، وأدخلوا في دراستهم عدداً من **العوامل**، أي ميّزات المعاني العمليّة في جمل الأفعال المتعدية. وقد شمل ذلك معلومات قد وجدت في الحدث الّذي يتمّ وصفه :

أ. مشارك أو مشاركان

ب. تمثيل الجملة لعملٍ ناشط

ج. عمل كامل (وصل إلى هدف) أم لا (لا يصل إلى هدف)

د. حصول العمل في وقتٍ معيّن

هـ. إرادة (رغبة) بالقيام بالعمل

و. إيجابية أم سلبية

ز. حصول العمل فعلاً (واقعي) أم هو نظري (غير واقعي)

ح. قوّة عالية أم لا في طريقة القيام بالعمل

ط. تأثّر الشيء بشكل كامل

ي. الشيء كوحدة مستقلّة، يمكن التعريف بها بشكل معيّن أو محدّد.

نجد في ما يلي، في الجدول 4.6.، هذه العوامل أو الميّزات العشر،

الجدول 4.6. عوامل التعدّي

	تعدي مرتفع	تعدّي منخفض
أ. مشاركون	على الأقلّ مفعول به وشيء	مشارك واحد
ب. تحرّك	حركة	دون حركة
ج. ميّزة	هدف	دون هدف
د. دقّة المواعيد	دقيق	غير دقيق
ه. إرادة	إرادي	غير إرادي
و. تأكيد	مؤكّد	سلبي
ز. صيغة	واقعي	غير واقعي
ح. مقدرة	عالية مقدرة مرتفعة	منخفضة
ط. تأثير في الشيء	تأثير كامل	لا تأثير
ي. تميّز الفرد	فردية مرتفعة	فردية منخفضة

أظهر هوبر وتومبسون أنّ هذه العوامل تساعد على تفسير مدى إمكانية جملة أن تحتوي على ميّزات مورفولوجية ونحوية تتعلّق بالتعدّي.

يمكن إذا تقسيم التعدّي للحصول على مكوّناته، يركز كلّ واحد على ناحية معيّنة من هذا لنقل جزءٍ مختلفٍ من الجملة. وتحدد الأجزاء جميعها ما إذا

كانت الجملة أكثر أو أقلّ تعدياً: (وجود سمات اكثر في الجملة في العمود الأعلى من القائمة **أ - ي** يعني أنّ الجملة متعدية أكثر وتقترب أكثر من التعدّي الكامل.

(Hopper and Thompson 1980: 253)

تسمح لنا هذه القائمة بوضع رتبٍ للجمل في كلّ اللغات بالنسبة للتعدّي. فلنأخذ مثلاً الجمل أدناه، إذا ما اتّبعنا التدرّج في 4.6، نجد أنّ (37) أكثر تعجياً من (38) و(39) :

(37) أكل الولد السمكة

(38) أكل الولد

(39) يحبّ الولد السمك

بحسب القائمة أعلاه، تُعتبر (37) الأكثر تعدياً لوجود مشاركَين فيها (العامل ا)، وفيها حركة (العامل ب)، يتمّ وصفها من نهايتها (انتهت)، فلها إذا هدف (العامل ج)، والعمل حصل في وقته (تحصل في وقتٍ محدّد) (العامل د)، والشيء (السمكة) يتأثّر بشكلٍ مباشر وكامل (العامل ط)، وهو(وحده) وحدة (شيء حي يشار إليه باسم مفرد) (العامل ي). من جهةٍ أخرى، تصف (38) واقعاً فيه مشارك واحد فقط، و(39) مشهداً حيث يوجد مشتركَين، ولكنّ ما يوصف ليس عملاً فعليّاً، ليس متنهياً، وليس بموعدٍ دقيق؛ بالإضافة إلى ذلك، الشيء الّذي تتكلّم عنه الجملة ليس فرداً مستقلاّ (فهو اسم عام لمعنى عام) ولا يتأثّر بحالة الفكر الذي يشير إلى الفاعل. نتوقّع، بحسب تدرّج التعدّي، من اللغات الّتي تشير إلى التعدّي في المورفولوجيا والنحو أن تتعامل بشكلٍ مختلف مع هذه الجمل. وهذا ما يحصل بالفعل في لغة الساموا، وهي لغة أرجية. نجد فقط في الجملة من النوع الأوّل - انظر (40) أدناه - رمز الأرجية على الفاعل

(القائم بالعمل)، بينما نجد رمز المطلق على فاعل(الجملة) الثانية (دون حرف جرّ) ـ انظر (41). وتتعامل الجملة الثالثة ـ في (42) ـ مع الاسم الّذي هو مفعول به في الإنجليزية كمفعول مائل، مع حرف جرّ (i)، ممّا يشير إلى مشاركة من نوعٍ آخَر :

(40) na 'ai e le tama le i'a

ماضي أكل أرجي ال ولد ال سمكة

"أكل الولدُ السمكة"

(41) na 'ai le tama

ماضي أكل ال ولد

"أكل الولد"

(42) e fiafia le tama i le i'a

مضارع مسرور ال ولد حرف جرّ ال سمكة

"يحبّ الولد السمك"

يقول هوبر وتومبسون إنّ عوامل التعدّي هذه تتعلّق بالحديث، لأنّها تتناسق مع أنواع الجمل الّتي تظهر في ما يسمّونه **المقدّمة والخلفيّة**.

> يُطلب دوماً من مستعملي لغةٍ ما أن يصمّموا أقوالهم بشكلٍ يتناسق مع أهدافهم التواصلية وبما يعتبرونه احتياجات سامعيهم. ولكن، وفي كلّ واقعٍ كلامي، بعض ما يقال يكون اكثر ارتباطاً بالموضوعِ من البعض الآخَر، كما أنّ جزءاً من الخطاب وإن لم يساهم مباشرة او جوهرياً في الوصول إلى هدف المتكلّم، يساعد قليلاً فقط أو يسهب أو يعلّق عليه، حيث يشار إليه كخلفية. ولكن بالمقارنة فإن الموضوع الذي يجهز النقاط الاساسية في الخطاب يسمّى بالمقدّمة (Hopper and Thompson 1980: 280).

يتابع هذا العمل إذاً تقليد النظر إلى اللغة غالباً كنظام ذي وظيفةٍ مرجعية ودلالية، ولكنه يضيف بعداً مهمّاً هو **وجهة نظرَ** (أو، كما يسمّيها بولانيي ـ بووديتش، **التثبيت**) المتكلّم (أو الكاتب). وهو أنّ المتكلّمين يضعون كلامهم في إطارٍ يسمح بالتعبير عن رؤية معيّنة للعالم، وتُعتبر التركيبات اللغوية بدورها حسّاسة في تناسقها مع هذه الأهداف الكلامية والتفاعلية.

يهتمّ الأنثروبولوجيون الألسنيّون كثيراً بهذا النوع من العمل لأسباب متعدّدة : (1) فهو يُظهر بوضوح أنّ ما يبدو انقساماً إلى نظامَين مورفولوجيَيْن مختلفَين قد يتأثّر بنفس المعاني والميّزات العمليةّ؛ (2) يعد التمييز بين المعاني مهمّاً في تطوّر واستعمال الفئات المورفولوجية ـ النحوية؛ (3) ويصل بين التفريقات المورفولوجية والنحوية والمعجمية، وميّزات الحديث، كمعلومات المقدّمة والخلفية؛ ويقدّم أخيراً نظرية ضمنية عن الفعلية والمشاركة يمكن استعمالها في دراسات الإثنوغرافيين الّذين يهتمّون بالنظريات المحلية الخاصة للحدث والسببية والمسؤولية.

وقد تتبعتُ هذه المسائل في عملي عن قواعد لغة الساموا (Duranti 1994). في سنتَي (1978-1979)، خلال جمعنا وتحليلنا الاولي للغة الراشدين والأطفال الساموا، اكتشفتُ، مع إلينور أوكس ومارتا بلات أنّ جمل الأفعال المتعدية حيث يعبَّر بشكلٍ واضح عن القائمين بالعمل (بحسب معنى الجملة) ـ كما نجد في (40) أعلاه ـ نادرة جدّاً في حديث الساموا العفوي. كما اكتشف دو بوا في تحليل الروايات الإنجليزية وبلغة الساكابولتيك (انظر أعلاه)، يتكلّم الناس عن القائمين بالعمل في حديث الساموا دون أن يُذكروا، كما نجد في (43) أدناه، حيث يمكن فهم مرجع القائم بالعمل في المسند "تأخذ صورتك" (pu'e le aka o 'oe) من سياق الحديث،

بواسطة ما يسمّيه النحويّون "الجناس صفر"[24]:

(43) (بيسيو، الكتاب 16؛ تتكلّم الأم إلى ابنتها عن الباحثة إلينور أوكس، الّتي بحوزتها كاميرا)

الأم: kû i luga e siva se'i pu'e le aka o'oe
قفي حرف جرّ فوق ل ترقصي لكي تأخذ ال صورة لكي
"قفي وارقصي لكي تتمكّن من أخذ صورةً لكِ"

أحياناً أخرى، يتمّ تقديم مرجع القائم بالعمل في حديثٍ سابق ولا يتكرّر في جملة الفعل المتعدّي، كما نجد في (44)، حيث يُفهم أنّ القائم بالعمل في جملة e le'i faia le mea lâ i lum â i lumâfale "لم ينه المكان هناك أمام البيت" هو جيمي:

(44) ("المراقبة" يشير الخطيب ت للرئيس سالانوا إلى أنّه لم يتمّ تنظيف الحشيش أمام منزل جيمي)

ت: Salagoa ali'i i lumâfale, lâ mea le faia e le'i Gimei iâ va'ai
انظر إلى جيمي ماضي تمّ ال مكان هناك في أمام المنزل سيدي سالانوا
"انظر إلى جيمي لم تنظّف هذا المكان أمام المنزل، سيّد سالانوا"

بالإضافة إلى ذلك، نجد جملاً تحمل نفس المعنى ولكنّها جمل فعلٍ متعدٍّ في الإنجليزية وجمل فعلٍ لازمٍ في لغة الساموا، حيث يظهر المشارك الّذي قام بعمل معيّن كمن يحدّد فاعل المسند. ففي (45) يحتوي الاسم الفاعل، le lāuga a le kamaloa 'o Pua "كلام الرجل (الرسمي) (المدعو) بوا" على وصفٍ لمرجعٍ يمكن

(24) لدراسةٍ عمليّة للجناس صِفر، انظر (Levinson 1987).

التعبير عنه بالإنجليزية باستعمال القائم بفعلٍ متعدٍّ في الجملة :

(45) ("الحراسة"؛ يتحدّث ثلاثة رؤساء عن ميّزات الخطباء الّذين يعرفونهم ويتذكّرون أحداثاً معيّنة تحدّث فيها كلٌّ منهم)

ف : Pua. 'o kamaloa le a lāuga le pu'upu'u

قصيرة ال خطاب ل ال رجل سند بوا

(حرفيّاً) "خطاب الرجل بوا (كان) قصيراً"

أو "أعطى الرجل بوا خطاباً قصيراً"

لاحظتُ حصول ذلك بشكلٍ متكرّر، فقرّرتُ أن أحلّل الحالات الّذي يظهر فيها القائم بالعمل. للوصول إلى هذا الهدف، راقبتُ الخطابات في عدّة لقاءاتٍ سياسية أو fono كنتُ قد سجّلتها في سنة 1979. اكتشفت عندها أنّ المتكلّمين يستعملون القائم بالعمل عندما يمدحون أو يلومون شخصاً ما. فكان من العادي أن يكون القائم بالفعل الإله المسيحي (في التقييمات الإيجابية) أو شخصٌ أو مجموعةٌ قد اتُّهمت بانتهاك مبدأ اجتماعي (في التقييمات السلبية). بالإضافة إلى ذلك اكتشفتُ أنّ الّذين يعتبرون موضع ثقة في المجلس كانوا يستعملون جمل أفعالٍ متعدّية وقائم بالفعل أكثر من غيرهم. فكان المتكلّمون الأقلّ قوّةً يتجنّبون الأستعمال الصريح للقائم بالعمل. لا يعني ذلك فقط وجود **قوّة أخلاقيّة** في استعمال جمل الأفعال المتعدية المحتوية على القائم بالعمل بشكلٍ واضح، بل أيضاً وجود ارتباطٍ بين الأشكال النحوية ومنزلة الناس السياسية في الجالية. يستخدم أعضاء الجالية الأقوياء عادةً نوعاً من الحديث يحتوي على تعدٍّ أكثر من ذلك الّذي يستعمله الأعضاء الأقلّ قوّة. إذا ما أخذنا ذلك بعين الاعتبار، يحصل ما يقوله هوبر وتومبسون عن التعدّي على معنىً جديد. فيصبح أداةً مهمّة تسمح للأنثروبولوجيين الاجتماعيين الثقافيين بتقييم الاستراتيجيات المستعمَلة لتركيب تدرّج

الرتب في المجتمع. تسمح لنا أدوات تحليل الحديث، بدمجها مع الإثنوغرافيا، بأن نفهم بشكلٍ أفضل ما قد نسمّيه ثقافة النحو.

6.6. اكتساب قواعد اللغة في دراسات التربية الاجتماعية اللغوية

قد أدى دمج قواعد اللغة والتحليل الثقافي نجاحاً مهمّاً في دراسة اكتساب اللغة الّتي قام بها الأنثروبولوجيون الألسنيّون. وقد حفّز تطوّر الألسنيّة البسيكولوجية على تطوير هذا العمل في الستّينات والسبعينات، تحت تأثير ما قاله تشومسكي عن فطرية اكتساب اللغة (Chomsky 1959, 1966, 1968).

بالرغم من أنّ الأنثروبولوجيين الألسنيّين والثقافيين تكلّموا عن علاقة اكتساب اللغة باكتساب الثقافة، كرّست معظم أبحاث الأنثروبولوجيين الألسنيّين حتّى نصف الستّينات على كلام البالغين. أدرك اللغويّون البسيكولوجيون أهمية جمع بياناتٍ من لغاتٍ ليست هندية ـ أوروبية عندما أرادوا اختبار نظرية تشومسكي (1965) المتعلّقة "بقواعد اللغة العالمية" وفطرية "أداة اكتساب اللغة" (LAD Language Acquisition Device). في هذا الجو العلمي، بدأ علماء النفس، كدان سلوبين في جامعة بيركلي في كاليفورنيا بالتعاون مع اللغويين والأنثروبولوجيين لإيجاد أساليب جديدة تسمح بالحصول على بياناتٍ من كلّ المجتمعات يمكن مقارنتها ببياناتٍ عن أطفال أميركيين من الطبقة الوسطى يتكلّمون الإنجليزية. أنجزت مجموعة بيركلي **دليلاً ميدانياً** (Slobin 1967) للاستعمال كدليلٍ لجمع بيانات لغوية يمكن مقارنتها بالمجموعة الإنجليزية الكبيرة الموجودة. ولكن بالرغم من نيّتهم الحسنة، كانت الأطروحات الخمس عن اكتساب اللغة في اللغات غير الهندية ـ الأوروبية، والمعتمدة على الدليل

الميداني، مخيّبة للأمل. فجدّد فشلهم التركيز على أهمية القيام بدراسة لاكتساب اللغة تعتمد على السياق الإثنوغرافي:

> يبدو أنّ هذه النتائج المخيّبة للأمل أتت جزئياً من صعوبات غير منتظَرة في استخدام تصميم الأبحاث في الميدان. لم يتمكّن الباحثون من القيام بتجاربهم بنجاح، لأنّ هذا العمل لم يتوافق مع المجتمعات الّتي كانت تحت الدراسة. وقد وجد الباحثون، بالإضافة إلى ذلك، أنّه لم يكن من الممكن تسجيل عيّنات الكلام إلاّ في حالاتٍ غير مناسبة ثقافياً...

(Schieffelin 1979: 75)

بدأت موجة جديدة من أبحاث اكتساب اللغة في السبعينات خاصةً (ولكن ليس حصرياً)، في أعمال الأنثروبولوجيين الألسنيّين الخاصّة بالحالات الّتي من الأرجح أن يتفاعل فيها الطفل مع متكلّمين راشدين، بدلاً من محاولة استحضار تصميم تجريبي إلى الميدان آتٍ من مختبر علمي وذي صلة ضعيفة بكلّ ما يتعلّق بالحالة الواقعية (Crago 1988; Demuth 1983; Heath 1983; Kulick 1992; Ochs 1988; Platt 1982; Schieffelin 1990). عندما تمّ تأسيس أسلوب متأثر بالإثنوغرافيا لدراسة اكتساب اللغة، بدت اللغة ليس فقط كهدف التفاعل الشفوي بين الطفل والراشد أو الطفل الصغير والطفل الأكبر سناً، بل أيضاً كأداة أساسية للتربية الاجتماعية[25]. عند تعلّم الأولاد للّغة، يصبحون أعضاءً في مجتمعهم. من وجهة النظر هذه لا يمكن الفصل بين اكتساب اللغة **والتربية اللغوية الاجتماعية** ـ

---

(25) لمجموعةٍ من الدراسات عن لغة الأطفال في لغاتٍ مختلفة، تحتوي على وصفٍ يعتمد على العمل الإثنوغرافي، انظر (Slobin 1985a, 1985b, 1992).

وهي تربية اجتماعية بواسطة **اللغة** (Ochs and Schieffelin 1984). أسّست هذه المقاربة لاكتساب اللغة معايير نظرية ومنهجية للأبحاث. فقد اعتبر النحويّون عامّةً (Chomsky 1965) أنّ هدف اكتساب اللغة هو إنتاج **متكلّمين كفؤين**، ولكنّهم لم يحلّلوا تنوّع المعاني الّتي يحتوي عليها هذا المفهوم بالنسبة لمجموعةٍ معيّنة من الناس. فاعتبرت مارجوري غودوين (Marjorie Goodwin) (1990) مثلاً أنّ الأولاد الأميركيين من أصلٍ إفريقي يطوّرون مقدرةً مختلفة في تعاملهم الشفوي مع النزاعات (انظر الفصل 9). أظهر كوليك (Kulick) (1992) بأن الراشدين المتكلّمين لعدة لغاتٍ في جالية غابون في بابوا غينيا الجديدة يربّون أولادهم لكي يتكلّموا بلغةٍ واحدة (بالبدجينيّة المحليّة، توك بيسين)، ولو أنّهم يشدّدون على أهميّة تعلّم أطفالهم اللغة المحليّة أيضاً (تاياب). في هذه الحالة، كما في حالة الجالية الهايتية في نيويورك، الّتي درسها شيفلين (1994)، هناك علاقة وطيدة بين نظرية الأهل الخاصّة بما يجب القيام به ليتعلّم الأولاد لغةً ما وتربية الأهل من جهة، وأيديولوجيتهم الخاصّة بما هو قيّمٌ ولأي غاية. في مراجعتهم لهذه الدراسات وغيرها عن اكتساب اللغة، اعتبر أوكس وشيفلين (1995: 91) **أنّه يجب رؤية تطوّر النحو كنتيجة (1)** الممارسات المنظّمة اجتماعياً وثقافياً والّتي يشارك فيها الأطفال، و**(2)** اللغات الّتي يشجّع الأطفال ضمنياً على اكتسابها. يعيد هذان المعياران الخاصان بتطوّر اللغة دراسات اكتساب اللغة إلى مكانها الصحيح، أي واقع حياة الأطفال. لا يجب تفسير هذا القول كترخيصٍ يسمح بتجاهل دور العوامل البيولوجية والإدراكية في اكتساب اللغة، بل كدعوة إلى متابعة تطوّر اكتساب قواعد اللغة في سياق الممارسات التفاعلية والأيديولوجيات الموجودة والّتي تخصّ ما يعني كون الشخص مؤهّلاً للكلام في جاليةٍ ما.

7.6. ما وراء الوعي اللغوي: من المعنى الدلالي إلى استعمال اللغة العملي

يعود الكثير من التطوّر الّذي شهده تحليل اللغة الشكلي في القرن الماضي إلى ما سمّاه اللغوي الروسي رومان جاكوبسون **بدور اللغة ما فوق اللغوي**، أي استخدام اللغة لوصف وتحليل اللغة ("'قط" هي كلمة تتألّف من حرفَين"، "الكلمة الألمانية الّتي تعني 'تطوُّر' هي 'Entwicklung'" . . . إلخ.) (انظر الفصل 9). يشكّل هذا الدور قسماً أساسيّاً من مقدرة المتكلّمين المحليين ـ بما في ذلك اللغويين ـ على عزل بعض الأشكال وتمييز معانيها أو دورها في الحديث (إمّا في سياقٍ تصوّري أو في سياقٍ متخيَّل).ويسمح ذلك بكتابة القواميس وكتب قواعد اللغة. أمّا المفهوم المرتبط بذلك، **الوعي ما فوق اللغوي**، فهو المعرفة الّتي يملكها المتكلمون للغتهم الخاصّة. يمكن الوصول إلى هذه اللغة عادةً بواسطة تأمّل النفس، ويعتبرها معظم اللغويين اليوم مصدراً لا غنى عنه لتحليل اللغة. من الواضح أنّه يمكننا أن نتعلّم الكثير عن لغة ما بالجلوس مع المتكلّمين الأصليين وسؤالهم أسئلة عن لغتهم. ويقوم اللغويّون بذلك غالباً مع الّذين يتقنون لغتَين، سائلين إيّاهم أسئلة "ككيف تقول ـ في لغتك (الأم)؟"، و"ما هو معنى ذلك (كلمة/ عبارة/ جملة)؟" و"هل يبدو لك ذلك صحيحاً؟"، و"هل لما أقوله معنىً؟" و"هل يمكن أن يحمل ذلك معنىً آخَر؟"، و"هل يمكننا أن نقول نفس الشيء بطريقةٍ مختلفة؟" وما إلى ذلك. يمكن استعمال نفس الأسلوب مع الّذين يتقنون لغةً واحدة، حيث يتعلّم الباحثون العبارات والأسئلة الأساسية الّتي يمكّنهم الحصول على مفرداتٍ أوّلية وتطويرها فيما بعد للوصول إلى نماذج نحوية أكثر تعقيداً (مثلاً الكلمات المركَّبة، والعبارات المعقّدة، والجمل المتداخلة). تشكّل طريقة العمل هذه،

المعتمدة على بديهة المتكلّمين الأصليين وعلى أذن الباحثين الميدانيين المدرَّبة على كتابة ما يسمعونه، أداةً قويّة تسمح بالوصول إلى تركيبات قواعد كلّ اللغات. في الوقت نفسه، أظهرت الكثير من الأعمال في حقلَي الألسنيّة الاجتماعية والأنثروبولوجيا الألسنيّة في العقود الثلاثة الماضية أنّ تقنيّات الاستنباط وحدها قد تشكّل مشكلة، فيجب لذلك استكمالها بأساليب أخرى، بما في ذلك الفرضيات المعتمدة على مناسبات استعمال العبارات ومدى تردّدها في الكلام العفوي. تعود بعض مشاكل تقنيات الاستنباط إلى الحدود الكامنة في تأمّل النفس كدليلٍ لمعرفة المتكلّمين استعمال لغتهم. يقدّم عمل وليام لابوف (William Labov) (1966, 1972a) عن التغيّرات الصوتية مثلاً ما يثبتُ أنّ تأمّل النفس يفشل في الوصول إلى انتظاماتٍ مهمّة في طرق تغيير المتكلّم للفظه بين سياق حديثٍ وآخر أو الطرق الّتي تستعملها جالية ما للتعامل مع بعض الأشكال اللغوية (بالانتقال من طريقة كلامٍ إلى أخرى أو من قاعدة متغيّرة إلى قاعدة منتظمة فئويّاً). لا يشمل وَعي المتكلّمين ما فوق اللغوي قدرتهم على التنبّؤ بشكلٍ كامل بتغيّرات لفظهم بحسب اختلافات السياق الاجتماعي والثقافي.

كما يقترح سيلفرشتاين (1981)، إنّ قوّة تأمّل النفس، وبالتالي الوعي ما فوق اللغوي لدى المتكلّمين الأصليين، قد يتغيّر بحسب الظواهر اللغوية الّتي نسعى إلى وصفها. فيبدو من السهل مثلاً أن يعرف المتكلّمون المعنى الدلالي لكلمةٍ ما، عندما تشير إلى شيء ملموسٍ وظاهر. في حالاتٍ كهذه، يمكن استنباط المعنى باستعمال ما يسمّيه الفلاسفة **بالتعريف المشير** ("ما هذا؟" "تفّاحة" "ما معنى 'رِجل'؟ "هذا").

يمكن استعمال نفس التقنيّة للأفعال الّتي تصف الممارسات أو طرق الكيان الّتي يمكن تمثيلها بحركاتٍ أو إيماءاتٍ مقولبة. فيمكن

تمثيل معنى الفعل الإنجليزي (walk) (مشى) مثلاً بالمشي، ويمكن تفسير الصفة (Big) (كبير) بالإيماء باليدَين والذراعين بشيء ضخم أو طويل. ولكن تتعقّد الأشياء عندما نريد أن نعرف ما تعني كلماتٍ مثل **الذكاء والتداعيات والمسؤولية**. علينا عندها أن نشكّل سيناريوهات تسمح باستحضار هذه المفاهيم. يعلم كلّ من حاول تعليم لغةٍ أجنبية أنّه لا يمكننا أن نعتبر أنّ إيماءً معيّناً أو حتّى نادرةً ما ستؤدي إلى نوع الفهم الّذي نبحث عنه. فعندما نبدأ بتركيب مشاهد وشخصيّاتٍ مقولبة، ندخل في مجال الثقافة. فكيف نمثّل معنى حزيناً وفرحاً وغاضباً ومستاء ومسروراً؟ إذ يعود ذلك إلى ما تربطه مجموعة من الناس بهذه الحالات. فقد يُعتبر الناس حزانى في بعض الثقافات مثلاً عندما يبقون في البيت، بينما قد تعتبر ثقافاتٌ أخرى ذلك نعمةً!

يصعب حتّى على المتكلّمين الأصليين أكثر من غيرهم أن يصفوا العلاقة بين الأشكال اللغوية **ودورها العملي**، أي استعمال أشكال الكلام لاستحضار أو تأسيس أنواع من الوقائع، بما في ذلك موقف المتكلّم أو رأيه، والصلات الاجتماعية بين المشاركين أو مكانتهم، والصفات الخاصّة ببعض الأفراد.

طوّر سيلفرشتاين (1981, 1985b, 1993) فكرة جاكوبسون الخاصّة بدور ما فوق اللغة، وابتكر مصطلح **الدور ما فوق العملي** في استعمال اللغة لوصف سياقات الكلام كفعل (انظر الفصل 7). فافترض أنّ نجاحنا في الوصول إلى **وعي** المتكلّم **ما فوق العملي** - أي قدرته على استعمال سياق الواقع لاستعمال تعابير لغوية معيّنة - ليس بمصادفةٍ عشوائية بل مرتبط ببعض ميّزات الرموز اللغوية المعنية. تشمل هذه الميزاتُ مرجعيّة الشكل اللغوي، أي قدرته على التعريف بمرجع معيّن (مثلاً "يشير الضمير vous في هذه الحالة إلى والد المتكلّم") ومجال الرمز اللغوي الإبداعي، أي إلى أي حدٍّ

يفترض وجود مرجعه أو يسعى إلى تأسيسه ووضعه في سياق الواقع.

يعتقد سيلفرشتاين أنّه عندما يبدو أنّ رمزاً لغوياً يؤسّس بدلاً من أن يفترض علاقةً ما، أو موقفاً أو منزلة، يصبح من الصعب على المتكلّمين الأصليين أن يعوا قوّته العمليّة. يعني ذلك أنّه كلّما كان الرمز اللغوي فعّالاً في **ابتكار سياق** الواقع، كلّما صعب على المتكلّمين المحليين أن يعوا قوّته العمليّة. نرى ذلك في مثالٍ عن عملي الخاص بضمائر الفاعل في اللغة الإيطالية.

1.7.6. معنى الضمائر العملي

في اللغة الإيطالية كما في لغاتٍ أخرى، دون الإنجليزية ـ ليس من الضروري إظهار فاعل جمل الأفعال المحدودة لكي تكون الجملة صحيحة (هذه من ميّزات النحو الإيطالي الّتي يسمّيها النحويّون التوليديون "إسقاط الضمير"). تُعتبر الجملتان (46) و(47) كلاهما صحيحتَين تحت نفس الظروف :

(46) lui è arrivato alle sette

هو كان وصل في ـ ال سابعة

"هو وصل في الساعة السابعة"

(47) è arrivato alle sette

كان وصل في ـ ال سابعة

"وصل في الساعة السابعة"

سلّم النحويّون الّذين استعملوا بديهة المتكلّمين الأصليين (أحياناً بديهتهم الخاصّة) لدراسة هذه الظاهرة أنّ وجود الضمير الفاعل في جمل مثل (46) "مرموز إليه" أو خاصّ، وافترضوا أنّه يعود لوجود

تشديدٍ أو **تباين**[26]. يعني ذلك أنّه بما أنّ الجمل الإيطالية **لا تحتاج إلى** ضميرِ فاعلٍ كامل لكي تكون صحيحة، وبما أنّها في معظم الأحيان لا تستعمله في المحادثة، تمّ تفسير وجود lui في جملٍ مثل (46) إمّا كجوابٍ على سؤال عن هوية الفاعل ("من وصل في الساعة السابعة؟") أو كتوضيحٍ لتأكيدٍ سابق ("لم يصل أحدٌ في الساعة السابعة"). ولكن عندما تمعّنتُ في نسخ مكتوبة عن محادثاتٍ إيطالية، قادني الاستعمال الفعلي لضمير صيغة الفاعل الغائب[27] إلى تحليلٍ مختلف. اكتشفتُ أنّه بدلاً من الإشارة إلى التباين أو التشديد، تُستعمل الضمائر مثل lei "هي" وlui "هو" عادةً **للشخصيات الأساسية**، أي للمراجع الّتي يتكلّم عنها حالياً المتكلّم والّتي تهمّه ولديه تجاهها **شعور إيجابي**. ولا تُستعمل نفس الضمائر للإشارة إلى **الشخصيات الثانوية**، الّتي تتمّ الإشارة إليها عادةً بواسطة أسماء الإشارة كـ questo "هذا" وquello "ذلك". عندما استُعمل اسم إشارة لشخصية أساسية، كان هناك أيضاً تقييماتٌ سلبية، أي وصف المتكلّم لشخصٍ غير كفؤٍ ومزعج. واستنتجتُ عندها أنّ الضمائر الشخصية تُستَعمَلُ عادةً **للشعور الإيجابي** وأسماء الإشارة **للشعور السلبي** (Duranti 1984b). لم تتوفر أيٌّ من هذه العوامل العملية لإدراك المتكلّمين الأصليين.

إذا ما أخذنا اقتراحات سيلفرشتاين بعين الاعتبار، يمكننا أن نتصوّر أنّ عدم توفر هذا التحليل لبديهة المتكلّمين الأصليين يعود إلى وجود الشخصية الأساسية والتعريف بشخصٍ بشكلٍ إيجابي في

---

(26) يلخّص (Haegeman 1994: 21) موقف النحويين التوليديين العاملين عل اللغة الإيطالية، قائلاً: "عندما لا يكون هناك من حاجةٍ للتباين أو للتركيز على الفاعل، لا يُستعمل الضمير [الفاعل]."

(27) حصرتُ التحليل بالعبارات الضميرية الدالة على أفرادٍ غائبين.

مكانةٍ عالية على تدرّج قائمة الإبداع العملي. يعني ذلك أنّ هذه الميّزات غير مستقلّة عن استعمال الضمائر. فيتمّ تحديدها بالأحرى بواسطة مصادر هذا الحديث، مثل نوع المرجع الضميري المستعمَل (من دون فاعل أو مع ضمير فاعل) (Duranti 1991). بما أنّ الأنثروبولوجيين الألسنيين يهتمّون باستعمال اللغة كمصدرٍ لبناء سياقٍ مؤسساتي وممارساتٍ ثقافية، فسيركّز عملهم بالأرجح على استعمالات اللغة الّتي توجِد واقعاً معيّناً.

كلّما كانت عبارةٌ ما منوّطة بسياقٍ معيّن، كلّما صعُب وصف دورها باستعمال البديهة، دون غيرها، في ما يتعلّق بالجمل المنفصلة أو أجزاء مبتكَرة من الحديث. يجب لذلك الحصول على معرفةٍ لقواعد اللغة، تشمل التركيبات اللغوية وشروط استعمالها، بدمج الاستنباط وتأمّل النفس بالمراقبة والوثائق الخاصّة باستعمال اللغة. تشير الأبحاث الأخيرة في حقل الوعي ما فوق العملي كما نراه في التفاعل الواقعي، إلى أنّ ما يصعُب ذكرُه في سياق الاستنباط قد يسهل إنتاجه في التفاعل العفوي. تفحّص ماركو جاكميت (Marco Jacquemet) (1994) "الانتهاكات الضميرية" في جلسات المحاكمة الّتي تشمل pentii di Camorra، أي الشهود الذين كانوا ينتمون إلى المنظّمة الإجرامية "كاموزّا" (وهي مثل المافيا في صقلية)، وقد "تابوا" عن أعمالهم وقرّروا التعامل مع العدالة. فقد ظهر أنّ المتكلّمين الّذين قاموا بمجابهاتٍ علنية أمام القاضي استخدموا غالباً ما سمّاه "بالهجوم ما فوق العملي"، أي اتّهاماتٍ مرتجَلة مبنية على استخدام أشكال كلام محاوريهم الموجّه لهم. تأخذ هذه الهجمات عادةً شكل شكاوى عن إهاناتٍ تستعمل الضمير "أنتَ" بدلاً من "حضرتك" أو "حضرتكم" (Brown and Gilman 1960):

(48) (عن Jacquement 1994: 307، بتصرّف، باستعمال [T] [أنت] و[V] [حضرتك(م)] للإشارة إلى طريقة توجيه كلام المتكلّم. تشير الحروف الكبيرة (Capitals) في كتابة الضمائر إلى استعمال ضميرٍ كامل بدلاً من التناسق بين الفعل والفاعل.)

01 LM: = non deviare i ragionamenti,	01 LM: stick to the point!	ل م : لا تغيّر الموضوع
02 Pan: non sto devian-do =	02 Pan: I'm not deviating!	بان: لم أغيّر الموضوع
03 LM: = non girare attorno, =	03 LM: don't circumvent this	ل م: لا تراوغ
04 Pan: non sto- deviando (??)	04 Pan: I am not deviating	بان: أنا لا أراوغ
05 LM: mi vuoi portare	05 LM: you [T] want to make me	ل م: تريد أن تجعلني
06 a dimenticare la cose,	06 forget things,	أنسى الأشياء،
07 si tu parli	07 if YOU [T] speak	إذا ما تكلّمتَ أنت
08 è giustio?	08 isn't it right?	أليس كذلك؟
09 di fiancheggiatori-	09 about supporters	عن المؤيّدين
10 Pan: ma scusi- ma lei mi-	10 Pan: excuse me [V], but YOU [V]	بان: لتعذرني حضرتكم، ولكن حضرتكم
11 mi ha mai conoscuito a me?	11 have you [V] ever met me (before)?	هل قابلتموني من (قبل)؟
12 LM: a te? (..) mai, =	12 LM: YOU [T]? never	ل م: أنت؟ أبداً
13 Pan: e allora pecché dà del tu, =	13 Pan: why then are you [V] using "tu"?	بان: لماذا إذا تستعمل الضمير "أنت"؟

اللافت للنظر في هذا المثال وغيره أن الّذي يتكلّم عنه جاكميت هو أنّ "الهجوم ما فوق العملي" يحصل مباشرةً بعد استعمال

المتكلِّم للضمير أنتَ tu كاملاً. في المثال أعلاه، يتحدّث المتكلِّم ل م فعلياً إلى المتكلِّم بان مستعملاً "أنت" على السطر (01) (non deviare تعني "(أنت) لا تغيّر الاتّجاه"، أي "لا تغيّر الموضوع"). أمّا "الهجوم" فلا يحصل حتّى يستعمل ل م الضمير الكامل **أنت** tu على السطر 07. لا يؤكّد ذلك فقط نظريّتي السابقة القائلة باحتمال وجود مشاعر تتعلّق باستخدام الضمير الفاعل كاملاً في اللغة الإيطالية، بل أيضاً أنّ الأشكال اللغوية المختلفة، كما يشير إليه سيلفرشتاين، تشير إلى مستوياتٍ مختلفة من وعي المتكلّمين - السامعين.

8.6. من الرموز إلى الدلالات

ألقت الملاحظات أعلاه الضوء على ميّزة مهمّة من ميّزات دراسات الأنثروبولوجيا الألسنيّة للأشكال النحوية. فهي تهتمّ بما تفعله هذه الأشكال. يحتاج الباحثون لاكتشاف ذلك إلى التمعّن بسياق واقع استخدامها. فقد يكون لضميرٍ كـ tu أنت مثلاً تأثيراً عمليّاً لا يمكن معرفته بالاعتماد فقط على المعنى النحوي (أنت = "ضمير السامع الحاضر"). ويجعل هذا التأثير العملي استخدام الضمير في **(48)** استخداماً إشكاليّاً.

يحاول معظم علماء النحو تجنّب الكلام عن التأثير العملي للتعابير اللغوية بتركيزهم على الكلمات **كرموز**. ويتعاملون مع التعابير اللغوية كرموزٍ يحدّد التقليد معناها (Peirce 1940). ويعتبرون الرموز ما يمثّل المعاني بشكلٍ كيفي (Saussure 1959). يعني اعتبار الكلمة الإنجليزية Go (ذهب) رمزاً أنّها لا تملك علاقة أيقونية أو دلالية مع المفهوم الّذي تمثّله. يتمّ عادةً إثبات غياب علاقة أيقونية بين كلمةٍ مثل Go (ذهب) وما تمثّله بالإشارة إلى وجود سلسلاتٍ صوتيّة

مختلفة تماماً لنفس المفهوم في لغاتٍ أخرى. تستعمل الإيطالية Andare، ولغة الساموا Alu، الإنجليزية Go. عندما يدرس الفلاسفةُ والنحويّون اللغة ويستعملون كلماتٍ مثل Go، Love، Red، House، Bird، (ذهب، حُب، أحمر، منزل، عصفور)، أو جملاً مثل **كلّ الناس ستموت يوماً ما، العصافير تطير، الحبّ شعورٌ،** يعتمدون على كون الكلمات رموزاً. سأتحدّث باختصارٍ في الفقرة التالية عن نوعَيْن آخَرَيْن من الإشارات، الأيقونات والدلالات التي لها ميّزات تختلف عن ميّزات الرموز.

1.8.6. الأيقونية في اللغات

الأيقونة إشارةٌ تُظهر أو تمثّل ما تشير إليه أو إلى مرجعها - يعني ذلك غالباً أنّها تشبه مرجعها نوعاً ما. تشكّل الصور والرسوم البيانية أمثلة للأيقونات[28]. ولكن يمكن للكلمات أيضاً أن تحمل صفةً أيقونية. هذا ما يحصل مثلاً مع الكلمات الآتية من **المحاكاة الصوتية**، أي الكلمات الّتي، ولو بشكلٍ تقليدي، تسعى إلى ترديد ناحية معيّنة من الصوت الّذي تمثّله أو الصوت الّذي ينتجه العمل الّذي تصفه الكلمة بالإنجليزية Ding-Dong (صوت الجرَس)، Splash (صوت

(28) بالنسبة لبيرس (Peirce) يمكن حتّى لصيغةٍ جبريّة أن تكون أيقونة. في هذه الحالة، تعطي القواعد التقليدية تشابهها مع "الشيء" الّذي تمثّله. "... الصيغة الجبريّة أيقونةٌ، وما يجعلها أيقونةً هي قواعد تبديل وجمع وتوزيع الرموز. قد تبدو تسمية الأيقونة بصيغةٍ جبريّة لأوّل وهلةٍ تصنيفاً كيفياً؛ وقد يبدو من الأفضل اعتبارها إشارةً تقليديةً مركّبة. ولكنّ ذلك غير صحيح. لأنّ أحد أهمّ ميّزات الأيقونة هي أنّه إذا ما نُظِر إليها بشكلٍ مباشر، يمكن اكتشاف حقائق أخرى تخصّ ما تمثّله وتختلف عن ما يكفي لتحديد تركيبتها. فبواسطة صورتَين فوتوغرافيتَين يمكن رسم خريطة... إلخ. إذا ما أردنا أن نستنتج من إشارةٍ ما تمثّل شيئاً ما حقائق تختلف عن ما تشير إليه مباشرةً، علينا في كلّ مرّةٍ أن نستبدلها بأيقونة. تشكّل هذه المقدرة على كشف الحقائق غير المتوقّعة فائدة الصيغ الجبريّة، وتشكّل بالتالي الميّزة الأيقونيّة أهمّ ميّزاتها" (Peirce 1940: 105-106).

الوقوع في حوض مياه)، Plop (صوت وقوع شيءٍ ثقيل في حوض مياه)، Whack (صوت السوط)، الكلمات اليابانية غاشا ـ غاشا "خرخاشة"، شابو ـ شابو "ذهابٌ وإيابٌ بالسوط"، كاسا ـ كاسا "حفيف"). تشكّل هذه الظواهر جزءاً من فئةٍ أكبر من الميزات الأيقونية للأصوات اللغوية، تُجمع عادةً تحت نطاق ظاهرة عامّة أوسع هي **الرموز اللفظية** (أو **الرموز الصوتية**). بالإضافة إلى المحاكاة الصوتية، نجد ظواهر أيقونية معروفة أخرى، كاستعمال طبقات الصوت، ومد الصوت، وارتفاع الصوت للتشديد على وضع شعوري معيّن أو مواقف والتوافق بين أنواع صوتية ومعاني معيَّنة (Berlin 1992; Cardona 1976: 161-163; Hinton et al 1994; Samarin 1971; Swadesh 1972). قد تكون هذه الأوجه للأصوات اللغوية خاصّة بلغةٍ معيّنة أو عالمية. ففي اللغة الإنجليزية مثلاً، يُقال إنّ الكلمات الّتي تبدأ بـ / ـ Sl/ تتعلّق بالتجارب المزعجة (Slime, Slither, Slug, Sloppy، الوحل، الانزلاق، الدودة البزّاقة، مهمل) (Crystal 1987: 174)، وفي لغة هاوسا يُقال إنّ الأصوات /Kw, Gw, ʼKw/ ـ التي تحتاج كلّها إلى تدوير الشفاه ـ تتعلّق بالأشياء المدوّرة (Gouffé 1966)، وفي اليابانية نجد اللفظ /Ra/ في أسماء الوحوش الكبيرة (Beatty 1994). أشار سوادش (Swadesh) (1972: 141) إلى استعمال أحرف العلّة العالية الأمامية مثل [I] في لغاتٍ عديدة للتعبير عن قرب الأشياء، وعن استعمال أحرف العلّة غير الأمامية أو الخلفية مثل [a] و[u] للتعبير عن بُعد الأشياء. ووجد برينت برلين (Brent Berlin)، الّذي درس ظاهرة اللاعشوائية في أسماء النبات والحيوان في لغاتٍ كثيرة، حيث إنّ أسماء العصافير في لغة هويامبيسا جيفارو (Huambisa Jivaro) تستخدم أحرف العلّة الأمامية العالية أكثر ممّا تستخدمها للأسماك. وجرّب برلين أيضاً نظريةً أقدم لياكوف مالكيال عن استعمال الصوت ر [r] في أسماء مثل "Frog" (ضفدع) في

اللغات الهندية ـ الأوروبية، ووجد أنّ [R] و[L]، القريبة منها صوتياً، هي أكثر الأصوات استعمالاً في أسماء مثل الضفدع والعُلجوم في 33 لغة غير هندية ـ أوروبية (Berlin 1992: 250). أعاد هيز (Hays) (1994) تحليل هذه البيانات، مضيفاً لغاتٍ أخرى، ووجد ما يؤكّد نظريّة برلين، ولكن هناك وجودٌ أكبر لصوت غ [g] وما يشبهه (مثلاً / k/ و[x] و[η]) في أسماء الضفادع في لغاتٍ كثيرة حول العالم.

بالرغم من عدم وجود نظرية عامّة عن أسباب استعمال الرموز الصوتية، يتوافق عددٌ من العلماء في قولهم أنّ بعض اللغات (مثلاً اللغة الكورية واليابانية وغبيا والكويتشوا) تستخدم الأصوات كثيراً بشكلٍ أيقوني، وأنّ هذه الظواهر تسمح بالحصول على انتباه السامع انظر (Hinton, Nichols, and Ohala 1994). يتمّ الربط أحياناً كثيرة بين الرموز الصوتية ومجموعاتٍ لغوية معيّنة. فتُعرف لغات البانتو باحتوائها على **صور صوتية**، على الأقلّ منذ أن ابتكر دوك (Doke) (1935) هذا المصطلح للإشارة إلى مجموعة كبيرة من الكلمات الآتية من المحاكاات الصوتية والّتي لا تدخل في أي فئة نحوية معروفة[29]. وقد درس علماء موسيقى إثنوغرافيون مؤخراً، مثل ستيفن فيلد (Steven Feld) (1982)، وأنثروبولوجيّون اجتماعيون ـ ثقافيون، مثل إيلين باسو (Ellen Basso) (1985)، الرموز الصوتية في الأداء الحي الشفوي والموسيقي. تمكّن نوكولز (Nuckolls) (1992, 1995) في دراسته للرموز الصوتية في روايات بلغة باستازا كيشوا، بدلاً من النظر إلى الكلمات المنفصلة، من القول أنّه لا يجب دراسة الكلمات الّتي تشكّل رموزاً صوتيّة فقط كإشاراتٍ أيقونيّة، إذ أن لها ميّزاتٌ

(29) انظر أيضاً سامارين (Samarin 1967). لما يخصّ موضوع اعتبار أو عدم اعتبار الصور الصوتيّة ظروفاً في لغة البانتو وغيرها من اللغات الإفريقية، انظر (Moshi 1993).

أنواع آخرى من الإشارات، كالرموز والدلالات (انظر أدناه).

ميّز بيرس في البداية بين عدّة أنواع من الأيقونيّة، منها ما يسمّيه هايمان (1980) "الصوريّة" و"التخطيطيّة". الأمثلة الّتي ذكرناها حتّى الآن هي صوريّة، لأنّ الإشارة تشبه أحد أوجه المرجع. أما الايقونية التخطيطيّة، فهي تشير إلى ترتيبٍ للإشارات "تنقل الصلات بين بعضها البعض والصلات بين مراجعها" (Haiman 1980: 515). نجد مثالاً معروفاً عن ذلك في سلسلة الجمل في الروايات. في قول يوليوس قيصر المأثور veni, vidi, vinci "جئتُ، رأيتُ، فزتُ"، ترتيب الوقائع المذكورة ينقل ترتيبَ حدوثها الفعلي (Hopper and Traugott 1993: 26). تمّت دراسة هذا النوع من الأيقونيّة من قبل علماء الرموز اللغوية وغيرهم من اللغويين الّذين يهتمّون بالحوافز الممكنة وراء التشابهات التركيبية بين لغاتٍ مختلفة (Croft 1990: 164-92; Haiman 1980, 1985a, 1985b).

من المهمّ السؤال، من وجهة نظرِ أنثروبولوجية، فيما إذا كانت كثرة الأيقونية في بعض اللغات تتعلّق بميّزاتٍ أو ممارساتٍ ثقافية معيّنة. وقد بدأ بعض الأنثروبولوجيين الألسنيّين بالعمل بهذا الاتّجاه. فربط مانهايم (Mannheim) (1991) مثلاً العبارات الأيقونيّة في لغة الكيشوا البيروية بالهوية الثقافية بين الكلمات والأشياء.

> تنسجم محبّة الكيشوا للأيقونية من خلال علاقتهم مع اللغة بشكلٍ عام. يعتبر متكلمو الكيشوا اللغة جزءاً لا يتجزّأ من العالم الطبيعي. تنتمي الكلمات إلى نفس المادة الّتي تشكّل الأشياء بشكلٍ أكثر عمقاً منه في لغات الغرب : فلدينا تقاليد قديمة... تقول بأنّ الكلمات تنوب عن الأشياء وأنّ اللغة هي (أو يجب أن تكون) مرآةً عن العالم. في

ثقافة الكيشوا، تنتمي الأشياء والكلمات إلى نفس المادّة بشكل يشابه أشخاص الثالوث. اللغة في ومن العالم الطبيعي في الوقت نفسه... يساعد تطابق الكلمة والشيء في لغة الكيشوا على تفسير لماذا المعرفة العملية للعالم اليومي تطابق معرفة اللغة والمقدرة على الكلام ويشار إليها بفعلٍ مكوّن من لفظٍ واحد، ياتشاي، نترجمه عادةً "عرف"، ولكن يمكن أن يعني أيضاً "يعرف الكيشوا" دون تغييره أو ذِكر اللغة. .(Mannheim 1991: 184)

لا تشكّل هذه الملاحظات مجرّد وصفٍ لأيديولوجيا اللغة (الفقرة 5.3.). فهي تتعلّق أيضاً بسلسلةٍ من الفرضيّات عن اتّجاه تغيّر الصوت ـ بالأخصّ تطوّر الصوت المزماري والسفط. يهتمّ مانهايم، كأنثروبولوجي ألسنيّ بدمج الأعمال السابقة عن تغيّر اللغة في حقل التحاليل البنيوية والاجتماعية ـ الألسنيّة بالدراسة الإثنوغرافية لمقدرة متكلّمي الكيشوا على ابتكار صورٍ لغويّة.

2.8.6. الدلالات، والمتغيّرات، وأسماء الإشارة

الدلالة إشارة تعرّف بالشيء، ليس لأنّها تشبهه أو تماثله، بل لوجود علاقة التماسِ بينهما. يمكن فهم هذه العلاقة بشكلٍ أفضل بالنظر إلى بعض الأمثال الغير لغوية الّتي يعطيها بيرس، أي البارومتر والدوّارة. الدوّارة دلالة على اتّجاه الريح لسببَيْن: فهي تأخذ نفس اتّجاه الرياح وعندما نراها تشير إلى اتّجاهٍ ما، ننظر بذلك الاتّجاه.

قراءة منخفضة على البارومتر هي دلالة على المطر؛ أي أنّنا نفترض أنّ قوى الطبيعة تحدّد علاقة محتمَلة بين البارومتر المنخفض والهواء الرطِب

والمطر الآتي. الدوّارة دلالة على اتّجاه الريح.؛ لأنّها تأخذ **أوّلاً** نفس التّجاه الريح، فهناك عندها صلة فعليّة بينهما، ونحن، **ثانياً**، في طبيعتنا، ننظر بالاتّجاه الّذي تشير إليه.. (1940: 109)

يعني ذلك أنّ المؤشّرات (أو **الدلالات**، كما يفضّل معظم العلماء القول اليوم) هي إشارات تملك نوعاً من الصلة في الزمان و/ أو المكان مع مرجعها، أو، بشكلٍ عامٍ أكثر، علاقة وجودية مع مرجعها (Burks 1948-1949).

بالرغم من أنّ عدداً مهمّاً من النظريات يقرّ منذ زمن بأهميّة الميزات الدلالية للإشارات اللغوية[30]، معنى كلمة الدلالة (Index) يختلف بين تقليدٍ وآخر. فاستخدم تشارلز بالي (Charles Bally) مثلاً، وهو تلميذ اللغوي السويسري فرديناند دو سوسور (انظر الفصل 6)، الكلمة الفرنسية Indices في العشرينات للإشارة إلى تعابير تعطي معلوماتٍ عن ناحية من نواحي الواقع أو الحدث حيث يتمّ استعمالها من دون أن يكون المتكلّم قد صمّم ذلك. فقد يُعلم لفظٌ معيّن أو خيار معنىً ما السامع عن طبقة المتكلّم الاجتماعية (Bally 1952: 60) ـ يشبه ذلك ما يسمّيه لابوف وغيره **العلامات اللغوية ـ الاجتماعية.** ولكنّ بالي يعتبر المؤشّرات (indices) غير الإشارات (signs)، ولا تنتمي بالتالي إليها. بينما الدلالة (أو الفرنسية indice) تنتج عن رسالة أنتجت لغرض مختلف، الإشارة هي طريقة أو عملية يستخدمها المتكلّم عمداً لإعطاء معلوماتٍ عن شيء ما (Bally 1952: 77).

(30) تكلّم هوسرل (682 :1970 [1913]) عن 'تعابير عرضية بالأخصّ' وكتب: "'هذا' هي عبارةٌ عرضية بالأخص لا تحمل معنىً كاملاً إلاّ إذا نظرنا إلى ظروف الكلام، وفي هذه الحالة إلى مبدأ يطبّق فعليّاً".

في المطبوعات باللغة الإنجليزية المختصّة بالمنفعة، تسمّى بعض أنواع الدلالات **المتغيرات** (Shifters) (Jespersen 1923; Jakobson [1957] 1970) و**أسماء الإشارة** (Fillmore 1966; Lyons 1977). يشير مصطلح "المتغيرات" إلى ميّزة الإشارات اللغوية **أنا وأنت وهنا والآن والبارحة والأفعال**، الّتي توجب "تغيير" معناهم من واقع إلى آخر. ويشير مصطلح "أسماء الإشارة" (Deictic) ـ الّذي يشتَقّ من "Deixis" (وهي كلمة يونانية تعني "الإشارة بالإصبع") انظر (Lyons 1977: 836)؛ وهو يضيء العبارات اللغوية في الزمان والمكان الّتي لا يمكن تفسيرها إلاّ بالنسبة للزمان والمكان[31].

> تسمّى أسماء الإشارة (Deixis) نفس نواحي اللغة الّتي يتمّ تفسيرها بحسب علاقتها أثناء الكلام وقبل وبعد وقت الكلام؛ وبمكان المتكلّم عندما يقولها؛ وبهويّة المتكلّم والجمهور الّذي يتوجّه إليه.
>
> (Fillmore 1966: 220)

تشكّل دراسة هانكس (Hanks) (1990) للّغة والمكان في المايا (وهي لغة مايا من يوكاتان، في المكسيك) تحليلاً مطوّلاً لنظام أسماء إشارة يوضّح جيّداً فكرة الدلالة. يقول هانكس "إنّ الدلالة، كنظام في داخل اللغة وكنوع من العمل، هي **تركيبة اجتماعية** أساسية في مَا يخصّ تنظيم الممارسَة التواصلية، ولا يمكن فهمها إلاّ بصلتها بنظامٍ ثقافي ـ اجتماعي" (Hanks 1990: 5). تُظهر دراسة هانكس أنّه

(31) أنتجت المجموعة الأنثروبولوجية الإدراكية للأبحاث في معهد ماكس بلانك للألسنيّة البسيكولوجية في نيميغين في هولندا، عدداً كبيراً من الدراسات التجريبية عن الأوجه الإدراكية والثقافية لأسماء إشارة المكان في عدّة لغات. لبيبليوغرافيا عن هذا الموضوع، انظر (Peters, van Gool and Messing 1992).

من الممكن توسيع مجال التحليل البنيوي للأشكال اللغوية وتطبيقه على مفاهيم معقّدة على جسم الإنسان كحقلٍ مجسَّد يستعمله المتكلّمون بشكلٍ روتيني لفهم كلام بعضهم للبعض في مكان عيشٍ تحدّده ثقافتهم (انظر الفقرة 5,9.).

1.2.8.6. المعنى الدلالي والتركيبة اللغوية للجنس

عندما يروي المتكلّمون قصّةً أو يصفون ميّزات شيء ما أو يطلبون من شخصٍ أن ينتبه إليهم، يستطيعون أيضاً أن يقوموا بأشياء أخرى كثيرة بواسطة اللغة، يصعب تمييزها أكثر ولكنّها فعّالة بدورها. قد يمكننا مثلاً، عندما نستمع إلى أحدهم يدلّ أحداً آخر على الطريق، أن نجمع معلوماتٍ عن أصله، طبقته الاجتماعية، معرفته للأماكن من حوله، علاقته بالسامعين وربّما حتّى وجهة نظره السياسية (Brown and Fraser 1979; Brown and Levinson 1979). هذا ممكن لأنّ اللغة الّتي نستعملها تحمل في طيّاتها تاريخاً اجتماعيّاً، سلسلة من الصلات بالأزمنة والأماكن حيث تمّ من قبل استعمال نفس العبارات أو نفس طريقة قولها. للإشارة إلى مقدرة اللغة هذه على استدعاء حقائق تذهب أبعد من المحتوى الحرفي لما تتكلّم عنه، استخدم الألسنيّون الاجتماعيّون والأنثروبولوجيّون الألسنيّون في الماضي عبارة **المعنى الاجتماعي**. نقول اليوم بالأحرى **المعاني الدلالية**. يمكن مثلاً اعتبار عبارات التعظيم دلالاتٍ على هويّاتٍ أو علاقات اجتماعية (انظر الفقرة 4.6.).

ساعدت فكرة المعنى الدلالي كثيراً في دراسة التركيب اللغوي للجنس. استخدم ماكونيل - جينيه (McConnell-Ginet) (1988) مصطلح **اسم الإشارة الجنسي** للإشارة إلى الظاهرة حيث يعتبر شكل وحدةٍ لغويّة معيّن **ويعني** شيئاً يخصّ الميّزات الجنسية لسياق الإنتاج اللغوي، ووجهة النظر الجنسية الّتي ينبع منها القول" (1988: 80).

أي أنّ بعض العبارات اللغوية تصبح مرتبطة بالمتكلّمين الذكور أو الإناث، عادةً بسبب الأعمال الّتي من خلالها يتمّ استعمالها، أو بسبب موقفٍ شعوريٍ ما يتعلّق بأحد الجنسَين. ففي دراستها لطريقة كلام نساء التزيلتال (Tzeltal)، أظهرت براون (Brown) (1979, 1980) أنّ ميل النساء إلى التعاطف وتجنّبهنّ للخلافات يؤثر في لغتهن، فتستعملن **التكرار** في الحديث، حيث يكرّر المتكلّم جزءاً من الّذي قاله الآخر قبله، رافعاً صوته للتعبير عن المفاجأة أو الاهتمام أو الموافقة. ويمكن أحياناً تكرير التكرار. يقوم رجال التزيلتال أيضاً بالتكرار، لا يطول تكرارهم ولا يبدي نفس الأدب. يمكن في هذه الحالة اعتبار التكرار دلالةً على الجنس. يُربط استعماله الموسَّع بميّزة أو موافقة، ترتبط بدورها بالنساء أو تناسبهنّ. نجد بشكلٍ مماثل في اليابانية أنّ الحروف zo وze تعبّر عن قوّة شعورٍ تشير إلى التشديد القوي (Uyeno 1971). يرتبط ذلك، في المجتمع الياباني، بكون الإنسان ذكراً. من جهةٍ أخرى، يدلّ استعمال الحرف to في الجمل (Cook 1987) على أن سلطة ما يقال إنها تعود إلى المجموعة الّتي ينتمي إليها المتكلِّم[32]. هذا نوع من المواقف الّتي تدلّ على قيَمٍ ترتبط بالنساء في المجتمع الياباني.

ترينا هذه الدراسات عن الجنس أنّه لا يمكننا القول إنّ ميّزات كلامية معيّنة (كبعض الأفعال الكلامية، والتعابير، والعلامات المورفولوجية، والأنماط الصوتية، والنوعيات الصوتية) تفترض **دائماً** هويّة رجلٍ أو امرأة (McConnell-Ginet 1988). وجدت براون مثلاً (1993) أنّ نساء التزيلتال أقلّ تأدّباً من المألوف عندما يتواجهن في

(32) "عندما يستعمل المتكلّم no، يسمح لما يقوله بالكيان مع مجموعته (أي أنّ المتكلّم ومجموعته يعتبرون ما يقوله صحيحاً) (Cook 1987: 128).

المحكمة. فقد يختلفن ويتقاطع كلامهن، ويعبرن بشكلٍ علني عن عداوتهنّ وغضبهنّ واحتقارهنّ. يعني ذلك أنّه بدلاً من القول إنّ هناك عبارات **لا يستعملها إلاّ الرجال** وعبارات **لا تستعملها إلاّ النساء**، "نجد. . . ميّزاتٍ يستعملها أحد الجنسَيْن أكثر من الآخر" (Ochs 1992: 340)[33].

عمّم أوكس هذه النتائج وقال بوجود **علاقة غير حصرية** بين اللغة والجنس (Ochs 1992: 340). ترتبط عادةً نفس العبارات والاستراتيجيات المرتبطة بالهوية الجنسية أيضاً بميّزاتٍ اجتماعية أخرى، كموقف الشخص أو علاقاته الاجتماعية. فمثلاً في بعض اللغات العامية واللهجات الإنجليزية نجد النساء تستعمل أسئلة في آخر الجمل أكثر منه في لهجاتٍ أخرى (أتابع الطريق أمامي، أليس كذلك؟ don't I?)، ولكنّها ترتبط أيضاً بالمواقف المترددة. فليس من الدقيق عندها القول بأنّ الأسئلة التأكيدية في آخر الجمل **تدلّ** على الجنس الثاني (الأنثى). بل من الأدقّ القول إنّ هذه الأسئلة تدلّ على التردّد وإنّ التردّد هو بدوره موقفٌ يرتبط بالأنوثة (على الأقلّ في الجاليات المتحدّثة بالإنجليزية). أمّا في اليابانية، فاستعمال wa في آخر الجملة يجعل الكلام أكثر "لطفاً" (Uyeno 1971). وبالتالي تدلّ wa على هوية الأنثى، لأنّه يُتوقّع من اليابانيات أن يكن أكثر "لطفاً" من الرجال. اعترفت الشرطيّات في دراسة بوني ماكلهيني (Bonnie McElhinny) (1995) لهنّ، أنّهن استعملن التجديف أكثر عندما ابتدأن بالعمل، لكي يبدون "كالرجال"، بالرغم من أنهن اعتقدن ذلك بشكلٍ زائد - ويسمّي لابوف (1972c) هذه الحالة "التصحيح الزائد". بيّنت

(33) للنظر إلى بعض الاعتبارات المنهجية الخاصّة بجمع واستعمال الدلائل الكمية عن الفروقات الجنسية، انظر مراجعة جيمس وكلارك (1993) لاستخدام الرجال والنساء لمقاطعة الكلام.

المقابلات أنّ الشرطيّات اعتبرن التجديف تعبيراً عن القوّة وقد أردن أن يكن قويّاتٍ كالرجال. يصبح التجديف عندها إحدى العلامات اللغوية المستعمَلة لتركيب نوعٍ معيّن من الهويّة الاجتماعية، تحتوي على ميّزات ككون الشخص "صلب". وتُستعمَل بالتالي الصلابة لتركيب "الرجولة" في تلك الجالية. استعمل أعضاء الطبقة المهيمنة التجديف أكثر من الباقين، في قرية التاميل الّتي درسها ستيفن ليفينسون (Brown and Levinson 1979: 306). في تلك الحالة، أسّست كلمات التجديف "القوّة"، وهي ما يميّز الطبقة الاجتماعية العليا.

في كلٍّ من هذه الحالات، من الأفضل رؤية الهوية الجنسية (وغيرها من الهويّات) كهويّة مركَّبة من عدّة ميّزاتٍ، لا ترتبط بالضرورة كلّها بجنسٍ أو آخر. يعود ما يُنتج الهويّة الجنسية في النهاية إلى دمج هذه الميزات والربط الكياني بينها وبين مجموعاتٍ معيّنة من المواقف. تجبرنا دراستنا للتركيبة اللغوية للهوية الجنسية إلى فهم المواقف الثقافية تجاه طريقة كيان الأشخاص في العالم. وترتكز هذه المواقف أحياناً كثيرة على وجهات نظر مهيمنة تخصّ التدرّج الرتبي الاجتماعي (كاعتبار الرجل صلباً وقوياً والمرأة لطيفة وضعيفة)، ولكنّها قد لا ترتكز أحياناً أخرى على ذلك. تبيّن مراجعة المقالات والكتب الإثنوغرافية عن الميّزات الّتي يتمّ ربطها عادةً بطريقة تواصل النساء (الصمت، المراوغة، الأدب، الجمود) أنّ نفس الميّزة الّتي قد تعبّر عن الخضوع في سياقٍ ما، قد تدلّ في سياقٍ آخر على المقاومة، والرفض، والاحتجاج (Gal 1991). بشكلٍ مماثل، حذّرتنا ديبورا تانين (Deborah Tannen) في حديثها عن التعبير عن القوّة والتضامن في الحديث، من دمج بعض الأشكال اللغوية بنيّة الهيمنة. فلا يدلّ الصمتُ مثلاً دائماً على الإحساس بالعجز. إذ يمكنه أن يكون أيضاً أداة قوّة (Tannen 1993b: 177).

2.2.8.6. التلميح السياقي

كلّما تعلّمنا الأكثر عن الدلالة، كلّما تبيّن لنا أنّ الكلام عمليّة سياقية متواصلة. بينما يساعد الكلام على معرفة ما يحدث، وما هو موضوع تفاعلٍ ما، ومن هم المتكلّمون أو من يودّون أن يكونوا، تشكّل الدلالات الأدوات الأساسية التي تساعد المشاركين على التعامل مع هذه القضايا. فتُستعمَل لتوضيح أسئلةٍ كالتالية : إلى ماذا يقودنا هذا الكلام؟ ما علاقته بما قد تحدّثنا عنه للتو؟ من يجب أن يتكلّم الآن؟ ما هو الجواب المناسب؟ هل نحن متوافقون أم متخالفون؟

بفضل دراسته للإطارات المتعدّدة للثقافات حيث يجتمع الناس من خلفياتٍ إثنية مختلفة ويستعملون "نفس" اللغة، حدّد جون غامبرز مجموعة من الدلالات، يسمّيها **تلميحات سياقية**، تساعد "المتكلّمين على الإشارة إلى ما يحصل، وكيف يجب فهم المضمون وكيف ترتبط كلّ جملة بما قبلها وما بعدها، كما تساعد السامعين على فهم كلّ ذلك... تُستعمَل هذه الميّزات عادةً وتُفهم، ولكنّها نادراً ما تلاحَظ بشكلٍ واعٍ ولا يُتكلّم عنها بشكلٍ مباشر وقليل جدّاً. ويجب لذلك دراستها في سياق الواقع وليس بشكلٍ مجرَّد" (Gumperz 1982a: 131). عندما يحصل تفسيرٌ خاطئ أو عدم فهمٍ كاملٍ لتلميح المتكلّم السياقي، هناك مشكلة تواصل وقد لا يفهمَ المتكلّمون بعضهم البعض. يسمّي غامبرز هذه الحالة **الكلام المتقاطع** (Crosstalk).

أظهر غامبرز (1992) أنّ التلميح السياقي قد يعمل على عدّة مستويات من الكلام، بما في ذلك نواحي النحو الّتي نتكلّم عنها في هذا الفصل (الصوتيات، والمورفولوجيا، والمعاجم، وتركيب الجمل) و(1) علم العروض، وفيه ارتفاع الصوت، والتشديد،

والدرجة الصوتية، و(2) الإشارات غير اللغوية كالصوت الهامس أو اللاهث أو الأجش أو الصرير، و(3) علامات سرعة الإيقاع، بما في ذلك التوقّف والتردد؛ و(4) التداخلات (انظر الفصل 8)؛ و(5) الضحك، و(6) الصيغ. بسبب التشديد على تركيب الجمل الفونولوجيا في الألسنيّة النظريّة وصعوبة تمثيل المعلومات العروضية غير اللغوية باستخدام الكتابة التقليدية، لا يتمّ غالباً تحليل هذه الميّزات. فقد ساعدت دراسة غامبرز للتواصل أو عدم التواصل الصحيح بين الإثنيات على التركيز على هذه الميّزات، المهمَلة، في التفاعل الكلامي انظر (Couper- Kuhlen and Selting 1996).

يربط عمل غامبرز بين أبحاث التركيبات اللغوية والتغيّر الثقافي. ويقول إنّ مقدرة المهاجرين على طلب عمل أو الوصول إلى مصادر اقتصادية تعتمد على قدرتهم على تفسير واستعمال التلميح السياقي المناسب. ويربط بحثه بين قواعد اللغة والثقافة، لأنّ وضع الوقائع في سياقاتٍ معيّنة هي عمليّة عالمية تُنتج وتعتمد على معرفة تخصّ ثقافة معيّنة. وهي عالمية لأنّها تعتمد على تقسيم العمل، "وهو، بشكلٍ أو آخر، ما يميّز كلّ المجموعات البشرية" (Gumperz 1996: 403)، وتخصّ ثقافة معيّنة لأنّ تقسيم العمل يعتمد على معرفة ممارساتٍ تواصليّة معيَّنة؛ وبالتالي، لا تعرف بعض أشرحة المجتمع المصادر التواصلية اللازمة للوصول إلى عملٍ أفضل. يشكّل الفصل الاقتصادي بين المجموعات الاجتماعية سبباً ونتيجة الفروق الثقافية المرسّخة في استعمال اللغة (انظر الفقرة 3.1).

9.6. خاتمة

إذا حاولنا فهم كيف يمكن للعبارات والجمل أن تخبرنا شيئاً عن العلاقات بين الناس، وبين الأشياء، والحوادث في العالم، علينا

أن نحلّل أجزاءها الأساسية، أي الكلمات والمورفيمات وحتّى الظواهر. كمتكلّمين أصليين للغتنا، نقوم بذلك بشكلٍ عفوي في معظم الوقت، ولكن كباحثين، علينا أن نكون نظاميين، يعني ذلك أنّنا بحاجةٍ إلى أدوات تحليلٍ معقّدة؛ علينا أن نستعمل عمليّاتٍ يمكن أن تعطي نفس النتائج في نفس الظروف. يشكّل التمييز بين العلاقات المتناقضة وعلاقات الترابط الّتي رأيناها في بداية هذا الفصل، أوّل خطوةٍ مهمّة نحو التنظيم العلمي. في كلامي عن بعض نواحي النحو الّتي وصفها اللغويّون في العقود القليلة الماضية، أردت بالأخصّ أن أعطي القرّاء فهماً لمنطق المجادلة والتمثيل الّذي يتّبعه الّذين يدرسون الأشكال اللغوية والعلاقات بينها. ليس بامكاني طبعاً إعطاء كلّ البيانات التجريبية والنظريات الّتي نجدها في حقل التحليل النحوي. يمكن لمن يريد أن يعرف أكثر ان يقرأ مقدّمات مفيدة للألسنيّة والحقول المشتقّة منها، كتحليل المحادثة، والبراغماتية، ومعاني الألفاظ، ورموز اللغة، وتركيب الجمل، والمورفولوجيا، وعلم الأصوات، والصوتيّات.

لقد كتبت صفحاتٍ عن المورفولوجيا أكثر من غيرها من نواحي التركيب اللغوي. فأنا أعتقد أنّ فهم المورفولوجيا (بالأخصّ في اللغات الغنيّة بالمورفولوجيا) يؤسّس لدراسةٍ منظّمة لنواحي اللغة الخاصّة بالصيغ وبالإبداع، ممّا يشكّل جزءاً مهمّاً من الكثير من الدراسات الألسنيّة الأنثروبولوجية.

تشكّل المكوّنات والمبادئ الثابتة جزءاً كبيراً من قواعد اللغة، ويصعب تفسيرها بواسطة سياقاتٍ عملية فعلية، ولكن يمكن تفسير الكثير من الظواهر النحوية بالنظر إلى الحوافز والتفسيرات الموجودة في حقولٍ أوسع من قواعد اللغة أو تختلف عنها. حاولت أن أظهر ذلك في حديثي عن علامة القائم بالفعل، والتعدّي، واستعمال

الضمائر الشخصية في المحادثة. يعني ذلك، أنّه بالرغم من وجود منطق خاص بقواعد اللغة، يبقى من المهمّ أن نكشف إلى أيّ حدٍّ يعود هذا المنطق إلى الظواهر النحوية أو إلى عوامل من نوعٍ آخَر. نرى ذلك بوضوح في دراسة اكتساب اللغة والتربية اللغويةِ. على الأنثروبولوجيين الألسنيّين أن ينفتحوا على التواصل بين تركيبة اللغة واستعمالها من جهة وعلى الوحدات النحوية واختلافها عن الوحدات الاجتماعية والثقافية من جهةٍ أخرى، إذا أرادوا فعلاً أن يجعلوا من اللغة محور أبحاثٍ في حقل الأنثروبولوجيا الأوسع، وأن يساهموا بنفس الوقت بتطوير حقلَي الألسنية الوصفية والألسنيّة النظرية.

الفصل السابع

الكلام كعملٍ اجتماعي

يقول الكتاب : "في البدء كانت الكلمة!"
حتّى الآن أعارض. وكيف لا أعارض؟
حقيقةً، لا يمكنني أن أقيّم الكلمة بهذه الإيجابية.
وعليَ أن أترجم بشكلٍ مختلف.
أعتقد أنّ الروح أوحى لي
وعلَي أن أكتب : "في البداية كان العقل".
تمعّنوا بهذا البيت الأوّل،
لا تستعملوا قلمكم بسرعة!
هل يحرّك العقل ويصنع كلّ شيء؟
ينبغي على النصّ أن يقول : "في البدء كانت القوّة!"
ولكن، ما أن أبدأ بكتابة ذلك،
حتّى يحذّرني شيءٌ ما بأنّني لن أقبل بذلك.
الروح معي! الجواب قريبٌ منّي :
فأكتب، بكلّ ثقة، "في البدء كان العمل".

يوهان فولفغانغ فون غوته، **فوست**[1]

---

(1) عن ترجمة بيتر سالم :

Johann Wolfgang von Goethe, *Faust*, trans. by Peter Salm (New York: Bantam Books, 1985), Part 1, p. 77.

سنكتشف في هذا الفصل، كما في تفسير **فوست** لإنجيل يوحنّا، أنّه يمكن النظر إلى الكلمات كأعمال، أنّه يجب عندها أن تكون الكلمات والأعمال وحدات تحليل للدراسة الأنثروبولوجية لاستعمال اللغة. رأينا في الفصل السادس أنّنا، عندما نستعمل اللغة، نساعد على بناء الواقع الّذي نسعى إلى تصوّره. ظهر ذلك في ما قلته عن العلاقات الدلالية بين العبارات اللغوية وميّزات سياق الواقع الّذي تُستَعملُ فيه. لا تحتاج بعض العبارات إلى فهم العالم من حولها فحسب، فهي تشكّل أيضاً عمليّاً هذا العالم، بالأخصّ الهويّات الاجتماعية فيه. يعطينا استعمال بعض التعابير أكثر من المعلومات الضرورية لإيجاد مرجع الحديث. فهي تكشف موقف المتكلّم من إحدى شخصيّات الرواية (انظر ما أقوله عن الضمائر في اللغة الإيطالية في الفقرة 7.6). يستلزم استعمال المورفيمات والكلمات التعظيمية التي لها علاقة معيَّنة بين التكلّم والسامع، أو بين المتكلم وما يتكلّم عنه. نرى كذلك أنه يمكن للكلمات أن تكون ليس فقط رموزاً بل أعمالاً أيضاً.

سأتحدّث أوّلاً، في هذا الفصل، عن اكتشاف الأنثروبولوجيين لقوّة الكلمات العملية وأداة مالينوفسكي التصورية للتعامل مع هذا الاكتشاف. سأقدّم بعد ذلك مفاهيم نظرية فعل الكلام (Speech Theory) الأساسية كما طوّرها جون أوستن وجون سيرل. سأقيّم بعض هذه المفاهيم من وجهة نظرٍ إثنوغرافيّة وثقافية جامعة. وسأتكلّم أخيراً عن مصطلح "لعبة اللغة" لدى فيتغنشتاين وأقترح طرقاً لاستخدامها بشكلٍ مفيد في الأبحاث الأنثروبولوجية الألسنيّة.

1.7. مالينوفسكي: اللغة كفعل

كان الأنثروبولوجي البريطاني برونيسلاف مالينوفسكي (Bronislaw Malinowski) (1884 ـ 1942)، المولود في بولندا، أوّل

باحثٍ ميداني لم يكتف بدمج كلّ الأساليب الّتي استعملها الأنثروبولوجيّون من قبله (Sanjek 1990a: 210)، بل تعلّم أيضاً لغة الناس الّذين درسهم بشكلٍ مكّنه من أن يسألهم أسئلة ومن أن يستمع إلى حديثهم اليومي العادي وأن يشارك فيه[2]. أصبحت معرفة اللغة أساسية للوصول إلى ما أصبح بالنسبة إليه أهمّ أهداف الإثنوغرافيا، وهو "فهم وجهة نظر الناس الأصليين وعلاقتهم مع الحياة، لكي نفهم عندها **رؤيته هو لعالمه**" (Malinowski 1922: 25). المفهومان الأساسيان في نظرية مالينوفسكي الإثنوغرافية للّغة هما: **(1)** فكرة **سياق الحال** و(2) **اللغة كنسق عمل.**

كان مالينوفسكي يهتمّ كثيراً بمشاكل الترجمة. وقد اكتشف بسرعة أنّ التحليل النحوي التقليدي لا يساعد كثيراً على فهم معاني الكلام المحلي[3]. فاستنتج من ذلك أنّه في عدّة حالاتٍ أنّ ترجمة

---

(2) شدّدت الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية على استخدام اللغة الأصلية في جمع البيانات. تحتوي الطبعة السادسة *Notes and Queries on Anthropology* مثلاً فصلاً قصيراً ومفيداً (الفصل 9، ص 208-218) عن اللغة وحاشية عن أهميّة النصوص المحليّة الأصلية: "تعطي كتابة النصوص، وهي من أهمّ المعلومات اللغوية، بياناتٍ مهمّة وحقائق ثقافية أيضاً. يمكن نسخ نصوصٍ كاملة ممّا يقوله المخبر الّذي يُطلب منه أن يروي حادثاً من حياته اليومية، أو عملية تهمّه، أو قصّة، أو أسطورة، أو حدث من تاريخ العائلة أو القبيلة. يجب الإضافة إلى هذه النصوص بواسطة الأسئلة المباشرة، لكي تصبح عندها بيانات أنثروبولوجية قيّمة. يجب أيضاً نسخ ما يقال في الكلام العادي، وكلام الأطفال، والكلام بين أفراد العائلة، وبين العمّال... إلخ. إذا لم يكن للمحقّق معرفة جيّدة للّغة، عليه أن يسعى إلى إيجاد ترجمة لكلّ نص مباشرةً" (ص 49 – 50).

(3) وقع مالينوفسكي (Malinowski) في نفس مآزق الأنثروبولوجيين من قبله، الّذين انتقدهم بواس بعنف. فبالإضافة إلى استعماله المتكرّر لكلماتٍ مثل "بدائي" و"وحشي"، استخدم مالينوفسكي أحياناً نفس التصوّرات المسبَقة عن اللغات "الغريبة" الّتي استخدمها الرحّالة السابقون الّذين لم يكن لديهم أي تدريب في التحليل الأنثروبولوجي واللغوي: "في اللغات البدائية، لا تملك التركيبة النحوية دقّة ووضوح لغتنا، ولو أنّ ذلك قد يعني، نوعاً ما، الكثير" (300 :1923). =

كلّ كلمة وحدها أو الترجمة الحرفية لعبارةٍ لغوية لا تكشف كيفية فهم المتكلّم الأصلي لها. على السامع أيضاً أن يكون "على علم بالحالة الّتي تقال فيها [بعض] الكلمات. عليه أن يضعها في سياقَ الثقافة المحليّة الصحيح" (301 :1923).

ابتكر، للتعامل مع هذه الحالات، مفهوم **سياق الحال** "الّذي يشير من جهةٍ إلى ضرورة توسيع نطاق مفهوم **السياق**، ومن جهةٍ أخرى إلى عدم إمكان اعتبار الحال تقال فيه الكلمات غير مهم بالنسبة للتعبير اللغوي" (Malinowski 1923: 306). كان هذا المفهوم مجرّد نتيجة مباشرة لمبدأ عام "هو دراسة أي لغة، يتكلّمها شعب يعيش في ظروفٍ تختلف عن ظروفنا، بشكلٍ يتناسق مع دراسة ثقافة هذا الشعب وواقعه المكاني" (المصدر نفسه). يعني ذلك أنّه لم يعد من الممكن استخدام أساليب دراسة اللغات المّيتة (كاليونانية القديمة واللاتينية) في دراسة اللغات الحيّة. فوجب بالأحرى إيجاد **نظرية إثنوغرافيّة للّغة.** فكرّس لدراسة هذه اللغة المجلّد الثاني لكتابه **الحدائق المرجانية وسحرها** (1935)، وهي دراسة إثنوغرافيّة للطقوس المتعلّقة بزرع البطاطا الحلوة والقلقاسية والنخيل والموز في جزر التروبرياند[4].

في الوقت الذي انتهى من كتابه، كان مالينوفسكي قد توصّل إلى استنتاج جديد يقول بأنّ "دور اللغة الأساسي ليس التعبير عن الأفكار، ولَيس نسخ العمليات الفكرية، بل هو دور عملي في

= بين بواس والكثيرون من بعده تكراراً أنّ ما سمّي كثيراً "بالبدائي" في اللغات غير الأوروبية لا يعود إلى مشكلة في الأنظمة النحوية، بل إلى وصف وتحليل المراقبين المحدود (انظر **Boas 1911; Hill 1964**).

(4) عنوان المجلّد الثاني *The Language of Magic and Gardening*. وتبدأ "بالقسم الرابع" كما يلي: "نظريّة إثنوغرافيّة للّغة وبعض نتائجها المباشرة".

تصرّفات الإنسان" ([1935] 1978، المجلّد 2: 7). يختلف ذلك كثيراً عن كتاباته السابقة، خاصّةً بالنسبة لما كان قد قاله في "مشكلة التسمية في اللغات البدائيّة" (1923)، حيث ابتكر فكرة سياق الحال. وكان قد ميّز هناك بين اللغات "المتحضّرة" واللغات "البدائيّة"، الأولى مكرَّسة لتواصل الأفكار والثانية للقيام بالأعمال[5]. أمّا في **الحدائق المرجانية وسحرها** ([1935] 1978) فقد سلّم باستعمال الكلام **العملي** في كلّ اللغات[6].

تقدّمت كتابات مالينوفسكي عن الأسلوب الإثنوغرافي لدراسة اللغة على غيرها بإعطائها أفكاراً عديدة غدت فيما بعد حجر أساس البراغماتية كمشروعٍ يخصّ عدّة حقول معرفة (Levinson 1983). كانت هذه الأفكار فيِ الحقيقة شائعة في الدوائر الفكرية الأوروبية في ذلك الوقت. فمصطلح "فعل اللفظ" (Verbal Act) الّذي يستعمله مالينوفسكي كان يماثل مصطلح "فعل الكلام" (Speech Act) عند أوستن، وقد ابتكره تقريباً في نفس الحقبة؛ ويذكّرنا التشديد على شمول الترجمة "سياقاتٍ كاملة" بإعادة تفكير فيتغنشتاين باللغة في الثلاثينات وتشديده على الأسلوب التفسيري الذي يقضي بوضع

---

(5) "... للّغة، في دورها البدائي والأوّل، دورٌ عملي؛ ... وهي نوعٌ من التصرّف، وعنصر لا غنى عنه في أعمال الإنسان الواقعية" (Malinowski 1923: 316).

"... في إحدى كتاباتي الأخيرة، قابلت بين الكلام العلمي والعصري والكلام البدائي، وتصرّفتُ كأنّ الاستعمال النظري للكلمات في الكتابات الفلسفية والعلمية الحديثة مستقلّ تماماً عن مصادرها العمليّة. كان ذلك خطأً، وخطأً فادحاً حتّى" ([1935] 1978: 9).

(6) نجد هنا أيضاً نقداً مبكراً "لاستعارة القناة" (انظر Reddy 1979): "أثّر مفهوم اللغة الخاطئ كأداة لنقل الأفكار من عقل المتكلّم إلى عقل السامع في دراسة فقه اللغة بشكلٍ سلبي" (58 :1978 [1935]). لنقدٍ مماثل لأسلوب دراسة فقه اللغة يعتمد على اعتباراتٍ أخرى، انظر .(Vološnov 1973).

الكلمات الفردية في "ألعاب لغويّة" أوسع (انظر الفقرة 4.7.). حتى إن وجهة نظر مالينوفسكي السلوكية القوية والتي بدت مفارقة زمنية خلال "الثورة الإدراكية"[7]، في الستّينات - حيث كان من الحداثة أن يتكلّم الشخص عن العقل وكأنّه حاسوب إلكتروني - يمكن إعادة صياغتها واظهارها من جديد. تمكن رؤيته كمتقدّم عن غيره بنظره إلى مكان ودور الجسد في تركيب الممارسات اللغَويّة (Johnson 1987; Goodwin 1981; Hanks 1990). إذا كان الكلام نوع من الفعل وكان فهم الكلمات يتعلّق بسياق استخدامها، فتستطيع أجساد المتكلمين أن تشكّل مصدراً سيميائياً مهمّاً لفهم كيفية إنتاج اللغة وتوظيفها في التواصلات وجهاً لوجه (Kendon 1990; 1992). قدّم مالينوفسكي، في المجلّد الثاني **للحدائق المرجانية وسحرها**، مثالاً عن نوع العمل الّذي يجب على النظرية الإثنوغرافيّة للّغة أن تنتجه، بواسطة تحليله لكلمات سحر التروبرياند.

انتقد كثير من المؤلّفين ترجمة مالينوفسكي للكلمات السحرية ونظريته الخاصّة بقوّة الكلمات السحرية، أبرزهم تامبياه (Tambiah) (1968, 1973, 1985) الّذي قال بأنّ ترجمة مالينوفسكي الحرفية لكلمات التروبرياند السحرية تناقض نظريّته السياقية للغة. لاحظ تامبياه أيضاً أنّ رؤية مالينوفسكي للغة السحر كلغة مكوّنة من أقوال غير حقيقية تتناقض بشكلٍ مباشر مع الواقع (Malinowski [1935] 1978, vol. 2: 239) لم ير الفرق بين الأقوال الّتي يمكن تقييمها بالنسبة لشروط الحقيقة والأقوال الّتي تقيَّم بالنسبة لتأثيرها على العالم. أما بالنسبة لتامبياه، فإنه يقول عندما يحاول مالينوفسكي تقييم كيف

---

(7) "هناك فرق واحد فقط بين استعمال الكلمات البدائي واستعمالها المجرّد والنظري، يخصّ مستوى استعمالها. في نهاية المطاف تشتقّ كلّ معاني كلّ الكلمات من تجربة الجسد" ([1935] 1978, vol. 2:58).

يمكن للتروبرياندين أن يصدّقوا أنّ ما يقال في السحر سيحدث فعلاً، فانه يبحث عن النتائج الخاطئة. المسألة لا تخصّ مقدرة الكلام السحري على إظهار أشياء، تحويل نباتٍ وحيواناتٍ وناس. فالألفاظ السحرية تسمح بالأحرى بالمقارنة بين عناصر تنتمي إلى حقول مختلفة (مثلاً العالم الطبيعي وجسم الإنسان) وتعطي دليلاً عن ما يجب على الناس أنفسهم أن يتوقّعوه في الواقع الحالي. وبالتالي لا يعني قول سحري يقارن الرجال (الذين قد رسموا أشكالاً حمراء على جسدهم) بالأسماك الحمراء هذا لا يعني أنّ الناس يعتقدون أنّ الرجال يتحوّلون إلى أسماك حمراء. فالمقارنة استعارية وتشير إلى تحريم وعلى الناس أن يتبعوه، وليس إلى تحوّل من عالم الإنسان إلى عاَلم الحيوان (Tambiah [1968]1985: 47):

> نحترم العقل البدائي أكثر إذا ما قلنا إنّه ليس ضائعاً في الأخطاء الشفوية أو عاملاً ضد القوانين الفيزيائية المعروفة، بل يوحّد ميّزات اللغة التعبيرية والاستعارية بالميّزات التجريبية والأعمال التقنية.
> (Tambiah [1968] 1985: 53)

يشير نقد تامبياه إلى إحدى مشاكل مالينوفسكي. فبالرغم من معرفته لبعد استعمال اللغة العملي وتسليمه بكون الكلمات السحرية مختلفة وتتعلّق في تفس الوقت باللغة العادية، لم يبتكر مالينوفسكي إطاراً نظريّاً لتحليل دور الكلام أو أنواع العلاقات المختلفة بين الأقوال والأفعال الاجتماعية.

2.7. الرؤى الفلسفية للّغة كفعل

إذا أردنا النظر إلى نظرية تحليلية أكثر تعقيداً عن الكلمات كأفعال، علينا أن نوجّه نظرنا نحو فيلسوفَيْن عملا في إنجلترا في نفس

الحقبة تقريباً الّتي اقترح فيها مالينوفسكي نظريّته عن "الكلام كفعل" (انظر أعلاه) : ج. ل. أوستن ولودفيغ فيتغنشتاين. بالرغم من ارتباطهما بما نسمّيه الآن **الرؤية البراغماتية** للّغة (تُستعمل اللغة للقيام بعملٍ ما)، اختلف هذان المفكّران المميّزان في عددٍ من النقاط، منها طبيعة وأهداف الفلسفة، وعلاقتها مع العلوم الأخرى. أوستن هو أكثر الاثنَين شعبيّةً بين اللغويين، ولو لم يكن ذلك ضرورياً بالنسبة للأنثروبولوجيين الألسنيين (انظر الفقرة 3.7.). تعود شعبية أوستن بعض الشيء إلى عمل الفيلسوف الأميركي جون سيرل، الّذي، وبواسطة **نظرية فعل الكلام**، جعل أفكار أوستن أسهل المنال لجمهورٍ كبيرٍ، منهم ناقدو الأدب وعلماء النفس، كذلك تعود إلى محتوى وأسلوب كتابات فيتغنشتاين، الّتي لا يمكن تنظيمها وتمثيلها في نهجٍ معيّن[8]. ولكن، كما سأوضح أدناه، قاد بالضبط تشديد سيرل على بعض نواحي نظرية أوستن، كالصدقية والقصد، إلى نقدٍ صارم لنظرية فعل الكلام من الأنثروبولوجيين الألسنيين. أمّا أفكار فيتغنشتاين، فهي أقرب في محتواها وروحها إلى برنامج أنثروبولوجي لدراسة اللغة كعملٍ اجتماعي، ولهذا السبب سأعود إليها لاحقاً في هذا الفصل.

1.2.7. من أوستن إلى سيرل: أفعال الكلام كوحدات عمل

قال أوستن، في أربعينات هذا القرن، أنّ هوس الفلاسفة

---

(8) لم تفت هذه الناحية من كتابات فيتغنشتاين الفلسفية على بعض مفسّريه، منهم الفيلسوف الأميركي سول كريبكي (Saul Kripke)، الّذي كتب: "أظنّ... بأنّه إذا سعينا إلى تقديم حجّة فيتغنشتاين بشكلٍ دقيق، فإنّنا عندها سنشوّهها نوعاً ما" (1982 : 5). وأيضاً: "الأسلوب الّذي فضّله [فيتغنشتاين] يساهم بالطبع بصعوبة عمله كما بجماله" (المرجع المذكور، الهامش رقم 4). بشكلٍ مماثل، كتب بلور (Bloor) (1983: 138): "... سيأخذ هذا الفصل وجهاً غير فيتغنشتايني. فسيحلّ التوسّع مكان العرض. وسيحلّ التركيب الجامع والبناء النظري مكان التحليل".

بالحقيقة وبقيم الحقائق يعود إلى العدد المحدود من العبارات اللغوية المستَعمَلة كبياناتٍ لتحليل المعاني. تمثّل الجمل (1) إلى (3) أمثلة جيّدة عن هذه التعابير، التي تمثل ما يسمّيه الفلاسفة **بالتوكيدات** (والنحويّون **بالجمل البيانية**)[9].

1) كل الرجال هالكون

2) الثلج أبيض

3) ملك فرنسا أصلع

أشار أوستن إلى وجود استعمالاتٍ كثيرة للّغة، تختلف عن التوكيدات[10]. وكما قال مالينوفسكي، إنّ اللغة لا تُستَعمَلُ فقط لوصف حالاتٍ معيّنة (مثلاً **الثلج أبيض**)، بل أيضاً للقيام بأشياء، أي بإنجاز بعض الأحداث:

> لنفترض مثلاً، أنّه في خلال عرس، أقول، كما يقول الناس عادةً، "أوافق (I do)" - (أن تكون هذه المرأة زوجتي). أو لنعتبر أنّني دستُ على إصبع رجلك وقلت "أعتذر". أو لنعتبر أنّني أحمل قنّينة الشمبانيا في يدي وأقول "أسمّي هذه الباخرة الآن **الملكة إليزابيت**". أو لنفترض أنّني قلت "أراهنك

---

(9) انظر الهامش رقم 15، عن معنى "البيان" لدى النحويين.

(10) كان هناك الكثير من الكلام في أوروبا، في الثلاثينات والأربعينات، عن وجود "استعمالاتٍ" أو "أدوار" مختلفة للتعابير اللغوية. فكما سنرى في الفصل 9، يستخدم نموذج جاكوبسون (Jakobson) للحدث الكلامي، وأدوار اللغة الستة الّتي ترافقه، مثلاً، عمل كارل بوهلر النظري، الّذي يبدأ من افتراضاتٍ مثل ما يلي: "نحن لا ننتقد هيمنة دور اللغة التمثيلي [أي 'المرجعي-الدلالي']، فما سيتبع الآن يناسب ويساعد في تحديده. لا يكفي مفهوم "الشيء" أو الزوج الأدقّ "أشياء وحالات" للتعبير عن كلّ ما تنقله ظاهرة الصوت، وهي الصلة بين المتكلّم والسامع" (Bühler [1934] 1990: 37)".

بستة دراهم بأنّ الغد سيكون ماطراً". في كلّ هذه الحالات، لا يمكن اعتبار الشيء الّذي أقوله تقريراً عن أداء العمل الّذي أقوم به ـ المراهنة، أو التسمية، أو الاعتذار. يجب بالأحرى أن نقول إنّه، عندما أقول أنا أفعل يجب أن أقوم بالعمل. عندما أقول "أسمّي هذه الباخرة الآن **الملكة إليزابيت**" لا أصف التسمية، بل أقوم فعليّاً بالتسمية؛ وعندما أقول "أقبل" (أن تكون هذه المرأة زوجتي)، لا أخبر عن الزواج بل أدخل فيهً (Austin [1956] 1970: 235).

قدّم أوستن جهازاً تحليليّاً للكلام عن تحوّل الأقوال إلى أفعال في المجتمع. عكست وحداته التحليلية اهتمامه بالذهاب أبعد من مستويات التحليل النحوية والمنطقية، من دون تجاهلها وتضييعها.

ميّز بين ثلاثة أنواعٍ من الأفعال الّتي نقوم بها بشكلٍ متزامن عندما نتكلّم:

1. فعل التلفُّظ: الفعل الّذي يقول شيئاً ما، أي لفظ أصواتٍ ما يمكن تفسيرها بواسطة قواعد اللغة وإعطاؤها (أحياناً) قيم حقيقية، مثلاً **أنت مطرود، سأسدّد ديني لك الأسبوع المقبل، كم الساعة؟**

2. فعل قوّة التلفّظ: وهو الفعل الّذي يستطيع المتكلّم أن ينجزه في قوله شيئاً بواسطة **القوّة** المألوفة لفعل التلفّظ. فيمكن استعمال **أنت مطرود** في مجتمعنا لتغيير وضع شخصٍ ما من "مستَخدَم" إلى "عاطل" (عندما يقال ذلك في الوضع المناسب)؛ ويمكن استعمال **سأسدّد ديني لك الأسبوع المقبل** للتعهّد بعملٍ في المستقبل؛ ويمكن استعمال السؤال **كم الساعة؟** للاستعلام (عن الوقت).

3. فعل أثَر التلفّظ: الفعل الّذي يحدث بقول شيءٍ ما، أي

نتائج أو أثر هذا القول، مهما كانت قوّته المألوفة. قد تتناسق هذه الأفعال أو لا مع أهداف فعل قوّة التلفّظ. فعندما يقول الشخص المناسب (ربّ العمل) **أنت مطرود إلى** الشخص المناسب (العامل)، في الوضع المناسب (ليسا سكرانَيْن مثلاً) من المفترَض أن نصل إلى نتيجةٍ هي خسارة العامل لوظيفته. ولكن قد نصل أيضاً إلى نتيجةٍ أخرى، وهي كآبة العامل وانتحاره، أو، وبالعكس، إحساسه بالحريّة (فليس عليه بعد الآن أن يستقيل من هذا العمل الّذي يكرهه). في كلا الحالتَيْن، لا تنتمي هذه النتائج إلى القوّة المألوفة لفعل قوّة التلفّظ الّتي تعبّر عنها عبارة **أنت مطرود.**

حصر أوستن استعمال مصطلح **المعنى** بفعل التلفّظ، واستخدم مصطلح **القوّة** لفعل قوّة التلفّظ، ومصطلح **الأثر** لفعل أثر التلفّظ. يشكّل فعل التلفّظ مستوى المحتوى الخبري للأقوال التي تحددها قواعد اللغة والمعاجم. حيث يدرسها اللغويّون وعلماء المنطق كوحداتٍ لغويّة باستخدام القيم الصحيحة (Allwood et al. 1977). يعود فعل قوّة التلفّظ إلى أهداف القول المألوفة أن أي قول يفترض تحقيقاً هو سياق الحال الذي يحصل فيه. ويتألّف فعل أثَر التلفّظ من أفعال قد تذهب أبعد من التفسيرات المألوفة للقول و/ أو خارج سلطة المتكلّم.

ما يجعل من نظريّته نظريّة جديدة هو تمييزه بين **المعنى والقوّة،** التي يربطها بالدراسة التقليدية السابقة للغة. يؤكّد هذا التمييز بأنّ اللغة فعلٌ ويشير إلى قدرة سلسلة واحدة من الكلمات على التعبير عن أفعال مختلفة تماماً (ولكلّ منها قوّة مختلفة)، كما يسلّم بوجود شيءٍ لا يتغيّر ("معنى") خلال الاستعمالات المختلفة لنفس الكلام، وبالتالي بأهميّة مساهمة الدراسات الألسنية والمنطقية للّغة.

لننظر مثلاً إلى الجملة (4)

(4) يشرب توم القهوة

هذه جملة صحيحة تصف حدثاً حيث يقوم شخصٌ اسمه توم بعمل هو شرب القهوة. لا يتغيّر نوع التركيبة النحويّة (جملة فعلٍ مضارعٍ متعدٍّ) وقيمة الحقيقة (Truth Value) لهذه الجملة الخبرية (ما إذا كانَت تتناسق مع واقعٍ ما)، وذلك مهما كان الواقع الّذي يستعملها المتكلّم فيه. يمكنُ استعمالها مثلاً للقول لأحدهم ما يفعله توم (قد يكون السامع قد سأل ما يفعله الآخرون في البيت) أو لتحذيره (قد يكون السامع قد افترض أنّ توم يستعدّ للخروج). يقول أوستن أنّ معنى (4) لا يتغير، ولكنّ قوّتها تتغيّر.

كما نرى بوضوح في المثل (4)،ليس من السهل أن نلاحظ سطحيّاً فعل قوّة التلفّظ الّذي يقوم به كلام ما ـ خاصةً إذا ما اعتمدنا حصريّاً على المعلومات المعجمية والنحويّة وأهملنا ارتفاع الصوت والخصائص شبه اللغويّة (نوعيّة الصوت، ارتفاع الصوت... إلخ). من المفيد، إذا أردنا أن نوضّح قوّة ما يقال في جملةٍ تصريحية كالجملة (4) أعلاه، أن نفكّر بها كمرسّخة في جملة أعلى منها تحتوي على فعلٍ يحدّد قوّة الكلام. يمكننا عندها أن نعيد صياغة التفسيرَيْن أعلاه كالتّالي:

(4-a) أخبرك بأنّ توم يشرب القهوة

(4-b) أحذّرك من أنّ توم يشرب القهوة

سمّى أوستن الأفعال مثل **أخبر وحذّر أفعالاً حركيّة لأنّها** تبيّن العمل الذي تقوم به الجملة المُدمَجة (الّتي تتبعها عادةً). هناك الكثير من هذه الأفعال في اللغة الإنجليزية وفي كلّ اللغات. فعندما نقول **أنا أعتذر، أنا أفترض، أنا أعِد، أو أنا آمرك بفعل ذلك**، يعبّر الفعل الّذي نستعمله في صيغة المتكلّم المفرد والمضارع عن نفس العمل

الذي نفعله. يمكننا إعطاء أفعال أخرى من نفس النوع : **قال، أكّد، استنتج، سلّم، حيّا، رحّب، وافق، انتقد، أكّد، أنكر، افترض، اعتبر، طالب.** عندما نستعمل أيّ من هذه الأفعال في المضارع وفي صيغة المتكلّم المفرد، وذلك في واقع معيّن (انظر أدناه)، نقوم عندها بالعمل نفسه الّذي يصفه الفعل انظرّ أيضاً (Searle 1969: 23).

ولكن لا يقتصر فعل الأشياء بواسطة الكلام (القيام بفعل قوّة التلفّظ) على استعمال هذه الأفعال. لا نحتاج إلى سماع أفعال حركيّة لكي نفهم أنّ ما يقال يُعتبر فعلاً. فكلّما قمنا بفعل تلفّظ نقوم أيضاً بفعل قوّة تلفّظ (Austin 1961: 98). عندما نتكلّم نفعل أكثر من تكوين سلسلة من الأصوات الحاملة لمعنىً والّتي يمكن الحكم عليها بواسطة قواعد اللغة وقيم الحقيقة. بالأحرى، **عندما نقول شيئاً نفعل دائماً شيئاً.** وهذا صحيح ليس فقط في ما يخصّ الحالات البديهية كالأمر والتحذير والوعود والتهديد، بل في التوكيد أيضاً. يشكّل قولنا لشيءٍ عنّا أو عن الآخرين فعلاً اجتماعياً، وهو فعل إخباري (يعني ذلك أنّ التوكيد العادي لا يختلف من حيث المبدأ عن غيره من أفعال الكلام)[11]. لكي نفهم ذلك، علينا أن ندرك أي عمل كلامي (وتواصلي بشكلٍ عام) يحصل في **سياقٍ** معيّن، ويتمّ تقييمه بالنسبة إلى هذا السياق. يذهب اهتمام أوستن أبعد من فكرة كون السياق مهمّاً لتقييم حقيقة قولٍ ما (Austin 1961: 144). يريدنا أيضاً أن نعرف أنّه عندما يستعمل الناس الكلام، لا يحاولون بذلك فقط أن ينسّقوا بين العالم وأوصافه المناسبة، بل يستعملون الكلمات أيضاً لكي يجعلوا العالم يتوافق مع آمالهم وحاجاتهم. طوّر سيرل ذلك،

(11) يبدأ أوستن (Austin) (1962) باعطاء ثنائيّة خاطئة بين الأقوال الساكنة والمتحرّكة. ويبرهن بعد ذلك، وحتّى نهاية الكتاب، أنّ كلّ الأقوال متحرّكة (أدائية).

فميّز بين الحالات الّتي يجب أن "تتناسق" فيها اللغة "مع العالَم" (أي إعطاؤها وصفاً دقيقاً لحالةٍ مستقلّة، مثلاً **الخزّان ملآن**) والحالات الّتي يجب أن يتناسق العالم مع اللغة" (أي يتناسق مع الحالة الّتي تصفها اللغة، مثلاً **املأ الخزان**).

ما أن ندرك أنّ وصف العالَم لا يشكّل إلاّ واحداً من الأعمال الّتي نستطيع أن نقوم بها بواسطة اللغة، حتّى يأتينا سؤال : هل من حدودٍ لأنواع الأشياء الّتي نفعلها بواسطة اللغة؟ ليس من السهل الإجابة عن ذلك. فاعتقد فيتغنشتاين مثلاً أنّه لا يمكن تحديد عدد استعمالات اللغة بشكلٍ نهائي :

> ولكن كم هناك من أنواع جمل؟ تأكيد وسؤال وأمر؟ ـ هناك عددٌ لا يحصى من أنواع استعمال ما نسمّيه "بالرموز" و"الكلمات" و"الجمل". وهذه التعدّدية غير ثابتة ونهائية؛ بل تأتي أنواع جديدة من اللغات، ألعاب لغويّة جديدة، كما نقول، إلى الوجود، وتصبح أخرى بالية ومنسية.
>
> (Wittgenstein 1958: 11)

أمّا أوستن فكان يميل إلى التفكير عكس ذلك، أي أنّ عدد أفعال قوّة التلفّظ محدود. ويعود افتراضه هذا إلى رؤيته القائلة بأنّه على اللغة كفعلٍ اجتماعي أن تتبع قواعد وأساليب العلوم الأخرى:

> هناك بالطبع استعمالاتٌ عديدة للّغة. مع الأسف، يستطيع الناس استخدام استعمال جديد للّغة عندما يريدون أن يخرجوا من مشكلة فلسفية معيّنة؛ وعلينا بالتالي أن نجد إطاراً للكلام عن استعمالات اللغة هذه؛ وأعتقد أيضاً أنّه لا يجب أن نيأس كبعضهم بسهولة ونتكلّم عن استعمالات اللغة

اللامتناهية. يفعل الفلاسفة ذلك عندما يجدون قائمة مثلاً من 17 استعمالاً؛ ولكن، يمكننا مع الوقت أن نعطي قائمة بكلّ استعمالات اللغة، ولو وصلت إلى عشرة آلاف. فهذا العدد لا يتخطّى عدد أصناف الخنافس الّتي وجدها علماء الحشرات بعد طول أبحاثهم.

(Austin 1970: 234)

كما يحصل عادةً في العلوم، يعود إيجاد تنظيم داخل تشوّش المعلومات الّتي تعطيها القائمات المعقّدة إلى تأسيس نظام من الرموز. فيتمّ ترتيب مجموعة أن تكون لامتناهية وتوزيعها في فئاتٍ رمزية محدودة. فقدّم أوستن (1962) خمس فئاتٍ من أفعال قوّة التلفّظ، وأعاد سيرل (1976) وسيرل وفاندرفيكين (Vanderveken) (1985) صياغتها.

يعتبر سيرل أنّه في استعمالنا للّغة نستطيع أن نفعل خمسة أمور : (1) أن نقول للناس ما هو وضع الأشياء (**جمل تقريرية**)[12] (2) أن نحاول أن نجعلهم يفعلون أشياءً ما (**توجيهات**)، (3) أن نعبّر عن مشاعرنا ومواقفنا (**الجمل التعبيرية**)، (4) أن نُحدِث تغييراتٍ بواسطة ما نقوله (**جمل تصريحية**)، (5) أن نتعهّد بالقيام بعملٍ ما في المستقبل (**الجمل الواعدة**). يمكن أيضاً القيام بأكثر من واحدٍ من هذه الأشياء في الوقت نفسه. بالرغم من كون هذه الأفعال الكلامية أفكاراً مجرّدة ولا تتطابق بشكلٍ أحادي مع أفعال إنجليزية معيّنة، يعطي سيرل (مثل أوستن من قبله) قائمة من الأفعال الإنجليزية كأمثلة عن

---

(12) استخدم سيرل (Searle) (1976) مصطلح "التمثيلية" كفئة عامّة، ولكن اختار سيرل وفاندرفيكين (Vanderveken) (1985) مصطلح الجمل "التقريرية".

أنواع أفعال الكلام المختلفة مقتبَسَة عن (Searle and Vanderveken 1985):

(1) أفعال تقريرية: **أكّد، ادعى، أعلن، قال، أنكر، نكر، يؤكد، جادل، دحض، أعلم، أشار، ذكّر، عارض، توقّع، أخبر، سحب، اقترح، شدّد، حزر، افترض، خمّن، حلف، اتّهم، لام، انتقد، بجّل، تذمّر، افتخر، رثى.**

(2) أفعال توجيهية: **وجّه، طلب، سأل، حثّ، قصّ، تطلّب، طالب، قاد، أمر، منع، مانع، وجّه، سمح، اقترح، شدّد، حذّر، نصح، أوصى، توسّل، تضرّع، التمس، ناشد، ترجّى، صلّى.**

(3) أفعال تعبيرية: **اعتذر، شكر، عزّى، هنّأ، تذمّر، رثى، عارض، أسي، تباهى، جامل، مدح، رحّب، حيّا.**

(4) أفعال تصريحية: **صرّح، استقال، أجّل، عيّن، سمّى، وافق، صدّق، عارض، صادق، تخلّى، أنكر، شجب، جحد، بارك، شتم، عزل، قدّس، عمّد، اختصر، أسمى، نادى.**

(5) أفعال واعدة: **التزم، وعد، هدّد، واعد، تعهّد، حلف، قبل، سلّم، رفض، قدّم، راهن، أكّد، كفل، ضمن، تعاقد، عاقد، رهن.**

علينا أن نتذكّر أنّ كلّ هذه الأفعال لا تعمل كأفعال حركيّة إلاّ في المضارِع (الحاضر) وفي صيغة المتكلّم المفرد. فيعمل فعل **استقال** مثلاً كفعل **تصريحي** فقط إذا قال المتكلّم **أنا أستقيل،** وليس عندما يقول **استقال جون** أو **استقِل!** في معظم الوقت لا نعبّر عن أفعال قوّة التلفّظ أو نقدّمها بأفعال حركيّة. لا يقول المتكلّمون عادةً في كلّ مرّة **أحذّرك، أهدّدك، أمرك أو أحييك.** ومع ذلك، يعتبر السامعون بعض ما يقال (وذلك صحيح في معظم الأحيان) تحذيراً،

أو تهديداً، أو أمراً، أو تحيّة[13]. فكيف يحصل ذلك؟ أي كيف يستطيع المتكلّمون أن يجعلوا كلامهم يفعل ما يريدونه، وكيف يستطيع السامعون تفسيره بشكلٍ مناسب؟ ما أن نبدأ بالتفكير بهذه الأسئلة، حتّى نلاحظ أنّ الجواب المطلوب ليس سوى نظريّة تفسيريّة، وأنّ هذه الأسئلة هي نفس تلك الّتي يسألها الإثنوغرافيون عندما يقومون بالمراقبة ـ المشاركة (انظر الفصل 2). هل يمكن للإثنوغرافيين أن يتبنّوا أجوبة علماء فعل الكلام؟ سوف أؤكد في ما يلي أنّ نظريّة فعل الكلام، وبالرغم من المعلومات المهمّة الّتي تعطيها عن نظرية تفسير الكلام كفعل، لا تلّبي أهداف الأنثروبولوجيا الألسنيّة كما عرّفت بها في الفصل الأوّل.

استخدم أوستن، لكي يتمكّن من تحديد كيف تقوم أفعال قوّة التلفّظ بعملها، عدّة معايير، سمّاها **شروط اللباقة**، لكي يميّزها عن شروط الحقيقة، بما أنّ أفعال الكلام ليست صحيحة أو خاطئة، بل، كما يقول أوستن، **سعيدة** أو **غير سعيدة** (استخدم سيرل المصطلح "ناجح"). وبالتالي للقيام بعملٍ ما بشكلٍ "سعيد" (أو ناجح)، يجب احترام بعض الشروط عن (Austin 1962: 14-15):

A1 . **اصطلاحية الإجراء.** يجب أن يكون هناك إجراء اصطلاحي يملك تأثيراً اصطلاحياً، بما في ذلك قول كلماتٍ ما من قبل أشخاصٍ ما في واقعٍ ما.

A2 . العدد المناسب من المشاركين والظروف.

يعني هذان الشرطان مثلاً أنّ الرجل الّذي يقول لزوجته **أنا**

(13) فكتب سيرل (Searle 1969: 30) ما يلي: "في كثيرٍ من الأحيان، في الأوضاع الكلامية الفعلية، يسمح الواقع بتوضيح قوّة الفعل، من دون الحاجة إلى قول الرمز الدال على القوّة".

أطلّقك في بلادٍ كثيرة، لا يسمى ذلك فعل كلام تصريحي عندها يصبح الاثنان من هذه الناحية مطلقين. فيجب القيام بإجراءٍ خاص، يقوم بفعل الكلام من له السلطة المؤسساتية (القاضي مثلاً)، في مكانٍ مناسب، لكي تحصل الكلمات على القوّة الّتي تجعلها فعّالة.

B1 . **التنفيذ الكامل للإجراء.**

B2 . **المشاركة الكاملة.**

يعني الشرطان أنّه لكي ينجح فعل كلامي، على كلّ المشاركين أن يكملوا العمل الّذي عليهم القيام به في الإجراء الاصطلاحي. كما نرى بوضوح في الأمثلة الّتي يعطيها أوستن، تدخل هذه الشروط عنصر **التنفيذ**، أي دور السامع في نجاح فعل قوّة التلفّظ :

> مثلاً : لا فعاليّة للسعي إلى المراهنة بالقول "أراهن 5 بينس" إلاّ إذا قلت "أراهنك" أو ما يشبه ذلك؛ ولا فعالية لقولي "أقبل" في سعيي للزواج إذا قالت المرأة "لا أقبل"؛ ولا فعاليّة لسعيي إلى تحدّيك بقولي "أنا أتحدّاك" من دون أن أحضر أتباعي لمساندتي؛ ولا فعاليّة لسعيي إلى افتتاح مكتبة إذا قلت "أنا أفتتح هذه المكتبة" ولكنّ المفتاح انكسر... (Austin 1962: 37)

نرى من هذه الامثلة أنّه إذا أردنا أن نفسر فعل كلامي، علينا في الكثير من الأحيان أن نأخذ بعين الاعتبار الوحدات التفاعلية الّتي تذهب أبعد من الكلام الفردي والفرد المتكلّم. هذا ما سعى إليه ليفينسون (1983 : ch. 6)، الّذي اقترح بأن ننظر إلى أفعال الكلام كجزءٍ من سلسلاتٍ أطول (انظر أيضاً الفصل 8).

C1 . **شروط الصدقية.** على المشاركين أن تكون لهم أفكار

ومشاعر ونيات معيّنة. فعندما يراهن المتكلّمون، يُتوقّع منهم أن يعتقدوا بصدقٍ بأنّهم سيدفعون ما عليهم دفعه في حال خسرانهم، ويُتوقّع من الّذين يعزون موت أحدهم أن يتعاطفوا مع الّذين يحادثوهم (Austin 1962: 40). الهدف من هذه الشروط هو التعبير عن الالتزامات والتوقّعات الّتي تنتجها أفعال الكلام، فتكون عندها معياراً للمسؤولية الباطنة في قول كلماتٍ معيّنة في ظروفٍ معيّنة. كان أوستن على علمٍ جيّد بصعوبة تقييم هذه الشروط بشكلٍ مثالي، فكرّس عدّة صفحاتٍ للكلام عن الوقائع المختلفة ودرجات صدقية الشخص[14]. ولكن يبدو أنّ هذه التحفّظات تختفي في عمل سيرل، وتحصل الصدقية والنيّة على دورٍ مركزي. وكما سنرى في الفقرة التالية، (تركز) انتقاد الأنثروبولوجيين الألسنيين لنظرية فعل الكلام على شروط الصدقية والاعتماد على النيّة الباطنة في هذه الشروط.

C2. **نتيجة التصرّف**. على المشاركين أن يقوموا بالأعمال الّتي تحدّدها أو تلمح إليها قوّة فعل الكلام.

تعطينا معايير أوستن تبصراً في أنواع العوامل التي تلعب دوراً في نجاح فعلٍ كلامي (بالنسبة للقيام به وفهمه معاً). وفي الوقت نفسه، تتركنا مع أسئلةٍ لم تجب، منها عدد طرق احتواء القوّة في الكلام ومدى احتمال أن يتبع تفسير قوّة فعل اللفظ معايير معمّمة. أدّت هذه المسائل إلى الانتباه، منذ السبعينات، إلى **أفعال الكلام غير المباشرة**، أي إلى الأقوال الّتي لا تملك بالنسبة لقواعد اللغة شكل

---

(14) ليست هذه حالة كلّ علماء فعل الكلام. فقد رفض باخ (Bach) وهارنيش (Harnish) (1979) مثلاً شروط الصدقية لأفعال مثل الاعتذار، والتعزية، والتحيّة، والشكر، الّتي يسمّونها بالتشكّرات. وهي تنتمي إلى الفئة الّتي يسمّيها سيرل بالتعبيرية (انظر أعلاه): "بما أنّنا نتوقّع التشكّرات في مناسباتٍ معيّنة، لا نقولها عادةً للتعبير عن شعورٍ حقيقي، بل لإرضاء التوقّعات الاجتماعية الّتي يعبّر عنها هذا الشعور (Bach and Harnish 1979: 51)".

الأمر والقيادة، ولكنّها تملك تقليدياً قوّة التوجيه انظر المقالات في (Cole and Morgan 1975).

1.1.2.7. أفعال الكلام غير المباشرة

قد تأخذ أفعال الكلام غير المباشرة شكل أسئلة، ويمكن عندها تصنيفها كسؤالٍ عن معلوماتٍ ما - أنظر الأمثلة (5) و(6) - أو شكل جملٍ تصريحية (بالمعنى النحوي لكلمة "تصريح")[15]، فيمكن عندها **تصنيفها** كتوكيد - انظر (7) و(8) - ولكن يبدو أنها تعمل في معظم الأحيان كطلب عملٍ ما عن (Searle 1975: 72):

(5) هل الملح بمتناولك؟

(6) هل تستطيع أن تكون أكثر هدوءاً؟

(7) لا أستطيع أن أرى شاشة السينما بسبب قبّعتك.

(8) أودّ منك أن تذهب الآن.

تمّ اقتراح عدّة أشياء لتفسير هذه الظواهر (انظر تقييم ليفينسون 1983 الدقيق لهذه النظريات). وكان على كلّ الاقتراحات أن تواجه قضيّة التعميم والعالمية. من أين تأتي المعرفة الّتي يستخدمها متكلّمو الإنجليزية لتفسير هذه الجمل؟ هل من مبادئ عامّة وربما حتّى

(15) يجب التمييز هنا بين "الجملة التصريحية" و"فعل الكلام التصريحي" كما يستعمله سيرل (انظر أعلاه). يستعمل النحويّون "الجملة التصريحية" (وهي أقرب في هذه الحالة إلى ما يسمّيه سيرل "التوكيد") للإشارة إلى الجمل الّتي تأخذ شكل الأقوال، أي الكلام الّذي يمكن أن "نحكم على صحّته أم عدم صحّته" (Sadock and Zwicky 1985: 160). وتتعقّد الأشياء أكثر عندما نرى نحويين يستعملون قوّة التلفّظ كمعيارٍ لتحديد "الجمل التصريحية". حاول سادوك وزفيكي مثلاً (1985: 165): أن يوافقوا بين الشكل والوظيفة (Function) بتعريفهم بالجمل كتصريحية عندما تعبّر عن "تأكيدٍ، اعتقادٍ، تقرير، استنتاج، رواية، تقييم إمكانية الحدوث، الشك، وما يشابهها."

عالمية تحدّد كيف يتمّ ابتكار وفهم أفعال الكلام غير المباشرة؟ تمّ اقتراح عدّة مبادئ، منها مبدأ التعاون التحادثي (Grice 1975; Levinson 1983)، والمسلّمات التحادثية (Gordon and Lakoff 1975)، وتعميمات ترتكز على فكرة الشروط التحضيرية (أي "شروط اللباقة") كما يلي عن (Searle 1975: 72):

(9) يمكن لمتكلّمٍ أن يقوم بطلبٍ غير مباشر (أو غيره من التوجيهات) إمّا بسؤالهِ عن وجود شرطٍ تحضيري يخصّ مقدرة السامع للقيام بعملٍ ما أو قوله بأنّ هذا الشرط موجود.

يقول المبدأ إنّه يمكن أن يطلب شخصٌ ما العمل بسؤاله **هل الملح بمتناولك؟** لأنّ قدرته للوصول إلى الملح تشكّل شرطاً ضرورياً لكي يستطيع السامع أن يقوم بالعمل المطلوب.

3.7. نظرية فعل الكلام والأنثروبولوجيا الألسنية

من وجهة نظر الأنثروبولوجيا الألسنيّة، تُعتَبر هذه الأحاديث عن كيفية تحديد مكان المعرفة الموجودة عند المتكلّمين والسامعين عند إنتاجهم وتفسيرهم للأقوال مهمّة ولكن صعبة المنال لسببَيْن على الأقلّ. تنجز **أوّلاً** من دون علم ظاهر بأنّ الظواهر والمبادئ الّتي يذكرها المحلّل تنتمي إلى ثقافة معيّنة. إن اعتماد العلماء الذين يحلّلون أفعال الكلام على أمثلة من اللغة الإنجليزية أم لا، يعتبرون في العادة مباشرةً أنّ لبديهتهم ونتائجهم موضوعية عالمية. **ثانياً**، يعتقد محلّلو أفعال الكلام ـ مثل معظم الفلاسفة ـ أنّه يمكن تعميم استنتاجاتهم بواسطة تأمّل النفس، أي بإيجاد أمثلة وتصوّر حالاتٍ ممكنة، دون الحاجة إلى مراقبة ما يحصل بالفعل في التفاعلات الحقيقية أو جمع بياناتٍ عنها. أدّت هذه الافتراضات المعمّمة إلى

انتقاداتٍ من الإثنوغرافيين والأنثروبولوجيين الألسنيين العاملين في مجتمعاتٍ خارج أوروبا والولايات المتّحدة.

إذا أردنا القيام بدراساتٍ إثنوغرافيّة (فصل 4)، علينا أن نعرف ما إذا كان يمكن اعتبار سؤالٍ ما تحيّة، أو قولٌ وعد عن المستقبل، أو قولٌ عن الماضي. يصبح تمييز أوستن عندها بين القول والفعل (أفعال التلفّظ وأفعال قوّة التلفّظ) وحديثه عن شروط القول اللبق خطوة أولى نحو **السياقية**، أي النشاط الّذي يسمح بفهم الأفعال (إن كانت كلامية أو لا) في صلتها بأفعال أخرى أو وجودها فيها، والتي تفهم في الوقت نفسه بواسطة مصطلحاتٍ ثقافية معبّرة. ليس من المفاجئ أن نعرف بأنّ الإثنوغرافيين الّذين اهتمّوا بالطقوس كانوا أكثر من تبنّى أو استخدم نظرية فعل الكلام (Rappoport 1974; Tambaiah 1968, 1973)، ولكن، وكما أشار إليه دو بوا (1993: 49)، لم يفعل هؤلاء المتحمسون الأُول سوى أستخدام "نظرية سيرل لأفعال الكلام ضمنياً في تطبيقهم لها، أو ردّدوا العناصر الّتي لم يجدوا من المانع استخدامها" (Du Bois 1993: 49).

لم يلاحظ الأنثروبولوجيون الثقافيون مباشرةً أن معظم الامثلة الّتي أعطاها أوستن تتعلق بأفعال كلاميّة طقسية جدّاً ومحدّدة مؤسساتياً، مثل تسمية باخرة أو تزويج شخصَين، شكّل توسيع سيرل لنظرية أوستن، لتشمل عدداً أكبر بكثير من الأفعال، نظرية أكثر عامّة للتواصل وبسيكولوجيا الإنسان (Searle 1969, 1983). تبدو هذه النظرية، كما أشار إليه عددٌ من الأنثروبولوجيين الألسنيّين والثقافيين، متناقضة مع المفهوم الأنثروبولوجي لأفعال الإنسان وتفسيرها في سياق حدوثها[16].

---

(16) لنقدٍ باكرٍ للافتراضات الثقافية الموجودة في نظرية فعل الكلام وما يتّصل بها، انظر [Ochs] (1974), Silverstein (1977).

سأركّز في ما يلي على نقد ميشال روزالدو (Michelle Rosaldo) (1982) المرتكز على عملها الميداني بين الأيلونغوت (Ilongots)، وهم مجموعة من 3500 صيّاد بستاني في إقليم نوافا فيتشايا، في لوزون، في الفليبين (Rosaldo 1980).

أكّدت روزالدو، في مقالٍ نشر بعد وفاتها[17]، أنّ الناس يظهرون في استعمالهم للّغة فهماً لكينونتهم الخاصّة في العالم، وأنّ استعمال المتكلّمين للّغة يرسّخ نظاماً اجتماعياً معيناً ـ مثلاً حيث يطلب الرجال وتلبّي النساء متطلّباتهم. يعني ذلك أنّه يجب على كلّ تصنيفٍ لأفعال الكلام في مجتمعٍ ما أن ينظر إلى هذه الأفعال كجزءٍ من الممارسات الثقافية التي تمثلّ وتكرس نظاماً اجتماعياً معيّناً. يعني ذلك أن تحليل أفعال الكلام يجب أن يعتمد على تحليل أفكار ومشاعر ومعتقدات الناس عن نظام العالم الذي يؤثر بالتالي على تحليلها.

تقترب مواجهة روزادلو بالنظريات ما بعد البنيوية الخاصة بالأفعال الاجتماعية (Ortner 1984)، وتشكّل مواجهة بين فكرتَين متناقضتَيْن عن المعاني وبالتالي فكرتَين مختلفتَيْن تماماً عن أهداف التفسير اللغوي. يهدف سيرل وغيره من علماء نظرية فعل الكلام إلى ابتكار منهجٍ يسعى بالوصول إلى الشروط اللازمة والكافية للتواصل بين الناس. هذا ما تسعى إليه شروط اللباقة والصدقية، بالإضافة إلى عددٍ من المبادئ الاستنتاجية، مثل مسلمات النقاش ومقتضياته لدى غرايس انظر أدناه و(Levinson 1983: ch 3). تهدف روزالدو وغيرها من الأنثروبولوجيين الألسنيّين إلى فهم كيف يمكن لاستعمالات لغة

---

(17) وقعت ميشال روزالدو (Michelle Rosaldo) من أعلى صخرةٍ ولقيت حتفها في 11 تشرين الأوّل/ أكتوبر 1981، لدى عملها الميداني في الفليبين (R. Rosaldo 1989: 9).

معينة أن تكرّس أو ترسّخ أو تتحدّى نواحي معيّنة من النظام الاجتماعي ومفهوم الشخص (أو النفس) الّذي ينتمي إلى هذا النظام[18]. اعتمدت روزالدو على هذا الافتراض الأساسي وعلى عملها الميداني بين الإيلونغوت في انتقادها النواحي التالية من نظرية فعل الكلام:

(1) تركيزها على الصحّة والتأكّد كما نجدها في شروط الصدقية عند كلٍّ من أوستن وسيرل؛

(2) التركيز على المقاصد في نظريتها التفسيرية؛

(3) نظريّتها الضمنية للشخص (أو "النفس").

لننظر إلى هذه النواحي بشكلٍ أكثر دقّةً.

1.3.7. الحقيقة

يتكلّم أوستن (Austin 1962: 40) عن وجود "مشاعر ضرورية" للقيام ببعض أنواع الأفعال، مثل التهنئة أو التعزية؛ ويضم سيرل (1969) أيضاً الصدقية ضمن الشروط اللازمة لمعظم أفعال الكلام الّتي يتحدّث عنها. فيعتبر مثلاً أنّ أحد **الشروط التحضيرية** لتأكيدِ ان المتكلم يمتلك دليلاً لاثبات حقيقة الجملة الخبرية وأنّ شروط الصدقية تعود إلى تصديق المتكلّم للجملة الخبرية. لكي لا يكون الوعد ناقصاً، يجب على المتكلّم أن يعتزم **بصدقٍ** القيام بالعمل الّذي يعد به (Searle 1969: 60).

أكّدت روزالدو أنّ الإيلونغوت لا يعرفون معيار الصدقية،

---

(18) يجب الإشارة إلى أنّ روزالدو تمثّل موقفاً نسبياً قوياً بالنسبة لهذه الإشكالات، ولا يشاركها بالضرورة كلّ الأنثروبولوجيين الاجتماعيين - الثقافيين والألسنيين بالرأي. انظر (Hollan 1992) لمراجعة هذه النظريات المختلفة.

وبالتالي لا يمكن اعتبارها استراتيجية عالمية للتفاعل الشفهي[19]. وإذا نظرنا إلى استعمال الإيلونغوت لأفعال تأكيد تطابق الأفعال العربية **قال وتكلّم وأخبر**، نجدها في صياغات خطابية، خاصّةً في بداية اللقاء أو خلال مجادلة خطابية. ويبدو أنّها تتعلّق أكثر "بصياغة العلاقات والادّعاءات" (ص 213) منه بالإخبار عن تجربة حقيقةٍ ما. يبدو أنّ المتكلّمين الّذين يؤكدون أشياء ما يهتمّون بمن يدّعي شيئاً ما وليس بتفاصيل ما يقال فعليّاً.

> . . . يستعمل الإيلونغوت الرفض والتأكيد في الحديث لتأسيس الأدوار التفاعلية.
>
> فقد تعرّفت على إيلونغوت مثلاً أنكروا أخذهم لرؤوس أعضاء من عائلة محادثين لهم، **كانوا** بالحقيقة ضحاياهم في الماضي، ومن ثَمَ عبّروا عن استعدادهم، لدى تحدّيهم، لاجتياز صعوباتٍ وأخطار وأقسام للردّ على متهميهم غير المؤكدين أو الخائفين. واعتمدت صحّة ما يقولونه، (كالعادة فإن ما ادعوه كان حقيقة ويعتمد قليلا على ما قالوه اكثر من اعتماده "نوعيّة تفاعلٍ حيث ما يهمّ كان من تكلّم وادّعى حيازته حقّ كشف أو عدم كشف سرٌ عام لم يكشفه أحد من قبل (Rosaldo 1982: 214).

(19) اعترف أوستن وسيرل بأنّه من الممكن لفعلٍ ما أن ينجح حتّى لو لم يكن المتكلّم صادقاً. ولكنّ الصدقية تبقى لدَيهما إحدى ميّزات الكلام الأساسية. ونجد ذلك أيضاً في تطلّعاتٍ جديدة لهذه النظرية: "يعتبَر فعل الكلام غير الصادق ناقصاً، ولكنّه ليس بالضرورة غير ناجح. فيمكن لكذبةٍ مثلاً أن تكون تأكيداً ناجحاً. ولكنّ أداء أفعال قوّة التلفّظ الناجح يعتمد بالضرورة على التعبير عن الحالة النفسية الّتي تحدّدها شروط الصدقية الخاصّة بهذا النوع من الفعل" (Searle and Vanderveken 1985: 18).

تؤكد روزالدو أيضاً أنّ الأيلونغوت لا يملكون في مفاهيمهم فعل الوعد كما يتحدّث عنه سيرل (1965, 1969). فالوعد في المفهوم الغربي (أي الإنجليزي) يتطلّب صدقية المتكلّم. وتتطلّب هذه بدورها فكرة "المعنى كشيءٍ يُستنتج من الحياة الباطنة" (Rosaldo 1982: 211; Du Bois 1993; Duranti 1988b; 1993a, 1993b). هناك بالتالي علاقة قويّة بين انتقاد مسألة الصدقية وانتقاد أهميّة النيّات المركزية في تفسير العمل الاجتماعي (انظر الفقرة 2.3.7.) وبفكرة الشخص المتضمنة فيها (انظر الفقرة 3.3.7.) .

بشكلٍ عام، وحتّى عندما يسلّم أعضاء المجتمع بوجوده، يمكن فصل فعل الوعد، أو ما يمكن تسميته التعهّد بالقيام بعملٍ ما في المستقبل، قد يكون مفصولاً عن أنجاز الفعل وهذا ما يشير إليه رابوبورت (Rappoport 1974) في حديثه عن الطقوس. فيجتمع أعضاء المارينغ للرقص في طقس يسمّى **كايكو**، وهو يشير إلى تعهّدهم بالمقاتلة معاً في المستقبَل، وليس هناك ما يؤكّد حصول ذلك. علينا أن نسلّم بأنّه لكي يقود الوعد إلى فعل ما في المستقبل، قد يتوجّب القيام بأفعالٍ أخرى في المستقبل. يمكن معرفة بعض هذه الأفعال سلفاً، ولكن قد لا يمكن معرفة أفعال أخرى. يشدّد حديث بورديو (1977) على تبادل دور هذا العنصر الخاص بعدم معرفة قسم من أفعال المستقبل كأساس كي يعطي معنىً للتفاعل الاجتماعي. لا يَمكن القول فقط بأنّ التبادل يعني أنّه إذا أعطى "أ" شيئاً ل"ب" فسيعطي "ب" لـ "أ"، إذ يجب أخذ البعد الوقتي بين الفعلين بعين الاعتبار، مع ناحيتيه الشعورية والأخلاقية. ما يحدّد جزئياً كون شيءٍ ما وعداً ـ أو تحدّياً أو هديّة أو عقاباً ـ يعود إلى ما يحدث بعد الفعل. ويعود ذلك بدوره إلى ما يقوم به الآخرون لتقوية أو زعزعة قوّته. قد تكون (أو تُجعَل) صدقية مشاعر شخصٍ ما نحو آخر غير مهمّة.

فكما كتب مورمان (Moerman 1988: 108)،

تعود "الحقيقة" و"الدقّة" وغيرهما من التخطيط الواصل بين ما يقال وما يشار إليه إلى مكان الحدَث. لا تشكّل الحقيقة والدقّة دائماً المعايير الجيّدة والمفيدة، حتّى إذا حصرنا انتباهنا بالكلام عن العالم الخارجي. فمن المهمّ أحياناً أن يكون الشخص مضحكاً أو مؤثّراً أو مهذّباً أيضاً.

تشكّل الحقيقة أحياناً، من وجهة نظر الأنثروبولوجيا، انجازاً كما تشكّل شرطاً مسبَقاً لإجراء عمليّةٍ ما، بما في ذلك التواصل (Duranti 1993a).

2.3.7. النيّات

بالرغم من اعتبار أوستن الحيازة على نيّاتٍ ما جزءاً من شروط اللباقة اللازمة لكي نعتبر قولاً ما فعلاً، لا تصبح النيّة مركزيّةً في تحديد التواصل إلاّ في نظرية فعل الكلام لدى سيرل:

في كلامي أحاول أن أوصل فكرةً إلى سامعي بجرّه إلى فهم نيّتي إيصال هذه الفكرة. وأؤثّر فيه كما أريد بجعله يعرف نيّتي الوصول إلى هذه النتيجة، وما أن يعرف السامع ما بنيّتي فعله حتّى أفعل ما بنيّتي.
(Searle 1969: 43)

وهذا التعريف مستوحى من تعريق غرايس "للمعنى غير الطبيعي (أي التقليدي)":

يمكننا أن نلخّص ما يعني أ بقوله إلى ب كالتالي. على أن أ يجعل سامعيه يعتقدون شيئاً ما

بواسطة ب، وعليه فهو ينوي أن يعرف سامعوه نيّته.
(Grice [1957] 1971: 441)

يميّز غرايس، في وصفه لكيفيّة عمل هذا التعريف، بين حالةٍ نسعى فيها إلى إخراج بخيلٍ من النافذة برمي بعض المال من النافذة، وحالةٍ نسعى فيها إلى إخراجه بالإشارة إلى الباب ودفعه نحوه الفرق بين الحالتين هو أنّه في الحالة الأولى نستطيع أن نجعله يخرج من دون أن يعرف نيّتنا، أمّا في الحالة الثانية فيجب أن يعرف نيّتنا لكي يرحل.

تجد روزالدو عدداً من المشاكل المتداخلة في هذه الرؤية للتواصل. فتقول أوّلاً إنّ التشديد على النيّات ومعرفة السامع لها يركّز أكثر من اللازم على الأفعال والإنجازات الفردية. فيعني ذلك أنّ كلّ أشكال الفعل هي في معظم الأحيان (أو بكلّ بساطة) "إنجازات أنفسٍ مستقلّة، لا تقيّد أعمالها العلاقات والتوقّعات الّتي تحدّد عالمها المحلي" (1982: 204). تشكّل هذه الرؤية للفعل شرطاً مسبقاً للقبول بمنطق الجدل لغرايس وسيرل. عندما نقرأ عن نيّات المتكلّمين في ما كُتِب عن أفعال الكلام، ودون أن نلاحظ ذلك، ننسى أن نسأل أسئلةً تسمح بتوسيع سياق التفاعل وتجبرنا على البحث عن معلوماتٍ تخصّ أبعاداً لا تُذكر في الحديث. وكما تشير إليه إليزابيت بوفينيلي (Elizabeth Povinelli) (1995) في حديثها عن دور روايات الأحلام في المحاكم الأوسترالية، لا يستطيع مفوّض مسح الأراضي التي تمثل الجاليات غير الأصلية فهم رؤية السكّان الأصليين للحجارة وغيرها من الأشياء ككائناتٍ لها نيّاتها وتستطيع أن تشعر وتسمع وتشمّ. كلّ ما يستطيعه هو تصنيف روايات الأحلام "كمعتقداتٍ" محليّة تعطي براهين على صحّة ادّعائهم ملك الأرض. ولكنّ بوفينيلي تقول إن مثل هذه الأقوال، تشكّل أكثر بكثير من كونها معتقداتٍ

دينية. فهي تشير إلى مجموعة من العلاقات مع الطبيعة ومجموعة من الممارسات **مع وفي** عالم الطبيعة، وهي تتناقض مع فكرة الغرب (الرأسمالي) عن "العمل". تعتبر نساء البيلووين (Belyuen) الّتي عاشت معهن بوفينيلي أنّ

> الناس ليس سوى حلقة في حقل النيّات والتخصيصات الممكنة. ويشكّل الحلم صورة مصغَّرة عن التحول والتخصيص للأرض ولأجسام الناس والحيوانات وللشخصيّات، لأسباب لا يستطيع الأشخاص والمجموعات إلاّ أن يحاولوا فهمها. [. . .] تقارن نساء البيلووين الصيد بالعمل المكافأ بالمال [في المجتمع] الرأسمالي، فتقول بأنّ الأوّل يُنتج خفّة الجسم ويرفعه، بينما يُنتج الثاني القلق واليأس. (Povinelli 1995: 513)

ما أن نفهم الأرض والبشر كموضوعات ذات تواصل وتداخل، حتى ندرك مفهوم السّكان الأصليين للرفاه كعمل ذي قيمة اجتماعية واقتصادية. (Povinelli 1995: 514).

يشير هذا المثال إلى أنّ التفسير، وهو عملٌ يقضي بتحديد النيّات، يشمل فهم العلاقة بين الأفراد (المتكلّمين والسامعين مثلاً) والمجتمع وعالم الطبيعة الّذي يعملون في داخله.

إذا ما عدنا إلى مثال غرايس عن كيفيّة التخلّص من البخيل، علينا أن نعلم أنّ وصفه للحادث يتجاهل الكثير من المحتوى الثقافي. علينا كإثنوغرافيين، في حال واجهنا حالةً كتلك التي يتحدّث عنها غرايس، أن نسأل الكثير من الأسئلة. فكيف تمّ تحديد كون هذا الرجل "بخيلاً جدّاً"؟ وإلى أيّ حدٍّ يعتمد هذا التصنيف على اللقاء

أو العلاقة المعيّنة، أو الاثنين، بين الناس؟ ما هي العلاقة الباطنة الخاصّة بالمسؤولية الاجتماعية الّتي تقود شخصاً ما إلى الخروج من الغرفة للحصول على المال الّذي يراه يُرمى من النافذة؟ ولماذا نفترض أنّ الشخص لن يربط بين المال الّذي يجده ووجودنا ولن يفترض أنّنا مسؤولون عن رميه؟ كيف يتمّ تحديد المسؤولية إذا دهست سيّارة البخيلَ عندما خرج ليأخذ المال؟... إلخ.

تعود هذه الأسئلة إلى ادّعاءٍ آخَرَ لروزالدو تقول فيه بأنّه يبدو أنّ الإيلونغوت يعتبرون **العلاقات الاجتماعية** أكثر أهميّة من نيّات الأفراد. أي أنّه يبدو لروزالدو أنّ الإيلونغوت، يهتمّون أكثر بمعرفة كيفيّة المحافظة على العلاقات الاجتماعية منه بتحديد الدوافع والحالات النفسية انظر أيضاً (Duranti 1993a, 1993b; Kuipers 1990: 42-43; Ochs 1982; Schieffelin 1986, 1990; Shore 1982: ch. 10). عندما غضبت روزالدو لعدم مجيء الناس للعمل معها، لأنهم لم يعطوها أعذاراً أو يأسفون بل أعطوها هدايا وأشياء أخرى قد تساعد على تهدئتها. يبدو أنّ الإيلونغوت لم يهتمّوا بتقييم نيّات الناس، بل بضبط النتائج الممكنة وتأثيرها على الواقع كما رأوه بالنسبة لردّة فعل روزالدو. فلم يهمّهم ما كان يحصل قبل ذلك. هناك صلة قويّة بين عدم الاكتراث بالتفاصيل الواقعة أوإعادة تركيب الحالات النفسية الماضية، وما تصفه روزالدو بنظريّة مختلفة عن الشخص بين الإيلونغوت.

يمكن تعليل هذه الممارسة الثقافية بشكلٍ أفضل بافتراض رؤيةٍ مؤسساتية للنيّات، كما يقترح فيتغنشتاين، الّذي لم يثق بالتفسيرات البسيكولوجية للتصرّف اللغوي:

هناك نيّةٍ راسخة في واقعها، وفي تقاليد الإنسان ومؤسّساته. ولولا لم تكن تقنيّة لعبة الشطرنج

موجودة، ما كنت أستطيع أن أنوي لعب الشطرنج. إذا كنت أستطيع تشكيل جملة سلفاً، يعود ذلك إلى اتقاني اللغة الّتي أستعملها.

(Wittgenstein 1958: 108, § 337)

هناك دعوة باطنة في هذا القول إلى القيام بعملٍ كعمل الإثنوغرافيين، أي تشكيل وثائق عن ممارساتٍ معيّنة وصلتها بمؤسساتٍ وقضايا اجتماعية أوسع.

لا يمكن لأحدٍ أن يحزر كيف تعمل كلمةٌ ما. فعليه أوّلاً أن **ينظر** إلى استعمالها ويتعلّم منه.

(Wittgenstein 1958: 109, § 340)

مع الأسف، قد استخفّ الكثيرون بهذا القول واعتبروه مرادفاً لشعار "المعنى هو الاستعمال"، فلم يروا تعقيد نظرية فيتغنشتاين في ما يخص أشكال اللغة كنشاطاتٍ أو ممارساتٍ ثقافية يجب فهمها في سياق أعمال جالية من المستعملين.

3.3.7. النظرية المكانية للشخص

كان أحد أهداف روزالدو "تنحية" (بالمعنى الظاهراتي، أي "تعليق الحكم على...") فكرة المتكلّم كفاعلٍ اجتماعي، الّتي يفترضها علماء نظرية فعل الكلام، وبالتالي اقتراحها بأن لا تُعتبر فكرة معممة بل تختلف من ثقافةٍ إلى أخرى.

أودّ أن أشير هنا إلى العلاقة القويّة بين طرق التفكير باللغة وبعمل الإنسان وشخصيّته: تشبه مساعينا النظرية إلى فهم كيفية عمل اللغة أقل بكثير من الافكار اللغوية المفسرة في أماكن أخرى من العالم، فكلاهما يميلان إلى عكس الرؤى المحليّة

السائدة عن طبيعة هؤلاء الناس الّذين يستعملون اللغة.
(Rosaldo 1982: 203)

يعني ما تقوله روزالدو أنّ استحواذ سيرل بالصدقية والنيّة يعكس أفكاراً غربية عن فعل الإنسان ويكرّرها. وتركّز هذه الأفكار على وضع المتكلّم النفسي، بينما لا تعير اهتمامها للجو الاجتماعي الذي يتمّ فيه التحقيق بهذه الحالة البسيكولوجية المزعومة. لا يفكّر علماء نظرية فعل الكلام بنوع التفكير والشخص الفاعل الضمني في عملهم. يشكّل هذا النقص بفكرهم فرقاً كبيراً بين الفلسفة التحليلية الّتي تمثّلها نظرية فعل الكلام والعمل الإثنوغرافي التفسيري الّذي قامت به روزالدو، ويذكرنا نقدها لنظرية فعل الكلام بنقد وورف للافتراضات السائدة عن عقل الإنسان وعمل الإنسان المعتمدة على اللغات الأوروبية:

قد يكون أسهامنا في ذكر تعدد وجهات النظر هو إحدى أهم المساهمات العلمية، بالأخصّ من جهة اللغة. لا يمكننا أن نعتبر بعد الآن أنّ بعض اللغات العامية الحالية في اللغات الهندية ـ الأوروبية والتقنيات العقلانية الّتي تمّ ابتكارها لدراسة أنماط هذه اللغات يشكّل قمّة تطوّر عقل الإنسان، ولا يمكن اعتبار انتشارها الواسع الحالي كنوع من بقاء الأصلح أو أي شيءٍ غير ما يأتي من حوادث التاريخ ـ حوادث لا يمجّدها إلاّ من له وجهة النظر المحدودة للّذين يملكون القوّة. ولا يمكن اعتبار هؤلاء، أو طريقة تفكيرنا معهم، كما يشمل كلّ العقل والمعرفة، بل كمعرفة واحدة في مجرّة واسعة.
(Whorf [1940] 1956e: 218)

استخدمت روزالدو أدوات تحليل الأنثروبولوجيا الألسنية والتفسيرية لتنظر إلى نظرية أوستن وسيرل عن ما يفعله الناس بالكلمات مثيرة للاهتمام ولكن كإثنوغرافيا (فقيرة) للشخص الغربي وعمله. يعتبر علماء فعل الكلام الشخص في الغرب "ذاتي عبر الزمن" (Rosaldo 1982: 218). وهم يحتاجون بالضرورة إلى هذه الفرضية لكي يجزموا بما هو صادق ومسؤول ومن نيّةٍ ما. ولكن لا تشارك بالضرورة كلّ الثقافات بهذه الفرضيّة، وفي الحقيقة تقوم معظم أعمال الأنثروبولوجيا الحديثة بدراسة الطرق المختلفة الّتي تستعملها الثقافات لتمثيل العلاقة بين الأفراد وشخصيّاتهم العلنية. بينما تفضّل وجهة نظر أوستن وسيرل أفكاراً ونيّات الفرد في التفسير، يفضّل الأنثروبولوجيون الثقافيون من أمثال غيرتز، ومن قبله مؤسّسو مدرسة "الثقافة والشخصية" انظر (Langness 1987) على الفصل الموجود في ثقافاتٍ عديدة بين الشخصيّة الخاصّة والشخصية العلنية أو بين الفردي والعلني. هولان (Hollan) (1992) على حقّ في قوله أنّ بعض الأنثروبولوجيين الثقافيين قد بالغوا في تمييزهم بين النفس "الغربية" و"غير الغربية"، ولكنّ عدّة دراساتٍ إثنوغرافيّة كشفت عن وجود طرق مختلفة وكثيرة يلعب فيها سياق (الحال) دوراً في تركيبة الشخص. فيحذّرنا مثلاً أرجون أبادوري (Arjun 1990 Appadurai)، في حديثه عن التضرّع والمدح في الهند الهندوسية، أنّ النفس ليست في "داخل" الفرد فقط. فهي تعيش أيضاً في الممارسات المتجسّدة الّتي تعتمد على التصرّفات العلنية الطقسية والتفاعلية.

> ... **لا** يخصّ المدح التواصل **المباشر** بين الحالات "الداخلية" للأشخاص، بل المحادثات العلنية الخاصّة بحركاتٍ وأجوبةٍ معيّنة. عندما تنجح

المحادثات، يخلق هذا النجاح "**جالية المشاعر**" التي تحتوي على الاشتراك العاطفي للمادح والممدوح وجمهور المدح. ويشكل المدح بالتالي مجموعةً من الممارسات المنظَّمَة والعفويّة، وهي إحدى الطرق الّتي تقود نحو تكوين جاليات المشاعر في الهند الهندوسية.

(Appadurai 1990: 93-94)

يعني القول بوجود نواح طقسية وجمالية وإطنابية وشعورية في التضرّع مرسّخة في "جالية شعورية" أنّه لا يمكن حصر معنى كلمات الشخص أو أفعاله بما ينويه. والثقافة أكثر من مجرّد مجموعة مشتركة من المعتقدات. فهي تشمل ممارسات واستعدادات لا تعيش إلاّ في جالية (انظر الفقرة 5.2.).

تلخّص هذه الأعمال الإثنوغرافيّة الّتي تناقش نظرية فعل الكلام اختلافات أساسية بين الفلاسفة التحليليين والأنثروبولوجيين الثقافيين والألسنيين الحاليين. بما أنّ هناك بحسب الإثنوغرافيين تفاوت في فكرة الشخص بين ثقافةٍ وأخرى (وسياق وآخر)، لا يمكن لأي حديثٍ إثنوغرافي عن استعمال الكلمات في التفاعل الاجتماعي أن يكون فقط إعادة بناءٍ لوقائع بل أيضاً (أو بالأحرى) سعياً إلى وصف استراتيجيات المشاركين لفهم وتقرير أي تركيبة يمكن أن تكون مقبولة أو مناسبة أكثر. لا يعني هذا التركيز المختلف بالضرورة أنّ كلّ الإثنوغرافيين يعتمدون وجهة نظر براغماتية مفرطة بالنسبة للمعاني ("الحقيقة هي ما له فعالية في السياق الحالي") بل أنّ لديهم أولويات وأهداف مختلفة في تفسيرهم لتصرّف الناس. يبدأ علماء نظرية فعل الكلام من افتراضهم أنّ "اللغة هي فعل" ولكنّهم لا يتساءلون عن فكرة "الفعل" الّتي لديهم. وهم يفترضون

أنّ "الفعل" نفسه يشكّل بعداً بشرياً وجودياً عالمياً لا يحتاج إلى المزيد من التحليل. وبالتالي، عند تحليلهم للتوجيهات، لا يسألون "ما هي القواعد الّتي نحتاجها بل يجب أن نفترضها لكي نشرح كيف يجرّ شخصٌ شخصاً آخر للقيام بعملٍ ما؟" فهم لا يسألون من يفعل ماذا لمن ولماذا. إذ يعتبرون هذا السؤال خارج الحقل النظري.

أمّا الإثنوغرافيون، فهم يعتقدون أنّه من المهمّ توسيع التحديد الفلسفي "للفعل" لكي يشمل فكرة الشخص الباطنة في هذا التحديد والعلاقة بين استعمال اللغة والنظريات المحلية الخاصّة بالحقيقة والسلطة والمسؤولية. يعني ذلك أنّ تفسير الكلمات كأعمالٍ يختلف بالنسبة للإثنوغرافيين، لأنّ فكرة **السياق** عندهم تختلف. كما يقترح ليندستروم (Lindstrom) يعتبر الأنثروبولوجي الألسني (1992:104)

. . . أنّ تحليل السياق يبدأ... بسؤال أي نوعٍ من الكلام يمكن سماعه وفهمه، وأي نوعٍ لا يمكن سماعه وفهمه. هل كلّ المشاركين مؤهّلون للكلام ولقول الحقيقة؟ هل يمكن للكلام أن يحمل كلّ المعنى؟

هذه الأسئلة أكثر تعقيداً وأشمل من تلك الّتي يسألها علماء نظرية فعل الكلام. هل يجب أن نستنتج من ذلك أنّه لا يمكن إيجاد وسيطٍ يصل بين الفلاسفة والأنثروبولوجيين؟ ليس بالضرورة. إذ نجد في فلسفة الغرب محاولاتٍ لتأسيس نظرية للّغة كفعلٍ تقترب من تلك الّتي يمارسها معظم الأنثروبولوجيين الألسنيّين. إحدى هذه النظريات هي تلك الّتي طوّرها فيتغنشتاين في الثلاثينات والأربعينات لدى عودته من كامبردج.

4.7. اللعب اللغوية كوحدات تحليل

في كتاباته الأخيرة استخدم فيتغنشتاين غالباً استعارة اللعبة للتكلّم عن فهم واستعمال الناس للّغة.

> يشكّل استعمال الكلمة في اللغة معناها.
> يصف النحو استعمال الكلمات في اللغة.
> وهو يملك بالتالي نفس العلاقة مع وصف لعبة لغوية كتلك الّتي بين قواعد اللعبة واللعبة.

(Wittgenstein [1933 ca.] 1974: 60)

فُهمت مقارنة فيتغنشتاين بين اللغة واللعبة أحياناً كثيرة حرفياً. فيؤكّد سيرل (1969: 43) مثلاً أنّ هذه المقارنة غير صحيحة لأنّه عندما نحرّك حجراً في لعبة الشطرنج مثلاً لا يمكن القول بأنّ الشخص **يعني** شيئاً بقيامه بهذه الحركة[20]. إذا صغنا الأشياء بهذه الطريقة فسنجد بالطبع أنّ هذه المقارنة غير صحيحة لأنّ لعب لعبة الشطرنج والكلام هما عملان مختلفان ـ وفيتغنشتاين سيوافقنا عندها الرأي. ولكن علينا أن نبحث عن ما تشير إليه الاستعارة بدلاً من النظر إلى الاختلاف بين العملَيْن[21]. ما يقترحه فيتغنشتاين باستعماله لاستعارة الشطرنج هو أنّ فهم كلمة في جملة هو كفهم حركة في الشطرنج. يشمل جزءٌ من هذه المعرفة ما يسمّيه علماء النفس **بالمعرفة الإجرائية**

---

(20) "عادةً عندما يتكلّم شخصٌ ما فهو يعني شيئاً ما في كلامه؛ وما يقوله، أي سلسلة الأصوات الّتي يلفظها، لها عادةً معنىً. وعلى فكرة، تصبح عند هذه النقطة المقارنة بين أداء أفعال الكلام ولعب لعبة غير صحيحة. فلا نقول عادةً إنّ لأحجار الشطرنج معنىً، وبالإضافة إلى ذلك، عندما يحرّك الشخص إحداها لا نقول بأنّه يعني شيئاً بذلك" (Searle 1969: 42-43).

(21) يمكن نقد قراءة سيرل لفيتغنشتاين لنفس الأسباب الّتي يجدها تامبياه (Tambaiah) في نقده لعدم فهم مالينوفسكي للكلمات السحرية (انظر الفقرة 1.7).

(معرفة كيف نفعل شيئاً ما) (انظر الفصل 2) ولكنّها تذهب أبعد من ذلك. نحصل على فهمنا لكلمةٍ ما بمطابقتها مع كلماتٍ وسياقاتٍ أخرى وبتخطيطٍ لتأثيرها على كلماتٍ وأقوالٍ في المستقبل كما نخطّط لحركة في الشطرنج بالنظر إلى حركاتٍ ماضية وآتية. تعني استعارة اللعبة أيضاً فهماً مختلفاً لدى المستعملين. فيفهم لاعب الشطرنج الخبير الحركات بشكلٍ يختلف عن شخصٍ لم يلعب الشطرنج من قبل[22]. وبشكلٍ مماثل، لا يفهم الجميع كلمةً أو قولاً ما بنفس الطريقة. هناك الكثير من المجالات والسياقات (أي "الألعاب") لاستعمال اللغة. لا يتشابه الجميع في مقدرتهم على العمل في حقلٍ معيّن. بينما يتهيّأ الذي ينظر إلى أهداف أوستن وسيرل الرامية إلى إيجاد مجموعة متناهية من المعايير والشروط أنّه هناك معرفة لغويّة عالمية مشترَكة، في الحقيقة يمكن لمتكلّمين مختلفين، وحتّى لجيرانٍ أو أصدقاء حميمين، أن يفهموا نفس العبارات اللغوية بشكلٍ مختلف. فأنا أذكر قولي لصديقٍ فنّان إنّني قد اشتريتُ قيثارة من نوع فيندر (Fender). فسألني "ما لونها؟" وجاوبته "أبيض". وعندما أخرجتها بعد ذلك من علبتها، نظر إليها وخيبة الأمل في عينَيه، قائلاً "قلت لي أنّها بيضاء، ولكنّها من لون العاج!" يدلّ تحديدنا المختلف للون القيثارة، كما قد يقول فيتغنشتاين، إلى "شكل حياة

(22) عندما يراقب شخصٌ يعرف لعبة الشطرنج أحدهم يلعبها، تختلف تجربته أمام حركةٍ ما من شخصٍ ينظر من دون أن يفهم اللعبة. (وتختلف أيضاً عن شخصٍ لا يعرف حتّى أنّها لعبة). يمكننا أن نقول أيضاً إنّ معرفة قواعد لعبة الشطرنج تشكّل الاختلاف بين المشاهدَيْن، وبالتالي أيضاً إنّ معرفة القواعد هي الّتي تسمح للمشاهد الأوّل بأن يحصل على تجربته الخاصّة. ولكنّ هذه التجربة ليست معرفة القواعد. ومع ذلك نميل إلى تسمية الاثنَين "فهماً" (Wittgenstein 1974: 49-50). انظر أيضاً بوتنام (1975) للفرق بين الخبراء وغيرهم، وهو يقترح نظرية للمعني تعتمد على فكرة "تقسيم العمل" بين المتكلّمين، حيث يعرف الخبراء ما لا يحتاج الناس العاديّون إلى أن يعرفوه.

أخرى. . . وتصوّر لغة يعني تصوّر شكل حياةٍ أخرى" [Wittgenstein 1958: 8]. فتعني الألوان وتمييزها شيئاً مختلفاً بالنسبة للرسّام. إذ هي جزءٌ من شكل حياة مختلفة.

يعني فيتغنشتاين أنّ معرفة استعمال كلمةٍ ما (أو أي عبارة لغوية) لا تعني فقط معرفة ما نستطيع أن نفعل بواسطتها - يمكن لحجر شطرنج أن يتحرّك بشكلٍ محدود فقط ولكن هناك حالاتٌ كثيرة يمكننا استعماله فيها ونحصل في كلّ مرّةٍ على "معنىً" جديد - ولكن أيضاً أنّ الاستعمال يفترض نوعاً معيّناً من الوجود[23]. وقد كتب لهذا السبب، "لو كان الأسد يستطيع الكلام، ما كنّا لنفهمه" (Wittgenstein 1958 : 223).

لرؤية اللغة تأثير مهمّ في طريقة كتابة قواعد اللغة. تعني كتابة قواعد لغةٍ ما أن نصف ما يفعله الناس بواسطة بعض التعابير (انظر الفقرة 2.2.7.). كما سنرى في الفصل 8، يقترب كثيراً تحليل تركيب الجمل كأجزاء من سلسلاتٍ تفاعلية من نوع التحليل الّذي تصوّره فيتغنشتاين من دون أن يقوم به كليّاً.

ليس من المفاجئ، عندما نعرف استخدام استعارة اللعبة المتكرّر لدى فيتغنشتاين، أن يكون أقرب ما استعمله فيتغنشتاين إلى وحدة تحليلٍ هي **الألعاب اللغوية**[24]، الّتي عرّف بها لأوّل مرّة في **الكتاب الأزرق** واستعملها كثيراً في كتاباته اللاحقة:

---

(23) تتبع نظرية مالتز وبوركر (1982) عن الاختلاف الجنسي منطقاً مشابهاً: يستعمل الرجال والنساء اللغة بشكلٍ مختلف، لأنّ الصبيان والبنات يتعلّمون استعامل اللغة في سياقاتٍ مختلفة، أي أنّه تتمّ تربيتهم بشكلٍ مختلف، أو، كما يقول فيتغنشتاين إنّهم يستعملون نفس الكلمات ولكن لديهم تجربةً "لأشكال حياةٍ" مختلفة. ويشبه ذلك أيضاً رؤية تانين (Tannen) (1990).

(24) لدراسةٍ عن تطوّر فكرة الألعاب اللغوية في كتابات فيتغنشتاين، انظر (Baker and Hacker 1985: 47-56).

سأشير في المستقبل أكثر وأكثر إلى ما أسمّيه بالألعاب اللغوية. وهي طرقٌ في استعمال الإشارات أبسط من تلك الّتي نستعمل بواسطتها الإشارات في لغتنا اليومية المعقّدة. ألعاب اللغة هي تلك الّتي يبدأ بها الطفل باستعمال الكلمات. فدراسة الألعاب اللغوية هي دراسة أشكال اللغة البدائية أو اللغات البدائية. إذا أردنا أن ندرس مشاكل الحقيقة والباطل، والتوافق وعدم التوافق بين الجمل الخبرية والواقع، وطبيعة التوكيد والافتراض والسؤال، علينا أن ننظر إلى أشكال اللغة البدائية الّتي تظهر فيها أشكال التفكير هذه من دون الخلفية المشوّشة لعمليات التفكير المعقّدة. عندما ننظر إلى هذه الأشكال البسيطة للّغة، تختفي الغشاوة من أمام استعمالنا العادي للّغة. فنرى نشاطاتٍ وردّات فعلٍ واضحة وسهلة الفهم. وفي الوقت نفسه نجد في هذه العمليات البسيطة أشكالاً لغوية غير منفصلة عن أشكال أكثر تعقيداً. ونرى بأنه يمكننا أن نبني الأشكال المعقّدة باستعمال الأشكال البدائية وإضافة أشكال جديدة تدريجياً.

(Wittgenstein 1960: 17)

فكرة "الألعاب اللغوية" هي بالتالي فكرة **عملية**، وليست فئة "كفعل الكلام" أو "فعل قوّة التلفّظ"، كما، أنها ليست شيئاً في الخارج، فهي موجودة في عالم ظواهر الكلام. وهي ليست سوى أداة تحليل، وجهاز إرشاد، نستعمله لكي نفصل أوّلاً الحالات "البدائية" (وتعني كلمة "بدائية" هنا ما هو "بسيط" ولا تشير إلى أي نوعٍ من التطوّر). علينا أوّلاً أن نصبح خبراء في تحليل هذه الحالات البسيطة،

قبل أن ننظر إلى حالاتٍ أكثر تعقيداً. البساطة هي كلّ ما يقبل به فيتغنشتاين من الأساليب العلمية التقليدية. ويشدّد فيما تبقّى هنا وفي حالاتٍ أخرى على أهميّة المراقبة والوصف. علينا أن نقاوم تأثير العِلْمانية التي تقود إلى التعميم السريع. إذ يقودنا ذلك إلى التباساتٍ، لّأنه يعتمد على افتراضاتٍ خاطئة تقول بأنّ ما يحمل نفس الاسم له ميّزاتٌ مشتركة. علينا بالأحرى أن نعمل على وصف الحالات الفردية وأن نجد في ذلك متعة. عندما ندرس حالاتٍ فردية عن كثب، نتخلّص عندها من الالتباسات الّتي تحدث بسبب التفكير الخاطئ عن اللغة، مثل ميلنا إلى اعتبار المعنى صورة ذهنية مشتركة بين الجميع. يمكن استعمال استعارة "اللعبة" للتشديد على التشابه بين استعمالات اللغة والألعاب اللغوية، أي أنها قد تشترك في بعض الصفات، ولكن ليس بالضرورة. يمكننا أن نسمي "ألعاب" عدداً من النشاطات التي لا توجد بينها نفس الميزات أو القواعد، وبشكلٍ مماثل، يمكن أن نكتشف أنّ النشاطات اللغوية لا تشمل نفس المَيزات.

أصبح من الواضح الآن أنّ فيتغنشتاين يستعمل فكرة لعبة اللغة لمساندة بعض النقاط الأساسية في رؤيته للمعنى والتفسير. تشمل هذه النقاط الفكرة القائلة بأنّ الوصل بين الكلمات والأشياء لا يمكن أن يكون الأسلوب الأساسي لاكتساب اللغة، والملاحظة القائلة بأنّه يمكن لنفس الكلمة أو الجملة أن تكتسب معاني مختلفة بحسب النشاط الّذي يتمّ استعمالها فيه. ولكنّ فيتغنشتاين يستعمل الألعاب اللغوية أيضاً لنقد الفكرة القائلة بأنّ معنى عبارة لغوية موجودٌ فقط في ذهن الشخص. وهو يدعونا، باستعماله فكرة الألعاب اللغوية، إلى النظر إلى سياق ما يفعله المتكلّمون بالكلمات، ممّا يشكّل تبصّراً في ما يهتمّ به الأنثروبولوجيون الألسنيون. يعطي فيتغنشتاين في بداية **التحقيقات الفلسفية** مثلاً، حالة يعمل فيها المعماري مع مساعدٍ له. على المساعد

أن يمرّر الأحجار الملائمة إلى المعماري وفق الترتيب الّذي يطلبه منه. في هذا السياق، يجب فهم استعمال المعماري لكلماتٍ بسيطة مثل **طوبة وعمود ولوح وعارضة** كأمرٍ، أي كتعليماتٍ يعطيها لمساعده. اعتبر اللغويّون منذ فترة طويلة أنّه إذا أردنا أن نفسّر كيف يمكن لكلمة واحدة، في بعض السياقات، أن تُفهَم كأمرٍ، علينا أن نفترض بأنّ هذه الكلمة، **لوح!** مثلاً، تنوب عن جملة كاملة، مثلاً **أعطني لوحاً!** هذه عملية محوٍ يسمّيها النحويون **الحذف** (وهي نفس العملية الّتي تحدث في عباراتٍ مثل **أقبل** أو **أنا أيضاً**، حيث نفسّرها كإعادة مختلفة لما قيل للتو). يؤكد فيتغنشتاين أنّ تحليل الجمل ذات الكلمة الواحدة كجمل **حُذف** منها شيءٌ غير ضروري ويؤدّي إلى سخافات. لا توجد قوّة **لوح!** كأمرٍ في شكلها اللغوي فقط ـ والّذي يمكن لفظه بتشديدٍ أو دون ذلك ـ بل أيضاً **في العمل** الذي تتمّ تأديته.

> ليس في الجملة "حذفٌ" لأنّها لا تقول شيئاً نفكّر به عندما نتكلّم، بل لأنّها مقصَّرة ـ بالمقارنة مع نموذجٍ من نحونا.

(Wittgenstein 1958: 10)

بمعنى آخَر، حتّى تفسير معنى كلمة واحدة كشكلٍ مصغّر من عبارةٍ أكبر يشكّل لعبة لغوية، وهي اللعبة الّتي يلعبها النحويّون! ليس هناك من خطأ في هذه اللعبة اللغوية بالطبع، ولكنّها ليست سوى **واحدةٍ** من بين الكثير من اللعب اللغوية الممكنة الّتي تعطينا تفسيراً **للوح!** في سياق الواقع الموصوف أعلاه. يمكن تطبيق نفس نوع التحليل على استعمال التعريف المشار اليه ("كرسي" يعني "هذا" ـ بالإشارة إلى كرسي). يمكن استعمال التعاريف المشار اليها أيضاً لتفسير معنى الكلمات والجمل، ولكن يجب فهمها كجزءٍ من ألعاب لغوية روتينية كالتي نجدها في صفوف تعليم اللغات الأجنبية. يشير

الأستاذ إلى اللوح ويقول **لوح** (إذا كان يعلّم العربية) أو Lavagna (إذا كان يعلّم الإيطالية). هذه طريقة مجازة تماماً لتعليم الكلمات والمعاني، ولكن استعمالاتها محدودة وليست، بحسب فيتغنشتاين، أكثر بساطةً من غيرها. لنفكّر مثلاً بالروتين الّذي يستعمله الأستاذ، حيث يشير إلى نفسه ويقول **اسمي جون** ومن ثمّ يدور في الصف ويسأل التلاميذ **ما اسمك؟** يعود نجاح فعل كلامه إلى مدى نجاح الطلاّب في التكيف مع القواعد والتوقّعات الباطنة في أفعال الأستاذ. بالإضافة إلى وجوب فهم سؤال الأستاذ كطلبه لمعلومات وبالتالي لأداءٍ لغوي من قِبل التلميذ، هناك عددٌ من الافتراضات الثقافية والسياقية الباطنة، منها المعايير الأساسية لما يشكّل جواباً مناسباً. على التلاميذ مثلاً أن يقولوا شيئاً يناسب الكلمة العربية **اسم** في واقع الصف المعيّن. ويشكّل جواب الأستاذ عن سؤاله نموذجاً يجب اتّباعه (**اسمي جون**)، ولكنّه ليس بتوجيهٍ يمكن اتباعه عامّةً؛ فهو لا يحتوي على كلّ حالات اتّباع القاعدة (وبالتالي كلّ حالات **عدم** اتّباعها). على التلاميذ مثلاً أن يقرّروا أياً من أسمائهم الحقيقية أو المستعارة سيستعملون. يكون علي أنا مثلاً أن أختار بين Alessandro أو Sandro كجواب. ولا يستنفد هذا الخيار حتّى كلّ الاحتمالات الممكنة في سياق هذا الواقع. فقد يفسّر بعض التلاميذ النموذج **اسمي جون** كاقتراح يدعوهم إلى إعطاء اسم إنجليزي. فيصبح عندها يوسف Joseph ويصبح حنّا Johnny. ويكون عندي احتمالات أكثر، منها Alexander, Alex, Sandy[25]. تسمح هذه الخيارات بتحديد مكان الأستاذ والتلاميذ في شبكاتٍ مختلفة من المعارف وقد تشكّل موقفاً

(25) نلاحظ، عندما نحلّل بشكلٍ أعمق، أنّ ما يشكّل جواباً مناسباً أو مقبولاً لسؤال ما اسمك؟ ليس سوى الشرط للحصول على كلّ الأسماء الّتي قد تشكّل فئة طبيعية مع 'جون'. انظر (Sacks 1972).

معيّناً من شخصية المتكلّم في بلادٍ أجنبية ـ وذلك صعب بالنسبة للتلاميذ، وصعبٌ أيضاً بالنسبة لأساتذة اللغة الإنجليزية كلغةٍ أجنبية، وقد لا يكونون مهيئين للتعامل مع هذه الصعوبة. وأخيراً لا يمكن نقل عمل تبادل الأسماء في الصف إلى أماكن أخرى بسهولة، عندما تختلف الأهداف ويختلف المشاركون. فعندما يوقف شرطي تلميذاً مثلاً ويسأله عن هويّته، لا يمكنه استعمال نموذج **اسمي جون**. إذا أردنا أن نبدأ بفهم المعاني المختلفة الّتي يمكن أن يأخذها هذا القول، يكفي أن نبدأ بتصوّر عدّة أناسٍ يقولونها : تلميذ، أو أستاذ، أو نادل، أو طبيب، أو عاهرة. يمكننا في كلّ من هذه الحالات بناء لعبة لغويّة يشكّل فيها **اسمي جون** حركة مختلفة تؤدّي بالتالي إلى حركاتٍ أخرى مختلفة بدورها. بشكلٍ عام، يشكّل الكلام عملاً يشمل أشكالاً معيّنة من التعاون بين المشاركين في التفاعل.

> تسمح عبارة "لعبة لغوية" هنا بالإشارة إلى كون **الكلام** عن اللغة جزءاً من عمل أو من شكل حياة.
> (**التحقيقات الفلسفية**، المقطع 23)

يجد الإثنوغرافيون فكرة اللعبة اللغوية مفيدة، لأنّها تساعدهم على فهم التفسيرات اللغوية الّتي لا تتبع نماذج النحو الغربي الّتي تعطي تحديداتٍ للمفردات. فيستعمل رامسي (Rumsey) (1990) مثلاً فكرة اللعبة اللغوية لتفسير الأجوبة غير المنتظَرة الّتي أعطاها رجل نغارينييني (في شمال ـ غرب أوستراليا) عندما سأله عن معنى كلمة **بابا** (Baba). اعتقد رامزي هذه الكلمة كلمة توجّه في الكلام وحدّدها فيما بعد ككلمة نداء مثل Mamingi "والد والدتي"، "ابن أخ أمي"... إلخ. ولكنّ الرجل لم يعط الأنثروبولوجي التلخيص الّذي توقّعه، بل قال إنّ Baba تعني شيئاً "يشبه Janjuli ['أعطني']، أعطني تبغاً، أو ما يشبه ذلك".

لم يكن ما أعطاني إيّاه المعنى المراد أو كلمة إشارة، بل تعبيراً يوضّح دور هذه الكلمة العملي في سياق استعمال معيّن، فالمامنجي Mamingi شخصٌ يحقّ لي بأن أطلب أشياء منه. كان بالطبع من الممكن لهذا الرجل أن يتعلّم **لعبتي** الكلامية مع الوقت، الّتي تقضي بالتفسير **المرجعي** المتميّز عن التفسيرات العملية، كما كان من الممكن لي أن أفهم تفسيره مع الوقت بشكلٍ أفضل. ولكن لكي نفعل ذلك، توجّب علينا أن نضع جانباً طرقنا المعتادة في الكلام عن اللغة (Rumsey 1990: 353).

إذا كنا نتكلم عن لغة فعل، فإعطاء أقوالٍ عن اللغة هو أيضاً جزء من فعل يتبع نظريات محلية (أو "أيديولوجيات") عن العلاقة بين الكلمات والعالَم (Schieffelin, Woolard, and Kroskrity 1997; Silverstein 1979; Woolard and Schieffelin 1994). تسمح فكرة الألعاب اللغوية للباحثين الميدانيين أن يتعاملوا مع استراتيجيات تفسير مختلفة دون أن يستسلموا لفكرة عدم وجود تنظيم (أو منطق) يحدّد الأجوبة الّتي يحصلون عليها. تعتبر الألعاب اللّغوية، كوحدات تحليل، أنّ اللغة مجموعة غير مغلقة، ولكن يمكن تعلّمها والتعامل معها، من الممارسات الثقافية. ولكن هناك نوعين من الانتقاد لفكرة اللعبة اللغوية كوحدةٍ تحليلية :

(1) تشكّل اللعبة اللغوية فئةً عامّة جدّاً، ومن الصعب إذا أن نرى حالة **لا** يمكن تطبيقها. فهي تشمل استعمالات بسيطة واستعمالات كثيرة التعقيد للّغة. فكيف نميّز بينهما؟ كيف نعرف متى تبدأ لعبة لغويّة ما ومتى تنتهي؟

(2) تجعل فكرة اللعبة اللغوية مع رفضها لأي معنى "أساسي" في العبارات اللغوية، من غير الممكن إعطاء تعميماتٍ عن تركيبة اللغة واستعمالها.

يمكن الجواب عن النقد الأوّل بالقول، كما قلنا أعلاه، بأنّ فيتغنشتاين كان يعتبر الألعاب اللغوية أنواعاً بسيطة من النشاطات اللغوية. وتشكّل دراسة هذه النشاطات البسيطة شرطاً مسبقاً لدراسة وقائع الحياة الأكثر تعقيداً. ما تحتاج إليه نظرية فيتغنشتاين هي طريقةٌ أفضل لوضع حدود هذه الحالات. ما دمنا نخلق أمثلتنا الخاصّة وحالاتٍ خيالية، فلن نستطيع أن نعرف ما إذا كانت البساطة في الحالة الواقعية أم في نظر المراقب. يجب إضافة الأساليب الإثنوغرافية وتقنيّات النسخ الّتي وصفناها في الفصلَين 4 و5 إلى منهج فيتغنشتاين.

أمّا بالنسبة إلى الانتقاد الثاني، فيجب الإشارة إلى أنّ فيتغنشتاين لم يكن في الحقيقة يهتمّ بتقديم نظرية منظّمة للّغة كفعل مثل ما فعله أوستن. فكان يهتمّ أكثر **بممارسة** التحليل الفلسفي ـ اللغوي أكثر من نتائجه، الّتي تُستعمَل كمعرفةٍ محدّدة. أراد بالأخصّ في فلسفته الأخيرة أن يتخلّص من الحدود أو أن يظهر أنّ الحدود صناعية أو مؤقّتة. يشكّل الجدال الفلسفي نفسه نوعاً من النشاط الّذي نقوم به، وهو ليس بالضرورة الأكثر منطقية أو صالح لتفسير كلّ النشاطات الأخرى، بما في ذلك استعمال اللغة. إن ما يحاول إيصاله هو أنّه لا وجود لنظريّةٍ واحدة تعني كلّ شيء، فالوصف الّذي يتناسق مع سياقٍ معيّن قد لا يتناسق مع سياقٍ آخَر. تشكّل الفلسفة عملاً تفسيرياً يرينا عدّة أوجهٍ للأشياء، وعدّة احتمالاتٍ لكيان الأشياء في العالم ولكونها ذات معنىً. لا يعني ذلك التخلّي عن وصف الظواهر اللغوية، بل على العكس، التفكير بالوصف اللغوي كعملٍ متتابعٍ ومفتوح، يساعدنا على توضيح أهدافنا وافتراضاتنا المسبَقة، وهو بالتالي أداة لا يستغنى عنها لفهم الإنسان.

5.7. خاتمة

قال أوستن إنّه "ما علينا توضيحه في آخر المطاف، هو **فقط** فعل الكلام الكامل في الوضع الكامل" (Austin 1962: 147). يشكّل هذا القول برنامجاً لنظرية اللغة كفعل. لقد قدّمتُ في هذا الفصل ثلاثة اقتراحاتٍ لإنشاء هذا البرنامج : نظرية فعل الكلام، نظرة إثنوغرافية للكلام كفعل، وبرنامج فيتغنشتاين لفلسفة لغةٍ تهتمّ بالنشاطات. تملك هذه النماذج نقاطاً متشابهة واختلافات. فراجعتُ وقارنتُ بعض هذه التشابهات والاختلافات، ليس فقط لإيجاد علاقاتٍ تاريخية وعقلية بينها، بل أيضاً للسعي إلى وضع أسس محادثةٍ بينها مؤسَسة على أفكارٍ تأتي من الأبحاث التجريبية.

لا يعني قبول تعقيد مسألةٍ أن نتخلّى عن أي أملٍ بفهمها. بشكلٍ مماثل، لا يعني قبول انتساب أساليبنا ونظرياتنا إلى تاريخٍ معيّن أن نقبل بالقول بأنّ كلّ النظريات صحيحة أو أنّ أي تفسيرٍ مقبول. يمكن بالتأكيد إعطاء أي تفسيرٍ ممكن، حتّى التفسير القائل بأنّه تمّت كتابة كلّ هذا الفصل على كمبيوتر. ولكنّنا كأشخاصٍ نستطيع أن نحادث ونقابل ونقيّم وجهات نظرٍ مختلفة. ما يحتاج مجالٌ علمي دراسي إلى أن يفعله هو إعطاء من يمارسه مجموعة من المعايير تساعده على القيام بهذا التقييم ومراجعته عند الحاجة. ما يشكّل إحدى وسائل التقييم للأنثروبولوجيا الألسنية هي درجة مساعدة نموذج لدراسة اللغة كفعلٍ في فهمنا للنشاطات اللغوية كممارساتٍ ثقافية. كما رأينا في هذا الفصل، تشكّل نظرية فعل الكلام نقطة بدايةٍ مهمّة لهذا المشروع، ولكنّها تقتصر على ممارسة التحليل الّذي يختصّ بالمتكلّمين الفرديين، والأقوال الفردية والنيّات الفردية. ويمكن انتقاد وجهة النظر هذه من وجهة نظرٍ نظرية محضة (فيتغنشتاين) وبالاعتماد على تحقيقاتٍ تجريبية تعتمد على مقارنة الثقافات (روزالدو). يدرس

فيتغنشتاين نواحي من معاني اللغة وعملية التفسير بطريقة تقارب الدراسات الإثنوغرافية للممارسات اللغوية، ولكنّها لا تتحدّث عن فعاليّة هذه الدراسة إذا ما تمّت مقابلتها ببياناتٍ مأخوذة من عالم الواقع. ما ردّده فيتغنشتاين، داعياً إيّانا إلى النظر إلى كيفيّة استعمال اللغة إذا ما أردنا فهم ما تعني العبارات اللغوية، لم يتمّ اعتماده أبداً بشكلٍ كامل في الفلسفة، حيث نجد الجدال يقارن دائماً سياقاتٍ متخيَّلة. ولكن تمّ اعتماد بعض أفكاره في محاولاتٍ لاحقة لدراسة النشاطات اللغوية بالبدء بشكلٍ دائم من حالاتٍ واقعية. سننظر عن كثب إلى هذه المحاولات في الفصلَين القادمَيْن، حيث سأدرس وحدات التفاعل ووحدات المشاركة.

الفصل الثامن

التبادلات الحوارية

تشير فكرة فيتغنشتاين **للّعبة اللغوية** الّتي تحدّثنا عنها في الفصل السابق إلى شيء تهمله عادةً الدراسات الّتي تنظر إلى أفعال الكلام الفردية: فالكلام المتبادل، يشمل التناوب بين متكلّمين مختلفين. لا يعطي الناس بشكلٍ مباشر أسئلة وأجوبة وأوامر ووعوداً واعتذارات، بل يبنون ويشاركون سويّاً في تبادلاتٍ تشمل أجزاء مختلفة، يحصل كلٌّ منها على معناه من موقعه في سلسلة أفعال.

لنأخذ التحيّات مثلاً. يمكننا أن نعطي قائمة من العبارات يستعملها الناس للتحيّة. يستعمل الإنجليز مثلاً hello, hi, how are you, see you later, have a nice day, good-bye (أهلاً، مرحباً، يا هلا، كيف حالك، أرجو أن تمضي يوماً جميلاً، إلى اللقاء). ولكن لكي نفهم كيف تعمل هذه العبارات فعلاً، علينا أن ننظر إليها كأجزاء من وحداتٍ أكبر، غالباً في سلسلة من التبادل بين متكلمَيْن مختلفَين، أي أنّها منظّمة في ثنائيات. فيقول شخصٌ ما شيئاً ويردّ عليه آخر يؤثر ما يقوله الأوّل في الثاني وينتظر منه أن يجيب. بشكلٍ عام، لا يتألّف الكلام الأكثر استعمالاً في الحياة اليومية من كلماتٍ فردية، أو من جملٍ أو من مونولوج، بل من **سلسلاتٍ** من الأقوال

القصيرة تأتي من متكلّمين مختلفين يعرفون متى عليهم أن يتكلّموا وكيفية التنسيق بين ما يقولونه وما يسمعونه قبل كلامهم.

أهمل الأنثروبولوجيون واللغويون لوقتٍ طويل دراسة المحادثة. فكان اللغويون يعتقدون بأنّ المحادثة مليئة بالاضطراب، وببدايات جملٍ خاطئة لا تحترم قواعد اللغة، ولا يمكنها بالتالي إعطاء مجموعة بياناتٍ تسمح بتحليل النحو بشكلٍ منظّم. وحتّى اللغويون الاجتماعيون من أمثال لابوف، الّذين اهتمّوا دوماً باستعمال اللغة الفعلي، يفضّلون المقابلات، وهي بالطبع كالمحادثات، ولكن لها تنظيمها الخاص (لأن أحد المتكلّمين يتحكّم باتّجاه الكلام).

بالرغم من أنّ الأنثروبولوجيين كانوا قد اهتمّوا منذ وقتٍ طويل بالتبادلات وبالتالي بسلسلات الأفعال بين الأفراد والجماعات، فإنهم حتى وقت قريب، يتجنّبون عادة المحادثة كموضوع دراسة لدى دراستهم للّغة. وكان الإثنوغرافيون ينظرون إلى الكلمات والعبارات الفردية (لكي يحصلوا على تصنيف العلاقات العائلية، والأمراض... إلخ) أو يجمعون القصص والخرافات الّتي يرويها شخصٌ واحد لشخصٍ آخر عادةً (غالباً الباحث الميداني). وحتّى الباحثون العاملون في إثنوغرافيا التبادل التقليدية (انظر الفقرتَين 1.3.1. و2.9.)، كانوا قد ركّزوا عملهم لمدّة طويلة على ما هو فردي، كالخطابة، والشعر، والروايات الشخصية الّتي تروى للإثنوغرافيين. شكّلت التبادلات التحادثية مصدراً مهمّاً للمعلومات لكلّ من اهتمّ بالممارسات الثقافية والتنظيم الاجتماعي، ولكنّ التحادث نفسه لم يصبح موضوع دراسةٍ خاصّة قبل بداية السبعينات. ويعود ذلك إلى جماعة صغيرة من علماء الاجتماع ـ أكثرهم شهرةً هارفي ساكس وإيمانويل شيغلوف ـ الّذين ركّزوا عملهم على التبادلات التحادثية كحقل معركة لتحدّي الافتراضات الشائعة عن تنظيم المجتمع ووحدات التحليل المستعملة

لدراسته. وقد سمّوا برنامج عملهم "بتحليل التحادث" للتشديد على كون التحادث موضوعاً منطقياً للتحقيق الاجتماعي[1]، وبدأوا مشروع أبحاثٍ ما زال يتطوّر اليوم بالرغم من موت هارفي ساكس المأسوي في حادث سيارة في سنة 1975. ينظر علماء الاجتماع ذوو الاتّجاه العام إلى عملهم ببعض الشك ـ خاصّةً الّذين يعتبرون التبادل الشفوي اليومي متغيّرة تابعة وبالتالي تحت تأثير سياقاتٍ وقوىً اجتماعية أكثر أهمية (كالتركيبات الاقتصادية، والمؤسسات السياسية والقانونية) ـ ولكنّ أبحاث محلّلي التحادث قد أثّرت كثيراً في الّذين يهتمّون بكيفية استعمال اللغة في التفاعل الاجتماعي، ومنهم الأنثروبولوجيون. وقد أضحت مصطلحات محلّلي التحادث، **كأخذ دور والأرضية والأزواج المتجاورة والتصليح والتفضيل** جزءاً من أدوات الباحثين المهتمّين بوحدات تحليل أكبر من الجمل الفردية أو أفعال الكلام الفردية. سأراجع في هذا الفصل بعض الوحدات الأساسية الّتي ابتكرها محلّلو التحادث، وسأتحدّث عن افتراضاتهم المعرفية بالمقارنة مع النحويين والإثنوغرافيين. كما قلت وكما حصل مع المقاربات والنماذج الأخرى في هذا الكتاب، لن يمكنني في هذه الحالة أيضاً أن أتكلّم بشكلٍ شامل عن كلّ المساهمات الّتي قامت بها في السنوات العشرين الماضية مجموعة صغيرة ونشيطة من العلماء الذين يُعتَبرون محلّلي التحادث "الأكثر إلحاحاً"[2]. سأقصر

---

(1) "[نجد في محاضرات ساكس في 1964-1965] إدراكه المميّز والنقدي الخالص... أنّه يمكن تفحّص الكلام كموضوعٍ مستقلّ، وليس فقط كشاشةٍ نعرض عليها عملياتٍ أخرى، إن كانت مشاكل من نظام بايل أو استراتيجيات شوتز التفسيرية، أو أساليب الفطرة السليمة لدى غارفينكل. كان الكلام نفسه الفعل، وكانت التفاصيل الّتي لم تلاحَظ في الماضي مصادر أساسية للقيام بالأفعال في وبواسطة الكلام؛ وكلّ ذلك في أحداث حصلت بشكلٍ طبيعي، دون أي تلاعبٍ فيها" (Schegloff 1992a: xviii).

(2) يمكن قراءة تقديم مطوّل لتحليل التحادث في عمل ليفينسون (1983: الفصل =

بالأحرى عملي على موضوعَين : (1) "وحدات التحليل" الّتي ابتكرها محلّلو التحادث، و(2) نقد تحليل التحادث من قِبل أنثروبولوجيين وغيرهم من علماء الاجتماع، عارضوا ما يعتبرونه التركيز "المحدود" والنقص في الاستعمال الكامل للأساليب الإثنوغرافية.

1.8. الطبيعة التسلسلية لوحدات المحادثة

منذ البداية، شارك محلّلو التحادث مالينوفسكي وأوستن وسيرل وفيتغنشتاين في رؤيتهم للكلام نفسه كفعلٍ اجتماعي. ولكنّ طريقة دراسة محلّلي التحادث للّغة كشكلٍ من الفعل الاجتماعي كانت إبداعية وابتكرت أساليب ومفاهيم غيّرت بشكلٍ لا رجوع عنه طريقة تفكير الكثير من العلماء باللغة. تتضمّن فكرتهم الجديدة الأولى شرطاً منهجياً بسيطاً يقضي باستعمال تسجيلات لأحاديث "تحصل طبيعياً"، أي أحاديث حصلت في وضعٍ لم يحدّده ويخطّط له المحقّقون (كما يحصل في المقابلات الإثنوغرافية أو عندما يُطلب من الناس أن يلعبوا أدواراً معينة). يعتبر محلّلو التحادث آراء الأعضاء عن تصرّفاتهم الخاصة كغيرها من البيانات الّتي يجب الكلام عنها (ويفسّر ذلك لماذا لا يعتمد محلّلو التحادث عادةً على مقابلاتٍ لمعرفة ما يفعله المشاركون بالكلمات). يقضي هذا الأسلوب بتحليلٍ منهجي لما يفعله الناس باللغة في مختلف الحالات.

ثانياً، بدلاً من الابتداء باستعمال عددٍ من الأفكار **كالوضع والعلاقة الاجتماعية والدور والحالة**، بدأ محلّلو التحادث بفصل أنواع

= 6). انظر أيضاً (Coulthard 1977: ch. 4) و (Schiffrin 1994: ch. 7). لمراجعة عن الميّزات الأساسية لتحليل التحادث من قبل شخصَين يقومان بهذا النوع من التحليل، انظر (Goodwin and Heritage (1990)).

متكرّرة من الكلام وبأسئلة مثل "ماذا يفعلون الآن؟" يعني ذلك أنّهم يعتبرون ما يقال **أشياء اجتماعية**، أي تركيباتٍ أو حركاتٍ ينظّم الناس تفاعلاتهم من حولها.

كانت أولى التبادلات التحادثية الّتي اهتمّ بها ساكس الاتّصالات التلفونية بمركز منع الانتحار في لوس أنجلوس[3]. بدأ ساكس باستخراج أجزاء من نسخ شرائط هذه الاتّصالات لاحتوائها على ظاهراتٍ لفتت انتباهه. إليكم بعضاً منها كما استعلمها في محاضراته:

(1) أ : مرحباً

ب : مرحباً

(2) أ : أنا السيد سميث، هل بإمكاني مساعدتك؟

ب : أجل، أنا السيد براون

(3) أ : أنا السيد سميث، هل بامكاني مساعدتك

ب : أنا لا أستطيع سماعك

أ : أنا السيد سميث

ب : سميث

أكّد ساكس أنّ طريقة ترتيب هذه التبادلات تُظهر ميّزة مهمّة للتفاعل الشفوي، وهي أنّ التواصل منظّمٌ بشكلٍ **تسلسلي**. تشمل

---

(3) "ساعد غارفينكل ساكس لكي ينتقل إلى لوس أنجلوس في سنة 1963. عُيّن بروفيسوراً مساعداً في علم النفس في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، مع سنةٍ أولى دون عمل. في تلك السنة، 1963-1964، عمل غارفينكل وساكس كأعضاء جامعيين في مركز الدراسة العلمية للانتحار في لوس أنجلوس، بضمانٍ مالي من مديرها، إيدوين شنايديمان" (Schegloff 1992a: xv).

هذه الفكرة مفهوم سوسور لعلاقات العبارات (انظر الفقرة 1.6.).
اهتمّ سوسور **بالسلسلة المحكية**، كعناصر متتابعة تكمّل بعضها وتُستعمل لتركيب وحداتٍ من مستوى أعلى. اهتمّ سوسور والّذين طوّروا من بعده أفكاره الرئيسية عن البنية اللغوية بكيفية استعمال علاقات الترابط في مختلف المستويات النحوية. فتبنى سلسلة الفونيمات التي تبني الكلمات، وتبني سلسلاتُ الكلمات الجمل. في النهاية، اهتمّ بعض اللغويين ببنية الجمل للمقاطع وغيرها من الوحدات الأكبر، انظر (Brown and Yule 1983; Schiffrin 1994).
وأدخلت دراسة التبادلات التحادثية وجهاً آخر للتسلسل، هو **تسلسل المتكلّمين**. أظهر ساكس وزملاؤه أنّ هذا التسلسل يوازي في تنظيمه ومنهجيته سلاسل الفونيمات الّتي يدرسها علماء الصوتيات وسلاسل الكلمات الّتي يدرسها علماء تركيب الجملة. ويسمّون هذا التنظيم **نظام أخذ ـ الدور** (Sacks, Schegloff, and Jefferson 1974).
تطوّرت دراسته لتصبح أساسية بالنسبة لمحلّلي التحادث، الّذين سحرتهم المبادئ الّتي تمكّن المشاركين في محادثةٍ من التناوب في الكلام بشكلٍ منظّم، لكي يتجنّبوا الكلام في الوقت نفسه ("التداخل") والصمت ("الفراغ"). فأصبح مبدأ التبادل التحادثي العام (والمبسّط) معروفاً **بلا فراغ ولا تداخل**. كيف يمكن لنظام كهذا أن يعمل؟ كيف يمكن للمشاركين أن يتقنوا بهذا الشكل كيفية تنسيق أعمالهم، فيعرفون متى يبدأون بالكلام ومتى يتوقّفون عن الكلام؟ قد تكون احدى الطرق للوصول إلى ذلك تحديدهم منذ البداية تنظيم الكلام. فقد يقرّر المشاركون (أو شخصٌ آخر) أن يتكلّموا بحسب الرتب المعطاة لهم بشكلٍ مستقلّ، أو بحسب فئات الأشخاص، فقد يشكّل العمر والجنس مثلاً العامل المحدّد. في حالاتٍ أخرى، قد يكون الانتماء السياسي وراء هذا العامل. بالرغم من وجود هذه الأنظمة **الـ ما قبل ـ** التحذير (أي أنظمة أخذ ـ

الدور الّتي يتمّ تحديد الترتيب في ها قبل الكلام) ـ في المحاكم واللقاءات السياسية والمناقشات، والمقابلات... إلخ ـ يقرَّر في معظم الأحيان تتابع المتكلّمين ومدّة كلامهم من داخل التفاعل نفسه.

ابتداءً من ملاحظتهم التجريبية بأنّ المتكلّمين في محادثةٍ يتناوبون الكلام، وذلك من دون فراغٍ يُذكَر ومن دون تداخل يُذْكر، اقترح ساكس وزملاؤه مجموعةً من القوانين تفسّر هذه الانتقالات السلسة. لهذه القوانين مكوّنَان : (1) **عنصر بناء الدور** و(2) **عنصر تحذير الدور**.

يحدّد عنصر بناء الدور نوع **الوحدات** الّتي يمكن للمتكلّم أن يستعملها في مشاركته بالحديث. تتطابق هذه الوحدات مع ما يسمّيه اللغويّون بالأقوال ويشمل نطاقُها كلّ ما نجده ابتداءً من الكلمات ـ مثل **مرحباً** في (أ) أعلاه ـ وإلى جمل كاملة مثل **أنا لا أستطيع سماعك** في (3) أعلاه، ولها فاعل (أنا)، فعل (لا أستطيع) ومفعول به (سماعك). إن للمتكلّم "دوراً" في هذه الوحدة. تكمن إحدى ميّزات الوحدة في أنها تسمح للسامع عندما يبدأ **بالتصوّر**، أي بتوقّع نهايتها. ويسمّي محلّلو الحوار نقطة نهايتها **نقطة الانتقال المناسب**، لأنّها النقطة الّتي يمكن عندها (وإن لم يكن من الضروري) الانتقال من متكلّم إلى آخر. يفسّر هذا العنصر كيف ينجح المتكلّمون بمعرفة متى يمكنهم الكلام، ولماذا تحصل التداخلات. في بعض الأحيان، يحصل تدخل المتكلّم التالي لأنّ نقطة الانتقال الممكنة، كما يمكن تكهّنها من كلام المتكلّم الأوّل، تأخّرت لسببٍ ما. نرى ذلك في (4) أدناه، حيث تطول الكلمة الأخيرة في التحوّل بشكلٍ غير متوقَّع، فتتداخل مع بداية دور المتكلّم التالي (انظر "مصطلحات النسخ" في الفقرة 5.5.).

(4) ب. حسناً، ولكن ليس أنا : :

[

كلاّ، ولكنّك تعرف من هو.

(Sacks et al. 1978: 17)

يحدّد عنصر تحذير الدور كيفية اختيار المتكلّم التالي. هناك تقنيّتان : (1) يختار المتكلّم الحالي المتكلّم التالي (يسمّى ذلك **اختيار الآخَر**)، و(2) يختار المتكلّم التالي نفسه (**اختيار النفس**). اقترح محلّلو الحوار القوانين المنظّمة التالية لتفسير كيفية اختيار المتكلّم :

(1) يمكن للمتكلّم الحالي أن يختار من يتكلّم بعده، وفي هذه الحالة يحقّ للشخص الثاني ويتوجّب عليه أن يتكلّم بعده (عند نقطة الانتقال المناسبة)؛

(2) إذا لم يختر المتكلّم الحالي المتكلّم التالي، هناك احتمالان عند الوصول إلى نقطة الانتقال المناسبة : (أ) قد يختار شخصٌ ما نفسَه ليتكلّم؛ أو (ب) إذا لم يختر أحدٌ نفسه، قد يتابع المتكلّم الحالي كلامه (أو قد يتكلّم المتكلّم الأخير من جديد).

تفسّر هذه القواعد الانتقال السلس من متكلّم إلى آخَر وحالات الكلام المتزامن. ففي (5) يمكن تفسير يبدأ فيك وجيمس بالكلام في الوقت نفسه بواسطة القاعدة (2أ). بما أنّ دور مايك لا يختار المتكلّم التالي (القاعدة [1])، يُسمح لمتكلّمين آخرين أن يختاروا أنفسهم، ويفعلون ذلك مباشرةً بعد نقطة الانتقال المناسب، أي بعد قول مايك **أعرف من هو الشاب**:

(5) مايك : أعرف من هو الشاب.=

فيك : هو أ: :لع.

]=

جيمس : تعرف الشا:ب؟ (Sacks et al. 1978: 16)

هذا المنهج فعّالٌ جدّاً، ولا يفسّر فقط كيف تحصل التفاعلات التحادثية بشكلٍ سلس، بل أيضاً ما يجعلها تتماثل وتختلف عن غيرها من **أنظمة التبادل الكلامي**، أي المقابلات والنقاشات والمؤتمرات الصحفية والصف المدرسي والمحاكمات والطقوس الدينية وغيرها (Sacks, Schegloff, and Jefferson 1978: 45). في الكثير من الأحداث الّتي نسمّيها "بالرسمية" مثلاً، يتمّ تحديد تناوب المتكلّمين مسبقاً، كليّاً أو جزئياً (Atkinson and Drew 1979; Drew and Heritage 1992; Duranti 1981, 1994a; Irvine 1979). ولكن حتّى في هذه الحالات، قد تتطبّق القواعد الّتي يقترحها محلّلو الحوار، لأن المشاركين بحاجةٍ إلى طرقٍ لمعرفة متى يبدأون وينهون كلامهم، وقد يحتاجون إلى تجنّب الصمت الطويل أو التداخل.

يتعامل محلّلو الحوار مع نظام أخذ الدور كشكلٍ من النظام الاجتماعي[4]. يجدون هذا النظام لافتاً للانتباه لأنه يمكن وصفه دون الاعتماد على أفكارٍ مسبَقة عن ما يشكّل التركيبة الاجتماعية. يقول محلّلو التحادث إنّهم استخرجوا المفاهيم والقواعد الّتي يقترحون استعمالها من البيانات نفسها، أي من ما يقوم به المشاركون بالفعل، وما يظهره المشاركون أنفسهم بالنسبة **لتوجّهاتهم**.

---

(4) كتب شيغلوف (Schegloff) مثلاً (1991 : 46): "يهتمّ العمل الّذي يركّز على تنظيم الكلام في التفاعل... بالتنظيم الاجتماعي والتركيبات الاجتماعية أيضاً، ولو بشكلٍ يختلف عن ما تعنيه هذه المصطلحات عادةً [في علم الاجتماع التقليدي]، وهو بدوره اجتماعي في توجّهاته وأهميّته...".

أدى النظر إلى الحوارات وتنظيمها التسلسلي إلى الاستنتاج أنّ التحادث ينظّم عادةً في وحداتٍ أكبر من الكلام والدور وفعل الكلام الفردي. لاحظ ساكس مثلاً (المحاضرة 1، خريف 1964) أنّ بعض الأقوال الّتي تفوه بها المتكلّم تدعو إلى إعطاء جوابٍ معيّن من قبل متكلّم آخَر. إذا قال شخصٌ **مرحباً**، يمكن للآخر أن يقول **مرحباً** أيضاً كما في (1) أعلاه، إذا أعطى شخصٌ اسمه كما في (2) أعلاه، يعطي الآخر عادةً اسمه أيضاً عند مجيء دوره، وإذا قال متكلّم **لا أستطيع سماعك** كما في (3)، يكرّر عادةً الآخرُ ما قاله من قبل. ابتكر ساكس وزملاؤه مصطلحَين للكلام عن هذه السلسلات الّتي تتضمّن دورَيْن: فكرة **الأزواج المتجاورة** وفكرة **التفضيل**.

1.1.8. الأزواج المتجاورة

تتألّف الأزواج المتجاورة من قولَين، متجاورين الواحد بعد الآخر، ينتجهما متكلّمان مختلفان (Schegloff and Sacks [1973] 1984: 74). ويمكن تصنيف الأزواج المتجاوِرة بالنسبة لـ (1) نوع الأقوال الّتي تشكّل جزأيهما (الجزء الاول للزوج والجزء الثاني للزوج)، و(2) نوع الزوج الّذي يشكله الجزءان معاً. فنرى في المثل (1) أعلاه مثلاً ـ ونكرّره في (6) أدناه ـ زوجاً متجاوراً حيث الجزء الأوّل والجزء الثاني يمثّلان تحية (**مرحباً**)، ويشكّل كلّ الزوج تبادل تحيّة (انظر المزيد عن ذلك فيما بعد في هذه الفقرة).

(6) أ: مرحباً (جزء الزوج الأوّل)

ب : مرحباً (جزء الزوج الثاني)

نجد نوعاً مماثلاً من الأزواج المتجاورة في التحية من الجهتَيْن في التحيّة النهائية (في الإنجليزية) إلى **اللقاء/ إلى اللقاء** وفي الإيطالية

ciao/ciao، كما نرى في التبادل التالي في نهاية محادثة تلفونية[5]:

(7) رو : salutami:// le figlie

قل مرحباً لابنتك

[

ري : grazie. Pure a voi. Tutti

شكراً. ولجميعكم أيضاً.

[

رو : grazie

شكراً.

ciao

إلى اللقاء

]

ciao[6]

إلى اللقاء. ("ريتا 1")

ولكن لا نجد في كلّ التحيّات وكلّ الأزواج المتجاورة كلماتٍ أو أنواع أقوالٍ متطابقة. فيتبادل الناس التحيّات في الكثير من المجتمعات مثلاً باستعمال أسئلة وأجوبة. إليكم مثلاً من الكاسيغاو، وهي لغة بانتوية من كينيا الجنوبية (Milton 1982)[7]:

---

(5) استخرج المؤلّف هذا المثل والأمثال التي تتبعه من محادثاتٍ تلفونية إيطالية سجّلها في إيطاليا في سنتَي 1987 و1988.

(6) يمكن تفسير التداخل في التحية الأخيرة بواسطة نظام أخذ الدور الّذي تحدّثنا عنه من قبل. في هذه الحالة، وبما أنّ قول رو **شكراً** يتألّف من كلمة واحدة في دورها، كان من المفروض أن تقول ري **إلى اللقاء** في مكان إمكانية الانتقال، لو لم تقرّر رو أن تتابع بقولها **إلى اللقاء**.

(7) لدراسةٍ عامة عن أنواع التحيات وبيبليوغرافيا من المراجع، انظر (Duranti 1992).

(8) أ : واووكا؟ (أوّل جزء من الزوج : تحيّة بسؤال)
هل استفقت (جيّداً)؟
ب : ناووكا (الجزء الثاني من الزوج : تحيّة بجواب)
قد استفقتُ (جيّداً).

عندما نبحث عن أزواج متجاورة في الحوارات، نجد أنواعاً كثيرة منها. إليكم بعض الأمثلة:

سؤال/ جواب:

(9) أ : ما اسم هذا اللون؟
ب : أحمر (Merritt 1982: 235)

(10) أ : phÿ: raw :ch ʕaraj
والد ضمير اسم ما
"ما اسم والدك؟"
ب : sǻ na:j inta : khap
لقب اسم علَم اسم العائلة
"ناي إنتا سانغياي (Moerman 1988: 157)

اقتراح/ قبول

(11) أ : هل تريد بعض الجزر؟
ب : أجل. (Merritt 1982: 234)

اقتراح/ رفض:

(12) أ أ : هل تريد ساندويش؟
ب : كلاّ، شكراً. (Pomerantz 1978: 87)

تهنئة/ قبول

(13) أ : هذا جميل جدّاً.
ب : شكراً. (Pomerantz 1978: 84)

تقييم/ قبول:

(14) أ : هذا رائع
ب : إليس كذلك (Pomerantz 1978: 94)

تقييم/ معارضة

(15) أ : لقطة جيّدة
ب : ولكنّها غير ثابتة كفاية (Pomerantz 1978: 99)

ابتداء / جواب

(16) أ : سمّيتُ الجرّار "ممم"...
ب : آلة. (Mehan 1979: 42)

تشكّل فكرة الأزواج المتجاورة ابتكاراً مهمّاً بالنسبة لفكرة فعل الكلام الّتي اقترحها أوستن وسيرل، وذلك لعدّة أسباب. تعود بعض الاختلافات بين أفعال الكلام والأزواج المتجاورة إلى أن الأخيرة وحدات أكثر تعقيداً من قولٍ واحد أو فعلِ كلامٍ واحد. بالرغم من أنّ عمل أوستن ذهب بهذا الاتّجاه نوعاً ما، فإن فكرة التنفيذ واعتقاده الفطري بأنّ بعض أنواع أفعال الكلام كالمراهنة تحتاج إلى جوابٍ أو قبولٍ لكي تنجح (انظر الفقرة 7.1.1.)، تأخذ نظرية فعل الكلام بشكلٍ عام أفعال الكلام الفردية الّتي يُصدرها الأفراد كوحدات تحليلٍ لها[8]. وتحدَّد قوّة فعل قوّة التلفّظ وشروط نجاحه عادةً كما تقيَّم بشكلٍ مستقلّ عن أفعال الكلام الأخرى، بالأخصّ تلك الّتي تتبع أفعال الكلام. ولكنّ تحليل وحداتٍ أكبر من فعل قولٍ/ كلامٍ واحد، مثل الأزواج المتجاورة، يزوّدنا بتبصّرٍ مهم بتلك النواحي اللغوية الّتي سعت نظرية فعل الكلام إلى دراستها. إذا كنّا بالفعل نهتمّ

(8) ابتكر سيرل (1990) مؤخّراً، في كلامه عن "المراد الجماعي"، فكرة تشير إلى أنواع "أفعالٍ" أكثر تعقيداً وجماعية، ولكنّه يعتبرها حالات استثنائية، تختلف عن الأسئلة والأجوبة والتقديم... إلخ.

بما **يفعله** الكلام، فمن الأساسي عندها أن ننظر إلى ردّات فعل المتكلّمين على ما يقال لهم. وهذا ما لا يفعله علماء فعل الكلام.

في نظرية فعل الكلام، يجب وصف قوّة القول بالنسبة لشروطٍ معيّنة تصف سياقاً يوجد عادةً قبل أو مع بالنسبة لنتائجه وتأثيره. فيعود ذلك إلى فعل أثر التلفّظ وهو الفعل الأقلّ تطوراً بين الأفعال الثلاثة التي طرحها أوستن. وبالتالي يتمّ تحديد ما يقال عن شخصٍ ما كتهنئة، في نظرية فعل الكلام، إذا توفّرت شروطٌ مسبقة.

> التهنئة موافقة السامع لشيءٍ عمله. تفترض التهنئة مسبَقاً أنّ الشيء الّذي تتمّ تهنئة السامع من أجله يفيده. فيمكن تهنئته مثلاً على تصرّفه البطولي أو تضحيته (Searle and Vanderveken 1985: 215).

الشروط الّتي نجدها في تعريف سيرل وفاندرفيكين مهمّة للتمييز بين التهنئة وغيرها من أفعال الكلام المشابهة، مثل المدح، ولكنّها تضع التهنئة بشكلٍ شبه حصري في إطار (1) تقييم إيجابيات "الشيء" الّذي يتمّ تقييمه، و(2) العلاقة الموجودة مسبَقاً بين "الشيء" والسامع. من جهةٍ أخرى، تسمح مراقبة ما **تفعله** التهنئة. كما أظهرت أنيتا بوميرانتز (Anita Pomerantz) (1978)، الّتي درست التهنئة في المحادثة، لا تقتصر التهنئة على وصف الموافقة، بل هي تخلق أيضاً "مشكلة" للسامعين الذين يواجهون عندها نزاعاً بين مبدأين عامين للتفاعل حدّدهما محلّلو المحادثة، وهما تفضيل الموافقة وتجنّب مدح النفس (في ما يتعلّق بمفهوم "التفضيل"، انظر الفقرة 2.8.). يعني قبول التهنئة أن يتبع الشخص تفضيل الموافقة مع من يحادثه، ولكنّه ينتهك عندها رفض مدح النفس. أمّا رفض التهنئة فيقود إلى عكس ذلك، فيتجنّب الشخص مدح النفس، ولكنّه ينتهك تفضيل الموافقة. تمكّنت بوميرانتز، بفضل دراستها لما يفعله

المتكلّمون بهذا التنازع في الحديث، من تحديد استراتيجيتَيْن: **تخفيض المدح** (انظر المثلَيْن [14] و[15] أعلاه) و**تغيير المرجع**. يعني "تغيير المرجع" أنّ الّذي يحصل على التهنئة يجيب بإعادة تحديد من يُمدَح:

(17)[يمدح أ ب] (أوّل جزءٍ من الزوج)
[يمدح ب شخصاً غير نفسه] (ثاني جزءٍ من الزوج)

يشكّل ذلك "حلاًّ" للنزاع بين الموافقة وتجنّب مدح النفس، لأنّ المتكلّم ب يغيّر اتّجاه المدح دون أن يعارض التقييم الإيجابي الّذي أعطاه أ. نجد مثلاً عن ذلك في (24) عن (Pomerantz 1978: 102):

(18) أ : أنت مجذّف جيّد، يا حبيبي.
ب : هذان المجذافان سهلان، فهما خفيفَان جدّاً.

يقود النظر بهذا الشكل إلى نوع الأجوبة الّتي تحصل عليها التهنئة عند التعرّف على جزءٍ مهمٍّ من اللغة كنشاطٍ اجتماعي، وهو أنّه إذا أردنا أن نعرف ما **تفعله** الكلمات، علينا أن ننظر أبعد من الأقوال الفردية. المتكلمون، في التفاعل الاجتماعي العفوي، يستعملون ويفسّرون أفعال الكلام كجزءٍ من وحداتٍ تسلسلية أوسع، وتشكّل الأزواج المتجاورة أحد أنواعٍ هذه الوحدات التسلسلية الأوسع، نجد فيها بسهولة أنّ معنى كلٍّ من جزءيها يحدّده ويفسّره ويوسّعه الآخر.

تجريبياً، بما أنّ الأقوال لا تظهر عادةً مع بطاقةٍ توضّح قوّتها اللفظية (أو "مرادها")، تعطينا طريقة النظر إلى الأزواج المتجاورة بدلاً من الأقوال المفصولة فهماً أفضل لما يقوم به المتكلّمون. ففي (18) أعلاه، ليس القول **هذان المجذافَان سهلَان** توكيداً (يتمّ تحديده بواسطة قيمة الحقيقة والاعتقاد) فحسب، بل جواباً أيضاً على قول أو

"حل" للمشكلة الّتي أوجدها هذا القول. إذا قلنا فقط **هذان المجذافَان سهلان نشكل توكيداً**، كانما لم نقل شيئاً مهمّاً بعد عن ما **يفعله** هذا القول بالفعل. وبالمقابل يصدّق التوكيد، في سعيه إلى "التعامل" مع "المشكلة" الّتي أوجدها قول أكتهنئة ويعطينا فكرة عن ما تفعله التهنئة عندما نتلفّظ بها.

يمكننا القول بشكلٍ عام إذاً أنّ الزوج المتجاور يعطينا **إطاراً للتفسير**[9]. هذا مهمّ، ليس فقَط بالنسبة للإثنوغرافيين كمراقبين - مشاركين يودّون فهم الأفعال الّتي يؤسسها كلام من يدرسونهم. فهو أداة أساسية أيضاً يستعملها المشاركون أنفسهم لتفسير أعمال بعضهم البعض.

في تحديدها للأزواج المتجاورة كمصدرٍ للتفاعل الاجتماعي، يشارك تحليل المحادثة المنهج الإثني (انظر الفقرة 4.2.1.) في تحديد معيّن، هو الفكرة القائلة بأنّه ما علينا أن نقوم به كمحلّلين هو النظر أوّلاً إلى ما يقوم به العاملون الاجتماعيون أنفسهم، وإلى **الأساليب** الّتي يستعملونها لحلّ المشاكل العملية اليومية. تشمل هذه المشاكل ليس فقط (أو بالضرورة) تلك الّتي يتمّ التعرف إليها كمشاكل، بل أيضاً إشكالات عادية لا تلاحَظ كمعرفة كيفية الرد على تهنئة (انظر أعلاه)، أو بشكلٍ عام مشكلة جعل الآخرين يعلمون أنّنا نفهم ما يجري ولنا موقف معين منه :

> يشكّل تنظيم الأزواج المتجاورة إطاراً أولياً يُظهر المشاركون في الكلام فيه بالضرورة بعض من تحليل أفعال بعضهم البعض. في إطار هذا التصرّف

---

(9) للمزيد عن فكرة "الإطار"، انظر : ,(Bateson (1972), Goffman (1974) Kendon (1992)).

المتبادل، تتشابك الأفعال والتفسيرات. على كلّ مشارك أن يحلّل تطوّر أفعال الآخَرين، لكي يستطيع أن يردّ عليها بأفعاله.

(Goodwin and Heritage 1990: 288)

عندما يُنتج المتكلّمون أوّل جزءٍ من زوج متجاور، يوجدون إطاراً تحليلياً يحدّد ما يحصل بعد ذلك ليس فقط "كجواب" أو "تحرّك ثانٍ" بل أيضاً كإظهارٍ لتفسير السامع للجزء الأوّل. فتشكّل الأزواج المتجاورة إذاً آلياتٍ لتأسيس **ذاتية متواصلة**، أي تفهّم وتعاون متبادَل حول نشاطٍ مشترَك[10]. بيّن شيغلوف وساكس مثلاً (1984) أنّ بداية ونهاية المحادثات التليفونية تحصل بشكل أزواج متجاورة. لماذا ذلك؟ لأنّ المتكلّمين يستطيعون، بواسطة إنتاجهم قولاً ثانياً، توضيح فهمهم لما يفعله القول السابق واستعدادهم لمتابعة ما يحدّده (مثلاً ابتداء محادثة، إنهاؤها، إعطاء معلوماتٍ إضافية، تغيير الموضوع) (Schegloff and Sacks 1984: 75). تفيد آلية الأزواج المتجاورة كثيراً خاصّةً في الحالات الّتي تتطلّب تقرير ما إذا كان يجب بدء أو إنهاء تفاعلٍ ما. على المشتركين الذين يودّون إنهاء محادثتهم أن يتّفقوا على انّه لم يتبق شيء يقال، (وإلا سيشعر أحدهم أنّ الآخرين يرفضون الاستماع إليه. لهذا السبب، بالرغم من استعمال التحيات لإنهاء المحادثة (فيقول أحد الأشخاص " إلى اللقاء" ويجيبه الآخر " إلى اللقاء" أو بغير ذلك من تحيات نهاية الحديث)، يبقى من المهم الوصول إلى تحيّات النهاية بشكلٍ سلس ومناسب. فلا نستطيع أن نقول " إلى اللقاء" من دون أن نحضّر لذلك من يتكلّم معنا، وذلك

---

(10) اهتمّ شيغلوف (1991) بموضوع الذاتية المتواصلة بشكلٍ واضح في سياق حديثه عن ما يسمّيه "بتصحيح صيغة الغائب".

حتّى عندما نشعر بأنّه تم قول كلّ ما يجب قوله. تبدو أولى المحادثات التلفونية للأطفال ("مرحباً. كيف حالك؟ جيّد. إلى اللقاء"). مضحكة غالباً بالنسبة للسامعين البالغين، وذلك لأنّها تنتهك توقّعات الناضجين (Garvey 1984: 35-36). نحضّر عادةً من نتكلّم معه لاحتمال إنهاء المحادثة قريباً. نفعل ذلك على التليفون باستعمال أقوالٍ تُفهم قبل النهاية الممكنة (Schegloff and Sacks 1984: 80). يمكن القيام بهذا العمل مثلاً بإعطاء عنصر يقتصر وجوده على توضيح أنّه لم يتبق للمتكلم في الحاضر شيءٌ يقوله. نرى ذلك في الإنجليزية باستعمال تعابير مثل we-ell وso-oo (حسناً، إذاً) (مع تخفيض الصوت). وعندها يستطيع المتكلّم إمّا أن يتكلّم عن موضوع جديد أو أن يقبل بأنّه لم يتبق ما يمكن قوله وأنّه يمكن بالتالي إنهاءَ المحادثة. نجد غالباً في هذا السياق الأزواج المتجاورة "okay/okay (حسناً/ حسناً)" أو "alright/okay (طيّب/ حسناً)". إليكم بعض الأمثلة من مقالة شيغلوف وساكس:

(**19**) دورين : آه ـ أتعرف، هذا يشبه تهييج ـ الغضب.
تيريز : Yeah well (آه حسناً). **ينتهي كلّ شيءٍ دائماً على خير**
[
دورين : آه طبعاً.
Alright (حسناً) يا تيس. (**ما قبل الإنهاء : أوّل جزءٍ من الزوج**)
]
تيريز : آه،
تيريز : Okay (حسناً) (**ما قبل الإنهاء : جزء الزوج الثاني**)
دورين : إلى اللقاء (**إنهاء : أوّل جزءٍ من الزوج**)
تيريز : تصبحين على خير. (**إنهاء : جزء الزوج الثاني**)

(**20**) جونسون : . . . وآه، آه، سنرى ما إذا كان يمكننا
آه ترتيب خطّطنا معاً بشكلٍ أفضل.
بالدوين : Okay (حسناً)، جيّد
[
جونسون : Alright (**جيّد**)؟
بالدوين : Right (**حسناً**).
جونسون : Okay (حسناً) يا صبي
(ما قبل الإنهاء: أوّل جزء من الزوج)
بالدوين : Okay (حسناً). **(ما قبل الإنهاء : جزء الزوج الثاني)**
جونسون : إلى اللقاء **(إنهاء : أوّل جزء من الزوج)**
]
بالدوين : تصبح على خير. **(إنهاء : جزء الزوج الثاني)**

أصبح من الواضح الآن أنّ تحليل المحادثة يعطينا منهجاً جديداً لدراسة اللغة كفعل، ويزوّدنا أيضاً بمفاهيم جديدة لمعرفة ما **تفعله** الأقوال والكلمات في التفاعلات. تشكّل هذه المفاهيم طرقاً جديدة للنظر للكلام كفعل، بالرغم من أنّها تذكّرنا بفلسفة فيتغنشتاين اللغوية الأخيرة. يزوّدنا التحليل اللغوي بمنهجٍ يسمح باتّباع اقتراح فيتغنشتاين الّذي يدعونا إلى النظر إلى الكلمات كراسخة دائماً في نشاطاتٍ أوسع، فتشكّل الأزواج المتجاورة أمثلة عن "الألعاب اللغوية". بما أنّه يمكن لنفس الكلمة أن تظهر في أماكن مختلفة تماماً من المحادثة، لذا لا يمكننا أن نتوقع ما تفعله قبل أن ننظر إلى السلسلة الّتي توجد فيها. فأوّل Okay قالها المتكلم بالدوين في (20) تختلف عن الOkay الّتي يقولها ويقولها محادثه جونسون فيما بعد. الOkay الأولى جزءٌ من قبول (Okay جيّد) اقتراح وهي بالتالي تغلق

موضوعاً. الـ Okay الثانية (في Okay يا صبي) هي الجزء الأوّل من زوجٍ متجاور وتهيئ التحيات النهائية الآتية.

أدّى عدم الاهتمام بالسلسلات التحادثية في آلية سيرل النظرية إلى تحليلاتٍ تتخالف مع تلك الّتي يقترحها محلّلو الحوار. نجد هذه الحالة بوضوح في التحيات. يقول سيرل وفاندرفيكين (1985: 215-216) إنّه "عندما يحيي شخص شخصاً آخر، مثلاً بقوله "مرحباً"، فهو يشير إلى تعرّفه إليه بشكلٍ مهذَّب". هذا الوصف لا يأخذ بعين الاعتبار السياق الأوسع الّذي قد تحصل فيه التحيّة، ولا يفسّر استعمال 'مرحباً' في أنواع أخرى من التحيات في المحادثات التليفونية. فنعرف مثلاً أنّ أوّل 'مرحباً' على الهاتف تجيب على نداء الرنّة ولا تشير إلى التعرّف (Schegloff 1972b) وتزوّد المتّصل بمصدرٍ يمكنه استعماله "للقيام" بالتعرّف أو "السعي" (دون "الإشارة" إليه بعد) إليه. يستعمل المتّصلون أوّل 'مرحباً' ليحاولوا معرفة من جاوب على اتّصالهم (Schegloff 1979a, 1986). كما نرى في المثل (21) أدناه، لا يستطيع المتّصِل أن يطلب التعرّف إلاّ بعد ال"مرحباً" الأولى. ويحصل التعرّف عندها بواسطة استعمال اسم علم (كوني في [21]) :

(**21**) س : مرحباً. (**الجواب على الاستدعاء ـ مصدر للتعرّف**)
ج : كوني؟ (**طلب تعرّف من المتّصل**)
(Schegloff 1979a: 51)

يمكن عندها أن تُظهر المجاوبة أنّها، وبدورها، تعرّفت على المتَّصِل. وتفعل ذلك باستعمال الاسم بدورها في الدور الثالث (أجل جوني).

(**22**) س : مرحباً (**الجواب على الاستدعاء ـ مصدر للتعرّف**)
ج : كوني؟ (**طلب تعرّف من المتّصل**)
س : أجل جوني (**طلب تعرّف من المجاوب**)

عندما لا يعطي المجاوب اسمه بدوره ولا يستعمل إلاّ التحيّة (مثلاً **أهلاً**)، كما في (23) أدناه، يمكن للمتّصلين أن يعتقدوا بأنّ التعرّف لم يكن كاملاً، وقد يعرّفون عندها بأنفسهم، كما في الدور الأخير أدناه (أنا باربي) (Schegloff 1979a: 53-54).

(23) ب : م م مرحباً،

با : أهلاً بوني،	**(تعريف آخر)**
ب : أهلاً=	
با : =أنا باربي=	**(تعريف بالنفس)**

(Schegloff 1979a: 53)

يبيّن هذا المثل الأخير أنّ التحيّة وحدها (قول بــ **أهلاً** في [23]) لا تفسَّر بالضرورة كدليل على التعرّف. وبالتالي، حتّى في ما يخصّ تحيّاتٍ مثل "أهلاً"، يبقى وصف سيرل وفاندرفيكين غير ملائم.

التسلسل مهم ليس فقط في كلّ الأزواج المتجاورة، بل أيضاً في العلاقة بين زوج متجاور ووحداتٍ أخرى (قبله أو بعده). تفعل **أهلاً ومرحباً** أشياء مختلفة بحسب وجودها في الجزء الأوّل أو الثاني، ويمكن كذلك لزوج متجاور أن تختلف قوّتُه بحسب ظهوره في سلسلة (مثلاً محادثة كاملة). هذه هي الحال مثلاً بالنسبة لزوج التحية الإيطالية *ciao/ciao* (مرحباً/ مرحباً)، والّتي، بعكس ما يقابلها في الجاليات الناطقة بالإنجليزية والإسبانية، يمكن استعمالها في تحيّات المجيء والوداع. رأينا في (7) أعلاه مثلاً عن الزوج /ciao ciao في نهاية محادثة تليفونية. ونراها الآن في (24) كتحيّة في بداية محادثة تليفونية:

(24) ج : pronto

مرحباً،

س : جيورجيو؟

ج : ah ciao (**تحيّة بداية : أوّل جزء من الزوج**)

آه أهلاً

س : ciao[11]

أهلاً.

[. . .]

عن ("Giorgio 3")

في هذه الحالة، يزوّدنا النظر إلى تسلسل التفاعل برؤية معيّنة للتحيات وغيرها من التبادلات الشفهية التي لا نراها مباشرةً في إطار نظرية فعل الكلام. يمكننا طبعاً التسليم بأنّ ciao في (24) يفعل شيئاً ما، ولكن من الصعب أن نتّفق مع قول سيرل وفاندرفيكين أنّه يقوم "بالتعرّف"، بما أنّ المتكلّم س قد قام بذلك في وقت سابق (جيورجيو؟).

لا يعود الفرق بين تحليل المحادثة ونظرية فعل الكلام إلى اختلاف منهجيتهما فقط (ولو أنّ محلّلي التحادث يقولون بأهمية اكتشاف منهجهما)، ولا إلى اختلاف وحدات التحليل. فلا يشكّل تحليل ما يأتي قبل وبعد القول إلاّ جزءاً من ما يأتي به محلّلو اللغة في دراسة اللغة كفعل. ما يهمّ أكثر هو أنّ المحادثات تصبح بالنسبة إليهم أماكن لدراسة النشاطات العاجية الّتي يقوم بها النشاط الاجتماعي بالمعنى الإثني ـ المنهجي لهذه العبارة، أي كشخصٍ

(11) تحصل التحيّة، كما يحدث كثيراً في تبادل التحيات، مع غيرها من العناصر اللغوية، مثل آه، الّتي تشبه oh في الإنجليزية، وهي تشير إلى نجاح التعرّف انظر (Schegloff 1979a) للمزيد عن هذا المثل انظر أدناه.

مسؤول عن أفعاله (Garfinkel 1967; Sacks 1992a, 1992b). عند النظر إلى التسلسلات مثل الأزواج المتجاورة نرى كِيف يؤسس الكلام إطاراتٍ تستحضر وتقترح وتفرض حتّى توقّعاتٍ من المشاركين فيها. تعبّر فكرة التفضيل نوعاً ما عن هذا الوجه من الأنظمة اللغوية.

2.8. فكرة التفضيل

اهتمّ ساكس في محاضراته الأولى في حقيقة سماعنا تلفظات معينة كمصطلحات (استعمل أيضاً كلمة "تركيبات" [1992a: 8])، أي قطع نربطها بنشاطاتٍ روتينية معيّنة. وأعطى كمثالٍ عن ذلك **ممكن أن أساعدك**؟ (أو ما يشابهها، **هل أستطيع مساعدتك**؟). في معظم الحالات لا تُعتبر هذه الجملة سؤالاً حقيقياً، بل اقتراح تقديم مساعدة من قبل شخصٍ مؤهّل لذلك. يمكن أن يقولها عامل في متجر أو عامل هاتفي يوجّه الاتّصالات. استُعملت هذه الجملة في مركز منع الانتحار الّذي درسه ساكس من قبل أخصّائي استمع إلى مشاكل المتّصلين. تحلّل نظرية فعل الكلام قولاً مثل **هل أستطيع مساعدتك** كفعل كلام غير مباشر (انظر الفقرة 1.1.2.7.). وتقول هذه النظرية إنّ السؤال يعمل، كما في حالات الطلبات غير المباشرة، كاقتراح تقديم إذا ما وجِدت سلسلة من الاستنتاجات (فللسؤال قوّة اقتراح تقديم مثلاً إذا استعمله المتكلّم ليسأل ما إذا كان شرط مبدئي يخصّ مقدرة المتكلّم على القيام بعملٍ ما قد تحقق أم لا). ولكنّ ساكس لم يهتمّ فقط بفهمنا للسؤال كاقتراح. فقد استرعت انتباهه السياقات المتسلسلة لهذه الأسئلة، أي ما يتبعها عادةً. فلاحظ وجود ميلٍ إلى الإجابة "**بنعم**" على سؤالٍ مثل **ممكن** (أو هل استطيع) أن أساعدك؟ ففكّر عندها بما يحصل عندما يُعطى جواباً آخر، مثلاً **لا أعرف**:

(25) أ : هل أستطيع أن أساعدك؟
ب : لا أعرف آه ه ه آملُ ذلك
أ : آه حسناً. قل لي ما هي مشكلتك
ب : أنا آه ه ه بما أنّك هنا الآن لا أجرؤ أن أتكلّم عن ذلك. لا أريدك أن تقول بأنّني غير ناضج في مشاعري، فأنا أعرف ذلك.

(Sacks 1992a: 10)

يبدو في هذا المثل أنّ المتَّصل، عند أخذه اتّجاهاً مختلفاً عن المتوقَّع، يرفض نوعية السؤال "الروتينية". اعتقد ساكس أنّه قد يشكل ذلك طريقة لرفض هذه المعاملة "الروتينية"؛ فيبدو أنّ لدى المتَّصل في هذه الحالة تجربة سابقة (وبالأرجح سلبية) مع هذه المعاملة الروتينية، كما نرى في التعليق التالي **لا أريدك أن تقول بأنّني غير ناضج في مشاعري، فأنا أعرف ذلك.**

بيّن محلّلو المحادثة، ابتداءً من هذه الملاحظات الأولية، وجود **أفعال مفضّلة** في كلّ وضع معيّن، وأنّه يمكن لدراسة الأجوبة **المفضَّلة وغير المفضَّلة** عن الأسئلة وغيرها من أجزاء الأزواج الأولى أن تُفهمنا ليس فقط ما يسعى إليه الفاعلون الاجتماعيون، ولكن أيضاً ما يُعتبر طبيعياً أو متوقّع في كلّ وضع. يمكن النظر إلى تركيبة التفضيل بالوصول إلى صلب ما يجعل من اللغة أداةً ثقافية قوية.

لم يفكّر ساكس وغيره من محلّلي التحادث، كما لم يفكّر الّذين يعتبرون الثقافة ظاهرة علنية - إن كان ذلك يشكل قواعد أو ممارسات مجسَّدة (انظر الفصل 2) - بالتفضيل كميزة بسيكولوجية موجودة في وعي الفرد. بل اعتبروا التفضيلات ميولاً يزودها النظام عبر النظام. وبالتالي، عندما يفحص محلّلو المحادثة ميل المتَّهَم في

محكمة بريطانية نحو رفض الاتهام (Atkinson and Drew 1979)، لا يسعى إلى إعطاء أو إيجاد حوافز فردية. فهو يصف فقط تفضيلاً ثقافياً (Bilmes 1988). تشكّل التفضيلات إطاراتٍ تفسيرية يمكن للأعضاء من خلاله أن يعملوا في لحظة قيامهم بالكلام كعمل توسّطي:

> تمّ ابتكار مفهوم "التفضيل" في أبحاث تحليل اللغة لتحديد وقائع المحادثات التي نجد فيها إمكانيات القيام بأعمال مختلفة وغير متساوية... يشير مصطلح "التفضيل" إلى عددٍ من الظواهر المتعلّقة بكون الخيارات بين إمكانية القيام بأعمال غير متساوية مرسّخة بشكل روتيني يعكس ترتيبها المؤسساتي. **لا** يسعى هذا المصطلح، وبالرغم من ما يمكن تصوّره، إلى الإشارة إلى رغباتٍ ومزاجات شخصية، ذاتية، "بسيكولوجية".
>
> (Atkinson and Heritage 1984: 53)

يؤدّي هذا التصوّر للتفضيل إلى عددٍ من النتائج النظرية والمنهجية. نظرياً، تكشف فكرة التفضيل، بإشارتها إلى ما يرجّح قوله في أي وضع، عن الطرق الحاذقة والقوية الّتي يخضع فيها الأفراد إلى ضغط ثقافتهم، حيث يمكنهم الاختيار، ولكنّ الخيارات غير متساوية. وتشكّل لذلك دراسة التفضيل أداة قوية للحديث عن الدور الّذي تلعبه اللغة في تشكيل تصرّف الإنسان، الّذي شكّل عنصراً أساسياً في دراسات الأنثروبولوجيين الألسنيين الأول، من أمثال إدوارد سابير:

> من الغريب أنّ يتهيأ للشخص امتلاكه لمعرفة حرّة، يستخدمها للتحكّم بتصرّفاته كما يريد، بينما يكتشف فيما بعد من خلال الاختبار أنّه تحت تأثير

وسلطان إخلاصه لأشكال تصرّف يشعر بها بشكلٍ دقيق ويعبّر عنها بشكلٍ مبهم وباسلوب تقريبي.

(Sapir [1927] 1963: 549)

ليست التفضيلات آليات تحكّم خالصة. فمن الممكن دائماً مقاومة أو انتهاك تفضيل والقيام بما هو غير مفضّل (انظر المثل **(25)** أعلاه). ولكن تحتاج هذه الأفعال المختلفة إلى المزيد من العمل ولها نتائج. إن القيام بنشاطات غير مفضلة بالأفعال غير المفضّلة (كقول "لا" مثلاً لاقتراح أو معارضة تقييم ما... إلخ) غالباً تنجز بتأخير بين الأدوار وضمن الأدوار نفسها وهي تلطف وتعمل بتنوع غير مباشر (Atkinson and Heritage 1984: 53). وليس من المصادفة أن لا نجد في المثال (25) أعلاه "نعم" بعد **هل أستطيع أن أساعدك؟**، فنجد ضحكاً ومن ثمّ في الدور التالي تردّد من الشخص الّذي اقترح المساعدة. فلم يتبع الآخر العمل المفضّل، فتوجّب المزيد من العمل (على شكل تبرير وتفسير) لمتابعة الحديث والتعامل مع المشكلة الّتي أوجدتها أو أشارت إليها الحركة غير العادية.

1.2.8. التعديل والتصحيح

يسمّي محلّلو المحادثة تعديل مجموعة من الظواهر حيث نرى عمل الموافقة. يشمل مصطلح "التعديل" أشياء أكثر من مصطلح "التصحيح"، بما أنّ مصطلح "التصحيح" يُفهم عامّةً كاستبدال "الخطأ" أو "الغلطة" بما هو "صحيح" (Schegloff, Jefferson, and Sacks 1977: 363). لا تعتمد الظواهر الّتي يسمّيها محلّلو المحادثة "تعديل" على الأخطاء بمعناها التقليدي، بل هي محاولات لحلّ ما يعتبَر و/ أو يعرّف "كمشكلة" أو "اضطراب" في سياق التفاعل. هناك صلة وطيدة بين فكرة التعديل وطبيعة التفاعل التحادثي

التسلسلية. يحتاج الناس الّذين يتكلّمون بعضهم مع بعض إلى آلية تسمح لهم بمتابعة التفاعل والتعامل بنفس الوقت مع أي مشكلة قد تحصل في سياق الحديث[12]. فقد يصعب مثلاً على شخصٍ ما أحياناً أن يجد الكلمة المناسبة أو أن يفهم ما قاله شخصٌ آخَر. وقد يشعر مشاركٌ أحياناً أخرى بكلّ بساطة أنّ ما قيل ليس دقيقاً أو يحتاج إلى صياغة جديدة، أو تصحيح أو إضافة. بمعنى آخر، قد يشعر الشخص أحياناً أنّه عليه أن "يعالج" ما يقال أو يُفعل. يمكن لنفس المتكلّم أن يقوم "بالمعالجة"، كما في (26) أدناه، حيث يصحح المتكلّم وصفه السابق جاعلاً منه أكثر تحديداً (فيصبح **ابني**، **ابني البِكر**):

(26) رالف : قال أحدهم وهو ينظر إلى ابني: ، ابني البكر.

(Goodwin 1981: 130)

في أحيانٍ أخرى قد يبدأ التعديل متكلم آخر، فيصحّحه بعد ذلك الشخص الّذي بدأ "الاضطراب". يقوم بهذا التعديل **الشخص المبادر الآخر** عادةً ما يسمّيه محلّلو المحادثة مبادئ **التعديل**، أي أسئلة من كلمة واحدة، مثل **أه؟ ماذا؟ من؟** أو أسئلة مردَّدة، أي أسئلة تردّد جزءاً من التركيبة المحدّدة كـ"اضطراب" بإضافة كلمة سؤال، يمكن مثلاً استعمال **لمن ولماذا؟** تعديل اسم، **وأفعل ماذا؟ أو أذهب أين؟** لتعديل خبر. في أدناه مثلان عن تعديل بواسطة الأسئلة المردَّدة:

(27) أ : حسناً، لم تعمل؟

ب : آ ه ه ، أنا أعمل لصالح شركة آمفات

---

(12) ليست هذه المتابعة بالضرورة ذات علاقة بموضوع أساسي. فقد تعني المحافظة على انتباه السامع، كما نرى عند غودوين (Goodwin 1979, 1981).

أ : ل **من**؟

ب : شركة آمفاه. شركة مساهمة.

]

أ : أه

(Schegloff et al. 1977: 368)

(28) يتحدّث أعضاء فرقة روك عن كيفية تنظيم حفلهم الغنائي

ويل : **قد** يكون من الغريب القيام **بذ**:لك.

(0.8)

روس : القيام بماذا؟

]

جوي : **انسَ** المذياع : تقدّ:م تقدّم إلى الأمام

]

ويل : أحاول أن أفعل ((يحرّك القيثارة))

(Keating 1993: 418)

يمكن أيضاً المبادرة بالتعديل والقيام به من قبل متكلّم آخر، كما في (29) :

(29) بين : استمع إلى ال**حمام**.

(0.7)

إيلين : كو ـ كو: : : كو: : :

]

بيل : قوالي، أعتقد.

(Schegloff et al. 1977: 378)

اكتشف شيغلوف، جيفرسون وساكس أنّ التعديلات ترتّب بطرقٍ يمكن تكهّنها لكونها تتكرّر. وبالتالي عندما يبدأ شخصٌ آخر التعديل، كما في (27) و(28) أعلاه، يقوم بذلك في الدور التالي.

يعني ذلك أنّ المشاركين غير المتكلّم الحالي يمتنعون عن إبداء التعديل حتّى يصلوا إلى مكان التحوّل المناسب (انظر أعلاه). في الحقيقة، يحدث التعديل الّذي يبدأه الآخرون بعد الدور الّذي يحصل فيه بقليل، ممّا يشير إلى إعطاء المتكلّم بعض الوقت للّذي أحدثَ "الاضطراب"، لكي يتمكّن التعديل وحده، وهذا ما يحدث في (28) و(29). في بعض الحالات، قد ينتظر الآخَر وقتاً طويلاً، فلا يحصل التعديل. يعود هذا التنظيم إلى كونه الأفضل في المحادثة حيث يُسمَح للمتكلّمين أن يعدلوا "الاضطراب" العائد لهم. ويمكن الاستنتاج من بيانات المحادثة في الإنجليزية **تفضيل** التعديل **الشخصي وعدم تفضيل تعديل الآخَر**. نرى ذلك أيضاً في الميل إلى تعديل أو خفض منزلة تصحيحات الآخر، مثلاً بإضافة تحديدات أو إشارات تشكيك مثلاً أستعمال **أعتقد** في (29) أو **أتعتقد أو تعني** X؟ أو اعتبار التصحيح مزحاً.

2.2.8. تجنّب التفسير النفسي

يشكل التحقيق في الظواهر مثل تعديل إحدى ميّزات تحليل المحادثة، من دون الدخول في إشكالية الحوافز الفردية لهذه التصرّفات. إذ ينظر الباحثون فقط إلى ما **يعمله** المتكلّمون. حيث يتوصّلون، بواسطة هذا التحقيق، إلى معرفة تنظيم التصرّف العلني. يعني ذلك أن تحديد فكرة التفضيل الجماعي وليس الفردي. وهو الذي يشكّل نوع من التنظيم، أي مجموعة من القواعد أو الميول لكل من يدخل في الحديث أن يتعامل معه. يعود معنى أفعال المتكلّم إلى التوقّعات المتعلّقة روتينياً بنوع معيّن من التبادل. يملك المتكلّمون خيارات، ولكنّها محدودة في النظام الّذي عليهم أن يتفاعلوا معه لكي يكونوا أعضاءً في المجتمع.

تذكّرنا رؤية اللغة كظاهرة علنية والحاجة إلى فهم التحرّكات الفردية كجزءٍ من مؤسسات اجتماعية أوسع بفلسفة فيتغنشتاين الأخيرة (انظر الفقرة 1.2.7.). يصعب فهم وجهة النظر من قبل الكثير من الطلّاب في البيئة الجامعية الغربية، لأن الناس في الغرب يفسّرون التصرّف عادةً بواسطة الحوافز الفردية. وكان ساكس على علم بهذه المشكلة، كما نرى في كلماته الختامية لمحاضرته في خريف سنة 1964:

> ملاحظة أخيرة. عندما يبدأ الناس بتحليل الظواهر الاجتماعية، إذا بدا أنّ الأشياء تحدث بالسرعة الّتي نجدها في بعض هذه التبادلات، نجد في بعض تلك التبادلات، إذا أردتم أن تقوموا بتحليلٍ طويلٍ لها [أي كما يفعل ساكس نفسه] . . . تجدون عندها أنّه من غير الممكن أن يكونوا **قد فكّروا بهذه السرعة. أودّ أن أقترح بأن تنسوا ذلك تماماً. لا تهتمّوا** بسرعة تفكيرهم. عليكم قبل كلّ شيء أن لا تهتمّوا إن كانوا "يفكّرون". حاولوا أن تعرفوا كيف يحصل ما يحصل. فستجدون أنّه يمكنهم القيام بما يقومون به. فإذا ما نظرتم إلى أي مجال من العلوم الطبيعية تجدون، مثلاً، سرعة أفعال الذرّات، وهي لا تملك عقلاً جيّداً. فدعوا الأشياء تحصل كما تحصل. حاولوا أن تعرفوا كيف يُنتِج الأشخاص ما ينتجونه.

(Sacks 1992a: 11)

يحاول ساكس في هذا النص أن يحرّر الطلّاب من آرائهم المسبَقة عن ما يشكّل تفسيراً لتصرّف الإنسان. ولكنّه يشير ضمناً أيضاً إلى أسلوب تحقيق يذكّر بالبنيوية في الألسنية، والأنثروبولوجيا،

وغيرهما من علوم الاجتماع (انظر الفصلَيْن 2 و6). في كلا الحالتَيْن، ينظر المحلّلون إلى الأفعال ويحاولون تنحية ما يعتقدون بأنّ المتكلّمين قد يفكّرون به. في كلا الحالتَيْن، يسعى العملاء إلى التخلّص من التفريق في القرن التاسع عشر بين علوم الإنسان (Geisteswissenschaften) والعلوم الطبيعة المحضة (Naturwissenschaften). في كلا الحالتَيْن، وكما سنرى بشكلٍ أوضح أدناه، هناك ميل نحو التشديد على التركيبات المستقلّة عن سياقاتها، وتكوين قائمة من الآليات الّتي يمكنها القيام بنفس الفعل في كلّ الحالات. يسأل الأنثروبولوجي الألسني دائماً: كيف يمكننا أن نعرف كيف يتمّ القيام "بنفس الفعل"؟ هذا سؤال إبستيمولوجي يتعلّق بوجهة النظر الاستبطانية عن التفاعل بين الناس، وهي من ميّزات الرؤية الأنثروبولوجية (انظر الفصل 6). وهي تشير إلى التصوّرات المختلفة للسياق الّتي تختلف في الدراسات الشكلية، التي منها تحليل المحادثة، والدراسات التفسيرية. وبالتحديد، بما أنّنا لا نتكلّم عن ما يفضّله الفرد، إذاً ما هو النظام الاجتماعي الّذي يحدّد هذه الأفضليات؟ هل علينا تصوره كجزء من فكرة الثقافة؟ وإذا كان ذلك صحيحاً، فلماذا تتجنّب كتابات تحليل المحادثة الكلام عن هذه الفكرة؟ سأعود لهذه المسألة في نهاية هذا الفصل.

3.8. تحليل المحادثة ومسالة "السياق"

كشف محلّلو المحادثة عن مجموعة كبيرة من التصرّفات الاجتماعية الّتي قد تخصّ المقارنة بين الثقافات. برهن محلّلو المحادثة مراراً وتكراراً أن المحادثات أعمال يقام بها بالتعاون، وحيث نجد الأعضاء يعملون بجدٍّ لكي تتناسق أعمالهم مع الّذين يكلّمونهم. كشف ساكس وجيفرسون وزملاؤهم، في فصلهم لسلسلات قصيرة من الأقوال، طرقاً جديدة لدراسة ما تفعله الكلمات

في التفاعل. تشكّل فكرة التفضيل أداة قوية للتفكير بالتوقّعات الثقافية. لهذه الأسباب ولكون الكلام أساسياً في بيانات ونتائج محلّلي التحادث، يمكن توقع أن يتبنّى الأنثروبولوجيون الألسنيّون بحماس أفكار وأساليب محلّلي المحادثة. ولكن، بينما استعار الألسنيّون الاجتماعيّون والبراغماتيون ومحلّلو الحديث غير المتمرسين وغير المهتمّين بأساليب الإثنوغرافيا، مفردات وأساليب تحليل المحادثة في أعمالهم، بقي الأنثروبولوجيون الألسنيّون مترددين في استعمال أساليب تحليل المحادثة أو الاستفادة من نتائجها، سوى في بعض الحالات الاستثنائية. سيساعدنا فهم هذا النقد على تحليل أهداف وأساليب الأنثروبولوجيا الألسنيّة، واقتراح تفاعلها مع حقول معارف أخرى.

نجد في صميم الجدال بين محلّلي المحادثة وبعض الأنثروبولوجيين الألسنيين عدم اتّفاقهم بشكلٍ أساسي على عمليات التحليل وجمع البيانات. يرتكز معظم الجدال على مسألة الأساليب المتبعة. فيُتّهم محلّلو المحادثة بتجاهلهم "للسياق" الثقافي والتاريخي الّذي تحصل فيه التفاعلات الّتي يدرسونها. نجد تهجّماً مبكراً على ذلك في النص التالي، حيث، وبعد نقد قصير لمقالة ت. تورنر عن الأفعال الحركية، ينتقد ديل هايمز بشكلٍ لاذع كلّ مدرسة تحليل المحادثة مشيراً إليها بشكلٍ غير مباشر بعبارة كبعض علماء الاجتماع" :

> يعلّق بعض علماء الاجتماع أبحاثهم بالكلمات إلى حدٍّ قوي ومفرط فلا يصلون بينها وبين سياق حدوثها الفعلي. من السهل طبعاً أن يسحرنا اكتشاف وفرة وسعة الكلام، عندما نأتي من خلفية حقلٍ نجهله؛ ولكن من غير المعقول التعامل مع النصوص المنسوخة عن الأشرطة كأنّها مخطوطات البحر

الميت. علنا، عند اختفاء ثقافةٍ ما، أن نستخرج ما نستطيع من النصوص المتبقيّة، وهذا العمل، بعكس ما يعتقده البعض، أنه صعب ومنظم ويكشف عن أشياء جديدة أحياناً كثيرة. ولكن من غير المعقول أن نبتكر فلولوجيا مبسّطة للتعامل مع الحياة في الخارج. فقد قرأتُ تحليلات مطوّلة لتفاعلات كلامية لم تأخذ بعين الاعتبار النواحي الأخرى للتفاعل الكلامي، وتعيد إلى تعقيد الكلمات ما كان يعتمد على نظر الأشخاص بعضهم إلى بعض؛ ووجدت تحديداتٍ للنيات والتفسيرات تتجاهل قوّة الصوت كما يفعل الكثير من النحويين طبعاً ولا تنظر إلى تفسيرات المشاركين أنفسهم.

(Hymes 1974a: 81)

ينيرنا هذا النص لأنّه يحتوي على أساسات المشاكل الثلاث الرئيسية الّتي يجدها الكثير من الأنثروبولوجيين الألسنيين والإثنوغرافيين في نموذج تحليل التحادث :

(1) عدم اكتراث متكرّر "بالسياق الأوسع" مثلاً متى وأين تحصل التبادلات المحلّلة، وتجاهل للأوجه غير الكلامية أو الحركية للتواصل وجهاً لوجه(13)؛

(2) فكرة بدائية لما يشكّل الكلام (كما نرى في نظام نسخهم الّذي لا يأخذ بعين الاعتبار بشكلٍ كامل الميّزات العروضيّة للّغة المحكية)؛

---

(13) ولكن انظر ما يقوله غودوين (Goodwin 1979, 1981) عن التبادل الدقيق بين حركة النظر وتركيب الأدوار (انظر الفقرة 2.3.8).

(**3**) تجاهل التفسيرات الّتي قد يعطيها المشاركون أنفسهم لتصرّفهم الخاص.

بما أنّني قد تكلّمت عن بعض أسباب (3) أعلاه (مثلاً الكثير من المتكلّمين أحياناً غير واعين لتصرّفهم الكلامي) وتحدّثتُ عن بعض تقصيرات معايير النسخ الّتي يستعملها محلّلو اللغة في الفصل 5، سأركّز هنا على الفقرة (1) وبعض تشعباتها. يشبه نقد هايمز الأوّل ما سمّاه غوفمان (32 :1981 [1976]) فيما بعد "بخطايا غياب السياق"، أي "افتراض إمكانية تحليل أجزاء من المحادثات وحدها، بشكلٍ مستقِل عن ما يحدث في الزمان والمكان"[14] فمن "الخطيئة" بالنسبة لغوفمان وهايمز أن يتكلّم الباحث عن أزواج متجاورة مثل (9) أعلاه، ونعيدها هنا في (30)، دون القول بأنّ أ أستاذ و ب تلميذ:

(**30**) أستاذ: ما اسم هذا اللون؟
التلميذ: أزرق. (Merritt 1982: 235)

كيف يمكننا أن نفسّر سؤال الشخص عن ما يعرفه، إذا لم نكن نعرف أنّ السائل أستاذ؟ ونجد نفس المشكلة عند الحديث عن أزواج متجاورة أخذ الحوار في (10) مثلاً من قضيّة محكمة في قضاء نان الشمالي، في تايلاند. يسأل محامٍ من يدافع عنه سؤالاً موجّهاً بالفعل

---

(14) كان غوفمان أستاذ ساكس في بيركلي وأثّر فيه من دون شك في دراسته الطلاّبية العليا (Schegloff 1989: 194, 1992a: xxiii-xxiv)، ولكنّه انتقد دراسة ساكس لدراسة التحادث لاحقاً، ورفض الإمضاء على أطروحته، والّتي وافقت عليها فيما بعد لجنةٌ ترأسها آرون سيكوريل (Aaron Cicourel) (Schegloff 1992a: xxiii fn 18). تتعقّد علاقة غوفمان بتحليل التحادث بسبب التناقض الظاهر بين تبنّيه لدراسة التصرّف اليومي وعدم اهتمامه المتواصل، وربّما كرهه، للتسجيلات الإلكترونية للتفاعل الكلامي، كما نراه مثلاً في معارضته في البداية لتسجيلات مارجوري غودوين الصوتية لمحادثات الأطفال (م. ه. غودوين، معلومات خاصة).

إلى القاضي، الّذي يحتاج إلى تدوين المعلومات بشكلٍ معيّن : لقب + اسم العلم + العائلة (Moerman 1988: 58). صُمّمت هذه الصيغة إذا لشخصٍ ثالث. فلا يمكننا أن نفهم الجواب عن السؤال من دون أن نعرف هذا الشخص الثالث والمعايير المعتمَدة.

يجب فهم أمثلة التحية ـ في (7) و(8) ـ في سياق عددٍ من التحيات المحتمَلة في الجالية. بما أنّ الناس لا يحيّون بنفس الطريقة في إيطاليا أو كينيا ـ ويؤكّد ميلتون (1982) فعلاً أنّ التحيات في كينيا تشكّل استراتيجيات مهمّة لتحديد انتماء الشخص إلى مجموعة معيَّنة في داخل نفس الجالية الكلامية - فكيف يمكننا الحديث عن التحيات من دون الرجوع إلى العلاقة بين الأشخاص فيها؟ طريقة التفكير هذه قد أصبحت واضحةً الآن : لا تحصل الأزواج المتجاورة أو أي وحدةٍ يقترحها محلّلو الحوار في الفراغ. ولذلك يجب أن تحتوي دراستها على دراسة "السياق" الّذي تحدث فيه.

كيف ردّ محلّلو الحوار على هذه الانتقادات؟ ردوا بطريقتَيْن رئيسيتَيْن. سأشير إليهما بـ (1) الادّعاء المستقلّ و(2) مسألة وثاقة الصلة بالموضوع.

1.3.8. الادّعاء المستقلّ

أوّل نوع من الدحض هو ادّعاء يحوّل نقد "عدم اعتبار السياق" على نفسه. يؤكّد محللو المحادثة أنّ ما قد يبدو مشكلة بالنسبة للأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع مثل هايمز وغوفمان، يشكّل في الحقيقة قوّة تحليل المحادثة. يفسّر ساكس، في إحدى محاضراته، هذا الموقف بشكلٍ واضح في هذا النص التصويري:

سآخذ الآن أجزاء صغيرة من شيءٍ ما وأبني عليها، لأنّنا نستطيع التعرّف على الأجزاء الصغيرة والتعامل معها من دون النظر

إلى الشيء الأكبر والتي هي أجزاء منه. ويمكنها أن تعمل في أجزاء أكبر مختلفة وليس في الجزء الواحد التي كانت تعمل فيه. لا أفعل ذلك لأنّه أسهل فحسب، بل... الصورة الّتي أراها لذلك هي آلة، حيث نجد أداةً قياسية يمكننا وضعها هنا وهناك ويمكنها العمل في عددٍ من الأجزاء الآلات المختلفة. وندخل المستودع، فنلملمها واحدة تلوة الأخرى لبناء ما نريد بناءه. لذلك يجب التعرّف على هذه المكوّنات أوّلاً، لأنّها قد تكون مكوّنات للكثير من المهمّات الأخرى، غير تلك الّتي تُستعمَل فيها (Sacks [1965] 1992a: 159).

يعرض هذا النص المقتَبس ما سميته في مكانٍ آخر "باستقلالية" تحليل المحادثة (Duranti 1988a: 223). للمفارقة، يقرّب التشديد على استقلال آليات المحادثة محلّلي المحادثة من غيرهم من الألسنيين البنيويين الّذين يركّزون على النحو ويتجاهلون الاستعمال (انظر الفصل 6)[15]. ولكن، وكما رأينا من قبل، لا يشكّل كون السؤال يطلب جواباً، أو تقييماً للوصول إلى موافقة، أو تحية رد على تحيّة، سوى نقطة بداية. يعود ما يفعله الباحثون بهذه الملاحظات إلى إبداعهم لأنواع الأسئلة الّتي يهتمّون بها. بما أنّه يمكن استعمال نفس الآليات التفاعلية للقيام بالكثير من الأشياء المختلفة، يمكن ويجب متابعة الكثير من الأسئلة والمسائل - وتزوّدنا محاضرات ساكس اللامعة بكنزٍ من هذه الأسئلة، ولو أنّها لا تعطينا دائماً حلولاً مقنعة. ويمكن بالتالي النظر إلى الموقف "الاستقلالي" كاستراتيجية للكشف عن تركيبات لغوية متكرّرة يمكن فيما بعد الوصل بينها وبين سياقاتٍ "أوسع" أو "مختلفة" (Schegloff

(15) هذه مفارقة، بسبب التفاوت بين تشديد محلّلي التحادث على النظر فقط إلى المحادثة الفعلية لتأسيس نظريات عن التصرّفات الّتي تحدّدها قواعد وتشكيك تشومسكي بهذا الأسلوب انظر (Chomsky 1965, 1986). للاطلاع على نقاش حول الفوارق بين النحو التوليدي وتحليل الخطاب، انظر (Bilmes 1988b).

(1987 and 1992a . اتّبعت بعض نتائج أعمال محلّلي المحادثة خارج الولايات المتّحدة هذا الافتراض. نجد ذلك في أبحاث ميخائيل مورمان (Michael Moerman) (1977, 1988) عن الحوارات التايلاندية، وفي تقرير نيكو بيسنييه (1989) عن التعديل الشخصي في محادثة التوفالو، وفي حديث إلينور أوكس عن ممارسة: "التوضيح" لدى المربّيات الساموا (Ochs 1984, 1988: 130-143). يذكر شيغلوف (1987) في الحقيقة كلاًّ من هذه الدراسات، وغيرها، كأمثلة ناجحة عن تطبيق مفاهيم تحليل المحادثة على الأبحاث عبر الثقافات.

نلاحظ، عندما ننظر إلى هذه الدراسات بالتفصيل، أنّ ما تدّعيه يعتمد بشكلٍ أساسي على العمل الإثنوغرافي بين الناس الّذين يتمّ تحليل كلامهم. في كلّ هذه الحالات، تزوّد الإثنوغرافيا العلماء بإمعانٍ مهمٍّ في تحليل آلية التعديل، وتحدّد أنواع الأسئلة الّتي يسألها الباحثون. لا يهتم الأنثروبولوجيون الألسنيّون الّذين يحلّلون آليات التعديل بكيفية التعديلات بشكلٍ تسلسلي فقط، بل أيضاً بما تنجزه بالنسبة للمشاركين كأعضاء في جالية كلامية معيّنة. يحلّل بيسنييه (1989) مثلاً كيف "**يحجب**" متكلّمو التوفالو في نوكوليلي (بولنيسيا) "عادةً معلومة أساسية أو يعطون مرجعاً غير واضح أو معضل في أماكن استراتيجية من الثرثرة التفاعلية، ممّا يدفع السامعين إلى القيام بالتعديل" (Besnier 1989: 325). نجد مثلاً عن ذلك في (31) أدناه، حيث يضع ف ما يقوله ك في أطارٍ يعتبر أنّ ك لا يعطي معلوماتٍ كافية عن ما يتكلّم عنه. ما يجعل هذا النوع من عدم الوضوح ممكناً هي التركيبة النحوية للّغة، الّتي تسمح لجملة، بواسطة ما يسمّى بصيغة المجهول صفر (انظر الفصل 6)، أي لا تحتوي على فاعل[16].

(16) لظاهرة مماثلة في التحادثات في الإيطالية، انظر (Testa 1991).

(31) (صمت طويل)

ك: A koo vau o fakatootoo mo tautai tena =i aso nei.

في اليوم ذلك صيد باوسطة سبب مفعول + وَقَع وجاء

"ويأتي ويبدأ بالتباهي بمعرفته عن الصيد"

ف: =A ai?=

فوك من

"من؟"

ك: = Manono.

"مانونو." (Besnier 1989: 325)

في حالاتٍ تشبه هذه حلّلها غودوين (1987) في المحادثات باللغة الإنجليزية الأميركية، يُتوقّع من المتحادثين أن يقدموا اقتراحات واضحة عن ماهية ما هو غائب أو غير واضح.

> أمّا المتحدثون النوكوليلي، فهم، وبالعكس، يتفادون إعطاء تعريفاتٍ بقدر الإمكان لما هو غير واضح، ويبدأون بالأحرى سلسلة تعديل تشجّع المتكلّم الرئيسي على إعطاء ما هو غير واضح.
> (Besnier 1989: 332)

تهتمّ بيسنييه بروتينية حجب المعلومات ليس فقط بسبب تركيبتها التسلسلية، ولكن أيضاً لأنّها (1) تُظهر ميلاً نحو عدم تخمين ما يفكّر به المتكلّم الآخر، و(2) تقول لنا شيئاً عن كيفية تنظيم الناس في نوكوليلي لنشر المعلومات الّتي قد تُحدث مشكلة. يبدو أنّ تجنّب تخمين ما يقوله الآخر يتعلّق بمقاومة في كلّ بولنيسيا أو في كلّ بلاد المحيط الهادئ لقراءة ما يفكّر به شخصٌ آخَر (Duranti 1988b, 1993b; Ochs 1984, 1988; Schieffelin 1986). تُظهر طريقة نشر المعلومات تفضيلاً للاشتراك في المسؤولية عن ما يتمّ الكشف عنه.

ترى بيسنييه هذه الاستراتيجية كجزء من الثرثرة العفوية بين شخصَيْن من نفس الجنس عندما يصبحان المشاركين الرئيسيين بين مجموعة من الناس. من نتائج حجب المعلومات مشاركة السامع الأساسي بالمسؤولية. تقترح بيسنييه أنّه يتمّ بناء الإفصاح عن مَن فعل أو قال شيئاً ما من قبل المشاركين وبحسب ما ابتدأ به سؤال السامع الأساسي. يصبح السامعون مؤلفين مع المتكلّم (Duranti and Brenneis 1986). من جهةٍ أخرى، يمكن اعتبار استعمال مبتدئي التعديل مثل "من؟" و"ماذا؟" يُجبر الشخص المثرثِر أن يكون أكثر وضوحاً وأن يعطي معلوماتٍ تبقى دون ذلك غامضة أو غير واضحة. يصل بحثُ كهذا بين التعديل ومسألة **المسؤولية**، وهي بعدٌ من أبعاد تفاعل الناس الذين يهتم بهم الأنثروبولوجيون القانونيون (Gluckman 1965, 1972; Nader 1969)، الذين أصبحوا مؤخّراً حقل تحقيقٍ غني بالنسبة للأنثروبولوجيين الألسنيّين لأن هناك براهين كثيرة تنتج بواسطة تقارير روائية وكلامٍ منقول (Hill and Irvine 1993).

يرينا هذا المثال أنّ أهداف أبحاث الأنثروبولوجيين الألسنيين وأنواع الأسئلة الّتي يسألونها عن هذه التركيبات تختلف، وذلك بالرغم من اعتماد التركيبات الّتي تحلّلها بيسنييه وغيرها من الأنثروبولوجيين الألسنيين على أعمال محلّلي الحوار. لا يمكن سؤال هذه الأسئلة إلاّ عندما تتوفّر للباحثين المعلومات الّتي توفّرها الأساليب الإثنوغرافية. لا يمكن تصوّر ما يعرفه المشاركون أو نتائج ما يقال دون العيش في الجالية والحصول على فهمٍ للمعايير المحليّة الخاصّة بتبادل المعلومات وتحديد ما هو مهمّ وقيّم.

ينتقد الكثيرون محلّلي الحوار أو غيرهم من محلّلي المحادثة لعملهم في جالياتهم الخاصّة أو على لغتهم الخاصّة، ممّا يفسّر غياب الأساليب الإثنوغرافية لديهم. وتُعتَبر عندها المراقبة ـ المشارِكة المطوّلة

ضرورية فقط بالنسبة للّذين يودّون تحليل ثقافةٍ "غريبة" أو مختلفة. ولكن ليس صحيحاً أنّنا لا نحتاج إلى الإثنوغرافيا إلاّ عند دراسة ثقافاتٍ أو شعوبٍ تتكلّم لغة مختلفة. إذ يرتكز كلّ تاريخ الأنثروبولوجيا على فكرة أهميّة أن نصبح "غرباء مختصّين"، ولو بشكلٍ محدود (Agar 1980)، أي أن نضع أنفسنا في عالمٍ لا نستخفّ به، وأن نحاول أن نفهم الأشياء من وجهة نظر شخصٍ آخَر، وأن نضع انحيازاتنا وأي معرفةٍ لدينا جانباً. لا يجب تجنّب عمل ذلك، ولو كانت هذه المهمّة صعبة أو كان من المستحيل إكمالها. يسلّم محلّلو الحوار بضرورة تعليق حكمنا وأفكارنا المُسبَقة عن كيفية تصرّف المتكلّمين وأسباب ما يعملونه، يدافع بعض منهم مع ذلك، بشكلٍ غير مباشر، عن الرؤية القائلة بوجود عمل أقلّ عندما نحقّق مع جيرانِنا أو من يتكلّم لهجتنا. ولكن يمكن القول أيضاً إنّنا في دراستنا لثقافتنا الخاصّة بالضبط قد نستخف بها، كأعضاءٍ فيها، ونفترض بالتالي ما لا يجب افتراضه. وأخيراً، إذا ما سلّمنا بوجوب الاستعانة بالإثنوغرافيا في بعض الحالات[17]، لا يمكننا أن نستعملها في **كلّ** الحالات، لأنّنا لا يمكننا أن نعرف مسبَقاً **متى** سنحتاج إلى المعلومات الّتي لا يمكن الحصول عليها إلاّ بواسطة الأبحاث الإثنوغرافية.

2.3.8. مسألة وثاقة الصلة بالموضوع

يستعمل محلّلو المحادثة استراتيجية أخرى أيضاً للتعامل مع اتّهامهم "بعدم اعتبار السياق"، يقتضي النظر مباشرةً إلى مسألة ماهية

(17) ولذلك يسلّم شيغلوف، في كتابته عن طلب سيكوريل (1992) أن نستعمل الإثنوغرافيا لكي نفهم كيف يتمّ استعمال بعض المصطلحات في السياق الطبي، بأنّ "الأبحاث الإثنوغرافية قد كانت بالطبع ضرورية للسماح للمحلل بمعرفة معنى وأهميّة هذه المصطلحات الّتي تُظهر أهمية بعض نواحي السياق، أو لمعرفة أهميّة بعض الكلمات العادية (Schegloff 1992b: 223).

السياق. قام شيغلوف مثلاً بذلك في حديثه عن ما يسمّيه ب"مشكلة الأهميّة" . (Schegloff 1991: 49-52) " .

شيغلوف ردّ مراراً على منتقديه ومنتقدي زملائه لعدم أخذهم "السياق" (أو "سياق كاف") بعين الاعتبار، بتحويل المسألة من السؤال عن "مَن لديه سياق أكثر؟" إلى "كيف نقرّر أي سياق هو الأهم؟" ويعود ذلك، بالنسبة لشيغلوف، إلى معرفة ما إذا كان تحليل فيما إذا أخذ السياق بعين الاعتبار بشكل كاف (أو السياق "المناسب") إلى معرفة ما إذا كان أي نوع من المعلومات المتوفّرة للمراقب (Schegloff 1992b: 195). بما انّ لكلّ فرد طرقاً مختلفة لتمييزه، كيف يمكننا أن نعرف أي طريقة تهمّ في هذه الحالة؟

> حالما يتمّ تحديده فيما إذا كان ذكر أو "بروتستنتي" أو "رئيس" أو أيّ شيء آخر، يمكن تحديده أيضاً أو تصنيفه بطرق مختلفة أيضاً، لا يمكن لتقرير العالم أو المهني أو العلمي أن يعتمد بشكل "مبسط" على هكذا تحديد، من دون دليل أو سند لأهميته.

(Schegloff 1991: 50)

يمكن تطبيق ذلك أيضاً على ميزات المكان وتعاريف الحالة. فكيف يمكننا أن نقول مسبقاً مثلاً أي شروط سياقية تتعلّق بما سأتكلّم عنه عند تناولي العشاء الليلة؟ هل سيكون من المهم أنّي قد أمضيتُ عدّة ساعات على الكمبيوتر أكتب وحدي، وانّني لم أكن أضع عندها حذاء، وأنّني سمعتُ بعض الناس يتكلّمون الإسبانية في الطابق السفلي؟

بما أنّه لا يمكننا أن نعرف تصورياً، في معظم الأحيان، أي

نواحٍ من السياق ستكون مهمّة فيما بعد، يقول محلّلو المحادثة مثل شيغلوف إنّ الطريقة التجريبية الوحيدة الّتي يمكن اعتمادها للكلام عن السياق تعود إلى النظر إلى ما يجعله المشتركون أنفسهم مهمّاً بواسطة أفعالهم اللغوية، "فالبحث عن السياق المفيد يبدأ من الكلام أو التصرفات الاخرى الّتي يتمّ تحليلها" (Schegloff 1992b: 197) (التشديد موجود في النص الأصلي). وبالتالي لا يمكننا أن نحدّد تصورياً أنّ هوية الشخص الاجتماعية كـ"ابن عم" أو "طبيب" أو "صديق" ستكون مهمة، بالاعتماد فقط على المعلومات الموجودة لدينا عن هذا الشخص ومن يحادثه. وبالفعل لا يمكن حتّى في عيادة طبيبة أن نعرف ما إذا كانت هذه الطبيبة ستتعامل مع المريض في لحظة ما كـ"طبيبة" أو كـ"صديق" في لحظة أخرى. لهذا السبب، يجب على كلّ تحليل تفاعل ما أن يرجع إلى تحديد السبب الّذي أدى إلى اختيار ميزة معينة أو وصف معين للحالة وليس لغيرها.

ولكن هناك ضعف واضح، ليس في مشكلة العلاقة والأهمية نفسها، بل في أساليب تحديدها. بالتحديد، إذا كانت الاهمية تعني أنه تمّ اختيار (ذكر والتحدث عن) بعض السياقات أو الميزات دون أخرى (لكونها تُعتبر معروفة أو غير مهمة)، تبقى مشكلة الاكتشاف والوصول إلى ميزات السياق المهمة. بمعنى آخر نحتاج إلى طرق لتحصيل المعلومات السياقية الّتي قد لا تكون متوفّرة في الكلام ذاته. فإذا أردنا أن نفكّر مثلاً في ما إذا كانت المشاركة تدعوها أن تتصرف بالفعل كـ"طبيبة"، علينا أن نعرف أنّها بالفعل طبيبة أو أنّ المحادثة تجري في عيادة. يمكننا أن نتوقّع طبعاً ان يتكلّم الاطباء بطريقةٍ تعرّف بهم مباشرة كأخصائيين في الطب، ولكن هناك حالات قد نحتاج فيها أن نكون أكثر دقّة وأن نعرف ما إذا كان الشخص أخصائياً في الأمراض المعدية أم رئيس مركز تجارب (Cicourel 1992). فقد يشير المشاركون أو لا

إلى اختصاصهم الطبي. لهذا السبب، ولكي نمكّن تحليل السياق علينا أن نستعمل أساليب إثنوغرافية يمكنها أن تعطينا مستندات غنية عن الحالة الحاضرة وما يحيطها في الزمان والمكان (انظر الفصل 4).

يعتبر بعض محللي المحادثة أنّه لا يمكننا مبدئياً أن نتجاهل تحليل شيء ما فقط لأنّه لم يتمّ ذكر أو تدوين ناحية ما من السياق بشكل ملائم. ولكن من الصعب معرفة الأشياء الأخرى المهمة، إلا إذا كانت لدينا طرق لتوسيع سياق تبادل كلامي معين. وبالتالي، ولو أنّه لا يجب أن نتجاهل تحليل شيء ما قبل التفاعل وجهاً لوجه لعدم وجود معلومات كافية عن النظر أو عن مكان وجد المشاركين الواحد بالنسبة للآخر، لن نستطيع أبداً أن نعرف ما إذا كانت هذه الميزات مهمّة إلاّ إذا تمكنّا من التوصّل إلى معرفة وجهة نظر المشاركين وموقعهم. المسألة هي دائماً مسألة سعة المجال. فتماماً كما سمح لنا تسجيل صوتي لتفاعل عفوي برؤية تكرار ربما لم نلحظه من قبل (انظر الفقرة 1.8.)، توسّع أيضاً التسجيلات المرئية عدد الظواهر الّتي يمكن مراقبتها. بيّن غودوين مثلاً (1981) أنّه يمكن الربط بين بعض التعديلات الشخصية على الأقل والسعي إلى الحصول على دعم السامع. فيحلّل غودوين المثال (26) أعلاه، ويكشف فيه كجزء من تفاعل يخسر فيه المتكلّم نظر سامعه في منتصف الكلام. "عندما يربحه من جديد، يعيد المتكلّم الجملة الاسمية الّتي قالها عندما لم ينتبه اليه السامع، ويزيد عليها صفة في هذه المرّة :Goodwin 1981) (130. نعيد المثل (26) هنا كـ (32)، مضيفين المعلومات عن النظر (السطر العمودي يشير إلى نظر واحد إلى الآخر، وتشير الفاصلة إلى تحويل النظر، وتشير النقطة إلى تغيير وتوجيه النظر نحو شخص آخر، وتشير ال X إلى المكان المحدّد الّذي يصل فيه النظر إلى المشارك الآخر):

(32) رالف: قال أحدهم بينما كان ينظر إلى ابن: ي، ابني البِكر، تشيل: ـــــــــــــــ، . X ـــــــــ

(Goodwin 1981: 130)

استطاع غودوين، بفضل التسجيلات المرئية، أن يعرف أنّ ظواهر التعديل تتعلّق (على الأقلّ في بعض الحالات) بتركيب أنظار متناسقة بين المشاركين. لا ينفي ذلك التحليلات السابقة التعديل مثلاً تحليل (Schegloff, Jefferson, and Sacks 1977)، بل يضيف إليه، نوعاً ما، بعداً تحليلياً غنياً. بشكل مماثل، يزوّدنا تسجيل نفس المتكلّمين لمدّةٍ طويلة - ما يسمّيه علماء النفس بالدراسات الطولية (Longitu Dinal Studies) بفرصةٍ لنسأل الأسئلة اللازمة عن التغاير الفردي، التي لا يمكن تحقيقها من دون ذلك. أكّدت سوزان فيليبس (Susan Philips) (1992) مثلاً أنّ النقص في الأساليب الطولية في تحليل المحادثات لا يسمح للباحثين باكتشاف مدى عفوية بعض الظواهر اللغوية ومدى كونها نتيجة للأساليب الفردية (أو حتّى الاستراتيجيات المعدَّة). وجدت فيليبس مثلاً، في تحليلها لكلام القضاة إلى المتَّهمين في أربع محاكم في ولاية أريزونا، أنّ بعض القضاة صحّحوا أنفسهم في نفس المكان وبنفس الطريقة في كلامهم مع متّهَمين مختلفين. إليكم بعض الأمثال لنفس القاضي، في استعماله ل آه بعد أنّ في أربعة أمثال:

(33) يحقّ للمحكمة أن تسمح لك بالقول إلى هيئة المحلّفين - إعلام هيئة المحلَّفين أنّه، آه، يجب اعتبارك بريئاً.

(34) وستُعلم المحكمة هيئة المحلّفين أنّه، آه يجب اعتبارك بريئاً....

(35) سآمر بأن، آه، بأن يتم القيام بتحقيق قبل الحكم وأن يقدّم ضابط امتحان البالغين تقريراً إلى هذه المحكمة.

(**36**) حسناً. آمر بأن، آه يتمّ القيام بتحقيق قبل الحكم، وبأن يقدَّم مكتب المحكمة لامتحان البالغين تقريراً.

(Philips 1992: 316)

يمكن السؤال هنا، كما في حالاتٍ أخرى، ما إذا كانت الطرق المختلفة في تحديد الكلام في السياق الذي تتمّ دراسته تجبرنا على إعادة تقييم تحليلنا السابق أو إغنائه بالأحرى والزيادة عليه (Schegloff 1992b مكرَّس لهذا السؤال. أعتبر هذا السؤال مهمّاً لأنّه يحدّد برنامج أي تعاون ممكن بين أساليب تحليل التحادث والأبحاث ذات الاتّجاه الإثنوغرافي الّتي يقوم بها عادةً الأنثروبولوجيون الألسنيّون (انظر الفصل 4).

أعطيتُ في (24) أعلاه، على سبيل المثال، مثلاً عن بداية محادثة هاتفية بالإيطالية، وسأعيد الآن تحديد سياقها. أعيد التبادل هنا كـ (37):

(**37**) ج pronto :
مرحباً،
س: Giorgio?
جيورجيو؟
ج: ah ciao
آه أهلاً.
س: ciao
أهلاً.
[...] ("Giorgio 3")

في الدور الثالث، ينتج جيوريو ما أسميته أعلاه بأوّل جزء من زوج التحيّة الافتتاحية (ciao). ولكنّه يفعل ذلك، بقوله آه قبل

مرحباً، ولم أحلّل ذلك. هناك في بياناتي ما يثبت أنّ هذه الآه (ah) الإيطالية تشبه الـ oh الّتي تجدها أحياناً في نفس الموقع (الدور الثالث) في المخابرات الهاتفية الأميركية:

(38) س : مرحباً
م: مرحباً، تشارلي؟
س : آه (Oh)، أهلاً (Schegloff 1979a: 52)

وصف شيغلوف (1979) هذه الـ oh الإنجليزية كعلامة "النجاح الآن بالضبط" في التعرّف على المتّصِل. يصبح كون الـ oh بالفعل هذه العلامة واضحة عندما نرى أنّها تظهر أحياناً بعد سعي الجواب على "التظاهر" بمعرفة المتّصِل بالتحية من دون استعمال اسمه:

(39) أ: مرحباً
ب: أهلاً:
أ: أهلاً (0.3) آه (Oh) أهلاً روبين (Schegloff 1979a: 43)

نجد أمثلة مشابهة في البيانات الإيطالية، كما نرى في (40)، حيث تظهر الـ ah بعد توقّف ملحوظ يدوم ثانية وتتبعه سلسلة من "التطورات" حيث يعوّض المجيب عن تعرّفه المتأخّر إلى المتّصل:

(40) م لويزا: pronto
مرحباً،
فرانكو : pronto Marialuisa؟
مرحباً ماريالويزا؟
(1.0)
م لويزا: ah Franco ciao bello come va
آه فرانكو مرحباً يا جميل كيف حالك؟
("م لويزا")

ولكن عندما نوسّع نطاق سياق (37) أعلاه تحصل الآه (ah)

على معنىً جديد. بفضل طريقة جمع البيانات (كلّها من نفس الهاتف لعدّة أيّام)، لدينا أتصال سابق لجيورجيو إلى منزل فرانكو، حيث لم يكن فرانكو في البيت وطلب جيورجيو من والد فرانكو أن يتّصل به فرانكو لاحقاً. وبالتالي ليس اتّصال فرانكو بجيورجيو في (37) كغيره من الاتّصالات أو كأي اتّصال آخر يقوم به فرانكو بجيورجيو، بل هو "رد على اتّصال". في السياق الذي تزودنا به هذه المعلومات الجديدة، ليست الـ ah ـ مثل الـ oh في "آه (oh)، فهمتُ الآن من أنت" بل مثل الـ oh في "آه (oh)، أرى الآن بأنّك قد أعدت اتّصالي بالفعل". هل يغيّر ذلك التحليل الأوّل لـ ah الإيطالية؟ هل تعطينا تلميحات تساعدنا على إعادة فحص الـ oh في بيانات شيغلوف؟ من الأفضل الرد على هذه الأسئلة بشكلٍ تجريبي، أي على أساس تحقيقاتٍ فعلية عن معلوماتٍ مختلفة. من المحتمل أن يكون توسيع سياق التحقيق في بعض الحالات، كما يؤكّد شيغلوف - (1992b) مثلاً بإضافة ما يقال قبل أو بعد المحادثة، أو المستندات المرئية، أو خلفيات المشاركين - لا يغيّر شيئاً في نتائج التحليل الأوّلي. ولكن من المحتمل أيضاً في بعض الحالات الأخرى أن تؤثر بتحليل المعلومات الجديدة عن الوضع والمشاركين. لهذا السبب يجب التعامل مع مسألة أهميّة العلاقة بشكلٍ تجريبي وليس بواسطة مبادىء مجرّدة. ولكنّ فحصاً تجريبياً كهذا ليس بالسهل، ويعود ذلك إلى الاختلافات الأساسية في الأساليب والنظريات بين معظم محلّلي المحادثة والأنثروبولوجيين الالسنيين.

4.8. معنى الكلام

تعود إحدى مشكلات التأكّد تجريبياً من صحّة نتائج وادعاءات محلّلي المحادثة وتطبيق عملهم على عددٍ أكبر من الجاليات الكلامية، إلى العدد المحدود لدراسات التفاعل التحادثي الذي يقوم

به الأنثروبولوجيون الألسنيون خارج الولايات المتّحدة (أو المملكة المتّحدة). يعود ذلك جزئياً إلى تركيز الكثير من الأنثروبولوجيين الألسنيين على الطقوس والخطاب السياسي وتسجيلهم النادر للتبادلات الكلامية العادية[18]. وقد جعل ذلك من الصعب الحصول على بيانات تقاربية للقيام بتحليل يقارن الثقافات. مع الأسف، لم ترتكز بعض التفنيدات الماضية لنظام أخذ الدور الإنجليزي على تسجيلات فعلية (Godard 1977; Reisman 1974).

ولكن هناك عوامل أخرى تجعل استعمال نتائج تحليل المحادثات مشكلة بالنسبة لبعض الأنثروبولوجيين الألسنيين والثقافيين. ينظر محلّلو المحادثة إلى المحادثة كسلسلة من التركيبات الّتي تحتوي على أنماط متكرّرة من بعض أنواع "الأفعال" أو "التحرّكات". يتبع معظم محللي المحادثة اهتمامهم بمنطق أو "نحو" هذه التحرّكات ومدى إظهارها لاتّجاهات أو تفضيلات نظامية، كالموافقة، وتجنّب الكلام المتزامن، والسماح للمتكلّمين بتصحيح كلامهم. يبدأ التحليل عادةً ببيانات المحادثات وينتهي بتعميمات عن كيفية تنظيم المحادثة. تشكّل المحادثة أداة وهدف التحليل.

من ناحية أخرى، يهتمّ الكثير من الأنثروبولوجيين بالمحادثة كأداة لفهم تركيباتٍ أخرى. فهم يهتمّون مثلاً بالصلة بين ما يقال في سياقٍ معيّن من قبل جماعة من الناس وما تقوله نفس هذه الجماعة

---

(18) هذا النقد جاء من قبل بلوخ (Bloch) وكرره مورمان (Moerman) (1988: 11). ولقد تغيرت الأمور كثيراً في العقد المنصرم، حيث أخذ الطلاب المختصون بالخطابات واختصاصات أخرى بالتفاعل أكثر مع الأنثروبولوجيا الألسنية. ومع ذلك، يواصل العديد من علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية تدوين الخطاب الطقوسي أو السياسي فحسب، ويفوتوا بذلك فرصة التحري بعناية كيف تستخدم اللغة في أكثر حالات التواصل والتفاعل اليومي شيوعاً.

في واقعٍ ومكانٍ آخرين. يعني ذلك أنّه من المهمّ تسجيل تفاعل نفس الأفراد في حالاتٍ مختلفة. لا يعني ذلك فقط القيام بدراسة طولية، ولكن أيضاً الالتزام بعلاقة مجموعة من الناس (عائلة أو مؤسّسة أو وحدة سياسية) كجالية من المتكلّمين الذين يتشاركون في نفس المصادر الكلامية والاقتصادية. تصبح تحرّكاتهم ولقاءاتهم وخياراتهم الحياتية مهمّة للباحث الّذي يودّ أن يلاحق أماكن وجودهم وما يفعلونه. ليست سلسلة المحادثات ما يهمّ بل الفاعلين الاجتماعيين. يفسّر ذلك جزئياً لماذا تُعتَبر التبادلات الطقسية واللغة الّتي ترافقها أكثر أهمية بالنسبة للأنثروبولوجيين الألسنيين منها لمحلّلي المحادثة. تحدّد الطقوس لحظات مهمّة في حياة الجالية، وتتطلّب أيضا وحدات تحليل، للنشاط والحدث المنجزين، وهي تختلف عن سلسلة المحادثة (انظر الفصل 9).

يستعمل الأنثروبولوجيون الألسنيون والثقافيون وحدات وأساليب لغوية للكشف عن الدور الّذي تلعبه المصادر اللغوية في تشكيل إطار تفسير، كتحديد السياق المؤسساتي أو التعبير عن أيديولوجيا معينة عن النفس والآخَر. في نهاية المطاف، يعتقد الأنثروبولوجيون الألسنيون أنّه إذا أردنا أن نفهم ما يعنيه الناس في كلامهم وبواسطته أو أحياناً بالرغم من كلماتهم، علينا أن ننظر أبعد من الادوات اللغوية. لا تحمل آليات الكلام وحدها ثقل المقاصد والمسؤولية والحقيقة. تشكّل التفوّهات والكلمات والمورفيمات والأدوات العروضية والشبه لغوية أدوات تسمح بتحميل فكرة أو بالإشارة إلى صلةٍ ما. قد تكون اللغة منزل الكيان (Heidegger 1971, 1977)، ولكنّها ليست الكيان نفسه. بالنظر إلى كيفية استعمال الكلام في حياة الناس، نتعلّم أنّ المعنى يكمن في الصلات الّتي يساعد الكلام على إقامتها في داخله وخارجه، في كلّ السياقات. يعني ذلك أنّ على

الأنثروبولوجيين الّذين يدرسون طقوس الزواج أن يأخذوا بعين الاعتبار تركيبة الحدث ككلّ، حيث يتمّ تبادل الأشياء وليس فقط الكلمات (Keane 1994). وعلى الباحثين الّذين يدرسون استعمال أسماء الإشارة في التفاعلات التحادثية أن يفهموا كيف يمكن النظر أيضاً إلى نظام مورفولوجي معيّن يدلّ على اتّجاه المتكلّم وتواصله مع محيطه المباشر كنظام يفترض مسبقاً تصوّراً لمجال أوسع لحياة الجالية (Hanks 1990). يحاول علماء الموسيقى الإثنيون الّذين يدرسون الخرافات أو الأداء الموسيقي أن يصلوا بين القصص الّتي تُسرَد والأغاني الّتي يسجّلونها، وما تهتمّ به مجموعة من الناس، أو تشدّد عليه، أو تعتبره جزءاً من مكان وجودها وقدرها (Basso 1985; Feld 1982). يحاول الّذين يدرسون التبادلات المغناة الطقسية أن يجدوا صلات بين تنظيم هذه التبادلات الاجتماعي والأيديولوجيا المحليّة الخاصّة بالعلاقات الاجتماعية مع الخارج (Urban 1988).

في دراستها لرجال مجلس الزافانتي (Xavante)، اكتشفت غراهام (Graham) (1993, 1995) ميلهم إلى تداخل الكلام بتكرار أو إعادة صياغة ما يقوله "المتكلّم الرئيسي"، ممّا يشوّش الفرد ويؤسّس لحديثٍ تنتجه المجموعة - حيث يعيد المتكلّمون كلام بعضهم البعض ويشملون أحياناً أو يعيدون صياغة ما قاله الآخرون للتو. تعتقد غراهام أنّ هذا الحديث المتعدّد الأصوات يمثّل ويشير إلى أيديولوجيا متساوية أكثر من الحديث الفردي الّذي يتحكّم فيه متكلّم واحد.

تشير المقارنة بين هذه الدراسات وتلك الّتي قام بها محلّلو المحادثة إلى أنّ الأسئلة الّتي يسألها الأنثروبولوجيون الألسنيون قد تختلف عن أسئلة محلّلي المحادثة، لأنّ فكرة المعنى تختلف في كلّ منهما. ففي الأنثروبولوجيا، تُعتبر المعاني موجودة ليس فقط في

اللغة، بل أيضاً في القيم الاجتماعية، والمعتقدات، والعلاقات الاجتماعية، وأنظمة التبادلات والمساعدات على نطاق أوسع، بما في ذلك تركيبة العائلة وتنظيم الجالية الاجتماعي(19). يعتقد معظم الإثنوغرافيين أنّ هذه المعاني تحتاج بالطبع إلى اللغة التي تستعملها - لكي تقال وتجرَّب ويُتفاوض عليها، ويعاد خلقها - ولكنّها لا تكمن في الكلام فقط. هذه مسألة سيادة واستقلال الكلام نفسه في التحليل الاجتماعي والثقافي، والّتي تشكّل أساس المسائل الّتي تحدّثنا عنها في هذا الفصل. يأخذ الباحثون الميدانيون الّذين يشدّدون على قوّة الكلمات والتركيبات التفاعلية الّتي يؤمّنها الكلام عادة تحليل المحادثة بشكلٍ جدّي أكثر من الّذين يشدّدون على دور المؤسَّسات الاجتماعية ويعتبرونها كمن يهيمن على معنى الكلام ويتحكّم فيه. لا يمكننا إيجاد حلولٍ لهذه المسائل إلاّ إذا رفعنا معايير وضوحنا النظري وصحّة تجريباتنا.

5.8. خاتمة

بيّنتُ في هذا الفصل أن تحليل المحادثة يزوّدنا بوحدات تحليل مفيدة وبمفاهيم تحوّل التبادلات التحادثية إلى نماذج مصغَّرة عن النظام الاجتماعي وتوضّح الثقافة الّتي تجعل هذا النظام ممكناً وذا معنى. بدراستهم التفصيلية لطبيعة التفاعل التحادثي التسلسلي، حسّن محلّلو المحادثة كثيراً مقدرتنا على التفكير بالكلام كنتيجة التفاعل، ممّا وسّع نطاق سياق أفعال الكلام الفردية الّتي درسها أوستن وسيرل وقرّبنا من أنواع الألعاب اللغوية الّتي تحدّث عنها فيتغنشتاين. أكّدتُ أيضاً أنّه يمكن لفكرة التفضيل أن تشكّل أداة فعّالة لدراسة ما يقيّد

(19) هذا الانفصال بين علماء الأنثروبولوجيا الألسنية ومحللي الخطاب قد تمّ تجاوزه من قبل العديد من الباحثين الذين حاولوا الجمع بين المقاربتين.

التواصل بين الناس وفهمهم لأعمالهم الخاصة وأعمال غيرهم، مما يشكّل أحد مواضيع الأنثروبولوجيا الألسنية التقليدية، على الأقلّ منذ تحديدها في فرضية سابير - وورف (انظر الفقرة 2.3.). إذا كان من الصحيح، كما يقترحه فيتغنشتاين وغيره، أنّه يجب فهم الدوافع والنيّات الفردية في السياق الّذي توجده المؤسسات العامّة، تشكّل دراسة الأنظمة الدورية والتوقّعات الّتي تخلقها المساهمة المتواصلة فيها مثالاً ممتازاً عن كيفية الوصل بين التصرّف الفردي والتركيبات المؤسساتية.

تفحّصتُ أيضاً بعض من انتقد محلّلي المحادثة من بين الأنثروبولوجيين وغيرهم من علماء الاجتماع، واستنتجتُ أنّه لا يمكننا تجاهل فرضيات محلّلي المحادثة على أساس أساليبهم في جمع البيانات وتحديد السياق، لكنّ الأساليب الإثنوغرافية والطولية تسمح لنا بالدخول في مجالات تحقيق جديدة وبإعادة النظر أحياناً بالتحليلات الماضية المرتكزة على جمع البيانات من دون استخدام الأساليب الإثنوغرافية.

بشكلٍ عام، لا يمكن اقتصار الاهتمام بالتفاعلات التحادثية، من وجهة نظر أنثروبولوجية، على الأشكال أو الآليات الّتي تجعل هذه التفاعلات ممكنة. من المهم لأي شخصٍ يدرس الكلام اليومي أن يعرف نوع الأنماط المتكرّرة والتفضيلات الّتي يكشف عنها محلّلو المحادثة، ومن المهمّ أيضاً لأي شخصٍ يدرس المحادثة أن يكون على يقين بأنّ هذه التبادلات العادية تحصل على معناها من داخلها وخارجها. لا تشكّل صعوبة هذا التحليل سبباً كافياً لعدم القيام به. لا يعود نجاح محادثة فقط إلى الآليات الدورية، حتماً لا يعود اللفظ الصحيح لبعض الأصوات فقط إلى شكل وموقع الحنجرة عند الإنسان (بالمقارنة مع أجناس أخرى). على كلّ دراسة وجودية

للمحادثة - أي الدراسة التفصيلية لما يوجد كيان المحادثة - إن تعتمد على فهم فرضيات ونتائج نظام تبادلي يحتوي على عددٍ غير مشروح من الميّزات، مثل التجنّب العام لتصحيح الآخرين وصعوبة إقصاء أفراد معيّنين دون اللجوء إلى انتهاك النظام نفسه الّذي يجعل المحادثة ممكنة. هل تعود هذه التفضيلات والميّزات إلى أدبيات إنسانية عالمية أم هل هي ميّزات ضرورية لبقاء الجنس البشري؟ أم الاثنان معاً؟ هل طبيعة التفاعل التحادثي ديمقراطية وتعدّدية جوهرياً؟ ولماذا؟ يعود تردّد محلّلي المحادثة لمواجهة هذه الأسئلة جزئياً إلى طبيعة عملهم التصورية. ويشبه ذلك تردّد تشومسكي بمواجهة المستوى البسيكولوجي والاجتماعي لتفسير الظواهر اللغوية الّتي يدرسها. يجعل ذلك تحليل المحادثة حاملاً للكثير من المسائل، ورغم ذلك غير منفتح على النقد الذي قد يأتيه من تحديد هذه المسائل الأخرى. ولكنّ لهذه الحكمة ثمناً. ستجد أجيال الطلاّب الجدد أنفسها أمام ممارسات تحادثية دقيقة يكشف عنها محلّلو المحادثة، وسيكون عليها أن تختار بين البقاء في حدود مجال دراستها كما عرّف بها مؤسّسوها أو الدخول المغامر في خطر أمواج التحليل الثقافي، حيث يجب غالباً التخلّي عن الشكلية لكي تفهم ميّزة التجربة الإنسانية.

سندخل في الفصل القادم مغامرين في وحدات تحليل توسّع مجال تحليلنا لكي يشمل ليس فقط تبادلات أكثر تعقيداً بل أيضاً حالاتٍ حيث يندمج الكلام مع غيره من المصادر التواصلية.

الفصل التاسع

وحدات المشاركة

نجد في القرن التاسع عشر والعشرين في كلّ علوم الإنسان موضوع يصور تصرّف الإنسان كسلسلة من الأنظمة المتفاعلة والمستقلّة قي نفس الوقت، يمكن تقسيم كلٍّ منها إلى أجزاء أصغر فأصغر. كما رأينا في الفصلين 5 و6، أدّى ذلك في علوم الألسنية إلى تقسيم خطاب الإنسان إلى جمل، وتعابير، وكلمات، ومورفيمات، وفونيمات، وميّزات. سمح لنا هذا العمل بالحصول على فهم أكثر تعقيداً لكلام الإنسان، وطبقاته المختلفة، وبعض تداخل طبقاته واستفادة بعضها من بعض، ولكنّه لم يجب عن السؤال الّذي يسعى إلى معرفة كيف ينجح المتكلمون في الوصل بين وحدات اللغة الصغيرة والوحدات الأكبر الّتي تساهم فيها. سعت المناهج الّتي درسناها في الفصلَين الماضيين إلى التعامل مع هذه المشكلة بالوصل بين الأشكال اللغوية والأفعال الفردية أو سلسلات الأفعال. سأوسّع في هذا الفصل ما تحدّثتُ عنه في الفصلّين السابقَين فأنظر إلى وحدات تحليلٍ أخرى. سيكون الموضوع الأساسي هذه المرّة "المشاركة".

تشكّل المشاركة - وسنتحدّث عنها هنا كبعدٍ من تفاعل الإنسان

وكبعد تحليلي - مفهوماً يأخذ عدّة مجالات علمية في الألسنية، والأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، وعلم النفس. يركّز الألسنيون الاجتماعيون عادةً على المشاركة كمسألة بين الفرد والجماعات أو المجموعات الّتي تشكّل مرجعه، مثل الشبكات (Milroy 1980; Milroy and Milroy 1985) والجاليات الكلامية (Hudson 1980; Labov 1966; Romaine 1982; Waltres 1988). ويدرس الأنثروبولوجيون الألسنيون من ناحيتهم اللغة كما تُستعمل في التفاعلات وجهاً لوجه، مثل التبادلات الاحتفالية، والخطابة، والأعمال الروائية، والنوادر، والخلافات. يعود الاختلاف في مواضيع التحقيق جزئياً إلى الإختلاف في حالات الميادين الّتي يشارك فيها الألسنيون الاجتماعيون والأنثروبولوجيون الألسنيّون، حيث يعمل الأول عادةً في الجاليات المدنية الكبيرة، ويعمل الآخرون في جاليات صغيرة، أكثرها قروي. بالرغم من أن مفهوم المشاركة الّذي سأتكلّم عنه في هذا الفصل ناتج من النوع الأخير من الأبحاث، يشكّل توسيعه ليشمل حالات ميدانية وأبحاثاً أخرى كتحد للإجيال الجديدة من الأنثروبولوجيين الألسنيين العاملين الذين عليهم أن يشعروا بأهميّة القبول بها.

كما في الفصول السابقة، سأعطي هنا مراجعة قصيرة لجذور المفاهيم الّتي سأعرّف بها. سأقدّم أيضاً مثلاً عن أنواع التحليل الممكنة في الإطار الّذي تؤسسه فكرة "المشاركة". سأبرهن أنّ التفكير بواسطة وحدات المشاركة يساعدنا على إعادة الوصل بين نواحي اللغة الّتي تحدّثنا عنها في الفصول السابقة وأبعاد أخرى، منسية غالباً، من تجربة الإنسان، منها دور جسد المتكلّمين والمؤسسات الاجتماعية الّتي تشكلّها الممارسات اللغوية. يعني التفكير بالمتكلّمين كمشاركين أن نذهب أبعد من الكلام وحتّى أبعد

من الكلام كفعل وأن نشمل التجربة الأكبر لما يعني أن يكون الشخص عضواً في جالية كلامية. في الوقت نفسه، تشكّل المشاركة بعداً للكلام له جذور نحوية أيضاً، كما نرى في الأعمال عن أسماء الإشارة والإطارات اللغوية أو البراغماتية الشاملة. يجمع هذا الفصل بين كلّ هذه الأبعاد للمشاركة، الّتي قد تمّت دراستها حتّى الآن في تقاليد أبحاثٍ مستقلّة بعضها عن بعض. سأبدأ بفكرة "النشاط" كما نجدها في بسيكولوجيا فيغوتسكي (الفقرة 1.9.)، وبفكرة الحدث اللغوي (الفقرة 2.9.)، **أوّلاً** في تحديد جاكوبسون لها **وثانياً** في تحديد هايمز. سأتحدّث بعد ذلك عن ثلاث وحدات تحليلية متّصلة ولكن مختلفة تعتبر المشاركة نقطة بداية لدراسة التفاعل وجهاً لوجه (الفقرة 3.9.). سيسمح لنا تفكيك فكرتي "المتكلّم" و"السامع" اللتين يقوم بهما غوفمان وغيره من المؤلّفين بالتحدّث عن التأليف والنيّة والتركيب المشترَك للتفسير (الفقرة 4.9). سأنهي بعدها الفصل بتوسيع نطاق التحليل ليشمل المحيط المبني واستعمال جسد الإنسان ونظره في التفاعل (الفقرة 5.9.). ستعطينا دراسة التحيات وجهاً لوجه مثالاً عن نوع التحليل المتكامل الممكن عند دمج التركيز على المشاركة مع استعمال المستندات المرئية ـ الصوتية الّتي يقترحها الفصلَين 4 و5.

1.9. فكرة النشاط في بسيكولوجية فيغوتسكي

تعتبر فكرة الألعاب اللغوية لدى فيتغنشتاين (الفصل 7) فكرة أساسية لدراسة المعاني. يشكّل ذلك تغيّراً جذرياً في دراسة اللغة كفعل، فهي تسعى إلى دمج اللغة بالفعل وتزودنا بطريقةٍ للتفكير بإطاراتٍ أوسع تشتغل فيها اللغة. بدلاً من البدء بالتلفّظات، كما يفعل علماء نظرية فعل الكلام، اقترح فيتغنشتاين أن نبدأ بما يقوم به الناس فعلاً سوية - لنتذكّر مثلاً استخدام الأسماء **طوبة**، **عمود**، **لوح**،

عارضة بين المعماري ومساعده في بداية **التحقيقات الفلسفية** (انظر الفقرة 4.7).

لم يكن فيتغنشتاين الوحيد الّذي فكّر ابتداءً من النشاط. فقد حصل ذلك أيضاً في الاتّحاد السوفياتي تقريباً في الوقت نفسه[1]. وقد ابتدأ بنظرية ليف فيغوتسكي القائلة بضرورة تحويل التطوّر التفكيري إلى **نشاط وسيط** بين مبتدِئ (مثلاً الطفل) وخبير (ناضج) (انظر الفقرة 4.1.2). بعد وفاة فيغوتسكي، طوّر بعض أتباعه أفكاره، بالأخصّ أ. ن. ليونتييف (A. N. Leontyev)، لتولد عندهم النظرية المعروفة **بنظرية النشاط**. يقول ويرتش (Wertsch) (1981) إنّ نظرية النشاط تسعى إلى دراسة العلاقة بين الوعي والعالم المادي. وقد ظهرت هذه المسألة، لدى علماء النفس السوفياتيين مثل فيغوتسكي وليونتييف وروبينشتاين، من موقف نظري متأثّر بماركس وإنغلز في حديثهم عن الأيديولوجيا، وانتقاد ماركس للنظريات المادية الّتي وُجدت من قبله انظر مقالة (Wertsch 1985a). في كتابه **فرضيات عن فيورباخ** يشدّد ماركس على أهميّة إبقاء علاقة بين الوعي ونشاط الإنسان الحسّي والعملي في العالم:

> مشكلة كلّ النظريات المادية حتّى الآن... هي أنّها تتصوّر الشيء، الواقع، الحسّ فقط كشيءٍ **تتأمّله**، وليس **كنشاطٍ حسي إنساني**، كشيء ذاتي.

---

(1) لا توجد علاقة مباشرة بين فيتغنشتاين وعلماء النفس السوفياتيين الذين سأتحدّث عنهم الآن، هناك علاقات غير مباشرة بينهم. فقد قرأ فيغوتسكي بوهلر مثلاً، الّذي كان في النمسا عندما كان فيتغنشتاين يفكّر "بتغيير" منهجه (انظر الفصل 7). هناك علاقات أخرى ممكنة أيضاً. من الممكن القول إنّ فكرة "النشاط" كوحدة تحليل للمقدرات العقلية واللغوية كانت محور "تداول" بين العلماء والأكاديميين الأوروبيين في العشرينات والثلاثينات.

وبالتالي فقد طوّرت المثالية، بعكس المادية، الجانب الفعلي - ولكن فقط بشكلٍ مجرَّد، لأنّ المثالية لا تعرف بالطبع النشاط الحسّي.

(Marx [1845] 1978: 143) (التشديد في النص الأصلي)

حوّل فيغوتسكي وزملاؤه هذا الموقف إلى سؤال عن كيفية ابتكار نظرية عن عقل الإنسان تسعى بجديّة أنّ الإنسان المفكّر لا يفكّر فحسب بل يتحرّك ويبني ويلمس ويشعر وخاصّةً يتفاعل مع غيره ومع الأشياء الماديّة بواسطة النشاط الجسدي والسيميائي. تقترب هذه الرؤية، وهي غائبة غالباً عن علم النفس الأميركي الإدراكي[2]، وقريبة من النظريات الأنثروبولوجية الحالية (وهي تساندها أحياناً) التي تعتبر الثقافة كممارسات وليس فقط كأنماط تفكير (انظر الفصل 2). تعود المسألة في كلا الحالتين إلى كيفية التوفيق بين العمليات الإدراكية الفردية والأداء التفاعلي العلني حيث يقوم الأفراد بإنتاج نشاط مشترَك يبدو أكثر من مجموع أجزائه. حلّ فيغوتسكي هذه المشكلة بعكسه للعلاقة العادية بين الفرد والمجتمع. لم يبدأ فيغوتسكي من الفرد والنشاط المشترَك كمجموع العمليات والأفعال الفردية الإدراكية، بل اقترح نظرية تطوّرية حيث المقدرات الفردية (أو البسيكولوجية **الداخلية**) تأتي من العمليات التفاعلية (أو البسيكولوجية **الخارجية**). يعطي مثلاً عن ذلك في تطوّر **الإشارة** (Pointing)، التي تبدأ مع محاولات الطفل الفاشلة للقبض على شيءٍ ما انظر (Cassirer 1955: 181). يصبح تحرّك ذراع الولد عملاً تواصلياً (إشارة) عندما

(2) ولكن انظر (Newman, Griffin, and Cole (1989), Rogoff (1990), Rogoff and Lave (1984), Wertsch (1985a, 1985b)).

تفسّره الأم كظهور سعي الطفل للقيام بعملٍ ما.

> وبالتالي، يعيّن الآخرون المعنى الرئيسي لفشل حركة القبض. يبدأ الطفل لاحقاً فقط، عندما يستطيع الوصل بين فشل حركة قبضه والحالة الواقعية بأكملها، بفهم هذه الحركة كإشارة. يحصل عندها تغيير في وظيفة هذه الحركة: فتتحوّل من حركة تذهب نحو الشيء إلى حركة تشير إلى شخصٍ آخَر، كأداةٍ لتأسيس علاقات. **تتحوّل حركة القبض إلى فعل الإشارة.** نتيجةً لهذا التغيّر، يصبح التحرّك نفسه مبسّطاً، وينتج عنه شكل الإشارة الّتي يمكننا تسميتها بالإيماء الحقيقي.
>
> (Vygotsky 1978: 56) (التشديد في النصّ الأصلي)

ابتدأ ليونتييف من هذه الرؤية ليطوّر عمل فيغوتسكي بطريقتَين أساسيتَين. أخذ ليونتييف (Leontyev) (1981 [1959]) **أوّلاً** وجهة نظرٍ تطوّرية واقترح التفكير بوعي الإنسان كمقدرة أتت من عمله. تعلّم الناس تنسيق أفعالهم حول هدفٍ مشترَك حلّ محل حاجاتهم الفردية وكان ضدّها أحياناً. ففي صيدٍ منظّم مثلاً، على مثير الطرائد ألاّ يلبّي حاجته المباشرة للطعام وأن يثير الطريدة لتركض هاربة. هذا فعلٌ عقلاني حقيقي[3]. يعتقد ليونتييف أنّ الناس يطوّرون وعيهم في سياق هذه النشاطات المعقَّدة .**ثانياً**، وسّع ليونتييف نطاق رؤية فيغوتسكي

(3) تجب الإشارة مع ذلك إلى أنّ هذا الفعل لا يمكنه أن يشكّل وحده العامل الحاسم في تطوّر الوعي، فهناك حيوانات أخرى تتصيّد في مجموعات (مثلاً الذئاب) وتستطيع بالتالي أن تسخّر أهدافها الفردية إلى أهداف الجماعة.

الخاصة بالتفاعل الاجتماعي للتطوّر الإدراكي فحوّلها إلى نظرية تأخذ النشاط كوحدة تحليلية رئيسية. فيعتبر ليونتييف النشاط "وحدة حياتية للشخص المادي الجسدي" (46 : 1979 [1975]). تعود وظيفة النشاط إلى "توجيه الشخص في عالم الأشياء" (المصدر نفسه).

تشمل هذه الرؤية أبعاداً أساسية للصلات بين العمليات الإجرائية والتركيبات اللغوية، والعالم المادي من حولها (انظر أدناه).

2.9. الأحداث الكلامية: من وظائف الكلام إلى الوحدات الاجتماعية

نجد أوّل خطوة جدّية من قبل النحاة لدراسة الكلام الراسخ في الوحدات الاجتماعية في ابتكارهم لنموذج يلعب فيه المتكلّم والسامع كلاهما دوراً أساسياً. في الندوة عن الأسلوب في جامعة إنديانا في سنة 1958، اقترح اللغوي الروسي رومان جاكوبسون (Roman Jakobson)، في توسيعه لعمل عالم النفس النمساوي كارل بوهلر[4] نموذج حدث كلام مكوّن من ستة "عوامل أساسية" "يحدّد كلٌّ منها وظيفة معيّنة للّغة" (Jakobson 1960: 353). نرى في الرسم 1.9 العوامل الستة وفي الرسم 2.9. الوظائف الست، كما قدّمها جاكوبسون بيانيّاً.

(4) كان كارل بوهلر عالم نفس نمساوياً اهتمّ كثيراً باللغة وكتب أطروحة رائدة، Sprachtheorie، نُشرت في سنة 1934، وكان لها تأثير عميق على الألسنيين الأوروبيين، بما في ذلك معهد براغ للألسنية، الّذي انتمى إليه جاكوبسون. شمل نموذج بوهلر للّغة (ويمكن أن نقرأ كشفاً أولياً عنه في مقالة له من سنة 1918) ثلاثة عوامل: (أ) التمثيل (Darstellung)، (ب) التعبير (Ausdruck)، (ج) الجاذبية (Bühler [1934] 1990) (Appeal). لكلّ من هذه العوامل وظيفة تناسبه. وترتكز وظائف جاكوبسون - المرجعية والعاطفية والاعتزامية - على نموذج بوهلر (Jakobson 1960: 355). لدراسة موضّحة لحياة بوهلر الفكرية والاجتماعية، انظر (Eschbach 1990).

السياق

الرسالة

المخاطَب.......................المخاطِب

اتّصال

شيفرة

رسم 1.9. العوامل الستة الأساسية

مرجعية

إبلاغي شعري عاطفي

انتباهي

لغوي تبصّري

رسم 2.9. وظائف اللغة الست، بحسب جاكوبسون

كما نرى من أن أمثلة، جاكوبسون مكوّنة من أقوال فردية، يجب تفسير "حدث الكلام" في هذا النموذج كمرادف لفكرة فعل الكلام لدى أوستن وسيرل. تسمح لنا فكرة النظر إلى الأقوال كأحداث بدراسة الدور الّذي تلعبه العوامل المختلفة في تشكيل الرسالة وفي تفسيرها.

تركيز جاكوبسون على ناحية واحدة من الحدث الكلامي يعني تفضيل الوظيف اللغوية الّتي تناسبه. فرسالة شفهية يشكّل فيها السياق عنصراً رئيسياً هي رسالة يفضل فيها المتكلّم وظيفة اللغة **المرجعية**[5]. نجد مثلاً عن ذلك في الرسائل الّتي تسعى إلى وصف حالة أو وضع عقلي. تشمل هذه الوظيفة الأقوال الوصفية الّتي تعطي وصفاً محدّداً (مثلاً **الثلج أبيض، يحبّ الأطفال الاعتقاد بحقيقة وجود بابا نويل**)

(5) نستعمل كلمة "السياق" هنا بمعنى محدود يشير إلى العالم خارج اللغة وليس له علاقة بما يشار إليه حالياً في الحديث عن السياق انظر (Goodwin and Duranti 1992).

والأقوال الّتي تستعمل أسماء وضمائر الإشارة مثل **أنا**، **أنت**، **هنا**، **هناك**، **الآن**، **مثلاً تسكن أليس هنا**، **أنا كنت نائماً**). يَعتبر هذا النموذج الوظيفة المرجعية (الّتي تشمل ما سميناه من قبل بالوظيفة "الدلالية") الوظيفة الأكثر استعمالاً في معظم الرسائل ولكن ليس في كلّها: "... قد يكون السياق ما تسعى إليه معظم الرسائل، ولكن يجب أخذ الوظائف الأخرى بعين الاعتبار من قبل اللغوي المراقب" (Jakobson 1960: 353). يسمح النموذج أيضاً بأخذ أكثر من وظيفة واحدة بعين الاعتبار وبالتالي بوجود أكثر من وظيفة واحدة في الوقت نفسه في نفس الحدث الكلامي.

أما التركيز على المخاطَب فيستحضر الوظيفة **العاطفية** (الّتي تسمّى أيضاً بـ"التعبيرية" ومؤخَّراً "الشعورية"). نجد مثلاً كلاسيكياً عن ذلك في الإقحام (أه، آه، أوف، في الإنجليزية oh, ah; ugh, phew)[6] وغيرها من تحويل للأصوات اللغوية لا يغيّر المعنى الدلالي للعبارة ويضيف معلومات عن موقف أو رأي المتكلّم انظر (Gumperz 1992; Ochs 1996). يعني التوجّه نحو المخاطَب استعمال الوظيفة الإبلاغية، والمثل الكلاسيكي عن ذلك هو النداء، ونجد علامة مورفولوجية له في بعض اللغات (مثلاً Brute ! باللاتينية، "يا بروتوس !"، حيث تشير الـ e إلى أنّنا لا نقول شيئاً **عن** بروتوس ولكن **له**) أو تغيير فقط بقوّة الصوت (كما في الإنجليزية في !John Come here ! (يا جون ! تعال إلى هنا!)). يقع الاختلاف بين

(6) يشكّل الإقحام مجالاً مهماً لا يدرس كفاية. فيسمح الإقحام مثلاً باعتماد أصوات لا تنتمي إلى النظام اللغوي. نجد مثالاً عن ذلك استعمال ال /x/ الطبقي الاحتكاكي غير المجهور في الكلمة الإنجليزية ugh الّتي تُلفظ [ʌx] أو [əx] (Quirk, Greenbaum, Leech, and Svartvik 1985: 74) والهمزة في الإنكار uh-uh الّذي يلفظ [əʔəʔ] (انظر Ferguson 1982).

الوظيفة المرجعية من جهة والوظيفتَين الإبلاغية والعاطفية من جهة أخرى لأن تقييم حقيقة القول ممكن فقط في الأولى. أما في الحالتَين الأخريَين فمن غير المناسب القيام بذلك. فكما يشير إليه جاكوبسون، لا يمكننا الاعتراض على قول أحدهم **اشرب!** (وهي وظيفة إبلاغية يعبَّر عنها في الأمر) بالقول "هذا صحيح أو غير صحيح؟" (انظر أيضاً موقف أوستن من ذلك في الفقرة 2.7.). أضاف جاكوبسون إلى هذه الوظائف الثلاث الّتي أخذها عن بوهلر ثلاث وظائف أخرى : الشعرية والانتباهية واللغوية التفسيرية.

تعلّمنا من دراسة الأوجه التسلسلية للكلام (انظر الفصل 8) أنّ الوظيفتَين العاطفية والإبلاغية تلعبان كلتاهما دوراً، وقد تكونان أساسيتين أو لا. فمثلاً حتّى عندما يعبّر الناس عن لعنتهم بعد حادثٍ مزعج (مثلاً التعثّر أو الزلّة أو الوصول بعد ذهاب الباص أو وقوع البوظة على الأرض) بواسطة زيادة مثل fuck! (اللعنة!) بالإنجليزية، merde! بالفرنسية، أو cazzo! بالإيطالية، أو أوكا! بالصومالية، هناك دور يلعبه تصميم المستلم. يظهر ذلك بوضوح في مقدرة المتكلّمين على التحكّم بنوعية وطريقة قول هذه اللعنات، من الهمس إلى الصراخ (Goffman 1981: 97-98).

تلعب الوظيفة **الشعرية** دورها عندما يحصل تركيز "على الرسالة دون غيرها" (Jakobson 1960: 356). تسمح هذه الوظيفة، وهي جزء من لغة الشعر ولكنّها لا تتطابق معها، باللعب بالكلام، بالرمزية الصوتية (انظر الفقرة 1.8.6.)، أو بأي أداة لغوية تتحكّم بشكل أو صوت الرسالة أو تركّز عليهما. قد تسمح الوظيفة الشعرية لشكل الرسالة أن يتحكّم بالمحتوى. مثلاً عندما يبحث الشعراء أو كتّاب كلمات الأغاني عن كلمة تتناغم مع أخرى في البيت السابق، يضعون الوظيفة الشعرية قبل الوظيفة المرجعية. في الحقيقة عندما يجدون في

بعض الأحيان كلمة "صوتها مناسب"، يعيدون صياغة ما قيل من قبل لكي يتناسق مع التعبير الجديد. ولا نجد حضوراً قويّاً للوظيفة الشعرية في الشعر فقط، بل أيضاً في أنواع أخرى من الكلام كالكلام السياسي أو الإعلانات.

تعطينا غلبة التواصل على غيرها من العوامل ما يسمّيه جاكوبسون، مقتبساً في ذلك فكرة مالينوفسكي (Malinowski) (1923) عن "المشاركة الانتباهية"، بالوظيفة **الانتباهية**، وهي تميِّز ما يقال فقط (أو بالأخصّ) لبدء أو إكمال أو إنهاء التواصل، كما يحدث عندما يتأكّد المتكلّمون من عمل الهاتف، كقولهم **مرحباً**، **هل تسمعني؟** يعتبر جاكوبسون أنّ التحيّات تستعمَل وظيفة انتباهية، لأنها لا تحتوي عادةً على "مضمون" (فهي لا تتحدّث "عن شيء")، أو عندما تحتوي على مضمون، لا يشكّل الأخير هدفها الأساسي. وهذا صحيح أيضاً بالنسبة للعبارات الخاصّة بالطقس الّتي يقولها الناس في المصعد أو الأماكن المغلقة، حيث يشعر الناس (في الكثير من المجتمعات)، بسبب تقاربهم، أنّه عليهم أن يقولوا شيئاً ما.

أمّا الوظيفة ما وراء اللغوية (وهي تسمّى حالياً ما **وراء اللغوية** أو **انعكاسية**) فهي تقضي باستعمال اللغة للكلام عن اللغة (Lucy 1993). أُخذ هذا المصطلح عن المنطق، حيث يميّز بين "اللغة الشيئية" (مثلاً رموز الرياضيات) "وما وراء اللغة"، أي اللغة الّتي نستعملها لنتكلّم عن اللغة الشيئية (مثلاً اللغة الإنجليزية) (Tarski 1956). وسّع جاكوبسون نطاق وظيفة ما وراء اللغة لتشمل كلّ الحالات الّتي نتكلّم فيها عن الكلام، بما في ذلك الحديث عن معاني الكلمات في لغتنا الخاصّة (**عندما يقول الناس "أكرهك" يعني ذلك أنّهم لا يعرفون كيف يمكنهم فهمك**) وتفسير كلمة في لغة أجنبية (**تعني كلمة "هون" "كتاب" في اليابانية**) (انظر الفقرة 7.6. عن الوعي ما وراء اللغوي).

عندما نكتب نستعمل عادةً علامات اقتباس لفصل اللغة الشيئية عن ما يقال في ما وراء اللغة. وعندما نتكلّم نحدّد الكلام المقتبَس بواسطة تغييرٍ طفيف في نوعية الصوت والوزن أو ميّزات فوق التركيبية مثل علو الصوت والسرعة (Cruttenden 1986; Crystal and Davy 1969). في بعض الحالات، نستعمل هذه الميّزات اللغوية مع غيرها للإشارة إلى أن ما يقال مقتبس ليس بالضرورة عن متكلّم آخر بل عن لهجة أخرى أو طريقة كيانٍ مختلفة. يسمّي مورغان (1996) استعمال وظيفة ما وراء اللغة **لهجة القراءة** في الجالية الأميركية الإفريقية، حيث يقارن الأعضاء أو يشدّدون ("يقرأون")، غالباً بشكلٍ مازح وطريف، على الاختلاف بين ميّزات من إنجليزية الأميركيين الإفريقيين والإنجليزية الأميركية لإيصال فكرةٍ ما.

للتشديد على نقطةٍ ما مثلاً، قد يقول الأعضاء "It's not simply that I'm cool. I be cool. In fact, I been cool a very long time" ("لستُ فقط رائعاً. بل أنا رائع في كياني، وأنا رائع منذ وقت طويل"). في الجالية الأميركية الإفريقية، لا توجد لهجتان فحسب، كان الأميركيون الأفارقة والأميركيون يقرأونهما بل أيضاً هناك تعدّدية في كلتا اللهجتَين يقرأها المتكلّمون دائماً (Morgan 1996: 410).

في هذه الحالات إذاً، تصبح بعض الميّزات النحوية، مثل وجود الفعل كان (be) دون تصريفه في الجملة الأساسية (في I be cool) أو غياب فعل have (في I been) دلالات على سياق استخدام هذه الأشكال، فتلعب بالتالي نفس الدور الّذي تلعبه علامات الاقتباس.

يدين نموذج جاكوبسون بالكثير ليس فقط، كما قلت من قبل،

إلى بوهلر، بل أيضاً إلى النظرية اللغوية لمعهد براغ للألسنية[7].
ابتكر أعضاء مدرسة براغ منهجاً لدراسة اللغة نظر بنفس الانتباه إلى التركيبة والوظيفة. يعني ذلك أنّهم اعتبروا اللغة مرسَّخة في نشاط الإنسان وأداة له في الوقت نفسه[8]:

> اللغة من إنتاج نشاط الإنسان وتتقاسم معه ميّزة الهدف. عندما نحلّل اللغة كتعبير أو كتواصل، يسعى المتكلّم إلى إعطاء التفسير الأكثر سهولةً والأكثر طبيعية. (Théses présentés au premier congrés des philologues Slaves, 1929, in *Slaves,* 1929, in Vachek 1964: 33)

كان التشديد على اللغة كنشاط يتّجه نحو هدف مهم، لأنّه أجبر الباحثين على الوصل بين الأشكال اللغوية ودراسة الوظائف الاجتماعية. استلهم نموذج جاكوبسون من ذلك، كما كان أساسياً في مطالبة ديل هايمز **بإثنوغرافيا تواصل**. في هذه الحالة، أثّرت مسائل وأساليب الإثنوغرافيا بثلاث مسائل أساسية في دراسة هايمز (1964b) : **(1)** الأساليب الإثنوغرافية، **(2)** دراسة الأحداث التواصلية الّتي تشكّل حياة الجالية الاجتماعية، **(3)** نموذج مكوّنات الأحداث المختلفة.

> نقطة البداية هي التحليل الإثنوغرافي للعادات التواصلية في جالية ما بأجمعها، الّذي يظهر ما يعتبَر حدثاً تواصلياً، مع مكوناته، ولا يتصوّر أي تصرّف تواصلي ممكن بشكلٍ مستقل عن المجموعة الّتي

---

(7) عن العلاقة بين بوهلر وأعضاء مدرسة براغ، انظر (Vachek 1966).

(8) ليس التشابه هنا بنظرية النشاط عرضياً، فقد كان فيغوتسكي على علمٍ بعمل بوهلر واقتبس عنه الكثير في كتاباته.

يحدّدها المكان والسؤال غير المباشر. فالحدث التواصلي أصبح أساسياً. (من ناحية لغوية محضة، يعني ذلك القول بأنّ فعل الكلام يحلّ محلّ الشيفرة اللغوية كما يجب إعارته انتباهنا) (Hymes 1964b: 13).

نرى في هذا النص أنّ المهمّة الّتي وضعها هايمز لنفسه ولطلاّبه (وقد اصبح الكثيرون منهم شخصيات أساسية في الأنثروبولوجيا الألسنية) هي الوصل بين ميّزات استعمال اللغة والجالية الّتي حصلت فيها هذه الاستعمالات، وفُسّرت، وأعيد إنتاجها. تمّت إقامة الصلة مع الجالية بواسطة **الحدث التواصلي** كوحدة تحليل. فقد كتب يقول: "بمعنى ما، تشدّد دراستنا الحالية على الجاليات المنظّمة كأنظمة أحداث تواصلية" (1964b: 18).

طوّر هايمز نموذج جاكوبسون الخاص بحدث الكلام بشكلٍ واضح، فجعله أكثر دقّة بإضافة عوامل جديدة على "عوامل" جاكوبسون الستة، فأنتج قائمة من سبعة عناصر (Hymes 1964b) ومن ثمّ من 16 عنصراً (Hymes 1972a)[9]. لتسهيل حفظ هذه القائمة الطويلة، جمع هايمز أعضاءها تحت أحرف بداية كلّ عنصر، فحصل على: S-P-E-A-K-I-N-G: Situation, Participants, Ends, Act sequences, Key, Instrumentalities, Norms, Genre (الوضع، المشاركون، الأهداف، سلسلة الأفعال، المفتاح، الأدوات، المعايير، الأجناس)[10].

---

(9) أقرّ هايمز (1972a: 51) بعددٍ من الّذين أثّروا فيه، منهم كينيث بيرك، الّذي ابتكر، في الأربعينات، نظرية **دوافع** اعتمدت على مفاهيم مثل الفاعل، والفعل، الهدف، والمشهد (Burke 1945).

(10) تمّ تقسم كلّ من هذه المكوّنات بدورها، باستثناء "المفتاح" و"الجنس"، إلى =

شكّلت هذه العوامل مكوّنات الكلام أو مكوّنات أفعال الكلام (Hymes 1972a: 58). تمّ التخلّي فيما بعد عن عبارة "الحدث التواصلي" (Hymes 1964b) واستبدِلت بعبارة **"الحدث الكلامي"**. وكان من المفروض فهم الأحداث الكلامية بشكلٍ محدود "كنشاطات، أو نواحٍ من النشاطات، تحكمها مباشرةً قوانين أو معايير استعمال الكلام" (Hymes 1972a: 56). كامثلة من الأحداث الكلامية إضافة إلى المحاضرة، والحديث الهاتفي، والصلاة، والمقابلة، والقصص الطريفة. يلعب الكلام في هذه النشاطات دوراً أساسياً في تحديد ما يحصل - وإذا تخلّصنا من الكلام لا يمكن للنشاط عندها أن يحصل. من ناحية أخرى، تشكّل **الحالات الكلامية** نشاطات يلعب فيها الكلام دوراً ثانوياً أو خاضعاً لغيره. نجد ذلك في مباراة كرة القدم، والمشي مع صديق، والذهاب في الباص، وزيارة معرض فنّي. يبدو التفريق بين الأحداث الكلامية والحالات الكلامية جيداً، ولكنّه قد يشكّل مشكلة، وبخاصّة إذا أردنا كمحلّلين الحصول على تمييزات واضحة بين الأحداث الكلامية والحالات الكلامية. في عالم الواقع نجد حالات أو أجزاء من حالات حيث يُستعمل الكلام بشكلٍ **جوهري**، أي كأداة للمحافظة على هذه الحالة أو تلك وتحديدها. هذا ما يحصل في المحادثة، ولكنّه قد يحصل أيضاً في المباراة أو المشي مع صديق. قد يكون لغياب الكلام عندها نفس

= مكوّنَين أو أكثر: الوضع (**1**. المكان، **2** .المشهد)؛ المشاركون (**3**. المتكلّم أو الباعث، **4**. المخاطِب، **5**. السامع أو المستمع أو الجمهور، **6**. المخاطَب)؛ الأهداف (**7**. ما يهدف إليه - النتائج، **8**. ما يهدف إليه - الأهداف)؛ سلسلات الأفعال (**9**. شكل الرسالة **10**. محتوى الرسالة)؛ المفتاح (**11**. المفتاح)؛ الأدوات (**12**. قناة، **13**. أشكال الكلام)؛ المعايير (**14**. معايير التفاعل؛ **15**. معايير التفسير)؛ الجنس (**16**. الأجناس). انظر (Hymes 1972a, 1974 and Duranti 1985).

أهمية وجوده في ما نعتبره أحداثاً كلامية انظر (Duranti 1985).

أكد هايمز الطبيعة الإرشادية لنموذج الكلام SPEAKING الّذي ابتكره، والّذي أراد له أن يكون دليلاً (أو شبكة خارجية) للعمل الميداني والتحليل بين الثقافات (كان على إثنوغرافيي التكلّم أن يذهبوا إلى عدّة جاليات وأن يدرسوا استعمال اللغة فيها بحسب المكوّنات التي وصفها هايمز) انظر (Sherzer and Darnell 1972). يبدو أنّه لم يرد أن يدعو إلى إعطاء سلسلة من التوصيفات الإثنوغرافية للأحداث الكلامية ولأفعال الكلام كأمثلة عن كلّ من المكوّنات ال16 ـ فقراءة مثل هذه التوصيفات مضجرة ـ بل أن يعطي فكرة عن العوامل الموجودة في دراسة اللغة كجزء من الحياة الاجتماعية (ولذلك كان عنوان مقالة هايمز في سنة 1972 "نماذج عن التفاعل بين اللغة والحياة الاجتماعية"). (إن الابتكار في توسيع هايمز لنموذج جاكوبسون) لم يكن في عدد ونوع المكوّنات بل في طبيعة وحدة التحليل.

استعمل جاكوبسون فكرة الحدث الكلامي لتوحيد مكوّناته الست ووظيفتها في اللغة. كانت الشيفرة اللغوية ما تزال رئيسية في نموذجه، فقدّم اقتراحات مهمّة عن كيفية الوصل بين عدّة أشكال من الاشتراك والأنماط النحوية. ولكنّ جاكوبسون لم يهتم بالتنظيم الثقافي ـ الاجتماعي للأحداث اللغوية أو بدورها داخل الجالية. أمّا هايمز فقد اعتبر الجالية نقطة البداية، واعتبر أحداث الكلام مكان إيجاد واتّحاد الجاليات. لم تعد وحدة التحليل عند هايم وحدة لغوية محضة، بل **وحدة اجتماعية** تتضمّن الكلام أو ترتكز عليه. وبالتالي فإن اهتمام هايمز أقلّ بوظائف الكلام الّتي يحدّدها جاكوبسون وأكثر بكيفية مساعدة نواحي التفاعل المختلفة على تحديد ما يقال وكيف يقال. تشكّل أفعال الكلام وأحداث الكلام بالتالي وحدات اشتراك بالنسبة لهايمز، بطريقتَين

على الأقل: (1) تسمح للناس بالانتماء إلى جالية؛ (2) تسمح بتشكيل جاليات. يمكن بالتالي فهم الجالية على عدّة مستويات. فعلى المستوى التفاعلي المصغَّر، تشير "الجالية" إلى جماعة صغيرة أو كبيرة من الناس منضوية حول نشاط مشتَرَك - يشمل ذلك المخاطبة الهاتفية بين شخصَين، وطقس احتفائي بين عشرات الأشخاص، وتجمّع سياسي حاشد يشترك فيه بضعة آلاف من الناس. وعلى المستوى التفاعلي الأوسع، أعتقد أنّ "الجالية" تشير إلى مجموعة، حقيقية أو خيالية، أكبر، تشمل مجموعة تتجاوز حدود مناطقها هنا الآن في مكان وزمان معينَين، ومؤسَسة على معيار واحد أو عدّة معايير، منها جغرافي سياسي، وعائلي، وإثني، ومهني، ولغوي.

1.2.9. الدراسات الإثنوغرافية لأحداث الكلام

لم يُستعمل نموذج هايمز للكلام (S P E A K I N G) بكامله إلاّ نادراً، ولكنّه أوحى بالكثير من الدراسات الإثنوغرافية للجاليات الكلامية من وجهة نظر أحداث الكلام[11]. تشكّل العلاقة بين مكوّنات أحداث الكلام - بالأخص المكان والمشاركون والأنواع - العناصر الأساسية لتنظيم هذه الدراسات.

يتكلّم شيرزر (Sherzer) (1974, 1983) كثيراً مثلاً عن الحياة الاجتماعية لكونا باناما من وجهة نظر الأحداث الكلامية داخل "منزل الاجتماعات" (أونماكّيت نيكا)، حيث يتحدّث الناس، ويتناقشون،

---

(11) بما أنّ هايمز شدّد على الأحداث كوحدات تحليل، فسّر الكثير من الكتّاب، وأنا منهم، في الماضي مكوّنات نموذج الـ SPEAKING كمكونات تشير إلى ميزات الأحداث وليس أفعال الكلام (Duranti 1985; Saville-Troike 1989). بما أنّ طبيعة أي حدث كلامي ديناميكية، من الأفضل اعتبار هذه المكوّنات أجزاء أفعال الكلام، بمعنى نظرية فعل الكلام (انظر الفصل 7).

ويخطّطون للمستقبل، ويتحدّثون عن الماضي. يبيّن شيرزر أنّ الأحداث الكلامية المختلفة داخل "منزل الاجتماعات" يحدّدها بالأخص نوع الكلام المستعمل ونوع المشاركة الّتي يطلبها الجمهور. فيعود تقرير ما إذا كان رئيس س "يرتّل" **(ناماكّي)** أو "يتكلّم" **(سونماكّي)** جزئياً على وجود رئيس آخر في المنزل يستطيع أن يجيب **(أبينسويه)** مستعملاً "لغة الرؤساء" **(ساكلا كايا)** (Sherzer 1983: 98).

بالإضافة إلى ذلك، وبالرغم من أن معظم التراتيل في "لغة الرؤساء"، تختلف فيها طرق المشاركة كثيراً من حدث إلى آخر. خلال "اجتماعات" **الكونكريسو**، وهو حدث يحصل كلّ ليلتَين ويشمل الرجال والنساء، وتتناول بعض المحادثات العلنية عن مسائل في الجالية، مثل المسائل الاقتصادية والإشكالات الحالية بين الناس، يبدأ الترتيل بشكل حديث طقسي حيث تتبع كل البيوت **(إيكارهه)** ترتيل الرئيس تعليقُ **هكيتيه**، أي "حقّاً صحيح"، يقول الرئيس الذي يجيب.

(1) (ر م = رئيس مرتّل، رمج = رئيس مجاوب)

رم: we yalase papal nparmialimarye sokl ittole

"بعث بنا الله إلى هذا الجبل، قل، اِسمع."

eka masmul akkwekarye oparwe

"لكي نهتم بجذور الموز من أجله، انطُق."

ر مج: teki

"حقاً."

ر م: ekai inso tarkawamul akkwekaryey sokel ittolete

"لكي نهتم إذاً بجذور الجعثن من أجله، قل، اِسمع."

sunna ipiti oparwe

"قل بالحق."

(Sherzer 1983: 50) (. . .)

بينما يحصل ذلك، يطوف أفراد الشرطة في المنزل صارخين kapita marye "لا تناموا!" و nue ittomarye "استمعوا جيداً!" يساعد أيضاً عمل **الأركار**، أي مفسّر الرئيس، على تشجيع الجمهور على المشاركة، وهو "يترجم" إلى لغة عادية ما يرتّله الرئيس في لغة sakla kaya الباطنية. يختلف هذا الحدث عن غيره من التبادلات، الّتي تحتوي على اشتراك مختلف للجمهور. في تبادل التحيات الرسمية (arkan kay تعني حرفياً "مصافحة") بين رئيس زائر ورئيس مُضيف مثلاً، لا يوجد جمهور رسمي. قد يدخل بعض الناس إلى "منزل الاجتماعات"، فيجلسون ويستمعون، ولكن قد يتكلّمون أيضاً مع بعضهم أو مع من يحيط بالرئيس الزائر، أحياناً بصوتٍ مرتفع. لا نجد "شرطياً" عندها يطوف للتأكّد من انتباه ومشاركة الموجودين. ما الّذي يفسّر الاشتراك المختلف في كلّ من الحدَثين؟ يبدو أنّ الهدف الأساسي في تراتيل **الكونكريسو** هو تعليم القيم الأخلاقية. وبالتالي يعود نجاح أو إخفاق رئيس كوني، بحسب شيرزر (90 :1983)، إلى "قدرته على ابتكار مواقف أخلاقية، ودفاعه عن تصرّفات معيّنة ووجهات نظر، بواسطة لغة خلاّقة ومبدعة وأحياناً كثيرة غير مباشرة." يشكّل ذلك أيضاً فرصة للمبتدئين لسماع اللغة الباطنية للتراتيل وتفسيرها من قِبَل المترجم الرسمي. يحدِّد وينظِّم الترتيل في هذه الحالة كفرصة لنقل المعرفة وإعادة إنتاج الذاكرة الجماعية (Severi 1989). أمّا التحيات الرسمية فتخصّ الرؤساء فقط، ولا يسمعها الآخرون في الجالية إلاّ عرضياً. هناك نوع آخر أيضاً من الحدث الكلامي، وهو طقس الشفاء، حيث يُستبعد الجمهور المحيط. في هذه الحالة، المشاركون الوحيدون، بالإضافة إلى "الشامان" (Severi 1989)، أو، كما يسميه شيرزر، "**الإيكار** العالِم"، هم المريض و"الدميات المستقيمة" (suar nuchukana)، الّتي تمثّل "أرواح الخير، ودورها مقاومة الأرواح الشرّيرة الّتي

تجلب المرض" (Sherzer 1983: 111). نرى من دراسة تراتيل الكونا أنّ الأداء يصبح أكثر إبداعاً عندما يرتفع عدد المشاركين. في حدث الشفاء، يهتمّ الشافي بإقناع الأرواح بمعرفته للتقاليد؛ وبالتالي ليس هناك الكثير من المجال للإبداع الفردي. أمّا في تراتيل **الكونكريسو**، فيحاول الرؤساء أن يؤثروا على الجمهور بواسطة قدرتهم على إيجاد صلات معيّنة بين الماضي والحاضر.

> ما نراه بشكلٍ واضح في التراتيل والكلام في "منزل الاجتماعات" هو التركيز على التحويل الخلّاق، وعلى قدرة الأشخاص - "الرؤساء" والأتباع، والنساء والرجال، والصغار والكبار - على الكلام لمدّة طويلة، مرتجلين، دون أي تحضير، فيأخذون موضوعاً ويتوسّعون فيه ليجعلوه يناسب المسألة الّتي يجري الحديث عنها. أمّا في الشفاء وفي **الإيكاركانا** السحرية، هناك نصوص لا تتغير تُستعمل للتخلّص من أمراض معيّنة أو لأغراض أخرى، ويقوم "علماء **الإيكار**" بتغيير أو اختيار هذه النصوص فقط بحسب أصل المرض أو هدف **الإيكار** المعيّن (Sherzer 1983 : 134-135).

سمحت المقدرة على الدخول والخروج من نفس الحدث ومن جزء منه إلى آخر لإثنوغرافيي الكلام بمعرفة البعد **الأدائي** كبعد إنتاج لغوي حيث تعطي الشرائع الجمالية مصادر وتحديدات لاستعمال اللغة كأداة للكلام العلني (انظر الفقرة 1.4.1.). في نفس الجالية، تصنَّف الأحداث الكلامية من الأكثر تعلّقاً بالطقوس أو الشكل إلى الكلام العادي أو غير الرسمي (Bloch 1975; Irvine 1979; Keenan 1975; Kuipers 1990). وبالتالي معظم ما قيل عن الاحداث الكلامية

ركّز على الميّزات اللغوية لنوع الكلام المستعمَل. قال بلوخ (1975) مثلاً أنّ اللغة الشكلية ـ وهي نوع من الكل الذي يحدَّد فيه الشكل والمضمون ـ تُجبر المتكلّمين والسامعين على القبول بالوضع الراهن. يرى بلوخ أن الكثير من الخطاب التقليدي للتوقّع كأداة قوّة تُجبر المتكلّمين والسامعين على اتّباع طريق تمّ تحديده مسبقاً. نجد بعداً آخر لأنواع الكلام في مدى رجوعها أو إشارتها إلى سياق الأداء بدلاً من صوت خارج الزمان، لا صلة له بما يجري في الوقت والمكان الحاليين، ويحمل قوّة التقليد (Bauman 1992a; Bauman and Briggs 1990; Duranti 1994a; Kuipers 1990). هذا ما سمّاه باختين (1981a: 13) "بعالم الملحمة":

> عالم الملحمة هو عالم قومي بطولي قديم: هو عالم "بدايات" و"أوقات متألّقة" في التاريخ القومي، عالم آباء ومؤسسي عائلات، عالم "الأوائل" "والأفاضل"... الملحمة... كانت منذ بدايتها شعراً عن الماضي، ومكانة الكاتب أتت منها وأسستها... بيئة رجلٍ يتحدّث عن ماضٍ لا يستطيع الوصول إليه، هي وجهة النظر السليل المبجّل.

إحدى نتائج الكلام بصوت الماضي هي أنّ ما يقال غير معرّض لتغيرات الحاضر. عندما تقدَّم اللغة المستعملة ككلمات الأجداد، يصبح التشكيك في كلام الشخص تشكيكاً قائماً على أسس النظام الاجتماعي. لهذا السبب، أكّد بلوخ (1975 : 26) أنّنا نجد أحياناً كثيرة أنّ المتكلّمين في المجالات السياسية يعتمدون على نوعَين مختلفَين أو أسلوبَين مختلفَين من نفس النوع (Comaroff 1975; Duranti 1984; Salmond 1975). يُستعمل نوع للكلام عن الماضي وآخر عن ما يحصل في الحاضر. يستعمَل نوع للاحتفال بتركيبة أزلية غير قابلة

للتغيّر، وآخر للكلام عن المسائل المؤقتة، مثل أفعال البشر.

أكّدتُ في الحقيقة في عملي الخاص (Duranti 1994) أنّه من الأرجح أن نجد في مجالات الساموا السياسية ليس فقط أسلوبَين مختلفَين بل مزيجاً من الأشكال والمحتويات تمثّل ما يسمّيه باختين "باللغة في الاستعمال"، أي دمج ميزات تمثّل "وجد تناقضات أيديولوجية ـ سياسية بين الحاضر والماضي، وبين أزمنة ماضية مختلفة، وبين جماعات أيديولوجية ـ اجتماعية مختلفة في الحاضر، وبين ميول، ومدارس، وحلقات، وما إلى ذلك (Bakhtin 1981a: 291). نجد هذا الوجد للتناقضات الأيديولوجية ـ الاجتماعية في حديث السموا الـ Fono الّذي درسته، وحيث وجدتُ هذه الميزات في استعمالات اللغة:

أ. الخلط بين عدّة سجلات وشيفرات كلامية

ب. تعبير مرتفع عن العواطف

ج. الابتهال بالهويات الشخصية

د. استخدام الكلام المقتبس المباشر

هـ. بعض التبادلات الحوارية، تقريباً تحادثية

و. جدال منطقي (خاصةً جمل خبرية من نوع "إذا ـ عندها")

ز. شكوات واتّهامات.

بعكس الخطابات الّتي تلقى في التبادلات الحفلية، نجد في حديث الـ Fono عدّة معايير للكلام ولتفسيره، ونجد خلطاً أو "فساداً" واضحاً لعدّة أنواع، بينما يحاول المشاركون بصعوبة تحديد السياق المهم بالنسبة لكلامهم، لكي يفهموا ويحققوا أهدافهم، بما في ذلك تحديد الحقيقة (Lindstrom 1992).

يشكّل التركيز على النواحي الخالقة للسياق في الأداء الشفهي نتيجة طبيعية للاهتمام بدراسة الجاليات عبر الأحداث الكلامية. لكي نفهم أكثر هذه الأبعاد الأدائية للكلام، علينا أن نتفحّص عدداً من النماذج الّتي ترتكز على فكرة "المشارك" الموجودة في نموذج الكلام لدى هايمز (SPEAKING) وتضيف إليها أو تعيد صياغتها.

3.9. المشاركة

بالرغم من كون المشاركة بعداً مهماً بالنسبة لطريقة هايمز في دراسة الجاليات الكلامية، فهي لا تشكّل الوجه الأساسي لنموذجه. علينا أن ننظر إلى مؤلّفين آخرين، كان بعضهم تلاميذه أو زملاءه في جامعة بنسيلفانيا، لكي نجد أفكاراً تحليلية تأخذ المشاركة كنقطة بداية لدراسة الكلام. سأتحدّث في الفقرات الثلاث التالية عن وحدات مشاركة متّصلة ولكن مختلفة، وهي **تركيبة المشارِك** لفيليبس (الفقرة 1.3.9.) و**إطار المشاركة** لغوفمان (الفقرة 2.3.9.)، و**إطار المشارِك** لـ م. ه. غودوين (الفقرة 3.3.9.).

1.3.9. تركيبة المشارِك

في عملها عن أداء أطفال الهنود الحمر المدرسي، ابتكرت فيليبس (1972, 1983) فكرة تركيبة المشارك، وهي نوع معيّن من اللقاء أو ترتيب لتركيبة التفاعل.

> يستعمل الأساتذة تركيبات مشارك مختلفة، او طرق في ترتيب التفاعلات الكلامية مع الطلّاب، لإيصال عدّة أنواع من الدروس، ولإعطاء تغييرات في تقديم نفس المواد للحفاظ على انتباه الطلّاب.
>
> (Philips 1972: 377)

هناك بالنسبة لفيليبس أربعة تركيبات مشارك في الصف، يختلف كلٌّ منها عن الآخر بعدد الطلاّب المشاركين في التفاعل مع الأستاذ، التركيب غير الكلامي للانتباه، والمبادئ المستعمَلة لتنسيق أدوار الطلاّب في الكلام (Philips 1983: 78). يشمل أوّل نوع من تركيبة المشارك تفاعل كلّ الصف مع الأستاذ، ويستثني إذاً أي نوع آخر من التفاعل. في هذه الحالة، يختار الأستاذ تلميذاً معيناً لكي يتكلّم أو الصف بأكمله. نجد مثلاً عن هذا النموذج في التركيبة الّتي ترى تلميذاً يأخذ دور الأستاذ ويتوجّه بكلامه إلى كلّ الصف، مثال عن ذلك "عرض و أخبر" أو في تقديم تقرير فردي. ولكنّ التلاميذ يتابعون التوجّه بكلامهم إلى الأستاذ بدلاً من كلّ الصفّ، كما نرى في حاجة الأساتذة إلى تذكير التلاميذ أنّه عليهم أن يوجّهوا كلامهم إلى كلّ الصف. نوع تركيبة المشارك الثاني هو المجموعة الصغيرة. في هذه الحالة، "يقوم الأستاذ بتفاعلات مع جزء من الصف، عادةً خمسة إلى عشرة تلاميذ" (80 :1983). ويُطلب من التلاميذ غير المعنيين بالتفاعل مع الأستاذ أن يقوموا بعمل فردي في مكانهم. نوع تركيبة المشارك الثالث هو التعامل وجهاً لوجه بين الأستاذ وتلميذ واحد. "تحصل هذه اللقاءات عادة عندما يقوم كلّ التلاميذ بعمل معين. فيرفع تلميذ يده ليسأل عن هذا العمل أو يقف ويقترب من مكتب الأستاذ" (81 :1983). يختلف النوع الرابع عن تركيبة المشارك في الأنواع الثلاثة الأخرى. فهو "عمل مكتبي"، أي حالة يعمل فيها الولد على نص مكتوب أمامه على مكتبه ولا يتفاعل مع أي شخص آخر في الصف. يسمح لنا التفكير بأنواع تركيبات المشارك بتقييم نتائج كلّ صيغة. أي نوع يحتاج إلى مشاركة فعلية من قبل التلاميذ؟ أي نوع سيجذب التلاميذ أكثر من غيره؟ فوجدت فيليبس مثلاً أنّ التلاميذ الهنود يسألون عادةً أسئلة أكثر من رفاقهم عن توجيهات الأستاذ. ويسألون الأستاذ وبعضهم البعض. وتُسأل هذه الأسئلة غالباً

في نوع من تركيبة المشارك حيث لا يملك الأستاذ الكثير من الوقت أو يودّ الأستاذ أن يبقي انتباه كلّ الصف، وقد يعتبر عندها الحديث بين التلاميذ عرقلة للصف. تؤكّد فيليبس أنّ أطفال الهنود الأميركيين يحصلون على تربية تشجّعهم على المشاركة في تفاعلات مع الراشدين والأطفال الآخرين بطرقٍ تختلف جذرياً عن تركيبات المشارك الّتي ينظّمها الأساتذة من غير الهنود في الصف. وتفترض أنّ هذه الفوارق تفسّر جزئياً ضعف أولاد الهنود الأميركيين[12].

ترجع فيليبس في عملها، وتعتمد كثيراً، على مفاهيم مثل "اللقاء الاجتماعي" و"المشارك المصدَّق" الّتي ابتكرها أحد أساتذتها، إيرفينغ غوفمان. سأتحدّث في الفقرة التالية عن سعي غوفمان نفسه في تطوير نموذج مشاركة.

2.3.9. إطارات المشارَكة

نجد صدىً (وامتداداً) للتمييز الّذي قام به هايمز بين مختلف أنواع المشاركين (المتكلّم، والباعث، والمخاطِب من جهة، والسامع، والمستلِم، والمخاطَب من جهةٍ ثانية) في حديث غوفمان عن **الموقف**[13] (Goffman 1979, 1981). يشير غوفمان بكلمة "موقف" إلى موقع أو خيار يأخذه الفرد في قوله لعبارة لغوية. يشمل ذلك مفتاحاً معيّناً (أحد مكوّنات هايمز) يسمح بتفسير الكلام أو

(12) لامتداد وتطوير هذا الأسلوب لتطبيقه على أوضاع وأماكن تعليمية أخرى، انظر (Tharp and Gallimore 1988, Au 1980, Au and Mason 1981).

(13) أعتبر في السياق الحالي أنّه من غير المهم ان نكتشف من كان أوّل من فكّر بالحاجة إلى تفكيك المتكلّم والسامع. اغتنم غوفمان وهايمز فرصاً كثيرة للاستفادة من أعمالهم المتبادلة، وبقي كلّ منهما في الوقت نفسه مخلصاً لرؤيته الخاصة عن الممارسات التواصلية.

الدور المشارك الذي يلعبه المتكلّم أو السامع (Levinson 1988: 163).

> لننظر الآن إلى الموقف وتغيّراته. بعبارة أخرى، لننظر إلى المعاني المختلفة الّتي يمكن لشخصية المتكلّم أن تظهر فيها، أي التقديرات الشخصية الّتي يمكن اكتشافها في ما يقال ويُفعل على خشبة المسرح (Goffman 1981: 173).

يعطي غوفمان مثل المحاضِر الجيّد الّذي يناوب بين لحظات يبتعد فيها بعض الشيء عن النص الّذي كتبه مسبقاً ولحظات يسمح فيها "لصوته بأن يحمل اقتناعاً وشعوراً وحتّى عاطفة" (نفس المرجع 175). فالموقف إذا يصبح طريقة أخرى للكلام عن الدلالة (انظر الفقرة 2.8.6.)، أي عملية الوصل بين ما يقال ولحظاتٍ أو أماكن أو شخصيات معينة، منها شخصيتنا الخاصة في وقتٍ مختلف أو في روحية مختلفة (مثلاً عاطفي أو متباعد، مقتنع أو مشكّك، حرفي أو ساخر). الموقف نوع من الخطاب ما فوق البراغماتي (انظر الفصل 6). نجعل السامع يعرف كيفية فهم القول الذي يؤخذ، والمشهد الّذي يجب وضعه فيه، والشخصية الّتي تقوله أو يقال لها أو بالنيابة عنها. نجد دائماً موضوع "الحياة كخشبة مسرح" في عمل غوفمان الخاص بالتفاعل الاجتماعي، كما نرى في هذا النص من **تحليل الإطار** (Goffman 1974):

> أقترح إذا أنّ ما يسعى المتكلّمون إلى فعله غالباً لا يقضي بإعطاء معلومات لمستلم بل بتقديم مسرحية لجمهور. يبدو فعلاً أنّنا نمضي معظم وقتنا، ليس في إعطاء معلومات بل في عرض أنفسنا. وانظر! لا يرتكز هذا التصنّع المسرحي على مجرّد عروض

لمشاعرنا أو إظهار مزيّف لعفويتنا أو أي حزن أو فخر قد نظهره في مسرحية. فالتوازي بين المسرح والمحادثة أعمق من ذلك بكثير.

(Goffman 1974: 508)

يحدّد غوفمان، في تطبيقه **الاستعارة المسرحية** على التفاعل بين الناس، وفي حالتنا هذه على الكلام، المتكلمين كممثّلين على خشبة المسرح. تجبرنا وجهة النظر هذه أن نفكّر بأنّه كما يأخذ الممثلون شخصيات مختلفة ويتصرّفون بشكلٍ مختلف عندما يأخذون دور شخصية معيّنة في مسرحية، يدخل المتكلّمون في الحياة الواقعية دائماً في أدوار مختلفة أو (personae) (كلمة لاتينية تستعمَل "للأقنعة" الّتي يضعها الممثلون على خشبة المسرح) عندما يتحدّثون عن تجربتهم[14]. لا يجب تفسير هذا النموذج، الّذي وضّحه مارسيل موس (Marcel Mauss) (1938) لأوّل مرّة في مقالته المعروفة عن فكرة "الشخص" (person)، كاعتراف بصورة اجتماعية خادعة. **لا يتظاهر** الناس فقط بانّهم شخصيات مختلفة، بل **يصبحون ويعامَلون** كانّهم شخصيات مختلفة؛ يعيش الناس ككائنات اجتماعية بالضبط ككيانات تستطيع أن تأخذ عدّة شخصيات وأن تمثّل عدّة وجهات نظر. ننجز تركيب كياننا الخاص، طريقة تصرّفنا في العالم المشابهة للآخرين والمختلفة عنهم، بواسطة الكلام، حيث نأخذ أوضاعاً ومواقف مختلفة تجاه كلماتنا وكلمات الآخرين. يستخدم غوفمان المصطلح **حالة المشاركة** للإشارة إلى العلاقة بين أي شخص في وضع ما وما يقال، و**إطار المشاركة** للإشارة إلى الترتيب الكامل لهذه

(14) لنقدٍ لتجاهل غوفمان الظاهر للأخلاقيات كقوّة فعلية في دوافع الإنسان، انظر (Abu-Lughod 1986: 237).

الحالات في لحظةٍ أو أخرى (Goffman 1981: 127) وفي كلّ العمل.

من الخطأ مثلاً أن نفترض نموذجاً للتفاعل اللغوي حيث يُعتبَر ضمير المتكلّم المفرد (أنا) (بالإنجليزية) فئة "المتكلّم" (أو "الكاتب"). فيؤكّد غوفمان (1981) بالأحرى أنّ الضمير "أنا" يرجع (على الاقلّ) إلى ثلاثة أدوار، وهي **المحرّك** (Animator) والمؤلّف والرئيسي. المحرّك، ويسمّى أحياناً "علبة الترديد"، يُنتج او يعطي صوتاً للرسالة الّتي يتمّ نقلها. المؤلّف هو المسؤول عن اختيار الكلمات والمشاعر الّتي يتمّ التعبير عنها. الرئيسي (وقد استعار غوفمان هذه الكلمة (Principal) من مفردات القانون) هو شخص أو مؤسسة يتمّ تمثيل موقفها أو معتقداتها. يأخذ المتكلّمون أحياناً كثيرة الأدوار الثلاثة، ولكن يجب التمييز بينها في حالات كثيرة، وأكثر ممّا قد نتوقّعه. يعرف الجميع أنّ الناطق الرسمي يتصرّف كمحرّك للكلمات الّتي قد يحدّدها شخصٌ (شخص أو أكثر من بين كتّاب البيت الأبيض) وهي تُقال نيابةً عن رئيس الجمهورية (الرئيسي). ولكن حتّى في اللقاءات العادية بين عدد من الناس، يدخل ويخرج المتكلّمون من هذه الأدوار المختلفة عندما ينقل ما قاله شخصٌ آخَر، كما نرى في (2) أدناه :

(2) شوبير : دعني ـ أقول ـ لك=أت**ع**رف. (0.8) كنّا
آتين نحو المنزل بعد **الري**اضة، (0.4)
وأتى ثلاثة صبيان (.) و
طلبوا ـ فلوساً ـ و ـ قام ـ طوني ـ
بهذه ـ الحركة.
(0.6) *هه ((يرفع يدَيه))
ليس معي أي(هه) فـ(هه)لو(ه)س."
بيت : اه ـ هيه ـ هاه،

(M. H. Goodwin 1990: 245)

أحياناً أخرى يستخدم المتكلّمون صوتاً مؤسساتياً، حيث يحدّدون ما يقولونه ليس لا رأيهم الخاص بل ما يعتقدون أنّه يمثّل مجموعة معيّنة أو يريدون أن يمثل (مكتب أو شركة أو مدرسة أو فريق أو عائلة أو مجموعة سياسية)، وهذه أيضاً سياقات حيث يغير أحياناً كثيرة المتكلّمون الضمير من "أنا" إلى "نحن" (و"نحن" هذه تختلف عن الّتي قد يستعملها الملك). تتحدّث دونا جونسون (Donna Johnson) (1994)، في تحليلها لتسجيل صوتي لمؤتمر دام ثلاثة أيام عن الصحة والصناعة والبيئة بالقرب من الحدود الأميركية ـ المكسيكية، عن عدّة معانٍ لكلمة **نحن** في محاضرة أحد المحاضِرين، وتُبيّن استعماله لتأسيس تمييزات تعتمد على افتراضات سياسة مهمّة تخصّ عمل الجالية في الدولة والسياسة الفدرالية. تشير **نحن** في لحظة ما إلى المشاركين في المؤتمر، وفي لحظة أخرى بشكلٍ موسّع يشمل سكّان منطقة الحدود الأميركية ـ المكسيكية، ومن ثمّ تصبح **نحن** جزءاً من التباين مع **هم** الّتي تشير إلى السلطة الفدرالية الأميركية والمكسيكية. يسمح التغيير بين معنىً وآخر لكلمة "نحن" للمحاضِر أن يقيم معارضات وتمييزات وتفاوتات. يتمّ جزئياً تشكيل المشاركة في وجهات النظر والحاجات والأهداف باستعمال الضمير الّذي يقترح علاقة وطيدة مع المحاضِر، ولكنّه يؤسس لتدرّج مرتبي بين عدّة أنواع من ال"نحن".

يشكّل المحرّك والمؤلّف والرئيسي بالنسبة لغوفمان ما يسمّيه **بصيغة إنتاج** القول (226 :1981). تتوافق مع هذه الصيغة مجموعة من المواقف الّتي تميّز بين عدّة أنواع من المستلمين[15]. بما أنّ هناك

---

(15) يبدو أنّ غوفمان (1981) يبين التفاوت بين فكرتَي صيغة الإنتاج وإطار المشاركة، فتشير الأولى إلى الأدوار الّتي يقوم بها "المحاضِر" والثاني إلى أدوار "السامع". ولكن أحياناً أخرى يبدو أنّه يستعمل إطار المشاركة بشكلٍ أوسع ليشمل الإنتاج والاستلام كليهما.

سياسة إدخال واستثناء في استعمال الضمائر والحديث الموجّه للآخر، ليس من الغريب أن يقترح غوفمان استبدال مصطلح "السامع" بعددٍ من التمييزات الدقيقة. أشار غوفمان إلى أنّه في كلّ الحالات يمكننا أن نجد (أنواعاً مختلفة من الناس الّذين "يسمعون" ما يقال، ولكن هناك القليل فقط (أحياناً شخص واحد) من الّذين يُسمح لهم أو يتوقّع منهم أن يكونوا جزءاً من الحدث التواصلي انظر أيضاً (Goffman 1964). فسمّى هؤلاء **بالمشاركين المصدقين (المصدّق عليهم)** والآخَرين **مشاركين غير مصَدّقين**. يمكن(إجراء النقاشات بين المشاركين المصدَّقين (بشكل) أكثر، خاصّةً عندما يُختار أحد المشاركين في الجمهور كمُستلِم أساسي، أي الّذي يتوجّه إليه فعل الكلام أو تسرد عليه قصّة. على المستلمين المصدَّقين أن يشيروا إلى مشاركتهم بشكلٍ مميَّز. كما قلتُ من قبل، نجد عن الكونا (Sherzer 1983) مثلاً، في تراتيل الرؤساء في منزل الاجتماعات، رئيساً مجاوباً (يجب) عليه أن يشارك بمجموعة من الأجوبة التقليدية في لحظاتٍ معروفة. ويُعتبر باقي الناس في المنزل أيضاً مشاركين مصدّقين، ولكن عليهم أن يبقوا صامتين، كما يجب عليهم أن يستمعوا بانتباه. يشبه هذا النوع من إطار المشاركة ما نجده في fono (اجتماع هيئة القرية) الساموا، ولو أنه يختلف عنه، حيث ليس للّذي يعطي الخطاب مجاوب رسمي بل أجوبة قصيرة في لحظات محدَّدة بشكل إشارات تقدير معتادة مثل **ماليي!** "ما تقوله جيّد!" وأيضاً (وإن نادراً) **موئي** "صحيح" (Duranti 1984a: 231). ولكن تأتي هذه الأجوبة فقط من قِبَل أعضاء هيئة القرية المقرّبين من الأفراد ذوي الألقاب. يمكننا الاستنتاج من المقارنة بين تراتيل الكونا وصنع كلام الساموا أنّ المجاوبة بشكلٍ معيّن أو بأي شكل تحدّد أنواعاً مستقبلية من المشاركة. يعني ذلك أنّ المجاوبة قد تكون طريقة لقبول أو توقّع المساهمات المستقبلية. يقول المجاوب بشكلٍ غير

مباشر "أستمع إليك الآن، فعليك أن تستمع إلي لاحقاً." في السياق السياسي، لهذه الرسالة غير المباشرة معنىً ضمني مهمّ.

شخصية **المستلِم الأساسي** المصدَّق مهمّة، لأنّها تعطي أحياناً كثيرة للمتكلّم وجهة النظر الّتي يجب اعتمادها لسرد قصّة. ساهم تحليل المحادثة (انظر الفصل 8) بالحديث عن الطرق الّتي يتّبعها المتكلّمون لتصميم كلامهم آخذين المستلِم بعين الاعتبار. أشار شيغلوف (1972b) إلى أنّ دراسة كيف يحدّد الناس الأماكن لا ترشدنا فقط إلى ما يعرفه ويريده المتكلّمون بل أيضاً إلى كيفية تصوّرهم للمعرفة والحاجات والشخصيات الاجتماعية الّتي يمثّلها المستلم. في هذا السياق تلعب فكرة **تصميم المستَلِم لدورها**. يقال عندها إنّ المتكلّمين "يصمّمون" كلامهم بحسب المستلِم. وبالتحديد، **يصمّم المتكلّمون كلامهم بحسب تقييمهم الحالي للمستلم كعضو في مجموعة أو طبقة اجتماعية معيّنة.** هذه ملاحظة مهمّة لأنّها تؤكد الفكرة القائلة بأنّ دراسة الكلام هي ناحية مهمّة من تحليل المجتمع. بالنظر إلى صيغة المتكلّمين لأسئلتهم أو تعرّفهم على الناس والأشياء والأماكن، نتعلّم الكثير عن تحليلهم الاجتماعي الخاص للحالات المختلفة. إذا سألنا أحدهم عن "Econ 1 (علم الاقتصاد، سنة أولى)" بشكل مختَصَر، فنحن نعرّف به عندها كعضو في جالية جامعية تتكلّم الإنجليزية، وهي على الأرجح أميركية. من غير المحتمل أن يعرف الناس خارج هذه الجالية أنّ كلمة "Econ 1" تعني "الفصل 1 في كليّة الاقتصاد في الجامعة". في لوس أنجلوس، يحمل الكلام عن "الصناعة (Industry)" عدداً من الفرضيات عن عمل المخاطَب (أو المتكلّم) أو على الأقل عن معرفة المخاطَب بصناعة **الأفلام والتليفزيون.**

يلعب تصميم المستلِم دوراً مهمّاً في تحديد المراجع، ولكن

أيضاً في محتوى التفاعل. بيّن تشارلز غودوين (Charles Goodwin) (1979, 1981) أنّ **المتكلّمين** في الأحاديث العادية **يغيّرون محتوى ما يقولونه بحسب الّذي يحدّدونه كمستلمهم الأساسي**. إذا استعملنا النظر كدلالة على المستلِم الأساسي لما يقوله المتكلّم، يعطينا التسجيل المرئي للتفاعل اللحظة المحدّدة الّتي يختار فيها شخص ما مستلماً جديداً. استخدم غودوين هذا النوع من التحليل ليبيّن أنّ قوّة فعل الكلام أو طبيعة فعل التواصل قد تتغيّر في نفس القول، عندما ينتقل المتكلّم من مستلم غير عالم بما يقول إلى شخص عالم به. فيجب مثلاً إعادة صياغة ما تمّ وضعه في البداية في إطار "الأخبار"، إذا تمّ توجيهه إلى شخص على علم به. خلال قوله **توقّفتُ عن التدخين منذ أسبوع اليوم في الحقيقة**، يغيّر المتكلّم طبيعة ما يوصّله ثلاث مرّاتٍ خلال نقل نظره من شخص إلى آخر. فتعاد صياغة إطار ما بدأ مثلاً كإعلان خبر (نجاح المتكلّم بالتوقّف عن التدخين) إلى صديق كتاريخ يحتفل به (أسبوع)، عندما يتوجّه المتكلّم إلى زوجته الّتي تعرف الأمر. بشكلٍ مماثل، تعاد صياغة إطار معلومات معطاة عن كيفية إحصاء النقاط في لعبة ورق **لمستلم غير عالم** فيصبح طلب تأكّد من التعليمات من قبل **مستلمين عالمين** (Goodwin 1981: 149-153)[16].

يعكس اهتمام غوفمان (1964) بأنواع المستلمين الّذين قد لا يكونون المخاطَبين الرسميين تشديده السابق على **الحالة** كنقطة بداية التحليل الاجتماعي. المهمّ في ما يخصّ المشترِك غير المصدَّق عليه هو أنّه **(1)** يمكنه أن يصبح مصدَّقاً، و**(2)** يمكن للمتكلّمين أن يأخذوا وجوده بعين الاعتبار. أمّا **المتفرّجون غير المتدخّلين** فهم

---

(16) "لتسهيل الأمور، سنشير إلى المستلِم الّذي يُعتبَر أنّه لا يملك المعلومات المناسبة الّتي يملكها المتكلّم كمستلِم غير عالِم؛ وسنشير إلى المستلِم الّذي يُفترَض أنّه يملك المعلومات الّتي لا يمتلكها المتكلّم كمستلِم عالِم (Goodwin 1981: 150).

المشاركون غير المصدّق عليهم الّذين لديهم نوع من التأثير (السمعي أو المرئي) على اللقاء. ويحذّرنا غوفمان (132 :1981) قائلاً إنّه "يجب اعتبار وجودهم قاعدة دائمة وليس حالة استثنائية". قد يكون المتفرّجون **متنصّتين** أو **مستمعين سرّاً**. تختلف السياقات والثقافات طبعاً في ما يجب على المتفرّجين أن يقوموا به. في بعض الحالات، قد يتوجّب على المتفرّجين أن يتصرّفوا وكأنّهم غير موجودين (Goffman 1981: 132)، ولكن في حالاتٍ أخرى قد يُظهروا بوضوح وجودَهم وفهمهم للتفاعل القائم، فيجبروا الآخرين على إدخالهم في التبادل. هذا ما يحصل في المثل التالي الّذي يعطيه ليفينسون :1988) (166، حيث لا يوجَّه الكلام مباشرةً إلى كارين ولكنّ كلام مارك يدلّ على مشاركتها:

(3) شارون : ألم تأت لتتحدّث مع كارين؟
مارك : كلّا، كارين ـ كارين وأنا على خلاف،
(0.4)
مارك : بعد أن صاحبت كيث بدلاً (عنّي).
روثي : هاه هاه هاه هاه
كارين : ولكن يا مارك، لم تطلب أن أصاحبك.
(Sacks et al. 1978: 29)

في بعض الحالات، يبدو أنّ المتكلّمين يحوّلون بشكلٍ روتيني، إن لم يكن عمداً، المشاركين غير المصدّق عليهم إلى متنصّتين، لكي يدعوهم إلى المشاركة دون أن يتحمّلوا مسؤولية ذلك. هذا ما يحصل مثلاً عندما يتكلّم الناس الّذين أوقعوا أو أضاعوا شيئاً إلى كلبهم أو أطفال رضّع بوجود راشدين قد يشعرون عندها أنّه يمكنهم تقديم خدمتهم ومساعدتهم. وفي أحيان أخرى، قد يصمّم المتكلّمون قولهم عمداً لكي يسمعه أحدهم

دون قصد. هذا نوع من استعمال ما يسمّى في الجالية الأميركية الإفريقية **بالتدليل** (Signifying)، وهو "طريقة لتشفير الرسائل أو المعاني في الأحاديث الطبيعية بشكلٍ يحمل عنصراً غير مباشر"[17] (Mitchell-Kernan 1972: 165). ابتكر مورغان (1996)، في تمييزه بين عدّة أنواع من التدليل، مصطلح **الإشارة غير المباشرة** لوصف الاستعمال الّذي "يزعم فيه المتكلّم قول شيءٍ لأحدهم (المستلِم المزيّف) والمقصود به - وبسماعه - شخصٌ آخَر، ويكون ذلك واضحاً." من المهمّ في هذه الحالات، كما في ما يسمّى "بلهجة القراءة" (انظر الفقرة 2.9.)، أن ننتبه إلى الميّزات الّتي تُستعمل للدلالة على **الهدف** المقصود - من الضروري هنا استعمال فكرة "الهدف" للتمييز بين المستلم الظاهري للرسالة ("المستلم المزيّف") والشخص الّذي توجّه إليه ملاحظة. في التبادل التالي مثلاً، وبعد أن افتتحت مورغان موضوع "أيّام المراهقة"، تتبع ملاحظةً جودي عن جمالها الخاص سلسلةٌ من أدوار للمشاركين الآخَرين (بالأخص الصغيرة روث) الّذين يقدّرون وصف جودي لنفسها كرائعة الجمال، دون أن يتوجّهوا إليها مباشرةً. يعتبَر الغموض في نقد أو عدم نقد الصغيرة روث وروبي لملاحظة جودي بشكلٍ مقنع من ميّزات التدليل.

(4) 1 "أيّام المراهقة" (...)

2 م. مورغان : كيف كانت المر - المراهقة أعني كيف كانت: :

---

(17) نجد استعمالاً آخر يُذكر كثيراً للتدليل في المبارزات الكلامية، حيث يحصل على حياة منفصلة بين عدّة أدوار تبارز لمتكلّمَين يحاول كلّ منهما أن يتفوّق على الآخر انظر **(Kochman 1972, 1981; Labov 1972b: ch. 8)**.

3 جودي : أ: ه كنتُ: راي[عة الجمال
]
4 الصغيرة روث : [أه في الحقيقة يا **عزي:زتي** كان
رأ: سها عندها قد أصبح كبي: راً **جدّاً**
]
5 روث : [**ي:ا إل:هي ي:ا إل:هي**
6 (لحظة صمت)
7 م. مورغان : هذه فت: رة الكوكا كولا؟
8 الصغيرة روث : **أ: ه يا بنت** كان عندها كلّ شيء
9 (لحظة صمت)
10 كانت وحدها الأولى
11 (لحظة صمت)
12 دخلت في منافسة أجمل فتاة سوداء **في**
كلّ
13 مباريات تلك الأ: يام=
14 روث : =بالطبع (Morgan 1996: 418)

نجد التدليل هنا في الكلمات والميّزات الشعرية الّتي تحمل معنىً سلبياً في إنجليزية الأميركيين الإفريقيين، منها استعمال "عزيزتي (Honey)" يتبعه وصف رأس جودي كـ"كبير جدّاً" (السطر 4) والنداء "عزيزتي" (Baby) (انظر مقالة مورغان للمزيد عن هذه الكلمات).

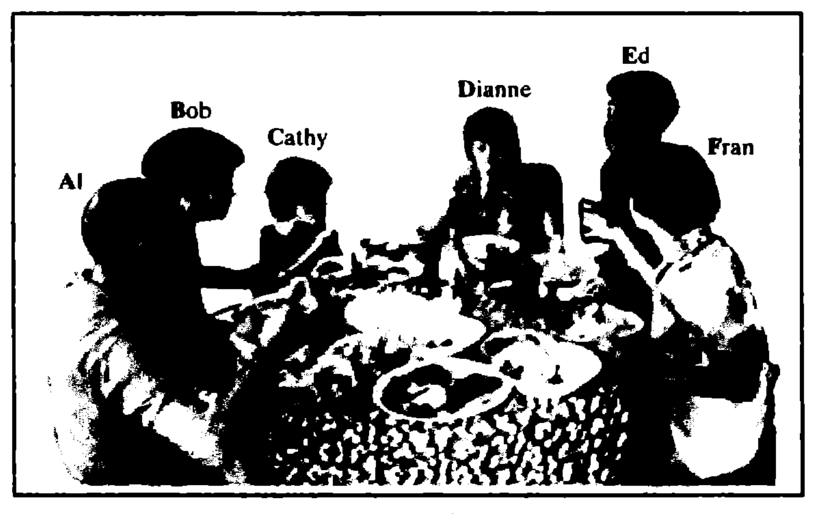
في الحالات الّتي يستعمل فيها المتكلّمون أنواعاً لغوية مختلفة للتكلّم مع مشاركين مختلفين، قد يشير استعمال نوع لا يُستعمَل عادةً مع مستلم معيّن إلى أن ما يقال موجّه إلى شخصٍ آخر. هذا ما يحصل مثلاً في تبادل نجده عند دورانتي (1990)، حيث تتكلّم امرأة

غاضبة على زوجها بسبب سُكره إلى الباحث بلهجةٍ ("كلام رديء") تستعملها عادةً مع زوجها وليس مع الباحث.

تشكّل الخطابة التقليدية، خاصّةً في المجتمعات الّتي يملك فيها أصحاب الرتب العالية متحدّثاً رسمياً باسمهم، اختباراً جيّداً لإطار المشاركة لغوفمان. نجد مثالاً جيّداً عن ذلك في دراسة يانكاه (1995) للOkyeame (جمعها Akyeame)، الخطيب الأكان، وهو الوحيد في الاجتماعات العلنية الّذي يمكنه أن يتوجّه مباشرةً إلى الرئيس أو الملك. في الحالات الرسمية، يعتبَر الرئيس الرئيسي. يعطي عندها رسالته إلى الخطيب، الّذي يعتَبَر المخاطَب عندها، فيقدّم تمنيّات وآراء الرئيس إلى خطيب المخاطَب، الّذي ينقل الرسالة بدوره إلى رئيسه. يسمح لنا مخطّط غوفمان باستنتاج عدّة أشياء : (أ) يشارك الخطيب الأوّل، بقدر تجميله لما قاله له الرئيس (الرئيسي)، في تأليف الرسالة (ويمكننا القول في هذه الحالة إن هناك مؤلفَين مختلفَين، لكلٍّ واحد ميّزاته؛ (ب) أمّا الرئيس المستلِم، فهو مستمع مصادق للرسالتَين: رسالة الرئيس المخاطِب ورسالة هذا الرئيس كما ينقلها الخطيب؛ وأخيراً (ج) يؤثر وجودُ خطيب ثانٍ على ما يقوله الأوّل، الّذي يهتمّ أكثر عندها بالقوانين الجمالية للأداء الكلامي (Yankah 1995: 110).

بتوسيعه للظواهر المؤثّرة في التواصل وجهاً لوجه، إنتبه غوفمان أيضاً إلى ما سمّاه **بالتواصل الخاضع**، أي "كلام يقوّى ويحدَّد وقته وقوّته بشكلٍ يسمح له أن يتدخّل جزئياً في ما قد نسمّيه التواصل السائد في نفس المكان" (Goffman 1981: 133). من الممكن عادةً للمشاركين أن يتكلّموا خارج دورهم أو دون أن يحاولوا استئثار الكلام (Goffman 1981: 29). يحصل هذا أحياناً كثيرة بواسطة الملاحظات السريعة، أو التوضيحات الّتي تضيف

إلى المحادثة الدائرة دون وقفها رسمياً أو تحويل عملها. ميّز غوفمان بين ثلاثة أنواع من التواصل الخاضع : (1) **اللعب على الهامش**، وهو تواصل بين مجموعة ثانوية من المشاركين المصدّق عليهم، (2) **اللعب المعاكس**، وهو تواصل بين مشاركين مصدّق عليهم، و(3) **اللعب الجانبي**، وهو تواصل بين متفرّجين غير متدخّلين. درس م. هـ. غودوين (1997) اللعب على الهامش وأكّد أنّه يجب النظر إليه كميّزة تفاعلية يتمّ التحاور عليها، وقد يكون لها تأثير على كلام المتكلّم الأساسي أو تفسيره. يمكن للمشاركين الّذين يستعملون اللعب على الهامش أن يجبروا الراوي أن يغيّر ما يقوله أو حتّى أن يوقف القصّة دون أن يسعى إلى الحصول على أولوية الكلام. ففي المحادثة القائمة حول طاولة العشاء مثلاً، في الصورة 3.9، تصف فران طاولة في قصر يخصّ مجموعة التحالف المسيحي الّذي تنتمي إليه.



الصورة 3.9. مشاركون في حديث حلّله م. هـ. غودوين (تحت الطباعة)

كما نرى في (5)، يثير خيار فران لسؤال مضمَّن، "لا~أعرف~كم~من~الأشخاص"، ـ ر ـ نوع من **البحث عن كلمة** ـ تدخل بوب اللعوب بقوله "المئات" على السطر 4، ناظراً إلى إد. ويقود ذلك بدوره إلى سلسلة من اللعب الهازئ على الهامش (السطر 8 "طاولة الملك آرثر" والسطر 10 "هل كانت مستدي:رة؟") تتنافس مع قصّة فران.

(5) **1** فران : **لديهم** طاولة كبي:رة **طوي:لة** في الوسط
تسع ه ـ لا~أعرف
كم~من~الأشخاص.=[*ه **وأيضاً** لديهم ـ
4 بوب : [**المئات.**
5 فران: [**مائدة** سفرة **صغيرة** في الزا:وية.
6 آل : [(**المئات**~على~**الأقل.**)
7 فران : وهي [بنفس قياس~مائدتنا.
8 إد : [طاولة الملك **آرثر**:.
9 فران : *ه بقرب [نافذتهم الناتئة.
10 بوب : [هل كانت مستديرة؟
11 فران : أتعرف؟ لديهم أيضاً *ه في كلّ
غرف النوم لديهم : ما
أسماؤها.=مقاعد للنافذة؟

(Goodwin, in press)

ينتَج اللعب على الهامش لكي لا يحصل تطفّل على كلام المتكلّم الرئيسي. فيستعمل إد مثلاً صوتاً منخفضاً ويميل رأسه إلى الوراء للنظر إلى بوب (انظر الصورة 4.9.). من جهةٍ أخرى، وبالرغم من أنّ فران لا ترى رسمياً اللعب على الهامش، نجدها تتكيّف معه على السطر 5. "فتحني جسمها نحو ديان، الّتي توجّه كلامها

نحوها، وترفع صوتها وتعابير حركاتها عند قولها "بالقرب من نافذتهم الناتئة" (انظر الصورة 4.9.). كما نرى من الأسهم في الصورة 4.9.، هناك تفاعلان يحصلان في الوقت نفسه وفي نفس المكان الروائي.



الصورة 4.9. تفاعلان في نفس السلسلة الروائية

تعود قوّة هذا النوع من التحليل إلى كونه يعطينا بعض الأدوات الّتي تساعدنا على فهم تحدّيات لما يبدو الكلام المسيطر كتحديّات دقيقة وفعّالة وغير رسمية في عملها ضدّه. ففي (5) يتكلّم آل وإد كلاهما بصوتٍ منخفض (يشار إلى ذلك بـ أمام كلامهم)، ويتداخل كلامهما مع كلام فران، إذ لا ينتظران نقطة التحوّل في الكلام (انظر الفصل 8)، وينتجون أقوالاً بإيقاع يتناغم مع قول آل الأوّل على السطر 6، أي أنّ الألعاب الهامشية الثلاثة تستعمل إيقاعا بخفقتَين. يمكن توسيع هذا النوع من التحليل ليشمل أماكن في مؤسسات، مثل الحلبات السياسية، والمحاكم، والصفوف المدرسية، لكي يعطينا قياساً جيّداً لمن يدعم ومن يتحدّى الحديث السائد. يعطينا تحليل

اللعب على الهامش طريقة لقياس تدخّل الجمهور، وذلك أساسي في كلّ أحداث الكلام.

في حديثه عن فكرة الموقف عند غوفمان، يثير ليفينسون (1988) سؤالاً عن النحوية في أدوار المشاركين الّتي تحدّث عنها غوفمان، أي ما إذا كانت تمييزاته مشفّرة في اللغات. نعرف أنّ كلّ اللغات تميّز معجمياً و/ أو صرفياً بين المتكلّم والمخاطَب والغائب ـ مع اعتبار الغائب في أحيان كثيرة فئة اللا ـ ضمير أو فئة "متبقية"[18]. وتميّز بعض اللغات بشكلٍ أكثر دقّة في داخل الفئات الثلاث، في ما يخصّ العدد والجنس والوضع الاجتماعي أو الطبقة الاجتماعية (Anderson and Keenan 1985). تميّز لغة الساموا مثلاً بين المفرد والمثنّى والجمع في الضمائر. ويمكن التمييز في ضمائر المتكلّم غير المفردة بين الشامل والمستثني[19] (انظر القائمة 1.9.).

القائمة 1.9. الضمائر الشخصية في الساموا

	متكلّم	مخاطَب	غائب
مفرد	a'u	'oe	('o)ia
مثنّى (شامل)	tā'ua		
(مستثني)	mā'ua	'oulua	lā'ua
جمع (شامل)	tātou		
(مستثني)	mātou	'outou	lātou

هناك لغاتٌ تملك أنظمة أكثر تعقيداً. فلهجات الفيدجي مثلاً

(18) لا وجود للغائب في بعض اللغات (Dixon 1980; Levinson 1988: 183). نجد اعتبار الغائب نوعاً من اللا ـ ضمير (Non-Person) عند بين (Benveniste 1956).

(19) لتحليل مكوّنات نظام ضمائري مماثل، هو نظام الهانونو (في الفليبين)، انظر (Conklin 1962). لحديث عن بعض نتائج تحليل كونكلين، انظر (Bean 1978).

تملك ثلاثة تمييزات عددية موجودة عند الساموا بالإضافة إلى الثلاثية[20] (Trial). تملك لغات أخرى ضمائر للتعبير عن الاحترام أو الأخلاق انظر (Agha 1994; Brown and Levinson 1978, 1987). ولكن لا نجد لغات تملك تمييزات معجمية وصرفية يمكن وصلها مباشرةً بفئاتٍ مثل المحرّك والمؤلّف والرئيسي، أو تمثّل أحادياً التمييز بين المشاركين المصدّق عليهم وغير المصدّق عليهم. فلا يشدّد على هذه الفئات لأنّها خلفية وغير مباشرة بالنسبة لغيرها من الفئات النحوية. ولكنّنا نجد بدلاً عن ذلك أنّ اللغات تُظهِر اهتمام المتكلّمين فيها بشمول أو استثناء المشاركين في الأحداث والميّزات الّتي يتمّ الحديث عنها. فبالإضافة إلى التمييز السائد عالمياً بين المتكلّم (أنا) والمخاطَب (أنت)، تملك لغاتٌ كثيرة التمييزات الأكثر دقّةً الّتي نجدها في القائمة 1.9 عن الساموا أعلاه. اللغات تعطي متكلميها أدوات لتشكيل مجموعات والقيام بالتقسيم. ولكنّ الضمائر والصفات الشخصية لا تعكس أبداً عالماً شيئياً محدداً مسبقاً. بل هي تشكّل وتُحضِر وتبيّن مجموعات معيّنة وانواعاً من العلاقات. عندما يقول رجل لزوجته **ابنكِ** وهو يتكلّم عن ابنهما، فهو يشدّد على علاقتها ويغطّي على علاقته. عندما يستعمل الموظفون **نحن** في كلامهم عن شركتهم، يظهِرون تعلّقهم بمكان عملهم. عندما يسأل شخص من الساموا tā ô؟ "أيذهب اثنان منّا (شاملة)؟" يعني "هل أستطيع أن أذهب معك؟ إذا قال أحدهم mā ô "أيذهب اثنان منّا (مستثني)؟"، يعني ذلك أنّ المخاطَب غير مدعو. يؤثر خيار الضمير بالتالي على طرق تحديد المشاركين الممكنين أو الموجودين وتأسيس الموقف الأخلاقي. ولكن يتمّ عادةً بناء واستنتاج هذه الأبعاد للتفاعل

(20) يؤكّد ديكسون، إذ يكتب عن الفيدجيين البوما (1988 : 52)، أنّ الأشكال الّتي تمّت تسميتها بالثلاثية قد تشير إلى أكثر من ثلاثة أشخاص.

الإنساني ولتصوّر المشاركة من خلال عدد كبير من الأدوات السيميائية غير المباشرة والدقيقة (انظر الفقرة 1.4.5.)، بعضها طبيعته جسدية أو حركية.

ينتقد غوفمان مصطلحَي المتكلّم والسامع لتركيزهما على الصوت الّذي يتضمّناه. "من الواضح أنّ ما هو مرئي مهم أيضاً تنظيمياً، وكذلك اللمس أيضاً" (1981: 129). ذكرتُ أهمية المستندات المرئية في الفصل الخامس في حديثي عن النسخ. تعطينا فكرة المشاركة إطاراً نظرياً يمكننا في داخله استعمال المعلومات المرئية الممكنة بفضل التكنولوجيات الجديدة. أظهر الباحثون الّذين درسوا التسجيلات المرئية[21] أنّ وضع الجسد والنظر مهمّان لتحديد المستلِم المصدّق عليه في التفاعل. كما ذكرتُ من قبل، تحدّث غودوين (1981) عن كيفية "الدمج بين تغيير النظر وتغيير الكلام لدى المتكلّمة، ممّا يسمح لها بتغيير المخاطَب الرئيسي وبالتالي بإعادة ترتيب مستلمها بقول واحد" (1981: 152). ابتدأ كيندون (1992) من فكرة غوفمان (1974) عن مختلف **سبل الانتباه** في التفاعلات ليشدّد على أهميّة **التنظيم المكاني ـ التوجهي** في اللقاءات المركّزة.

> يدخل عادة المشاركون في اللقاءات المركّزة في ترتيبات مكانية وتوجهية واضحة. يبدو أنّهم يفعلون ذلك لكي يعطوا لبعضهم البعض إشارة إلى كونهم مستعدّين للمشاركة في "توجّه عام مشترك".

(Kendon 1992: 329)

يتمّ تحقيق هذا "الوجّه العام المشترَك"، بحسب كيندون،

---

(21) انظر مثلاً (Goodwin 1979, 1981, 1984, Goodwin and Goodwin 1992a, Heath 1982, 1984, Kendon 1967, 1990).

بالاستعمال المتناسق لوضعية الجسد وتحرّكاته. وتنتِج هذه الميّزات التفاعلية أنواعاً معيّنة من إطارات المشاركة، منها أنماط خاصة بالمؤلّف والمستلم في ثقافة معينة (انظر الفقرتَين 4.9. و5.9.).

3.3.9. إطار المشاركين

في دراستها لكلام الصبيان والبنات في حي من مدينة فيلادلفيا، ابتكرت مارجوري هـ. غودوين (Marjorie H. Goodwin) (1990: 10) فكرة **إطار المشارِك** (لتحلّ محلّ **إطار الاشتراك**). بالرغم من صلتها بغوفمان، تعتمد هذه الفكرة على أهميّة التنظيم التسلسلي في تركيب النشاط الكلامي[22]:

> أستعمل [مصطلح إطار المشارِك] ليشمل نوعين من الظواهر يختلفان بعض الشيء. **أوّلاً**، توجّه نشاطات المشاركين نحو بعضهم بعدّة طرق (فالعمل الّذي يؤسس للدور في الكلام يميّز بين المتكلّم والسامع أو السامعين)، وهذه عملية أساسية بالنسبة للطرق الّتي تعطي فيها النشاطات مصادر لتأسيس التنظيم الاجتماعي في التفاعلات وجهاً لوجه. **ثانياً**، بالإضافة إلى وضعهم وجهاً لوجه، يقوم النشاط الكلامي بتحديدهم أو وصفهم بشكلٍ ما، مثلاً كأشكال بشرية محرَّكة (Goffman 1974, 1981) أو شخصيات في داخل الكلام.

يبدأ عمل غودوين من افتراض يأتي من تحليل المحادثة حيث

---

(22) لكي أبقي على الاختلاف التحليلي بين غوفمان وغودوين عند الضرورة، استبدلتُ قول غودوين (1990) إطار المشاركة بإطار المشارِك أحياناً.

يقول أنّ طريقة تركيب المحادثة هي بحد بذاتها نوع من التنظيم الاجتماعي (انظر الفصل 8). وتستخدم هذا الافتراض لدراسة تأثيرات بعض أنواع تنظيم المحادثة، منها صوت وترتيب المشاركين، على المشاركين أنفسهم. تُبيّن غودوين، في تركيزها على الاختلاف بين استراتيجيات الصبيان والبنات الكلامية، أنّ اختيار المشاركة كوحدة تحليلية يعطينا طرقاً جديدة ودقيقة تجريبياً لدراسة عددٍ كبير من الظواهر، منها كيفية استعمال تنظيم **قصّة** لتركيب العلاقة بين الناس والتنظيم الاجتماعي لبداية جدلية (Goodwin 1990: ch. 10).

تشكّل **المعارضات المزدوجة** أحد أطر المشاركين للجدال الّذي تتحدّث عنه غودوين، وهي تتألّف من سلسلة من دورَيْن، حيث يعارض متكلّم ثانٍ ما يقوله المتكلّم الأوّل. إليكم بعض الأمثلة عن ذلك:

(6) (يصعد شوبير السلّم حيث يجلس طوني)

طوني : انزل عن درجي.

شوبير: لن أفعل ذلك. انزل أنت عن **درجي**

وسأصعد إلى درجك.

(Goodwin 1990: 104)

(7) مالكوم : **اخرج** من هنا يا طوني.

طوني : لن أخرج من هنا ولا من **أي** مكان.

(Goodwin 1990: 105)

(8) طوني : أعطني هذه **الأشياء.**

شوبير : اخرس.

(تمضون وقتكم مع اللصوص.)

طوني : (اخرس.)

شوبير : لا تتكلّم معي. = أنا لا أوجّه كلامي إليك.

(1.4)

طوني : وأنا أوجّه كلامي إليك !

شوبير : من الأفضل لك أن تخرس،

أنت وحذاؤك الوسخ.

(1.4)

طوني : سأوسّخ رأسك. = ما رأيك **بذلك.**

(Goodwin 1990: 295)

كما نرى في المثال الأخير، حيث يجيب طوني وشوبير على الدور الأخير بدورٍ جديد، **تحصل المعارضات المزدوجة المشاركة في السلسلة بمجموعة صغيرة من الأشخاص**، عادةً شخصين (Goodwin 1990: 241). ويثير ترتيب المعارضات المزدوجة (أ ب أ ب...) تساؤلات (بالنسبة للمشاركين أنفسهم) عن كيفية إنهاء هذه السلسلة. وبعكس ذلك، يعطي سرد قصّة إطار مشارك حيث يمكن لأكثر من شخصَين أن يشتركوا، ويصبح الّذي كان المشارك المصدق **الحصري** في المعارضة المتبادَلة واحداً فقط من المشاركين المصدّق عليهم. وتتمّ الدلالة على ذلك بواسطة استعمال الضمائر : فيتحوّل **الأنتَ** إلى **هو**. خلال سرد القصّة، يمكن للمتكلّم أن يوسّع إطار المشاركين في الجدل بدفع المشاركين غيرِ المعنيين بالجدل إلى أخذ موقف من ما يقال في القصّة. إليكم مثلاً عن قصّة بدأت في نهاية المثل السابق. يتوقّف شوبير في منتصف معارضته (**لا، لن تفعل ذلك يا حقير ـ**) لكي يسرد قصّة عن تصرّف طوني الجبان:

(9) طوني : سأوسّخ رأسك. = ما رأيك **بذلك.**

(0.4)

شوبير : لا، لن تفعل ذلك، يا حقير ـ *هـ **أتعرف.**

]

جاك : (وسِخ) شيء وسِخ.

(0.4)

شوبير : **دع**ني˜أقول˜لك.=**أتع**رف. (0.8)

كنّا على الطريق نحو (المنزل)

بعد التمرين، (0.4)

وظهر أمامنا (ثلاثة) صبيان هناك (.) و

طلبوا˜منّا˜فلوساً˜وفعل˜طوني˜هكذا.

(0.6) *هـ هـ ((يرفع يديه))

"**ليس معي** ف(ه)ل(ه)و(ه)س"

بيت : أه˜هيه˜ها،

*هـ هـ هاه˜هاه ! (Goodwin 1990: 243)

يبدأ شوبير القصّة في هذه السلسلة **بمقدّمة قصّة** نموذجية (**أتعرف؟**) تعلن لجميع الموجودين أنّه سيسرد قصّة وأنّه سيأخذ الكلام لأكثر من دورٍ واحد. ويبدأ شوبير قصّته من دون أن ينتظر **تفويض** المستلمين. لذلك عدّة نتائج، منها أنّه "بما أنّ معارضة شوبير لم تنته، لا يعطى طوني فرصة الإجابة عنها. فقد انتهى إذا الرد والتبادل" (Goodwin 1990: 244). يشكّل كل الموجودين وليس فقط طوني، المستلم المصدّق عليه للقصّة. بالإضافة إلى ذلك، عندما ينتهي سرد القصّة، هناك عدّة أنواع من الأعمال الممكنة، منها تقييم الجمهور لأحداث القصّة. وسيعطي ذلك شوبير فرصة لطلب مساندة أشخاص من بين الموجودين، فيعيد تركيب الترتيب الاجتماعي للجدال.

يشكّل **الجنس** (Gender) مجالاً آخر للاستعمال القوي لإطار المشارِك. في المقارنة بين جدالات الصبيان والبنات الكلامية، تبيِّن غودوين أنّها تملك ميّزات متشابهة، منها (**1**) كون الموضوع الأساسي إهانة الآخر، و(**2**) وجود أحد شخصيات القصّة كمشارك،

ولكنّها تختلف، "فبين الفتيات . . . تخصّ الإهانات **أعمالاً قامت بها الفتاة الغائبة**" (ص 278). إليكم مثلاً عن سلسلة من "هو ـ قال ـ هي ـ قالت" حيث تقول متكلّمة (بيا) كيف أبعدت فتاةٌ أخرى (كيري) عمداً في المشاركة الأساسية في القصّة (دجوليا) من مجموعة معيّنة :

(10) بيا : قالَت، **قالت** إنهّ ممم، (0.6)
لو (0.8) لم تكن تلك الفتاة هناك=
تلك الفتاة الّتي تحكي نوادر مضحكة،
*هـ تقول إنّه لو لم تكن تلك الفتاة هنا لما كنتم كلّكم تتصرّفون،
(0.4) بشكل ساذج هكذا.
((حُذفت عدّة سطور))
(ص 265)

بيا : قلت ـ قلتُ "**لماذا** لم تكتبي اسم جوليا هنا."
*هـ فقالت، قالت ((مع أنين وبصوت دفاعي))
"تلك الفتاة الأخرى قالت عنها هذا وذاك،
هي ليست منّا ومعنا فـ،"
هذا ما قالته أيضاً. (0.2)
فقلتُ، فانتشلتُ الورقة معها.
قلتُ م ـ متى سنلعب بهذه الورقة؟
((حذفت عدّة سطور))

بيا : ولكنّها لم تكتب اسمكِ حتّى.
لقد كتبته للتو بنفسي.
كتبناه أنا ومارتا. = وقلتُ،

وقالت "أعطني ـ هذه ـ الورقة. = لا
أريد اسمها هنا."
و ـ و ـ وقلتُ "كانت لتسمح باسمك".
(Goodwin 1990: 263)

كان لغياب الشخص المهين تأثير. بينما يتوجّه الصبيان المهانون مباشرةً إلى من أهانهم، تتوجّه الفتيات إليهم بغيابهم. في الوقت نفسه، "يخلق الكلام الحالي حقل اهتمام معنياً به كلّ من وجد فيه بطرقٍ مختلفة" (Goodwin 1990: 270). يعني ذلك أنّه على الّذين لم يتمّ تحديدهم كالذين أهينوا وليسوا بالتالي جزءاً من القصة أن يساهموا آخذين ذلك بعين الاعتبار. فيمكنهم مثلاً أن يعلّقوا على شخصية المهين. وهذا ما تفعله باربارا في المثال التالي:

(11) باربارا: كيري~تغضب~كلّ~الوقت~على~أحد~أو~آخَر.
لا يهمّني الأمر.
عن (Goodwin 1990: 270)

(12) باربارا: كيري تتكلّم زيادة عن اللزوم.=
إذا قفزتِ أمامها، ستنفي ذلك.
(المصدر نفسه)

تخلق هذه المساهمات سياقاً يسمح لمن أهينت أن تختبر مساندة صديقاتها لها وأن تحصل على اقتراحات من قبلهن تخص ما يمكنها القيام به. نرى إذاً أنّ تنظيم الكلام بحسب نوع معيّن من إطار المشارك في تفاعل يشكّل أداة فعّالة لتشكيل الوحدات والعلاقات والهويات الاجتماعية.

نجد اليوم المزيد من هذا العمل على الاختلافات بين الجنسَين في التفاعلات الكلامية التقليدية، بتركيزه على مساهمات المتكلّمين الإناث والذكور في إطارات المشتركيين المعينين. فيتحدّث أوكس

وتايلور (1992) مثلاً عن القصص العائلية وتكرارها لديناميكية "معرفة الأب المتفوّقة" بواسطة ترتيب معيّن للّذين يبدأون بسرد القصة وأبطالها ومستلمها الرئيسي:

> في هذه الديناميكية، يحدّد الوالد ـ بواسطة ممارساته وممارسات غيره المتكرّرة ـ كمستمع أساسي، وحاكم، وناقد لأعمال أعضاء العائلة وأفكارها ومشاعرها وأوضاعها، كبطل في القصّة (في الماضي) أو كمن يشارك في سردها (في الحاضر).

(Ochs and Taylor 1992: 447)

يبيّن أوكس وتايلور أنّه، وبعكس ما يُعتقد حالياً عن تأثير النسوية، لا تزال هذه الأيديولوجيا الأبوية مرسّخة في العائلات الأميركية ـ الإنجليزية العادية. وجد أوكس وتايلور، في دراستهما لمجموعة كبيرة من قصص العشاء جُمعت من سبع عائلات أميركية ـ إنجليزية في منطقة لوس أنجلوس، (1) أنّه من المحتمل أن يكون الأطفال أبطالاً في قصص العشاء؛ (2) وأن يبدأ الآباء بها؛ و(3) أنّ الأباء يشكلون المستلمين الأساسيين للقصّة؛ و(4) أنّ الآباء يمثّلون المستلمين الأساسيين أكثر من الوالدات. تبيّن هذه البيانات "غياب تناظر أساسي في نشاط العائلة القصصي، حيث تُسرد حياة الأطفال إلى الآباء ولكنّ الآباء لا يحكون حياتهم الخاصة للأطفال" :1992) (453. بالإضافة إلى ذلك، يُظهر تحليل إطارات المشاركين المؤسسة خلال القصص أنّ الآباء يمثّلون المستلمين الأساسيين، ليس فقط لأنّهم يأخذون هذا الدور، بل لأنّ الأمهات، على الأقل في بعض العائلات، يخترن أزواجهن كمستلمين أساسيين بواسطة عددٍ من الاستراتيجيات البيانية، منها الجملة المعروفة "لا تريد أن تخبر والدك عما حصل معك اليوم؟" وميلهن نحو بدء القصص بالتوجه

نحو أزواجهن. أن تنظيم المشاركة في سرد القصص حول مائدة العشاء له عدد من النتائج، منها تحديد الأب كحاكم[23] ومجادل. بالرغم من جدل الأمهات والأطفال الممكن أيضاً، يقوم الآباء بذلك 50 في المئة أكثر من الأمهات، و3.5 مرة أكثر من الأطفال. يحصل الجدل بالتعامل مع شيءٍ غير صحيح أو غير معقول، أو مشكوك بأمره قد قيل للتو، كما في ما يلي (13) :

(13) الأم: ((إلى جودي))=أه: : أتعرفين؟ لمَ لا تقولي لوالدك ما حصل اليوم؟=

الأب: ((ينظر إلى الأعلى وبعيداً))=قولي لي كلّ ما حصل منذ أن دخلت ـ وحتّى:

[

جودي: تصوّرت=

الأب: آه ((متنهّداً)) ماذا تقولين؟ ((يعبس))

جودي: تصّورت

]

الأب: لا

(0.4) ((يبدأ بهز رأسه، ليقول كلاّ))

الأب: غير ممكن

جودي: (أجل) ((تهز برأسها نحو الأعلى ناظرةً إلى والدها))

[

---

(23) يقتبس أوكس وتايلور عن فوكو (1979) ليتكلّموا عن البانوبتيكون (المراقب العام)، الّذي اخترعه بنتام، كاستعارة تصف "العين الّتي ترى كلّ شيء" أو نظر الأب المراقب خلال قصص مائدة العشاء. انظر أيضاً (Foucault 1980a: ch. 8 "The Eye of Power").

أورن :	مسابقة تليفزيونية؟ ـ مسابقة تليفزيونية؟ ماما؟
الأم:	((تهز برأسها لتقول أجل)) ـ م هـ م
جودي :	وصورة
الأب:	((إلى جودي)) (هل ذهبتِ إلى: :)
((إلى الأم))
هل ذهبتِ
إلى مستوصف الحيوانات؟
الأم: هه ـ كلاّ : ؟
الأب:	(أين/ ماذا)
جودي : ذهبت إلى الطبيب فقط وأخذ صورة
الأب:	((يهز برأسه)) لا أصدّق
جودي أكد لك:
(Ochs and Taylor 1992: 449)

أحياناً أخرى يحصل الجدل والتشديد على التشعبات أو النتائج السلبية لحدثٍ ما، كما نرى في **(14)**، حيث يرد الأب على قصة زوجته عن كرسي مكسور بالإشارة إلى أنّ ذلك قد يعني انّه عليها أن تضعف :

(14) (وضعت الأم للتو كرسي روني [4.11] بالقرب من الطاولة)
الأم:	(أه) هذا الكرسي؟ انكسر ـ اليوم
الأب:	أعرف ذلك
((تتّجه الأم من جديد نحو المطبخ، تتوقّف عند كرسي جوش، يبدأ جوش [7.10] بالنظر إلى كرسي أمه وتحت الطاولة))
الأم:	كلاّ: : أعني أنّه انكسر فعلاً اليوم
]

الأب: أعرف ذلك
أعرف ذلك
الأم: كنت تعرف أنّه كان مشقوقاً؟
الأب: أجل
الأم: أنّ كلّ الخشب مكسر؟
الأب: أجل،
الأم: هل أنت من فعل ذلك؟
(0.4)
الأب: لا أعرف، ولكنّي رأيته مفسوخاً=
[
الأم: (آه)
((يذهب جوش تحت الطاولة
ليتفحّص الكرسي))
روني؟ : ( )
=[
الأم: أجل جلست عليه وانكسر كلياً ف ـ
((تنحني كأنّها تشير إلى الكسر في الكرسي))
أنا متعَبة
]
الأب: ((بصوت لعوب)) هذا
يعني أنّك بحاجة إلى حمية.
الأم: هـ هـ ((تبتسم ساخرة إذ تقف من جديد بقرب
كرسي جوش))
(Ochs and Taylor 1992: 450)

يبيّن هذا البحث أنّ فكرة المشاركة أداة مهمّة للتحقيق التجريبي

عن تشكيل أدوار الجنسَين والأدوار العائلية بواسطة الكلام.

ويبيّن أيضاً أنّ كلّ كلام عن المشاركة هو أيضاً كلام عن **التفريق**. تؤدّي الطرق المختلفة الّتي يُسمح بها لأفراد مختلفين (في العائلات ومكان العمل والخدمات) أن يكونوا جزءاً من نشاطات معيّنة إلى تأسيس وإعادة إنتاج هويات اجتماعية (منها الهويات الجنسية). التي تبني إطارات مشارك معيّنة يمكن إعادة انتاج السلطة والتراتبية والمرؤوسية. يعود التعبير عن صوت الشخص وقبول أو رفض اتّهام أحدهم، والقبول بوجهة نظر شخص جزئياً على الترتيبات التفاعلية الممكنة والخيارات الّتي تمكّنها ـ انظر مثلاً حديثنا عن اللعب على الهامش أعلاه. يسمح لنا تفكيك زوجية المتكلّم ـ السامع واستبدالها بأنواع مختلفة من أوضاع وإطار المشاركين برؤية أنماط لم نرها من قبل. تصبح المشاركة كبعد تحليلي أداة قوية لدراسة وتأسيس المجتَمع، مع أدوارها ومواضعها التأسيسية والتفاوض الروتيني حول هذه الأدوار والمواضع بالتواصل. يمكن تحديد المشاركة كموضوع جدال حيث التفريق ليس فقط ممكناً بل فعلياً يساعدنا على إعادة تصوّر مصطلحات كانت من قبل غير مقيَّمة مثل **الذخيرة اللغوية** (انظر الفقرة 4.3.) :

ما يسمّيه الألسنيون ـ الاجتماعيون **بالذخيرة اللغوية** هو مجموعة من المصادر الّتي تسمح بالموافقة بين عضويات وأشكال مختلفة من المشاركة. ولا تعود طرق كلام شخص في جالية ممارسة معينة فقط إلى العضوية أو المشاركة في هذه الجالية. لا تشكّل طريقة كلام في جالية ما تشغيل أو عدم تشغيل بعد لغوي فيها أو إدّعاء الانتماء إلى هذه الجالية، بل الموافقة

المعقّدة بين أشكال المشاركة الفردية في هذه الجالية والمشاركة في جاليات أخرى. بدورها، تتغير ممارسات أي جالية بحسب ظواهرها المهمة بالنسبة لمختلف أعضائها.

(Eckert and McConnell-Ginet 1992: 97)

يعود إذاً التحدّي الّذي يواجهه الأنثروبولوجيون الألسنيون وغيرهم من طلّاب اللغة كأداة ونتاج العلاقات الاجتماعية الّتي تحملها إلى تجربة وحدات تحليلية مختلفة لإيجاد سبل تسمح لنا بتحديد علاقات غير منظورة بين التفاعلات الكلامية على مستوى مصغّر وجهاً لوجه والمستوى المؤسساتي الأوسع للمواضع والأدوار والهويات.

4.9. تحديد الفاعل، والقصدية والتركيب المشترك للتفسير

لا تشير التمييزات الدقيقة والأمثلة الّتي تحدثتُ عنها أعلاه فقط إلى كون فئتَي "المتكلّم" و"السامع" غير كافية للتحليل اللغوي ولكن أيضاً إلى ضرورة إعادة صياغة فكرة **تحديد الفاعل**. إذا كانت نقطة بدايتنا في تحليل الكلام هي المشاركة وليس الأفراد المتكلّمين، علينا أن نعيد النظر في ما نسمّيه الشيفرة وما نسمّيه حلّ الشيفرة. يلعب الأفراد دوراً في صياغة المعاني، ولكن تنتقل مسؤولية شكل ومضمون الرسائل من الأفراد المتكلّمين إلى أنواع معيّنة من إطار المشاركين. عندما نوسّع نطاق التحقيق ليشمل التنظيم الاجتماعي لكيفية بناء وتفسير الرسائل بالتعاون، علينا عندها أيضاً أن نذهب أبعد من الأفكار التقليدية عن العلاقات بين اللغة والعقل. تبيّن التحقيقات التجريبية أنّ معظم (وربما كلّ) الأعمال الّتي تُعتبر في عالم البديهة المثالي والتفاعل المتصوَّر كنتاج شخص واحد هو المتكلّم، هي في الحقيقة نتاج **عمل**

تعاوني لعدّة مشاركين[24]. هذه الطبيعة التعاونية والجماعية للشيفرة ولحلّها صحيحة ليس فقط في ما يخص اللقاءات الطقسية حيث ينوب عن آخر أو عن مجموعة في الكلام، بل ايضاً في أحداث الكلام العادية، حيث يبدو الافراد وكأنّهم يتكلّمون ويفعلون ما يفعلونه عن أنفسهم.

في تحليل المحادثة، أشارت الروايات الخاصة بالنشاطات الروائية في السابق مثلاً (Sacks 1992b: 222ff; Jefferson 1978) إلى أدوار محدودة في سرد روايات الأحاديث. فتمّ التمييز الواضح عادةً بين **راوي** القصّة **ومستلمها**. فكان على الراوي أن يسرد الرواية ويحصل على موافقة المستلم لكي يكملها. قامت جينيفر ماندلبوم (Jennifer Mandelbaum) (1987) مؤخّراً بتمييزات أكثر دقّة في داخل إطار المشاركين الموجودة خلال سرد الروايات. فميّزت بين **القصص** الّتي **يقودها الراوي** وتلك الّتي **يقودها المستلم**. فالأولى سلسلة من الأدوار المطوّلة لمتكلّم واحد يتخلّلها إظهار الانتباه من قبل المستلمين بواسطة عدّة أنواع من العلامات (مثلاً **مهمة**، **فعلاً؟**). والثانية عمل "يتعاون فيه الراوي والمستلم "لموضوع" الرواية وكيفية فهمه" (Mandelbaum 1987: 238). قد لا ينجح هذا التمييز دائماً. يبيّن بالأخص العمل على الروايات العائلية التي ذكرناها أعلاه.

إنّ تحديد دورَي الراوي والمستمعين أو الراوي والمستلم في روايات كاملة يتفكّك في النهاية في الرواية التحادثية حيث يركّب القصّة عدّة مشاركين. قد

(24) لا يجب تفسير مصطلح "التعاوني" هنا كما يشير إلى مشاركة متوازية في المصادر التفسيرية وحقوق التفسير (انظر مثلاً ما نقوله أعلاه عن اللعب على الهامش و"معرفة الأب المتفوّقة").

يوزّع السرد على الكثيرين بالأخص عندما يشمل أصدقاء مقرّبين وأعضاء العائلة. في هذه الحالات، من الأفضل تعيين دورَي الراوي والمستمعين أو المستلم دورياً مع تقدّم القصّة. فقد يكون مشارك راوياً في لحظةٍ ما ومن ثَمّ مستلماً.

(Ochs 1997: 200)

في دراسة سرد القصة العائلي، يُعتبر كلّ أعضاء العائلة الموجودين **مجموعة رواة**. ولكن يتم التمييز بين **الراوي الأوّل**، أي الشخص الّذي يبدأ الرواية، والرواة الآخرين، الّذين يساهمون في تقدّمها. يبيّن أوكس وتايلور ورودولف وسميث (1992) أنّ مجموعة الرواة تعيد صياغة الرواية وتعطي بالتالي تفسيرات مغايرة لوضع أحداث الرواية في إطارات معيّنة ـ ويعتبرون بالتالي أنّه علينا أن ننظر إلى الروايات كـ "نظريات" وإلى روايتهم كـ"بناء لنظريات". قد تحضر مجموعة الرواة معلومات جديدة تتحدّى بشكلٍ غير مباشر الصيغة الأولى للرواية أو تتحدّى بشكل مباشر التفسير الأول (Ochs et al. 1992: 59). في **(15)** أدناه مثلاً، بالرغم من كون لوسي الشخص الّذي بدأ بالقصّة عن زميلة لها في المدرسة حصلت على يوم واحد فقط من الاحتجاز، تكمِل أمُّها الرواية مشيرة إلى جواب لوسي النفسي على الأفعال الجارحة :

(1) لوسي : عندما كنّا في المدرسة ـ سحبت تلك الفتاة **فستان** فيكي ((تضع يديها على ركبتيها)) حتّى هنا ((تشير بيدها إلى أعلى صدرها)) أمام الصبيان

الأم : ممم

لوسي : وحصلت على يوم احتجاز واحد فقط

الأم : ممم؟ ـ هل تعتقدين أنّه كان من الواجب بالأحرى أن تطرد من المدرسة مؤقّتاً؟
(0.6)

لوسي : على الأقل ـ هذا
[حُذفت بعض السطور]

الأم : لأنّ ذلك أربك لوسي كثيراً ((تهز برأسها، وتتكلّم بينما تأكل))
(1.6)

الأم : (أعني أنّك يا لوسي) كنت تفضّلين لو قُتلت الفتاة، أليس كذلك؟

لوسي : ((تهر برأسها مشيرة إلى موافقتها، وتمضغ، الشوكة بفمها))
[

الأم : لأنّها أغضبتكِ ـ ((تتكلّم بسرعة كبيرة)) ولكنّك لم تفعلي شيئاً لأنّك اعتقدتِ أنّ المدرسة ستعاقبها كما تريدين، ولكنّها لم تفعل ذلك، فتشعرين بالانزعاج

(Ochs et al. 1992: 47)

تبيّن هذه البيانات أنّ عدّة متكلّمين يروون الروايات في الأحاديث الواقعية. قد تكون ظاهرة مجموع الرواة واسعة الانتشار (Duranti and Brenneis 1986). عندما ننظر إلى ما يقال من وجهة نظر إطار المشاركين الّذي يحصل فيه، نجد أنّ أفعال الكلام الّتي تبدو من إنتاج شخص واحد (مثل عرض التقديم والاتّهام والتحية والتعبير عن الرأي والطلب) هي في الحقيقة جهد تعاوني لعدد من

المشاركين، لا يهم عمل إلاّ بعض منهم (المصدّق عليهم). يعني ذلك وجود رواة ممكنين وفعليين في كلّ لحظة من التفاعل الاجتماعي. يعود اعتبار أفعال الشخص الكلامية والجسدية كأفعال مساهمة في ما يقال إلى عدد من العوامل، منها النظريات المحلية الخاصة بالراوي والقصدية والمسؤولية (Duranti 1993a, b; Heritage 1990/91; Hill and Irvine 1993; Mandelbaum 1993; Rosen 1995)، والاستعمالات السياقية لمصادر الإدراك الحسي المتوفّرة. يترجم عادة السؤال "صوت من يُسمع؟" بالسؤال "أي صوت يهم؟" (Lindstrom 1992). تلعب الأيديولوجيا دوراً أكبر من ما يتوقّع في تنظيم الإدراك الحسي. هذا صحيح بالنسبة لنظرية الباحث ولنظرية المشاركين التواصلية. في الألسنية ـ الاجتماعية المقدارية مثلاً، تُستَعمَل المقابلة كحدث كلامي رئيسي ووحيد لجمع البيانات والأنماط الكلامية. عندما ننظر إلى نُسَخ البيانات المجموعة بهذه الطريقة، نتخيّل خطأً أنّ المتكلّم يعطي مونولوجاً طويلاً، بينما يعطي في الحقيقة المقابِل تعليقاته وإطار التفسير الّذي يعطي للجوانب معناها. عندما نستمع إلى هذه الشرائط المسجَّلة، نلاحظ أيضاً أنّ صوت المقابِل خلفي أي أنّه أقلّ قوّة ووضوحاً. فقد تمّ القيام بخيار نظري يفضل متكلّم على آخر كمنتج وراوٍ. بشكل مماثل، عندما نسمع تقارير عن ما يقوله مشاركون عن ما حدث في مكان ما ـ مثلاً في المقابلات الإثنوغرافية ـ علينا ألا ننسى أنّه في كلّ حالة هناك نظريات محلية مقبولة تخصّ من يتكلّم، وعن أي موضوع، وبالنيابة عن من، ومع من. قد يتذكّر مثلاً المشاركون في اجتماع شعبي أو قد يقبلون بتذكّر أو ذكر جزء فقط من ما يقوله المتكلّم الرسمي وتجاهل التعليقات الجانبية والتنهّدات والتوقّفات الصامتة للسامعين، ولو قد تكون ذات أهميّة.

يتناقض التركيز على وحدات المشاركة مع اهتمام نظرية فعل الكلام التقليدي بالأفراد المتكلّمين ونيّاتهم (انظر الفقرة 2.1.7.). تفضّل نظرية سيرل التواصلية في تفضيل المتكلّم على غيره من المشاركين، في عملية التحليل، وتستعمل فكرة المقاصد بشكل دون أن تدخل في تساؤل عنها. فهي تتحدّث عن المقاصد كشيء متوفّر بسهولة لتفكير كلّ شخص على أساس تأمّل النفس، وذلك حتّى في ما يخصّ فكرة النيّة الجماعية الّتي استعملها سيرل مؤخَّراً (1990).

من الواضح أنّ ما يؤكّده علماء السيميائية مثل (Morris 1938) منذ وقتٍ طويل ; كان صحيحاً، أي أنّه لكي يكون شيء ما "إشارة" (انظر الفقرة 3.5.)، يجب ان يكون "إشارة بالنسبة لشخصٍ ما". تحصل النفخات الصادرة عن فم ما على معنىً، أي أنّها تمثّلَ رسالة ما، إذا وُجد ناس يعطونها تفسيراً. ولكن من أين يأتي هذا التفسير؟ كيف يتمّ تعيينه؟ من أو ما هو المسؤول عنه؟ يعتقد سيرل أنّ مصدر التمثيل، أي ما يسمح لشيءٍ ما أن يكون إشارة وما يعطيه محتوى، هو عقل الإنسان. فتحصل الأقوال على معنىً لأنّنا نملك حالات فكرية. وتشكّل هذه الحالات الفكرية نيّاتٍ (للقيام بعملٍ ما) يمكن إخراجها بواسطة الكلام (أو غيره من أشكال عمل الإنسان). لا يعني ذلك، بالنسبة لسيرل، أنّه علينا أن نفكّر بوعي قبل أن نتكلّم، قائلين لأنفسنا مثلاً "سأقول أ لكي أحصل على ب"، بل أنّه حتّى عندما نتكلّم عفوياً وبشكل قد يبدو من دون تفكير فنحن نفعل ما ننوي فعله، ويحاول سيرل التعبير عن الفرق بين الأفعال العائدة إلى نيات مدرَكة أو غير مدرَكة باستخدامه لمصطلحَين: **المقاصد المسبَقة والمقاصد غير المدركد في الفعل** (Searle 1983: 84ff).

ليست مشكلة هذه النظرية اعتمادها على عقل الإنسان. فالعقل يلعب دوره بالطبع في كلّ ما نفعله، بالأخص في التفكير والكلام.

وليست المشكلة دخول المقاصد في المحادثة. فالقصد، كميّزة من ميّزات إدراك الإنسان هو التركيز على شيءٍ ما أو التفكير بشيءٍ ما، أساسي في فهمنا لعمل الإنسان. هكذا عرّف فرانز برينتانو بالقصد، كما يذكّرنا هوسرل :

> نفهم بالقصد ما يجعل من التجارب "إدراكاً لشيءٍ ما" الإدراك الحسي هو إدراك شيءٍ ما، وقد يكون شيئاً؛ والحكم هو الحكم على مسألة ما؛ والتقييم هو تقييم قيمة؛ والتمنّي هو تمنّي المحتوى الّذي نتمناه، وما إلى ذلك. (Husserl [1913]1931: 223)

عندما يتحدّث الناس أو يتفاعلون اجتماعياً بشكلٍ أو آخَر، ترتبط تفاعلاتهم بشيءٍ ما، وهي تحتوي، بحسب هذا المعنى على مقاصد. ولكنّ استعمال المقاصد لتفسير تصرّفات الناس، ومنها الكلام، يلاقي عدّة مشاكل إذا ما اعتُبر الأداة التفسيرية الرئيسية. هناك نوعان من المشاكل الّتي تخص التركيز على المقاصد في نظرية فعل الكلام : (1) لا يُظهر المشاركون دائماً توجّهاً نحو ما يقصده الآخرون (أو يهتمّون به)؛ (2) أن كلّ إعادة تركيب لمقاصد المشاركين (بما في ذلك تلك الّتي يقوم بها المحلِّل) يجب أن تعتمد على المعلومات المتوفّرة في سياق التفاعل.

يعترف علماء نظرية فعل الكلام أنّه لكي تتم المقاصد يجب أن تعتمد على شروط سياقية (للنجاح) معيّنة (انظر الفصل 7) وليست مجموعة من الميزات تمّ تحديدها مسبقاً. تتغيّر العوامل والأبعاد الّتي تشكّل السياق خلال التفاعل، وبالتالي بالنسبة للمفسّرين أنفسهم، الّذين يوسعون ويقيدون السياق بشكل روتيني (Goodwin and Duranti 1992). يشكّل الزمان والمكان جزءاً من كلّ عمل تفسيري.

يعني ذلك أنّه على المشاركين في نشاط ما أن يعتمدوا في كلّ الحالات على عدد من الميزات الّتي يعتبرونها مهمة لتفسير ما يحصل أو ما قد يحصل، وما سيحدث بعد ذلك. بما أنّه من المستحيل على أي شخص أن يقرأ في أفكار الآخرين، يجب بشكلٍ رئيسي تفسير المعلومات خارج عقل الشخص لكي نخمّن ما يودّ القيام به أو ما "يعنيه". وبالتالي يبقى موقع المعنى في عالم الواقع أما موضع التفسير فيكون في الخارج، في التصرّفات المرئية، في الرموز الموجودة، وفي البيئة المدنية الّتي نعيش فيها ونستعملها ونغيّر فيها (انظر الفقرة 5.9.). يعني ذلك أنّ المعنى لا يوجد فقط في عقل الناس، بل هو أيضاً في الأعمال الروتينية ـ مثلاً أنواع من إطار المشاركين (انظر أعلاه) ـ وما نصنعه لاستعمالاتنا اليومية (مثلاً المنازل والغُرَف والأثاث والأقلام والدفاتر والكمبيوترات والهواتف... إلخ) والّذي يسمح لنا بالتواصل بعضنا مع بعض بطرقٍ معيّنة. يغيب عن فكرة إمكانية تفسير معنى استعمال هذه المصنوعات والأعمال الروتينية بتقييدها بحالات قصدية فكرية عند المشاركين بعداً أساسياً لعمل الإنسان، هو ما يسمّيه هايدغر **بحصافة** الكائنات الّتي نلتقي بها في حياتنا اليومية.

> لا نملك دائماً وبشكل متواصل إدراكاً واضحاً للأشياء الّتي تحيط بنا في بيئتنا المعتادة، وبالتأكيد ليس بالشكل الذي نكون فيه واعين لها كقريبة وجاهزة. ولأنّه ليس هناك من إدراك واضح وأكيد لكيانها الجاهز للاستعمال فهي موجودة من حولنا بطريقة معيّنة، كما هي بنفسها. في تعاملنا غير المكترث لها ومعها، تصبح منفتحة إلينا في ما يخص وجودها الحصيف بالضبط. يفترض تعاملنا المتّزن مع

الأشياء **عدم تغير** هذه العلاقة التواصلية. أساس هذا التواصل الدائم والوحيد مع الأشياء هو وقت السماح لنا بالدخول في سياق من الأدوات بشكلٍ ننسى أنفسنا فيه (Heidegger 1988: 309).

لكي ينجح التفاعل الاجتماعي، علينا في معظم الأحيان أن "ننسى أنفسنا فيه". عندما نتوقّف لنفكّر بما يحصل أو بخطأٍ ما، ندخل في مراقبة معيّنة للفعل الاجتماعي يمكننا خلاله استعمال مجموعة من المعايير الّتي تفسّر الخطأ أو ما كان يجب فعله (Garfinkel 1967; Heritage 1984). هذا النوع من المراقبة أو النشاط التفكيري هو ما يُنتج أيضاً تفسيرات مقاصد المتكلّمين في نظرية فعل الكلام. وهناك بالتالي علاقة وطيدة بين الحديث عن القصد/ النيّة والحديث عن المسؤولية. وهذا صحيح ليس فقط لأن صياغة المقاصد تعاد عادةً لكي تحدد تفسير الفعل. لا يسأل المشاركون أحياناً كثيرة أنفسهم وبعضهم البعض "ما عنى بذلك؟" بل "ما يعني ذلك؟" أي يقيِّم الفعل، بعد أن يقوم به، على أساس نتائجه الاجتماعية[25].

في الحقيقة، يعتقد الناس في الكثير من المجتمعات أنّه لا يمكن الدخول في "فكر شخصٍ آخَر" (Ortner 1979; Schieffelin 1986; Shore 1982). يكتب روزين (1995a: 1)، متكلّماً عن مسألة التفسير من وجهة نظر اجتماعية مقارِنة:

---

(25) في العقدَين الماضيين اهتمّ الكثيرون بالمقصدية في تفسير اللغات. بالإضافة إلى المراجع أعلاه، انظر (Appel 1991, Bogen 1987, De Mulder 1993, Dennett 1987, Derrida 1977 [See Hoy 1986], Du Bois 1993, Duranti 1988b, 1993a, b, Grice 1971, Hoy 1986, Leilich 1993, Lepore And Van Gulick 1991, Nuyts 1991, 1993, 1994, Searle 1983, 1986, 1990).

> ...ما قد يبدو في البداية مسألة تصورية بحتة [أي التفسير]، هو في الحقيقة متشابك مع طبيعة وتوزيع القوّة، ووصف الأحداث وتقييم الشخصية، وعلاقة الثقة بالخداع، والتعيين الاجتماعي للمسؤولية الأخلاقية والقانونية.

على كلّ نظرية تفسيرية تتعلّق بالأنثروبولوجيا أن تحتوي على هذه البديهيات الخاصّة باللغة والقوّة أو اللغة والشخصية، في تحليل أفعال تواصلية معيّنة. كما رأينا في الفصل 7، تؤكّد روزالدو وغيرها أنّ أفكار علماء نظرية فعل اللغة عن التفسير متأثّرة بالنظريات والممارسات الغربية، منها المعتقدات الخاصة وماهية الشخص وكيفية معرفتنا للواقع أو تأثيرنا على أفكار وأفعال الآخَرين. يرى الأنثروبولوجيون الألسنيّون أنّ اعتمادَنا على الحالات العقلية لتفسير ما نعنيه باللغة متأثّرة بهذه المعتقدات. ولكن هناك أكثر من ذلك. أعتقد ـ وأنا أوافق في ذلك محلّلي المحادثة (انظر الفصل 8) ـ أنّ هذا الاهتمام الحصري بمقاصد المتكلّمين يعود أيضاً إلى حدودية المناهج والتحاليل. يتكلّم سيرل، كالكثيرين من الفلاسفة، عن اللغة والعمل الاجتماعي ابتداءً من وقائع مبتكَرة على أساس ما يعتبره بديهياً أفعالاً يتصوّرها فردٌ ما. ويتكلّم عادةً عن ما قد يعنيه فعل أو تعبير ما في سياق عام، أي مثالي. في هذا العالم المثالي فقط ينتج المتكلّمون أقوالاً لوحدهم تماماً، دون أخذ مستمعيهم بعين الاعتبار ودون أن يروا كلامهم يحصل على معناه كجزء من نشاط مشترَك يساعد الآخَرين فيه على صياغة ما يقال وعن معناه. عندما ندرس عن كثب الطرق الّتي يتّبعها مختلف المشاركين للدخول في انتاج أي قول مهما كان صغيراً، نكتشف أنّ مسؤولية تفسيره تتوّزع عادةً على كلّ المشاركين والمصادر المادية. فالتفسير الأجتماعي ليس فقط لأنه

يجب أن تكون له هناك معايير مشتركة عامة، وسيرل نفسه يسلّم بذلك، ولكن أيضاً لأنّنا كلّما نظرنا إلى كيفية قيام الناس بالتفسير، كلّما اكتشفنا أن التفسير نشاط يعتمد على عددٍ كبير من المصادر والمنتوجات العامّة. تشكّل مقاصد المشاركين أحد هذه المصادر، وليست دائماً أهمّها. فقد يعتبر المستلم لمقاصد المتكلّم مهمّة أو لا لتفسير الكلام. دافعت عن هذه الرؤية في الماضي معتمداً على المعلومات اللغوية والإثنوغرافية الّتي جمعتها في عملي الميداني في غرب ساموا. أبيّن، في دورانتي (1988b, 1993b)، أنّ المشاركين في الحلبات السياسية، مثل الـ fono، يهتمّون بمسألة المسؤولية وبالتالي بتائج كلام الشخص الاجتماعي، أكثر من اهتمامهم بمسألة المقصد أو ما يفكّر به الشخص. أنا مقتنع اليوم أنّ التركيز على مقاصد المتكلّم مشكلة، ليس فقط لافتراضي دون نقد أنّ الكلّ يفهم ما يفكّر به الشخص، ولكن أيضاً لأنّه لا يأخذ بعين الاعتبار، في عملية التواصل، العمل الّذي يقوم به المشاركون الآخَرون والمصادر السيميائية الّتي تشكّل جزءاً من العمل التفسيري. لا يأخذ التركيز تصوّر المتكلّم العقلي بعين الاعتبار التداخل المتواصل بين الشيفرات وأنماط الكلام والعمل الذي يؤثر في كلّ حدث كلامي.

5.9. المشاركة في الزمان والمكان: أجساد الناس والبيئة المدنية

هناك قبل التقنيات الآلاتية مجموعة من التقنيات الجسدية.

(Mauss [1935] 1979: 104)

ليس من المفاجئ، أن أغلب دراسات بنية واستعمال اللغة، لا تشير إلى **البيئة المدنية**، أي إلى نتاج نشاط الإنسان في بناء ما يحيط

بتفاعلاته ويساندها (Lawrence and Low 1990)[26]. يُنظر عادةً إلى الكلمات والمورفيمات وحتّى الجمل كممثّلة لأفكار وبالتالي دون صلة بالأشياء الّتي ينتجها عمل الإنسان في عالم الواقع. ولم يساعد حتّى ابتكار نظرية فعل الكلام، مع تشديدها على الأقوال كأفعال (انظر الفصل 7)، على توجيه الانتباه أكثر على العالم المادي الّذي تحصل فيه وبواسطته التفاعلات الاجتماعية، بما فيها اللغة. تشكّل دراسة الإشارة، أي ميّزة تلك العبارات اللغوية الّتي تسمّى بالدلالات (انظر الفقرة 2.8.6.) والّتي لا يمكن تفسيرها دون الرجوع إلى السياق غير اللغوي (أو الخارج عن اللغة) لاستعمالها، الحالة الاستثنائية الوحيدة (Anderson and Keenan 1985: 259; Levinson 1983: ch. 2; Lyons 1977).

يسمح لنا تحليل الكلام الّذي يبدأ من وحدات المشاركة أن نعيد التفكير بالإشارة بطرقٍ جديدة. كما يشير إليه هانكس (1990)، ونظراً لتحوّل إطار المشاركة بشكل دائم خلال أي تفاعل أو حدث كلامي ما (بشكل كامل)، على المشاركين أن يجدوا طرقاً لإشارة بعضهم لبعض نحو الصوت الّذي يتكلّم الآن والشخص الّذي يتمّ اعتماد وجهة نظره أو افتراض انتباهه. يبيّن هانكس أنّه لا يمكن فهم حركات الإشارة عند المايا إلاّ إذا أخِذت أجساد الناس المشاركة

(26) يعتبر لورانس (Lawrence) ولو (Low) (1990: 454) بناء البيئة المدنية هو "بشكلٍ عام أي تغيير مادي للبيئة الطبيعية، من الموقد إلى المدن، بواسطة ما يبنيه الإنسان... وتشمل الأشكال المبنية... الأماكن المحدودة والمحدّدة، دون أن تكون بالضرورة مغلقة، مثل الأماكن المكشوفة في مجمع مبانٍ، والساحات العامة، أو الشوارع... وقد تشمل معالم أو مواقع، مثل المزارات، لا تحتوي بالضرورة على نشاطٍ ما... عناصر معيّنة في بناء ما (مثل الأبواب والنوافذ والحيطان والأرضيات والمداخن) أو تقسيمات في المباني... يشار إليها عادةً كما يشكّل خرائطها".

والعالم المادي الّذي يتفاعلون فيه بعين الاعتبار (انظر الفقرة 2.8.6). يركز عمل هانكس الخاص بالإشارة على الحاجة إلى فهم عملية تشفير وحلّ شيفرة المعنى كعملية مرسَّخة دائماً في **حقل الظاهرة**، أي في حقل عمل وتفكير يصبح ذا أهمية عندما يتحرّك فيه المشاركون بجسدهم وحواسهم. كان هانكس أوّل لغوي يحاول استعمال الأساليب البنيوية التحليلية (انظر الفصل 6) في دراسته للتمييز الظاهري لجسم الإنسان كوسيط رئيسي بيننا وبين عالم الأشياء من حولنا (Merleau-Ponty 1962; Schutz 1967). تدخل تعابير الإشارة هذه العملية بتوجيهها للأقوال والنظرات والتحرّكات في المكان والزمان، وباعتمادها على مجموعة من التقاليد الراسخة، وبتأسيس عالم نظري لا ينفصل عن فهمنا الجسدي لعالم الظواهر بل يعتمد عليه. يعني قولنا "أنا" أو "أنت" أو استعمالنا لعبارة مكان بدلاً عن أخرى هي عبارة عن ذكر وتأسيس **وتقييم الحقول المشاركة** الّتي تعتمد على النماذج الثقافية ـ الاجتماعية والصيغ الجسدية (Hanks 1990: 262).

يشكّل جسم الإنسان والبيئة المدنية عناصر أساسية لتحليل كلّ تفاعل يحتوي على تحرّك في المكان والزمان. ننسى أحياناً كثيرة أنّ جسم الإنسان هو أوّل أداة نجرّبها. يشكّل فمنا وأعيننا وقدمانا وأعضاء جسمنا الأخرى أوّل عناصر وسيطة في تفاعلنا مع الناس والأشياء من حولنا. ولكن جسدنا لا يعمل في مكان فارغ. فنحن نتحرّك في مكان صنعه الآخرون من قبلنا، وله تاريخ، ومعنى، أي عدد من الاحتمالات. كما يشير فريك (Frake) (1975: 37) في تحليله لكيفية دخول منزل ياكان:

... ليس المنزل، حتّى منزل ياكان من غرفة واحدة، مجرّد مكان. فهو سلسلة مركّبة من الأماكن

حيث تختلف الأحداث الاجتماعية ليس فقط بالنسبة لموقع حدوثها ولكن أيضاً بالنسبة للمواقع الذي يتحرك فيه الناس ليصلوا إليه والطريقة الّتي قاموا بهذه التحرّكات.

عندما نأخذ جدياً أهمية الزمان والمكان في لقاءات الناس، نكتشف أنّه علينا توسيع سياق التبادلات الكلامية ليشمل أكثر من ما يقال، مهما كانت دقّته ودرجة تعقيده. نحن بحاجة إلى تاريخ مصغّر لتفاعل الناس لا يقع في فخ التركيبات الأيديولوجية ولا يعاني من المشاكل المعروفة الموجودة في المراقبة. كما شدّدتُ عليه في الفصل 3، ليس ما يفعله الناس عندما يتكلّمون شيئاً يمكن تصوّره أو تذكّره فقط. فعلينا أن ننظر إليه لأنّ النظر هو، وقبل كلّ شيء، مجال أساسي في تجربة الإنسان، والمشاهدة بعد أساسي في كلّ لقاء. يشكّل ما يراه المشاركون وقت رؤيته أكثر من خلفية لفهمنا ما يقال. المشاهدة كنشاط يحصل في العالم المادي هي بذاتها عمل اجتماعي، وهي أداة ونتاج رحلة تفسيرية لا يمكن فهمها إلا في الزمان والمكان. لهذا السبب، وكما ردّده علماء الأخلاقيات منذ زمان طويل، التسجيلات المرئية للقاءات الناس أساسية في تحليل ما يفعله الناس مع الآخرين حولهم وبواسطتهم (Eibl-Eibesfeldt 1968, 1974; Kendon 1967, 1977, 1990, 1992; Kendon and Ferber 1973). ولكن بالرغم من توفّر التقنيات الّتي تسمح بالإعادة الميكانيكية أو الإلكترونية للّقاءات وبالمحافظة على بعض ميّزات مكانها ووقت حدوثها، ترتكز معظم دراسات استعمال اللغة حصرياً على التسجيلات الصوتية. لا تنتِج هذه الدراسات بالضرورة نتائج غير صحيحة ـ فلدراسة تنظيم الكلام الدقيقة أهميتها (انظر الفصل 8) ـ ولكنّها تنتج عادةً رؤية متحيزة عن ما يهم المشاركون في تفاعلهم.

إذا كنّا جديين في التزام دراسة اللغة كمصدر ونتاج للممارسات الثقافية، لا يمكننا أن نفصل الكلام بشكلٍ دائم عن تحرّكات أجساد المشاركين في مكانٍ غني بالرموز والأشياء المادية.

ابتداءً من هذه الفرضيات، أعطيتُ في دورانتي (1992) تحليلاً لتحيات الساموا الطقسية التي تركز على اعتماد أداء الكلمات المستعمَلة في التحيات وتفسيرها عند الظهور الوقتي لتحرّكات المشاركين في المنزل عند وصولهم وبعده. تبرهن البيانات الصوتيّة ـ المرئية ـ التسجيلات على أفلام صوتية 8 (Super 8) وغيرها من التسجيلات المرئية المجموعة لبضع سنوات في نفس القرية ـ أنّ الكلمات المستعمَلة في التحيات تنتمي إلى سلسلة من الأعمال تسمى تحرّكات الجسد، ولا يمكن فهمها دون الرجوع إلى هذه التحرّكات. إذا ما ركّز تحليل على التنفيذ اللغوي لهذه التحيات دون غيره، فسيتصوّرها كزوج متجاور معقّد (انظر الفقرة 8.1.1.)، حيث تحيي مجموعة من المشاركين في المنزل الضيف الجديد، الّذي بدوره يجيبها بالتوجّه إليها بكلامه كمجموعة أو كعدد من الأفراد، يعرِّف بهم عادةً بألقابهم أو أدوار مواقفهم السياقية.

(16) تمثيل عام لتحية ساموا طقسية

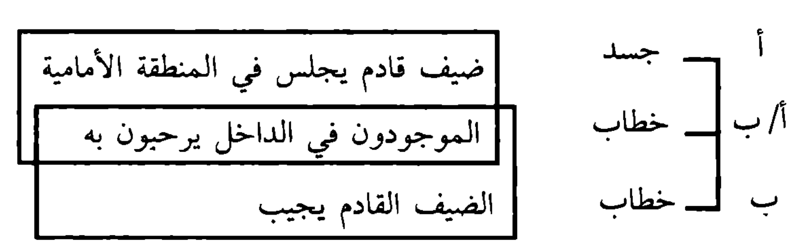
الجانب أ : [**ترحاب**]

الجانب ب : [**جواب**]

كما يحصل عادةً في الأزواج المتجاورة، عندما يُنتج الأوّل (من قبل الجانب أ)، نتوقّع الثاني. ولكن، يُعتبَر ما يقوله الجانب أ أول زوج فقط بعد أخذ الجانب ب موضعاً في المنزل يضمن الترحاب. يعني ذلك، أنّه إذا أردنا أن نفهم هذا النوع من التفاعل، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار **التصوّر المحلي للمكان داخل المنزل كتمثيل رمزي للتنظيم الاجتماعي الّذي يهم الحدث القائم أو الآتي قريباً.**

يحدّد التمييز بين "الأمام" (luma) و"الوراء" (tua) أو بين tala والجانبَين الآخرَين وفقاً إلى الوضع والرتبة في كلّ منزل ساموا: يُنتظر من الخطباء (والضيوف المهمّين) أن يجلسوا في "الأمام"، ومن الرؤساء المبجلين في إحدى الـ tala، ومن الخطباء ذوي الرتبة غير العالية في "الوراء". ولكن يعود اختيار شخص ما أو دعوته لاحتلال هذه المواقع جزئياً إلى نوع الحدث المعيّن الّذي يحصل في المنزل - يبيّن الرسم 5.9. كيف يتمّ تحديد أقسام المنزل المختلفة على أساس نظير خارجي كالطريق مثلاً (أو أحياناً الـ malae أو الأرضية الطقسية).

الرسم 5.9 التصوّر المحلي للأماكن في منزلَين عند الساموا يواجهان الطريق (Duranti 1992).



رسم 6.9 تفسيران متداخلان لسياقات زوجين متجاورين في تحيات طقسية

إن هذا الاعتراف بدور جسد الضيف القادم في هذا التفاعل ينقل مسؤولية المبادرة بالتحية إلى القادمين الجدد الذين هم في الحقيقة أكثر تحكماً فيما إذا كانوا سيتلقون التحية أما لا مما قد يبدو للوهلة الأولى. لكن حتى هذا التفسير يتعيّن النظر فيه مجدداً في بعض الحالات في ضوء بعض التحركات المحتملة أو الفعلية من قِبل الأشخاص الجالسين في المنزل. إن هؤلاء الأشخاص ليسوا سلبيين بالكامل فيما يدخل الطرف الجديد المكان المشترك. وفيما هناك حالات لا تسود فيها شكوك من قِبل الضيف القادم أو الأطراف الموجودين في المكان بالفعل حول أين يتعين إجلاس الأول، فإن هناك أوقاتاً يجري فيها قدرٌ معينٌ من التفاوض. وليس من المستغرب للمشاركين الموجودين بالفعل محاولة اصطحاب أو دعوة الطرف القادم إلى مكان محدد. ومن الشائع على نحو مساوٍ أن يرفض الضيف القادم "عرض" الجلوس في موقع ذي مكانة عالية. وهذا هو الحال، على سبيل المثال، في التواصل التالي، حيث يُدعى الزعيم أغاياتاوا للجلوس عند الحافة فيما يجلس الخطيب ليوتا ذو المكانة الأعلى في المنزل (وفي القرية الصغرى حيث يجري اللقاء) إلى يساره.

(17) (الـ فونو (Fono) في قرية سانونو؛ الزعيم أغاياتاوا يصل مع بدء اللقاء).

((لقطة للزعيم أغاياتاوا يمشي في الخارج، ماراً بالمدخل الأمامي نحو الخلف))

((يتوقف التصوير لبضع ثوانٍ ويُتابع مع ظهور الزعيم داخل المنزل وهو يمشي حاملاً بيمناه جذور نبتة الكافا ويحاول إيجاد مكان له في الصف الخلفي، وسط الخطباء))

1 ؟ : (afio fo ’i ’i ō)

اذهب إلى هناك؟

2 ؟؟ : ’o ikū lā

هذا الجانب !

3 الرئيس أ : ia’ ’o ’i lā

حسناً هناك !

4 الخطيب و : ia ’afio ifo ’i ō

حسناً اذهب إلى هناك

]

5 الرئيس أ : ’o ’i lā

هناك

6 ؟ : (أه هه)

7 ؟ : أه: : : :

8 ؟؟ : ia’ ’ua makua ā

((يبدأ الرئيس أ بالجلوس))

حسناً (هذاً فعلاً)

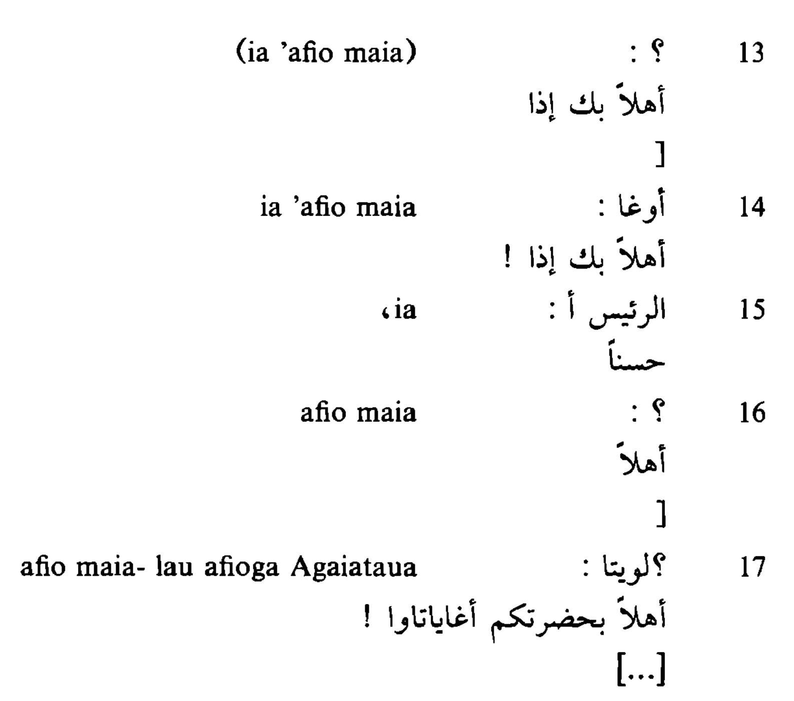
9 ((يضع الرئيس أ جذور كافا أمامه، على يمينه))

10 ؟ : (؟ ؟ ؟)

11 ؟؟ : hehe

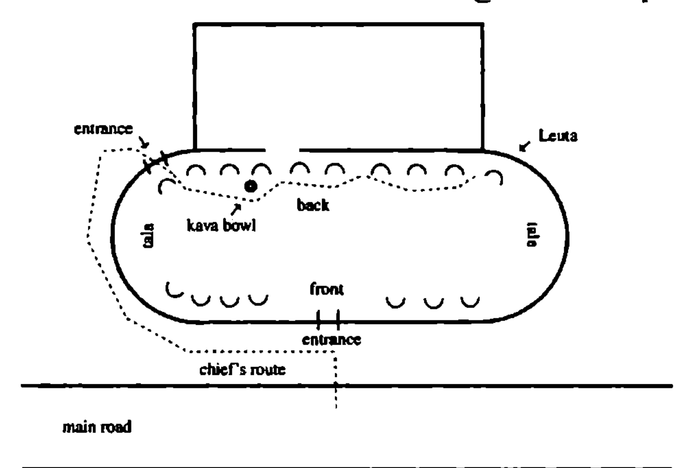
هه هه

12 الرئيس أ : ((يتنهّد)) هاه !



13	؟ :	(ia ’afio maia)
	أهلاً بك إذا	
	]	
14	أوغا :	ia ’afio maia
	أهلاً بك إذا !	
15	الرئيس أ :	ia،
	حسناً	
16	؟ :	afio maia
	أهلاً	
	]	
17	؟لويتا :	afio maia- lau afioga Agaiataua
	أهلاً بحضرتكم أغاياتاوا !	
	[...]	

الرسم 7.9. عن فيلم مصوّر للتفاعل، يتبع طريق الرئيس أغاياتاوا ومحاولته الجلوس في "الخلف"، مع الخطباء ذوي الرتب غير العالية.



الرسم 7.9. الطريق الذي اتبعه الرئيس أغاياتاوا عند وصوله إلى المنزل المليء بالخطباء في ضاحية قريته (Duranti 1992).

لا تعود المقاومة الطويلة لقبول الموقع ذي الرتبة العالية فقط إلى "التهذيب" (مثلاً يقدّم شخصٌ رتبة عالية ويرفضها الآخر ذو الرتبة غير العالية)، بل لأن المكان ذا الرتبة العالية يحمل معه مضموناً اقتصادياً وسياسياً انظر (Goody 1972; Irvine 1974, 1989). نظراً للعلاقة بين مكان الجلوس والرتبة، قد يحاول الرؤساء الّذين لا يشعرون بالثقة التامّة بمرتبتهم في الترتيب المحلّي والنظام الاقتصادي ـ الاجتماعي أن يقاوموا ما قد يبدو "عرضاً" كريماً يتّضح فيما بعد أنّه ليس بهذه الكرامة من وجهة نظر اقتصادية بحتة (بمعنى أنّه على الّذين يجلسون في أماكن الرتب الأعلى أن يعطوا أكثر من غيرهم). تبيّن المعلومات الإثنوغرافية أنّ رتبة الرئيس أغاياتاوا في الجالية غير واضحة، بسبب عوامل كثيرة، منها أصل رتبته الآتية من قرية أخرى ـ يتكلّم إليه الآخرون في معظم الحالات الأخرى مستعملين لقباً أقلّ رتبة ـ ووضعه الحياتي (وهو يسكن على أرض حماه، وهو خطيب متقدّم بالعمر ومحترَم)، وعمله (أستاذ مدرسة)، ممّا يعطيه على الأقل جزئياً قيماً غربية. ويستند هذا الالتباس أيضاً إلى أعماله: فقد دخل المنزل حاملاً جذر كافا جاف، وهو تقدمة تقليدية إلى المجتمعين، ولكن عندما يتكلّم للمرّة الأولى يستخدم "الكلام الجيّد" (tautala lelei)، وهي لهجة ساموا تُستعمَل في الكنيسة والمدرسة وغيرها من المؤسسات المتأثّرة بالغرب، ولا تُستعمَل في اجتماعات الوحدات القروية المؤسَسة على النَسَب[27].

تبيّن تحيّات الساموا الطقسية أيضاً التميز وتأسيس سلم الرتب العائلي. تعود تحية شخص ما أو عدم تحيته إلى عددٍ من العوامل

(27) لحديثٍ عن التوزيع الوضعي لسجلّ لهجتَين، "الكلام الجيّد" و"الكلام السيّئ"، انظر (Duranti 1981, 1990, 1994a, Duranti and Ochs 1986, Shore 1982).

تؤسس لدخوله كشخص يستحق تبجيل الجمهور. تشكّل المشاركة في تبادل التحيات، وهي نشاط يمكن التفاوض عليه كثيراً، وجهاً مهماً من وجوه تحصين النظام الاجتماعي. يسمح تنظيمه بشكلٍ يحيي فيه الجميع بالتناوب الشخص الجديد الداخل بالاستماع إلى الأصوات والصفات المختلفة والمقاربة بينها. تشكّل تسمية الفرد وجوابه على التحية دلالات مهمّة عن أهميّته الاجتماعية وأهمية الجماعات الموجودة في اللقاء. يشجّع توسيع نفس الطقس من الأحداث المعتمِدة على الرتب النَسَبية كالـ fono ليشمل أحداثاً فيها ممثلّين للكنيسة أو السلطة المحلية على قراءة هذه المؤسسات الحديثة بواسطة القيم التقليدية ويحصّن الرؤية الخيالية الأيديولوجية القائلة بعالم لا يتغير، بينما هو متغير.

6.9. خاتمة

بدأتُ هذا الفصل بفكرة النشاط وأهميّتها في دراسة التطوّر الفكري والكياني، وأنهيتُه بمثلٍ عن تحليل التحيات يعتمد على الوثائق السمعية ـ المرئية والأساليب الإثنوغرافية. ما هي العلاقة بين هذين الحقلَين؟ أعتقد أنّ فكرة المشاركة هي الّتي تصل بينهما، أي الفكرة القائلة بأنّ دراسة تصرّف الناس، ومنه الكلام، تعني دراسة دقيقة ومنظَّمة للمصادر السيميائية والمادية الّتي تسمح بتشكيل نشاطات تشمل عادةً عدّة أشخاص. لكي نفهم ما يفعله الناس كأعضاء في مجموعات معيّنة ـ ولكي **يكون** الشخص عضواً فيها ـ علينا أن نفهم ليس فقط ما يقوله شخص ما بل أيضاً كيف ينسّق المشاركون المتكلّمون وغير المتكلمين أفعالهم، منها الأفعال الكلامية، لبناء أنفسهم لبعضهم البعض كوحدات محدَّدة في مكان وزمان متغيرَين. أعطانا اللغويون والأنثروبولوجيون وعلماء الاجتماع، في نصف القرن الماضي، عدداً من الوحدات التحليلية

الّتي تسعى إلى تفسير الأنظمة الديناميكية الوظيفية الّتي ينتمي إليها الكلام. يدين نموذج جاكوبسون للحدث الكلامي بالكثير إلى الألسنية الوظيفية في التقليد الأوروبي، الّتي تعتمد على النماذج الآلاتية للّغة (Bühler, the Prague School). يضع نموذجه في أطار جديد لوظيفة اللغة المرجعية - إمكانية الكلام عن العالم - كواحدة بين عدد من الوظائف الّتي يقوم بها الكلام في التفاعلات بين المتكلّم والسامع. يوسّع نموذج هايمز الكلامي، SPEAKING، نموذج جاكوبسون، فيضيف إليه اهتماماً ببعدَي الكلام والمشاركة في الأحداث الكلامية، ممّا يجعل من دراسة الأحداث التواصلية نقطة بداية دراسة جاليات بأكملها. الجديد في هذه الفكرة هو مقابلتها بوحدة تحليلية اجتماعية، هي الحدث، يتمّ تحديدها بواسطة الكلام الّذي يحصل فيها[28]. اقترح هايمز على الباحثين أن يأخذوا بعَين الاعتبار ويدرسوا بنوع من الدقّة عدّة أبعاد لاستعمال اللغة، منها الوضع، والنوع، وأهداف الحدث. قرّرت التركيز على "المشاركين"، من بين قائمة طويلة من مكوّنات أحداث الكلام الّتي يقترحها هايمز، لعدّة أسباب. **أوّلاً**، بتفكيك فئتَي "المتكلّم" و"السامع"، وهما حجرا الزاوية في الأعمال الألسنية الحالية، يمكننا أن نضع إطاراً جديداً لفعل الكلام كنشاط يتعاون فيه الأشخاص ويختلفون، وما يبدو رسالة ينتجها فرد واحد هي في الحقيقة عمل وحدة اجتماعية منظّمة. **ثانياً**، تسمح لنا التمييزات الدقيقة الّتي يعطيها غوفمان في داخل كلّ فئة بالتفكير بالطرق المختلفة الّتي يستطيع بها كلام الشخص أن يمثّل أصواتاً

(28) جرى تفعيل هذا المنوال من قبل شيرزر (Sherzer) ودارنيل (Darnell) (1972) في إطار مجموعة من الأسئلة للعاملين في هذا الحقل تشمل مواضيع رئيسية مثل التنوع الألسني، والآراء اللغوية، واكتساب اللغة، والطبولوجيا النماذجية.

وشخصيات اجتماعية لأفراد أو أدوار مؤسساتية مختلفة. يعطي ذلك تحليلاً أكثر دقّة وأساساً لتحديد الكلام كنشاط له عمق تاريخي ـ اجتماعي، نؤسس فيه ونفاوض ونتحدّى ماهيتنا وأفعالنا بالنسبة لمواجهتنا مجموعة حقيقية أو خيالية. **ثالثاً**، بتحوّلنا من الأقوال الفردية إلى إطارات المشاركين، يمكننا استعمال بعض التفاسير حول دراسة التفاعلات التحادثية للتحقق من تأثير أنواع الترتيب التسلسلي المختلفة في تركيب الأدوار والفئات الاجتماعية في أنظمة اجتماعية معيَّنة. **وأخيراً**، يضع التركيز على المشاركة إطاراً جديداً للكلام كواحد فقط من المصادر السيميائية الّتي يستعملها الفاعلون الاجتماعيون ويقودنا إلى الاهتمام جدياً بالمصادر المادية وبالمعلومات المرئية المتوفّرة في كلّ لقاء اجتماعي. يهدف تحليل الساموا الطقسية أعلاه إلى إعطاء مثال عن هذه الدراسة، حيث يتمّ دمج المعلومات المجمّعة بواسطة الأساليب الإثنوغرافية التقليدية (مثلاً المراقبة ـ المشارِكة، والمقابلات) بتحليل دقيق وأحياناً صورة بصورة للتسجيلات الصوتية ـ المرئية للتبادلات التفاعلية. لا يجب النظر إلى الحديث المشترك بين المصادر الكلامية والجسدية والمرئية في تحيات الساموا كتبادل فريد من نوعه، بل كتبادل عادي نجده في كلّ اللقاءات الاجتماعية حيث يستطيع المشاركون الحصول على المعلومات الصوتية والمرئية. يبيّن ذلك أنّ النشاطات الكلامية الّتي قد نعتبرها في وضع آخر منفصلة هي في الحقيقة نشاطات تتفاعل مع نشاطاتٍ أخرى (تسبقها أو تصدر عنها) بطرقٍ مهمّة. يؤدّي تشابك المستويات السيميائية والمسارات التواصلية تلك إلى نوع من "البناء المتعدّد المسارات" في التحيات كما في الكثير من نشاطات الإنسان الاجتماعية الأخرى. تسمح إمكانية التواصل بشكلٍ تسلسلي وأحياناً متزامن بواسطة مصادر مختلفة (الكلام، وتحرّكات الجسم، والتفاعل مع البيئة المادية واستعمالها) بالمحافظة

على عدّة صيغ للمشهد الاجتماعي القائم وعلى هويات متعدّدة للمشاركين. تشكّل القدرة على تحديد صفات التفاعل هذه أداةً مهمّة لدراسة تشكيل الهوية الاجتماعية. ولكن إذا نظرنا إلى التحيات كما اقترحت، يمكننا أن نبيّن أنّ المسارات والأساليب التفاعلية (الصوت، والجسد، والجسد في المكان) تُستعمل ليس فقط لتوفّرها، بل أيضاً لأنّ كلّ منها يعطي حلولاً مختلفة لمشكلة تأسيس ومساندة صيغة معيّنة للعالم الاجتماعي ـ مع افتراضاته الخاصة بالمعرفة والسلطة، والسماح والمنع، والدوام والتغيّر ـ من دون نفي إمكانية وجود صيغ أخرى، لها نظامها وعلاقات القوة فيها. بهذا الشكل، نجد أنّ التحليل على مستوى مصغّر للكلام في التفاعل، كما رأيناه في الفصول القليلة السابقة، يدخل مجال تحقيق أوسع بكثير من الحالة المعينة الّتي تقوم دراستها، ويصل بين تفاصيل اللقاءات اليومية العادية والمنظّمات الاجتماعية الموسّعة والأماكن المؤسساتية الّتي تعطي اتّجاهاً ومعنىً للحياة الاجتماعية لكلّ الجاليات.

الفصل العاشر

خاتمة

أحد تحديّات كتابة أي كتاب ـ بما في ذلك كتابي هذا ـ هي ضرورة بناء رواية متواصلة ابتداءً من نبذات عن روايات مختلفة، سُرِدت في البداية إلى سامعين مختلفين ولأهداف مختلفة. كأي بحثٍ آخر عن تواصل موضوعي أو نظري، تقود كتابة كتاب عن أي حقل أبحاث مهما كان إلى محاولة تركيب موضوع دراسة ومنهج ابتداءً من عدّة تقاليد مختلفة. إذا كان العمل جيداً يمكن للقرّاء عندها أن يروا تأليفاً متماسكاً أو على الأقلّ موضوعاً واحداً يصل بين التقاليد المختلفة ويعطي صورة يمكن تحديد خلاصتها بسهولة وتقييمها ونقدها وتذكّرها. أمّا إذا كان العمل غير جيّد، فقد يرى القرّاء عندها أجزاء متفتتة من دون أن يتمكّنوا من الجمع بينها. في هذه الخاتمة، سأواجه مسألة وحدة الموضوع الجامعة. وسأفعل ذلك بوضعي عدّة أسئلة في الواجهة، منها موجود بوضوح في الفصول السابقة ومنها بشكلٍ غير مباشر. ولكنّني لن أقوم بتلخيص ما قلته في الفصول السابقة. سأنظر إلى الوراء وأعطي في الوقت نفسه فهماً ممكناً للمستقبل، كما أرجو أن يكون تداخل بعض قرائي بنّاء.

1.10. اللغة كحالة إنسانية

هناك سؤال رئيسي تسأله كلّ التحقيقات الأنثروبولوجية: ما الّذي يميّز الإنسان؟ أعطت كلّ نظرية أنثروبولوجية جوابها عن هذا السؤال منذ بداية هذا الحقل من المعرفة عند إدوارد ب. تايلور (Edward B. Taylor) في كتابه **الثقافة البدائية** (1871). تمّ الجواب مثلاً عن هذا السؤال بالنظر إلى الجنس البشري؛ هذا ما يفعله الأنثروبولوجيون البيولوجيون والأنثروبولوجيون المهتمّون بما قبل التاريخ. وتمّ الجواب بشكلٍ آخر بالنظر إلى تغيير الناس لبيئتهم، وتنظيمهم لحياتهم، وتمثيلهم لها رمزياً. هذا ما يفعله علماء الآثار والأنثروبولوجيون الثقافيون ـ الاجتماعيون. وقضى جواب ثالث بمراقبة ما يعني كوننا جنساً طوّر نظاماً تواصلياً معقّداً نسمّيه عادةً "اللغة". هذا ما يفعله الأنثروبولوجيون الألسنيون. أو من الأفضل ربّما أن أقول إنّ هذا ما **يُتوقّع** من الأنثروبولوجيين الألسنيين أن يفعلوه. يتوقّع زملاؤنا في حقول أخرى من الأنثروبولوجيين الألسنيين أن يزوّدوهم بأجوبة عن أصول اللغة ودورها في تطوّر الإنسان. قد يعتبر هؤلاء الزملاء هذا الكتاب خيبة أمل. فلا يجدون الكثير فيه عن تطوّر اللغة. وذلك ليس لكوني ضدّ الكلام عن الأصول. كما أنّني لا أرفض السؤال عن "ما يميّز الإنسان؟" يعود ذلك بالأحرى إلى سعيي إلى التفكير المتجدّد باللغة كموضوع دراسة، فقد تمّ استعمالها من قبل دون دراسة نقدية لها، وذلك من قبل معظم الّذين درسوا تطوّر اللغة أو الظواهر الثقافية الّتي تلعب فيها اللغة **بالضرورة** دوراً. أردت أن أفعل أكثر من تفكيك محض لفكرة "اللغة". فعملي يشمل عدّة حقول معرفية، ساعياً بذلك إلى تحسين الأفكار عن التواصل اللغوي المستعمَلة، بوضوح أو ضمنياً، حالياً في علوم الاجتماع والإنسانيات. نستخلص من تفحص المناهج و"وحدات التحليل"

المختلفة هدفين. الأوّل هو تقييم أعمال المحلّلين أنفسهم في إنتاجهم لمواضيع تحليلهم، بما في ذلك النواحي الثقافية. في هذا السياق، ركزت على أفعال الكلام الفردية كجزء من أيديولوجيات موجودة حالياً عن الشخص، وإدراك الإنسان، والمجتمع (الفصل 7)، بينما نظرتُ إلى الأعمال الخاصة بالمحادثة والمشاركة كأعمال تعتمد على أفكار ديناميكية وتركيبية للمؤلّف في التواصل (الفصل 8). ويقضي الهدف الثاني تفسير كيف يمكن لرؤيات تحليلية مختلفة أن تساعدنا في تحديد هوية عدّة نواحٍ من تلك الظاهرة المتعدّدة الأوجه الّتي نسمّيها "باللغة". يعني ذلك أنّه لا يجب تفسير الاعتراف بكون وحدات التحليل - مثل النسَخ (انظر الفصل 5) - أدوات مصنوعة لأنها "ألّفَت" أو كأنها لا علاقة لها مع "عالم الواقع" في حين أنها تملك علاقات معه. وسأحاول في الفقرة التالية أن أوجّه القارئ نحو هذه العلاقات.

2.10. امتلاك لغة

تعني الحيازة على ثقافة أن يكون هناك تواصل، ويعني وجود التواصل معرفة لغة ما. ولكن ما معنى أن "يكون للشخص لغة؟" قد نبدأ بالجواب على هذا السؤال بتفكيرنا ببعض التناقضات الموجودة في الجدال عن ما إذا كان لبعض الأفراد لغة.

عندما يُقال عن ولد يدخل نظاماً مدرسياً جديداً أنّه "لا يملك لغة" أو "لا يمتلك لغة كافية"، فمعنى ذلك أن يوضع ثقلٌ هائل على عاتقه. تعطينا الأنثروبولوجيا الألسنيّة أدوات مهمّة لتقييم أسس هذه التقييمات. يمكننا في الحقيقة أن نتفحّصها تجريبياً بسؤالنا أسئلة مثل: هل يستطيع الولد أن ينتج سلسلة صوتية لها معنى؟ هل سيستطيع التمييز بين المعاني؟ هل يستطيع استعمال اللغة في نشاطاتٍ

مختلفة (كاللعب والجدال واستخدام الأدوات وقول نكتة)؟ هل يعرف كيف يشارك في الحديث؟ ما هو نوع اللغة الّتي يرتاح فيها؟ عندما نقوم بهذه التقييمات بفكرٍ منفتح وخلفية رصينة في دراسة الممارسات اللغوية كظواهر ثقافية، قد نكتشف عندها أنّ الأولاد الّذين يقال عنهم إنّهم "لا يملكون لغة"، يملكون الكثير منها. فيعود السؤال إذاً إلى مسألة لها نتائج عملية وسياسية وأخلاقية مهمّة، وهي اكتشاف "ماهية اللغة". أجد أفضل مثالٍ على ذلك في مسألة الأولاد الصُم. نعرف الآن أنّه عندما يتعلّم الأطفال الصم لغة الإشارات خلال تربيتهم، "يملكون" بالفعل "لغة" و هي في الحقيقة معقّدة وغنية، بالرغم من اختلافها الظاهر عن تلك الّتي يستخدمها السامعون. ولكن في أيّام "تقليد الكلام (Oralism)" لم يكن هذا الافتراض موجوداً، وكان الأولاد الصم يعتَبَرون أولاداً "دون لغة"، فقط لأنّهم لم يملكوا اللغة الّتي كان يتكلمها معظم الناس. في معظم الحالات في الحقيقة، مُنعوا من استعمال اللغة الّتي كانت الأكثر طبيعية بالنسبة لهم ـ لغة الإشارات ـ وأجبروا على التأقلم مع لغة غير طبيعية بالنسبة لمن لا يسمع بسهولة مختلف الأصوات ـ اللغة المحكية (Lane 1984; Monaghan 1996; Padden and Humphries 1988; Sacks 1989).

بالرغم من إثبات لابوف (1970) اللامع للتركيبة المنطقية للّغة الإنجليزية غير الرسمية، يصل اليوم أساتذة وإداريون في المدارس إلى استنتاجات مماثلة، ويعود ذلك إلى احتكاكهم بأولاد يتكلّمون لهجات مختلفة أو غير رسمية وإلى معرفتهم المعتادة لطرق كلام وتصرّف مختلفة عن البالغين.

نكتشف في سياق أحاديث كهذه أهميّة التفكير باللغة بشكلٍ أوسع وبامتلاك مادّة دراسية يمكنها أن تهمّ أناساً مختلفين يعدّون

أنفسهم "خبراء باللغة". علينا أن نساعد هؤلاء الخبراء في تقييم تأثير طرق الكلام المختلفة وطرق الحياة المشترَكة، بالكلمات ومن دونها. يختلف ذلك عن القول إنّ على إداريي المدارس أن يتركوا عملهم ليقوم به الأنثروبولوجيون الألسنيون، أو إنّه يجب تجاهل الاختلافات وإنّه يجب اعتبار كلّ الأولاد متساوين في مقدرتهم اللغوية. فقول ذلك يقود إلى نتائج سلبية ومدمّرة، مثل تلك النظريات الّتي ترى في أنماط تفاعل الطبقة الاجتماعية المتوسّطة وحدها هو "صحيح أو "عقلاني" أما البقية فهو ناقص. كما تتناسى كلّ أشكال تعميم التفاصيل الّتي تشكّل حياة الإنسان، فتركّب نموذجاً لوجود الإنسان قد يكون أحياناً جميلاً في الشكل، ولكنّه من دون حياة، كذلك قد يرفض كلُّ نوع من الخصوصية الزائدة، مثل النسبوية الثقافية، إمكانية التواصل بين الأجناس والأعمار والرجال والنساء. تساعد مساهمات الفصول السابقة على تجنّب مثل هذه المواقف المتطرّفة. فهي تجبرنا على إعادة النظر ببعض الأفكار العامة، وتذكّرنا بأنّه لا يمكننا تجاهل الاختلافات، بل علينا أن نقارنها، ونحلّلها، ونعيد النظر فيها. كما علّمتنا إيّاه البنيوية صحيحاً، أي أنّه من دون الاختلاف لا يوجد معنى، فمن الصحيح أيضاً أنّ ما يُعتبَر اليوم مختلفاً قد يصبح معياراً لما هو عادي غداً. إذا كانت الفوضى والنظام جزءاً من شيء متكامل أو (من مرحلتَين في نفس الدورة الزمنية، كما تقول الديانات الشرقية والفيزياء الحديثة، فلا يهم عندها إذا بدأنا من افتراضات تنوعية أو عالمية. بل المهم هو أن لا ننسى الرؤية الأخرى. ينسى النحويون كثيراً مع الأسف أن يذكّروا أنفسَهم والآخرين بالهدف من دراسة اللغة. تغلب كثيراً قواعد اللغة كلعبة شطرنج على قواعد اللغة كلعبة حياة. قد شوّشت تقليدية الأنظمة اللغوية وطبيعتها الكيفية أحياناً كثيرة على تاريخيتها، أي التجربة الّتي تعيش منها وفيها. وظهر حتّى أنّ أسماء

العلم، الّتي كانت تُعتبر أكثر أنواع الإشارات اللغوية كيفيةً، لها صلات دلالية بالأماكن والأشخاص والأحداث، وأنّها روايات مصغَّرة عن الماضي أو المستقبَل (Basso 1984; Rymes 1996).
امتلاك لغةٍ هو مثل إمكانية النظر إلى لوحة كبيرة فيها المئات بل الألوف من الألوان. ولكنّ اللوحة والألوان تأتي من الماضي. وقد تم تناقلها. عندما نتعلّم كيفية استعمالها، نكتشف أنّ للّذين من حولنا أفكاراً قويّة عن ما يمكن رسمه، وبأي حجم، وبأي تركيبة، ولأي هدف. يعرف كلّ الفنانين بوجود جماليات تخص الرسم والتلوين، وسوق يردّ أحياناً بشكلٍ نزوي ولكن أحياناً كثيرة أيضاً بشكل متوقَّع على المساعي الفرديّة لترك أثرٍ في تاريخ التمثيل أو فقط لتعديل أبعاد بعض الأماكن على الهامش. هكذا أفهم فكرة روسي - لاندي (Rossi-Landi) القائلة بالتفكير باللغة كسوق (انظر الفصل 3). تقيّم منتجاتنا اللغوية دائماً ويعاد استعمالها أو ترمى خارجاً، كما يحصل للأعمال الفنيّة. ويتمّ التصديق علينا كمتكلّمين، نُمدح ونُتبع، أو لا يوافق علينا، ونوبَّخ ونُنبَذ. قد تأتي شهرتنا المهنية من عدد الخطابات الّتي نعطيها أو الكتب الّتي ننشرها، ولكنّ وضعنا في جالية ما يُقاس بواسطة استعمالنا اللغوي اليومي، في إعطاء رأينا، وحصولنا على صديق جديد، وتعاملنا مع من ينقدنا، وتعاطفنا مع من يتألّم. يعني امتلاك لغةٍ إذاً أن نكون جزءاً من جالية من الناس تقوم بنشاطات جامعة، مستعملة مصادر تواصلية يشاركها فيها معظم الأعضاء. يعني امتلاك لغة أيضاً عندها أن نكون جزءاً من تقليد، ومن تاريخ مشترَك، ومشاركتنا في ذاكرة جماعية، مليئة بالقصص والتلميحات والآراء والوصفات وغيرها من ما يجعل منّا بشراً. يعني أن لا يكون لشخص ما لغة أو فقط مجموعة لغوية محدودة أنّه مُنِعت عنه هذه الأشياء.

3.10. اللغة العامة واللغة الخاصة

تحدّد ميزات اللغة العمومية والعامة طريقة أخرى للنظر إلى اللغة كجزء من ما يحدّد إنسانيتنا. تشكّل اللغة كممارسة مشتركة إحدى معضلات الحياة الاجتماعية. إذا كان علينا، إذا ما أردنا أن نعبّر عن أنفسنا وننقل أفكارنا لغيرنا، أن نستطيع استخدام هذا المصدر العام الّذي تكوّنه اللغة، فكيف يمكننا التأكّد بأنّه يمكننا أن نتحكّم به بحسب احتياجاتنا، وبأنّه لن يتمّ سحقنا كأفراد تحت ثقل المعايير الاجتماعية المشترَكة؟ كيف يمكن لكلماتٍ وُلدت واستعملت في أيّام ماضية، من قبل ناس يختلفون عنّا، وفي سياقات مختلفة، أن تبقى مهمّة، ومناسبة، ومعبِّرة بالنسبة إلينا؟ إلى أي مدى نمتلك **بالفعل** كلماتنا؟

اهتمّ الكثير من العلماء بهذا الموضوع المدهش. فهو في قلب مشكلة النسبية اللغوية (انظر الفصل 3). ولكن تبين الأعمال الأنثروبولوجية الألسنيّة الحالية أنّ هذه الأسئلة تعتمد على مفهوم الشخص الذي لا ينسجم مع تجربة الفاعلين الاجتماعيين. على مستوى الحياة الاجتماعية الفعلية والمركّبة اجتماعياً وتاريخياً، تبقى إمكانية اختيار الإنسان نفسه فيما إذا أراد أن يدخل في المجموعة أم لا إمكانية نظرية وغير ممكنة فعلياً. يمكن للشخص أن يكون نفسه فقط بفضل وجود خلفية من الهويات والتوقّعات والممارسات الّتي يساندها وجود وأعمال الآخرين، بما في ذلك النشاطات اللغوية. يشكّل هذه التوتّر جزءاً من ما يصفه مايرز (Myers) (1986) بالتناقض بين التميّز والتعلّق، وما يصفه أوربان (Urban) (1991) بالشدّ بين الاختلاف والتشابه، كما يراه ممثّلاً في اللقاءات الطقسية في أميركا الجنوبية انظر أيضاً (Graham 1993, 1995). تعود مسألة الاستقلال أو الإبداع اللغوي إذاً إلى مجموعة عامة من الأسئلة : كيف يمكن

للأفراد أن يسعوا إلى إيجاد استقلاليتهم وأن يبقوا أعضاء في مجموعة في الوقت نفسه؟ (Duranti 1994b, 1997): كيف يمكننا أن نكون أفراداً وأن نحترم التقليد في الوقت نفسه؟ كيف يمكننا أن نختار بحرية وبأخلاقية في الوقت نفسه؟ نجد بوضوح هذه المعضلة في مجتمعات الأوستراليين الأصليين، حيث يعمل الأفراد بكدٍ لإثبات استقلاليتهم عن المجموعة. ولكنّهم أيضاً يلعبون دوراً "رتبياً" في مجتمعاتهم، حيث على الناس أن يتخلّوا عن خياراتهم وحاجاتهم الشخصية لكي يتسنّى تحديدهم كجزء من المجموعات السياسية أو كأتباع رؤساء لهم سلطانهم. وبالتالي يشكلون الآخر والذات أي وجهين لنفس العملة، وتلعب اللغة بوضوح دوراً مهمّاً في تركيب وإعادة إنتاج هذه الازدواجية الضرورية الّتي لم تُفهم جيّداً حتّى الآن.

ليست التغيرات الّتي نجدها في الأداء اللغوي والمعرفة اللغوية إلاّ إحدى نتائج التجاذب بين الخاص والعام، والداخل والخارج، والمماثل والمختلف. ونعيد إنتاج هذا التجاذب في فكرنا الخاص. وتساعد الممارسات اللغوية على إبقائه حياً. ولكن ما يجعل هذا التجاذب ممكناً هو قبل كلّ شيء عدم إمكانية تحديد اللغة وفئاتها. قد تسمح الكلمات والجمل بوصف الواقع في معظم الأحيان، ولكنّها لا تستطيع أن تعطي وصفاً كاملاً ونهائياً له. فكلّ وصف يضع في فئات وكلّ فئة قد تكون إمّا كبيرة أو صغيرة أكثر من اللازم. عندما تعمّم عبارة لغوية تجربة فريدة، تتجاهل تفاصيل واختلافات قد تكون أساسية بالنسبة لشخصٍ آخر. في الماضي اهتمّ فقط علماء المفردات اللغوية والإثنية بهذه المسائل. أمّا اليوم فنضعها في الحقل التجريبي للّقاءات وجهاً لوجه. يسمح ذلك لنا أن نعرف بأنّ الفئات لا تنشأ من تناقضات ومضادات في المعاني فقط (مثلاً كبير ـ صغير، نسبي ـ غير نسبي، ناس ـ حيوانات). فهي

تنشأ أيضاً من علاقات دلالية (انظر الفصل 6)، ومن الترتيب التسلسلي للكلام (الفصل 8)، وإطارات المشاركة (انظر الفقرة 3.9). لقد تعلّمنا أنّ هناك عدداً لا ينتهي من مصادر التفاعل المؤسس على التصنيف. ففي مجتمع واحد قد يكون الأخ أو الأخت شخصاً ينهي الجملة وقد يكون الصديق شخصاً يعرف عن ما تتكلّم قبل ان تتفوّه بأي اسم؛ وفي مجتمع آخَر قد يتوجّب التمييز بين أخ الأخ وأخ الأخت. تدخل طُرق الكلام أو تجنّبه في هذه التمييزات. بيّن الأنثروبولوجيون الألسنيون أنّ الفئات والتعميمات ليست فقط في الكتابات العلمية أو الحديث العلمي، بل أيضاً في رواية القصص من قِبَل أنواع متعدّدة من الناس. لهذا السبب لا تختلف الروايات عن القصص البوليسية، إن كان ذلك أمام مائدة الطعام (Ochs, Smith, and Taylor 1989) أو في الحلبة القضائية أو السياسية (Duranti 1994a: 175). بفضل وقتية الكلام، نكتشف أكثر فأكثر تفاصيل الواحد تلوة الآخَر، ممّا يعطي المشاركين فرصة ـ ولو لم يحصلوا على نفس السلطة أو المقدرة اللغوية ـ التأثير في تركيب القصّة وهويّة شخصياتها الأخلاقية (Jacquemet 1994). كما رأينا في الفصل 9، يدعم تنظيم الرواية أنواعاً معيّنة من التسلسل ومن الحلول (مثلاً في الأوضاع الجدلية). بالإضافة إلى ذلك، وكما رأينا في الفصل 6، لا يشكّل الإطار النحوي ميّزة رمزية تعطينا علامات الإعراب في لغةٍ ما؛ فهو ميّزة في تأسيس وجهة نظر معيّنة، والتعريف بالأحداث والمشاركين بطرق معيّنة. التعدّي النحوي في الحديث هو جزء من تركيب الفاعل. لا يمكن لأي نظرية أنثروبولوجية لغوية أن تتجنّب الانتباه إلى تفاصيل علامات الصرف وغيرها من الأدوات النحوية، لأنّها تشارك في تحديد وتقييم القصد والمسؤولية.

4.10. اللغة في الثقافة

إن كلّ نظرية تعرّف باللغة كأداة لإنتاج صور قد تفترض فصل اللغة عن الواقع، ويعتبر الأنثروبولوجيون الألسنيون ذلك مشكلة منذ زمان طويل. أن يكون لدينا لغة هو أكثر من أن يكون لدينا مخزون لامتناهٍ من الاستعارات الّتي تساعدنا على فهم تجربتنا الحياتية. للّغة أيضاً صلات كناية مع المجتمع والثقافة. كما أكّد هاري هواير (Harry Hoijer) (1953)، علينا ان نفكّر باللغة **في** الثقافة وليس فقط باللغة والثقافة. فالنظام اللغوي يتداخل مع كلّ الأنظمة الموجودة في الثقافة. يمكننا توسيع هذه الفكرة والقول إنّ اللغة في داخلنا كما نحن في داخل اللغة. تصل اللغة بين الناس ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، **فتصبح** هي ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم. ليست اللغة مجرّد تمثيل لعالم مستقل. فهي أيضاً هذا العالم نفسه. وذلك ليس بالمعنى البديهي القائل إنّ كل ما يتبقّى من ماضينا هو اللغة، ولكن بمعنى أنّ ذكرياتنا موجودة في روايات وقصص ونوادر وأسماء لغوية كما في الروائح والأصوات وطرق تحريك أجسادنا. إذا كانت اللغة حدثاً، كما يقترح مالينوفسكي، وإذا كانت طرق الكلام تعطينا طرقاً للكيان في العالم، كما يقترح سابير- وورف والكثيرون غيرهم، فالتواصل اللغوي جزء من الواقع الّذي يُفترض أن يمثّله ويفسّره ويستحضره. إذا كانت اللغة، بحسب قول فيتغنشتاين، "شكلاً من الحياة"، يكون امتلاك لغة ليس فقط امتلاك أداة لتمثيل الأحداث بطرق معيّنة، بل أيضاً المقدرة على التفاعل مع هذه الأحداث، والتأثير والتأثُّر بها. أما، بالنسبة للأنثروبولوجيين الألسنيين، فإنه لا يمكن أن نفصل بين طبيعة اللغة ومسألة استعمالها من قبل فرد في لحظاتٍ معيّنة. دراسة اللغة هي في صلبها تاريخية، أي أنّها تحصل في وقت تاريخي. تشكل المؤقتية إذا أحد أبعادها الأساسية.

5.10. اللغة في المجتمع

"من يتكلّم عن اللغة يتكلّم عن المجتمع"، كتب ليفي ـ ستراوس مرّةً. ولكن ما معنى ذلك؟ يعني ذلك أنّ الأفعال التواصلية المتكرّرة والمتّصلة ببعضها دون أن تكون بالضرورة متطابقة هي الّتي تعيد تركيب المجتمع. ويعني ذلك أنّ الحكم والعمل والعائلة وغيرها من المؤسسات الّتي تكوّن المجتمع تعتمد على اللغة لإعادة إنتاج هذه المؤسسات في الزمن، وفي عدّة أقاليم، وبالرغم من الاختلافات بين الناس الّذين يكوّنونها. من غير الممكن أن نفكّر بأي نظام بيروقراطيّ حديث ليست لديه طرق معيّنة في الكلام والكتابة والطباعة تُرشد الناس للتعامل مع مبادئه الصعبة وتبرّر وجوده. فكيف يمكن لبيروقراطية أن تبقى من دون أخصّائيين في لغتها، أو من دون أشكالها المكتوبة أو أسئلتها الشفهية الّتي تسمح بتعداد الأفراد ووضعهم في مجموعات، بحسب الشراء والنسب والجنس وحتّى اللهجة؟ بشكلٍ مماثل هل يمكننا تخيّل رئاسة قبَلية (في المنطقة الأقيانوسية أو أميركاً أو أفريقيا أو أي مكانٍ آخَر من العالم) من دون اللغة الّتي تميّز الرئيس عن باقي الناس، ومن دون نظام ألقاب عظمة، ومن دون ممثّلين لأفكار ورغبات أصحاب السلطة؟ يمثّل الكلام ويعبّر عن الكثير من الرتب الاجتماعية، ولذلك لا يمكن دراسة أي نظام اجتماعي إذا لم تُفهم اللغة الّتي تسانده وتمثّله. حتّى في تلك المجتمعات المسماة خطأً بالمجتمعات المتساوية، حيث يقال إنّ الأفراد لا يمثّلون إلاّ أنفسَهم، وحيث لا يمكن لأي بالغ (ذكر) أن يُجبر بالغاً آخر أن يفعل أو يفكّر أو يقول ما لا يريده، تحافظ اللغة على التوازن في النهاية، وتؤكّد حقوق الفرد، وتعاقب من يفكّر أو يتصرّف بشكلٍ مختلف (Brenneis and Myers 1984). حتّى قبل الشجار، يقول الناس عادةً كلمات معيّنة ويسمعون كلمات ويفسّرونها أو يسيئون تفسيرها. يمكن بعد ذلك

بالطبع القيام بأعمال لغوية أخرى، بالاحتفال الروائي بالانتصار أو بشجب الشجار، حيث يمكن مقارنة وجهات النظر ومحاولة فهم ما حـــــدث (Brenneis 1988; A. Grimshaw 1990; Watson-Gegeo and White 1990).

تسمح لنا اللغة بفهم ما نراه ونسمعه، وبالنظر أيضاً إلى مضمون تفكيرنا وذاتنا لنسأل أسئلة كالتالية : من نحن؟ من أين أتينا؟ إلى أين نذهب؟ لماذا نحن هنا؟ تسمح اللغة بتركيب أسئلة وباقتراح أجوبة عليها. يعني تحليل لغة التفاعل اليومية أننا نعتقد قبل كلّ شيء أنّ هذه الأسئلة لا تقتصر على الطقوس في حياتنا الدينية والسياسية وأنّ الأجوبة الممكنة عليها ليست فقط للأخصّائيين، أي الشعراء والروائيين والخطباء الكبار. فقد علّمنا إدموند ليش (Edmund Leach) وغيره من الأنثروبولوجيين الثقافيين ـ الاجتماعيين أنّ الكثير مما يفعله الناس يتعلّق بمسألة المتابعة، أي بحياتنا المحدودة، وبالإنتاج المادي والرمزي المتجدّد لشخصيتنا الخاصة ولوضعنا الاجتماعي. إذا ما تحوّلت هذه المسألة إلى هوس طقسي، فهي تستولي على كلّ تفاعلاتنا اليومية، كما للغة كلّ شخص ـ كما يذكّرنا حديث بول فريدريتش (Paul Friedrich) (1986: 26) عن عدم التحديد في الشعر ـ لحظات شعرية، حيث تملك الكلمات المستعمَلة وسرعة إنتاجها وصوتها قوّة وسلطة الشاعر أو الروائي أو الخطيب. لا يعني ذلك أنّ كلّ المتكلّمين فنّانون أو أنهم مؤلفون بالضرورة، والمؤلّف يكون أحياناً بحال جيّدة وأحياناً أخرى لا.

6.10 أي نوع من اللغة؟

حاولتُ في هذا الكتاب أن أبيّن أنّ مفهوم اللغة الّذي نتج من عمل الأنثروبولوجيين الألسنيين في القرن الماضي قد تغيّر. تحوّل

الأنثروبولوجيون الألسنيون من رؤية تعتبر اللغة نظاماً تصنيفياً، ونافذة على الواقع الفكري وبالتالي أداةً لدراسة الثقافة كنظام معرفة، إلى مفهوم للّغة كمجموعة من الميّزات والميول والأفعال الّتي تشكّل أحياناً خلفية وأحياناً أخرى أمامية تشكيل العالم الاجتماعي الّذي نعيش فيه. من الواضح أنّه كان لهذا التحوّل النظري ثمن. ما كان يُعتبَر من قبل **خارج** اللغة، يُعتبر اليوم أكثر فاكثر جزءاً من اللغة، وأحد المكوّنات الأساسية لتنظيمها، وبالتالي لمعانيها. يعتبر البعض أنّ ذلك أدّى إلى توسيع ظاهرة "اللغة" إلى حدّ أنّه أصبح من الصعب القول ما **ليس** بلغة. إذاً أصبحت اللغة مرادفة للتفاعل الاجتماعي، كما قلت أحياناً كثيرة في الفصول السابقة، كيف يمكننا أن نميّز بين الكلمات والأفعال، وأخيراً بين الكلمات والأشياء؟ كيف نضع حدوداً لمراقباتنا؟

الجواب هو أنّه لا يعود وضع حدود التحقيق إلى مادّة دراسية أو إلى الدارسين لها. على الآخرين أن يبيّنوا للأنثروبولوجيين الألسنيين أنّهم قد غفلوا عن شيء أو أنّهم دخلوا في منطقة لا يملكون الأدوات الكافية لاكتشافها. لا يجب تجاهل اللغة لأنّ لها نفس أهمية وجود الإنسان. يجب بالتالي على الأنثروبولوجيين الألسنيين أن يواجهوا موضوع بحثٍ لا يتوقّف توسّعه ـ مثل الكون الّذي تسعى اللغات ويسعى المتكلّمون بصعوبة إلى التحكّم به.

ملحق: نصائح عملية
عن تسجيل التفاعل

نحتاج إلى كتاب كامل إذا أردنا أن نتكلّم عن كلّ المسائل الّتي نلتقي بها عند تسجيلنا لتفاعلات الناس. سأحصر عملي في هذا الملحق ببعض النصائح العملية التي تسمح للطلّاب بتجنّب الأخطاء الشائعة والحصول على تسجيلات من نوعية جيدة. على الطلّاب والباحثين الميدانيين الّذين يودّون تحسين معرفتهم في هذا المجال أن يستشيروا مصادر اخرى، خاصّةً جاكسون (Jackson) (1987) وغودوين (Goodwin) (1993). سأبدأ ببعض النصائح عن التحضير لجلسة تسجيل، تليها نصائح عن كيفية استعمال المذياع، والتسجيل على شرائط صوتية، والتسجيل على شرائط فيديو.

1. التحضير للتسجيل

الاستعداد

يحتاج استعمال أي نوع من التسجيل باستثناء القلم والورق، إلى الانتباه إلى كيفية تحضير التسجيل. يجب الاهتمام بالآلات والتأكّد من صلاحيتها بشكلٍ دائم للحصول على أفضل تسجيلات

ممكنة. بالإضافة إلى ذلك، يجب اتّباع عدّة خطوات قبل وخلال وبعد التسجيل.

1. قبل التسجيل بيوم، تأكّد من صلاحية كلّ الآلات، وتأكّد من أن البطّاريات ملآنة.

2. أكتب قائمة تدقيق تحتوي كلّ ما يجب أن تتذكّره، بما في ذلك الآلات الّتي ستحتاج إليها. بعد انتهاء التسجيل، يمكنك استعمال نفس القائمة للتأكّد من عدم نسيان أي شيء قد أحضرته معك.

3. حاول بقدر الإمكان أن تحضر معك شرائط وبطاريات وآلات إضافية. إذا وصلت واكتشفت، لسبب ما، أنّ الميكروفون يحتاج إلى بطارية جديدة، أو أنّ الكاميرا عاطلة، يمكنك عندها الاعتماد على آلاتك الاحتياطية.

4. حاول بقدر الإمكان أن تتفحّص الميدان وأن تحصل على معلومات عن النشاط الّذي ستسجّله.

5. فسّر للناس الّذين ستجدهم هناك ما ستفعله واحصل على موافقتهم على التسجيل. حاول أن تعرف كيف يمكنك أن تكون هناك من دون أن تزعج أحداً.

6. إذا كنت في فريق عمل، وزّع المهمّات مسبَقاً (مثلاً، يمكن لأحدهم أن يهتم بالتسجيل الصوتي وبالملاحظات الإثنوغرافية، ولآخر أن يهتم فقط بتسجيل الفيديو). إذا عملت لوحدك، حاول أن تعرف من تجربتك السابقة ما تستطيع القيام به وحضّر نفسك لذلك (مثلاً، قد لا تستطيع أن تهتمّ بنفس الوقت بمسجّلة صوتية وبكاميرا فيديو، وإذا حاولت أن تفعل كلّ شيء فسيؤثّر ذلك في نوعية عملك).

نصائح عن الميكروفون

1. استعمل بقدر الإمكان ميكروفوناً خارجياً وقرّبه من المشاركين ـ إذا اضطررت إلى اختيار مكان الميكروفون، كما يحصل عند وجود عدد كبير من الناس، ضعه بالقرب من (أو باتّجاه) المشاركين الّذين تهمّك أقوالهم أو أفعالهم الصوتية (كالغناء مثلاً).

2. إذا كان المشاركون ثابتين (قاعدين مثلاً حول طاولة أو على أرضية غرفة)، ألصق سلك الميكروفون بالطاولة وبالأرض، أو علّقه من السقف. إذا كان المشاركون يتحرّكون، ضع المسجّلة على كتفك ووجّه الميكروفون نحو الأشخاص المتحرّكين.

3. إذا غيّر المشاركون أماكنهم كثيراً، يمكنك استعمال ميكروفون لاسلكي يُربط بالشخص الّذي يهمّك كلامه أكثر من غيره.

4. تأكّد دائماً من بطارية الميكروفون قبل بدأ التسجيل.

5. احمل معك دائماً بطاريات إضافية.

6. أحضر معك دائماً سمّاعات أذن لكي تسمع خلال التسجيل. هذه أفضل طريقة للتأكّد من نوعية التسجيل ومن عمل الميكروفون.

نصائح تسجيل عن آلات التسجيل الصوتي

1. ضع بطاريات جديدة في المسجّلة أو تأكّد من أنّ البطاريات الّتي فيها ملآنة (إذا كانت بطاريات قابلة لإعادة الشحن).

2. بعد وضعك لشريط في المسجّلة، صلها بالقابس الكهربائي، صل الميكروفون بقابسه، وصل سمّعات الأذن بقابسها، وشغّل المسجّلة واضغط "توقّف مؤقّت (Pause)" ثم "تسجيل" للتأكّد من نوعية الصوت.

3. عندما تترك ال"توقّف المؤقت" وتبدأ بالتسجيل، تأكّد أنّ الشريط يدور[1].

4. حاول أن تبقي السمّاعات على أذنَيك طوال الوقت للتأكّد من نوعية التسجيل.

5. تذكّر أن تُخرج البطاريات عند انتهاء التسجيل.

6. حاول أن تستخدم ألات ستيريو.

شرائط (لتسجيل الصوت ولتسجيل الفيديو)

1. استعمل شرائط صوتية طولها 60 أو 90 دقيقة (الشرائط الأطول قد تتعثّر في الدوران أو تتعطّل). إذا كانت لديك الإمكانيات المادية، حاول أن تحصل على أفضل آلات تسجيل الفيديو.

2. ألصق على كلّ شريط، قبل التسجيل، التاريخ وأسماء المشاركين والمكان.

3. ضع أرقاماً تسلسلية على أشرطتك واعرف كمية تسجيلاتك.

4. عند انتهائك من التسجيل، اصنع نسخ التسجيلات الأصلية لكي تستمع إليها وتكتبها في ما بعد. إذا استعملت آلة فيديو من نوع هـ.ي ـ 8 (Hi-8)، من الأفضل أن تستعمل شرائط 8 مم للنسخ الّتي تعمل عليها (فهي أرخص) أو حتّى ف.هـ.س VHS. إذا كان هناك خالط ومصحح للصوت يمكنك استعماله، سجّل عناوين على النسَخ مع معلومات قد تساعدك لاحقاً للوصل بين الشريط والملاحظات الميدانية (مثلاً عن زمان ومكان التسجيل، واسم المصوّر).

---

(1) يمكن أيضاً، بدلاً من 2 و3، القيام بتجربة قبل التسجيل.

5. إذا عملت في مكانٍ رطب أو في طقسٍ ممطر، حاول قدر الإمكان أن تحفظ الشرائط في مكان جاف وبارد. (استعمل عند الحاجة هلام السيليكا أو خزانة ساخنة).

6. احتفظ بقائمة بمحتويات كلّ شريط. أفضل طريقة تقضي بصنع ملصقات (انظر الرسم م1) والاحتفاظ بدفتر محتويات في مكان مختلف (مثلاً في ملف على الكمبيوتر) (انظر الرسم م2).

Alessandro Duranti
Dept. of Anthropology
UCLA

000 - kids play cards at F. and S's house
1150 playing with ball
1500 - at the table, S. serves food to kids
2352 - from outside the house - kids play ball
2480 - cleaning up kitchen
3430 - kids help
3700 M. outside
3885 Marco comes
4350 V. weeds
4600 sitting for meal
4666 - Grace
Eating and talking
5780 End

No.2

kids playing at F&S
Women of Ekalesia

2705 Women of the Ekalesia
cleaning up house

الرسم م1 لاصق فيديو صنع باستعمال برنامج هايبركارد (Hypercard) (كان قبل ذلك يُستعمل للآصقات السمعية، غيّره تشارلز غودوين)

يمكن ترقيم الأشرطة بواسطة الرقم على العدّاد أو الوقت
استعمال العدّاد، وهي الطريقة الوحيدة الممكنة في بعض الآلات
قد تشكّل مشكلة عند تغيير الآلة. وبالتالي من الأفضل الترقي
بالوقت. نجده دائماً على شرائط الفيديو الّتي تحدد الوقت، ولا يتغ
(فيبقى نفسه مثلاً كلّ مرّة ننظر إلى محتوى شريط فيديو). بينما ة
تختلف أرقام العدّاد بين مرّة وأخرى. الأفضل هو الكتابة ومن ث
إضافة تحديداتٍ عليها (كلّ دقيقة أو خمس دقائق مثلاً).

الوقت	كاميرا/ مكان	نشاط/ كلام
00	باحة وقوف السيارات	تدفع امرأة امرأة أخرى في كرسي للمقعدين
00:15	نظرة شاملة إلى القاعة	نظرة 360 درجة إلى الطاولات الفارغة والطاولات مع كراسٍ
00.50	قطع	
	كنيسة	بعث طلاب صفوف الأحد نحو أساتذتهم
1:35	داخل القاعة	يصل التلاميذ والأساتذة
		يصل ثلاثة أساتذة، ك. ج. وف.
2:30		يطلب س. من الأستاذ ج. أن يقوم بالصلاة
	تكبير س. يصلّي	
	طاولة وتلاميذ	يتكلّم الأستاذ ج.
3:20		يُطلب من س. أن يتقدّم
3:50		ما هو اليوم؟
		يتوجّه الأستاذ ك. نحو الطاولة ويجلس بينما الأستاذ ج. يتكلّم
4:20		يقلب الجميع إلى الصفحة...51...
4:50		يدخل تلميذان آخَران (م. وب.)
	قطع	

	صف آخر في زاوية أخرى	صف ي. (أولاد صغار)
5:28	عودة إلى ج. وك.	يُطلب من فتاة أن تقرأ، بينما يعطي صبي جالس في آخر الصف نقوداً إلى الأستاذ ف. الّذي يجمع النقود
6:36		"التالي..." (يُطلب من كلّ تلميذ أن يقرأ فقرة)
		يأخذ ك. ورقة من الفتاة ويقرأها
7:20		يهدّد الأستاذ ج. بضرب تلميذ قائلاً "اسمعْ!"
		يقرا الأستاذ ج.
		يسأل الأستاذ ج. أسئلة ويرفع التلاميذُ أيديهم
8:00	عودة إلى مجموعة التلاميذ الأقلّ سنّاً	قراءة الـ pi tautau (الأبجدية) تحمل المعلّمة ت. عالياً لوحاً عليه أحرف وصوَر - ن. موجود في المجموعة
		تقرأ المعلّمة ت. الأبجدية (تقول "ريئ" بدلاً من "راء" ويصحّحها ولد)
		... إلخ.

الرسم م2 سجل عن تسجيل فيديو لدرس في مدرسة الأحد الدينية في الجالية الساموا في لوس أنجلوس

عند تحليل البيانات، يجب أن يتمكّن الباحثون من استخراج كلّ المعلومات الممكنة، منها الكلام المتشابك، وتحرّك الأنظار، وغيرها من تفاصيل التفاعل الّتي قد تكون مهمّة بالنسبة لما قيل أو صُنِع، ويصعب تسجيلها من دون وجود أدوات التسجيل المناسبة. لهذا السبب، عندما يقدّم الباحثون الميدانيون طلب مساعدة مالية، عليهم أن يشدّدوا على أهمية الحصول على أفضل الأجهزة المتوفّرة. كما رأينا في هذا الكتاب، يرتكز أهم ما اكتشف عن تفاعل البشر

على النسخ الدقيق للمقابلات وجهاً لوجه، حيث يمكن لكلّ ما يقوله المشاركون أن يكون مهماً للتحليل. من المهم أيضاً أن توضّح في كلّ منحة تطلبها حاجتك إلى نوع معيّن من الأجهزة. قد لا يعرف أعضاء هيئة المراجعة كلّ شيء عن التكنولوجيات الحديثة، وقد لا يعرفون أفضلية نوع معيّن من الأجهزة عن الأخرى. وأخيراً، عندما تطلب مساعدة مالية، عليك أن تأخذ بعين الاعتبار وأن تعرف ما إذا كانت الأجهزة الّتي تحتاج إليها متوفّرة في المؤسسة المعنية أم لا.

2. متى وأين يجب أن تسجّل

عليك أن تسجّل كلّ ما تستطيع تسجيله. بعد شرائك للأجهزة، ستجد أنّ أسعار شرائط الفيديو غير مرتفعة (لذلك من الأفضل استخدام أشرطة الفيديو بدلاً من الأفلام). لا تحصُر التسجيل بالأحداث المهمّة. ابدأ بالتسجيل بأسرع وقت ممكن. لا تنتظر بداية الحدث، خاصةً في الأسابيع الأولى، حيث لا يعرف الباحث الميداني ما سيحصل. من الأفضل أن تحصل على تسجيلات غير مهمّة من أن تفوت عليك بداية حدث. فالبدايات ـ كما يذكِّرنا طلّاب التفاعل البشري ـ هي دائماً مهمّة للتحليل. إذا سجّلت الكثير في البداية، سيعتاد المشاركون على رؤيتك تسجّل. فيصبح ذلك جزءاً من شخصيتك الاجتماعية. فلا يعود ذلك شيئاً مختلفاً يقود إلى تصرّفٍ مختلف. في الوقت نفسه، لا تنسَ أنّه، وبحسب الوضع، يعتَبَر كلّ ما يسجّل، وبالأخص الكاميرا، تطفّلاً. انتبه إلى ردّات فعل الناس وتوقّعاتهم. اشرح لهم دائماً ما تفعله، ولماذا تسجّل، واطلب إذنهم.

عندما تفهم أكثر ما يحصل في الجالية الّتي تدرسها، يجب أن تصنع جدول تسجيل يأخذ بعين الاعتبار أفضل وقت في اليوم

للتسجيل. عند اختيارك لهذا الوقت، خذ بعين الاعتبار النشاط المعيّن وأنواع المشاركين الّذين يهمّونك. على الّذي يدرس لغة الأطفال وتربيتهم الاجتماعية مثلاً أن يعرف متى يستفيقون ويتفاعلون مع أهلهم ومع أخوانهم وأخواتهم الأكبر سنّاً (Schieffelin 1990: 25). وعلى من يدرس لغة الطقوس أو الخطابة أن يتبعوا حياة القرية الاجتماعية، لكي يعرفوا مسبقاً متى ستحصل الأحداث العامّة. من المهمّ جدّاً أن تصل إلى مكان الحدث قبل حدوثه، حتى تحضر وتضع الأجهزة في المكان المناسب حتى تكون حاضرة للعمل انظر (Jordan 1993: 104-111).

3. أين يجب أن تضع الكاميرا؟

هذه من أصعب خيارات الباحث الميداني. إذا بقي المشاركون جامدين مثلاً، يمكن للباحث أن يضع حاملاً ثلاثياً ويترك الغرفة. يسمح ذلك للمشاركين بالبقاء على طبيعتهم أكثر وأن لا يفكّروا بكيفية التعامل مع وجود الباحث. المشكلة الوحيدة هي إمكانية تحرّك المشاركين من مكانهم أو حدوث شيءٍ للأجهزة (قد تقع مثلاً أو تفرغ البطارية) في غياب الباحث الّذي لن يضبط الكاميرا عندها أو يصحح المشكلة. لهذا السبب، من الأفضل أن يبقى على مقربة أو أن يأتي بشكلٍ متكرّر للتأكّد من عمل الكاميرا ومن الوضع. في بعض الأحيان، قد يستطيع الباحث أن يجلس أو يقف بالقرب من الكاميرا، فيكتب ملاحظاته أو يقرأ، فلا يحتاج أن يبقى وراء الكاميرا ناظراً في العدسة طوال الوقت. بالنسبة لعدسة الكاميرا، يجب أن يختار الباحث عدسة بزاوية واسعة (على كاميرات الفيديو الـ 8 مم، أصغر طول بؤري هو عادةً 12 أو 11 مم، ولكن هناك عدسات إضافية يمكن وضعها لتقصير الطول، وبالتالي توسيع زاوية الرؤية). يصعب استعمال عدسات تيليفوتو (Telephoto)، فهي تخلق مشاكل في

التعديل البؤري، وتفوت عليها معلومات نظرية سياقية ستهمّ الباحث عند مشاهدته للشريط لاحقاً. إذا لم تكن أكيداً من ما فعله، **استعمل تقريب عدسة الكاميرا بشكلٍ محدود ومدروس فقط.** يجب أن تستعمل تقريب العدسة فقط عندما يستحيل تقرّبك من المشهد الّذي تحتاج إلى معلومات دقيقة عنه. فقد تحتاج أحياناً إلى تقريب وجوه الأشخاص لكي تتمكّن من التعرّف إليهم لاحقاً أو إذا كانت تعابير وجوههم وردّات فعلهم تهمّك (مثلاً لكي ترى إلى ما ومن ينظرون). قد تريد أن تصوّر شكل أداةٍ ما، أو وشماً على جسد شخص، أو ما كتب على ورقة، أو صورة يتكلّم الأشخاص عنها. بشكلٍ عام، حاول أن تبقي أكبر عدد من المشاركين في إطار صورتك، من دون أن تبتعد كثيراً، ولا تتحرّك كثيراً. إذا تحرّك المشاركون كثيراً (هذا ما يحصل مع الأطفال في المنزل أو المشاركين في أحداث عامّة في الخارج)، قد يكون من الأفضل أن تستعمل كاميرتين، واحدة على حامل ثلاثي والأخرى في يدك. يحتاج استعمال الكاميرا المحمولة الكثير من التمرين، وعلى الطلاّب الّذين يشعرون بالحاجة إلى استعمال هذا النوع من التسجيل أن يبحثوا عن فصول أو حلقات دراسية تعطيهم مهارات أساسية في التقنيات الوثائقية. من المهمّ جدّاً أن يجد الطلاّب سهولة في استعمال الكاميرا وثقة في نوعية تسجيلاتهم. بقدر ما يستعمل الطالب الكاميرا بسهولة، يسهل عليه أن يجد مكانه في المشهد ويشعر عندها الآخرون بالارتياح. بعد أكثر من عشرين سنة من الخبرة في أنواع مختلفة من تقنيات التسجيل، أجد أنّ معظم الناس يتعودون بسهولة على وجودي مع الكاميرا معهم. أتبع عادةً المشاركين مستعملاً عدسة واسعة الزاوية، وأبقى على مقربة ممّا يحدث. في بعض أشرطتي المصوّرة، يبدو المشاركون على "طبيعتهم" تماماً، حتّى إنّ العديد من المشاهدين يعتقدون أنّ الحدث مصطنع وأنّهم يمثّلون. فبعكس ما يُعتقد عادةً، لا يكمن السر

بالاختباء أو إخفاء الكاميرا أو التظاهر بعدم وجودنا، بل بالقول بصراحة إننا نصوّر من دون أن نزعج الناس. في النهاية يجد المشاركون طريقة لاعتبار وجود الكاميرا طبيعياً، فيركّزون على ما يفعلونه بدلاً من تركيزهم على ما يفعله الباحث (انظر الرسم م3).

عندما يتسنّى ذلك، من الجيّد أن تشاهد أوّل تسجيل فيديو مع زملائك لكي تتحدّث معهم عن استعمال الكاميرا وكيفية تحسينها أو تكييفها مع أهداف مشروعك.



الرسم م3. أطفال يسمّعون أبجدية الساموا في مدرسة يوم الأحد في لوس أنجلوس (1993)

هناك الكثير من الكلام عن شعور المشاركين في وضع ما إزاء تسجيلهم. هذا قلق طبيعي؛ ولكن وفي الوقت نفسه، يجب أخذ ما

يشعر به الباحث في وجوده في الميدان وفي تسجيله لما يحصل أمامه. من المهم أن يشعر الباحث أنّ ما يفعله منطقي ولا يضرّ الآخرين أو يتدخّل بشكلٍ غير مقبول في حياتهم. إذا كانت هناك أسباب تدفعه إلى عدم التسجيل، عليه أن يوقف الكاميرا. عليه أن يتذكّر دائماً أنّ الكاميرا تضيف نظرة أخرى للمشهد، وهي نظرة قد تكون ظاهرة جدّاً، ويجب لهذا السبب التعامل مع وجودها كموضوع مناقشة. يمكن القول نوعاً ما إنّه لا أحد، ولا حتّى الباحث، يستطيع أن يعرف كيف سيُستعمل تسجيل فيديو في المستقبل. لهذا السبب، يجب اتّباع بعض المبادئ الأساسية :

1. يجب الحصول على إمضاء المشاركين قبل التسجيل (نجد عادةً في الجامعات مكاتب أو لجان خاصة تساعد على كتابة استمارات موافقة وقد تشترط موافقتها عليها).

2. قد يجد الباحث نفسه أمام حالات لم يتوقّعها في طلب المنحة أو خلال تحضير استمارة الموافقة. على الباحث أن يتبع دائماً المنطق السليم ويحترم خصوصية الناس. فيجب عليه مثلاً أن يوقف الكاميرا إذا أحسّ أنّه قد تخطّى الحدود أو سيتخطّاها، في ما يخص ما يناسب أن يراه الناس خارج الحدث.

3. على الباحثين الميدانيين أن يعرفوا ما إذا كانت المعلومات الّتي يسجّلونها ستتوفّر للدراسة من قِبل آخرين لاحقاً. مبدئياً، يجب على الباحثين الميدانيين أن يحافظوا قدر الإمكان على التسجيلات الأصلية والنسخ، ولكن قد لا يكون ذلك ممكناً دائماً. عندما يستخدم باحثون آخرون البيانات، من المهمّ أن يفعل كلّ ما باستطاعته للتأكد من أن لا يحصل تفسير خاطئ للبيانات وأن لا تُستعمل بطريقة غير مناسبة إذا أُخذت حالة التسجيل الأولى بعين الاعتبار (انظر 1 أعلاه). يجب بالأخص أن يحذر الباحث اقتراح

الزملاء والمؤسسات الاشتراك في تشكيل بنوك معلومات. قد ينتج ذلك من نية حسنة وقد يُعتبر أساسياً لطبيعة البحث العلمية عن التفاعل البشري، ولكنّه قد يشكّل خطراً في حال وجود بيانات لا تسمح للباحث بحماية هوية المشاركين بالتفاعل بشكلٍ كامل (في حال حُدّد ذلك كشرط من شروط التسجيل). بالرغم من المعلومات العديدة الموجودة في التسجيلات المرئية، فهي تبقى عرضة لتفسيرات قد يعتبرها المشاركون أو الباحثون غير مناسبة. إذا لم يكن هناك أي ملاحظات إثنوغرافية دقيقة وإطارات تفسيرية، يمكن حصول تفسير خاطئ للتسجيلات المرئية، كما يحصل مع غيرها من البيانات عن تصرّفات البشر. في النهاية، يجب أن لا ننسى أنّ نوع تسجيل الفيديو أو الفيلم الّذي نتحدّث عنه هنا، هو جزء من العملية الإثنوغرافية ككلّ، مع نواحيها التجريبية والأخلاقية. ليس الأنثروبولوجيون الألسنيون مخرجي أفلام يعملون لحساب مؤسسات وشركات أو زملاء من مواد دراسية أخرى، لهم نية حسنة ومعلومات غير كافية. فهم قبل كلّ شيء إثنوغرافيون يستعملون المستندات المرئية كجزء مهم من أبحاثهم **الشخصية**.

4. عندما يقرّر الباحثون أن يعرضوا علناً أفلاماً عن الناس في حياتهم اليومية، إن كان ذلك في منزل أحدهم أو في مكانٍ عام، كالمدرسة والمستشفى والمحكمة والمسرح وزاوية في شارع، عليهم أن يكونوا على علم بمسؤوليتهم عن هكذا عرض. عليهم أن يفكّروا مسبَقاً بتأثير مثل هذا العرض العلني.

الثبت التعريفي

ألسنيّة (Linguistics): تعبّر عن اللغة المحكيّة من جهة، وتعبّر عن تعدّد الظواهر اللغوية من جهة أخرى. أمّا بالنسبة للصفة أو النعت فإن مصطلح **Linguistic** يعني "ألسني" عند الإشارة إلى علم الألسنية، و"لغوي" عند الإشارة إلى اللغة بشكلٍ عام.

تبصّري (Meta): يشير هذا المصطلح إلى وجودنا خارج علمٍ أو حقل معرفة ما للنظر إليه بشكلٍ عام وأكثر شمولاً.

تشييء (Objectification): اعتُمِدت كلمة "**تشييء**" في ترجمة Objectification، كما اعتُمدت كلمة "شيء" لترجمة Object تشير هذه الكلمة إلى تركيبة تقوم بها الذات الحديثة الّتي تتحكّم بما تجده أمامها "فتشيئه".

ثقافة (Culture): يشير هذا المصطلح إلى ما يعرفه الشخص، وبالأخصّ هنا إلى العادات والتقاليد، كما وإلى الديانة والطقوس وغيرها من مميزات قبيلة أو جالية أو مجتمَع.

جالية (Community): تشمل هذه الكلمة عدداً كبيراً من الناس أو بضعة أشخاصٍ فقط، مساحة جغرافية ضيقة جدّاً أو واسعة أو

متقطّعة. على القارئ إذاً أن يفهم ما تشير إليه بالضبط بالرجوع إلى سياق النص.

سياق (Context): سياق الحديث كلّ ما يبثّ بواقع الكلام والفعل والأشخاص والأشياء.

فعل/ عمَل (Verb): كلمة تشير في معظم الأحيان إلى ما يصنعه الفرد فعليّاً من خلال معرفةٍ تقنيّة أو عمليّة.

اللغة في الاستعمال (Heteroglossia): يشير هذا المصطلح إلى تعدّد احتمالات وظواهر اللغة والكلام، وتطوّرها في التفاعل الحواري.

لغة محليّة/ لهجة (Dialect): الكلام المحكي أو ما نسمّيه باللغة العاميّة.

منهج/ أسلوب (Method): عندما تشير كلمة Method إلى طريقة معيّنة وغير مقيّدة بقوانين محدّدة مسبقاً للقيام بعمل ما استعملتُ "أسلوب". بينما استعملتُ كلمة "منهج" عند إشارة Method إلى طريقة معروفة، مدروسة، مكتوبة ومنظّمة مسبقاً يتّبعها عالِمٌ أو آخر.

ثبت المصطلحات

ازدواج المخرج	Coarticulation
أزواج متجاوِرة	Adjacency Pair
إشارات سياقية	Contextualisation Cues
اغتراب	Alienation
أفعال حركية	Performative Verbs
أفعال ساكنة	Constative Verbs
اقتضاء	Implicature
إقليميّة	Regionalisation
ألسنيّة متوازية	Areal Linguistics
ألسنيّة ميدانيّة	Field Linguistics
ألومُرف	Allomorph
انتباهي	Phatic
أنواع طبيعية	Natural Kinds

Pidgin	بدجينيّة
Paleontography	بَليونتوغرافيا
Verb Complex	تركيبة الفعل
Code Shifting	تناوب لغوي
Complementary Distribution	توزيع متكامل
Declarative Sentence	جملة تصريحية
Commissive Sentence	جملة واعدة
Speech Event	حدث لغوي/ كلامي
Complementizers	حروف الربط
Unobtrusiveness	حصيفة
Dialogic	حواري
Etic	خارجي
Propositional	خبريّ
Paralinguistic Features	خصائص شبه لغويّة
Emic	داخلي/ استبطاني
Indexes	دلالات
Indexicality	دلالة
Turn Sequence	سلسلة دوريّة
Echo Question	سؤال مردّد
Paralinguistic	شبه لغويّة

Felicity Conditions	شروط اللباقة
Linguistic Code	شفرة لغويّة
Clitic Pronouns	ضمائر نحويّة
Nature/ Nurture	طبيعة/ تنشئة
Topology	طوبولوجيا
Phenomenology	ظاهريات
Syntagmatic Relations	علاقة عبارات
Paradigmatic Relation	علاقة نموذجيّة
Semiotic	علاماتي/ سيميائي
Dialectology	علم اللهجات/ لهجيّات
Scientism	عِلمانية
Turn - Constructional Component	عنصر بناء الدور
Turn - Allocation Component	عنصر تحصيص الدور
Perlocutionary Act	فعل أثر التلفّظ
Locutionary Act	فعل التلفظ
Illocutionary Act	فعل قوّة التلفّظ
Speech Act	فعل الكلام
Section	فقرة
Distributed Cognition	فكر موزَّع
Solipsism	فلسفة الذات/ أنانة

Positivism	فلسفة وضعيّة
Cryptotypes	فئات مستترة
Phenotype	فئة ظاهرة
Generative Grammar	قواعد توليدية
Truth Value	قيمة الحقيقة
Creole	كرييولية
Heteroglossia	لغة في الاستعمال
Metapragmatics	ما وراء براغماتيّة
Repair Initiator	مبادر التصحيح
Fuzzy Set	مجموعات غير محدّدة
Addresse	مخاطَب
Referent	مدلول/ مرجع
Embedded	مُدمجة
Universals	مسلّمات
Propositional Knowledge	معرفة القضايا
Diffuse	منتشر
Indices	مؤشّرات
Construction Grammar	نحو بناء
Grammaticalization	نحوية
Participant Framework	نطاق المشاركين

Practice Theory (Bourdieu)	نظريّة الحسّ العملي
Transition - Relevant Point	نقطة إمكان الانتقال
Paradigm	نموذج
Habitus	هابتوس
Glottal Stop	همزة
Positivism	وضعية

المراجع

Abu-Lughod, Lila. 1986. *Veiled Sentiments*. Berkeley: University of California Press.

1991. Writing Against Culture. In R. G. Fox (ed.), *Recapturing Anthropology* (pp. 137-62). Santa Fe, NM: School of American Research Press.

Agar, Michael H. 1980. *The Professional Stranger: An Informal Introduction to Ethnography*. New York: Academic Press.

Agha, Asif. 1994. Honori fication. *Annual Review of Anthropology*, 23: 277-302.

Albó, Xavier. 1979. The Future of the Oppressed Languages in the Andes. In W. C. McCormack and S. A. Wurm (eds.), *Language and Society* (pp. 309-30). The Hague: Mouton.

Allwood, Jens, Lars-Gunnar Andersson and Östen Dahl. 1977. *Logic in Linguistics*. Cambridge University Press.

Andersen, Elaine S. 1990. *Speaking with Style: The Sociolinguistic Stem of Children*. London and New York: Routledge.

Anderson, Benedict. 1983. *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*. New York: Schocken.

1991. *Imagined Communities: Reflections the Origin and Spread of Nationalism*. Revised Edition. London and New York: Verso.

Anderson, Stephen R. 1985a. In Reflectional Morphology. In T. Shopen (ed.), *Language Typology and Syntactic Description*, vol. 3: *Grammatical Categories and the Lexicon* (pp. 150-201). Cambridge University Press.

1985b. *Phonology in the Twentieth Century: Theories of Rules and Theories of Representation.* University of Chicago Press.

Anderson, Stephen R. and Edward L. Keenan. 1985. Deixis. In T. Shopen (ed.), *Language Typology and Syntactic Description*, vol. 3: *Grammatical Categories and the Lexicon* (pp. 259-308). Cambridge University Press.

Andrews, Avery. 1985. The Major Functions of the Noun Phrase. In T. Shopen (ed.), *Language Typology and Syntactic Description*, vol. 1: *Clause Structure* (pp., 62-154). Cambridge University Press.

Apel, Karl-Otto. 1991. Is Intentionality More Basic than Linguistic Meaning? In E. Lepore and R. Van Gulick (eds.), *John Searle and His Critics* (pp. 31-55). Oxford: Blackwell.

Appadurai, Arjun. 1990. Topographies of the Self: Praise and Emotion in Hindu India. In C. A. Lutz and L. Abu-Lughod (eds.), *Language and the Politics of Emotion* (pp. 92-112). Cambridge University Press.

1991. Global Ethnoscapes: Notes and Queries for a Transnational Anthropology. In R. G. Fox (ed.), *Recapturing Anthropology* (pp. 191-210). Santa Fe, NM: School of American Research Press.

Argyle, Michael. 1969. *Social Interaction*. London: Methuen.

Argyle. Michael and Mark Cook. 1976. *Gaze and Mutual Gaze*. Cambridge University Press.

Armstrong, David F., William C. Stokoe and Sherman E. Wilcox. 1994. Signs of the Origins of Syntax. *Current Anthropology*, 35(4), 349-68.

Aronoff, Mark. 1985. Orthography and Linguistic Theory. *Language*, 61: 28-72.

Atkinson, J. Maxwell and Paul Drew. 1979. *Order in Court: The Organisation of Verbal Interaction in Judicial Settings.* London: Macmillan.

Atkinson, J. Maxwell and John Heritage. 1984. *Structures of Social Action*. Cambridge University Press.

Atran, Scott. 1987. *Origin of the Species and Genus Concepts: An*

Anthropological Perspective. Journal of the History of Biology, 20: 195-279.

1990. *Cognitive Foundations of Natural History: Towards an Anthropology of Science*. Cambridge University Press.

Atran, Scott and Dan Sperber. 1991. Learning Without Teaching: Its Place in Culture. In L. Landsman (ed.), *Culture, Schooling and Psychological Development*. Norwood, NJ: Ablex.

Au, Kathryn H. 1980. Participation Structures in a Reading Lesson with Hawaiian Children: Analysis of a Culturally Appropriate Instruction Event. *Anthropology and Education Quarterly*, 11(2): 91-115.

Au, Kathryn H. and J. Mason. 1981. Social Organizational Factors in Learning to Read: The Balance of Rights Hypothesis. *Reading Research Quarterly*, 17: 115-52.

Austin, J. L. 1961. *Philosophical Papers*. London: Oxford University Press.

1962. *How to Do Things with Words*. Oxford University Press.

1970. *Philosophical Papers*. 2nd edn. Oxford University Press.

Bach, Kent and Robert M. Harnish. 1979. *Linguistic Communication and Speech Acts*. Cambridge, MA: MIT Press.

Baker, Mark. 1996. *The Polysynthesis Parameter*. Oxford University Press.

Baker, Gordon P. and Peter M. S. Hacker. 1985. *Wittgenstein: Meaning and Understanding*. University of Chicago Press.

Bakhtin, Mikhail M. 1968. *Rabelais and His World*, trans. Hélène Iswolsky. Cambridge, MA: MIT Press.

1973. *Problems of Dostoevsky's Poetics*. Ann Arbor: Ardis.

1981a. *The Dialogic Imagination: Four Essays*, ed. M. Holquist, trans. C. Emerson and M. Holquist. Austin: University of Texas Press.

1981 b. Discourse in the Novel. In M. Holquist (ed.), *The Dialogic Imagination: Four Essays* (pp. 259-422). Austin: University of Texas Press.

Bally, Ch. 1952. *Le Langage et la vie*, 3rd edn. Geneva: Droz.

Barthes, Roland. 1968. *Elements of Semiology*. trans. Annette,

Lavers and Smith. New York: Hill & Wang.

Basso, Ellen B. 1985. *A Musical View of the Universe*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Basso, Keith. 1972. "To Give up on Words": Silence in Western Apache Culture. In P. P. Giglioli (ed.). *Language and Social Context* (pp. 67-86). Harmondsworth, Penguin Books.

1984. "Stalking with Stories": Names. Places. and Moral Narratives among the Western Apache. In E. Bruner (ed.), *Text, Play and Srory: The Construcrion and Reconstruction of Self and Society* (pp. 99-137). Washington, DC: American Anthropological Association.

Bateson, Gregory. 1958. *Naven*. 2nd edn. Stanford University Press.

1972. *Steps To An Ecology of Mind*. New York: Ballantine Books.

Bateson, Gregory and Margaret Mead. 1942. *Balinese Character: A Photographic Analysis* (Vol. II Special Publication). New York: New York Academy of Sciences.

Baudillard, Jean. 1975. *The Mirror of Production*. St. Louis: Telos.

Bauman, Richard. 1975. Verbal Art as Performance. *American Anthropologist*. 77: 290-311.

1977. *Verbal Art as Performance*. Rowley. MA: Newbury House.

1983. *Let Your Words Be Few: Symbolism of Speaking and Silence Among Seventeenth Century Quakers*. Cambridge University Press.

1986. *Story, Performance, and Event*. Cambridge University Press.

1992a. Contextualization, Tradition and the Dialogue of Genres: Icelandic Legends of the Kraftaskáld. In A. Duranti and C. Goodwin (eds.), *Rerthinking Context: Language as an Interactive Phenomenon* (pp. 125-45). Cambridge University Press.

(ed.). 1992b. *Folklore, Cultural Performances, and Popular Entertainments*. New York: Oxford University Press.

Bauman, Richard and Charles L. Briggs. 1990. Poetics and Performance as Critical Perspectives on Language and Social Life. *Annual Review of Anthropology*, 19: 59-88.

1992. Genre, Intertextuality, and Social Power. *Journal of Linguistic Anthropology*. 2 (2): 131-172.

Bean, Susan S. 1978. *Symbolic and Pragmatic Semantics*. University of Chicago Press.

Beatty, John. 1994. Sound Symbolism and Japanese Monsters. *Journal of Linguistic Anthropology*, 4: 72-73.

Benveniste, Emile. 1956. La nature des pronoms. In M. Halle et al. (eds.). *For Roman*

Jakobson (pp. :34-37). The Hague: Mouton. Reprinted in Benveniste 1971.

1966. *Problèmes de linguistique générale*. Paris: Gallimard.

1971. *Problems of General Linguistics*. University of Miami Press.

Berlin, Brent. 1975. Speculations on the Growth of Ethnobotanical Nomenclature. In B. G. Blount and M. Sanchez (eds.), *Sociocultural Dimensions of Language Change* (pp. 63-101). New York: Academic Press.

1992. *Ethnobiological Classification Principles of Categorization of Plants and Animals in Traditional Societies*. Princeton University Press.

Berlin, Brent and Paul Kay. 1969. *Basic Color Terms: Their Universality and Evolution*. Berkeley: University of California Press.

Berliner, Paul F. 1994. *Thinking in Jazz: The Infinite Art of Improvisation*. Chicago University Press.

Besnier, Niko. 1989. Information Withholding as a Manipulative and Collusive Strategy in Nukulaelae Gossip. *Language in Society*, 18: 315-41.

1994. The Truth and Other Irrelevant Aspects of Nukulaelae Gossip. *Pacific Studies*, 17 (3): 1-39.

Bhabha, Homi, K. 1994. *The Location of Culture*. London: Routledge.

Biber, Douglas and Edward Finegan (eds.). 1994. *Sociolinguistic Perspectives on Register*. New York: Oxford University Press.

Bilmes, Jack. 1988a. The Concept of Preference in Conversation Analysis. *Language in Society*, 17 (2): 161-81.

1988b. Category and Rule in Conversation Analysis. *International Pragmatics Association Papers in Pragmatics*, 2: 25-59.

Birdwhistell, Ray L. 1970. *Kinesics and Context: Essays on Body Motion Communication*. Philadelphia: University of Philadelphia Press.

Bloch, Maurice. 1975. Introduction. In M. Bloch (ed.), *Political Language and Oratory in Traditional Society* (pp. 1-28). London: Academic Press.

1976. Review of R. Bauman and J. Sherzer (eds.), Explorations in the Ethnography of speaking. *Language in Society*, 5: 229-34.

1993. Domain-Specificity Living Kinds and Symbolism. In P. Boyer (ed.), *Sign to Symbol, Symbol as Sign." Cognitive Aspects of a Social Process* (pp. 111-20). Cambridge University Press.

Bloomfield, Leonard. 1935. *Language*. London: Allen & Unwin.

Bloor, David. 1983. *Wittgenstein: A Social Theory of Knowledge*. New York: Columbia University Press.

Boas, Franz. 1911. Introduction. In F. Boas (ed.), *Handbook of American Indian Languages* (vol. BAE-B 40, part I,). Washington, DC: Smithsonian Institution.

1966. *Kwakiutl Ethnography*. ed. Helen Codere. University of Chicago Press.

n.d. *Introduction to the Handbook of American Indian Languages*. Washington, DC: Georgetown University Press.

Bogen, James. 1987. Finding an Audience. *Papers in Pragmatics*, 1(2): 35-65.

Bolinger, Dwight. 1950. Rime, Assonance, and Morpheme Analysis. *Word*, 6: 117-36.

Bourdieu, Pierre. 1977. *Outline of a Theory of Practice*, trans. Richard Nice. Cambridge University Press.

1982. *Ce que parler veut dire*. Paris: Fayard.

1985. *Distinction: A Social Critique of the Judgement of Taste*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

1988. *The Political Ontology of Martin Heidegger*. Stanford University Press.

1990. *The Logic of Practice*, trans. Richard Nice. Stanford University Press.

Bourdieu, Pierre, Jean-Claude Passeron and Monique de Saint Martin. 1994. *Academic Discourse*. Stanford University Press.

Bourdieu, Pierre and Loïc J. D. Wacquant. 1992. *An Invitation to Reflexive Sociology*. University of Chicago Press.

Boyer, Pascal. 1990. *Tradition as Truth and Communication: A Cognitive Description of Traditional Discourse*. Cambridge University Press.

1993a. Pseudo-Natural Kinds. In P. Boyer (ed.), *Sign to Symbol, Symbol as Sign: Cognitive Aspects of a Social Process* (pp. 121-41). Cambridge University Press.

(ed.). 1993b. *Sign to Symbol, Symbol as Sign: Cognitive Aspects of a Social Process*. Cambridge University Press.

Bremmer, Jan and Brenneis Herman Roodenburg (eds.). 1992. *A Cultural History of Gesture*. Ithaca, NY: Cornell University Press.

Brenneis, Donald. 1988. Language and Disputing. *Annual Review of Anthropology*, 17: 221-37.

Brenneis, Donald Lawrence and Fred R. Myers. 1984. *Dangerous Words: Language and Politics in the Pacific*. New York University Press.

Briggs, Charles L. 1986. *Learning How to Ask: A Sociolinguistic Appraisal of the Role of the Interview in Social Science Research*. Cambridge University Press.

1988. *Competence in Performance: The Creativity of Tradition in Mexicano Verbal Art*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Brown, Gillian and George Yule. 1983. *Discourse Analysis*. Cambridge University Press.

Brown, Penelope. 1979. *Language, Interaction, and Sex Roles in a Mayan Community: A Study of Politeness and the Position of Women*. Unpublished Ph.D. dissertation, University of California at Berkeley.

1980. How and Why Are Women More Polite: Some Evidence from a Mayan Community. In S. McConnell-Ginet, R.

Borker and N. Furman (eds.), *Women and Language in Literature and Society* (pp. 111-49). New York: Praeger.

1993. Gender, Politeness and Confrontation in Tenejapa. In D. Tannen (ed.), *Gender and Conversational Interaction* (pp. 144-62). New York: Oxford University Press.

Brown, Penelope and Colin Fraser. 1979. Speech as a Marker of Situation. In K. Scherer and H. Giles (eds.), *Social Markers in Speech* (pp. 33-62). Cambridge University Press.

Brown, Penelope and Stephen Levinson. 1979. Social Structure, Groups, and Interaction. In K. Scherer and H. Giles (eds.), *Social Markers in Speech* (pp. 291-341). Cambridge University Press.

1978. Universals of Language Usage: Politeness Phenomena. In E. N. Goody (ed.), *Questions and Politeness Strategies in Social Interaction* (pp. 56-311). Cambridge University Press.

1987. *Politeness: Some Universals in Language Usage*. Cambridge: Cambridge University Press.

Brown, Roger and Albert Gilman. 1960. The Pronouns of Power and Solidarity. In T. A. Sebeok (ed.), *Style in Language* (pp. 253-76). Cambridge, MA: MIT Press.

Bühler, Karl. 1934. *Sprachtheorie. Die Darstellungsfunktion der Sprache*. Jena: Gustav Fischer.

1990. *Theory of Language: The Representational Function of Language*, trans. Donald Fraser Goodwin. Amsterdam/ Philadelphia: John Benjamins.

Burke, Kenneth. 1945. *A Grammar of Motives*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.

Burks, Arthur W. 1948-49. Icon, Index and Symbol. *Philosophy and Phenomenological Research*, 9: 673-89.

Bynon, Theodora. 1977. *Historical Linguistics*. Cambridge University Press.

Calame-Griaule, Genevieve. 1965. *Ethnologie et langage: La parole chez les Dogon*. Paris: Gallimard.

Cardona, Giorgio Raimondo. 1973. La linguistica antropologica. *Parole e Metodi* (6): 255-80.

1976. *Introduzione all 'etnolinguistica.* Bologna: Il Mulino.

1985. *La foresta di piume. Manuale di etnoscienza.* Rome–Bari: Laterza.

1990. *I linguaggi del sapere.* Rome-Bari: Laterza.

Carnap, Rudolf. 1942. *Introduction to Semantics.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Carroll, John B. 1956. Introduction. In J. B. Carroll (ed.), *Language, Thought, and Reality: Selected Writings of Benjamin Lee Whorf* (pp. 1-34). Cambridge, MA: MIT Press.

Cassirer, Ernst. 1955. *The Philosophy of Symbolic Forms*, vol. 1: *Language.* New Haven: Yale University Press.

1979. Language and Art II. In D. P. Verene (ed.), *Symbol, Myth, and Culture* (pp. 166-95). New Haven: Yale University Press.

Caton, Steven C. 1990. *"Peaks of Yemen I summon": Poetry as Cultural Practice in a North Yemeni Tribe.* Berkeley: University of California Press.

Chafe, Wallace. 1970. *Meaning and the Structure of Language.* University of Chicago Press.

1976. Givenness, Contrastiveness, Definiteness Subjects, Topics, and Points of View. In C. N. Li (ed.), *Subject and Topic* (pp. 25-56). New York: Academic Press.

(ed.). 1980. *The Pear Stories: Cognitive, Cultural, and Linguistic Aspects of Narrative Production*, vol. 3. Norwood, NJ: Ablex.

1987. Cognitive Constraints on Information Flow. In R. S. Tomlin (ed.), *Coherence and Grounding in Discourse.* Amsterdam: Benjamins.

Chierchia, Gennaro and Sally McConnell-Ginet. 1990. *Meaning and Grammar: An Introduction to Semantics.* Cambridge, MA: MIT Press.

Chomsky, Noam. 1957. *Syntactic Structures.* The Hague: Mouton.

1959. Review of Verbal Behavior by B. F. Skinner. *Language*, 35: 26-58.

1965. *Aspects of the Theory of Syntax.* Cambridge, MA: MIT Press.

1966. *Cartesian Linguistics.* New York: Harper & Row.

1968. *Language and Mind.* New York: Harcourt Brace Jovanovich.

1986. *Knowledge of Language: Its Nature, Origin and Use.* New York: Praeger.

Chomsky, Noam, Morris Halle and Fred Lukoff. 1956. On Accent and Juncture in English. In M. Halle, H. Lunt and H. MacLean (eds.), *For Roman Jakobson.* The Hague: Mouton.

Cicourel, Aaron. 1972. Basic and Non-basic Rules in the Negotiation of Status and Role. In H. P. Dreitzel (ed.) *Recent Sociology*, no. 2: *Patterns of Communicative Behavior* (pp. 4-45). New York: Macmillan.

1973. *Cognitive Sociology.* Harmondsworth: Penguin.

1992. The Interpenetration of Communicative Contexts: Examples from Medical Encounters. In A. Duranti and C. Goodwin (eds.), *Rethinking Context: Language as an Interactive Phenomenon* (pp. 291-310). Cambridge University Press.

Clark, Katerira and Michael Holquist. 1984. *Mikhail Bakhtin.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Clifford, James. 1986. Introduction: Partial Truths. In J. Clifford and C. F. Marcus (eds.), *Writing Culture: Poetics and Politics of Ethnography* (pp. 1-26). Berkeley: University of California Press.

Clifford, James and George E. Marcus. 1986. *Writing Culture: The Poetics and Politics of Ethnography.* Berkeley: University of California Press.

Cole, Michael and Peg Griffin 1986. A Sociohistorical Approach to Remediation. In S. De Castell, A. Luke and K. Egan (eds.), *Literacy, Society, and Schooling* (pp. 110-31). Cambridge University Press.

Cole, Peter and Jerry L. Morgan (eds.). 1975. *Syntax and Semantics*, vol. 3: *Speech Acts.* New York: Academic Press.

Comaroff, John. 1975. Talking Politics: Oratory and Authority in a Tswana Chiefdom. In M. Bloch (ed.), *Political Language and Oratory in Traditional Society* (pp. 141-83). London: Academic Press.

Comrie, Bernard. 1978. Ergativity. In W. P. Lehmann (ed.), *Syntactic Typology.* Austin: University of Texas Press.

Conklin, Harold C. 1962. Lexicographical Treatment of Folk Taxonomies. In F. W. Household and S. Saporta (eds.), *Problems in Lexicography*. Bloomington: Indiana University Research Center in Anthropology, Folklore and Linguistics.

1969. Lexicographical Treatment of Folk Taxonomies. In S. A. Tyler (ed.), *Cognitive Anthropology* (pp. 41-59). New York: Holt, Rinehart, & Winston.

Connor, Linda, Patsy Asch and Timothy Asch. 1986. *Jero Tapakan: Balinese Healer. An Ethnographic Film Monograph.* Cambridge University Press.

Cook, Haruko Minegishi. 1987. Social Meanings of the Japanese Sentence-Final Particle No. *Papers in Pragmatics*, 1(2): 123-68.

Cook-Gumperz, Jenny. 1986. *The Social Construction of Literacy.* Cambridge University Press.

Corder, S. Pit. 1973. *Introducing Applied Linguistics.* Harmondsworth: Penguin.

Coulthard, Malcom. 1977. *An Introduction to Discourse Analysis.* London: Longman.

Couper-Kuhlen, Elizabeth and Margret Selting (eds.) 1996. Prosody in Conversation. *Interactional Studies.* Cambridge University Press.

Crago, Martha Borgmann. 1988. *Cultural Context in Communicative Interaction of Inuit Children.* Unpublished Ph.D. dissertation, McGill University, Montreal.

Craig, Colette Grinevald. 1979. Jacaltec: Field Work in Guatemala. In T. Shopen (ed.), *Languages and Their Speakers* (pp. 3-57). Cambridge, MA: Winthrop.

Croft, William. 1990. *Typology and Universals.* Cambridge University Press.

Cruttenden, Alan. 1986. *Intonation.* Cambridge University Press.

Crystal, David. 1987. *The Cambridge Encyclopedia of Language.* Cambridge University Press.

Crystal, David and Derek Davy. 1969. *Investigating English Style.* Bloomington: Indiana University Press.

D'Andrade, Roy and Claudia Strauss (eds.). 1992. *Human Motives and Cultural Models.* Cambridge University Press.

Daniloff, R. and R. Hammarberg. 1973. On Defining Coarticulation. *Journal of Phonetics*, 1: 239-48.

Darnell, Regna. 1990. *Edward Sapir: Linguist, Anthropologist, Humanist.* Berkeley: University of California Press.

Darwin, Charles. 1965. *The Expression of the Emotions in Man and Animals.* University of Chicago Press.

De Martino, Ernesto. 1961. *La Terra del Rimorso.* Milan: Il Saggiatore.

De Mauro, Tullio. 1976. *Storia linguistica dell 'Italia unita*, vol. 1. Bari: Laterza.

De Mulder, Walter. 1993. Intentionality and Meaning: A Reaction to Leilich's "Intentionality, Speech Acts and Communicative Action". *Pragmatics*, 3 (2):171-80.

DeLancey, Scott. 1981. An Interpretation of Split Ergativity and Related Patterns. *Language,* 57 (3): 626-57.

Demuth, Katherine A. 1983. *Aspects of Sesotho Language Acquisition.* Unpublished Ph.D., Indiana University.

Dennett, Daniel. 1987. *The Intentional Stance.* Cambridge, MA: MIT Press.

Dilthey, Wilhelm. 1988. *Introduction to the Human Sciences*, trans. Betanzos, Ramon. Detroit: Wayne State University Press.

Dixon, R. M. W. 1972. *The Dyirbal Language of North Queensland.* Cambridge University Press.

1979. Ergativity. *Language,* 55, 59-138.

1980. *The Languages of Australia.* Cambridge University Press.

1988. *A Grammar of Boumaa Fijian.* University of Chicago Press.

1994. *Ergativity.* Cambridge University Press.

Doke, Clement M. 1935. *Bantu Linguistic Terminology.* New York: Longmans, Green &Co.

Dolgin, Janet L., David S. Kemnitzer and David M. Schneider. 1977. *Symbolic Anthropology: A Reader in the Study of Symbols and Meanings.* New York: Columbia University Press.

Dorian, Nancy C. 1982. Defining the Speech Community to Include Its Working Margins. In S. Romaine (ed.), *Sociolinguistic Variation in Speech Communities* (pp. 25-33). London: Arnold.

1993. A Response to Ladefoged's Other View of Endangered Languages. *Language,* 69 (3): 575-9.

Dougherty, Janet W. D. 1985. *Directions in Cognitive Anthropology.* Urbana: University of Illinois Press.

Dowty, David. 1982. Grammatical Revlations and Montague Grammar. In P. Jacobson and G. K. Pullum (eds.), *The Nature of Syntactic Representation* (pp. 79-130). Dordrecht: D. Reidel.

Drew, Paul and John Heritage. (eds.). 1992. *Talk at Work.* Cambridge University Press.

Dreyfus, Hubert L. 1991. *Being-in-the-World: A Commentary on Heidegger's "Being and Time,"Division I.* Cambridge, MA: MIT Press.

Du Bois, John. 1986. Self-Evidence and Ritual Speech. In W. Chafe and J. Nichols (eds.), *Evidentiality: The Linguistic Coding of Epistemology* (pp. 313-36). Norwood, NJ: Ablex.

1987. The Discourse Basis of Ergativity. *Language*, 63: 805-55.

1993. Meaning without intention: Lessons from divination. In J. Hill and J. Irvine (eds.), *Responsibility and Evidence in Oral Discourse* (pp. 48-71). Cambridge University Press.

Dummett, Michael. 1973. *Frege: Philosophy of Language.* London: Duckworth.

Duranti, Alessandro. 1981. *The Samoan Fono: A Sociolinguistic Study. Pacific.* Linguistics Monographs, Series: B, vol. 80. Canberra: Australian National University, Department of Linguistics.

1984a. Lauga and Talanoaga: Two Speech Genres in a Samoan Political Event. In D. L. Brenneis and F. R. Myers (eds.), *Dangerous Words: Language and Politics in the Pacific* (pp. 217-37). New York University Press.

1984b. The Social Meaning of Subject Pronouns in Italian Conversation. *Text*, 4 (4): 277-311.

1985. Sociocultural Dimensions of Discourse. In T. A.-Van Dijk (ed.), *Handbook of Discourse Analysis*, vol. 1: *Disciplines of Discourse* (pp. 193-230). New York: Academic Press.

1988a. The Ethnography of Speaking: Toward a Linguistics of the Praxis. In F. Newmeyer (ed.), *Linguistics: The Cambridge Survey*, vol. 4: *Language: The Socio-Cultural Context* (pp. 210-28). Cambridge University Press.

1988b. Intentions, Language and Social Action in a Samoan Context. *Journal of Pragmatics*, 12: 13-33.

1990. Code Switching and Conflict Management in Samoan Multiparty Interaction. *Pacific Studies*, 14 (1): 1-30.

1991. Four Properties of Speech-in-Interaction and the Notion of Translocutionary Act. In J. Verschueren (ed.), *Pragmatics at Issue: Selected Papers of the 1987 International Pragmatics Conference, Antwerp, August 17-22, 1987* (pp. 133-50). Amsterdam: Benjamins.

1992. Language and Bodies in Social Space: Samoan Ceremonial Greetings. *American Anthropologist*, 94: 657-91.

1993a. Intentionality and Truth: An Ethnographic Critique. *Cultural Anthropology*, 8: 214-45.

1993b. Intentions, Self, and Responsibility: An Essay in Samoan Ethnopragmatics. In I. H. Hill and J. T. Irvine (eds.), *Responsibility and Evidence in Oral Discourse* (pp. 24-47). Cambridge University Press.

1994a. *From Grammar to Politics: Linguistic Anthropology in a Western Samoan Village*. Berkeley and Los Angeles: University of California Press.

1994b. Uguali ma non troppo. Identità collettive parzialmente coincidenti. *Rassegna, di Psicologia,* 11: 41-60.

1996. Mediated Encounters with Pacific Cultures: Three Samoan Dinners. In P. Reill and D. Miller (eds.), *Visions of Empire: Voyages, Botany, and the Representation of Nature* (pp. 326-34). Cambridge University Press.

1997. Polyphonic Discourse: Overlapping in Samoan Ceremonial Greetings. *Text*.

Duranti, Alessandro and Donald Brenneis. 1986. The Audience as

Co-Author. Special issue of *Text* (6-3): 239-347.

Duranti, Alessandro and Ernest Byarushengo. 1977. On the Notion of "Direct Object." In E. Byarushengo, A. Duranti and L. Hyman (eds.), *Haya Grammatical Structure* (pp. 54-71). Los Angeles: University of Southern California, Department of Linguistics.

Duranti, Alessandro and Elinor Ochs. 1986. Literacy Instruction in a Samoan Village. In B. B. Schieffelin and P. Gilmore (eds.), *Acquisition of Literacy: Ethnographic Perspectives* (pp. 213-32). Norwood, NJ: Ablex.

1990. Genitive Constructions and Agency in Samoan Discourse. *Studies in Language*, 14 (1): 1-23.

Durie, Mark. 1987. Grammatical Relations in Acehnese. *Studies in Language*, 11(2): 365-99.

Durie, Mark. 1988. Preferred Argument Structure in an Active Language. *Lingua*, 74: 1-25.

Eckert, Penelope and Sally McConnell-Ginet. 1992. Communities of Practice: Where Language, Gender, and Power All Live. In K. Hall, M. Bucholtz and B. Moonwomon (eds.), *Locating Power. Proceedings of the Second Berkeley Women and Language Conference* (vol. 1, pp. 89-99). Berkeley: Berkeley Women and Language Group.

Eco, Umberto. 1976. *A Theory of Semiotics*. Bloomington: Indiana University Press.

Edwards, Jane A. and Martin D Lampert (eds.), 1993. *Talking Data: Transcription and Coding in Discourse Research*. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum.

Eibl-Eibesfeldt, Irenäus. 1968. Zur Ethologie des menschlichen Grussverhaltens: Beobachtungen an Balinese, Papus und Samoanern, nebst vergleichenden Bemerkungen. *Zeitschrift für Tierpsychologie*, 25: 727-44.

1970. *Ethology: The Biology of Behavior*. New York: Holt, Rinehart, & Winston.

1974. Similarities and Differences Between Cultures in Expressive Movements. In S. Weitz (ed.), *Nonverbal Communication* (pp. 20-33). New York: Oxford University Press.

Ekman, Paul (ed.). 1982. *Emotion in the Human Face*. 2nd edn. Cambridge University Press.

Ekman, Paul and Wallace V. Friesen. 1969. The Repertoire of Nonverbal Behavior: Categories, Origins, Usage, and Coding. *Semiotica*, 1: 49-98.

Ervin-Tripp, Susan. 1972. On Sociolinguistic Rules: Alternation and Co-occurrence. In J. J. Gumperz and D. Hymes (eds.), *Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of Communication* (pp. 213-50). New York: Holt.

1973. The Structure of Communicative Choice. In A. S. Dil (-ed.), *Language Acquisition and Communicative Choice: Essays by Susan Ervin-Tripp* (pp. 302-73). Stanford University Press.

Ervin-Tripp, Susan M. and Claudia Mitchell-Kernan. 1977. *Child Discourse*. New York: Academic Press.

Eschbach, Achim. 1990. Karl Bühler: Sematologist. In K. Bühler (ed.), *Theory of Language* (pp. xiii-xliii). Amsterdam/ Philadelphia: John Benjamins.

Fabian, Johannes. 1983. *Time and the ether: How Anthropology Makes Its Object*. New York: Columbia University Press.

Farnell, Brenda. 1995. *Do You See What I Mean?: Plains Indian Sign Talk and the Embodiment of Action*. Austin: Unriversity of Texas Press.

Feld, Steven. 1982. *Sound and Sentiment: Birds, Weeping, Poetics, and Song in Kaluli Expression*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Ferguson, Charles 1982. Simplified Registers and Linguistic Theory. In L. Obler and L. Menn (eds.), *Exceptional Language and Linguistics*. New York: Academic Press.

Fillmore, Charles J. 1966. Deictic Categories in the Semantics of Come. *Foundations of Language*, 2: 219-27.

1968. The Case for Case. In E. Bach and E. T. Harms (eds.), *Universals of Linguistic Theory* (pp. 1-88). New York: Holt.

1977a. The Case for Case Reopened. In P. Cole and J. M. Sadock (ed.), *Syntax and Semantics*, Vol. 8: *Grammatical Relations* (pp. 59-81). New York: Academic

1977b. Topics in Lexical Semantics. In R. Cole (ed.), *Current Issues*

in Linguistic Theory (pp. 76-138). Bloomington: University of Indiana Press.

1996. The Pragmatics of Constructions. In D. I. Slobin, J. Gerhardt, A. Kyratzis and J. Guo (eds.), *Social Interaction, Social Context, and Language: Essays in Honor of Susan Ervin-Tripp* (pp. 53-69). Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum.

Fillmore, Charles J., Paul Kay and Mary Catherine O'Connor. 1988. Regularity and Idiomaticity in Grammatical Constructions: The Case of Let Alone. *Language*, 64: 501-38.

Finegan, Edward. 1980. *Attitudes Toward English Usage: The History of A War of Words*. New York: Teachers College Press.

Finegan, Edward and Niko Besnier. 1990. *Language: Its Structure and Use*. New York: Harcourt.

Firth, Raymond. 1965. *Primitive Polynesian Economy*. New York: Norton.

1972. Verbal and Bodily Rituals of Greeting and Parting. In J. S. La Fontaine (ed.), *The Interpretation of Ritual: Essays in Honour of A. I. Richards* (pp. 1-38). London: Tavistock.

Ford, Cecilia. 1993. *Grammar in Interaction: Adverbial Clauses in American English Conversations*. Cambridge University Press.

Foucault, Michel. 1.973. *The Order of Things: An Archaeology of Human Sciences*. New York: Vintage Books.

1979. *Discipline and Punish: The Birth of the Prison*. New York: Random House.

1980a. *Power/Knowledge: Selected Interviews & Other Writings 1972-1977*, ed. And trans. Colin Gordon. New York: Pantheon.

1980b. Questions on Geography. In C. Gordon (ed.), *Power/ Knowledge. Selected Interviews & Other Writings* 1972-1977 (pp. 63-77). New York: Pantheon.

1988. *Technologies of the Self: A Seminar with Michel Foucault*. ed. H. Martin, H. Gutman, and P. H. Hutton. Amherst: University of Massachusetts Press.

Fowler, C. 1985. Current Perspectives on Language and Speech Production: A Critical Overview. In R. Daniloff. (ed.),

Speech Science (pp. 193-278). San Diego: College Hill Press.

Fowley, William and Robert Van Valin. 1984. *Functional Syntax and Universal*

Grammar. Cambridge University Press.

Fox, Richard (ed.). 1991. *Recapturing Anthropology: Working in the Present.* Santa Fe, Mexico: School of American Research Press.

Frake, Charles O. 1964. "A Structural Description of Subanum R-eligious Behavior." In W. Goodenough (ed.), *Explorations in Cultural Anthropology* (pp. 111-29). New York: McGraw-Hill.

1969. The Ethnographic Study of Cognitive Systems. In S. A. Tyler (ed.), *Cognitive Anthropology* (pp. 28-41). New York: Holt, Rinehart, & Winston.

1975. How to Enter a Yakan House. In M. Sanchez and B. G. Blount (eds.), *Sociocultural Dimensions of Language Use* (pp. 25-40). New York: Academic Press.

Frege, Gottlob. [1892] 1952. On Sense and Reference. In P. Geach and M.Black (eds.), *Translations from the Philosophical Writings of Gottlob Frege* (pp. 56-78). Oxford: Blackwell.

Friedrich, Paul. 1986. *The Language Parallax: Linguistic Relativism and Poetic indeterminacy.* Austin: University of Texas Press.

Gadamer, Hans-Georg. 1976. *Philosophical Hermeneutics*, trans. David E. Linge. Berkeley: University of California Press.

1986. *Truth and Method*, trans. Joel Weinsheimer and Donald G. Marshall. 2nd edn. New York: Continuum.

Gal, Susan. 1989. Between Speech and Silence: The Problematics of Research on Language and Gender. *Papers in Pragmatics*, 3(1): 1-38.

1991. Between Speech and Silence: The Problematics of Research on Language and Gender. In M. di Leonardo (ed-.), *Gender at the Crossroads of Knowledge: Feminist Anthropology in the Postmodern Era* (pp. 175-203). Berkeley: University of California Press.

Garfinkel, Harold. 1967. *Studies in Ethnomethodology*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.

1972. Remarks on Ethnomethodology. In J. J. Gumperz and D. Hymes (eds.), *Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of Communication* (pp. 301-24). New York: Holt, Rinehart, & Winston.

Garrett, Andrew. 1990. The Origin of NP Split Ergativity. *Language,* 66(2): 261-96.

Garvey, Catherine. 1984. *Children's Talk*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Garvin, Paul L. and S. H. Riesenberg. 1952. Respect Behavior in Ponape. An Ethnolinguistic Study. *American Anthropologist,* 54: 201-20.

Geertz, Clifford. 1973. *The Interpretation of Cultures*. New York: Basic Books.

1983. *Local Knowledge: Further Essays in Interpretive Anthropology*. New York: Basic Books.

1988. *Works and Lives: The Anthropologist as Author*. Stanford University Press.

Giddens, Anthony. 1979. *Central Problems in Social Theory: Action, Structure and Contradiction in Social Analysis.* Berkeley University of California Press.

1984. *The Constitution of Society: Outline of the Theory of Structuration.* Berkeley: University of California Press.

Givón, Talmy. 1976. Topic, Pronoun, and Grammatical Agreement. In C. N. Li (ed.), *Subject and Topic* (pp. 149-88). New York: Academic Press.

(ed.). 1979. *Syntax and Semantics*, vol. 12: *Discourse and Syntax.* New York: Academic Press.

Gleason, H. A. Jr. 1972. Genetic Relationship Among Languages. In A. R. Keiler (ed.), *A Reader in Historical and Comparative Linguistics* (pp. 3-15). New York: Holt.

Gluckman, Max. 1965. *The Ideas in Barotse Jurisprudence*. New Haven: Yale University Press.

1972. *The Allocation of Responsibility.* Manchester University Press.

Godard, Daniele. 1977. Same Setting, Different Norms: Phone Call Beginnings in France and the United States. *Language in Society*, 6: 209-19.

Goffman, Erving. 1961. *Asylums: Essays on the Social Situation of Mental Patients and Other Inmates.* Garden City, NY: Anchor Books, Doubleday.

1963. *Behavior in Public Places: Notes on the Social Organization of Gathering.* New York: Free Press.

1964. The Neglected Situation. In John J. Gumperz and Dell Hymes, (eds.), The Ethnography of Communication. *American Anthropologist*, 66, (6), part 11: 133-36.

1972. *Relations in Public.* Harmondsworth: Penguin.

1974. *Frame Analysis: An Essay on the Organization of Experience.* New York: Harper and Row.

1976. Replies and Responses. *Language in Society*, 5: 257-313.

1979. Footing. *Semiotica*, 25: 1-29.

1981. *Forms of Talk.* Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Gold, Raymond. 1969. Roles in Sociological Field Observations. In G. J. McCall and J. L. Simmons (eds.), *Issues in Participant Observation.* Reading, MA: Addison-Wesley.

Goodenough, Ward H. 1956. Componential Analysis and the Study of Meaning. *Language*, 32: 195-216.

1964. Cultural Anthropology and Linguistics. In D. Hymes (ed.), *Language in Culture and Society: a Reader in Linguistics and Anthropology* (pp. 36-9). New York: Harper & Row.

Goodwin, Charles. 1979. The Interactive Construction of a Sentence in Natural Conversation. In G. Psathas (ed.), *Everyday Language: Studies in Ethnomethodology* (pp. 97-121). New York: Irvington Publishers.

1981. *Conversational Organization: Interaction Between Speakers and Hearers.* New York: Academic Press.

1984. Notes on Story Structure and the Organization of

Participation. In M. Atkinson and J. Heritage (eds.), *Structures of Social Action* (pp. 225-46). Cambridge University Press.

1987. Forgetfulness as an Interactive Resource. *Social Psychology Quarterly*, 50 (2): 115-30.

1993. Recording Human Interaction in Natural Settings. *Pragmatics*, 3 (2): 181-209.

1994. Professional Vision. *American Anthropologist*, 96(3): 606-33.

1996. Transparent Vision. In E. Ochs, E. A. Schegloff and S. A. Thompson (eds.), *Interaction and Grammar* (pp. 370-404). Cambridge University Press.

Goodwin, Charles and Alessandro Duranti. 1992. Rethinking Context: An Introduction. In A. Duranti and C. Goodwin (eds.), *Rethinking Context: Language as an Interactive Phenomenon* (pp. 1-42). Cambridge University Press.

Goodwin, Charles and Marjorie Harness Goodwin. 1992a. Assessments and the Construction of Context. In A. Duranti and C. Goodwin (eds.), *Rethinking Context: Language as an Interactive Phenomenon* (pp. 147-89). Cambridge University Press.

1992b. Context, Activity and Participation. In P. Auer and A. d. Luzio (eds.), *The Contextualization of Language* (vol. 22, pp. 77-99). Amsterdam: Benjamins.

1996. Seeing as a Situated Activity: Formulating Planes. In Y. Engestrom and D. Middleton (eds.), *Cognition and Communication at Work* (pp. 61-95). Cambridge University Press.

Goodwin, Charles and John Heritage. 1990. Conversation Analysis. *Annual Reviews of Anthropology*, 19: 283-307.

Goodwin, Marjorie Harness. 1990. *He-Said-She-Said: Talk as Social Organization among Black Children*. Bloomington: Indiana University Press.

1997. By-Play: Negotiating Evaluation in Story-telling. In G. R. Guy, J. Baugh, D. Schiffrin and C. Feagin (eds.), *Towards a Social Science of Language: Papers in Honor of William Labov* (pp. 77-102). Philadelphia: John Benjamins.

Goody, Esther. 1972. "Greeting," "begging," and the Presentation

of Respect. In J. S. La Fontaine (ed.), *The Interpretation of Ritual* (pp. 39-71). London: Tavistock.

Gordon, David and George Lakoff. 1975. Conversational Postulates. In P. Cole and J. Morgan (eds.), *Syntax and Semantics*, vol. 3: *Speech Acts* (pp. 83-106). New York: Academic Press.

Gossen, Gary H. 1974. *Chamulas in the World of the Sun: Time and Space in a Maya Oral Tradition.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Gouffé, C. 1966. Noms d'objets "ronds" en haussa. *Comptes rendus du Groupe Linguistique d'Etudes Chamito-Sémitiques*, 10: 104-13.

Graf, Fritz. 1992. Gestures and Conventions: The Gestures of Roman Actors and Orators. In J. Bremmer and H. Roodenburg (eds.), *A Cultural History of Gesture* (pp. 36-58). Ithaca, NY: Cornell University Press.

Graham, Laura. 1993. A Public Sphere in Amazonia? The Depersonalized Collaborative Construction of Discourse in Xavante. *American Ethnologist*, 20: 717-41.

1995. *Performing Dreams: Discourses of Immortality Among the Xavante of Central Brazil.* Austin: University of Texas Press.

Greenberg, Joseph H. (ed.). 1963. *Universals of Language*. 2nd edn. Cambridge, MA: MIT Press.

Greenberg, Joseph Charles A. Ferguson and Edith A. Moravcsik (eds.). 1978. *Universals of Human Language*, 4 vol. Stanford University Press.

Grice, H. P. 1971... Meaning. In J.F. Rosenberg and C. Travis (eds.), *Readings in the Philosophy of Language* (pp. 436-44). Englewood Cliffs: Prentice-Hall.

1975. Logic and Conversation. in P. Cole and N. L. Morgan (eds.), *Syntax and Semantics*, vol.3: *Speech Acts* (pp. 41-58). New York: Academic Press.

Grimshaw, Allen (ed.). 1990. *Conflict Talk*. Cambridge University Press.

Grimshaw, Jane. 1990. *Argument Structure*. Cambridge, MA: MIT Press.

Gruber, Jeffrey S. 1965. *Studies in Lexical Relations*. Unpublished

Ph.D. Dissertation. Reproduced by the Indiana University Linguistic Club, Bloomington, MIT.

Gumperz, John J. 1964. Linguistic and Social Interaction in Two Communities. *American Anthropologist*, 66 (6): 137-53.

1968a. Types of Linguistic Communities. In J. A. Fishman (ed.), *Readings in the Sociology of Language* (pp. 460-72). The Hague: Mouton.

1968b. The Speech Community. In *International Encyclopedia of the Social Sciences* (pp. 381-86). New York: Macmillan.

1972. Introduction. In J. J. Gumperz and D. Hymes (eds.), *Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of Communication* (pp. 1-25). New York: Holt, Rinehart, & Winston.

1982a. *Discourse Strategies*. Cambridge University Press.

1982b. *Language and Social Identity*. Cambridge University Press.

1992. Contextualization and Understanding. In A. Duranti and C. Goodwin (eds.), *Rethinking Context: Language as an Interactive Phenomenon* (pp. 229-52). Cambridge University Press.

1996. The Linguistic and Cultural Relativity of Conversational Inference. In J. J. Gumperz and S. C. Levinson (eds.), *Rethinking Linguistic Relativity* (pp. 374-407). Cambridge University Press.

Gumperz, John J. and Dell Hymes (eds.). 1964. The Ethnography of Communication. *American Anthropologist*, 66, (6), part II.

1972. *Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of Communication*. New York: Holt, Rinehart, & Winston.

Gumperz, John J. and Stephen Levinson. 1991. Rethinking Linguistic Relativity. *Current Anthropology*, 32: 613-23.

(eds.). 1996. *Rethinking Linguistic Relativity*. Cambridge University Press.

Haegeman, Liliane. 1994. *Introduction to Government and Binding Theory*. 2nd edn. Oxford: Blackwell.

Haiman, John. 1980. The Iconicity of Grammar. *Language*, 56: 515-40.

(ed.). 1985a. *Iconicity in Syntax*. Amsterdam: Benjamins.

1985b. *Natural Syntax: Iconicity and Erosion*. Cambridge University Press.

Hale, Kenneth. 1970. The Passive and Ergative in Language Change: The Australian Case. In S. Wurm and D. Laycock (eds.), *Pacific Linguistic Studies in Honour of Arthur Capell* (vol. 13, pp. 757-81.). Canberra: Pacific Linguistics, Series C.

Hale, Ken, Michael Krauss, Lucille J. Watahomigie, et al. 1992. Endangered Languages. *Language*, 68 (1): 1-62.

Hall, Edward T. 1959. *The Silent Language*. New York: Doubleday

1966. *The Hidden Dimension*. New York: Doubleday.

Hall, Kira and Mary Bucholtz (eds.). 1995. *Gender Articulated: Language and the Socially Constructed Self*. New York: Routledge.

Halliday, M. A. K. 1976. Anti-languages. *American Anthropologist*, 78 (3): 570-84.

Hanks, William F. 1990. *Referential Practice: Language and Lived Space Among the Maya*. University of Chicago Press.

1996. *Language and Communicative Practices*. Boulder, CO: Westview.

Haraway, Donna J. 1991. *Simians, Cyborgs, and Women: The Reinvention of Nature*. New York: Routledge.

Harding, Sandra. 1986. *The Science Question in Feminism*. Ithaca: Cornell University Press.

Harris, Marvin. 1976. History and Signifiance of the Emic/Etic Distinction. *Annual Review of Anthropology*, 5: 329-50.

Harvey, Penelope. 1991. Drunken Speech and the Construction of Meaning: Bilingual Competence in the Southern Peruvian Andes. *Language in Society*, 20: 1-36.

1992. Bilingualism in the Peruvian Andes. In D.Cameron and et al. (eds.), *Researching Language: Issues of Power and Method* (pp. 65-89). London: Routledge.

Hatch, Elvin. 1973. *Theories of Man and Culture*. New York: Columbia University Press.

Haugen, Einar. 1980. How Should a Dialect be Written? In J.

Göschel, P. Ivic, and K. Kehr (eds.), *Zeitschrift für Dialektologie und Linguistik* (vol. 26, pp. 273-82). Wiesbaden: Steiner.

Haviland, John B. 1979. Guugu Yimidhirr. In R. M. W. Dixon and B. J. Blake (eds.), *Handbook of Australian Languages* (pp. 27-180). Canberra: Australian National University Press.

1986. "Con Buenos Chiles": Talk, Targets and Teasing in Zinacantan. *Text*, 6 (3) (Special Issue on the Audience edited by A. Duranti and D. Brenneis): 249-82.

1989. "Sure, Sure": Evidence and Affect. *Text*, 9(1): 27-68.

1991. "That Was the Last Time I Seen Them, and No More": Voices Through Time in Australian Aboriginal Autobiography. *American Ethnologist*, 18(2): 331-61.

1996. Projections, Transpositions, and Relativity. In J. J. Gumperz and S. C. Levinson (eds.), *Rethinking Linguistic Relativity* (pp. 271.-323). Cambridge University Press.

Hawkins, John A. 1979. On Implicational and Distributional Universals of Word Order. *Language*, 55: 618-48.

Hays, Terence E. 1994. Sound Symbolism, Onomatopoeia, and New Guinea Frog Names. *Journal of Linguistic Anthropology*, 4 (2): 153-74.

Heath, Christian. 1982. The Display of Recipiency: an Instance of Sequential Relationship Between Speech and Body Movement. *Semiotica*, 42.

1984. Talk and Recipiency: Sequential Organization of Speech and Body Movement. In Atkinson and J. Heritage (eds.), *Structures of Social Action* (pp. 247-66). Cambridge University Press.

Heath, Shirley Brice. 1983. *Ways with Words: Language, Life and Work in Communities and Classrooms*. Cambridge University Press.

Hegel, George W. F. 1967. *The Phenomenology of Mind*, trans. George Lichtheim. New York: Harper & Row.

Heidegger, Martin. 1962. *Being and Time*, trans. John Macquarrie and Edward Robinson. New York: Harper & Row.

1971. The Way to Language, *On the Way to Language* (pp. 111-

36). New York: Harper & Row.

1977. Letter on Humanism. In D.F. Krell (ed.), *Martin Heidegger: Basic Writings* (pp. 193-242). New York: Harper & Row.

1985. History of the Concept of Time. *Prolegomena,* trans. Theodore Kisiel. Bloomington: Indiana University Press.

1988. *The Basic Problems of Phenomenology.* Rev. edn., trans. introduction and lexicon by Albert Hofstadter. Bloomington: Indiana University Press.

1992. *The Concept of Time*, trans. William McNeill. Oxford: Blackwell.

Heine, Bernd, Ulrike Claudi and Friederike Hünnemeyer. 1991. *Grammaticalization: A Conceptual Framework.* University of Chicago Press.

Heller, Monica S. 1982. Negotiation of Language Choice in Montreal. In J. J. Gumperz (ed.), *Language and Social Identity* (pp. 108-18). Cambridge University Press.

1995. Language Choice, Social Institutions, and Symbolic Domination. *Language in Society*, 24(3): 373-405.

Heritage, John. 1984. *Garfinkel and Ethnomethodology.* Cambridge: Polity Press.

1990/91. Intention, Meaning and Strategy: Observations on Constraints on Interaction Analysis. *Research on Language and Social Interaction*, 24: 311-32.

Heritage, John and David Greatbatch. 1991. On the Institutional Character of Institutional Talk: The Case of News Interviews. In D. Boden and D. H. Zimmerman (eds.), *Talk and Social Structure* (p-p. 93-137) Berkeley: University of California Press.

Hill, Archibald. 1964. A Note on Primitive Languages. In D. Hymes (ed.), *Language in Culture and Society: A Reader in Linguistics and Anthropology* (pp. 86-9). New York: Harper & Row.

Hill, Jane. 1988a. Language, Culture and Worldview. In F. J. Newmeyer (ed.), *Linguistics: The Cambridge Survey*, vol. 4: *Language: The Socio-Cultural Context.* Cambridge University Press.

1988b. Language, Genuine or Spurious? In P. Krosrkity (ed.), *The Ethnography of Communication: The Legacy of Sapir. Essays in Honor of Harry Hoijer 1984* (pp. 9-54). Los Angeles: UCLA Department of Anthropology.

Hill, Jane H. and Kenneth C. Hill. 1978. Honorific Usage in Modern Nahuatl of the Malinche Volcano Area. *Language*, 541: 123-55.

1986. *Speaking Mexicano: Dynamics of a Syncretic Language in Central Mexico*. Tucson: University of Arizona Press.

Hill, Jane H. and Judith T. Irvine (eds.). 1993. *Responsibility and Evidence in Oral Discourse*. Cambridge University Press.

Hill, Jane H. and Bruce Mannheim. 1992. Language and World View. *Annual Review of Anthropology*, 21: 381-406.

Hinde, Robert A. (ed.). 1972. *Non-Verbal Communication*. Cambridge University Press.

Hinton, Leanne, Johanna Nichols and John J. Ohala (eds.). 1994. *Sound Symbolism*. Cambridge University Press.

Hjelmslev, Louis. 1961. *Prolegomena to a Theory of Language*. Revised Translation, trans. Francis Whitfield Madison: University of Wisconsin Press.

Hoijer, Harry. 1953. The Relation of Language to Culture. In A. L. Kroeber (ed.), *Anthropology Today* (pp. 554-73). University of Chicago Press.

1961. Anthropological Linguistics. In C. Mohrmann, A. Sommerfelt and J. Whatmough (eds.), *Trends in European and American Linguistics 1930-1960* (pp. 110-25). Utrecht and Antwerp: Spectrum Publishers.

Hollan, Douglas. 1992. Cross-cultural Differences in the Self. *Journal of Anthropological Research*, 48(4): 283-300.

Holland, Dorothy and Naomi Quinn (eds.). 1987. *Cultural Models in Language and Thought*. Cambridge University Press.

Holm, John. 1988. *Pidgins and Creoles*, vol. 1: *Theory and Structure*. Cambridge University Press.

1989. *Pidgins and Creoles*. vol. 2. *Reference Survey*. Cambridge University Press.

Hopper, Paul and Sandra A. Thompson. 1980. Transivitity in Grammar and Discourse. *Language*, 56: 251-99.

Hopper, Paul J. and Elizabeth-Closs Traugott. 1993. *Grammaticalization*. Cambridge University Press.

Howe, James and Joel Sherzer. 1986. Friend Hairyfisch and Friend Rattlesnake, or Keeping Anthropologists in Their Place. *Man*, 21: 680-96.

Hoy, David C. 1986. Must We Say What We Mean? The Grammatological Critique of Hermeneutics. In B. R. Wachterhauser (ed.), *Hermeneutics and Modern Philosophy* (pp. 397-415). Albany: SUNY Press.

Hudson, R. A. 1980. *Sociolinguistics*. Cambridge University Press.

Husserl, Edmund. 1931. *Ideas: General Introduction to Pure Phenomenology*. New York: Collier.

1970. *Logical Investigations*, trans J. N. Findlay. New Jersey: Humanities Press.

Hutchins, Edwin. 1995. *Cognition in the Wild*. Cambridge, MA: MIT Press.

Hyman, Larry M. 1975. *Phonology: Theory and Analysis*. New York: Holt, Rinehart, & Winston.

Hymes, Dell. 1963. Objectives and Concepts of Linguistic Anthropology. In D. G. Mandelbaum, G. W. Lasker and E. M. Albert (eds.), *The Teaching of Anthropology* (pp. 275-302): American Anthropological Association. Memoir 94.

1964a. General Introduction. In D. Hymes (ed.), *Language in Culture and Society: A Reader in Linguistics and Anthropology* (pp. xxi-xxxii). New York: Harper & Row.

1964b. Introduction: Toward Ethnographies of Communication. In J. J. Gumperz and D. Hymes (eds.), The Ethnography of Communication (pp. 1-34). Washington, DC: *American Anthropologist* (Special Issue).

(ed.). 1964c. *Language in Culture and Society*. New York: Harper & Row.

(ed.). 1971. *Pidginization and Creolization of Languages*. Cambridge University Press.

1972a. Models of the Interaction of Language and Social Life. In J. J. J. Gumperz and D. Hymes (eds.), *Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of Communication* (pp. 35-71). New York: Holt, Rinehart, & Winston.

1972b. On Communicative Competence. In J. Pride and J. Holmes (eds.), *Sociolinguistics* (pp. 269-85). Harmondsworth: Penguin.

1974a. *Foundations in Sociolinguistics: An Ethnographic Approach.* Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

1974b. Ways of Speaking. In R. Bauman and J. Sherzer (eds.), *Explorations in the Ethnography of Speaking* (pp. 433-51). Cambridge University Press.

1981. *"In Vain I Tried to Tell You": Essays in Native American Ethnopoetics.* Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Irvine, Judith. 1974. Strategies of Status Manipulation in Wolof Greeting. In R. Bauman and J. Sherzer (eds.), *Explorations in the Ethnography of Speaking* (pp. 167-91). Cambridge University Press.

1979. Formality and Informality in Communicative Events. *American Anthropologist*, 81: 773-90.

1989. When Talk Isn't Cheap: Language and Political Economy. *American Ethnologist*, 16 (2): 248-67.

1995. The Family Romance of Colonial Linguistics: Gender and Family in Nineteenth-Century Representations of African Languages. *Pragmatics*, 5 (2): 139-53.

Irvine, Judith and Susan Gal. In press. Language Ideology and Linguistic Differentiation. In P. Kroskrity (ed.), *Language Ideologies.* Santa Fe, NM: School of American, Research Press.

Jackendoff, Ray. 1972. *Semantic Interpretation in Generative Grammar.* Cambridge, MA: MIT Press.

1987. The Status of Thematic Relations in Linguistic Theory. *Linguistic Inquiry*, 18: 369-411.

1990. *Semantic Structures.* Cambridge, MA: MIT Press.

Jackson, Bruce. 1987. *Fieldwork.* Urbana and Chicago: University of Illinois Press.

Jackson, Jean. 1974. Language Identity of the Colombian Vaupés Indians. In R. Bauman and J. Sherzer (eds.), *Explorations in the Ethnography of Speaking* (pp. 50-64). Cambridge University Press.

Jacquemet, Marco. 1994. T-offences and Metapragmatic Attacks: Strategies of Interactional Dominance. *Discourse and Society*, 5 (3): 297-319.

Jakobson, Roman. 1932. Zur Struktur des russischen Verbums, *Charisteria Gvilelmo Mathesio... oblata* (pp. 74-83). Prague: Cercle Linguistique.

1936. Beitrag zur allgemeinen Kasuslehre, Gesamtbedeutungen der russischen Kasus. *Travaux du Cercle Linguistique de Prague*, 6: 240-88.

1956. Two Aspects of Language and Two Types of Aphasic Disturbances. In R. Jakobson and M. Halle (eds.), *Fundamentals of Language* (p.p.53-82). The Hague: Mouton.

1960. Closing Statement: Linguistics and Poetics. In T. Selbeok (ed.), *Style in Language* (pp. 398-429). Cambridge, MA: MIT Press.

1968. Poetry of Grammar and Grammar of Poetry. *Lingua,* 21: 597-609.

1970. Shifters, Verbal Categories, and the Russian Verb, *Selected Writings*, vol. 2: *Word and Language* (pp. 130-47). The Hague: Mouton.

Jakobson, Roman, Gunnar Fante and Morris Halle. 1963. *Preliminaries to Speech Analysis.* Cambridge, MA: MIT Press.

Jakobson, Roman and Morris Halle. 1956. *Fundamentals of Language*. The Hague: Mouton.

James, Deborah and Sandra Clarke. 1993. Women, Men, and Interruptions: A Critical Review. In D. Tannen (ed.), *Gender and Conversational Interaction* (pp. 231-80). New York: Oxford University Press.

Jefferson, Gail. 1978. Sequential Aspects of Storytelling in Conversation. In J. Schenkein (ed.), *Studies in the Organiza-*

tion of Conversational Interaction (pp. 219-48). New York: Academic Press.

Jelinek, Eloise. 1993. Ergative "Splits" and Argument Type. In J. Bobaljik and C. Phillips (eds.), *MIT Working Papers in Linguistics*, vol. 18: *Papers on Case and Agreement*, (pp. 15-42). Cambridge, MA: MIT Department of Linguistics.

Jespersen, Otto. 1923. *Language: Its' Nature, Development, and Origin*. New York: George Allen & Unwin.

Johnson, Donna M. 1994. Who is We?: Constructing Communities in US-Mexico Border Discourse. *Discourse and Society*, 5(2): 207-31.

Johnson, Mark. 1987. *The Body in the Mind: The Bodily Basis of Meaning, Imagination, and Reason*. University of Chicago Press.

Jordan, Brigitte. 1993. *Birth in Four Cultures: A Crosscultural Investigation of Childbirth in Yucatan, Holland, Sweden, and the United States*. Prospect Heights, IL: Waveland Press.

Jourdan, C. 1991. Pidgins and Creoles: The Blurring of Categories. *Annual Review of Anthropology*, 20: 187-209.

Jupp, T. C., Celia Roberts and Jenny Cook-Gumperz. 1982. Language and the Disadvantage: The Hidden Process. In J. J. Gumperz (ed.), *Language and Social Identity* (pp. 232-56). Cambridge University Press.

Kant, Immanuel. 1798. *Anthropologie in pragmatischer: Hindsicht*. Königsberg: Friederich Nicolovius.

Katz, Jerrold J. 1964. Analycity and Contradiction in Natural Language. In J. A. Fodor and J. J. Katz (eds.), *The Structure of Languages* (pp. 519-43). Englewood Cliffs, NJ : Prentice-Hall.

Kay, Paul and Chad K. McDaniel. 1978. The Linguistic Significance of the Meanings of Basic Color Terms. *Language*, 54 (3): 610-46.

Keane, Webb. 1994. The Value of Words and the Meaning of Things in Eastern Indonesian Exchange. *Man* N.S., 29: 605-29.

Keating, Elizabeth. 1993. Correction/Repair as a Resource for Co-Construction of Group Competence. *Pragmatics*, 3 (4): 411-23.

1996. Constructing Hierarchy: Women and Honorific Speech in Poihnpei, Micronesia. *International Journal of the Sociology of Language*.

1997. Honorific Possession: Power and Language in Pohpei, Micronesia. *Language in Society*.

In press. *Power Sharing: Language, Rank, Gender and Social Space in Pohnpei, Micronesia*. Oxford University Press.

Keenan, Edward L. 1972. On Semantically Based Grammar. *Linguistic Inquiry*, 3 (4): 413-61.

1976. The Logical Diversity of Natural Languages. In S. R. Harnard, H. D. Steklis and J. Lancaster.(eds.) *Origins and Evolution of Language and Speech* (73-91). New York: The New York Academy of Sciences.

Keenan, Edward and Bernard Comrie. 1977. Noun Phrase Accessibility Hierarchy and Universal Grammar. *Linguistic Inquiry*, 8: 63-99.

Keenan, Elinor Ochs. 1974. *Conversation and Oratory in Vaninankaratra Madagascar*. Unpublished Ph.D dissertation, University of Pennsylvania.

1975. A Sliding Sense of Obligatoriness: The Polystructure of Malagasy Oratory. In M. Bloch (ed.), *Political Language and Oratory in Traditional Society* (pp. 93-112). London: Academic Press.

1976. The Universality of Conversational Postulates. *Language in Society*, 5: 67-80.

Keesing, Roger. 1972. Paradigms Lost: The New Anthropology and the New Linguistics. *Southwest Journal of Anthropology*, 28: 299-332.

1974. Theories of Culture. *Annual Review of Anthropology*, 3: 73-97.

Keiler, Allan R. (ed.) 1972. *A Reader in Historical and Practical Linguistics*. New York: Holt.

Kendon, Adam. 1967. Some Functions of Gaze-Direction in Social

Interaction. *Acta Psychologica*, 26: 22-63.

1973. The Role of Visible Behavior in the Organization of Social Interaction. In M. Von Cranach and I. Vine (eds.), *Social Communication and Movement: Studies of Interaction and Expression in Man and Chimpanzee* (pp. 29-74). New York: Academic Press.

1977. *Studies in the Behavior of Social Interaction*. Lisse: The Peter De Ridder Press.

1980. Gesture and Speech: Two Aspects of the Process of Utterance. In M. R. Key (ed.), *Nonverbal Communication and Language* (pp. 207-77). The Hague: Mouton.

1990. *Conducting Interaction: Patterns of Behavior in Focused Encounters*. Cambridge University Press.

1992. The Negotiation of Context in Face-to-Face Interaction. In A. Duranti and C. Goodwin (eds.), *Rethinking Context: Language as an Interactive Phenomenon* (pp. 323-34). Cambridge University Press.

1993. Human Gesture. In K. R. Gibson and T. Ingold (eds.), *Tools, Language and Cognition in Human Evolution* (pp. 43-62). Cambridge University Press.

Kendon, Adam and Andrew Ferber. 1973. A Description of Some Human Greetings. In R. P. Michael and J. H. Crook (eds.), *Comparative Ecology and Behaviour of Primates* (pp. 591-668). London and New York: Academic Press.

Kendon, Adam, Richard M. Harris and Mary - Ritchie Key. 1975. *Organization of Behavior in Face-to-Face Interaction*. The Hague: Mouton.

Kirch, Patrick Vinton. 1984. *The Evolution of Polynesian Chiefdoms*. Cambridge University Press.

Kochman, Thomas. 1972. Toward an Ethnography of Black American Speech Behavior. In T. Kochman (ed.), *Rappin' and Stylin' Out: Communication in Urban Black America* (pp. 241-64). Chicago: University of Illinois Press.

1981. *Black and White: Styles in Conflict*. University of Chicago Press.

Koerner, E. F. Konrad. 1992. The Sapir-Whorf Hypothesis: A Preliminary History and a Bibliographical Essay. *Journal of Linguistic Anthropology*, 2 (2): 173-98.

Kondo, Dorinne. 1986. Dissolution and Reconstitution of Self: Implications for Anthropological Epistemology. *Cultural Anthropology*, 1: 74-88.

1990. *Crafting Selves.* University of Chicago Press.

Kripke, Saul A. 1982. *Wittgenstein: On Rules and Private Language.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Kroeber, Alfred L. [1923] 1963. *Anthropology: Culture Patterns and Processes.* New York: Harbinger Books.

Kroskrity, Paul. V. 1993. *Language, History, and Identity: Ethnolinguistic Studies of the Arizona Tewa.* Tucson: University of Arizona Press.

Kuipers, Joel C. 1990. *Power in Performance: The Creation of Textual Authority in Weyewa Ritual Speech.* Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Kulick, Don. 1992. *Language Shift and Cultural Reproduction: Socialization, Self, and Syncretism in a Papua New Guinean Village.* Cambridge University Press.

Kuno, S. 1973. *The Structure of the Japanese Language.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Labov, William. 1966. *The Social Stratification of English in New York City.* Arlington: Center for Applied Linguistics.

1970. *The Study of Nonstandard English.* Champaign, IL: National Council of Teachers.

1972a. *Language in the Inner City: Studies in the Black English Vernacular.* Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

1972b. *The Logic of Nonstandard English, Language in the Inner City: Studies in the Black English Vernacular* (pp. 201-40). Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

1972c. *Sociolinguistic Patterns.* Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

1984. Field Methods of the Project on Linguistic Change and Variation. In J. Baugh and J. Sherzer (eds.), *Language in Use:*

Readings in Sociolinguistics (pp. 28-53). Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.

Ladefoged, Peter. 1975. *A Course in Phonetics.* New York: Harcourt Brace Jovanovich.

1992. Another View of Endangered Languages. *Language,* 68(4): 809-11.

Lakoff, G. 1972. Hedges: A Study in Meaning-Criteria and the Logic of Fuzzy Concepts. *Papers from the Eighth Regional Meeting of the Chicago Linguistics Society*, pp. 271-91.

1987. *Women, Fire, and Dangerous Things: What Categories Reveal About the Mind.* University of Chicago Press.

Lakoff, George and Mark Johnson. 1980. *Metaphors We Live By.* University of Chicago Press.

Lane, Harlan L. 1984. *When the Mind Hears: A History of the Deaf.* New York: Random House.

Langness, L. L. 1987. *The Study of Culture.* Rev. edn. Novato, California: Chandler & Sharp.

Lave, Jean. 1988. *Cognition in Practice.* Cambridge University Press.

1990. The Culture of Acquisition and the Practice of Understanding. In J. W. Stigler, R. A. Shweder. and G. Herdt (eds.), *Cultural Psychology: Essays on Comparative Human Development* (pp. 309-27). Cambridge University Press.

Lave, Jean and Etienne Wenger. 1991. *Situated Learning: Legitimate Peripheral Participation. Cambridge University Press.*

Lawrence, Denise and Setha Low. 1990. The Built Environment and Spatial Form. *Annual Review of Anthropology*, 19: 453-505.

Leach, Edmund. 1970. *Lévi-Strauss.* London: Fontana/ Collins.

1972. The Influence of Cultural Context on Non-Verbal Communication in Man. In R. Hinde (ed.), *Non-Verbal Communication* (pp. 315-47). Cambridge University Press.

Lehmann, Winfred P. 1973. *Historical Linguistics. An Introduction.* 2nd edn. New York: Holt.

Lehrer, Adrienne. 1974. *Semantic Fields and Lexical Structure.* Amsterdam: North Holland.

Leichter, Hope Jensen. 1984. Families as Environments for Literacy. In H. Goelman and A. Oberg (eds.), *Awakening to Literacy* (pp. 38-50). London: Heinemann.

Leilich, Joachim. 1993. Intentionality, Speech Acts and Comrnunicative Action: A Defense of J. Habermas' and K. O. Apel's Criticism. *Pragmatics*, 3 (2): 155-70.

Leont'ev, A. N. 1979. The Problem of Activity in Psychology. In J. V. Wertsch (ed.), *The Concept of Activity in Soviet Psychology* (pp. 37-71.). Armonk, NY: M. E. Sharpe.

1981. *Problems of the Development of the Mind.* Moscow: Progress Publishers.

Lepore, Ernest and R. Van Gulick (eds.). 1991. *John Searle and His Critics.* Oxford: Blackwell.

Lévi-Strauss, Claude. 1955/ 1977. *Tristes Tropiques*, trans. John and Doreen Weightman. New York: Pocket Books.

1963a. *Structural Anthropology.* New York: Basic Books.

1963b. *Totemism.* Boston: Beacon Press.

1965. *Le triangle culinaire. L'Arc*, 26: 19-29.

1966. *The Savage Mind.* University of Chicago Press.

1978. *Myth and Meaning.* New York: Schocken Books.

Levinson, Stephen C. 1983. *Pragmatics.* Cambridge University Press.

1987. Pragmatics and the Grammar of Anaphora: A Partial Pragmatic Reduction of Binding and Control Phenomena. *Journal of Linguistics*, 23: 379-434.

1988. Putting Linguistics on a Proper Footing: Explorations in Goffman's Concepts of Participation. In P. Drew and A. Wootton (ed.), *Erving Goffman: Exploring the Interaction Order* (pp. 161-227). Boston: Northeastern University Press.

Lewin, Bruno. 1971. Der interpersonale Bezug im Koreanische. in P. W. Pestman, *Acta Orientalia Neerlandica. Proceedings of the Congress of the Dutch Oriental Society Held in Leiden on the Occasion of its 50th Anniversary, 8th-9th May 1970* (pp. 196-205). Leiden: E. J. Brill.

Li, Charles N. (ed.). 1975. *Word Order and Word Order Change.* Austin: University of Texas Press.

(ed.). 1976. *Subject and Topic.* New York: Academic Press.

(ed.). 1977. *Mechanisms of Syntactic Change.* Austin: University of Texas Press.

Liberman, Alvin. 1970. The Grammars of Speech and Language. *Cognitive Psychology,* 1: 301-323.

Lieberman, Philip. 1975. *On the Origins of Language: An Introduction to the Evolution of Human Speech.* New York: Macmillan.

Lieberman, Philip and Sheila E. Blumstein. 1988. *Speech Physiology, Speech Perception, and Acoustic Phonetics.* Cambridge University Press.

Lindstrom, Lamont. 1992. Context Contests: Debatable Truth Statements on Tanna (Vanuatu). In A. Duranti and C. Goodwin (eds.), *Rethinking Context: Language as an Interactive Phenomenon* (pp. 101-24). Cambridge University Press.

Lounsbury, Floyd. 1956. Semantic Analysis of the Pawnee Kinship Usage. *Language,* 32: 158-94.

1969. The Structural Analysis of Kinship Semantics. In S. A. Tyler (ed.), *Cognitive Anthropology* (pp. 193-212). New York: Holt, Rinehart, and Winston.

Lowie, Robert H. 1940. Native Languages as Ethnographic Tools. *American Anthropologist,* 42 (1): 81-9.

Lucy, John A. 1992a. *Grammatical Categories and Cognition: A Case Study of the Linguistic Relativity Hypothesis.* Cambridge University Press.

1992b. *Language Diversity and Cognitive Development: A Reformulation of the Linguistic Relativity Hypothesis.* Cambridge University Press.

(ed.) 1993. *Reflexive Language: Reported Speech and Metapragmatics.* New York: Cambridge University Press.

Lucy, John A. and Richard A. Shweder, 1979. Whorf and His Critics. Linguistic and Nonlinguistic Influences on Color Memory. *American Anthropologist,* 81: 581-615.

Luhmann, Niklas. 1981. *Gesellschafsstruktur und Semantik*, vol. 2. Frankfurt am Main: Suhrkamp Verlag.

Lyons, John. 1969. *Introduction to Theoretical Linguistics*. Cambridge University Press.

1977. *Semantics*. Cambridge University Press.

Macaulay, Ronald K. S. 19913. "Coz it izny spelt when they say it": Displaying Dialect in Writing. *American Speech*, 66: 280-9.

1991b. *Locating Dialect in Discourse: The Language of Honest Men and Bonnie Lasses in Ayr*. Oxford Unriversity Press.

Maffi, Luisa. 1991. A Bibliography of Color Categorization Research, 1970-1990. In B. Berlin and P. Kay (eds.) *Basic Color Terms*, (paperback edn.) (pp. 173-89). Berkeley and Los Angeles: University of California Press.

Malinowski, Bronislaw. 1920. Classificatory Particles in the Language of Kiriwina. *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 1: 33-78.

1922. *Argonauts of the Western Paci.* New York: Dutton.

1923. The Problem of Meaning in Primitive Languages. In C. K. Ogden and I. A. Richards (eds..), *The Meaning of Meaning* (pp. 296-336). New York: Harcourt, Brace, & World, Inc. [1935] 1978. *Coral Gardens and Their Magic*. 2 vols. London: Allan & Urwin.

Malotki, Ekkehart. 1983. *Hopi Time: A Linguistic Analysis of the Temporal Concepts in the Hopi Language*. Berlin: Mouton.

Maltz, Daniel N. and Ruth A. Borker. 1982. A Cultural Approach to Male-Female Miscommunication. In J. J. Gumperz (ed.), *Communication, Language and Social Identity* (pp. 196-216) Cambridge University Press.

Mandelbaum, Jenny. 1987. Recipient-driven Storytelling in Conversation'. Unpublished Ph.D. dissertation, The University of Texas at Austin.

1993. Assigning Responsibility in Conversational Storytelling: The Interactional Construction of Reality. *Text*, 13 (2): 247-66.

Mani, Lata. 1990. Multiple Mediations: Feminist Scholarship in

the Age of Multinational Reception. *Feminist Review*, 35: 24-41.

Manicas, Peter T. 1987. *A History and Philosophy of the Social Sciences*. Oxford: Blackwell.

Mannheim, Bruce. 1991. *The Language of the Inka since the European Invasion*. Austin: University of Texas Press.

1992. A Semiotics of Andean Dreams. In B. Tedlock (ed.), *Dreaming: Anthropological and Psychological Interpretations* (pp. 132-53). Santa Fe, NM: School of American Research Press.

Martin, Laura. 1986. Eskimo Words for Snow: A Case Study in the Genesis and Decay of an Anthropological Example. *American Anthropologist*, 88: 418-23.

Martin, Samuel E. 1964. Speech Levels in Japan and Korea. In D. Hymes (ed.), *Language in Culture and Society: A Reader in Linguistics and Anthropology* (pp. 407-15). New York: Harper & Row.

Marx, Karl. 1845/ 1978. Theses on Feuerbach. In R. C. Tucker (ed.), *The Marx-Engels Reader*. 2nd edn. New York: Norton.

Marx, Karl. 1906. *Capital: A Critique of Political Economy*. New York: Random House.

Mauss, Marcel. 1935. Les techniques du corps. *Journal de psychologie normale et pathologique*, 39: 271-93.

1938. La notion de personne, celle de "moi". *Journal of the Royal Anthropological Institute*, 68 [English translation in Mauss 1985].

1979. *Sociology and Psychology: Essays*. London: Routledge & Kegan Paul.

1985. A Category of the Human Mind: The Notion of Person; The Notion of Self. In M. Carrithers, S. Collins and S. Lukes (eds.), *The Category of Person: Anthropology, Philosophy, History* (pp. 1-25). Cambridge University Press.

McConnell-Ginet, Sally. 1988. Language and Gender. In F. J. Newmeyer (ed.), *Linguistics: The Cambridge Survey*, vol. 4: *Language: The Socio-cultural Context* (pp. 75-99). Cambridge University Press.

McElhinny, Bonnie S. 1995. Challenging Hegemonic Masculinities: Female and Male Police Officers Handling Domestic Violence. In K. Hall and M. Bucholtz (eds.), *Gender Articulated: Language and the Socially Constructed Self* (pp. 217-43). New York: Routledge.

McTear, Michael. 1985. *Children 's Conversation.* Oxford: Basil Blackwell.

Mead, Margaret. 1939. Native Languages as Field-work Tools. *American Anthropologist,* 41(2): 189-205.

1959. Apprenticeship Under Boas. In W. Goldschmidt (ed.), *The Anthropology of Franz Boas: Essays on the Centennial of his Birth. Memoir No. 89 of the American Anthropological Association* (vol. 61, pp. 29-45). San Francisco: American Anthropological Association and Chandler.

Mehan, Hugh. 1979. *Learning Lessons.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Merlan, Francesca. 1985. Split Intransitivity: Functional Oppositions in Intransitive Inflection. In J. Nichols and A. Woodbury (eds.), *Grammar Inside and Outside the Clause: Some Approaches to Theory from the Field* (pp. 324-62). Cambridge University Press.

Merleau-Ponty, Maurice. 1962. *Phenomenology of Perception,* trans. Colin Smith. London: Routledge.

Merritt, Marilyn. 1982. Distributing and Directing Attention in Primary Classrooms. In L. C. Wilkinson (ed.), *Communicating in the Classroom* (pp. 223-44). New York: Academic Press.

Mertz, Elizabeth and Richard J. Parmentier (eds.) 1985. *Semiotic Mediation: Sociocultural and Psychological Perspectives.* Orlando: Academic Press.

Milroy, James. 1980. *Language and Social Networks.* Oxford: Blackwell.

Milroy, James and Lesley Milroy. 1985. Linguistic Change, Social Network, and Speaker Innovation. *Journal of Linguistics,* 21: 339-84.

Milroy, Leslie. 1987. *Language and Social Networks.* 2nd edn. Oxford: Blackwell.

Milroy, Leslie and James Milroy. 1992. Social Network and Social Class: Toward an Integrated Sociolinguistic Model. *Language in Society*, 21: 1-26.

Milton, Kay. 1982. Meaning and Context: The Interpretation of Greetings in Kasigau. In D. Parkin (ed.), *Semantic Anthropology* (pp. 261-77). London: Academic Press.

Mitchell-Kernan, Claudia. 1972. Signifying and Marking: Two Afro-American Speech Acts. In J. J. Gumperz and D. Hymes (eds.), *Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of Communication* (pp. 161-79). New York: Holt, Rinehart, & Winston.

Mithun, Marianne. 1986. On the Nature of Noun Incorporation. *Language*, 62: 32-7.

1991. Active/Agentive Case Marking and Its Motivation. *Language,* 67 (3): 510-46.

Moerman, Michael. 1977. The Preference for Self-Correction in a Tai Conversational Corpus. *Language,* 53 (4): 872-82.

1988. *Talking Culture: Ethnography and Conversation Analysis.* Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Monaghan, Leila. 1-996. *Signing, Oralism and Development of the New Zealand Deaf Community: An Ethnography and History of Language Ideologies.* Unpublished Ph.D. Dissertation, University of California, Los Angeles.

Moore, Henrietta L. 1986. *Space, Text and Gender: An Anthropological Study of the Marakwet of Kenya.* Cambridge University Press.

1994. *A Passion for Difference.* Cambridge, UK: Polity Press.

Moravcsik, Edith. 1974. Object-Verb Agreement. *Working Papers in Language Universals.* Stanford University, 15: 25-140.

Morgan, Marcyliena. 1996. Conversational Signifying: Grammar and Indirectness Among African American Women. In E. Ochs, E. Schegloff and S. A. Thompson (eds.), *Interaction and Grammar* (pp. 405-34). Cambridge University Press.

(ed.). 1994. *Language and the Social Construction of Reality in*

Creole Situations. Los Angeles: Center for Afro-American Studies, UCLA..

Morris, C. W. 1938. Foundations of the Theory of Signs. In Nuerath, R. Carnap and C. Morris (eds.), *International Encyclopedia of Unified Science* (pp. 77-138). University of Chicago Press.

Morrison, Toni. 1994. *The Nobel Lecture in Literature*, 1993. New York: Knopf.

Moshi, Lioba. 1993. Ideophones in KiVunjo-Chaga. *Journal of Linguistic Anthropology*, 3(2): 185-216.

Mülhausler, Peter. 1986. *Pidgin and Creole Linguistics*. Oxford: Blackwell.

Myers, Fred. 1986. *Pintupi Country Pintupi Self: Sentiment, Place, and Politics among Western Desert Aborigines*. Washington: Smithsonian Institution Press.

Nader, Laura. 1969 (ed.). *Law in Culture and Society*. Chicago: Aldine.

Narayan, Kirin. 1993. How Native is a "Native" Anthropologist? *American Anthropologist*, 95 (3): 671-86.

Newman, Denis, Peg Griffin and Michael Cole. 1989. *The Construction Zone*. Cambridge University Press.

Nichols, Johanna and David A. Peterson. 1996. The Amerind Personal Pronouns. *Language*, 72 (2): 336-71.

Nuckolls, Janis B. 1992. Sound Symbolic Involvement. *Journal of Linguistic Anthropology*, 2 (1):51-80.

1995. Quechua Texts of Perception. *Semiotica*, 145-69.

Nuyts, Jan. 1993. Intentions and Language Use. *Antwerp Papers in Linguistics*, no. 73.

1993. Intentions and the Functions of Language in Communication. *Protosoziologie*, 4: 15-31.

1994. The Intentional and the Socio-cultural in Language Use. *Pragmatics and Cognition*, 2 (2): 237-68.

Ochs, Elinor. 1979. Transcription as Theory. In E. Ochs and B. B. Schieffelin (eds.), *Developmental Pragmatics* (pp. 43-72). New York: Academic Press.

1982. Talking to Children in Western Samoa. *Language in Society*, 11: 77-104.

1984. Clarification and Culture. In D. Shiffrin (ed.), *Georgetown University Round Table in Languages and Linguistics* (pp. 325-41). Washington, DC: Georgetown University Press.

1988. *Culture and Language Development: Language Acquisition and Language Socialization in a Samoan Village*. Cambridge University Press.

1992. Indexing Gender. In A. Duranti and C. Goodwin (eds.), *Rethinking Context*. Cambridge University Press.

1996. Linguistic Resources for Socializing Humanity. In J. J. Gumperz and S. C. Levinson (eds.), *Rethinking Linguistic Relativity* (pp. 406-37). Cambridge: Cambridge University Press.

1997. Narrative. In T. van Dijk (ed.), *Discourse as Structure and Process* (pp. 185-207). London: Sage.

Ochs, Elinor and Bambi B. Schieffelin. 1983. *Acquiring Conversational Competence*. Boston: Routledge & Kegan Paul.

1984. Language Acquisition and Socialization: Three Developmental Stories. In R. A. Shweder and R. A. LeVine (eds.), *Culture Theory: Essays on Mind, Self, and Emotion* (pp. 276-320). Cambridge University Press.

1995. The Impact of Language Socialization on Grammatical Development. In P. Fletcher and B. Macwhinney (eds.), *The Handbook of Child Language* (pp. 73-94). Oxford: Blackwell.

Ochs, Elinor, Ruth Smith and Carolyn Taylor. 1989. Dinner Narratives as Detective Stories. *Cultural Dynamics*, 2: 238-57.

Ochs, E. and C. Taylor. 1992. Mothers' Role in the Everday Reconstruction of "Father Knows Best." In K. Hall, M. Bucholtz and B. Moonwomon (eds.), *Locating Power: Proceedings of the 1992 Berkeley Women and Language Conference* (pp. 447-62). Berkeley: University of California, Berkeley.

Ochs, Elinor, Carolyn Taylor, Dina Rudolph and Ruth Smith. 1992. Story-telling as a Theory-building Activity. *Discourse Processes*, 15 (1): 37-72.

Olmsted, D. L. 1950. Ethnolinguistics So Far. *Studies in Linguistics, Occasional Papers*, 2.

Ortner, Sherry B. 1979. *Sherpas Through Their Rituals*. Cambridge University Press.

1984. Theory in Anthropology Since the Sixties. *Comparative Studies in Society and History*, 26 (1): 126-66.

Oswalt, Wendell H. 1986. *Life Cycles and Lifeways: An Introduction to Cultural Anthropology*. Palo Alto, CA: Mayfield.

Owusu, Maxwell. 1978. Ethnography of Africa: The Usefulness of the Useless. *American Anthropologist*, (2): 310-34.

Pace, David. 1983. *Claude Lévi-Strauss: The Bearer of Ashes*. London: Routledge & Kegan Paul.

Padden, Carol and Tom Humphries. 1988. *Deaf in America: Voices from a Culture*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Palmer, Gary B. and William R. Jankowiak. 1996. Performance and Imagination: Toward an Anthropology of the Spectacular and the Mundane. *Cultural Anthropology*, 11(2): 225-58.

Pandolfi, Mariella. 1991. *Itinerari delle ernozioni*. Milan: Franco Angeli.

Parmentier, Richard J. 1994. *Signs in Society: Studies in Semiotic Anthropology*. Bloomington: Indiana University Press.

Pawley, Andrew. 1974. Austronesian Languages, *Encyclopædia Britannica*, 13th edn. (pp. 484-93).

Peirce, Charles Sanders. 1940. Logic as Semiotic: The Theory of Signs. In J. Buchler (ed.), *Philosophical Writings of Peirce: Selected Writings*. London: Routledge & Kegan Paul.

Peters, Misja Shreuder, Milko van Gool and Ester Messing. 1992. A Bibliography on Space, Deixis, and Related Topics, with Index. *Cognitive Anthropology Research Group at the Max Plank Institute, Working Paper*, 15.

Philips, Susan. 1983 *The Invisible Culture: Communication in Classroom and Community on the Warm Springs Indian Reservation*. New York: Longman.

Philips, Susan, Susan Steele and Christina Tanz. 1987. *Language,*

Gender, and Sex in Comparative Perspective. Cambridge University Press.

Philips, Susan U. 1972. Participant Structures and Communicative Competence: Warm Springs Children in Community and Classroom. In C. B. Cazden, V. P. John and D. Hymes (eds.), *Functions of Language in the Classroom* (pp. 370-94). New York: Columbia Teachers Press.

1992. The Routinization of Repair in Courtroom Discourse. In A. Duranti and C. Goodwin (eds.), *Rethinking Context: Language as an Interactive Phenomenon* (pp. 311-22). Cambridge University Press.

Pike, Kenneth L. 1954-56 *Language, in Relation to a Unified Theory of the Structure of Human Behavior*, parts I, II, III. Glendale, CA: Summer Institute of Linguistics.

1966. Etic and Emic Standpoints for the Description of Behavior. In A. G. Smith (ed.), *Communication and Culture: Readings in the Codes of Human Interaction* (pp. 152-63). New York: Holt, Rinehart, & Winston.

1971. *Language in Relation to a Unified Theory of the Structures of Human Behavior.* 2nd, rev. edn. The Hague: Mouton.

Pinker, Steven. 1994. *The Language Instinct: How the Mind Creates Language.* New York: William Morrow & Co.

Planck, Frans (ed.). 1979. *Ergativity: Towards a Theory of Grammatical Relations.* London: Academic Press.

Platt, J. T. and H. K. Platt. 1975. *The Social Significance of Speech: An Introduction to and Workbook in Sociolinguistics.* Amsterdam: North-Holland.

Platt, Martha. 1982. *Social and Semantic Dimensions of Deictic Verbs and Particles in Samoan Child Language.* Unpublished Ph.D. dissertation, University of Southern California.

Polhemus, Ted (ed.). 1978. *Social Aspects of the Human Body.* Harmondsworth: Penguin.

Pomerantz, Anita. 1978. Compliment Responses: Notes on the Cooperation of Multiple Constraints. In J. Schenkein (ed.), *Studies in the Organization of Conversational Interaction* (pp. 79-112). New York: Academic Press.

1984. Agreeing and Disagreeing with Assessments: Some Features of Preferred-Dispreferred Turn Shapes. In J. M. Atkinson and J. Heritage (eds.), *Structures of Social Action: Studies in Conversation Analysis* (pp; 57-101). Cambridge University Press.

Povinelli, Elizabeth A. 1995. Do Rocks Listen? The Cultural Politics of Apprehending Australian Aboriginal Labor. *American Anthropologist*, 97(3): 505-18.

Pullum, Geoffrey K. and William A. Ladusaw. 1986. *Phonetic Symbol Guide*. University of Chicago Press.

Putnam, Hilary. 1975. The Meaning of "Meaning," Mind, Language and Reality. *Philosophical Papers*, vol. 2 (pp. 215-71). Cambridge University Press.

Quirk, Randoph, Sidney Greenbaum, Geoffrey Leech and Jan Svartvik. 1985. *A Comprehensive Grammar of the English Language*. London: Longman.

Radford, Andrew. 1988. *Tranformational Grammar: A First Course*. Cambridge University Press.

Rappoport, Roy. 1974. *Obvious Aspects of Ritual. Cambridge Anthropology*, 2 (1): 3-6.9.

Reddy, Michael. 1979. The Conduit Metaphor. In A. Ortony (ed.), *Metaphor and Thought*. Cambridge University Press.

Reill, Peter Hanns and David Philip Miller (eds.). 1996. *Visions of Empire: Voyages, Botany, and Representations of Nature*. Cambridge University Press.

Reisman, Karl. 1974. Contrapunctual Conversations in an Antiguan Village. In R. Bauman and J. Sherzer (eds.), *Explorations in the Ethnography of Speaking* (pp. 110-24). Cambridge University Press.

Resnick, Lauren B., John M. Levine and Stephanie D. Teasley (eds.). 1991. *Perspectives on Socially Shared Cognition*. Washington, DC: American Psychological Association.

Ricoeur, Paul. 1971. The Model of the Text: Meaningful Action Considered as Text. *Social Research*, 38: 529-62.

1981. *Hermeneutics and the Human Sciences*. Cambridge University Press.

Rogoff, Barbara. 1990. *Apprenticeship in Thinking*. New York: Oxford University Press.

Rogoff, Barbara and Jean Lave. 1984. *Everyday Cognition. Its Development in Social Context*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Romaine, Suzanne. 1982. What Is a Speech Community? In S. Romaine (ed.), *Sociolinguistic Variation in Speech Communities* (pp. 13-24). New York: Edward Arnold.

1984. On the Problem of Syntactic Variation and Pragmatic Meaning in Sociolinguistic Theory. *Folia Linguistica*, 18: 409-39.

1986. *Pidgin and Creole Languages*. London: Longman.

1994. Language Standardization and Linguistic Fragmentation in Tok Pisin. In M. Morgan (ed.), *Language in Creole Situations: The Social Construction of Identity* (pp. 19-41). Los Angeles: Center for Afro-American Studies.

Rosaldo, Michelle Z. 1980. *Knowledge and Passion: Ilongot Notions of Self and Social Life*. Cambridge University Press.

1982. The Things We Do With Words: Ilongot Speech Acts and Speech Act Theory in Philosophy. *Language in Society*, 11: 203-37.

Rosaldo, Renato. 1989. *Culture & Truth: The Remaking of Social Analysis*. Boston: Beacon Press.

Rosch, Eleanor. 1973. Natural Categories. *Cognitive Psychology* 7: 573-605.

1975. Universals and Cultural Specifics in Human Categorization. In R. Brislin, S. Bochner and W. Lonner (eds.), *Cross-Cultural Perspectives in Learning* (pp. 177-206). New York: Helstead Press.

1978. Principles of Categorization. In E. Rosch and B. Lloyd (eds.), *Cognition and Categorization* (pp. 27-48). Hiltlsdale, NJ: Lawrence Erlbaum.

Rosen, Lawrence. 1995a. Irntroduction: The Cultural Analysis of Others' Inner States. In L. Rosen (ed.), *Other Intentions: Cultural Contexts and the Attribution of Inner States* (pp. 1-11). Santa Fe, NM: School of American Research Press.

(ed.). 1995b. *Other Intentions*. Santa Fe, NM: School of American Research.

Rossi-Landi, Ferruccio. 1970. Linguistic Alienation Problems, *Linguaggi nella società e nella tecnica* (pp. 513-43). Milan: Edizioni di Comunità.

1973. Il linguaggio come lavoro e come mercato. Milan: Bompiani.

1983. *Language as Work and Trade: A Semiotic Homology for Linguistics and Economics*. South Hadley, MA: Bergin & Garvey.

Rumsey, Alan. 1990. Wording, Meaning, and Linguistic Ideology. *American Anthropologist*, 92 (2): 346-61.

Rymes, Betsy. 1996. Naming as Social. Practice: The Case of Little Creeper from Diamond Street. *Language in Society*, 25: 237-60.

Sacks, Harvey. 1972. On the Analyzability of Stories by Children. In J. J. Gumperz and D. Hymes (eds.), *Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of Communication* (pp. 325-45). New York: Holt, Rinehart, & Winston.

1978. Some Technical Considerations of a Dirty Joke. In J. Schenkein (ed.), *Studies in the Organization of Conversational Interaction* (pp. 249-69) New York: Academic Press (edited by Gail Jefferson from four lectures delivered at the University of California, Irvine, Fall 1971).

1992a. *Lectures on Conversation*, vol. 1. Cambridge, MA: Blackwell.

1992b. *Lectures on Conversation*, vol. 2. Cambridge, MA: Blackwell.

Sacks, Harvey, Emanuel A. Schegloff and Gail Jefferson. 1974. A Simplest Systematics for the Organization of Turn-Taking for Conversation. *Language,* 50: 696-735.

1978. A Simplest Systematic for the Organization of Turn-Taking for Conversation. In J. Schenkein (ed.), *Studies in the Organization of Conversational Interaction* (pp. 7-57). New York: Academic Press.

Sacks, Oliver. 1989. *Seeing Voices: A Journey into the World of the*

Dead. Berkeley and Los Angeles: University of California Press.

Sadock, Jerrold. 1980. Some Notes on Noun Incorporation. *Language,* 56: 300-19.

Sadock, Jerrold M. and Arnold M. Zwicky. 1985. Speech Act Distinctions in Syntax. In T. Shopen (ed.), *Language Typology and Syntactic Description*, vol. 1.: *Clause Structure* (pp. 155-96). Cambridge University Press.

Sahlins, Marshall. 1976. *Culture and Practical Reason.* University of Chicago Press.

Said, Edward. 1978. *Orientalism.* London: Routledge & Kegan Paul.

1989. Representing the Colonized: Anthropology's Interlocutors. *Critical Inquiry*, 15: 205-25.

Salmond, Anne. 1975. Mana Makes the Man: A Look at Maori Oratory and Politics. In M. Bloch (ed.), *Political Language and Oratory in Traditional Society* (pp. 45-63). London: Academic Press.

Samarin, William J. 1967. Determining the Meanings of Ideophones. *Journal of West African Linguistics*, 4: 35-41.

1971. Survey of Bantu Ideophones. *African Language Studies*, 2.

Sanjek, Roger (ed.). 1990a. *Fieldnotes: The Makings of Anthropology.* Ithaca: Cornell University Press.

1990b. The Secret Life of Fieldnotes. In R. Sanjek (ed.), *Fieldnotes: The Makings of Anthropology* (pp. 187-270). Ithaca: Cornell University Press.

1990c. Vocabulary for Fieldnotes. In R. Sanjek. (ed.), *Fieldnotes: The Makings of Anthropology* (pp. 92-121). Ithaca: Cornell University Press.

Sapir, Edward. 1921. *Language.* New York: Harcourt, Brace & World.

1924. Culture, Genuine and Spurious. *Journal of Sociology*, 29: 401-29.

1933. Language. *Encyclopaedia of the Social Sciences*, 155-69.

1949a. Cultural Anthropology and Psychiatry. In D. G. Mandel-

baum (ed.), *Selected Writings of Edward Sapir in Language, Culture and Personality* (pp. 509-21). Berkeley and Los Angeles: University of California Press.

1949b. The Status of Linguistics as a Science. In D. G. Mandelbaum (ed.), *Selected Writings of Edward Sapir in Language, Culture and Personality* (pp. 160-6). Berkeley and Los Angeles: University of California Press.

1949c. The Unconscious Patterning of Behavior in Society. In D. G. Mandelbaum (ed.), *Selected Writings of Edward Sapir in Language, Culture and Society* (pp. 544-59). Berkeley: University of California Press.

1949d. The Psychological Reality of the Phoneme. In D. G. Mandelbaum (ed.), *Selected Writings of Edward Sapir in Language, Culture and Personality* (pp. 46-60). Berkeley and Los Angeles: University of California Press.

1993. *The Psychology of Culture: A Course of Lectures*. Reconstructed and Edited by Judith T. Irvine. Berlin: Mouton de Gruyter.

Sapir, J. David and J. Christopher Crocker (eds.). 1977. *The Social Uses of Metaphor*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Sarup, Madan. 1989. *An Introductory Guide to Poststructuralism and Postmodernism*. Athens, GA: University of Georgia Press.

Saussure, Ferdinand de. 1959. *Course in General Linguistics*, ed. Charles Bally and Albert Sechehaye, in collaboration with Albert Riedlinger, translated from the French by Wade Baskin. New York: Philosophical Library.

Saville-Troike, Muriel. 1989. *The Ethnography of Communication: An Introduction*. 2nd edn. Oxford: Blackwell.

Sawyer, R. Keith. 1996. The Semiotics of Improvisation: The Pragmatics of Musical and Verbal Performance. *Semiotica*, 108 (3/4): 269-306.

Schegloff, Emanuel.A. 1972a. Notes on a Conversational Practice: Formulating Place. In D. Sudnow (ed.), *Studies in Social Interaction* (pp. 75-119). New York: Free Press.

1972b. Sequencing in Conversational Openings. In J. J. Gumperz and D. Hymes (eds.), *Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of Communciation* (pp. 346-80). New York: Holt, Rinehart, & Winston.

1979a. Identification and Recognition in Telephone Openings. In G. Psathas (ed.), *Everyday Language* (pp. 23-78). New York: Lawrence Erlbaum.

1979b. The Relevance of Repair for Syntax-for-Conversation. In Givón (ed.), *Syntax and Semantics* 12: *Discourse and Syntax* (pp. 261-88). New York: Academic Press.

1984. On Some Gestures' Relation to Talk. in J. M. Atkinson and J. Heritage (eds.), *Structures of Social Action* (pp. 266-96). Cambridge University Press.

1986. The Routine as Achievement. *Human Studies*, 9: 111-51.

1987. Between Macro and Micro: Contexts and Other Connections. In J. Alexander, R. M. B. Giesen and N. Smelser (eds.), *The Micro-Macro Link* (pp. 207-34). Berkeley: University of California Press.

1989. Harvey Sacks - Lectures 1964-1965. An Introduction/ Memoir. *Human Studies*, 12 (3-4): 185-209.

1991. Reflections on Talk and Social Structure. In D. Boden and D. H. Zimmerman (eds.), *Talk and Social Structure* (pp. 44-70). Berkeley and Los Angeles: University of California Press.

1992a. Introduction, in Harvey Sacks, *Lectures on Conversation*, vol. 1 (pp. ix-lxii). Cambridge, MA: Blackwell.

1992b. In Another Context. In A. Duranti and C. Goodwin (eds.), *Rethinking Context: Language as an Interactive Phenomenon* (pp. 191-227). Cambridge University Press.

Schegloff, Emanuel A., Gail Jefferson and Harvey Sacks. 1977. The Preference for Self - Correction in the Organization of Repair in Conversation. *Language*, 53: 361-82.

Schegloff, Emanuel A. and Harvey Sacks. 1973. Opening Up Closings. *Semiotica*, 8: 289-327.

1984. Opening Up Closings. In J. Baugh and J. Sherzer (eds.), *Language in Use: Readings in Sociolinguistics* (pp. 69-99).

Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall.

Schieffelin, Bambi B. 1979. Getting It Together: An Ethnographic Approach to the Study of the Development of Communicative Competence. In E. Ochs and B. B. Schieffelin (eds.), *Developmental Pragmatics* (pp. 73-110). New York: Academic Press.

1986. Teasing and Shaming in Kaluli Children's Interactions. In B. B. Schieffelin and E. Ochs (eds.), *Language Socialization across Cultures* (pp. 165-81). Cambridge University Press.

1990. *The Give and Take of Everyday Life: Language Socialization of Kaluli Children.* Cambridge University Press.

1994. Code-switching and Language Socialization: Some Probable Relationships. In J. Duchan, L. E. Hewitt and R. M. Sonnenmeier (eds.), *Pragmatics: From Theory to Therapy* (pp. 20-42). New York: Prentice Hall.

Schieffelin, Bambi B. and Rachelle Charlier Doucet. 1994. The "Real" Haitian Creole: Ideology, Metalinguistics, and Orthographic Choice. *American Ethnologist*, 21(1): 176-200.

Schieffelin, Bambi B. and P. Gilmore. 1986. *The Acquisition of Literacy.* Norwood, NJ: Ablex.

Schieffelin, Bambi B. and Elinor Ochs. 1986. *Language Socialization across Cultures.* Cambridge University Press.

Schieffelin, Bambi B., Kathryn Woolard and Paul Kroskrity (eds.). 1997. *Language Ideologies.* Oxford University Press.

Schieffelin, Edward L. 1976. *The Sorrow of the Lonely and the Burning of the Dancers.* New York: St. Martins Press.

Schiffrin, Deborah. 1994. *Approaches to Discourse.* Oxford: Blackwell.

Scholes, Robert J. and Brenda J. Willis. 1991. Linguists, Literacy, and the Intensionality of Marshall McLuhan's Western Man. In D. R. Olson and N. Torrance (eds.), *Literacy and Orality* (pp. 225-35). Cambridge University Press.

Schutz, Alfred. [1932] 1967. *The Phenomenology of the Social World*, trans. G. Walsh and F. Lehnert. Evanston, IL: Northwestern University Press.

Scollon, Ronald and S. B. K. Scollon. 1981. *Narrative, Literacy,*

and Face in Interethnic Communication. Norwood, NJ: Ablex.

Scribner, Sylvia and Michael Cole. 1981. Psychology of Literacy. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Searle, John R. 1969. *Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language*. Cambridge University Press.

1975. Indirect Speech Acts. In P. Cole and J. L. Morgan (eds.), *Syntax and Semantics*, vol. 3 (pp. 59-82). New York: Academic Press.

1976. The Classification of Illocutionary Acts. *Language in Society*, 5 (1): 1-23.

1983. *Intentionality: An Essay in the Philosophy of Mind*. Cambridge University Press.

1986. Meaning, Communication and Representation. In R. E. Grandy and R. Warner (eds.), *Philosophical Grounds of Rationality* (pp. 209-26). Oxford: Clarendon Press.

1990. Collective Intentionality and Action. In P. R. Cohen, J. Morgen and M. E. Rollsik (eds.), *Intention in Communication* (pp. 401-15). Cambridge, MA: MIT Press.

Searle, John R. and Daniel Vanderveken. 1985. Foundations of Illocutionary Logic. Cambridge University Press.

Severi, Carlo. 1989. Cristallizzazione e dispersione della conoscenza nella tradizione cuna. In G. R. Cardona (ed.), *La trasmissione del sapere: Aspetti linguistici e antrapologici* (pp. 255-77). Rome: Bagatto.

Sherzer, Joel. 1973. Verbal and Non-Verbal Deixis: The Pointed Lip Gesture Among the San Blas Cuna. *Language in Society*, 2: 117-31.

1974. Namakke, Summakke, Kormakke: Three Types of Cuna Speech Event. In R. Bauman and J. Sherzer (eds.), *Explorations in the Ethnography of Speaking* (pp. 263-82). Cambridge University Press.

1983. Kuna Ways of Speaking: An Ethnographic Perspective. Austin: University of Texas Press.

Sherzer, Joel and Regna Darnell. 1972. Outline Guide for the

Ethnographic Study of Speech Use. In I. J. Gumperz and Hymes (eds), *Directions in Sociolinguistics: The Ethnography of Comnunication* (pp. 548-54). New York: Holt, Rinehart, & Winston.

Shibatani, Masayoshi and Theodora Bynon (eds.). 1995. *Approaches to Language Typology*. Oxford: Clarendon Press.

Shore, Bradd. 1982. *Salailua: A Samoan Mystery*. New York: Columbia University Press.

Shuy, Roger W., Walter A. Wolfram and William Riley 1968. *Urban Language Study*. Washington, DC: Center for Applied Linguistics.

Silverstein, Michael. 1976a. Hierarchy of Features or Ergativity. In R. M. Dixon (ed.), *Grammatical Categories in Australian Languages* (pp. 112-71); Canberra: Australian Institute of Aboriginal Studies.

1976b. Shifters, Linguistic Categories, and Cultural Description. In K. H. Basso and H. A. Selby (eds.), *Meaning in Anthropology* (pp. 11-56). Albuquerque: University of New Mexico Press.

1977. Cultural Prerequisites to Grammatical Analysis. In M. Saville - Troike (ed.), *Linguistics and Anthropology: Georgetown University Round Table on Languages and Linguistics* 1977 (pp. 139-51). Washington, DC: Georgetown University Press.

1979. Language Structure and Linguistic Ideology. In P. R. Clyne, W. F. Hanks and C. L. Hofbauer (eds.), *The Elements: A Parasession on Linguistic Units and Levels* (pp. 193-247). Chicago Linguistic Society.

1981. *The Limits of Awareness*. Austin: Southwest Educational Development Laboratory.

1985a. The Culture of Language in Chinookan Narrative Texts; or, On saying that... in Chinookan. In J. Nichols and A. Woodbury (eds.), *Grammar Inside and Outside the Clause* (pp. 132-71). Cambridge University Press.

1985b. The Functional Stratification of Language and Ontogenesis. In J. V. Wertsch (ed.), *Culture, Communication and*

Cognition: Vygotskian Perspectives (pp. 205-35). Cambridge University Press.

1987. The Three Faces of "Function": Preliminaries to a Psychology of Language. In M. Hickmann (ed.), *Social and Functional Approaches to Language and Thought* (pp. 17-38). New York: Academic Press.

1992. The Indeterminacy of Contextualization: When is Enough Enough? In P. Auer and A. DiLuzio (eds.), *The Contextualization of Language*. Amsterdam: John Benjamins.

1993. Metapragmatic Discourse and Metapragmatic Function. In J. Lucy. (ed.) *Reflexive Language* (pp. 33-58). New York: Cambridge University Press.

Slobin, Dan I. (ed.). 1967. *A Field Manual for Cross-Cultural Study of the Acquisition of Communicative Competence*. Berkeley: Language Behavior Research Laboratory. University of California, Berkeley.

(ed.). 1985a. *The Crosslinguistic Study of Language Acquisition*, vol. 1. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum Associates.

1985b. The Crosslinguistic Evidence for the Language-making Capacity. In D. I. Slobin (ed.), *The Crosslinguistic Study of Language Acquisition*, vol. 2: *Theoretical Issues* (pp. 1157-256). Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum Associates.

(ed.). 1992. The Crosslinguistic Study of Language Acquisition, vol. 3. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum Associates.

Soja, Edward W. 1989. *Postmodern Geographies: The Reassertion of Space in Critical Social Theory*. London and New York: Verso.

Sorensen, Arthur P., Jr. 1967. Multilingualism in the Northwest Amazon. *American Anthropologist*, 69: 670-84.

Spencer, Andrew. 1991. *Morphological Theory*. Oxford: Blackwell.

Sperber, Dan. 1.985. Anthropology and Psychology. *Man*, 20:73-89.

Spiro, Melford E. 1990. On the Strange and the Familiar in Recent Anthropological Thought. In J. W. Stigler, R. A. Shweder and G. Herdt (eds.), *Cultural Psychology: Essays on Comparative Human Development*. Cambridge University Press.

Spivak, Gayatri Chakravorty. 1985. Three Women's Texts and a Critique of Imperialism. *Critical Inquiry*, 12(1): 243-61.

Spradley, James, P. 1980. *Participant Observation*. New York: Holt, Rinehart, & Winston.

Stocking, George W. Jr. (ed.). 1974. *The Shaping of American Anthropology, 1883-1911: A Franz Boas Reader*. New York:.Basic Books.

Streeck, Jürgen. 1988. The Significance of Gesture: How it is Established. *International Pragmatics Association Papers in Pragmatics*, 2(1): 60-83.

1993. Gesture as Communication I: Its Coordination with Gaze and Speech. *Communication Monographs*, 60: 275-99.

1994. Gesture as Communication II: The Audience as Co-author. *Research on Language and Social Interaction*, 27: 239-267.

Streeck, Jürgen and Ulrike Hartge. 1992. Previews: Gestures at the Transition Place. In P. Auer and A. di Luzio (eds.), *Contextualization of Language* (pp. 135-58). Amsterdam: Benjamins.

Stubbs, Michael. 1983. *Discourse Analysis*. Oxford: Blackwell.

Suchman, Lucy A. 1987. *Plans and Situated Actions: The Problem of Human Machine Communication*. Cambridge University Press.

Swadesh, Morris. 1972. *The Origin and Diversification of Language*. ed. Joel Sherzer. London: Routledge & Kegan Paul.

Sweetser, Eve E. 1987. The Definition of lie. An Examination of the Folk Models Underlying a Semantic Prototype. In D. Holland and N. Quinn (eds.), *Cultural Models in Language and Thought* (pp. 43-66). Cambridge University Press.

Talmy, Leonard. 1985. Lexicalization Patterns: Semantic Structure in Lexical Forms. In T. Shopen (ed.), *Language Typology and Syntactic Description*, vol. 3: *Grammatical Categories and the Lexicon* (pp. 57-149). Cambridge University Press.

Tambiah, Stanley J. 1968. The Magical Power of Words. Man, NS, 3: 175-208.

1973. Form and Meaning of Magical Acts: A Point of View. In R. Horton and R. Finnegan (eds.), *Modes of Thought: Essays on*

Thinking in Western and Non-Western Societies (pp. 199-229). London: Faber & Faber.

1985. *Culture, Thought, and Social Action.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Tannen, Deborah. 1990. *You Just Don't Understand: Women and Men in Conversation.* New York: William Morrow & Co.

(ed.). 1993a. *Gender and Conversational Interaction.* New York: Oxford University Press.

1993b. The Relativity of Linguistic Strategies: Rethinking Power and Solidarity in Gender and Dominance. In D. Tannen (ed.), *Gender and Conversational Interaction* (pp. 165-88). New York: Oxford University Press.

Tarski, Alfred. 1956. *Logic, Semantics, Metamathematics.* Oxford: Clarendon Press.

Tedlock, Dennis. 1983. *The Spoken Word and the Work of Interpretation.* Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Testa, Renata. 1991. Negotiating Stories: Strategic Repair in Italian Multi-Party Talk. *Pragmatics*, 1(3): 345-70.

Tharp, R. and Robert Gallimore. 1988. *Rousing Minds to Life: Teaching, Learning, and Schooling in Social Context.* New York: Cambridge University Press.

Thomason, Sarah Grey and Terrence Kaufman. 1988. *Language Contact, Creolization, and Genetic Linguistics.* Berkeley: University of California Press.

Trier, Jost. 1934. *Das sprachliche* Feld. jahrbuch für Deutsche Wissenschaft, 10.

Trubetzkoy, Nikolai. 1939. Gedanken zum Indogermanenproblem. *Acta Linguistica*, 1: 81-9.

Trudgill, Peter. 1974. *Sociolinguistics: An Introduction.* Harmondsworth: Penguin.

1978. *Sociolinguistic Patterns in British English.* London: Arnold.

Tyler, Stephen. 1978. *The Said and the Unsaid.* New York: Academic Press.

Tylor, Edward Burnett. 1871. *Primitive Culture*. London: John Murray.

1958. *The Origins of Culture*. Part I of *"Primitive Culture."* New York: Harper.

Urban, Greg. 1988. Ritual Wailing in Amerindian Brazil. *American Anthropologist*, 90 (2): 385-400.

1991. *A Discourse-Centered Approach to Culture: Native South American Myths and Rituals*. Austin: University of Texas Press.

Uyeno, T. 1971. *A Study of Japanese Modality: A Performative Analysis of Sentence Particles*. Unpublished Ph.D. dissertation, University of Michigan.

Vachek, Josef (ed.). 1964. *A Prague School Reader in Linguistics*. Bloomington: Indiana University Press.

1966. *The Linguistic School of Prague: An Introduction to Its Theory and Practice. Bloomington: Indiana University Press.*

Van Valin, Robert D. Jr. 1990. Semantic Parameters of Split Ergativity. *Language*, 66 (2): 221-60.

Vološinov, Valentin Nikolaevic. 1973. *Marxism and the Philosophy of Language*, trans. Ladislav Matejka and I. R. Titunik. New York: Seminar Press. (First Published 1929 and 1930).

Von Humboldt, Wilhelm. [1836] 1971. *Linguistic Variability and Intellectual Development*, trans. George C. Buck and Frithjof A. Raven. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Vygotsky, L. S. 1978. *Mind in Society: The Development of Higher Psychological Processes*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Wallace, Anthony F. C. 1961. *Culture and Personality*. New York: Random House.

Walters, Keith. 1988. Dialectology. In F. J. Newmeyer (ed.), *Linguistics: The Cambridge Survey*, vol. 4: *Language: The Socio-Cultural Context* (pp. 119-39). Cambridge University Press.

Watson-Gegeo, Karen and Geoffrey White (eds.). 1990. *Disentangling: Conflict Discourse in Pacific Societies*. Stanford University Press.

Weinrich, Uriel. 1953. *Languages in Contact*. The Hague: Mouton.

Weinreich, Uriel, William Labov and Marvin I. Herzog. 1968. Empirical Foundations for a Theory of Language Change. In W. P. Lehmann and Y. Malkiel (eds.), *Directions in Historical Linguistics* (pp. 95-188). Austin: University of Texas Press.

Welmers, William E. 1973. *African Language Structures*. Berkeley: University of California Press.

Wertsch, James V. 1981. The Concept of Activity in Soviet Psychology: An Introduction. In J. V. Wertsch (ed.), *The Concept of Activity in Soviet Psychology* (pp. 3-36). Armonk, NY: M. E. Sharpe.

1985a. *Culture, Communication, and Cognition: Vygotskian Perspectives*. Cambridge University Press.

1985b. *Vygotsky and the Social Formation of Mind*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

1991. *Voices of the Mind: A Sociocultural Approach to Mediated Action*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Whorf, Benjamin Lee. 1956a. An American Indian Model of the Universe. In J. B. Carroll (ed.), *Language, Thought, and Reality: Selected Writings of Benjamin Lee Whorf* (pp. 57-64). Cambridge, MA: MIT Press.

1956b. A Linguistic Consideration of Thinking in Primitive Communities. In J. B. Carroll (ed.), Language, *Thought, and Reality: Selected Writings of Benjamin Lee Whorf* (pp. 65-86). Cambridge, MA: MIT Press.

1956c. Linguistics as an Exact Science. In J. B. Carroll (ed.), Language, Thought, and Reality: Selected Writings of Benjamin Lee Whorf (pp. 220-32). Cambridge, MA: MIT Press.

1956d. The Relation of Habitual Thought and Behavior to Language. In J. B. Carroll (ed.), Language, Thought, and Reality: Selected Writings of Benjamin Lee Whorf (pp. 134-59). Cambridge, MA: MIT Press.

[1940]1956e. Science and Linguistics. In J. B. Carroll (ed.), *The Relation of Habitual Thought and Behavior to Language* (pp. 207-19). Cambridge, MA: MIT Press.

1956f. Grammatical Categories. In J. B. Carroll (ed.), *The Relation of Habitual Thought and Behavior to Language* (pp. 87-101). Cambridge, MA: MIT Press.

Wierzbicka, Anna. 1994. Semantic Universals and Primitive Thought: The Question of the Psychic Unity of Humankind. *Journal of Linguistic Anthropology*, 4(1): 23-49.

Willard, Dalls. 1972. The Paradox of Logical Psychologism: Husserl's Way Out. *American Philosophical Quarterly*, 9 (1): 94-100.

Williamson, John B. David A. Karp, John R. Dalphin and Paul S. Gray (eds.). 1982. *The Research Craft: An Introduction to Social Research Methods*. Boston: Little Brown.

Witherspoon, Gary. 1977. *Language and Art in the Navajo Universe*. Ann Arbor: University of Michigan Press.

Wittgenstein, Ludwig. 1958. *Philosophical Investigations*, ed. G. E. M. Anscombe and R. Rhees, trans. G. E. M. Anscombe. 2nd edn. Oxford: Blackwell.

1960. *The Blue and Brown Books: Preliminary Studies for the "Philosophical Investigations." New York: Harper & Row.*

[1922] 1961. *Tractatus Logico-Philosophicus*. Translation by D. F. Pears and B. F. McGuinnes. London: Routledge & Kegan Paul.

1974. Philosophical Grammar, trans. Anthony Kenny, ed. Rush Rhees. Berkeley and Los Angeles: University of California Press.

Wolfson, Nessa. 1976. Speech Events and Natural Speech: Some Implications for Sociolinguistic Methodology. *Language in Society*, 5: 189-209.

Woodbury, Anthony C. 1984. Eskimo and Aleut Languages. In D. Damas (ed.), *Handbook of North American Indians*, vol. 5: Arctic (pp. 49-63). Washington, DC: Smithsonian Institution.

1985. Noun Phrase, Nominal Sentence, and Clause in Central Alaskan Yupik Eskimo. In J. Nichols and A. Woodbury (eds.), *Grammar Inside and Outside the Clause* (pp. 61-88). Cambridge University Press.

Woolard, Kathryn A. 1989. *Double Talk: Bilingualism and the*

Politics of Ethnicity in Catalonia. Stanford University Press.

Woolard, Kathryn A. and Bambi B. Schieffelin. 1994. Language Ideology. *Annual Review of Anthropology*, 23: 55-82.

Worth, Sol and John Adair. 1972. *Through Navajo Eyes: An Exploration in Film Communication and Anthropology*. Bloomington Indiana University Press.

Yankah, Kwesi. 1995. *Speaking for the Chief: Okyeame and the Politics of Akan Royal Oratory*. Bloomington: Indiana University Press.

Zadeh, L. A. 1965. Fuzzy Sets. *Information and Control*, 8: 338-53.

1971. Quantitative Fuzzy Semantics. *Information Sciences*, 3: 159-76.

الفهرس

ـ أ ـ

- س -

- ش -

- ص -

- ع -

- غ -

ـ ل ـ

ـ م ـ

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -